الناشر المؤسسة المصرية العامة للترجمة والطباعة والنشر

طريق البشر



تأليف
صمويل بطلر

ترجمة : فؤاد اندراوس
مراجعة : مصطفى حبيب

طريق البشر

تأليف صموئيل بطلر
ترجمة فؤاد أندراوس
مراجعة مصطفى حبيب

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مقدمة

« طريق البشر » : هى القصة الوحيدة التى كتبها صموئيل بطلر ؛ فكتاباه : « ايريهون » * و « عودة لايريهون » ** روايتان نقديتان ، وهما أقرب الى الخـــرافات منهما الى القصص برغم ما فيهما من طرافة قصصية ممتازة . وبطلر فى ميدان القصة هاو شأنه فى جميع ميادين الفكر والفن الكثيرة التى ارتادها — كالتطور ، أو الفلسفة أو اللاهوت ، أو البحث فى آثار شكسبير أو هومر ، أو الرسم أو الموسيقى . كان يكتب لأنه يحب الكتابة ، وهو والمؤلف المحترف على طرفى نقيض . وقد قال مرة عن كتبه : « اننى لا أصنعها أبدا ، انما هى تنمو . فهى تتقبل علىّ ملحة فى أن أكتبها .. ولولا أننى أحببت موضوعاتها لحرنت ، وما كان لشىء أن يحملنى عـــلى كتابتها اطلاقا ، أما وقد أحببت هذه الموضوعات فعلا ، وأما وقد جاءت الكتب قائلة انها تريدنى أن أكتبها ، فقد تململت قليلا ثم كتبتها » . لقد كان بطلر أبعـــد المؤلفين عن الاحتراف ، حتى ان جميع كتبه التى نشرت فى حياته — باستثناء آخرها وهو « عودة لايريهون » — نشرت على نفقته الخاصة ، وخسر فيها كلها عدا كتابه الأول « ايريهون » .

على أن هذه الكتب التى ألفها صاحبها ارضاء لنفسه ، والتى أخفقت فى العثور على ناشر لها فى جيله ، عمّرت الى يومنا هذا ، فى حين ماتت مئات غـــيرها من الكتب الناجحة المعاصرة لكتبه ، والتى عالجت نواحى الأدب التى عالجها بطلر ؛ ذلك أنه كان متقدما على عصره . وآية ذلك أن

---

* Erewhon ** Erewhon Revisited

الأفكار الاجتماعية والبسيكولوجية التى تتضمنها « ايريهون » — المؤلفة عام ١٨٧٢ — لا تزال تلقى قبولا متجددا ، ونظرية التطور الهادف الخلاق — لا « الانتخاب الطبيعي » الذى يخبط خبط عشواء — تطوّر نهر الحياة الذى لا ينتهى ، من الخلية الأولى الى الانسان — تطوّر الحياة جميعها بوصفها كلاّ ، تطورا تحدوه على الدوام ذاكرة لاشعورية يكمن فيها دافع التغير — هذه النظرية العظيمة التى عرضها فى كثير من التفاصيل الفنية والحجج اللاذعة فى سلسلة من المؤلفات العلمية الفلسفية تبدأ بكتاب « الحياة والعادة » وتنتهى بكتابه « الحظ أم الحيلة ؟ » ، لم تكن سبقا واضحا لنظرية شو فى « دفعة الحياة » و « الحيوية » فحسب ، بل انها تطوى فى ثناياها شيئا من النظرة الفلسفية التى يدين بها أحدث العلماء .

ولقد وضع بطلر معيارا جديدا للقصة ، كما وضع قيما اجتماعية وفلسفية جديدة . فقصته « طريق البشر » نقطة تحوّل واضحة المعالم فى القصة الانجليزية ، ربما لأن بطلر لم يكن هو نفسه من المدمنين لقراءة القصص ، فهى تختلف من نواح عدة عن جميع ما سبقها من القصص تقريبا : وأول هذه النواحى أن المؤلف يتغلغل الى باطن شخوصه ، ويفسر دوافعهم الخفية ، ويميط اللثام عن تأثير أسلافهم وتأثير تربيتهم فيهم ؛ وثانيها أنه يظهر زيف الأفكار والقيم السنيّة حيث يراها زائفة ؛ وثالثها أن القصة اتهام موجه للحياة العائلية ، تلك الحياة التى كان أى نقد لها مهما يكن معتدلا يعدّ فى جيل بطلر خسة أى خسة ، ان خطر اطلاقا ببال ناقد . لا بل ان أكثرنا اليوم عصرية فى التفكير قد يتململ حين يصادف لأول مرة — كما وصف برنارد شو القصة معابثا — « ذلك القتل الطويل المتصل الذى أوقعه بطلر بأبيه وأمه » ؛ ولكن بطلر يقوم بهذه المهمة فى اتتان تام ، مستعينا بالنكتة الذكية والبرهان المقنع ، بحيث يصبح هجومه هذا ، ونحن نقرؤه ، جزءا من صميم التقليد المتغلغل فينا .

والقصة — كما يعرف الجميع اليوم — سيرة لمؤلفها . لقد « ألحّت » طريق البشر على بطلر فى أن يكتبها لأنه اصطدم بأبويه منذ طفولته ، ولقى منهما من العنت ما لقي ارنست پوتنفكس فى هذا الكتاب ؛ ولأن بطلر أدرك الدور الذى تلعبه الوراثة والضرورة البيولوجية فى صراع أحس أنه لا محالة صراع أبدى بين الأجيال المتعاقبة فى الأسرة . فها هنا موضوع يستهويه ، وموضوع للجدل واضح الأصالة شامل الدلالة يمكن حكايته فى قصة تروى حالته الخاصة .

ولد بطلر عام ١٨٣٥ ، وكذلك ولد ارنست فى هذه القصة ؛ وكلاهما ابن قسيس ؛ وبيت قسيس « لانجر » الذى ولد فيه بطلر ونشأ صبيا هو بعينه بيت قسيس باترزبى فى القصة . فأهم شخوص القصة يستمدون أصولهم من ناس واقعيين عرفهم بطلر فى حياته ؛ ولكن ليست كل أحداث القصة مبنية على وقائع فعلية ، لأن بطلر كان يخترع الأحداث كما ينبغى كلما اقتضته الضرورة ليخدم بها موضوعه .

بدأ بطلر قصته عام ١٨٧٣ ، وكان يعكف عليها تارة وينقطع تارة أخرى حتى عام ١٨٨٥ — وقد ظلت صديقته « مس سفدج » تطلب اليه أن يؤلف قصة وألحت عليه عاما أو عامين قبل سنة ١٨٧٣ — وذلك عقب نشر « ايريهون » — ، ولعل ارضاءها كان من الأسباب التى دفعته الى كتابة يومياته الخيالية اللذيذة التى سماها « يوميات المؤلف ، چون پكارد أوين » * ، والتى سبقت كتابه « الميناء الأمين » ** (١٨٧٣) . على أنها مضت تلح فى طلب قصة ، فلما عثر فى النهاية على موضوعه بدأ يكتبها ، وكان يبعث الى مس سفدج بفصولها حال كتابتها ، وقد عاونته هذه المرأة

* Memoir of the Author, John Pickard Owen

** The Fair Haven

الفذة أى معاونة ، تارة بالتشجيع وتارة بالنقد والنصيحة ، كما يتضح لنا من خطاباتها التى نشرها « هنرى فستنج جونز » فى كتـابه « يوميات بطلر » . ونستطيع أن نحكم على شدة ربط بطلر بينها وبين قصته اذا عرفنا أنه كف عن كتابتها حين ماتت . كذلك نستطيع أن نتبينها هى فى القصة ، فخلق العمة أليثيا — عمة ارنست پونتفكس — وذكاؤها النيّر هما خلقها وذكاؤها ؛ ولكن القصة خلعت الكمال على صفاتها الجسمية ، لأن مس سفدج لم توهب شيئا من جمال أليثيا ورقتها ، ولابد أن نفترض أنها لم تتبين قط أنها المثال الذى نسج المؤلف على منواله شخصية أليثيا .

أما بطلر فتمثله فى القصة شخصيتان : شخصية « ادورد أوڤرتن » راوى القصة الذى نلقاه فى مستهلها كهلا ؛ وشخصية البطل « ارنست پونتفكس » الذى يستغرق القصة من مولده الى كهولته . وأوڤرتن صديق قديم لأسرة پونتفكس ، وفى استطاعته أن يستعيد ذكرى أسلاف ارنست ، حتى جـد أبيه ، النجار الشيخ جـون پونتفكس ، الذى يفتتح القصة بذكريات لذيذة عنه . ويقابل جون هذا فى شجرة أسرة بطلر جدّ أبيه ، وليم بطلر ، الذى كان صاحب متجر ، ولم يجد عليه الحظ — كما لم يجد على جون پونتفكس — بمرتبة رفيعة فى الحياة . وأهم وجوه الشبه بينهما أن لكل منهما ولدا أصاب فى الحياة نجاحا برغم ظروفه المتواضعة . هذا الولد فى القصة هو چورج پونتفكس ناشر الكتب الدينية ، الذى يقابل جد بطلر ، الدكتور صموئيل بطلر ، وهو ناظر مدرسة شروزبرى الشهير الذى أصبح فيما بعد أسقفا للتشفيلد . يقول فستنج جونز فى اليوميات «لا ريب فى أن جورج پونتفكس ليس صورة للدكتور بطلر ؛ انما هو صورة للفكرة التى كوّنها بطلر عن جدّه من أخبار الكاتن بطلر (والد صموئيل) عنه .

على أنه يشبه الأسقف فى أنه كان رجلا عرف كيف يسلك فى الحياة ، وجمع ثروة لا يستهان بها ؛ وكان هذا ضروريا لخطة الكتاب » .

ويلى جد ارنست فى شجرة الأسرة ، ويفوقه أهمية لخطة الكتاب ، والد ارنست القس ثيوبولد پونتفكس ، الذى أفرغ عليه بطلر كل ازدراء الابن لأبيه . فتصنع ثيوبولد وتنطعه ، وميله للعبارات المحكمة ، وغروره المهنى والأبوى ، وأنانيته ، وتعلقه بالدنيويات ، وما جرى عليه من تبرير القسوة بالعطف ، وحديثه الأجوف — هذه الخصائص التى اتسم بها ثيوبولد ، هى وما عوض عنها عوضا ناقصا من محبة زوجه وخدمه وشعب كنيسته له — كل هذا سجله المؤلف من ملاحظاته لأبيه . وكراهية ارنست لأبيه — ككراهية بطلر لأبيه — علتها طغيان الأب وظلمه لولده : فمن ضرب وحبس فى الفراش وهو طفل عقابا له على نطقه « كم » بـ « تم » ؛ الى تهديد ووعيد بقطع راتبه عنه ، الى « تلويح بالحرمان من الميراث » على حد قول بطلر فى رسائله اليه شابا .ولم يشهر أحد بغطرسة الآباء بمثل ما اجترأ بطلر على التشهير بها فى « طريق البشر » ؛ ولكن لا يحسب القارىء أن كل دافعه لتأليف هذه القصة كان شفاء حقده الشخصى على أبيه ، والتعبير عن شكواه هو لا أكثر . صحيح أن حظ بطلر من المظالم كان موفورا — كمعاملة أبيه الجافية له فى طفولته ، وظلمه له وتصرفاته الخسيسة معه ابان مراهقته ورجولته ، بل غشه له حيث يتصل الأمر بالمال — وأن فى بطلر من الخبث وحب المعابثة ما يجعله يلتذ التشهير بأبيه ، ولكنه كان يعلم أن للموضوع أهمية أوسع وأشمل . يقول ارنست فى نهاية القصة (الفصل التاسع والسبعين) حيث يقرر أن يعهد بطفليه الى والدين حاضنين :

« سأكون قاسيا على ولدى قسوة جدى على أبى ، أو أبى

عليّ . فاذا كانا قد أخفقا فى جعل أبنائهما يحبونهما فلن أنجح أنا — وآنا أقول لنفسى اننى أحب أن أجعل طفلىّ يحبانتى ، ولكن هكذا كان أبى وجدى يقولان لنفسيهما أيضا . ان فى استطاعتى أن أطمئن الى أن طفلى لن يعرفا كم كانا يكرهاننى لو أن لهما بى صلة كبيرة ، ولكن هذا قصارى ما أستطيعه . واذا لم يكن بدّ من أن آدمر آمالهما ، فلأفعل هذا فى وقت معقول قبل أن يبلغا من العمر مبلغا يشعرهما بهذا .. ان المرء يتشاجر أولا مع أبيه حوالى ثلاثة أرباع العام قبل أن يولد . وعندها يصر على أن يقيم لنفسه مسكنا منفصلا ؛ فاذا تم الاتفاق على هـذا ، كلما كان الانفصال أتم على مدى الحياة كان ذلك خيرا لكليهما .. أريد أن أضع الطفلين حيث ينعمان بالصحة والسعادة ، وحيث لا يسلمان الى شقاء الآمال الكاذبة » .

كان بطلر يريد أن يحب أباه وأقرباءه . وقد أحبهم فعلا بوصفهم رموزا ، لأنهم كانوا أوثق الأقرباء به صلة ، وأقرب الحلقات اليه فى السلسلة الشاسعة التى تجعل الحياة كلها وحدة . والرغبة فى الموازنة بين هذه المحبة المثالية أو الطبيعية ، وبين ذلك البغض الذى يشعر به نحوهم بسبب أفكارهم ومعاملتهم اياه ، هذه الرغبة هى التى جعلت الموضوع لا يفتأ ماثلا فى ذهنه لا يبرحه ، وهى التى حفزته الى كتابه « طريق البشر » . وأحسب أن هذا الازدواج فى نظرته يفسّر التناقض البادى بين ما نشرته « مسز جارنت » فى كتابها « صموئيل بطلر وصلاته العائلية » من رسائل مشربة بالطاعة والمحبة لوالديه وشقيقتيه ، وبين ما نقرؤه له من نقد لاذع لهؤلاء الأشخاص أنفسهم فى « مفكراته » وفى « طريق البشر » وغيرهما من كتبه . ومذكرات بطلر الواردة عن أبيه تحت باب « الوالد والولد » فى كتاب « بطلريانا »

(الذى نشره ا . ت . بارتلميو عام ١٩٣٢) مثيرة مؤلمة : يقول : « ما أحبني قط ، وما أحببته قط ؛ ولست أستطيع أن أذكر منذ أيام طفولتى الأولى وقتا لم أكن أخشاه فيه أو أبغضه ، وكم من مرة كنت ألين له وأقول لنفسى انه على أى حال انسان طيب ، ولكن ما ان أفعل حتى يهاجمنى بصورة من الصور تثير فى نفسى المرارة نحوه من جديد .

« ولست أشك فى أننى جعلت نفسى شخصا بغيضا جدا ؛ ولا ريب فى أننى أتيت كثيرا من الأعمال الطائشة الخاطئة ؛ ولست واثقا على الاطلاق أن الذنب يقع عليه أكثر مما يقع علىّ ، ولكن أيّا كان المذنب منا ، فالحقيقة الثابتة هى أننى ظللت سنوات لا يمر بى يوم دون أن أرى فيه غير مرة الرجل الذى لا يتردد فى الوقوف ضدى ، والذى يريد أن يرى الجانب الخبيث أكثر من الجانب الطيب فى كل قول أو فعل يصدر عنى ..

« كان أبى ولا ريب ألد خصومى منذ طفولتى .. ومع ذلك فلست أشك لحظة واحدة فى حسن نيته من البداية الى النهاية » .

ثم ينتقل فى هذه السلسلة من مذكراته الى المشكلة الأعم ، فيجد هذا الصدع بعينه فى غير أسرته :

« كلما أتيحت لى الفرصة لكشف الحقائق المستورة وجدت هـوة عميقة تفصل بين الأجيال المتعاقبة . والعداء الفطرى بين جيل وجيل أعم وأشمل من أن يفسّر بأنه وليد تنافر شاذ بينهما ، كذلك لا يمكن تعليله بوجود نقص أو عيب خطير فى الجيل القديم أو الجديد ؛ والشباب فى جيل يصبحون الشيوخ فى الجيل التالى ، وكلاهما يبدو على الدوام انسانا طيبا لا غبار عليه فى نظر جميع الناس باستثناء أخص أقربائه اليه .

« والتعليل الأصح هو أن النفور العام بين الآباء والأبناء جزء من ذلك

النفور السائد فى الطبيعة كلها بين نوع ناشىء وبين الأفراد غير المتطورين فى السلالة التى نشأ منها .

« وأول ما يفعله النوع الجديد هو أن يبيد سلفه ؛ والنوع القديم يعرف هذا ، فيبذل قصاراه ليحول دون ظهور النوع الجديد . وكل جيل هو نوع جديد الى حد ما — ومن ثم ينظر اليه الجيل الأقدم نظرات الريبة . وآية هذا أن أقل أفراد الشباب تطورا وتكيفا — وأقرب ما يكونون شبها بوالديهم — ينسجمون معهم أتم انسجام » .

أما بطلر فآخر من يقال عنه انه من أقل أبناء جيله « تكيفا » . لقد كان « الطفل المشاغب » فى ميادين اللاهوت والعلم والأدب . وكان كل كتاب نشره سهما يفوّق الى صدر أبيه المتعلق بأهداب العرف والتقاليد ، ذلك الأب الذى بلغ به الأمر أن يعزو موت أم بطلر الى الصدمة التى أصابتها حين علمت أن ولدها هو مؤلف « ايريهون » . لقد وجد الكاهن بطلر فى نفسه القدرة على أن يسف الى هذا الدرك ليؤذى شعور ولده ، فاذا عرفنا قصة حياة بطلر الخاصة لم يدهشنا أن نقرأ فى « طريق البشر » قول المؤلف « ان الشخصين اللذين كان ارنست يعدهما أخطر أعدائه فى العالم كله هما أبوه وأمه » .

أما كرستينا ، زوجة ثيوبولد ، فقد صاغها المؤلف على غرار أم بطلر تماما . فأحلام اليقظة التى كانت ترى فيها نفسها وأفراد أسرتها فى أبهى الأماكن ، يصاهرون النبلاء ، أو يتزعمون نهضة دينية ، ثم يصعدون الى السماء على ملأ من الناس فى ختام المسرحية : هذا كله — فيما روى — منقول عن أحلام مسز بطلر نفسها ، وان تعذر القول كيف عرف ولدها شطحات خيالها الخفية هذه . ورسالتها المشهورة المعنونة « الى ولدى العزيزين » (الواردة فى الفصل الخامس والعشرين من القصة) ، والتى

كتبتها كرستينا قبيل ولادتها مدفوعة باحساس خفى بأنها لن تعيش بعد الولادة ، وطلبت على غلافها أن تسلّم لولديها متى بلغ ارنست السادسة عشرة ، هذه الرسالة منقولة بحذافيرها عن رسالة كتبتها أم بطلر لولديها قبل أن تلد ابنتها الصغرى مارى .

وليست رسالة الأم هى المثل الوحيد على استعانة المؤلف برسائل حقيقية كتبها والدا بطلر ، فالرسائل المتبادلة بين ثيوبولد وأبيه جورج پوتنفكس ، والواردة فى الفصل الثامن من القصة ، منقولة عن الرسائل التى تبادلها بطلر نفسه مع أبيه يوم رفض أن يصبح قسيساً . يقول فستنج جونز فى الجزء الأول من « اليوميات » (ص ٦١) « نقرأ فى طريق البشر أن ارنست لا يرفض أن يرسم قسيسا ؛ وذلك لأن المؤلف أراده أن يرسم قبل أن يكتشف أنه غير مؤمن ، على أنه بدا لبطلر أن من المؤسف أن تضيع كل هذه الرسائل سدى ؛ لذلك نراه يصور ثيوبولد عنيدا جموحا ليخدم هذا الغرض ، جعله هو الذى يقاوم الرسامة لا ارنست ، وذلك لكى يكتب جورج پوتنفكس الرسائل التى كتبها فى الحقيقة الكانن بطلر ، أو أقرب ما تسمح به الظروف المتغيرة من هذه الرسائل . ولم يكن ثيوبولد ممن يحسنون المقاومة أو العناد ؛ ولكن خيّل لبطلر أن هذا الذى دفعه اليه لن يبدو متنافرا مع خلقه ما دام قد أتاه فى شبابه ، بل سيؤخذ على أنه معصية من معاصى الشباب .. والرسائل فى القصة أقل وأقصر منها فى الواقع ، من جهة لأن ثيوبولد كان من السهل اخضاعه ، ومن جهة أخرى لأن هذا الحادث الذى يتصل بثيوبولد فقط دون ارنست ، لم يكن ذا أهمية قصوى » .

ولنعد الى كرستينا فنقول انه ما من شك فى أن كراهية بطلر لأمه لم تكن نشيطة قوية ككراهيته لأبيه ، ففى صورة كرستينا تفريج لطيف الى

حد ما بعد صورة زوجها التى رسمها الكاتب وسما أكثر صرامة وجدا : كان ارنست يرى فى أمه أولا جاسوسا لأبيه ، والى حد ما أداة يسخرها للايقاع به ، وقد ظهر هذا فى « أحاديث الأريكة » التى تدور بينهما ، حيث ترى الأم تحصر ولدها فى ركن من الأريكة فتقطع عليه سبيل الهروب ، ثم تتوسل بكلمات المحبة ، وبالتملق والرجاء ، وبوعود الكتمان ، لانتزاع اعترافات من ارنست تفضى بها بعد قليل لأبيه ، ويسمى بطلر خدعتها هذه « لعبة الثقة العائلية » .

وليس بين أفراد أسرة بطلر بعد أبويه من سجله فى قصته غير شقيقتيه هارييت ومارى ، وهما تصبحان فى القصة شخصية واحدة هى تشارلت شقيقة ارنست . ويرسمها الكاتب فتاة سليطة فيها أنانية وليست فى حقيقتها مولعة بوالديها ، ولكنها تتعمد التدقيق والجرى مع العرف فى معاملتها لهما ، مملوءة بروح الحرب النكدة التى تشنها على ارنست بسبب عناده . والواقع أن بطلر لم يحب شقيقتيه قط ، كان يرسل لهما بطاقات من الأماكن التى يزورها خلال حياته ، ولكنه لم يستطع أن يفعل أكثر من هذا . وكان من أهم بواعث قلقه على فراش موته أنه يريد منعهما من زيارته . وكان يعلم أنهما لا تثقان به ولا بأفكاره ، وكتاب مسز ر . س . جارنت المسمى « صموئيل بطلر وصلاته العائلية » الذى نشر فى وقت متأخر نسبيا يطالعنا بهذا الكشف عما جرّه تشكك هارييت فى أفكار شقيقها بطلر فى أوائل مرضه الذى انتهى بموته ، يوم كانت الفرصة متاحة لها لتقدّم له يد المعونة .

تقول مسز جارنت « لما فوجىء بطلر بالمرض وهـو خـارج وطنه وأرسل خادمه الوفى ألفريد الى نابلى ليمرضه ويعود به الى وطنه ، كان اليخت الذى يملكه ابن أخ ، (أو ابن أخت) لزوج هارييت ، راسيا على

ساحل البحر ، فكان يصلح لينقله فى رحلة لطيفة سهلة . ولكن هارييت لم تجرؤ على أن تعرض شابا للتأثير المفسد الذى يلوثه به أخوها الملحد . بل لقد بلغ رعبها حدا منعها من أن تخبر هذا الفتى بمرض بطلر ، ولم يسمع الا بعد زمن طويل بأنه كان من الممكن أن يكون ذا فائدة فى هـذا الظرف » .

واذا استثنينا أسرة بطلر لم نجد فى القصة غير شخصيات قليلة رسمت من أشخاص معروفين فى واقع الحياة . وقد عرف القارىء أهم هؤلاء — وهى مس سفدج التى رسم منها العمة أليثيا ، وشخصية أخرى هى شخصية مسز چپ صاحبة البيت الذى يسكنه ارنست فى الحى اللندنى الفقير ، فقد نقلها عن امرأة منحلة ثرثارة ولكنها سعيدة جدا ، تمت بقرابة بعيدة لبطلر ، واسمها الحقيقى مسز « بوس » . وكان بطلر يزور هذه القريبة ويجد حديث مسز بوس « الصريح » كما كانت تسميه مسليا جدا ، ولكنه كان يعجب بها لأنها متحررة مرحة على طريقتها ، لا تعانى من أى قيود أو عقد . وهكذا دخلت القصة — وعدلت بالطبع مراعاة لأصول اللياقة . أما « الدكتور سكنر ناظر رفبرو الشهير » وهو ناظر ارنست ، فنسخة منقولة عن ناظر بطلر فى مدرسة شروزبرى ، وهو الدكتور كندى .. وأما تاونلى ، ذلك الفتى الغنى العصرى السعيد الجرىء (الذى ملك الجمال ، والمال ، والشخصية القوية الآمرة فى غير ايذاء) فيقال انه منقول عن تشارلز پين پولى ، وهو رجل لقيه بطلر أول مرة فى نيوزيلندة فاستهوته شخصيته . ويذكر قراء « اليوميات » أن پولى ابتز منه مبلغا كبيرا من المال خلال سنوات كثيرة ، خصوصا فى أوقات لم يكن لبطلر فيها من الموارد الا ما يكفى بالجهد حاجاته المتواضعة . (ولم يكن لهذا من سبب سوى كرم بطلر المفرط وشعوره الخطأ بالواجب ، وغش پولى واحتياله) وهذا

الجزء من خلق پولى لا يتفق وصورة تاونلى . أما پراير الواعظ الخبيث فى القصة ، الذى يخدع ارنست الحدث يوم كان يسكن بحى الفقراء فيعهد اليه بماله ليضارب به ثم لا يرد منه شيئا قط — پراير هذا قد يكون هو پولى ، أو لعل معاملته لارنست هى معاملة پولى لبطلر ، وفقد مبلغ كبير من المال من جراء المضاربة تجربة وقعت لبطلر كما وقعت لارنست ، ولكن الفاعل — وهو برىء فى الحادثة الحقيقية — لم يكن پولى ، ولكنه صديق آخر من أصدقاء بطلر يدعى تشارلز هور .

وكان بطلر ينقل عن الأشخاص الحقيقيين كلما كانوا أجدى فى تصوير حالته . وتاونلى من هذه الناحية شخصية هامة فى القصة لأنه يمثل نتيجة تربية هى النقيض تماما من تربية ارنست أو بطلر ، « ان ارنست نال حريته بثمن غال ، ولكن تاونلى ولد حرا » . فتاونلى هو الرجل الصحيح الجسم ، الواثق بنفسه ، الناشىء عن طفولة سعيدة طليقة ؛ وارنست هو الرجل الضعيف البدن ، القلق على ماله ، المتردد فى أمره ، الذى تحفل طفولته بالكبت والشقاء . ولا يتغلب ارنست على عقدة نقصه الا حين يبلغ منتصف العمر ، ويدرك رجولة الجسد والعقل التى حرمتها اياه تربيته ، فاذا أصبح فى النهاية رجلا وجدنا أن أوفرتن — أعنى بطلر — يقول حين يودع ارنست وهو مسافر لزيارة بيت أبويه (الفصل الثانى والثمانين) « فسرّنى أن أرى كيف أحسن خياطة الباسه . فما كان فى وسع تاونلى نفسه أن يبدو أكثر أناقة .. فان طلعته شاع فيها جو من خلو البال والبشاشة ، كأنه امرؤ تسير أموره كلها على خير ما يرام ، مما كان خليقا بأن يضفى الجمال على أى انسان حظه منه أقل كثيرا من حظ ارنست . وكنت فخورا مغتبطا به . وقلت لنفسى « أنا واثق أنه مهما فعل ، فلن يتزوج ثانية طوال حياته » .

وبطلر الخبيث ، الذى يفوّق بهذه الملاحظة سهما الى الزواج ، جاد

فى مقصده رغم هذا ، لأنه كان يكره ولا ريب فكرة الحياة الزوجية . لقد عاش ومات أعزب ، اذ قضى أكثر عمره فى مسكنه بـ « كليفورد ان » فى «فليتستريت» تخدمه فيه الخادمات الجوالات وتابعه الوفى «ألفريد كاثى» ، الذى يبدو فى « اليوميات » فى صــورة رائعة ، وكان خوف بطلر من الزواج متفقا وكراهيته للحياة العائلية بوجه عام . فلقد رأى بالتجربة التى شعر أنها تجربة أكثر الناس ، أن الزواج يعرض استقلال الفرد للخطر ، وشر من هذا أنه كثيرا ما يجر الظلم فى أذياله — ظلم الوالد للولد ، والزوج للزوجة ، أو العكس !

يقول ارنست بعد أن نضج « يخيل الى أن الأسرة بقية متخلفة من المبدأ الذى تراه مجسما فى الحيوان « المجمع » تجسيما منطقيا أكثر منه فى الانسان — والحيوان المجمع صورة من صور الحيــاة اتضح أنها متعارضة مع الرقى الكبير ، ولو أن الأمر بيدى لصنعت بالأسرة فى النوع الانسانى ماصنعته الطبيعة بالحيوان المجمع ، فقصرتها على الأجناس الدنيا والأقل تقدما ، وما من شك فى أنه ليس فى الطبيعة نفسها أى حب فطرى لنظام الأسرة . استعرض شتى صور الحياة تجد هذا النظام لا يتمثل الا فى أقلية ضئيلة ضآلة مضحكة ، فالأسماك لا تعرفه وهى تعيش مع بعضها البعض فى وئام تام ، أما النمل والنحل ، التى تفوق الانسان أعدادا بما لا يقاس ، فهى تلسع آباءها حتى تقتلها لأن هذا أمر لابد منه ، وهى تميل بطبيعتها الى تقطيع تسعة أعشار النسل الموكول اليها وتشويهه تشويها فظيعا ، ومع ذلك فأين الجماعات التى تلقى احتراما أعم وأشمل من جماعات النمل والنحل ؟ ثم خذ مثل الوقوق « الكوكو » — أهناك طائر نحبه أكثر منه ؟ » .

ومن الخطأ أن يظن قارىء مما سلف أن « طريق البشر » ليست

الا أداة سخرّها المؤلف لأفكاره المحطّمة للأصنام . ذلك أن موضوعها الخلقى ، والسخرية التى تفيض بها ، منسوجان معا بدقة ليؤلفا رواية رائعة البناء . فالأشخاص يركّبها المؤلف فى تفصيل كثير ، وبلمسات غاية فى المهارة والملاحظات الواردة فى الكتاب عن الحياة العائلية تجعل منه سجلا فذا للعادات والأحوال فى زمان القصة ومكانها . والكتاب اذا نظرت اليه من ناحية التشويق الروائى الخالص وجدته يأسر القارىء ، فهنا قصة حياة انسان ولد قرب ختام النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فوجد أنه ان أراد أن يستمتع بأسباب الراحة المادية التى يتيحها له مركز والديه فلابد له أولا من الخضوع للمتاعب الروحية والتغلب عليها ، ولكنه يأبى الخضوع ، والنتيجة هى المتاعب المادية . ويصبح نصيبه العصيان والافتضاح ، والتمرد والعقاب ، ويلعب هذا كله دوره فى صقله ليصبح رجلا كاملا . ولا تقل الأحداث الصغيرة اليومية أهمية فى تأثيرها عن الأحداث الكبيرة ، وعلى سبيل المثال نذكر منحه ساعته للخادمة الن بعد أن لفظها بيت أبيه (وهى حبلى) والنتائج التى ترتبت على هذه المنحة . ذلك أن الأب يعثر على الساعة فى متجر بالمدينة المجاورة حيث ذهب ليشترى للصبى ساعة أخرى بدل تلك التى زعم أنه فقدها فى حادث ، وقد عرض المؤلف افتضاح جريمة الن وجريمة ارنست ، والعقاب الذى يحل بهما ، فى مشاهد ومقابلات تعدّ من أبرز ما يحويه القصص — كالمشهد بين مستر ومسز پونتفكس والن ؛ وبين ارنست والن (وبينهما صداقة خفية ولكنها بريئة) ؛ وبين ارنست وأمه (حديث الأريكة فى الفصل الأربعين) ؛ وأخيرا بين ارنست وأبيه — وجون السائق يدافع عن ارنست (مدفوعا ولا ريب بوخز الضمير فى أمر الن) مخافة أن يضربه أبوه ، ثم يطرد جزاء دفاعه .

ثم وصف ارنست فى كمبردج ، وارنست فى مسكنه بالحى الفقير — وبعد ذلك ينحدر ارنست بسلسلة من الكوارث التى ما كانت لتحل به لو أنه نشىء تنشئة معقولة أكثر مما أتيح له ، فهو يخسر ماله نتيجة لافراطه فى الثقة بالناس . وهو يندفع فجأة فى تهور ليحصل على التجربة الجنسية نتيجة للكبت غير الطبيعى الذى كبت به أفكاره الجنسية ؛ ويزج به فى السجن لأنه يخطىء فى اختيار الفتاة بسبب جهله ، وفى السجن توافيه اليقظة الحقة ، فتبلغ به رغبة القطيعة التامة بينه وبين والديه مبلغ الشهوة الطاغية : « وراح يتأمل فى السعادة التى كان ينعم بها ملكى صادق الذى ولد يتيما ، بلا أب ، بلا أم ، بلا نسب » .

فاذا أفرج عنه لقيه أوفرتن وعنى به حتى يستطيع العثور على عمل (وكان أوفرتن وصيا عهدت اليه عمته أليثيا عند وفاتها ببضعة آلاف من الجنيهات أوصت بها لارنست دون أن يعلم عن الأمر شيئا ، ولم تصرح له بتسلمها الا اذا بلغ الثامنة والعشرين) . وفى هذه المرحلة يلقى ارنست الن الخادمة السابقة فى الشارع مصادفة ، فيتزوجها . ولعل ما يلى ذلك من تجارب هو أمر ما جازه ارنست ، ولكنها تجارب لم تخل من لذة ، ذلك أن الن البسيطة الجميلة الوجه والجسد ، تشبع ولا ريب ذوقه فى النساء .

ويدير الزوجان فى النهاية متجرا للثياب القديمة ، وينجبان طفلين ، ثم تنحرف الن (أو على الأصح تنتكس) الى الافراط فى الخمر فتصاب بهذيان السكر . ويخدع ارنست فى أمرها طويلا فيظنها مريضة ولا يعرف الحياة الحقيقية التى تحياها ، ولكنه يرى الحقيقة آخر الأمر فينفصل عنها بعد أن يكتشف أن لها زوجا سابقا على قيد الحياة — هو السائق جون ، ويأتيه الخلاص منذ الآن بعد ادراكه الرجولة والسلام والهدوء بفضل التجربة القاسية ، واذ يرث آخر الأمر ثروة عمته أليثيا — الأمر الذى

أدهشه دهشة مفعمة بالبهجة ، تتركه مكتملا فى الجسم والعقل — فهو فى مسلكه « تاونلى » حق ، وفى العمل الأدبى الذى يعكف عليه « بطلرى » لا غش فيه ! أما طفلاه فيتركهما بين أبوين حاضنين ، وهو سعيد لأنه أعفاهما من ألم الحياة مع أب وأم .

وبطلر نفسه لم يزج به فى السجن قط ، ولم يتزوج قط ، ولم يكن له أبناء . ولعله كان يحب أن يكون أبا بشرط أن يستطيع العثور على أم صالحة لبنيه ، وبشرط أن يستطيع تجنب الحياة العائلية . والى القارىء فقرة عنوانها « ولدى » وردت فى « مفكرات » بطلر :

« لقد طالما أخبرت ولدى أنه يجب أن يبدأ بأن يعثر لى على زوجة تصبح أما له ، وترضيه وترضينى . ولكن هذه المسألة ليست الا صخرة من الصخور الكثيرة التى انزلقنا عليها الى الآن ، وما كان يمكن أن ينسجم كلانا معا ؛ فقد كنت أجد لزاما علىّ أن أحرمه من أن يرث مالى كله أو جله ، اما لأنه يضحك على هومر ، واما لأنه يأبى أن يضحك عليه ، واما لأنه يأتى الأمرين جميعا ، واما لأنه لا يأتى واحدا منهما ، ولكنى حارمه مافى ذلك ريب . وهكذا فرغت من هذا الأمر منذ أمد طويل،فأعرت الحاحه الكثير أذنا صماء ، وأصررت على ألا أنجبه اطلاقا ، ومع ذلك فان طيفه الضئيل يراودنى بين الحين والحين ، وهو وان علم أنه لا جدوى من ازعاجى بالالحاح أكثر مما ألح ، الا أنه يتطلع الىّ فى كثير من الشوق واللوم ، حتى لتحدثنى نفسى بالتراجع ، وبالمغامرة فى أمر أمه ، وبأن أطلب الى نفسى السماح بانجابه رغم كل شىء . ولكنى أحسبنى لائذا بالفرار لو قالت نفسى « نعم » . زد على ذلك أنه ربما كان فتاة » .

ويجد القارىء أمثلة طيبة من مثل بطلر الأعلى عن العلاقة بين الآباء والأبناء فى الفقرات الجميلة المؤثرة التى كتبها فى قصته « عودة الى

ايريهون » حيث يتحدث « هجنز » العائد مع حارس الغابة جورج وهو يعلم أنه ولده ، ولكنه لا يستطيع أن يكشف له عن ذاته مخافة التعرض للموت ، فعلى القارىء اذن أن يوازن بين بطلر الأكثر عطفا وانسانية ، والذى يكتب مذكرات عن ولد وهمى أو يخلع على مثله الأعلى « هجنز » العاطفية الأبوية العميقة ، وبين ذلك « الساطير » الذى يسخر فى غير هوادة بالآباء فى « طريق البشر » والذى يحطم فى عمد وفى بهجة واضحة أغلى وأعز معتقداتنا فى الحياة العائلية .

على أن بطلر الذى لم يحجم عن قلب الأفكار المتسمة بالرضا عن حياة الأسرة عامة ، لم يستطع رغم ذلك أن يحمل نفسه على جرح أعضاء أسرته الأحياء بنشر هذه القصة التى يستطيعون بسهولة أن يميزوا أنفسهم فيها ، ما دام أحدهم على قيد الحياة . وهكذا ظلت مخطوطته محبوسة حتى مات بطلر فى ١٨ يونيو ١٩٠٢ ، وانتقل الحق فيها طبقا لوصية بطلر ، هى وكتبه الأخرى ، الى المنفذ لوصيته فيما يتصل بكتبه وهو ر. ا. ستريتفيلد ، الموظف بقاعة المطالعة فى المتحف البريطانى ، والمتحمس لموسيقى هاندل — وهما رابطتان عظيمتان جمعتا بينه وبين بطلر . (وقد كتب بطلر الجزء الأكبر من « طريق البشر » فى قاعة المطالعة بالمتحف ، وما زالت مخطوطة القصة فى حوزة المتحف البريطانى بعد أن أهداها اياه هنرى فستنجچونز) وقد يبدو غريبا اختيار بطلر لستريتفيلد وتفضيله اياه على صديقه الحميم فستنج چونز ، ولكن بطلر رأى أن ستريتفيلد هو أكثر الرجلين دراية بدنيا الأعمال وأقدرهما على نشر كتبه بنجاح ؛ « كان يزكى ستريتفيلد فى نظر بطلر أنه أقنع فعلا دار نشر بأن تنشر كتبا لبطلر دون أن يضطر الى اتفاق أى مبلغ من المال عليها — وهو شىء أخفق بطلر فى أن يفعله » (انظر اليوميات) . ومع أن فستنج چونز هــو الذى لعب الدور الأكبر

فى أن يكسب لعمل بطلر وأفكاره ما يتمتعان به اليوم من تقدير (بتقديمه لكتاب « المفكرات » وبكتابته « اليوميات » ، وبكثير من الوسائل الأخرى) ، فمن الانصاف أن تقول ان ايمان بطلر بستريتفيلد كان فى محله لأن ستريتفيلد قام بنشر جديد منظم لآثار بطلر الأولى نقلا عن المطبوعات القديمة وهو نشر أسهم بنصيب كبير فى اقبال جمهور القراء على بطلر .

ولا ريب فى أن وصاية ستريتفيلد على آثار بطلر هى التى أخرجت « طريق البشر » الى النور بعد عام من وفاة المؤلف . ولقد قال فستنج چونز نفسه انه لو أعطى حق النشر لما استطاع أن ينشر القصة ما دامت شقيقتا بطلر على قيد الحياة ؛ أما ستريتفيلد فلم يكن يعرف آقرباء بطلر ، وكانت القصة عنده رواية لا حقيقة ، ولم تخامره أى وساوس فى أمر نشرها بأسرع ما يستطيع . وفضلا عن ذلك كان رأيه أن بطلر لم يرده أن يعطل النشر ، وقد جاء فى مقدمته للطبعة الأولى :

« وقد أفهمنى فى جلاء وهو على فراش موته أنه يرغب فى أن تنشر بصورتها الراهنة . على أننى اكتشفت أن مخطوطتى الفصلين الرابع والخامس قد اختفتا ، ولكننى استطعت ، بالرجوع الى مختلف مذكراته وصوره القلمية المتخلفة بين أوراقه ومطابقتها بعضها على بعض ، أن أملأ ثغرة الفصلين الناقصين بصورة أعتقد أنها لا تختلف اختلافا جوهريا عن الصورة التى صاغهما فيها فى النهاية » .

ومن النتائج التى ترتبت على قيام ستريتيفلد بنشر القصة أنه غيّر عنوانها ، فقد كان العنوان الذى وضعه لها بطلر هو « ارنست پونتفكس ، أو طريق البشر ، قصة عن الحياة البيتية الانجليزية » . ولعل ستريتفيلد كان محقا فى اكتفائه بالعنوان الفرعى من عنوانى بطلر ، وذلك بسبب ما أبداه العصر من ردّ فعل ضد القصص التى يوضع اسم البطل عنوانا لها ؛

ولكن ما زال صحيحا أن ارنست پوتنفكس هو العنوان الأصدق ، لأن بطلر رمز باسم پوتنفكس الى طبيعة النظام العائلى الذى يروى قصته ، كما قال كاتب مقال بطلر فى « تاريخ كمبردج للأدب الانجليزى » .

ولقد عاشت شقيقتا بطلر سنين طويلة بعد ظهور القصة ، ومن الواضح أنهما قرأتاها ، وذلك على الرغم من التوجس من أثرها عليهما اذا نشرت فى حياتهما . ويحتوى كتاب مسز جارنت « صموئيل بطلر وعلاقاته العائلية » على قصة عن السيدتين العجوزتين واحداهما تقسم للأخرى أنها لن تنظر الى الكتاب ، ثم تقرؤه كل منهما خفية عن أختها .

ومع أن « طريق البشر » كتبت فى الفترة الواقعة بين عامى ١٨٧٢ ، ١٨٨٤ فانها كانت حين نشرت أول مرة فى ١٩٠٣ لا تزال متقدمة على عصرها تقدما عاق نجاحها . وظلت الطبعة الأولى وعددها ١٥٠٠ نسخة أربعة أعوام ، ثم كان الاقبال ضئيلا فترك الكتاب لتنفد طبعته . على أنه ظهر الطلب عليه من جديد فى عام ١٩٠٨ ، وذلك ولا ريب عقب اعتراف شو الناصع فى مقدمته لمسرحيته « الميجر باربرا » بدينه لكتاب بطلر ، على أية حال فقد طبع من جديد وأعيد نشره فى ١٩٠٨ ، ثم طبع مرتين فى ١٩١٠ ، ومن ذلك التاريخ أعيد طبعه مرات ومرات .

ولكن بطلر لم يتبوأ مكانه الصحيح الا بعد الحرب العالمية الأولى . فالشعور الذى تملك الناس بعد الحرب — بانقشاع الوهم عن عيونهم ، وعدم التسليم الأعمى بالتعاليم والمعلمين المسلّم بهم تسليما عاليا واسع النطاق — هذا الشعور وجد بؤرة ممتازة فى كتب بطلر لا سيما فى « طريق البشر » ، بما فيه من دفاع ملازم عن حقوق الجيل الجديد ضد حقوق الجيل القديم . زد على ذلك أن أسلوب بطلر وطريقته كانا منسجمين مع أدب ما بعد الحرب ، فاخلاصه الواضح ، وصراحته ، وفكاهته الذكية ،

ورشاقته ، وكراهيته للحديث الأجوف : هذه الصفات التى كانت النقيض الواضح لتفاهات وأكاذيب أدب الدعاية أيام الحرب ، جعلته كاتب الساعة بعد أن انقضى على موته عشرون عاما .

كان يكتب ما يحسه ؛ ومع حبه للألفاظ بوصفه أديبا ، فقد كان عليه أن يسخّر حبه للأدب فيما يجدى من الناحية العملية . فلن تجد فيه تلك الصنعة اللفظية التى تلحظها عند كتاب تسعينات القرن الماضى ، وان كان هذا العقد أنشط فترات انتاجه . يقول بطلر « انّ الرجل قد يبذل ، وينبغى له أن يبذل ، جهدا كبيرا فى سبيل الكتابة بوضوح وايجاز وجرس حسن ؛ وقد يكتب العبارة ثلاث مرات أو أربع — ولكن تجاوز هذا أسوأ من ألاّ يعيد الكتابة اطلاقا ؛ وقد يجهد كثيرا ليستوثق من أنه لا يكرر نفسه ، وليرتب مادته بطريقة تيسر على القارىء فهمها على خير وجه ، وليتخفف من الحشو الزائد ، بل ليحذف المادة غير المتصلة بموضوعه ؛ ولكنه فى كل حالة من هذه الحالات لا يفكر فى أسلوبه هو بل فى راحة قرائه . ولكن رجالا كنيومان أو روبرت لويس ستيفنسن يبدو لى أنهم جهدوا ليكسبوا ما يسمونه الأسلوب باعتباره خطوة أساسية — أو شيئا كان عليهم أن يشكلّوه قبل أن يكون لكتاباتهم أى قيمة ، وأود أن أسجل أننى لم أبذل أقل جهد فى أسلوبى ، ولم أفكر قط ، ولست أعلم ، ولا أريد أن أعلم ، أهو أسلوب اطلاقا ، أم أنه — كما أومن وأرجو — ليس الاّ كلاما مستقيما بسيطا عاديا » .

وقد ظهرت منذ نشر « طريق البشر » روايات لا حصر لها يلعب أهم دور فيها فتيان وفتيات من الشباب المكبوت ، وأصبح كره الوالدين الثقلاء والكفاح ضدهم أمرا عاديا أو كالعادى فى الأدب . ولكن لنخفف من عبادتنا لبطلر بتذكر هذه القصيدة التى وجهها لنقاد كتبه بعد موته :

« أيها النقاد ، النقاد المثقفون !
الذين سيشيدون بى بعد أن أموت ،
ويرون فىّ أكثر مما قصدت ،
ولكنهم سيقسمون أنه الحق بعينه أيا كان ؛
أنتم تحسبون أنكم أفضل ممن كانوا فى حياتى
يقسمون بأن كل ما كتبته باطل ،
ويلعنون كتبى حال تأليفى لها ؛
ولكنكم لن تكونوا أفضل منهم ، أنتم مثلهم ، لا خير منهم ولا شر ،
وستهاجمون « بطلر » جديدا فى المستقبل كما هاجمنى آباؤكم ؛
أواه ، كم كنت أبغضكم لو رأيتكم !
أما أنتم أيها الناس الظرفاء !
يا من ستملّوننى لأن النقاد حملوكم على قراءتى كرها ،
ولكنكم قد تقبلون علىّ ان لم يضايقكم أحد بالحاحه لتقرءونى ،
أو ان استطعتم قراءة زبدة كتبى — وفى هذا كل الكفاية ؛
اذكروا بربكم أننى لو كنت حيا لوقفت فى جانبكم ،
ولكرهت أولئك الذين يفرضوننى سواء على نفسى أو على غيرى ؛
لذلك أتوسل اليكم أن تهملونى ، و « تمسخرونى » ، وتعصرونى عصرا ،
وتفعلوا بى ما تشاؤون ،
ولكن لا تحسبوا أننى لم أكن أعينكم على هذا لو كنت حيا :
فليس شيء أمتع حتى الى نفس شكسبير من أن
« يمسخر » هاملت مسخرة طيبة » .
وفى هذا أكثر من مجرد الغرور المقلوب ، كما يعلم الجميع حتى أولئك

الذين يكتفون بقراءة « زبدة » كتب بطلر (ومنها بالطبع طريق البشر) . لقد كان احترامه للعظماء والصالحين حقيقيا لأنه لم ينظر اليهم نظرة الجد الثقيل ؛ كان فى استطاعته أن يتهكم على كتبه هو — هذه الكتب التى كلفته الكثير من الوقت ، والفكر ، والجهد ، والمال ، والتى لا تطوى بين دفتيها شيئا تافها . وهو بعلمه وفكاهته الذكية وسماحته النادرة التى تسمو كثيرا على افتقاره للاحترام ، يكشف لنا عن هذه النظرة المستقلة ، الناقدة لكل الأشياء ، فى جميع العصور ؛ من أجل هذا سيظل بطلر « جديدا » وسيظل معدلا قويا للتفكير السطحى والآراء الجماهيرية التى تشجعها ظروف حضارتنا تشجيعا متزايدا .

١٩٣٣ ا . ج هوپى

تصدير

للطبعة الأولى

بدأ صموئيل بطلر كتابة « طريق البشر » حوالى عام ١٨٧٢ ، وعكف على القصة فى فترات متقطعة حتى عام ١٨٨٤ . فهى اذن معاصرة الى حد كبير لكتابه « الحياة والعادة » ، ويستطيع القارىء أن يعدها تفسيرا عمليا لنظرية الوراثة التى ضمنها كتابه هذا . ولم يقربها بطلر بعد سنة ١٨٨٤ ، ولكنه لأسباب شتى أجّل نشرها . وكانت تشغله شواغل أخرى ، وقد زعم أنه غير راض عنها بوجه عام ، وكان فى نيته دائما أن يعيد كتابتها أو أن يراجعها على الأقل . ولكن المنية عاجلته عام ١٩٠٢ فحالت بينه وبين انفاذ نيته ، وقد أفهمنى فى جلاء وهو على فراش موته أنه يرغب فى أن تنشر بصورتها الراهنة . على أننى اكتشفت أن مخطوطتى الفصلين الرابع والخامس قد اختفتا ، ولكننى استطعت ، بالرجوع الى مختلف مذكراته وصوره القلمية المتخلفة بين أوراقه ومطابقتها بعضها على بعض ، أن أملأ ثغرة الفصلين الناقصين بصورة أعتقد أنها لا تختلف اختلافا جوهريا عن الصورة التى صاغهما فيها فى النهاية . أما عن تأريخ الأحداث المدونة فى القصة فيحسن بالقارىء أن يذكر أن جسم القصة مفروض أنه كتب عام ١٨٦٧ ، وأن الفصل الأخير أضيف حاشية لها عام ١٨٨٢ .

١٩٠٣ « ر ٠ ا ٠ ستريتفيلد »

الفصل الأول

أذكر وأنا غلام صغير فى مطالع القرن التاسع عشر شيخا يرتدى سراويل قصيرة ، وجوارب صوفية مشغولة ، ويمشى مشية عرجاء فى شارع قريتنا وهو يتوكأ على عصاه . ولابد أنه كان يسير حثيثا الى الثمانين عام ١٨٠٧ ، وهو تاريخ أحسبنى عاجزا عن تذكر هذا الشيخ قبله ، لأننى ولدت سنة ١٨٠٢ . وكانت تتدلى على أذنيه خصل بيضاء ، وكانت كتفاه محدودبتين وركبتاه واهنتين ، ولكنه كان لا يزال سليما معافى ، يحظى بالاحترام الشديد فى عالم قريتنا « پيلام » الصغير . وكان اسم الشيخ پونتفكس .

وكانت زوجه فيما روى الآمرة الناهية ، وقد قيل لى انها أمدّته ببعض المال ، ولكنه مال لا يمكن أن يكون كثيرا ، كانت امرأة فارعة القامة عريضة المنكبين (وقد سمعت أبى يشبهها بنساء القوط) أصرت على أن تتزوج مستر پونتفكس يوم كان شابا فيه من دماثة الخلق ما يمنعه من أن يصدّ أى امرأة تخطب ودّه ، وعاش الزوجان معا حياة ليست بالتعسة ، لأن مستر پونتفكس كان رضى الطبع لين العريكة ، ولأنه ما لبث أن تعلم أن ينحنى أمام فورات زوجه وغضباتها .

وكانت النجارة صناعة پونتفكس ، كذلك كان فى وقت من الأوقات كاتبا فى الأبروشية ، على أنه كان فى تلك الفترة التى أذكره فيها قد ارتقى فى سلم الحياة الى درجة لم يعد معها مضطرا الى أن يشتغل بيديه . وكان فى بواكير حياته قد علّم نفسه الرسم . ولست أقول انه كان يجيد الرسم ،

ولكن كان من المدهش أن يبلغ رسمه ما بلغه من جودة ، واقتنى أبى — الذى عين راغيا لكنيسة پيلام حوالى عام ١٧٩٧ — عددا كبيرا من رسوم مستر پوتنفكس التى كانت تتناول دائما موضوعات محلية . وكان فيها من العناية غير المتكلفة ما جعلها تبدو كأنها من صنع فنان قديم قدير . وانى أذكرها وقد علقت فى أطرها وزجاجها بمكتب أبى فى مسكن راعى الكنيسة ، وقد شابها — كما شاب كل شىء آخر فى الحجرة — ظل آخضر خفيف منعكس من اطار أوراق اللبلاب النامية حول النوافذ . ولست أدرى على أية صورة ستختتم هذه الرسوم حياتها فعلا بوصفها رسوما ، وفى أى أطوار جديدة من أطوار الوجود ستدخل عندئذ .

على أن مستر پوتنفكس لم يقنع بأن يكون فنانا ، فأصر على أن يكون أيضا موسيقارا ، لذلك صنع أرغن الكنيسة بيديه هو ، وصنع أرغنا نظيره وضعه فى بيته . وكان فى استطاعته أن يعزف كما يرسم ، غير بالغ فى عزفه درجة عالية من الجودة اذا طبقت عليه المعايير الفنية ، ولكنها أجود كثيرا مما كان يتوقع منه . وكنت أنا نفسى قد أظهرت تذوقا للموسيقى فى فترة مبكرة من عمرى ، فلما عرف الشيخ پوتنفكس هذا فىّ ، وسرعان ما عرف ، أصبحت أثيرا لديه .

وقد يظن ظانّ أنه — وقد تعددت اهتماماته الى هذا الحد — لا يمكن أن يكون رجلا ناجحا كل النجاح ، بيد أن حاله لم تكن كذلك . فقد كان أبوه فاعلا أجيرا ، وقد بدأ هو نفسه الحياة ولا عدة له سوى فطرة سليمة وبنية متينة ، أما الآن فكنت ترى فى فناء منزله الأخشاب الموفورة ، وتلحظ مظهرا من الراحة المكينة يشيع فى الدار كلها . وفى أخريات القرن الثامن عشر ، وقبل أن يأتى أبى الى پيلام بفترة غير طويلة ، كان قد اقتنى مزرعة مساحتها قرابة التسعين فدانا ، فخطا بذلك فى الحياة خطوة واسعة ،

وكان مع المزرعة بيت عتيق الطراز ولكنه مريح ، تحيط به حديقة لطيفة وبستان فاكهة . وكانت أعمال النجارة تجرى الآن فى بيت ملحق كان فى يوم من الأيام جزءا من أبنية ديرية ترى بقاياها فى « دير كلوز » كما كانوا يسمونه ، أما البيت نفسه — الذى كانت تحتضنه أشجار الياسمين البرى والورود المتسلقة — فقد كان زينة القرية كلها ، ولم يكن تنسيقه الداخلى بأقل جمالا مما كان عليه مظهره الخارجى . وقد روى أن مسز پوتنفكس كانت تنشّى الأغطية لتفرشها على أفضل أسرّتها ، وهى رواية فى وسعى أن أصدقها .

لشدّ ما أذكر ردهة بيتها وقد ملأ نصفها الأرغن الذى صنعه زوجها ، وعطّرها شذى ثمرة أو ثمرتين ذابلتين من « البيروس جاپونيكا » كانتا مزروعتين خارج الدار ؛ والثور الذى ناله جائزة وقد وضعت صورته فوق رف المدفأة — وهى بريشة مستر پوتنفكس نفسه ؛ وشفافية الرجل الذى خرج لينير لعربة فى ليلة كثيرة الثلوج ، وصورته بريشة مستر پوتنفكس أيضا ؛ وصورة الرجل والمرأة العجوزين القصيرين اللذين كانا يتنبآن بالطقس ؛ والراعى والراعية المصنوعين من الخزف ؛ وأوانى الأعشاب المزهرة المورقة تضم ريشة طاووس أو ريشتين لابراز جمالها ؛ والقدور الخزفية المملوءة بأوراق الورد الذابلة المجففة بملح الغار ، لقد عفّى الزمن على هذا كله فأصبح ذكرى ذابلة ولكنها ما تزال ذكية العبير فى أنفى .

- أجل ، وناهيك بمطبخها — ولمحات الى قبو من خلفه كالكهف تنبعث عنه ومضات أرسلتها أسطح صفائح اللبن الشاحبة ، أو لعلها ذراع ووجه لبّانة كانت تنزع القشدة عن اللبن ؛ ثم مخزن مئونتها الذى أودعته — فيما أودعته من كنوز — مرهم الشفاه الشهير الذى كان احدى مفاخرها ، والذى كانت تهدى منه كل عام قارورة لمن يطيب لها أن تكرمه ،

وقد كتبت وصفة هذا المرهم وأعطتها لأمي قبل أن تموت بعام أو عامين ، ولكنا لم نستطع قط أن نبلغ في صنعه ما بلغته هي . وكانت ونحن صغار ترسل أحيانا تحياتها لأمي ، وتستأذنها في أن تسمح لنا بالذهاب لتناول الشاي معها ، وكم كانت تلح علينا في هذه المناسبات في أن نأكل ونشرب . أما عن طبعها ، فاننا لم نلق في حياتنا قط سيدة عجوزا تشرح الصدر مثلها . وأيا كانت غضباتها التي كان على مستر پونتفكس أن يحتملها بصبر ، فاننا لم نجد ما يدعونا للشكوى منها ؛ ثم كان مستر پونتفكس يعزف لنا في هذه المناسبات على الأرغن ؛ فنقف من حوله فاغري الأفواه ظانين أنه أبرع الناس طرا وأحذقهم — باستثناء « پاپا » بالطبع .

ولم تؤت مسز پونتفكس روح الفكاهة ، أو على الأقل لا أستطيع تذكر أمارات لهذه الخلة فيها ؛ أما زوجها فكان كثير الدعابة وان لم يحزر دعابته هذه من مظهره الا الأقلون . وأذكر أن أبي أرسلني مرة الى ورشته لأجلب له بعض الغراء ، فاتفق وصولي والشيخ يوبخ غلامه ويقرعه ، وقد أمسك بأذنه — وكان صبيا يشبه رأسه الفطيرة — وهو يقول له « ماذا ؟ تائه — خامد الذكاء مرة أخرى (وأعتقد أن الذي زعم الشيخ أنه روح ضال شارد هو الغلام ، وأنه هو الذي كان يخاطبه بالتائه) . ثم مضى يقول : « اسمع يا بنيّ ، بعض الصبية يولدون أغبياء ، وأنت منهم ؛ وبعضهم يدركون مرتبة الغباء — وأنت منهم أيضا يا جم — فقد ولدت غبيا ثم استزدت كثيرا من حقك الفطري — وبعضهم (وهنا بلغ المشهد ذروة كان الشيخ فيها يهز رأس الغلام وأذنه ذات اليمين وذات اليسار) وبعضهم يفرض عليه الغباء فرضا (*) ، ومعاذ الله أن تكون هذه حالك

(*) الاشارة الى عبارة في مسرحية شكسبير « الليلة الثانية عشرة » ، وردت عن « العظمة » (لا الغباء) في خطاب دس على مالفوليو للايقاع به والسخرية منه .

يا بنيّ لأنى سأنتزع الغباء منك وأقتلعه اقتلاعا وان اضطررت فى سبيل ذلك الى صفع وجهك . » ولكنى لم أر أن الشيخ صفع وجه جم حقيقة ، أو أنه صنع به أكثر من التظاهر بارهابه ، لأن الواحد منهما كان يفهم صاحبه تمام الفهم . وأذكر أننى سمعته مرة أخرى ينادى صائد الفيران بقوله « تعال هنا ، تعال يا صاحب الأيام والليالى الثلاث » مشـــيرا بهذا الى نوبات سكره كما فهمت بعد ذلك ، بيد أنى لا أريد الافاضة فى ذكر هذه التوافه . لقـــد كان وجــه أبى يشرق دائما حين يذكر اسم الشيخ پوتنفكس فيقول لى « أقول لك يا ادورد ان الشيخ پوتنفكس لم يكن رجلا كفئا فحسب ، ولكنه كان من أكفأ من عرفت من الرجال فى حياتى ».

وكان فى هذا القول فى رأيى — وأنا شاب — فوق ما فىّ من استعداد للموافقة فأجبته مرة « ما الذى صنعه يا أبى العزيز ؟ انه كان يستطيع أن يرسم قليلا ، ولكن أكان فى استطاعته — انقاذا لحياته — أن ينجح فى عرض صورة من صوره فى معرض الأكاديمية الملكية ؟ لقد صنع أرغنين بيديه ، وكان يستطيع أن يعزف على أحدهما « المنيويت » فى «شمشون» و « لحن السَّير » فى « سكيپيو »(*) على الآخر ، وكان نجارا متقنا لعمله ورجلا حلو الدعابة ، لقد كان شيخا طيبا جدا ، ولكن لِمَ نجعل منه رجلا أقدر كثيرا مما كان ؟ » وأجاب أبى : « يا بنى لا تحكم على الشخص من عمـــله ، بل من عمـــله بالقيـــاس الى بيئته . أتظن أنه كان فى استطاعة « جيوتو » أو « فيليپوليپى » أن يعرض صورة له فى هـــذا المعرض ؟ وهل كان هناك أمل ولو بعيد لصورة جصّية واحدة من تلك

(*) Samson لحن دينى ، و Scipione أوبرا غنائية ، وكلاهمـــا من أعمال الموسيقار العظيم هاندل (١٦٨٥ — ١٧٥٩) مؤلف لحن المسيا Messiah أشهر الألحان الدينية قاطبة .

الصور التى ذهبنا لرؤيتها حين كنا فى پدوا فى أن تعرض بهـذا المعرض اليوم لو قدمت اليـه ؟ لعمرى لو أن رجال الأكاديميـة تلقوها لشعروا بالاهانة شعورا يمنعهم حتى من الكتابة الى جيوتو المسكين ليأتى ويسحب صورته » . ثم واصل حديثه وقد تحمس « عجبا ! لو أن الشيخ پوتتفكس أتيح له من الفرص ما أتيح لكروموبل لصنع ما صنعه كروموبل ، ولصنعه خيرا منه ؛ ولو أتيح له ما أتيح لجيوتو من فرص لصـنع كل ما صـنعه جيوتو ، ولم يصنعه أسوأ منه ؛ ولكن الحظ جعل منه تجار قرية ، وأنا أؤكد لك أنه فى خلال حياته كلها لم يعمل قط عملا لم يتقنه » .

قلت « ولكننا لا نستطيع أن نحكم على الناس بهذه الفروض الكثيرة . فلو أن الشيخ پوتتفكس عاش فى عصر جيوتو لكان جيوتو آخر ، ولكنه لم يعش فى عصر جيوتو » .

قال أبى فى شىء من الحدة «أقول لك يا ادورد اننا يجب ألا نحكم على الناس مما يصنعونه بقدر ما نحكم عليهم مما يشعروننا بأن فى قدرتهم أن يصنعوه . فاذا صنع رجـل — فى الرسم أو فى الموسيقى أو فى شئون الحياة — ما يكفى ليشعرنى بأننى أستطيع أن أثق به اذا جد الجد وحزب الأمر ، فقد صنع ما فيه الكفاية . فاننى لن أحكم على رجل بما رسمه فعلا على شاشته ، لا ولا بالأعمال التى سجلها على شاشة حيـاته — اذا جاز هذا التعبير ، بل بما يشعرنى أنه أحسه واستهدفه . فاذا أشعرنى بأنه أحس الحب لهذه الأشياء التى أراها أنا نفسى جديرة بالحب لن أطلب منه مزيدا ؛ وقد يكون فى « نحوه » بعض النقص ، ولكنى برغم ذلك فهمت لغته ؛ فهو وأنا متجاوبان ؛ ومرة أخرى أقول لك يا ادورد ، ان الشيخ پوتتفكس لم يكن رجلا كفئا وحسب ، بل كان من أكفأ من عرفت من الرجال فى حياتى » .

وازاء هذا لم يعد فى مجال القول متسع ، فحدجتنى شقيقتاى بعيونهما لألزم الصمت . وهكذا كانتا — بطريقة أو بأخرى — تحدجانى بعيونهما على الدوام لأصمت حين كنت أخالف أبى رأيه .

ومضى أبى — الذى أثرت حماسته كثيرا — يقول وهو ينفخ بمنخره « قد تذكر لى ولده الناجح . انه ليس أهلا لأن يمسح حذاء أبيه . ان له دخلا يبلغ ألوف الجنيهات كل عام ، فى حين أن دخل أبيه فى أخريات حياته كان ثلاثة آلاف شلن على الأرجح ، انه قطعا رجل ناجح ؛ ولكن آباه — وهو يعرج فى شارع پيلام وقد ارتدى جواربه الصوفية الرمادية ، وقبعته العريضة الحافة ، وسترته البنية المخطّطة الذيل — كان يعدل مائة من أمثال پوتنفكس برغم كل مركباته وجياده ، وزهوه وخيلائه » . ثم أضاف « ومع ذلك فان جورج پوتنفكس أيضا ليس بالرجل الأحمق » وهذا يقودنا الى الجيل الثانى من أسرة پوتنفكس ، وهو الجيل الذى تقتضينا القصة أن نلقى اليه بالنا .

الفصل الثاني

كان الشيخ پوتنفكس قد تزوج سنة ١٧٥٠ ، ولكن امرأته لم تنجب مدى خمسة عشر عاما ، وفى نهاية هذه الحقبة أذهلت مسز پوتنفكس القرية كلها بما أبدت من علامات لا يخطئها النظر على استعدادها لاهداء زوجها وريثا أو وريثة . ولقد كانت حالتها تعدّ منذ أمد بعيد ميئوسا منها ، فلما أنبأها الطبيب الذى استشارته فى معنى ما ظهـر عليها من أعراض بدلالتها ، استشاطت غضبا وسبّته فى وجهه على ما قاله من هراء ، وأبت أن تضع ولو خيطا واحدا فى ابرة استعدادا للولادة . ولولا أن جاراتها كنّ أصدق منها حكما على حالتها فاتخذن للأمر عدته دون أن ينبئنها بشيء لفوجئت به دون تأهب . ولعلها خشيت «نـمسس»(*) وان كان من المؤكد أنها كانت تجهل من هى « نمسس » هذه أو ما مهمتها ؛ أو لعلها خشيت أن يكون الطبيب قد ارتكب خطأ فتتعرض لسخرية الناس . وأيا كان السبب فى رفضها الاقرار بالأمر الواضح ، فانها ولا ريب رفضت أن تقرّ به ، الى أن كانت ليلة من ليالى شهر يناير كثيرة الثلوج ، أُرسل فيها فى طلب الطبيب على عجل عبر الطريق الريفية الوعرة . فلما وصل الى الدار وجد مريضين لا مريضا واحدا فى حاجة الى رعايته ، لأن صبيا كان قد ولد ، وسمى الصبى فى الوقت المناسب « جورج » تشرفا باسم جلالة المتربع على العرش وقتئذ .

وفى اعتقادى أن جورج پوتنفكس أخذ أكثر طبيعته عن أمه العجوز

(*) Nemesis ربة القصاص أو النقمة عند الاغريق .

العنيدة ، هــذه الأم التى تعلقت أشــد التعلق بطفل شيخوختها الذى لم تتوقعه ، برغم أنها لم تكن تحب أحدا فى الدنيا الا زوجها (وحتى زوجها لم تكن تحبه حبا جما) ؛ ومع ذلك فهى لم تكن تبدى هذا التعلق الا قليلا .

وشب الغلام فتى صلب العود ، وضاء العين ، ذكى الفؤاد ، ولعل استعداده للدرس كان يزيد قليلا على الحد المألوف . واذ كان يلقى العطف والحنان من أبويه ، فقد كلف بهما بقدر ما كان فى طبيعته أن يكلف بانسان ، ولكنه لم يكلف بأحد غيرهما . ذلك أنه أوتى حســا سليما قويا بصالحه الخاص ، وأقل قدر يستطيعه من الحس بصوالح الآخرين ، ووجــدت أطرافه الصغيرة مجالا طيبا للنمو والحــركة ، لأنه نشىء أكثر الوقت فى الهواء الطلق ، فى قرية من أصح القرى الانجليزية وأفضلها موقعا ؛ ولم تكن عقول الأطفال فى تلك الأيام تثقل بالدروس كما تثقل بهــا اليوم ، ولعل هذا هو الذى جعل الصبى يبدى شغفا زائداً بالتعلم . فاستطاع حين ناهز السابعة أو الثامنة أن يقرأ ويكتب ويجمع خيرا من أى صبى فى عمره فى القرية . ولم يكن أبى قد أصبح راعيا لكنيسة پيلام ، ولم يتذكر طفولة جورج پونتفكس ، ولكنى سمعت الجيران يقولون له ان النــاس كانوا يرون فى الصبى ذكاء وتقــدما غير عاديين . وكان أبواه بالطبع فخورين بولدهما ، واستقر عزم أمه على أن يصبح ولدها فى يوم من الأيام أحد « رؤساء الأرض وقضاتها » .

على أن عزم الأم على أن يظفر ولدها ببعض غنائم الحياة الكبرى شىء ، والتوفيق بين هذا العزم والحظ شىء آخر ، ولعل جورج پونتفكس كان يمكن أن ينشأ نجارا ولا يفلح الا فى أن يخلف أباه قطبا من أقطاب پيلام الصغار ، ومع ذلك يكون رجلا أنجح حقيقة مما كان فعلا . ففى

رأيى أنه ليس هناك نجاح فى هذه الدنيا أصدق ولا أمكن مما ظفر به الشيخ پوتنفكس وزوجه ؛ على أنه حدث حوالى عام ١٧٨٠ ، حين كان جورج غلاما فى الخامسة عشرة ، أن أختا لمسز پوتنفكس كانت قد تزوجت رجلا يدعى مستر فيرلاى جاءت پيلام فى زيارة قصيرة ، وكان مستر فيرلاى ناشرا للكتب ، وللكتب الدينية بنوع خاص ،يملك مؤسسة للنشر فى « پاترنستر رو » ؛ وكان قد ارتقى فى سلم الحياة وارتقت معه زوجه ، ولم يكن بين الأختين اتصالات وثيقة جدا لبضع سنوات . وقد نسيت على وجه التحديد كيف حدث أن نزل مستر فيرلاى وزوجه ضيفين فى بيت الشيخ پوتنفكس وزوجه ، ذلك البيت الذى توافرت فيه كل أسباب الراحة برغم هدوئه وعزلته ، ولكن الزيارة تمت لسبب أو لآخر ، وسرعان ما وجد الفتى جورج طريقه الى قلب خالته وزوجها فنال حظوتهما . وللصبى الذكى اللماح ، الذى يحسن الخطاب ، ويتمتع ببنية قوية ، وينتمى لأبوين محترمين ، قيمة كامنة لا تفوت عين رجل الأعمال المدرّب المحتاج الى كثير من الموظفين . وقبل أن تنتهى زيارة مستر فيرلاى اقترح على أبوى الصبى أن يأخذه موظفا فى مؤسسته ، واعدا اياهما فى الوقت نفسه بأنه اذا أحسن عمله فلن يحتاج الى من يدفعه الى الأمام . وكان فى مسز پوتنفكس من الحرص الشديد على مصلحة ولدها ما منعها من رفض هذا العرض ، وهكذا رتّب الأمر سريعا ، وما مضى نحو أسبوعين على سفر مستر فيرلاى وزوجه حتى أرسل جورج الى لندن مسافرا فى مركبة ، وهناك استقبلته خالته وزوجها اللذان اتفق معهما أبواه على أن يسكن معهما .

تلك كانت دفعة جورج الكبرى فى الحياة . وهكذا أصبح يلبس ثيابا أحدث زيا مما ألف من قبل ، وما لبثت آثار المظهر أو اللهجة الريفية الطفيفة التى جلبها من پيلام أن زالت زوالا سريعا تاما بحيث صار من المستحيل

بعد قليل أن يلحظ المرء أنه لم يولد ولم ينشأ في أسرة « متعلمة » كما يقولون . واهتم الصبي اهتماما كبيرا بعمله ، فبرّر بذلك كل التبرير الرأى الطيب الذى كان مستر فيرلاى قد كونه عنه ، وكان مستر فيرلاى أحيانا يرسله ليقضى أياما فى پيلام على سبيل الفسحة ، وقبل أن يمضى وقت طويل أدرك أبواه أنه قد اكتسب مظهرا وطريقة فى الكلام يختلفان عن أى مظهر أو طريقة أخذها معه من پيلام . وكانا فخورين به ، وسرعان ما اتخذا منه مكانهما الصحيح ، فتخليا عن كل مظهر من مظاهر الرقابة الأبوية التى لم يعد لها فى الحق أية ضرورة ، وكان جورج على الدوام يقابل ذلك بالرفق واللطف ، وظل الى أواخر حياته يحتفظ لأبيه وأمه بشعور فيه من الحنان والمحبة ما يخيّل الى أنه يفوق أى شعور شعر به نحو أى رجل أو امرأة أو طفل بعد ذلك .

ولم تكن زيارات جورج لپيلام تطول قط ، لأن المسافة اليها من لندن كانت أقل من خمسين ميلا ، وكانت تجرى بين البلدين مركبة سفر مباشرة يسرت الرحلة ، وهكذا لم يتح للزيارات وقت تبلى فيه جدتها لا عند الشاب ولا عند أبويه ، وكان جورج يحب هواء الريف المنعش ومنظر الحقول الخضراء يطالعه بعد الظلمة التى ألفها طويلا فى پاترنوستر رو — وكان يومها ، كما هو اليوم ، أقرب الى الزقاق المعتم الضيق منه الى الشارع — وفضلا عن سروره برؤية وجوه المزارعين والقرويين المألوفة له ، فقد كان يروقه أيضا أن يراه أهل القرية ويهنئوه لأنه غدا شابا بهى الطلعة مجدودا ، ولا عجب فان جورج لم يكن بالفتى الذى «يخفى سراجه تحت مكيال»(*) ، وقد رتب له زوج خالته من يعلمه اللاتينية واليونانية فى أمسياته ، فأقبل

(*) « ليس أحد يوقد سراجا ويضعه فى خفية ولاتحت المكيال » (لوقا ١١ ــ ٣٣) .

على هاتين اللغتين وسرعان ما أتقن فى يسر ما لا يحصـله الكثيرون من الصبيان الا فى أعوام . وأحسب أن معارفه أضفت عليه ثقة بالنفس أشعرت الناس بها سواء كان ذلك على عمد منه أو على غير عمد ؛ وعلى أية حال فقد أخذ بعد قليل يتخذ لنفسه صفة الحكم فى الأدب ، وكان الطريق سهلا يسيرا من هذا الى اتخاذه صفة الحكم فى الفن وفى العمارة وفى الموسيقى وفى كل شىء آخر . وكان كأبيه يعرف قيمة المال ، ولكنه كان أكثر منه حبا للظهور وأقل جودا فى الوقت نفسه ، فغدا وهو بعد صبى رجل دنيا لحما ودما ، ونجح بفضل المبادىء التى كان قد خبرها بتجربته الشخصية وميزها بوصفها مبادىء ، لا لاهتـدائه باقتناعات أعمق جـذورا ، اقتناعات بلغ تغلغلها فى فطرة أبيه مبلغا لم يكن يستطيع معه أن يجد لها تعليلا .

وكان أبوه كما قلت يعجب لأمره ويدعه وشأنه ، فلقد خلّفه ولده وراءه بشوط كبير . وعرف الوالد هذا تمام المعرفة على نحو صامت . وبعد سنوات عوّد الرجل نفسه أن يرتدى خير ملابسه كلما أتى ولده ليمكث معه ، وما كان ليخلعها ويستبدل بها ملابسه العادية الا اذا رجع الفتى الى لندن ، وفى اعتقادى أن الشيخ پوتنفكس كان — الى شعور الفخر بولده والمحبة له — يحس نوعا من الخوف منه ، كأنه يخاف شيئا لا يفقهه تماما ، شيئا تختلف طرقه عن طرقه هو برغم ما بينهما من توافق فى ظاهر الأمر . وأما مسز پوتنفكس فلم تحس شيئا من هذا ؛ فكان جورج فى نظرها هو الكمال الخالص المطلق ، وقد رأت ، أو خيل اليها أنها رأت — فى سرور — أنه فى معارف وجهه وفى طبعه ومزاجه أشبه بها وبأسرتها منه بزوجها وأسرته .

ولما ناهز جورج الخامسة والعشرين من عمره أدخله زوج خالته شريكا له بشروط غاية فى السخاء ، ولم يجد الرجل ما يدعوه للندم على هـذه

الخطوة ، فقد نفخ الفتى قوة جديدة فى تجارة لم تعوزها القوة من قبل ، وما ان بلغ الثلاثين حتى وجد نفسه يتلقى فى كل عام دخلا لا يقل عن ألف وخمسمائة جنيه هو نصيبه فى الأرباح . وبعد عامين تزوج بسيدة تصغره بنحو سبع سنوات أتته ببائنة طيبة . وماتت زوجه عام ١٨٠٥ وهى تلد طفلتها الصغرى أليشيا ، ولم يتزوج زوجها بعدها ثانية .

الفصل الثالث

فى مطالع القرن بدأ خمسة أطفال صغار ومربيتان يلمّون بپيلام فى زيارات دورية . ولا حاجة بنـا للقـول بأنهم كانوا جيلا صـاعدا من آل پوتنفكس ، يلقى من اكرام الجدين العجوزين ورعايتهما ما يلقاه أبناء حاكم الاقليم لو نزلوا عليهما ضيوفا — أما أسماء الأطفال فاليزا، وماريا ، وچون ، وثيوبولد (الذى ولد قبلى عام ١٨٠٢) وأليثيا . وكان مستر پوتنفكس على الدوام ينادى أحفاده بلفظ « السيد » أو « الآنســة » قبل أسمائهم ، الا أليثيا التى كان يؤثرها عليهم جميعا ، وكان صده لأحفاده مستحيلا عليه استحالة صده لزوجه ؛ بل ان مسز پوتنفكس العجوز كانت تذعن لأطفال ولدها وتجيز لهم من ضروب الحرية مالم تكن تجيزه حتى لشقيقتىّ ولى ، فقد كنا نظفر من رعايتها بالمرتبة التالية . ولم تكن تفرض عليهم ألا قاعدتين اثنتين يراعونهما ؛ أولاهما أن يمسحوا أحذيتهم جيدا حين يدخلون البيت ، وثانيتهما ألاّ يفرطوا فى نفخ أرغن مستر پوتنفكس بالهواء أو ينزعوا عنه أنابيبه .

أما نحن أبناء راعى الكنيسة فلم تكن هناك فترة نتطلع اليها أكثر من الزورة السنوية التى يقوم بها أبناء پوتنفكس الصغار لپيلام . وكنا نصيب قسطا من الحرية التى تسود هذه الزورة ؛ فنذهب لتناول الشاى مع مسز پوتنفكس حيث نلقى أحفادها ، ثم يدعى أصدقاؤنا الصغار هؤلاء الى بيتنا ليتناولوا الشاى معنا . وكنا نقضى أويقات ممتعة . وعشقت أليثيا عشقا لا شفاء منه ، بل اننا كلنا عشقنا بعضنا بعضا ، وكان الجمع بين

الأزواج وتبادلهم أمرا نطلبه فى غير حياء فى حضرة مربياتنا . وكنا غاية فى الغبطة ، ولكن العهد بهذه الأيام بعد الى حد أنسانى كل شىء عنها تقريبا الا أننا كنا غاية فى الغبطة — ما فى ذلك ريب . ويكاد الشىء الوحيد الذى بقى فى ذهنى من انطباعات هذه الفترة أن يكون ما فعله ثيوبولد بمربيته ذات يوم حين ضربها وغاظها ، فلما قالت انها سترحل أخذ يبكى ويقول « لن ترحلى — اننى سأبقيك هنا عمدا لأعذبك » .

على أنه حدث ذات صباح فى شتاء عام ١٨١١ أن سمعنا جرس الكنيسة يدق ونحن نرتدى ثيابنا فى حجرة الأطفال الخلفية . وقيل لنا انه ينعى مسز پوتنفكس العجوز . وقد ساق الينا هذا النبأ خادمنا جون ، وأضاف فى استخفاف منكر انهم يدقون الجرس ايذانا بمجيئهم لحمل جثتها . وكانت قد أصيبت بنوبة شلل قضت عليها فجأة ، وصدمنا النبأ صدمة شديدة ، زادها شدة ما أكدته مربيتنا من أن الله — ان يشأ — يستطيع أن يصيبنا جميعا بنوبات شلل فى ذلك اليوم نفسه ، فنحمل رأسا الى يوم الدين ، فأما يوم الدين فلن يبطىء مجيئه بحال عن بضع سنوات على رأى أخلق الناس بالعلم ، وعندها يحرق العالم كله ، ونسلم نحن الى عذاب أبدى مالم نسلك خيرا مما يبدو أننا معتزمون . وكان فى هذا كله من الترويع ما جعلنا نصرخ ونحدث من الضجيج ما حمل المربية على أن تهدىء روعنا لكى تظفر هى بالراحة والهدوء . ثم بكينا ، ولكن فى هدوء أكثر ، حين ذكرنا أنه لم يعد هناك شاى ولا كعك يقدمان لنا بعد أن ماتت العجوز مسز پوتنفكس .

على أنه حدث فى يوم المأتم حادث أثارنا كثيرا ؛ ذلك أن مستر پوتنفكس أرسل « رغيف بنس » لكل ساكن من سكان القرية جريا على عادة لم تكن نادرة فى مستهل القرن ؛ وكانوا يسمون الرغيف « صدقة » .

ولم نكن قد سمعنا من قبل بهذه العادة ، ولم نكن رأينا رغيفا من أرغفة البنس هذه وان كنا سمعنا عنها كثيرا ؛ زد على ذلك ان هذه الأرغفة أهديت لنا بوصفنا مواطنين فى القرية ، فعوملنا بذلك معاملة الكبار لأن أبانا وأمنا وخدمنا تلقى كل منهم رغيفا ، ورغيفا واحدا فقط ، ولم يكن قد دار بخلدنا قط من قبل أننا من مواطنى القرية على الاطلاق ؛ وأخيرا فان الأرغفة الصغيرة كانت طازجة ، وكنا شديدى الشغف بالخبز الطازج الذى قل أن أتيح لنا ، أو لعله لم يتح لنا اطلاقا ، للظن بأنه لا يناسب صحتنا . وهكذا كان على محبتنا لصاحبتنا العجوز أن تثبت لهجمات تجمّعت عليها من هذه العادة القديمة ومأأثارته من تشويق ، ومن حقوق المواطنة والملكية ، ومن جمال منظر الأرغفة الصغيرة نفسها ولذة طعمها ، ومن شعور الأهمية الذى أضفته علينا علاقتنا الحميمة بشخص مات فعلا ، وبدا لنا بعد مزيد من السؤال والاستفسار أنه لم يكن ثمة مبرر لتوقع موت أى منا فى وقت قريب ، واذ كانت الحال كذلك ، فقد راقتنا بعض الشيء فكرة حمل شخص غيرنا ليدفن فى فناء الكنيسة ؛ وهكذا انتقلنا فى فترة وجيزة من غمّ مفرط الى جذل لا يقل عنه افراطا ؛ فقد تكشّفت لنا سماء جديدة وأرض جديدة حين أدركنا امكان الافادة من موت أصدقائنا ، وأخشى أن أقول اننا لبثنا حينا نهتم بصحة كل فرد فى القرية تجعل مكانته تكرار « الصدقة » أمرا محتمل الوقوع على الأقل .

وكانت أياما تبدو فيها كل الأشياء العظيمة بعيدة جدا ، وقد أدهشنا أن نجد أن نابليون بونابرت كان حيا فعلا ، كنا نظن من قبل أن رجلا عظيما مثله لا يمكن أن يكون قد عاش الا منذ زمن بعيد جدا ، ولكن هاهو ذا رغم هذا وكأنه واقف على عتبة دارنا . وقد أضفى هذا بعض الاحتمال على الرأى القائل بأن يوم الدين قد يكون حقا أقرب مما نظن ، ولكن المربية

قالت انه لا خوف من شيء الآن ، وهي أعلم منا بالأمر . وكانت الثلوج في تلك الأيام تمكث على الأزقة فترة أطول ، وتتراكم في طبقـات أعمق مما تفعل اليوم ، وكان اللبن يجلب الى البيت أحيانا متجمدا في الشتاء ، وكنا نؤخذ الى المطبخ الخلفي أسفل الدار لنراه . وأحسب أن هناك بيوتا للرعاة في شتى أنحاء الريف يجلب اليها اللبن متجمدا أحيانا في الشتاء فينزل الأطفال ليروه ويعجبوا لمظهره ، ولكنني لا أرى أبدا لبنا متجمـدا في لندن ، لذلك يخيل الى أن الشتاء أدفأ الآن مما كان في تلك الأيام .

وبعد انقضاء عام على موت مسز بوتنفكس ضم زوجها أيضا الى آبائه. ورآه أبي قبل موته بيوم ، وكان للشيخ نظرية في غروب الشمس ، وقد ابتنى لنفسه درجتين الى حائط في حديقة الدار الخلفية يقف عليهما ويرقب الشمس وهي تغيب كلما كانت السماء صحوا . وصادفه أبي في المساء والشمس تغرب فرآه وقد أسند ذراعيه على قمة الحائط وهو يتطلع صوب الشمس فوق حقـل فيه درب كان أبي سائرا عليه ، وسمعه أبي يقول والشمس تغيب « وداعا أيتها الشمس ، وداعا أيتها الشمس » ، ورأى من نبرات صوته وطريقة كلامه أن الوهن قد بلغ منه كل مبلغ ، وقبل غروب اليوم التالي كان قد قضى .

ولم تكن هناك « صدقة » هذه المرة . وجيء ببعض أحفاده الى المأتم فاحتججنا عليهم دون أن يثمر الاحتجاج كثيرا . فأما چون بوتنفكس الذي كان يكبرني بعام فقد سخر من أرغفة البنس ، وقال انني اذا كنت أريد واحدا منها فلابد أن السبب هو أن أبوي لا يستطيعان أن يشتريا لي رغيفا منها . واعتقد أننا التحمنا عقب هذا فيما يشبه العراك ، وأميل الى الظن بأن جـون بتنفكس قد هزم في المعركة ، ولكن قد يكون العكس هو ما حدث . وأذكر أن مربية أختي — لأنني كنت يومها قد كبرت عـلى

المربيات — أبلغت الأمر الى الجهات العليا ، فأخزينا جميعا ، ولكننا كنا قد أفقنا تماما من حلمنا ، ومضى حين طويل قبل أن كنا نستطيع سماع عبارة « رغيف البنس » تذكر دون أن نشعر بوخزة الخجل تلذع آذاننا . ولو كانت هناك عشر « صدقات » بعد ذلك لما تنازلنا بلمس واحدة منها .

وأقام جورج پونتفكس نصبا على قبر أبويه ، وكان النصب لوحة بسيطة فى كنيسة پيلام نقشت عليها هذه العبارة التذكارية :

هذا النصب مكرس لذكرى جـون پونتفكس المولود فى ١٦ أغسطس ١٧٧٢ والمتوفى فى ٨ فبراير ١٨١٢ وهو فى الخامسة والثمانين .

وزوجه روث پونتفكس

المولودة فى ١٣ أكتوبر ١٧٢٧ والمتوفاة فى ١٠ يناير ١٨١١ وهى فى الرابعة والثمانين .

لقد كانا فى مظهرهما متواضعين ولكنهما كانا مثاليين فى القيام بواجباتهما الدينية والخلقية والاجتماعية ، وقد أقام هذا النصب ولدهما الوحيد .

الفصل الرابع

بعد عام أو عامين من الأحداث المتقدمة ، وقعت معركة ووترلو وتلتها السلم الأوربية فذهب مستر جورج پوتنفكس سائحا خارج انجلترا غير مرة . وأذكر أننى اطلعت فى « باترزبى » بعد ذلك بسنوات على اليومية التى كتبها فى أولى رحلاته ، وهى وثيقة تدل على خلق كاتبها تمام الدلالة . وشعرت وأنا أقرؤها أن الكاتب كان قبل بدء الرحلة قد عقد النية على ألا يعجب الا بما ظن أن الاعجاب به يحمد له ، وألا ينظر الى الطبيعة والفن الا من خلال المنظار الذى انحدر اليه من أجيال تلو أجيال من المغرورين والأدعيـاء ، فأول نظرة ألقاها مستر پوتنفكس على جبـل « مونبلان » أصابته بنوبة من النشوة التقليدية فكتب يقول « اننى عاجز عن الاعراب عن مشاعرى . لقد فغرت فمى ولكننى لم أجرؤ على التنفس وأنا أتطلع لأول مرة الى ملك الجبال . وكأننى أتخيل هذا العبقرى متربعا على عرشه الفخم شامخا فوق اخوته المشرئبين اليه ، متحديا الكون فى جبروته المنعزل . لقد استبدت بى مشاعرى حتى كادت تسلبنى قواى ، وما كنت لأستطيع الكلام بعد صيحة دهشتى الأولى حتى وجدت شيئا من التفريج فى فيض من الدموع . وانتزعت نفسى فى ألم من أول نظرة لهذا المشهد الجليل — وان لم أره الا على بعد رؤية غامضة — ، انتزعتها وأنا أشعر كأننى أتبعه روحى وعينى » . وبعد أن ظفر برؤية الألب عن كثب من فوق چنيف هبط تسعة أميال من الاثنى عشر ميلا على قدميه : « كان عقلى وقلبى يفيضان الى حد منعنى من الجلوس ساكنا ، فوجدت

بعض التفريج فى استنفاد مشاعرى بالمشي » ، وما لبث أن بلغ «شامونكس» بعد حين ، وذهب ذات أحد الى « المونتانفرت » ليرى « المير دوجلاس » . وهناك كتب الأبيات التالية ليدونها فىسجل الزيارات ، وهى أبيات رآها « مناسبة لليوم والمشهد » على حد قوله :

ربّاه ، انني اذ أشهد هذه العجائب التى صنعتها يدك
تسجد لك روحى فى اجلال مقدس .
فهذه البقاع الموحشة الرهيبة ، وهذا الهدوء المخيف ،
وهذا الهرم الشامخ من الثلوج النقية ،
وهذه القمم المستدقّة ، وهذى السهول الباسمة ،
وهذا البحر الذى يسيطر عليه شتاء خالد واحد ،
هذه كلها صنع يديك ، وفيما أنا أتطلع اليها
أسمع لسانا صامتا يتحدث بمديحك .

ومن عادة بعض الشعراء أن تبدأ ركبهم تهتز بعد أن يجروا سبعة أبيات أو ثمانية . وقد أتعب البيتان الأخيران مستر پوتنفكس تعبا شديدا ، فتراه محا كل كلمة تقريبا ثم أعاد كتابتها مرة على الأقل . على أنه لابد قد اضطر أن يستقر نهائيا على صيغة من هذه الصيغ فيكتبها فى سجل الزيارات المحفوظ بالمونتانفرت ، وأنا اذ أنظر الى الأبيات فى جملتها يخيل الى أن مستر پوتنفكس كان على حق فى أن يراها مناسبة لليوم ؛ وأنا لا أريد أن أقسو كثيرا حتى على الميردوجلاس ، لذلك لن أدلى برأيى فى مناسبتها أو عدم مناسبتها للمشهد أيضا .

وواصل مستر پوتنفكس رحلته الى « سان برنار الكبير » ، وهناك كتب مزيدا من الشعر أخشى أن أقول هذه المرة انه كتبه باللاتينية . وكذلك حرص على أن يتأثر تأثرا بالغا « بالهسپيس » وبموقعه ، فكتب فى

يوميته : « لقد بدت كل هذه الرحلة الخارقة كأنها الحلم ، لا سيما خاتمتها التي وقعت فى بيئة مهذبة تحيط بها كل أسباب الراحة والدعة بين الصخور الجرداء وفى اقليم تكسوه الثلوج على الدوام . وقد جفا النوم عينى بعض الوقت حين خطر لى أننى نائم فى دير ، وأننى أحتل فراشا كان ينام عليه شخص عظيم هو نابليون ، وأننى راقد فى أعلى بقعة مسكونة فى الدنيا القديمة ، وفى مكان مشهور فى كل بقاع الأرض » . وليسمح لى القارىء أن أستشهد هنا ، من قبيل المقابلة بين الأشياء وأضدادها ، بعبارة وردت فى رسالة كتبها لى فى العام الماضى حفيده ارنست ، الذى سيسمع القارىء عنه مزيدا عما قليل . تقول العبارة : « صعدت الى سان برنار الكبير ورأيت الكلاب » . وما لبث پوتنفكس أن شق طريقه فى حينه الى ايطاليا ، حيث أصابته الصور وغيرها من الآثار الفنية — على الأقل تلك الآثار التى كانت تستهوى أهل ذلك الجيل — بنوبات راقية من الاعجاب ، فهو يقول فى متحف الأوفيزى بفلورنسا : « أنفقت ثلاث ساعات هذا الصباح فى هذا المتحف ، واستقر رأيى على أنه لو طلب الى أن اختار من بين جميع الكنوز التى رأيتها فى ايطاليا حجرة واحدة فقط لما اخترت غير حجرة « التريبيون » فى هذا المتحف . فهى تحتوى على « ڤينوس دو ميديتشى » وعلى « المكتشف » و « المصارع » و « اله الحقول الراقص » وعلى « أپولو » رائع . فهذه كلها تفوق «اللاوكون» و « أپولو بيلفدير» فى روما ، ثم انها تضم فضلا عن ذلك صورة « القديس يوحنا » لرفاييل ، وكثيرا من روائع أعظم الفنانين فى العالم » . وقد يكون من الطريف أن تقابل بين اسراف مستر پوتنفكس وبين الهراء الذى يكتبه النقاد فى أيامنا هذه . فمنذ عهد ليس بالبعيد أذاع كاتب ذو مكانة فى الناس أنه شعر « بميل الى الصياح من فرط السرور» أمام صورة بريشة ميكلأنجلو . وليت شعرى أكان يحس

ميلا الى الصياح أمام صورة بريشة ميكلأنجلو حقيقة ، لو أن النقاد كانوا قد قرروا أنها ليست أصيلة ، أم أمام صورة اشتهر عنها أنها بريشة ميكلأنجلو وان كانت فى الحقيقة بريشة غيره . ولكننى أحسب أن دعيا مغرورا أتيح له من المال أكثر مما أتيح له من الذكاء كان شأنه منذ ستين أو سبعين عاما هو شأنه اليوم .

فانظر الى مندلسون أيضا فى حديثه عن هذه التربيون نفسها التى شعر مستر پوتتفكس بالاطمئنان الكثير اليها وهو يغامر بسمعته فى ميدان الذوق والثقافة . فهو يشعر باطمئنان لا يقل عن اطمئنان مستر پوتتفكس ويقول : « ثم ذهبت الى التربيون ، وهذه الحجرة صغيرة صغرا مبهجا بحيث تستطيع أن تقطعها فى خمس عشرة خطوة ، ومع ذلك فانها تضم عالما من الفن . وسعيت مرة أخرى الى مقعدى الكبير المفضل الموضوع تحت « تمثال عبد يشحذ مديته » (الأرّوتينو) ، واذ احتللته ظللت أستمتع بالمشهد ساعتين ؛ فقد كان فى وسعى أن اشتمل بنظرة واحدة « مادونّا دل كارديللينو » ، و « البابا يوليوس الثانى » ، و « صورة امرأة لرفاييل » ومن فوقها صورة جميلة للأسرة المقدسة بريشة پيروچينو ؛ وكانت ڤينوس دومديتشى قريبة منى قربا يتيح لى أن ألمسها بيدى ؛ ومن ورائها ڤينوس تيتيان .. وبينهما صور أخرى لرفاييل ، وصور بريشة رفاييل ، وتيتيان ، ودومنيتشينو الخ .. الخ .. ، كل هذا فى نطاق نصف دائرة صغير لا يكبر عن غرفة من غرف بيتك ، انها لبقعة يشعر المرء فيها بحقارته ، ويخلق به فيها أن يتعلم التواضع » . والتربيون مكان زلق لأمثال مندلسون ان أرادوا أن يتعلموا فيه التواضع ، وهم فى العادة يبعدون عنها خطوتين مقابل كل خطوة يخطونها صوبها . ولست أدرى كم درجة أعطاها مندلسون لنفسه جزاء جلوسه ساعتين على ذلك المقعد ، وكم مرة تطلع الى ساعته ليرى هل

انقضت الساعتان أم لم تنقضيا ، وكم مرة قال لنفسه انه لو عرفت الحقيقة لظهر أنه لا يقل عظمة عن أى من الرجال الذين شهد آثارهم معروضة أمامه ، وكم مرة ساءل نفسه هل يتبينه الزوار ويعجبون به لجلوسه هذا الوقت الطويل على كرسى واحد ، وكم مرة غاظه أن يراهم يمرون به مر الكرام ولا يلقون اليه بالا ، ولكن لعله لو عرفت الحقيقة لظهر أن ساعتيه هاتين لم تكونا ساعتين بالكمال والتمام .

ولنعد الآن الى مستر پوتنفكس فنقول انه سواء أحب تلك الآثار التى آمن بأنها روائع الفن اليونانى والايطالى أو لم يحبها ، فانه جلب معه الى وطنه نسخا منقولة عنها بريشة فنانين ايطاليين ، اطمأن ولا شك الى أنها تثبت لأدق الفحص اذا قورنت بأصولها . وقد وقعت نسختان من هذه النسخ من نصيب ثيوبولد حين قسّم أثاث أبيه على ورثته ، وكثيرا ما رأيتهما فى باترزبى خلال زياراتى لثيوبولد وزوجه . وكانت احدى الصورتين صورة للعذراء « مادونّا » بريشة « ساسّو فيرّاتو » وهى ترتدى على رأسها قلنسوة ألقت بعض ظلها عليه . وأما الثانية فصورة للمجدلية بريشة «كارلو دولتشى» تكللها لمة رائعة من الشعر وفى يديها قاز من رخام ، وكنت فى شبابى أحسب هاتين الصورتين جميلتين ، ولكنى فى كل زيارة تالية لباترزبى كان يزداد مقتى لهما ويخيل الى أن اسم « جورج پوتنفكس » مكتوب على صفحتيهما جميعا . وأخيرا جرؤت على ذمهما قليلا — على سبيل الاختبار — ولكن ثيوبولد وزوجه هبّا ممتشقين الحسام للدفاع عنهما من فورهما ، ولم يكن ثيوبولد يحب أباه ، ولا كانت زوجته تحب حماها ، ولكن الشك لم يتطرق اليهما فى قدرته وكفايته العامة ، ولا فى كونه ذوّاقة للأدب والفن — فحسبك دليلا هذه اليومية التى كان يسجل فيها خواطره خلال رحلاته الى الخارج . بقيت عبارة وجيزة أخرى

سأنقلها من هذه اليومية ثم أدعها لأمضي فى قصتى . فقد كتب مستر پوتنكس فى أثناء اقامتـه بفلورنسـا يقول : « رأيت الآن الغراندوق وأسرته فى مركبتين يجر كلا منهما ستة جياد ، ولكن الناس هنا لا يعبأون به أكثر مما يعبأون بى لو مررت بهم أنا المجهول هنا كل الجهل » . ولست أظن ان شكا قد دار بخلده فى أنه مجهول كل الجهل ، سواء فى فلورنسا أو فى غيرها !

الفصل الخامس

يقولون ان الحظ(*) ظئر قلّب عمياء تغدق عطاياها على ربائبها كيفما اتفق . بيد أننا نظلمها ظلما بيّنا اذا صدقنا تهمة كهذه . فانظر الى حياة رجل وتتبّعها من مهده الى لحده ولاحظ كيف عاملته ربة الحظ ، تر أنك تستطيع فى معظم الحالات ، بعد موت الرجل ، أن تبرئها من تهمة التقلب — الا أن يكون تقلبا سطحيا جدا ، فأما عماها فليس الا خرافة خالصة . ذلك أن فى استطاعتها أن تلحظ مختاريها قبل أن يولدوا بزمان . فنحن أشبه باليوم الذى كان آباؤنا أمسه ، بيد أن عين الحظ تستطيع أن تتبين العاصفة القادمة وتلحظها خلال كل الجو الصحو الذى يسود سماء الآباء الصافية ، وربة الحظ تضحك حين تضع مختاريها فى أماكن لا تخطر بالبال — ربما فى زقاق من أزقة لندن ، أو حين تضع من عقدت النية على هدمهم فى قصور الملوك . وقل أن تلين هذه الربة أو ترق لأولئك الذين أرضعتهم لبنها فى غير عطف ، وقل أن تخذل ربيبا أثيرا لديها خذلانا تاما .

أكان جورج پونتفكس ربيبا أثيرا من ربائب الحظ أم لم يكن ؟ أقول على الجملة انه لم يكن ، لأنه لم يعدّ نفسه كذلك ؛ لقد كان فيه من التدين ما منعه من أن يعترف بربة الحظ هذه اطلاقا ؛ وكان يأخذ أى شىء تعطيه أياه ولا يشكرها قط ، لأنه يعتقد اعتقادا راسخا أن كل ما أصاب من خير كان الفضل فيه له هو ، وكذلك كان أمره ، ولكن بعد أن مكنه الحظ من أن يصيب هذا الخير .

(*) الاشارة هنا الى فورتونا Fortuna ربة الحظ عند الرومان .

يقول الشاعر الرومانى « أى فورتونا ، اننا نحن الذين نجعل منك ربة » ، وهذا حق ، ولكن بعد أن مكنتنا من أن نجعل منها ربة ، والشاعر يغفل كل شيء عما جعلنا «نحن» نجعل منها ربة . وربما كان بعض الناس مستقلين عن السلف وعن البيئة ، ولهم قدرة « ابتدائية » فى باطنهم لا ترجع بحال الى علة من العلل ؛ ولكن من المسلم به أن هذه مسألة عويصة ، ومن الخير أن نتحاشاها . وحسبنا هنا أن نقول ان جورج پونتفكس لم يعدّ نفسه محظوظا ، ومن لا يعد نفسه محظوظا فهو غير محظوظ .

حقا كان الرجل غنيا محترما من الجميع ، ولقد أوتى بنية طبيعية ممتازة. ولو أنه توخى شيئا من القصد فى طعامه وشرابه لما عرف وعكة يوم فى حياته . ولعل قوته الكبرى كانت تكمن فى أن كفايته — وان فاقت المتوسط — الاّ أنها لم تفقه كثيرا . فعلى هذه الصخرة يتحطم كثير من أذكياء الناس . ذلك أن الرجل الناجح لا يرى أكثر مما يرى جيرانه الاّ بالقدر الذى فى طاقتهم أن يروه هم أيضا اذا بُصِّروا به ، على ألاّ يبلغ الحد الذى يحيرهم ، وانه لأسلم كثيرا للمرء أن يعرف أقل من أن يعرف أكثر مما ينبغى . فالناس يلومون الأول ، على حين يسوءهم أن يرغموا على بذل الجهد لفهم الثانى . وخير مثال يحضرنى فى هذه اللحظة على فطنة مستر پونتفكس فى شئون تجارته هو هذه الثورة التى أحدثها فى أسلوب الاعلان عن مطبوعات شركته ، والى القارىء نص اعلان من الاعلانات التى كانت تصدر عن الشركة حين أصبح شريكا فيها لأول مرة :

الكتب الصالحة للتوزيع فى هذا الموسم :

« كتاب المسيحى التقى » وهو ارشادات للمسيحى تعينه على السلوك اليومى فى حياته كلها آمنا مفلحا ؛ وتبصره بطريقة انفاق يوم الرب ، وبأى الأسفار المقدسة ينبغى له أن يبدأ قراءته ؛ وبطريقة التربية كلها ؛ ثم صلوات

جمعت أهم الفضائل التى تزين النفس ؛ وحديث عن العشاء الربانى ؛ وقواعد لتقويم النفس فى أثناء المرض ؛ وهكذا اجتمعت فى هذا الكتاب جميع القواعد اللازمة للخلاص ، . الطبعـة الثامنة المزيدة . الثمن عشرة بنسات .

*** لموزعى الكتاب مجانا شروط ميسرة .

على أن هذا الاعلان تغيّر الى الصورة الآتية قبل أن تمر على دخوله الشركة سنوات كثيرة :

كتاب « المسيحى التقى » — كتاب جامع لطرق العبادة المسيحية الثمن عشرة بنسات .

يمنح خصم للمشترين بقصد التوزيع المجانى .

فأى قفزة نحو معايير الاعلان العصرية ، وأى ذكاء ينطوى عليه ادراك ثقل الأسلوب القديم فى وقت لم يدرك فيه غيره هذه الحقيقة !

أين اذن موطن الضعف فى درع جورج پوتنفكس ؟ أظنه فى ارتفاعه بأسرع مما ينبغى . ويخيل الى أن التعليم ، أو التربية المتوارثة لعـدة أجيال ، شرط ضرورى ليستمتع الانسـان الاستمتاع الصحيح بثروته الطائلة ، فالفاقة — اذا عوّد عليها الناس تدريجيا — احتملها أكثرهم فى هدوء وسكينة أكثر ممـا يحتملون الثراء العريض الذى يتحقق فى عمر واحد ، ومع ذلك ترى ضربا من حسن الطـالع يلازم — فى العـادة — العصاميين الى آخر حياتهم ، بيد أن أبناءهم من الجيل الأول ، أو الجيل الأول والثانى ، هم الذين يتهددهم خطر أعظم ، لأن السلالة لا تستطيع تكرار أكثر جهودها نجاحا فجأة ، ودون ذلك المد والجزر فى النجاح ، أكثر مما يستطيعه الفرد ، وكلما كان النجاح فى جيـل واحد عظيما كان الاعياء الذى يعقبه شديدا بوجه عام ، الى أن ينقضى وقت كاف للافاقة

من هذا الاعياء . وهكذا يحدث كثيرا أن يحقق حفيد الرجل نجاحا أكثر من ابنه — لأن الروح التى حفزت الجد ظلت مراحة كالأرض البور فى الابن فأنعشتها الراحة لتتهيأ لجهد جديد فى الحفيد . زد على ذلك أن الرجل الذى أحرز نجاحا عظيما فيه شىء من صفات الهجين ؛ فهو حيوان جديد نشأ من التقاء عناصر كثيرة غير مألوفة ، ومعلوم أن تناسل الكائنات الشاذة — حيوانا كانت أو نباتا — أمر لا يجرى على نظام مقرر ولا يمكن الاعتماد عليه حتى ولو لم تكن هذه الكائنات عقيمة كل العقم .

ولا ريب فى أن نجاح مستر پوتنفكس كان سريعا جدا . فلم تمض سنوات على دخوله شريكا حتى مات زوج خالته وماتت خالته بعد شهور ، فوجد بعدموتهما أنهما جعلاه وريثهما الوحيد . وهكذا لم ينفرد بأمر الشركة وحسب ، ولكنه ألفى نفسه فوق ذلك وريثا لنحو ثلاثين ألفا من الجنيهات، وهو مبلغ كان ضخما فى تلك الأيام ، وتدفق المال بعد ذلك عليه تدفقا ، وكلما أسرع تدفقه ازداد به كلفا ، وان كان — على حد قوله مرارا — لم يقدّره لذاته ، بل بوصفه وسيلة لتأمين معاش أبنائه الأعزاء .

على أن المرء اذا كان شديد الولع بماله لم يكن يسيرا عليه دائما أن يكون شديد الولع بأبنائه أيضا . وما أشبه الاثنين بالله(*) والمال . وثمة فقرة كتبها لورد ماكولى يقابل فيها بين المتع التى قد يجدها الانسان فى المكتب وبين المضايقات التى قد تصيبه من معارفه وأصحابه ، يقول فى هذا الباب : « انك لا تجد أفلاطون متجهما أبدا ، ولا سرفانتس نزقا أبدا ، ولن يحل عليك ديموستين ضيفا فى غير أوانه أبدا ، ولن يطيل دانتى مكثه فوق ما ينبغى ، ولا يمكن أن ينفّر شيشرون خلاف فى الرأى السياسى

(*) « لا تقدرون أن تخدموا الله والمال » (متى ٦ـ٢٤)

ولا تستطيع هرطقة أن تروع بوسّويه » . وقد أخالف لورد ماكولى فى تقديرى لبعض هؤلاء الكتاب الذين ذكرهم ، ولكن لا جدال فى صدق قضيته الرئيسية ، أعنى أنه ليس هناك ما يضطرنا الى تحمل مضايقة من أى منهم أكثر مما نريد ، فى حين أننا لا نستطيع التخلص من أصدقائنا دائما بمثل هذه السهولة . وقد شعر جورج پوتنفكس بمثل هذا نحو أبنائه وماله . ان ماله لم يكن « شقيا » قط ، ولم يحدث أى ضوضاء أو فوضى ، ولم يَسْرِق الأشياء على غطاء المائدة ساعة الطعام ، ولم يترك الباب مفتوحا اذا خرج من الحجرة ، ولم تتشاجر أرباح أسهمه مع بعضها البعض ، ولم يساوره أى قلق من أن تصبح رهونه العقارية شديدة الاسراف اذا بلغت سن الرجال فتقترض ديونا يضطر أن يوفيها ان عاجلا أو آجلا . لقد كان فى جون ميول ضاق بها أبوه كثيرا ، وكان ابنه الثانى ثيوبولد بليدا ، كذّابا فى بعض الأحيان ، ولعل أبناءه لو علموا ما يدور بخلد أبيهم لأجابوا أنه لم يكن يوسع ماله ضربا كما كان يفعل بأبنائه مرارا غير قليلة ، ولم يتصرف مع ماله بتهور أو نزق ، ولعل هذا هو الذى جعل الاثنين منسجمين معا غاية الانسجام .

وليتذكر القارىء أن العلاقات بين الآباء والأبناء فى مستهل القرن التاسع عشر كانت لا تزال غير مرضية الى حد كبير ، وليس من المحتمل أن يجد اليوم أب من الطراز العنيف الذى وصفه « فيلدنج » و « رتشردسن » و « سمولت » و « شريدن » مكانا فى الأدب أكثر من المكان الذى يجده الاعلان الأول لكتاب شركة فيرلاى وپوتنفكس « المسيحى التقى » ، ولكن هذا الطراز يطالعنا فى الحاح كثير يبعد معه ألا يكون مشتقا من الطبيعة مباشرة . أما الآباء فى روايات مس أوستن فهم أقل شبها بالحيوانات الضارية من الآباء فى روايات أسلافها الكتاب المذكورين ، ولكن من الواضح أنها

تنظر اليهم نظرة الريبة والتشكك ؛ وفى أكثر كتاباتها يبدو واضحا ذلك الشعور القلق بأن « أبا الأسرة قادر على أن يأتى كل شيء »(*) . بيد أن العلاقات بين الآباء وأبنائهم فى العصر الاليزبيثى كانت على العموم أكثر رقة فيما يبدو ، فترى الآباء وأبناءهم فى مسرحيات شكسبير أصدقاء فى أكثر الأحيــان . ويلوح أن هذا البلاء لم يستشر الا بعد أن تعوّدت العقول — بعد الفترة الطويلة التى فرضت عليها فيها تعاليم البيورتانية — أن تنظر الى المثل اليهودية العليا على أنها المثل التى يجب أن نجهد لمحاكاتها فى حياتنا اليومية . فأى قدوة سابقة لم يقدمها من قبل ابراهيم ، ويفتاح ، ويوناداب بن ركاب ؟ وما كان أيسر الاستشهاد بهؤلاء والاقتداء بهم فى عصر قلّ فيه من الرجال والنساء المعقولين من كان يتطرق اليه الشك فى أن كل مقطع فى العهــد القديم قد أخذ نصّا من فم الله . زد على ذلك أن البيورتانية قيّدت المباهج الطبيعية ، واللذات الفطرية ، واستبدلت بأناشيد الفرح والتهليل(**) مراثى الشكوى والسخط(***) وفاتها أن المساوىء الهيّنة التى تتسم بها كل الأجيال تحتاج الى شيء من التغاضى .

وربما كان مستر پونتفكس أقسى قليلا مع أبنائه مما كان جيرانه مع أبنائهم ، ولكن الفرق لم يكن كبيرا . صحيح أنه كان يجلدهم مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع ، وأكثر من ذلك فى بعض الأسابيع ، ولكن الآباء ألفوا فى تلك الأيام أن يجلدوا أبناءهم . ومن السهل على المرء أن يعتنق آراء أكثر عدلا وانصافا حين يعتنقها كل الناس ، ولكن النتائج لحسن الحظ أو لسوئه لا علاقة لها اطلاقا بذنب من كان العلّة فيها أو ببراءته ؛ فهى لا تتوقف الا على الفعل أيّا كان ، كذلك ليس للذنب أو البراءة أية علاقة بالنتيجة ؛

(*) Le pére de famille est capable de tout

(**) الأصل Paean وهى أنشودة ترتل للرب أپولو .

(***) الأصل Jeremiad نسبة للنبى الباكى أرمياء .

فمدار السؤال فى هذه الحالة هو : لو أن عددا كافيا من الأشخاص المعقولين وضعوا فى موقف الفاعل ، أكانوا يفعلون ما فعل ؟ فمن المبادىء التى كان يسلم بها آنئذ أن قبض العصا عن الطفل فيه افساد له ، ثم ان القديس بولس سلك عصيان الأبناء فى عداد أنكر القبائح(*) . فأما مستر پوتنفكس فكان يرى العصيان واضحا لا ريب فيه فى أى شيء يفعله أبناؤه اذا كره هو هذا الشيء . وفى هذه الحالة لم يكن من سبيل يسلكه الرجل المعقول الا سبيل واحد ، ذلك هو قمع أول علامات العناد فى أبنائه وهم بعد فى سن لا تتيح لهم المقاومة الجدية . فاذا « حطمت » ارادتهم تحطيما جيدا فى طفولتهم — و « التحطيم » لفظ كان كثير الشيوع آنئذ — اكتسبوا فى الطاعة عادات لا يجرءون على التمرد عليها حتى يتجاوزوا الحادية والعشرين ، فاذا جاوزوها فلهم أن يفعلوا ما طاب لهم ؛ فمفروض أن الأب يعرف كيف يحمى نفسه ؛ والى أن يحل هذا الوقت كان يرى نفسه وماله تحت رحمتهم أكثر مما يروقه .

حقا ما أقل علمنا بأفكارنا — صحيح أننا نعرف أفعالنا الانعكاسية ؛ ولكن ما مدى علمنا بأفكارنا وتأملاتنا ! ان الانسان ليعتز — وأى اعتزاز ! — بما أوتى من وعى ! اننا نفخر بأننا لسنا كالرياح والأمواج والأحجار المتساقطة والنباتات التى لا تعرف لِم تنمو ، ولسنا كالمخلوقات الجوّابة التى تلاحق فرائسها صعودا وهبوطا دون معونة من عقل — كما يطيب لنا أن نقول . اننا عليمون بما نفعله نحن ، ونعرف لِمَ نفعله ، أليس كذلك ؟ ولكن يخيّل الى أن هناك بعض الحق فى الرأى الذى يَعرض اليوم ، وهو أن أفكارنا وأفعالنا الأقل وعيا هى أهم ما يشكل حياتنا وحياة من ينبثقون منا .

(*) « نمامين مفترين مبغضين لله ثالبين متعظمين مدعين مبتدعين شرورا غير طائعين للوالدين » (رومية ١ — ٣٠) .

الفصل السادس

لم يكن مستر پونتفكس بالرجل الذى يتعب نفسه كثيرا بالتفكير فى دوافعه . ولم يكن الناس فى ذلك الوقت كثيرى الاستبطان مثلنا اليوم ؛ انما كانوا يعيشون وفق قواعد تقريبية لا تقوم على أسس علمية . ولم يكن الدكتور « آرنلد » قد بذر ذلك الغرس من المفكرين الجادين الذى نحصده اليوم ، ولم ير الناس سببا يمنعهم من أن يفعلوا ما شاءوا اذا لم يبد لهم أن هذا قد يجر عليهم عواقب وخيمة . على أنهم كانوا أحيانا يوقعون أنفسهم — كما يوقع الناس اليوم أنفسهم — فى عواقب أشر مما كانوا يتوقعون .

كان كغيره من أغنياء القوم فى مطلع هذا القرن يأكل ويشرب فوق ما يكفى للاحتفاظ بصحته ، وما كان لبنيــة — ولو كانت بنية مستر پونتفكس المكينة — أن تقى صاحبها مغبة نظام للتغذية طويل الأمد ، قوامه الافراط فى الطعام ، وما يجب أن نعده الآن افراطا فى الشراب أيضا . وما أكثر ما كانت كبده تختل ، فينزل الى افطاره وقد اصفر ما حول عينيه . وهنا يدرك أبناؤه الصغار أن الحذر خير لهم وأجدى . ان أكل الآباء الحصرم ليس دائما هو الذى يجعل أسنان الأبناء تضرس(*) ؛ فقلَّ أن يأكل الآباء الأغنيــاء حصرما كثيرا ؛ انما موطن الخطر على الأبناء فى أن يأكل الآباء عنبا أكثر مما ينبغى .

وأنا أسلم بأنه يبدو للوهلة الأولى أن من الظلم البيّن أن يختص

(*) « الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست » (حزقيال ١٨ ـ ٢).

الآباء باللذة ثم يحلّ العقاب بالأبناء ، ولكن على الأبناء أن يتذكروا أنهم ظلوا سنوات طوالا جزءا لا يتجزأ من آبائهم ، فاستمتعوا بكثير من اللذة فى شخص هؤلاء الآباء . فاذا كانوا قد نسوا هذه اللذة اليوم ، فما أشبههم برجل يحس صداعا فى رأسه بعد ليلة سكر . فالرجل الذى يحس الصداع لا يزعم أنه شخص غير ذلك الذى سكر ، ولا يدّعى أن الذى يجب عقابه هو نفسه التى كانت له البارحة ، لا نفسه التى له هذا الصباح . وكذلك يجب ألاّ يشكو الأبناء من الصداع الذى جلبوه على أنفسهم يوم كانوا فى شخص أبيهم ، لأن استمرار الشخصية حقيقة فى هذه الحالة كما فى تلك ، وان لم يكن ظاهرا لأول وهلة . أما القسوة الحقة فحين يستمتع الآباء باللذة بعد أن يولد أبناؤهم ، ثم يحل عقاب هذه المتعة بالأبناء .

كان فى هذه الأيام السود ينظر الى الأشياء نظرة قاتمة جدا ، ويحدّث نفسه بأن أبناءه لا يحبونه برغم كل طيبته معهم . ولكن من ذا الذى يستطيع أن يحب رجلا اختلت كبده ؛ ألا ما أخسّه من عقوق ! وما أقساه عليه هو خاصة — هو الذى كان قدوة بين الأبناء ، وكان على الدوام يكرم والديه ويطيعهما مع أنهما لم ينفقا عليه عشر معشار المال الذى يغدقه على أبنائه ، ثم يقول لنفسه « انها القصة هى هى دائما ، فكلما بذلت للأبناء ازداد طلبهم وقل شكرهم لأبيهم ، انى ارتكبت خطأ جسيما بتساهلى الشديد مع أبنائى ؛ ولكن لا بأس ، فقد أديت واجبى وأكثر من نحوهم ، فاذا قصروا فى واجبهم نحوى فذلك شأنهم بينهم وبين الله . أما أنا فبرىء على الأقل من ذنبهم . كان يمكن أن أتزوج ثانية وأصبح أبا لأسرة ثانية ربما كانت أكثر محبة لى » الخ .. الخ .. وكان يرثى لنفسه لأنه أتاح لأبنائه تعليما غالى النفقة ؛ وما درى أن هذا التعليم كلّف أبناءه أضعاف ما كلفه هو ، لأنه أفقدهم القدرة على كسب معاشهم بسهولة أكثر مما أعانهم على هذا الكسب ، وضمن بقاءهم تحت

رحمة أبيهم سنوات بعد بلوغهم سن الرشد ، فى وقت كان يجب فيه أن يستقلوا عنه . ان تعليم الصبى فى مدرسة خاصة يقطع عليه خط الرجعة ؛ فلا يعود قادرا على الاشتغال عاملا أو ميكانيكيا ، وأمثال هؤلاء هم الوحيدون الذين لا خوف على استقلالهم — هذا اذا استثنينا بالطبع من يولدون ورثة لمال أو يودعون وهم صغار فى مستقر آمن عميق . ولكن مستر پونتفكس لم ير من ذلك شيئا ، وكل ما رآه هو أنه كان ينفق على أبنائه من المال أكثر كثيرا مما يلزمه القانون بانفاقه، فما الذى ينتظر منه أكثر من هذا ؟ ألم يكن فى استطاعته أن يلحق ولديه كليهما صبيين لبائعى خضر ؛ بل ألا يستطيع أن يفعل هذا صباح غد ان شاء ؟؟ لقد كانت هذه الاستطاعة موضوعا محببا اليه حين يحتد طبعه ؛ حقا انه لم يلحق أحد ولديه صبيا لبائع الخضر قط ، ولكن ولديه كانا — اذا تبادلا الرأى — ينتهيان أحيانا الى أن يتمنيا لو فعل .

وكان أحيانا يستدعى أبناءه — وهو موعوك — ليلوح لهم بوصيته مهددا . وكان فى خياله يحرمهم جميعا واحدا بعد واحد ، ويترك ثروته لتؤسس بها ملاجىء للفقراء ، الى أن يضطر أخيرا الى ردهم ثانية حرصا على لذة حرمانهم فى غضبته التالية .

ولا شك أن الشباب يخطئون خطأ جسيما اذا هم سمحوا لسلوكهم أن تؤثر فيه بحال مراعاتهم لوصايا الأحياء ، وعليهم أن يتوقعوا الخسران فى النهاية اذا فعلوا ؛ ومع ذلك فان الاغراء بالوصايا أو التهديد بها عرضة لاساءة الاستعمال ، وهما أداة لا تفتأ تستخدم للتنكيل والتعذيب ، بحيث لو كان الأمر بيدى لسننت قانونا يحرم على الرجل أن يكتب وصية مدى ثلاثة أشهر من تاريخ كل اساءة ارتكبها من اغراء أو تهديد ، ويجعل هيئة المحكمة ، أو القاضى الذى أدانه ، يتصرف فى أملاكه التصرف العادل المعقول

الذى يراه اذا مات الرجل خلال الفترة التى تعطل فيها حقه فى الايصاء .

كان صاحبنا يدعو ولديه الى غرفة الطعام ويقول لهما : « يا عزيزى جون ، يا عزيزى ثيوبولد ، انظرا الىّ ، لقد بدأت الحياة وأنا لا أملك سوى الثياب التى أرسلنى بها أبواى الى لندن . ونفحنى أبى بعشرة شلنات وأمى بخمسة لمصروفى ، ورأيت ذلك منهما غاية الجود والأريحية . اننى لم أطلب شلنا واحدا من أبى طوال حياتى ، ولم آخذ منه أكثر من المصروف الزهيد الذى كان يعطينيه كل شهر الى أن تسلمت راتبا من عملى . لقد شققت طريقى فى الحياة ، وانى أنتظر من أبنائى أن يفعلوا ما فعلت ، فأرجو ألاّ تتوهمّا أننى سأبلى حياتى فى جمع المال لينفقه لى أبنائى . واذا أردتما المال فما عليكما الاّ أن تجمعاه لنفسيكما كما جمعته ، لأننى أؤكد لكما أننى لن أترك لأحدكما فلسا واحدا حتى تثبتا أنكما جديران به . ان الشباب فى هذه الأيام يتوقعون كل أنواع الترف والتسامح التى لم يكن يسمع بها قط فى شبابى . لعمرى لقد كان أبى نجارا عاديا ، وها أنتما طالبان فى المدارس الخاصة تكلفاننى مئات من الجنيهات فى كل عام ، بينما كنت فى سنكما أكد وأكدح خلف منضدة فى مكتب زوج خالتى فيرلاى . أى شىء كان يقصر جهدى دونه لو أتيح لى نصف ما يتاح لكما من فرص ؟ أخلق بكما أن تصبحا أميرين ، أو تنشئا امبراطوريات جديدة فى بلاد لم تكتشف بعد ، ولو فعلتما فاننى فى شك من أنكما تفعلان الكثير بالقياس الى ما فعلت . لا ، لا ، سأتكفل بنفقاتكما فى المدرسة والجامعة ، ولتشقا بعد ذلك طريقكما فى الحياة وحدكما » .

وكذلك كان يثير نفسه شيئا فشيئا الى حالة من الغضب الفاضل ، حتى انه ليجلد أحيانا ولديه فى التو والساعة بحجة من الحجج يخترعها فى تلك اللحظة .

ومع ذلك فلو أنك قست أبناء پوتنفكس بغيرهم من الأطفال لوجدتهم محظوظين ، ولوجدت عشر أسر من الشباب أسوأ منهم حظا مقابل أسرة واحدة تفوقهم حظا ؛ فقد أتيح لهم الطعام والشراب الصحيان الطيبان ، وأتيح لهم الفراش المريح ، وأتيح لهم أفضل الأطباء يعودونهم اذا مرضوا ، وأفضل تعليم يمكن أن يشترى بالمال . فأما الافتقار الى الهواء النقى فيبدو أنه لا يؤثر كثيرا فى سعادة الأطفال الساكنين زقاقا من أزقة لندن : فأكثرهم يغنون ويلعبون كأنهم فى برية من برارى اسكتلندة. كذلك ترى على العموم أن الأطفال الذين لم يعرفوا قط الجو العقلى المبهج لا يدركون أنهم مفتقرون الى هذا الجو . وللصغار قدرة عجيبة اما على الموت واما على الملاءمة بين أنفسهم وبين الظروف . وحتى لو كانوا تعساء — وتعساء جدا — فمن المدهش أن من اليسير جدا منعهم من اكتشاف هذه الحقيقة ، أو على الأقل من نسبتها الى علة غير خطيئتهم هم .

والى الآباء الذين يريدون أن يحيوا حياة هادئة أقول : أخبروا أبناءكم أنهم « أشقياء » جدا — أشقى كثيرا من معظم الأطفال . دلّوهم على أبناء بعض معارفكم وقولوا انهم مثُل للكمال ، واطبعوا فى نفوس أبنائكم احساسا عميقا بنقصهم .فاذا فعلتم فقتموهم عتادا فلا يستطيعون قتالكم . وهذا ما يسمى « بالتأثير الأدبى » ، وهو الذى سيتيح لك أيها الأب أن تهوش أبناءك وتستبد بهم ما وسعك الاستبداد . سيحسبون أنك عالم ببواطن الأمور ، ولن يكونوا قد أمسكوك بعد تكذب عليهم المرة بعد المرة حتى تشككهم فيما زعمت لهم من أنك الشخص الصادق الأمين المترفع عن عرض الدنيا ؛ ولن يعرفوا كذلك مبلغ جبنك العظيم ولا كيف تهرب سريعا لو أنهم حاربوك فى مثابرة وتبصر . احتفظ بالزّهر فى يدك والعب به لنفسك ولأولادك جميعا ، ثم « اقرص » عليه ، فليس أيسر من أن تمنع

أبناءك من فحصه . أخبرهم كم أنت شديد التسامح معهم ؛ وردّد على مسامعهم فى الحاح ما أسديت اليهم من يد لا تقدّر — أولا لأنك أوجدتهم فى هذا العالم أصلا ، ثم لأنك أوجدتهم فيه أطفالا لك أنت لا لغيرك من الناس ، وهذا أهم . قل لهم ان أغلى مصالحهم مهددة بالخطر كلما احتد مزاجك وأردت أن تعنف معهم وتضايقهم شفاء لنفسك . اضرب كثيرا على وتر هذه المصالح الغالية . أطعمهم روحيا على قصص مدارس الأحد التى كان يقصّها أسقف وينشستر — قصص « الكبريت والعسل الأسود »(*). ان فى يدك أوراق اللعب الرابحة جميعها ، فان لم تكن فى يدك ففى امكانك أن تسرقها . انكم أيها الآباء اذا لعبتم بهذه الأوراق بشيء من الحكمة وجدتم أنفسكم أرباب أسر سعيدة متحدة تخشى الله كما وجد صاحبى القديم مستر پوتتفكس نفسه . صحيح أن أطفالكم سوف يكشفون الحقيقة كلها يوما ما فى أغلب الظن ، ولكن هذا لن يكون الا فى وقت متأخر لا يجعل لهذا الكشف فائدة لهم ولا مضايقة لكم .

ولقد شكا بعض الساخرين من الحياة ، لأن جميع مسراتها لا تكون الا فى صدرها ، ولأنه حتم علينا أن نرى هذه المسرات تتضاءل الى أن نوكل أحيانا الى شقاء شيخوخة عاجزة كسيحة .

أما أنا فيخيّل الى أن عهد الشباب أشبه بالربيع — فصل يبالغ الناس فى اطرائه — فصل مبهج اذا اتفق أن يكون ميسرا مرعيا ، ولكنه من الناحية العملية قل أن يكون ، فهو فى العادة أكثر تميزا بالرياح الشرقية القارسة منه بالأنسام اللطيفة العليلة ، بيد أن الخريف فصل أنضج وأطيب ، وما نفقده فى الزهر ابانه نعوضه أضعافا فى الثمر . لقد أجاب فونتنلّلى وهو فى التسعين حين سئل عن أسعد أيام حياته بأنه لا يعرف هل كان فى وقت

(*) Brimstone and treacle دواء للأطفال .

من الأوقات أسعد منه فى ذلك الوقت ، ولكن ربما كانت خير سنى عمره تلك التى قضاها من الخامسة والخمسين الى الخامسة والسبعين . كذلك وضع الدكتور جونسن مباهج الشيخوخة فى مقام أعلى كثيرا من مباهج الشباب . صحيح أننا فى شيخوختنا نعيش تحت ظل الموت الذى قد يسقط علينا كسيف دمقليس فى أية لحظة ، ولكننا ألفنا طويلا أن نجد الحياة مجرد شعور بالخوف أكثر منها شعورا بالأذى ، حتى لقد أصبحنا أشبه بالقوم الذين يعيشون تحت بركان ڤيزوف ، ويقدمون على هذه المغامرة دون كثير من التوجس والريبة .

الفصل السابع

قد تكفى القارىء كلمات قليلة أسوقها عن أكثر الصغار الذين أشرت اليهم فى الفصل السابق . فأما الفتيات اليزا وماريا فلم تكونا جميلتين تماما ولا قبيحتين تماما ، وكانتا من جميع الوجوه « سيدتين » مثاليتين ، وأما اليثيا فكانت رائعة الحسن ، لها طبع مرح ودود أشد ما يكون تناقضا مع طباع أخويها وأختيها . وكان فيها من جدّها لأبيها أثر لا فى وجهها وحسب بل فى حبها للمزاح — وهو حب لم يؤت أبوها منه حظا ، وان لم يخل من شىء يشبه الدعابة شبها بعيدا — شىء صخاب تشوبه الفظاظة والخشونة ويحسبه كثير من الناس براعة فى النكتة .

وأما جون فقد شب فتى حسن الصورة ، مهذب المظهر ، له قسمات فيها بعض الاسراف فى الانتظام والدقة ، وكان متأنقا فى هندامه ، يحسن الخطاب ، ويلزم كتبه على الدوام ، حتى أصبح مقربا من معلميه ؛ على أنه كان فيه استعداد فطرى للمصانعة والمداجاة ؛ وكان التلاميذ أقل حبا له من معلميه . وغدا أبوه فخورا به الى حد ما حين شب عن طوقه ، وذلك برغم المحاضرات التى كان يلقيها عليه أحيانا ؛ ثم انه كان يرى فيه فتى سيصبح على الأرجح رجل أعمال كفئا قديرا لا ينتظر أن تتدهور فى يده آمال الأسرة . وكان جون يعرف كيف يساير أباه ويمازجه ، فمنحه أبوه — فى سن مبكرة جدا — من الثقة كل ما كان فى طبيعته أن يمنحه انسانا .

وأما أخوه ثيوبولد فلم يكن كفئا له ، وكان يعلم ذلك ويتقبل مصيره هذا . لم يكن حسن الصورة كأخيه ، ولا كان يحسن الخطاب مثله ؛ وكان

فى طفولته غضوبا الى حد عنيف ؛ على أنه أصبح الآن كتمة خجولا ، ولا بد لى من القول بأنه كان أيضا بليد العقل والجسم . وكان أقل تأنقا من جون ، وأقل منه قدرة على توكيد نفسه وأقل حذقا فى ارضاء نزوات أبيه . ولست أظنه كان مستطيعا أن يحب أحدا حبا حارا ، ولكن لم يكن فى محيط أسرته شخص لم يخمد محبته أكثر مما يستثيرها ، اللهم الا شقيقته أليثيا ، التى كان فيها من المرح والحيوية ما لا يلائم طبعه المكتئب . وكان كبش الفداء دائما ، وقد خيّل الى أحيانا أنه لم يكن له أب واحد بل أبوان عليه أن يكافحهما — أبوه وأخوه جون ؛ وتستطيع أن تضيف أبا ثالثا ورابعا فى شخص شقيقتيه اليزا وماريا . ولعله لو شعر بعبوديته شعورا حادا جدا لما احتملها ، ولكنه كان بطبيعته هيابا ، وقد أحكمت يد أبيه القوية وثاقه مع أخيه وأخواته فى وحدة ظاهرة مكينة .

وكان الصبيّان نافعين لأبيهما فى ناحية واحدة ، أعنى أنه كان يضرب الواحد منهما بأخيه ، فلم يكن يعطيهما من المصروف الا أقلّه ، ويزعم لثيوبولد أن مطالب أخيه الأكبر أهم بالطبع من مطالبه ، فى حين لا يفتأ يردد لجون أن له أسرة عديدة النفر ، ويؤكد تأكيدا جازما أن نفقاته باهظة ، بحيث أنه لو مات لما وجد أبناؤه ما يقتسمونه الا أقل القليل . ولم يكن يهمه أن يتبادل ولداه الرأى أو لا يتبادلانه مادامـا لا يفعلان هذا فى حضرته. فأما ثيوبولد فلم يكن يشكو حتى وراء ظهر أبيه ، وقد عرفته أوثق ما ينتظر أن تكون معرفة انسان به وهو طفل ، ثم وهو فى المدرسة ، ثم بعد ذلك فى كمبردج ، فلم يكن يذكر اسم أبيه — حتى وهو حى — الا نادرا جدا ، ولم يذكره قط على مسمعى بعد موته . وحين كان فى المدرسة لم يكن زملاؤه يكرهونه كرها نشيطا كما يكرهون أخاه ، ولكن كان فيه من البلادة والافتقار الى الحيوية ما منعهم من أن يحبوه .

وقبل أن يشب الغلام عن طوقه قرر أبوه أن يجعل منه قسيسا . فقد كان من اللائق أن يكرس مستر پونتفكس — ناشر الكتب الدينية المشهور — ولدا من ولديه على الأقل لخدمة الكنيسة ، فمن شأن هذا أن يزيد عمله رواجا ، أو على الأقل أن يحتفظ بما فى المؤسسة من رواج ؛ ثم ان مستر پونتفكس كانت له مع الأساقفة وأحبار الكنيسة منافع متبادلة فى قليل أو كثير ، وقد تتاح لولده وظيفة كبيرة فى الكنيسة بفضل نفوذه . وكان هذا المصير موضوعا نصب عينى الصبى منذ نعومة أظفاره ، وكان ينظر اليه كأنه أمرَ قرره هو فعلا بموافقته ورضائه ، ومع ذلك فقد أُذِنَ له بمظهر من مظاهر حرية الاختيار ، فكان مستر پونتفكس يقول ان من الانصاف أن يعطى الصبى حق الاختيار ، وانه رجل مقسط لا يضن على ولده بما يمكن أن يجنيه من هذا الحق . ثم يقول انه يفزع أشد الفزع من أن يدفع أى شاب الى مهنة لا يحبها ، ومحال عليه أن يضغط على ابن من أبنائه ليتخذ مهنة من المهن ، لا سيما اذا كان الأمر متصلا بمهنة مقدسة كالخدمة الدينية . وعلى هذا النسق كان يجرى حديثه حين يكون فى بيته زوّار وابنه فى الحجرة . وكان يتكلم فى كثير من الحكمة والبراعة بحيث كان ضيوفه المستمعون ينظرون اليه نظرهم الى مثل أعلى فى الانصاف والاتزان ؛ كذلك كان يتكلم فى توكيد كثير ، وكان الجود والاحسان يبدوان على فكيه المتوردين ورأسه الأصلع بحيث كان من العسير ألا ينساق السامعون وراء حديثه . وأعتقد أن جارين أو ثلاثة من جيرانه من أرباب الأسر أعطوا أبناءهم حرية الاختيار المطلقة فى أمر مهنهم — ولست واثقا من أنهم لم يأسفوا بعد ذلك ، بحق ، على ما فعلوا . وأما الزوار فكانوا اذا رأوا ثيوبولد يبدو خجلا غير متأثر اطلاقا بهذا المظهر من مظاهر الرعاية الكثيرة لرغباته ، قالوا لأنفسهم معقبين ان الصبى لا يرجى أن يكون كفئا

لأبيه ، وحكموا عليه بأنه فتى فاتر ينبغى أن يكون أكثر حيوية وأشد احساسا بفرصه مما بدا .

ولم يؤمن أحد بعدالة هذا التصرف كله ايمانا أرسخ من ايمان الصبى نفسه . وقد حمله شعور القلق وعدم الراحة على الصمت ، ولكن الشعور بلغ من العمق والاتصال مبلغا حال بينه وبين التنبه له تنبها كاملا والوصول الى تفاهم فى أمره مع نفسه . كان يخشى الجهمة التى تعلو وجه أبيه اذا أبدى أقل معارضة له ، وما كان لصبى أقوى منه أن يحمل تهديد أبيه العنيف ولا تهكمه الجارح محمل الجد ، ولكن ثيوبولد لم يكن صبيا قويا . وقد اعتقد — ان صوابا وان خطأ — أن أباه على استعداد تام لينفذ فيه تهديداته ، ولم تكن المقاومة قد أكسبته الى الآن شيئا يريده ، ولا الاستسلام فى مثل هذه الأمور ، مالم يكن هذا الذى يريده هو بالضبط ما يريده أبوه . واذا كانت خواطر المقاومة قد راودته اطلاقا من قبل فانها قد اختفت الآن ، وفقدت قوة المعارضة لافتقارها الى الاستعمال فقدانا كاملا أودى أو كاد يودى أيضا بالرغبة فى المقاومة ، فلم يبق الا رضا بليد أشبه برضا حمار جاثم بين حملين . وربما كان يشعر شعورا مبهما غامضا بمثل تختلف عن واقع حياته ، ربما كان يحلم بين الحين والحين بنفسه جنديا أو بحارا فى بلاد أجنبية بعيدة ، أو حتى صبى مزارع فى الفلوات ، ولكن لم يكن فى طبيعته ما يكفى لبارقة أمل فى تحويل أحلامه الى حقائق واقعة ، فانساق مع تياره الذى كان تيارا بطيئا ، وأخشى أن أقول انه أيضا كثير الوحل .

وفى ظنى أن لكتاب « التعليم الكنسى بالسؤال والجواب »(*) صلة كبيرة بهذه العلاقات التعيسة التى لا تزال حتى الآن سائدة بوجه عام بين

(*) Church Catechism

الآباء والأبناء ، فهذا الكتاب كُتِب من وجهة نظر الآباء دون غيرهم ؛ ولم يدع كاتبه بعض الأطفال ليأتوا ويساعدوه فى كتابته ؛ وواضح أنه لم يكن هو نفسه صغير السن . كذلك لا أستطيع القول ان الكتاب بقلم شخص يحب الأطفال — وذلك بالرغم من عبارة « يا ولدى الطيب » التى يفوه بها المعلم مرة — ان لم تخنى الذاكرة — ولكنها مع ذلك ترن فى الآذان رنينا خشنا ، والوقع العـام الذى يتركه هذا الكتاب فى نفوس الصغار هو أن شرّهم الذى ولدوا به لم يمحه العماد الا محوا ناقصا جدا ، وأن مجرد كونهم صغارا على الاطلاق يحمل معه شيئا تشتم منه طبيعة الخطيئة فى وضوح قليل أو كثير .

ولو أن الحاجة قامت لاصدار طبعة جديدة من هذا الكتاب لاقترحت أن تدخل عليه بضع كلمات تلح على واجب السعى وراء كل لذة معقولة وتجنب كل ألم يمكن تجنبه بأمانة وشرف . وددت لو علّم الأطفـال ألاّ يقولوا انهم يحبون أشياء لا يحبونها ، لا لشىء الاّ لأن غيرهم من الناس يقولون انهم يحبونها ، وأن من الغفلة أن يقولوا انهم يؤمنـون بهذا أو بذاك وهم لا يفهمون عنه شيئا . فاذا اعترض معترض بأن هـذه الاضافات تجعل الكتاب أطول مما ينبغى اقترحت اختصار الملاحظات الواردة عن واجبنا نحو جارنا ، وعن أسرار الكنيسة ، وبدلا من الفقرة التى تبدأ بعبارة « أحب أيها الرب الهى وأبى السماوى » .. أود أن ـــولكن لعل من الخير أن أعود الى ثيوبولد ، وأترك مهمة صياغة الكتاب من جديد لمن هم أكثر منى قدرة عليها .

الفصل الثامن

عقد مستر پوتنفكس آماله على أن يصبح ولده « زميلا »(*) فى كلية قبل أن يصبح قسيسا ، فمن شأن هذا أن يتيح له دخلا عاجلا ويضمن حصوله على وظيفة دينية اذا لم يحصل عليها بفضل أحد أصدقاء أبيه من رجال الكنيسة . وكان الصبى قد سار فى المدرسة سيرا طيبا يجعل هــذا الأمل ممكن التحقيق ، وأرسله أبوه الى كلية صغرى من كليات كمبردج ، ورتب له من فوره دروسا خاصة على يد أفضل من وجد من المدرسين ، وقبل أن ينال ثيوبولد درجته بعام أو نحوه أدخل نظام للامتحان زاد من فرص الزمالة المتاحة له ، لأن كفايتـه — ان كانت له أية كفاية — كانت فى الدراسات القــديمة أكثر منها فى الرياضيات ، وقد شجع هــذا النظام الدراسات القديمة تشجيعا لم يعهد من قبل .

وكان لثيوبولد من الفطنة ما بصّره بأن أمامه فرصة للاستقلال اذا جد واجتهد ، وقد راقته فكرة الزمالة المرتقبة ، فبذل الجهد ونال فى النهاية درجة جامعية جعلت حصوله على الزمالة — على الأرجح — مسألة زمن لا أكثر ، واغتبط أبوه حقا حين بلغه النبأ . وأخبر ولده أنه سيهديه مؤلفات أى كاتب كبير يختاره ، واختار الفتى آثار بيكن ، فأقبل بيكن اليه يرفل فى مجلدات عشرة أنيقة الغلاف . على أن قليلا من الفحص أظهر أن النسخة كانت مستعملة .

(*) Fellow خريج كلية يتمتع بمنحة دراسية تعينه على مواصـــلة الدرس .

كانت الخطوة المرتقبة بعد حصوله على درجته هي رسامته قسيسا — وهي خطوة لم يفكر فيها ثيوبولد بأكثر من الرضا بها كأنها شيء لابد أن يأتي بطبيعة الحال يوما ما . على أن هذه الخطوة أتت الآن فعلا ، وراحت تؤكد نفسها باعتبارها شيئا لابد أن يتم بعد بضعة شهور لا أكثر . وروّعه هذا بعض الترويع ، لأنه لم يكن من سبيل للخروج منه متى دخل فيه . ولم يكن يحب مشهد الرسامة من قريب ولا من بعيد ، بل انه بذل جهودا هزيلة للهروب منه كما يرى القارئ من الرسائل التالية التي وجدها ولده ارنست بين أوراق أبيه مكتوبة بمداد حائل على ورق مذهّب الحافة ومربوطة ربطا أنيقا بقطعة من الشريط دون أن يكون معها أي مذكرة أو تعقيب . وسأثبتها هنا بنصها دون تغيير ولا تبديل :

أبي العزيز — لست أحب فتح موضوع كان يعتبر مفروغا منه ، بيد أني كلما قرب الوقت بدأت أشك كثيرا في مبلغ صلاحيتي لأن أكون قسيسا ، لا لأن أقل الشكوك — معاذ الله — تخامرني من ناحية الكنيسة الانجليزية ، فأنا أستطيع أن أوقع باخلاص على كل مادة من مواد العقيدة الكنسية التسعة والثلاثين التي تبدو لي حقا منتهى الحكمة البشرية ، ثم ان « پالي » لم يترك ثغرة لمعارض ؛ ولكنني واثق أنني أكون مخالفا لرغباتك لو أخفيت عنك أنني لا أشعر في داخلي بالهاتف الذي يدعوني لأن أكون خادما للانجيل ، هذه الدعوة التي يتحتم على أن أقول انني شعرت بها حين يرسمني الأسقف . وأنا أحاول أن أظفر بهذا الشعور ، وأصلّي من أجله بحرارة ، ويخيل اليّ أحيانا أنني ظفرت به ولكنه ما يلبث أن يتضاءل ويزول . ومع أنني لا أنفر نفورا مطلقا من احتراف الدين ، ومع أنني واثق بأنني لو صرت قسيسا لجهدت في أن أحيا لمجد الله وأن أعمل على تحقيق أغراضه على الأرض — مع ذلك فأنا أشعر بأن شيئا أكثر من

هذا يجب توافره فىّ قبل أن يكون لى كامل الحق فى احتراف الدين . أنا عالم أننى كبّدتك نفقات كثيرة برغم المكافآت الدراسية التى حصلت عليها ، ولكنك ما فتئت تعلمنى أنه ينبغى أن أطيع ضميرى ، وضميرى ينبئنى بأننى أكون مخطئا ان أصبحت قسيسا ، ولعل الله يمنحنى يوما هذه الروح التى أؤكد لك أننى كنت ولا أزال أصلى من أجلها برغبة صادقة ، ولكنه قد لا يمنحنيها ، وفى هذه الحالة أفلا يكون خيرا لى أن أحاول البحث عن شىء آخر ؟ أنا أعلم أنه لا أنت ولا جون تريداننى أن أشارككما فى تجارتكما ، ثم اننى لا أفهم شيئا عن شئون المال ، ولكن أليس هنـاك شىء آخر أستطيع عمله ؟ أنا لا أحب أن أطلب اليك الانفاق علىّ لأُعِدّ نفسى لمهنة الطب أو المحاماة ؛ ولكننى اذا حصلت على الزمالة — ولن يبطىء هذا كثيرا فى ظنى — فسأحاول أولا ألاّ أكلفك فوق ما تكلفت ، وربما استطعت أن أكسب بعض المال بالكتابة أو باعطاء الدروس الخاصة . وأنا أرجو ألاّ ترى هذا الخطاب نابيا ، فليس أبعد عنى من الرغبة فى مضايقتك . وأرجو أن تغتفر لى هذه المشاعر التى لا تنبعث فى الحق الاّ من احترامى لضميرى — ذلك الاحترام الذى لم يغرسه فىّ أحد أكثر مما غرسته أنت ، وآمل أن تبعث الىّ قريبا ببضعة أسطر . أرجو أن يكون بردك قد خف ، وانى أبعث بمحبتى الى اليزا وماريا ، وما زلت لك الولد المحب .

ثيوبولد پونتفكس

عزيزى ثيوبولد — فى وسعى أن أفهم حقيقة مشاعرك ، ولا أريد أن اعترض على اعرابك عنها . ومن الحق ، ومن الطبيعى ، أن تشعر بما تشعر به ، وذلك اذا استثنينا فقرة واحدة ستحس أنت ولا شك ما فيها من عدم لياقة اذا أنعمت فيها النظر ، وهى فقرة لن أشير اليها بأكثر من القول بأنها جرحتنى ، فما كان ينبغى لك أن تقول « بالرغم من المكافآت الدراسية التى

حصلت عليها » فقد كان صوابا — اذا كان فى وسعك أن تفعل شيئا لتساعدنى فى تحمل عبء تعليمك — أن يتحول المال الىّ كما حوّل فعلا . وكل سطر فى رسالتك يقنعنى بأنك واقع تحت تأثير حساسية مريضة هى أسلوب من أساليب الشيطان المحببة اليه ، والتى يخادع بها الناس حتى يوردهم موارد التلف ، لقد كلفنى تعليمك غاليا كما قلت ، ولم أدخر شيئا فى سبيل اتاحة الفرص التى كنت تواقا لاتاحتها لابنى بوصفى رجلا انجليزيا من الطبقة الراقية ، ولكننى لست على استعداد لأن أرى هذه التكاليف تضيع هباء فأضطر الى أن أبدأ معك من جديد ، لا لسبب الا لأن وساوس سخيفة قد طافت برأسك — وساوس يجب أن تقاومها لأنها ليست أقل ظلما لك مما هى لى . فلا تستسلم لرغبة التغيير القلقة التى هى لعنة ابتلى بها أفراد كثيرون من الجنسين فى وقتنا الحاضر .

وما من حاجة تضطرك بالطبع الى الرسامة : فلن يكرهك عليها أحد ، ولك فيها كامل الحرية ، فلقد بلغت الثالثة والعشرين ، ومفروض أنك تعرف نيتك ، ولكن لمَ لمْ تعرف هذه النية مبكرا بدل أن تلزم الصمت فلا تبدى اشارة لمعارضة الى أن جشمتنى كل هذه النفقة على تعليمك فى الجامعة ، وهى نفقة ما كنت لأتحملها لولا ايمانى بأنك قد اعتزمت احتراف الدين ؟ ان بيدى خطابات منك تعرب فيها عن كامل رغبتك فى الرسامة ، ويؤيدنى أخوك وشقيقاتك فى القول بأنه لم يقع عليك أى نوع من أنواع الضغط . انك تخطىء فى تبيّن نيتك ، وأنت تعانى من خوف عصبى قد يكون طبيعيا جدا ولكنه مع ذلك قد يكون أيضا مليئا بالعواقب الوخيمة عليك . ان صحتى ليست على ما يرام أبدا ، والقلق الذى سببه لى خطابك ينهشنى بالطبع . أسأل الله أن يهديك الى رأى أصوب .

والدك المحب ج . پونتفكس

ولما تسلم ثيوبولد هذه الرسالة استجمع شجاعته وقال لنفسه « ان أبى يقول لى أن لا حاجـة تضطرنى الى الرســامة اذا لم أردها . وأنا لا أريدها ، لذلك لن أرسم . ولكن ما معنى هذه الكلمات « ملىء بالعواقب الوخيمة عليك » ؟ أثمة تهديد يختبىء وراءها — وان كان عسيرا أن تضع اصبعك عليه أو على كلماته ؟ ألم يقصد بها أن تحدث كل الأثر الذى يحدثه التهديد دون أن تكون فعلا مهددة ؟ » .

وكان ثيوبولد خبيرا بأبيه خبرة لا يحتمل معها أن يخطىء فهم مرماه ، ولكنه بعد أن غامر بالسير الى هذا الحد فى طريق المعارضة ، واذ كان تواقا فى الحق للهروب من الرسامة اذا استطاع الى الهروب سبيلا ، فقد صمم على أن يمضى فى مغامرته شوطا أبعد . وكتب هذه الرسالة الى أبيه :

أبى العزيز — لقد أخبرتنى — وأنا شاكر لك هذا من صميم قلبى — أن أحدا لن يكرهنى على الرسامة . وكنت أعلم أنك لن تفرضها علىّ اذا كان ضميرى يعارض فيها معارضة جدية ؛ لذلك صممت على التخلى عن الفكرة ، وأنا أعتقد أنك اذا واصلت منحى ما تمنحنيه الآن حتى أحصل على زمالتى — التى لن تبطىء فى ظنى ، فاننى سأكف عندها عن تكليفك نفقة أكثر مما تكلفت ، وسأستقر بأسرع ما أستطيع على المهنة التى سأتخذها وأحيطك بها علما لتوّى .

ولدك المحب ثيوبولد پوتنفكس

والى القارىء الرسالة الواحدة الباقية ، التى بعث بها أبوه برجوع البريد ، وهى تتسم بفضيلة الايجاز :

عزيزى ثيوبولد — تلقيت رسالتك ، وأنا حائر فى تصور دافعك اليها ولكن لا لبس عندى فى نتيجتها . فانك لن تتلقى منى فلسا واحـدا حتى تثوب الى رشدك . فاذا أبيت الا أن تمعن فى حماقتك وشرك ، فيسعدنى

أن أتذكر أن لى أبناء آخرين أستطيع أن أركن الى أن سلوكهم سيكون مبعث فخر وسعادة لى .

والدك المحب المتكدّر

ج . پونتفكس

ولا علم لى بالنتيجة العاجلة التى أسفرت عنها الرسائل آنفة الذكر ، ولكن الأمر كله انتهى على خير وجه . فاما أن قلب ثيوبولد خذله ، واما أنه فسّر هذه الدفعة الخارجية الخشنة التى دفعه بها أبوه على أنها الهاتف الباطنى الذى لا أشك فى أنه كان يصلّى من أجله صادقا مخلصا — لأنه كان مؤمنا ايمانا راسخا بفاعلية الصلاة ، وكذلك أنا فى ظروف معينة . لقد قال تنسون « ان الصلاة تحقق أشياء أكثر مما يحلم العالم بها »(*) ، ولكنه أمسك فى حكمة عن أن يقول : أهى أشياء طيبة أم خبيثة ؟ ولعله يكون من الخير أن يحلم العالم ببعض هذه الأشياء التى تحققها الصلاة ، أو حتى أن يتنبه لها ، ولكن هذا السؤال عويص ولا ريب . والخلاصة أن ثيوبولد حصل فى النهاية على زمالته بنفحة من نفحات الحظ اثر نيله درجته ، ثم رسم قسيسا فى خريف العام نفسه (عام ١٨٢٥) .

(*) من قصيدة له عن « موت الملك آرثر »

الفصل التاسع

كان مستر ألبى راعى كنيسة كرامپسفورد ، وهى قرية تبعد أميالا من كمبردج . وكان هو أيضا قد نال درجة جامعية طيبة وحصل على زمالة ، ثم ما لبث بمرور الزمن أن قبل وظيفة قسيس من وظائف الكلية يبلغ راتبها أربعمائة جنيه فى العام بالاضافة الى مسكن مجانى للراعى . ولم يكن دخله الخاص يجاوز المائتين فى العام . ولما تخلى عن زمالته تزوج بامرأة أصغر منه كثيرا ولدت له أحد عشر طفلا ، بقى منهم على قيد الحياة آنئذ تسعة — ولدان وسبع بنات . وكانت ابنتاه الكبيرتان قد وفقتا الى زواجين لا بأس بهما ، ولكن ما زال فى الفترة التى نحن بصددها خمس بنات تتفاوت أعمارهن بين الثلاثين والثانية والعشرين . ولم يكن واحد من الولدين قد أراح أباه بعد من نفقات تربيته . وكان واضحا أنه لو أصاب مستر ألبى سوء لخلّف أسرته من بعده فقيرة ، فأشقت هذه الفكرة الرجل وزوجه كما كان لابد أن تشقيهما .

وانى أسألك أيها القارىء ، أكان لك دخل لم يكن فى خير الظروف دخلا كبيرا ، يتبخر كله بموتك الا مائتى جنيه فى العام ؟ وهل كان لك فى الوقت ذاته ولدان يجب أن تعينهما على كسب معاشهما على أى وجه ، وخمس بنات تتمنى أن تجد لهن أزواجا — ان عرفت كيف تجدهم ؟ واذا كانت الأخلاق الفاضلة هى ، على العموم ، ما يجلب للمرء سلاما فى سنوات شيخوخته — أعنى اذا لم تكن غشا خالصا ، فهل تستطيع فى ظروف كهذه أن تهنىء نفسك على أنك سرت سيرة فاضلة ؟

أقول هذا حتى اذا بلغت زوجك من الطيبة حدا لم يجعلك تزهدها أو تملها ، ولم تتدهور صحتها تدهورا يهبط بصحتك أنت أيضا بدافع العطف والمشاركة ؛ وحتى اذا شب أبناؤك أقوياء لطفاء ، ووهبوا الفطنة والادراك السليم . وأنا أعرف الكثير من عجائز الرجال والنساء الذين اشتهروا بين الناس بالخلق الفاضل ، ولكنهم يعيشون مع أزواج كفّوا منــذ زمان عن محبتهم ، أو لهم بنــات عوانس ، فيهن قبح وسماجة ، لم يستطيعوا قط أن يجدوا لهن أزواجا — بنات يبادلنهم الكراهية سرا ، أو أبناء لا يفتأون يرهقونهم بحماقتهم أو اسرافهم . فهل من الأخلاق الفاضلة أن يجر المرء على نفسه مثل هذا ؟ ان الأخلاق فى حاجة الى من يفعل بها هذا الذى نال ذلك الشيخ المنافق « بيكن » شرف فعله بالعلم .

ولكن لنعد الى مستر ألبى وزوجه . كانت مسز ألبى تتحدث عن تزويجها بنتين من بناتها كأنه أيسر الأشياء ، وتتحدث بهذا الأسلوب لأنها سمعت غيرها من الأمهات يتحدثن به ، ولكنها فى صميم قلبها لا تعلم كيف فعلت هذا الأمر ، بل هل كان من فعلها اطلاقا . فأولا كان هناك شاب حاولت أن تستخدم معه مناورات رددتها المرة بعد المرة فى خيالها ولكنها وجدت تطبيقها العملى أمرا محالا ، ثم تلت ذلك أسابيع قلقة من الآمال والمخاوف والحيل الصغيرة التى ثبت فى أكثر الأحيان خطلها ، وأخيرا سقط الشاب — على نحو أو آخر — صريعا تحت قدمى ابنتها مقيدا وقد اخترق قلبه سهم . وبدا لها أن الأمر كله نفحة من نفحات الحظ لا أمل لها فى تكرارها ، الا أن يكون أملا ضعيفا . صحيح أنها كررتها مرة ، وقد يعينها الحظ على تكرارها مرة أخرى — ولكن خمس مرات ! لقد بدا لها الأمر رهيبا : أجل ، انها لتؤثر أن تحتمل عناء ثلاث ولدات أخر عن أن تتجشم مشقة تزويج بنت واحدة من بناتها .

ومع ذلك فلم يكن هناك مناص من هذا ، ولم تكن مسز ألبى المسكينة تتطلع الى شاب دون أن تؤمل فيه أن يكون صهرا لها . قد يسأل آباء البنات وأمهاتهن الشبان أحيانا عن نواياهم تجاه بناتهم ، وهل هى نوايا شريفة أو غير شريفة ، وأظن أن للشبان أن يسألوا الآباء والأمهات بين الحين والحين عن نواياهم ، وهل هى شريفة أو غير شريفة ، قبل أن يقبلوا دعوات لزيارة بيوت ما زال فيها بنات لم يتزوجن بعد .

وقال مستر ألبى لزوجه وهمـا يناقشان خطوتهما التالية « ليس فى وسعى أن أدفع راتب مساعد قسيس يا عزيزتى ، وأنا أوثر أن أجد شابا ليأتى ويعيننى بعض الوقت يوم الأحد ، وهذا ميسور نظير جنيه عن كل أحد . وسنستطيع بهذه الوسيلة أن نغيّر ونبدل حتى نحصل على الشخص المناسب » . وهكذا اتفق على القول بأن صحة مستر ألبى لم تعد قوية كما كانت من قبل ، وأنه فى حاجة الى معين فى أداء واجبات الأحد .

وكان لمسز ألبى صديقة حميمة تدعى مسز كاوى ، وهى زوج الأستاذ كاوى الشهير ، وكانت — كما يقولون — امرأة روحانية التفكير بحق ، بدينة بعض البدانة ، لها لحية نابتة ، وصلات واسعة بطلاب الجامعة وعلى الأخص من كان منهم يميل الى المشاركة فى الحركة التبشيرية الكبيرة التى كانت فى ذروتها آنئذ . وكانت تدعوهم مرة كل أسبوعين لحفلات مسائية تؤلف الصلاة جزءا من برنامج الترفيه فيها . ولم تكن هذه المرأة روحانية التفكير وحسب ، ولكنها كانت — على حد تعبير مسز ألبى المتحمسة — امرأة خبيرة بأمور هذه الدنيا خبرة تامة فى الوقت نفسه ، ولها معين لا ينضب من الفطرة السليمة القوية . وكان لها هى أيضا بنات ، ولكنها — كما ألفت أن تقول لمسز ألبى — كانت أقل حظا من مسز ألبى لأنهن تزوجن الواحدة تلو الأخرى وتركنها وحيدة . ولولا أن أطال الله لها فى عمر زوجها الأستاذ لأقفرت شيخوختها .

وكانت مسز كاوى بطبيعة الحال تعرف جميع القسيسين العزاب فى الجامعة ، فهى اذن الشخص الذى يستطيع أن يعين مسز ألبى على العثور على مساعد لائق لزوجها ، وهكذا ركبت مسز ألبى ذات صباح فى شهر نوفمبر من عام ١٨٢٥ حسب اتفاق سابق لتتناول غداء مبكرا مع مسز كاوى وتقضى معها فترة المساء . وبعد الغداء خلت السيدتان معا وبدأت مهمة اليوم ، أما كيف حاورتا وداورتا ، وكيف تبيّنت الواحدة منهما نوايا صاحبتها ، وكيف تظاهرتا فى اخلاص أنهما لا تتبينان الواحدة منهما نوايا صاحبتها ، وكيف أطالتا الحديث فى رفق عن الصلاحية الروحية لهـذا الشماس أو ذاك ، وعمّا له من فضائل وما عليه من مآخذ بعد الفراغ من صلاحيته الروحية ، فكل هذا يجب أن يترك لخيال القارىء . وكانت مسز كاوى قد ألفت كثيرا تدبير الخطط والمكائد لحسابها الخاص ، بحيث أصبحت تؤثر تدبيرها لأى انسان عن ألاّ تدبرها اطلاقا . وكان كثير من الأمهات يلجأن اليها فى محنتهن ، فان مسز كاوى لم تكن تقصر قط فى أن تؤدى لهن خير ما تستطيع بشرط أن يكنّ ذوات تفكير روحانى ؛ ومن ثم فاذا لم يكن زواج الشاب خريج الجامعة يتم فى السماء ، فمن الأرجح أن يتم — أو عـلى الأقل يدبّر — فى غرفة اسـتقبال مسز كاوى . وقد استعرضت المرأتان فى هذه المناسبة جميع شمامسة الجامعة الذين يكمن فيهم أى بريق من الأمل وناقشتاهم مناقشة ضافية ، وكانت النتيجة أن مسز كاوى صرحت بأن صاحبنا ثيوبولد يكاد يكون خير ما تستطيع أن تستقر عليه فى ذلك المساء .

وقالت مسز كاوى « لست واثقة من أنه شاب جذاب جدا يا عزيزتى ، ثم انه ليس الا الولد الثانى لأبيه ، ولكن لا تنسى أنه حصل على زمالته ، وحتى اذا كان ولدا ثانيا لرجل كمستر پوتنفكس الناشر ، فهو لابد مصيب رزقا مريحا جدا » .

وقالت مسز ألبى « أجل ، أجل ، يا عزيزتى ، هذا ما أظننى أشعر به » .

الفصل العاشر

لم يكن بدٌ من أن تنتهى المقابلة كما تنتهى كل الأشياء الطيبة ، فالنهار قصير ، وعلى مسز ألبى أن تركب ستة أميال الى كرامپسفورد . فلما تلفعت واتخذت مقعدا فى العربة لم يستطع جيمس خادم مستر ألبى أن يتبين فى مظهرها أى تغيير ، ولم يخطر بباله ما كان يسوق مع سيدته من خواطر الغبطة والبهجة . وكان الأستاذ كاوى قد نشر بعض مؤلفاته عن طريق والد ثيوبولد ، ومن ثم كانت مسز كاوى ترعاه منذ بداية عهده بالجامعة ووضعت عينها عليه حينا وهى تكاد تشعر أن واجبها يقتضيها أن تزيل اسمه من قائمة الشبان الواجب تزويجهم ، شعور مسز ألبى المسكينة بأن من واجبها الحصول على زوج لاحدى بناتها ، لذلك كتبت اليه الآن تطلب اليه الحضور لمقابلتها بعبارات أثارت فضوله . فلما حضر حدثته فى موضوع مستر ألبى وصحته المتداعية ، وبعد أن ذللت المصاعب التى كان خليقا بمسز كاوى وحدها أن تذللها لاهتمامها بالأمر ، اتفق على أن يذهب ثيوبولد الى كرامپسفورد ستة آحاد متعاقبة ، ويضطلع بنصف ما يضطلع به مستر ألبى من واجبات لقاء نصف جنيه عن كل أحد ، لأن مسز كاوى خفضت المكفأة العادية فى غير رحمة ، ولم يكن فى ثيوبولد من القوة ما يتيح له المعارضة فى هذا الخفض .

واذ كان ثيوبولد يجهل الخطط التى تدبر لتكدير هدوئه النفسى ، واذ لم يكن عنده فكرة أبعد من كسب جنيهاته الثلاثة ، وربما من ادهاش سكان كرامپسفورد بثقافته الجامعية ، فقد انطلق الى مسكن الراعى صباح

ذات أحد فى أوائل ديسمبر — بعد رسامته بأسابيع قليلة . وكان قد بذل عناية فائقة فى تحضير عظته ، التى كانت الچيولوچيا موضوعا لها . وكانت الچيولوچيا فى تلك الفترة قد برزت الى الطليعة غولا لاهوتيا . فبيّن للسامعين أنه اذا كان للچيولوچيا قيمة على الاطلاق — وكان فيه من السماحة ما منعه من تسخيفها والتهكم بها — فانها تؤكد الطابع التاريخى المطلق لقصة الخليقة الموسوية كما وردت فى سفر التكوين ، وأية ظاهرة طبيعية يبدو للوهلة الأولى أنها تناقض هذا الرأى ليست الا ظاهرة ناقصة ، وهى لابد منهارة بعد البحث والتقصى . ولم يكن فى الامكان أن يقال أجمل ولا أبدع مما قال ثيوبولد ، فلما عاد الى مسكن الراعى — الذى اتّفق على أن يتناول الغداء فيه فيما بين الخدمتين — هنأه مستر ألبى تهنئة حارة على هذه البداية ، وقالت سيدات الأسرة انهن عاجزات عن الاعراب عن اعجابهن .

وكان ثيوبولد يجهل كل شىء عن النساء ، اذ لم يسبق له أن اتصل بنساء غير شقيقاته ، وكانت اثنتان منهن ينهرنه على الدوام ، ثم صديقات لهما من المدرسة حملتا أباهما على دعوتهن الى « المهرست » . وكانت هؤلاء الفتيات اما خجولات خجلا حال دون أى ألفة بينهن وبين ثيوبولد ، واما ظنّ فيهن الذكاء فكن يقلن له أشياء فيها حذق وألمعية ، ولم يكن هو يقول أى شىء فيه حذق أو ألمعية ، ولم يكن يريد غيره من الناس أن يقولوه . أضف الى ذلك أنهن كن يتحدثن عن الموسيقى — وكان يكره الموسيقى ؛ أو عن الصور — وكان يكره الصور ؛ أو عن الكتب — وكان يكره الكتب الا ما اتصل منها بالدراسات القديمة . ثم كان يطلب اليه أحيانا أن يراقصهن ، ولم يكن يعرف الرقص ولا يريد أن يعرفه .

وفى حفلات مسز كاوى كان يرى بعض الشابات ويقدّم اليهن . وقد

حاول أن يتلطف ويتظرف معهن ، ولكنه كان دائما يترك بعد لقائهن وقد انطبع فى نفسه أنه لم ينجح معهن ، ولم تكن الشابات فى حفلات مسز كاوى أكثر الفتيات فتنة فى الجامعة ، وقد يلتمس لثيوبولد العذر فى أنه لم يضيع قلبه على أكثرهن ، ولكنه كلما اتفق وجوده دقيقة أو دقيقتين مع فتاة أجمل وألطف من هؤلاء ، رأى شابا آخر أقل منه خجلا يزاحمه للتو والساعة تقريبا ، فكان ثيوبولد يتسلل وفى نفسه من ناحية الجنس اللطيف شعور أشبه بشعور الرجل الكسيح فى(*) « بركة بيت حسدا » .

ولست أدرى ماذا كانت فتاة لطيفة حقا مستطيعة أن تصنع به ، ولكن القدر لم يرم فى طريقه فتاة من هـذا الطراز — الا اذا استثنينا أخته الصغرى أليثيا التى كان من الجائز أن يحبها لولا أنها شقيقته . وكانت نتيجة تجربته أن النساء لم يفدنه أية فائدة ، وأنه لم يألف أن يقرنهن بأية لذة ، واذا كان هناك جزء فى مسرحية هملت له صلة بالنساء فانه كان محذوفا تماما فى الطبعة التى طلب اليه أن يمثل فيها ، حتى انتهى به الأمر الى عدم الايمان بوجوده ، وأما التقبيل فانه لم يقبّل فى حياته امرأة الا أخته — وأخواتى أنا حين كنا جميعا أطفالا صغارا نلعب معا . ولم يزد على هذه القبلات الا قبلة رخوة وقورة كان لزاما عليه الى عهد قريب جدا أن يطبعها على خد أبيه كل مساء وصباح ، وهذا فى اعتقادى قصارى ما وصل اليه علم ثيوبولد فى باب التقبيل خلال الفترة التى نحن بصددها الآن . وحاصل ما تقدم أن الأمر قد انتهى به الى أن يكره النساء لأنهن كائنات غامضات لم تكن طرقهن مثل طرقه ، ولا أفكارهن مثل أفكاره .

(*) كان المرضى والمقعدون يجتمعون حول هذه البركة التى قيل ان ملاكا كان ينزل أحيانا ويحرك الماء فيها ، فمن نزل منهم أولا فى الماء بعد تحريكه برىء . وكان هذا الرجل لايجد من يلقيه فى البركة ، فاذا هم بالنزول سبقه آخر .

وأحس ثيوبولد — وهذه السوابق فى نفسه — شيئا من الحياء بطبيعة الحال حين وجد نفسه محط اعجاب خمس شابات غريبات عنه . وانى لأذكر حين كنت صبيا أننى دعيت مرة لأتناول الشاى فى مدرسة للبنات كانت احدى شقيقاتى تلميذة بقسمها الداخلى ، وكنت يومها أناهز الثانية عشرة . وسار كل شىء على ما يرام خلال تناولنا الشاى لأن السيدة المشرفة على القسم كانت معنا . ولكنها ما لبثت أن انصرفت فتركت وحيدا مع الفتيات . وما ان ولت المعلمة ظهرها حتى أقبلت رئيسة الفتيات — وكانت فى نحـو ستى — وأشارت باصبعها علىّ ، ولوت سحنتها تهكما بى ، وقالت فى لهجة جادة «و — ل — د ـ ق — ذ ـ ر ـ !» وحذت الفتيات حذوها كل فى دورها ، بذات الاشارة وذات التأنيب لكونى ولدا . وروّعنى هـذا ترويعا شديدا ، وأعتقد أننى صرخت . وأنا واثق أنه مضى زمان قبل أن أستطيع مرة أخرى أن أواجه فتاة دون أن أحس رغبة شديدة فى الهروب منهـا .

وشعر ثيوبولد أول الأمر بمثل شعورى وأنا فى مدرسة البنات ، ولكن الآنسـات ألبى لم تقلن له انه و — ل — د قذر . ، وكان أبوهن وأمهن حفيّين به ، وذللت له الفتيات أنفسهن مشقة الحديث فى براعة وحذق . فلم يفرغ من غدائه حتى اعتقد أن الأسرة فى الحق لطيفة جدا ، وشعر أنها قدرته تقديرا لم يظفر بمثله من قبل .

وزال عنه خجله بعد الغداء . ولم يكن الفتى قبيح الصـورة قط ، وكانت سمعته الدراسية فى الجامعة طيبة جدا ، ولم يكن فيه شىء خارج عن المألوف أو مثير للسخرية يمكن أن تضع عليه اصبعك ، وكان الأثر الذى طبعه فى نفوس الفتيات طيبا كالأثر الذى طبعنه فى نفسه ، لأن علمهن بالرجال لم يكن يفوق كثيرا علمه بالنساء .

وما أن انصرف حتى هبت زوبعة زعزعت هدوء البيت ووحدته . وكان مثارها هذا السؤال : أيهن تكون مسز پونتفكس ؟ وقال أبوهن حين رأى أن لا أمل فى أن يحسمن الأمر فيما بينهن « يا عزيزاتى ، انتظرن الى الغد ثم العبن الورق عليه » وبعد أن قال هذا اعتكف فى مكتبته حيث تناول كأسا مسائية من الوسكى ودخن قصبة من التبغ .

الفصل الحادي عشر

شـــهد صباح الغد ثيوبولد فى مسكنه يعطى درسا خاصـــا لطالب ، والآنسات ألبى يلعبن الورق على ثيوبولد فى حجرة نوم كبراهن . .

وكانت الرابحة كرستينا — البنت الثانية بين البنات غير المتزوجات — وهى يومها فى السابعة والعشرين من عمرها ، أى تكبر ثيوبولد بأربع سنوات . وشكت الفتيات الصغيرات قائلات ان فى تركـ كرستينيا لتحاول اقتناصه تضييعا لفرصة الحصول على زوج لاحداهن ، لأنها كانت تكبره الى حد يفقدها كل أمل فى اقتناصه ، ولكن كرستينيا أبدت من روح الكفاح والنضال مالم يكن مألوفا فيها ، اذ كانت بطبيعتها هادئة مستسلمة . ورأت أمها أن من الخير أن تشد أزرها ، ومن ثم فقد أرسلت الفتاتان الخطرتان فورا لتزورا أصدقاء للأسرة بعيدين ، ولم يسمح بالبقاء فى البيت الا للشقيقتين اللتين يمكن الاعتماد على ولائهما . أما الصبيّان فلم يدر بخاطرهما شيء عما كان يجرى فى البيت ، واعتقدا أن أباهما يستعين بثيوبولد لأنه كان حقا فى حاجة الى المعونة .

ووفت الشقيقتان الباقيتان فى البيت بعهدهما ، فمدتا الى كرستينيا ما وسعهما من معونة . ذلك لأنهما — فضـــلا عما أوتيتا من شـــعور الأنصاف — قالتا لنفسيهما انه كلما أمكن الاسراع فى اقتناص ثيوبولد أمكن الاسراع فى طلب شماس آخر قد تظفر به واحدة منهما . وتم تدبير كل شيء على وجه السرعة حتى أن الشقيقتين اللتين لم يركن الى ولائهما كانتا قد غادرتا المنزل فعلا قبل زورة ثيوبولد التالية — التى تمت فى الأحد التالى لأول أحد زار فيه الأسرة .

وشعر ثيوبولد هذه المرة بتمام الاطمئنان وبزوال الكلفة فى بيت أصدقائه الجدد — فقد أصرت مسز ألبى أن يدعوهم بهذا الاسم ، وقالت انها تهتم بالشبان — لا سيما برجال الدين منهم — اهتمام الأم بأبنائها. وصدق ثيوبولد كل كلمة قالتها كما كان يصدق أباه وكل الكبار منذ صغره. وجلست كرستينا الى جواره فى الغداء ، ولعبت ورقها بفطنة وروية لا تقلان عن فطنتها ورويتها حين لعبته فى مخدع شقيقتها. فابتسمت (وابتسامتها من مواطن الفتنة فيها) كلما تحدث اليها ، واستحضرت كل ألاعيبها الساذجة وعرضت كل بضاعتها الصغيرة فى أكثر مظاهرها فتنة. ومن يستطيع أن يلومها ؟ حقيقة ان ثيوبولد لم يكن المثل الأعلى الذى حلمت به يوم كانت تقرأ بيرون فى الطابق الأعلى من البيت مع شقيقاتها ، ولكنه « واقع » فى حدود الامكان ، ثم انه « واقع » ليس بالردىء اذا قيس بغيره ، وماذا كانت تستطيع أن تفعل غير هذا ؟ أتهرب من بيت أبيها ؟ انها لا تجرؤ. أم تتزوج من رجل دون طبقتها فتجلب العار على أسرتها ؟ انها لا تجرؤ. أم تبقى فى البيت وتصبح عانسا وتغدو هزأ للناس ؟ انها لن تفعل ذلك اذا استطاعت أن تحول دونه. لذلك فعلت الشىء الوحيد الذى يمكن توقعه اذا كان المرء منصفا. لقد كانت غريقة ؛ وقد يكون ثيوبولد قشة لا أكثر ، ولكنها تستطيع أن تتشبث به ، وهكذا فعلت.

واذا كان نهر الحب الصادق لا يجرى رخاء أبدا ، فان نهر « الوساطة » الصادقة فى الزواج قد يفعل ذلك أحيانا. ولم يكن فى حالتنا الراهنة هذه من سبب للشكوى الا أن جريه كان بطيئا بعض الشىء. لقد قام ثيوبولد بالدور الذى رتب له بأيسر مما جرؤت مسز كاوى ومسز ألبى على أن تطمعا فيه. فرق لطبع كرستينا الجذاب ، وأعجب بالطابع الخلقى الرفيع

الذى اتسم به كل شىء قالته ، فكان لطفها مع أخواتها وأبيها وأمها ، واستعدادها لحمل أى عبء صغير لا يبدو على غيرها الاستعداد لحمله ، وسلوكها المرح — كل أولئك فتن شابا كان بشرا مهما قيل من عدم تعوده الاختلاط بالنساء . وطابت نفسه بما سمعه من مديحها له ذلك المديح البادى الاخلاص برغم تواضعه ، وبدا أنها تراه فى ضوء أفضل ، وتفهمه خيرا مما كان يفهمه أى شخص خارج هذه الأسرة اللطيفة . وبدلا من أن توبخه كما كان يوبخه أبوه وأخوه وشقيقتاه أخرجته عن صمته ، وأعارت كل ما خطر له أن يقوله أذنا صاغية ، وكان واضحا أنها ترغب اليه فى أن يقول أكثر مما قال . وأخبر ثيوبولد زميلا من زملاء الكلية بأنه موقن الآن أنه يحب ، انه يحب ما فى ذلك ريب ، لأنه يميل الى صحبة الآنسة ألبى أكثر كثيرا من ميله الى صحبة شقيقتيه :

وفضلا عن فضائل كرستينا التى ذكرنا ، كان لها فضيلة أخرى هى ذلك الصوت الذى قيل عنه انه من النوع « الرنان » (*) جميل غاية الجمال . كان صوتها ولا ريب رنانا ، لأنها لم تكن تستطيع أن تصل به الى أعلى من نغمة « د » فى « الندىّ »(**) ، وعيبه الوحيد أنه لم ينخفض فى « الجهير »(***) انخفاضا متناسبا . على أن الناس فى تلك الأيام كانوا يحسبون الصوت الرنان مشتملا حتى على الندىّ اذا لم يستطع الندىّ أن يبلغ فى ارتفاعه نغمات الندىّ ، ولم يكن من الضرورى أن تتوافر له الصفة التى ننسبها الآن الى الرنان . وقد عوّضها عن مدى الصوت وقوته تلك الحساسية التى كانت ترنّم بها . فقد نقلت ترنيمة « الملائكة الوضاءة الجميلة أبدا » الى مقام أوطأ ليلائم صوتها ، مثبتة بذلك — فى رأى أمها — أن لها علما كاملا دقيقا بقوانين الانسجام

Bass (***) Soprano, treble (**) Contral

الموسيقى ؛ ولم تكتف بهذا ، بل انها فى كل وقفة كانت تضيف من عندها حلية من الأنغام المتلاحقة من أول مفاتيح البيانو الى آخرها متبعة فى ذلك مبدأ لقنتها اياه مربيتها ؛ وهكذا أضفت حياة وطرافة على لحن يشعر كل انسان — كما قالت — بأنه ثقيل بعض الثقل فى الصورة التى تركها عليه هاندل .

وأما مربيتها فقد كانت حقا موسيقية نادرة الثقافة : تتلمذت للدكتور كلارك الأستاذ الشهير بجامعة كمبردج ، وكانت تعزف استهلال لحن « أتلانتا » كما وضعه ماتزنجى . ومع هذا كله فقد انقضى زمن قبل أن يستطيع ثيوبولد استجماع شجاعته ليصل الى بيت القصيد ، وهو عرض الزواج فعلا على كرستينا . لقد أظهر بجلاء أنه يعتقد أنه مفتون بها أى فتنة ، ولكن الشهر يمضى تلو الشهر والأمل المعقود على ثيوبولد ما يزال كبيرا فلا يجرؤ مستر ألبى على أن يكتشف أنه قادر على أن يؤدى عمله بنفسه ، ثم يبدأ يضيق بكثرة أنصاف الجنيهات التى ينفقها — ومع ذلك فان العرض لم يأت . وأكدت أم كرستينا لثيوبولد أنها زين البنات قاطبة ، وأنها ستكون كنزا غاليا لمن يتزوجها . وردد ثيوبولد عواطف مسز ألبى بحرارة ، ولكنه — وان كان قد زاد زيارته لبيت الراعى الى مرتين أو ثلاث فى الأسبوع ، فضلا عن زيارة الأحد — لم يعرض على كرستينا الزواج . وقالت مسز ألبى يوما « ان قلبها ما زال خليا يا عزيزى مستر پوتنفكس ؛ ذلك ما أعتقده أنا على الأقل ، لا لقلة عدد المعجبين بها — لا لا ! — فقد كان لها من هؤلاء نصيبها الأوفى ، ولكن ارضاءها عسير جدا ، أجل عسير جدا . على أننى أظنها ستقع مستسلمة أمام رجل عظيم فاضل » . ثم نظرت فى حدة الى ثيوبولد الذى احمر خجلا ؛ ولكن الأيام مضت وهو لا يعرض الزواج .

وفى مرة أخرى أفضى ثيوبولد فعلا بسره لمسز كاوى ، وللقارىء أن يحزر أى رواية عن كرستينا تلقاها منها . وجربت مسز كاوى معه مناورة الغيرة ، ولمّحت الى مزاحم له فى الجو . وفزع ثيوبولد جدا أو تظاهر بالفزع ، واخترقت صدره غصّة بدائية صغيرة من غصص الغيرة ، وبدأ يعتقد فى اعتزاز وفخر أنه لم يكن مغرما فحسب ، ولكنه غرام لا شفاء منه ، والاّ لما أحس أبدا مثل هذه الغيرة ، ومع ذلك فقد مضى اليوم بعد اليوم وهو لا يعرض الزواج .

وتصرف أفراد الأسرة معه تصرفا غاية فى الفطنة . فقد لاطفوه حتى قطعوا عليه خط الرجعة عمليا وان خادع نفسه بأن الخط مفتوح ، وذات يوم بعد انقضاء ستة شهور ، حين أصبح ثيوبولد يختلف كل يوم تقريبا الى بيت الراعى ، تحول الحديث مصادفة الى الخطبات الطويلة . وقال ثيوبولد فى غير تبصر « أنا لا أحب الخطبات الطويلة يا مستر ألبى ، فهل تحبها أنت ؟ » وقال مستر ألبى فى نغمة من يعنيه بغمزته « كلا ، ولا التودد الطويل » ثم رمى ثيوبولد بنظرة لم يستطع التظاهر بعدم فهمها ، فعاد الى كمبردج بأسرع ما يستطيع ، وفى خشية من حديث مستر ألبى الذى أحس أنه يتهدده ، دبّج الرسالة التالية التى حمّلها فى ذات المساء رسولا خاصا الى كرامپسفورد . والى القارىء نص الرسالة :

عزيزتى مس كرستينا — لست أدرى هل حزرت العواطف التى خفق بها قلبى طويلا من نحوك — العواطف التى أخفيتها جهدى مخافة أن أجرك الى خطبة لا مناص اذا دخلت فيها من أن تطول كثيرا ، ولكننى عاجز برغم هذا عن اخفائها أطول مما أخفيتها ؛ انى أحبك حبا حارا مخلصا وأبعث اليك بهذه السطور طالبا اليك أن تكونى زوجا لى لأننى لا أجرؤ على أن أركن الى لسانى لكى يعبر تعبيرا وافيا عن عظم محبتى لك .

وليس فى وسعى أن أزعم أننى أقدم لك قلبا لا عهد له بالحب ولا بالاخفاق فيه . فلقد أحببت من قبل ، ومرّت سنوات قبل أن يفيق قلبى من الحزن الذى شعرت به وأنا أراها تصبح زوجة لغيرى . على أن هذا قد مضى وانقضى ، وأنا بعد رؤيتى اياك أغبط نفسى على هذا الاخفاق الذى خلته حينا قاضيا علىّ . صحيح أنه تركنى عاشقا أقل حرارة مما كان يمكن أن أكون ، ولكنه زاد أضعافا مضاعفة من قدرتى على تقدير مفاتنك الكثيرة ، ومن رغبتى فى أن تصبحى زوجا لى . فأرجوك أن تبعثى بسطور مع حامل هذه الرسالة لتعلمينى بالقبول أو عدمه ، فاذا قبلتنى وافيتك لتوى وناقشت الأمر مع مستر ومسز ألبى اللذين أرجو أن يتاح لى يوما أن أدعوهما بأبى وأمى .

ويخلق بى أن أنبهك الى أنك ان وافقت على الزواج منى فقد تمضى سنوات قبل أن يتيسر اتمام هذا الزواج ، لأننى لا أستطيعه حتى تتاح لى وظيفة قسيس من وظائف الكلية . فاذا استصوبت أن ترفضى طلبى فسيؤسفنى رفضك أكثر مما يدهشنى .

المخلص لك أبدا

ثيوبولد پونتفكس

وهذا قصارى ما أفاد ثيوبولد من تعلّمه فى المدارس الخاصة وفى الجامعة ! أما هو فقد ظن أن خطابه لا بأس به ، وهنأ نفسه بخاصة على براعته فى اختلاق قصة الغرام القديم الذى قصد أن يستتر وراءه اذا شكت كرستينا من أى فتور فى مسلكه معها .

ولا حاجة بى الى أن أورد رد كرستينا الذى كان بالقبول طبعا ، ومع أن ثيوبولد كان يخشى الشيخ ألبى كثيرا ، فلست أحسبه كان مستجمعا شجاعته الى حد عرض الزواج فعلا لولا أنه قدّر أن الخطبة ستكون بالضرورة

طويلة الأجل وأن أشياء وأشياء قد تحدث خلالها فتفسخها . وأيا كان استنكاره للخطبات الطويلة عند غيره من الناس ، فانى فى ريب من أنه كان يمانع فيها ممانعة شديدة فى حالته الخاصة . وما أشبه العاشقين بشروق الشمس وغروبها ؛ وكم من أشياء تحدث بينهما كل يوم ، ولكن قلما نراها . ولقد اتخذ ثيوبولد موقف أكثر المحبين حرارة ، ولكن الأمر كله كان زهوا واختيالا . وأما كرستينا فكانت عاشقة ، كما كانت فى الحق عشرين مرة قبل ذلك . ولكن الفرق أن كرستينا كانت طيعة ، سريعة التأثر والانفعال ، وما كان فى وسعها حتى أن تسمع اسم « مسولونجى » يذكر دون أن تجهش بالبكاء . لقد ترك ثيوبولد مصادفة حقيبة عظاته فى بيتهم ذات أحد ، فنامت وهى تحتضنها ، وأحست الحرمان والهجران حين اضطرت الى أن « تلفظها » فى الأحد التالى ؛ أما ثيوبولد فلست أحسبه كان مصطحبا الى فراشه ولا فرشاة أسنان لكرستينا . أجل ، لقد عرفت مرة فتى ظفر بقبقاب حبيبته الذى كانت تتزحلق به ، فكان ينام وهو يحتضنه أسبوعين كاملين ، وبكى حين اضطر الى التخلى عنه .

الفصل الثانى عشر

لم يكن بخطبة ثيوبولد بأس الى هذا الحد ، ولكن كان هناك سيد عجوز ذو رأس أصلع وخد متورد يجلس فى مكتبه بياترنستر رو — لابد من احاطته علما بمشروع ولده ان عاجلا أو آجلا ، وكان قلب ثيوبولد يرتجف حين يسأل نفسه عن الموقف الذى ينتظر أن يتخذه هذا السيد العجوز . على أن جريمة القتل لم يكن بد من أن تظهر ، وصمم ثيوبولد وخطيبته ، ربما فى غير حرص ولا حكمة ، على أن يعترفا بها فورا . فكتب ما ظنه هو وكرستينا — التى أعانته على تحرير رسالته — خير ما يمكن أن يكتبه ولد لأبيه ، وأعرب عن شوقه الى الزواج فى أقرب وقت مستطاع ، ولم يكن فى وسعه الا أن يقول هذا ، لأن كرستينا كانت تقف الى جواره ، وكان يعلم أن لا ضير من هذاالقول ، لأنه واثق أن أباه لن يعينه عليه ، واختتم رسالته بأن طلب الى أبيه استخدام ما يسعه من نفوذ لمساعدته فى الحصول على وظيفة قسيس ، لأنه قد تمضى سنوات قبل أن تشغر وظيفة قسيس بالكلية ، ولم يكن أمامه أمل آخر فى وسيلة تمكنه من الزواج ، فانه لا هو ولا خطيبته يملكان مالا الا الاعانة الجامعية التى يتلقاها ثيوبولد ، وهى ولا شك مقطوعة عنه اذا تزوج .

وكان من المؤكد أن تثير أية خطوة يتخذها ثيوبولد اعتراض أبيه ، ولكن رغبته وهو فى الثالثة والعشرين فى الزواج بفتاة مفلسة تكبره بأربع سنوات أتاحت فرصة ذهبية انتهزها الشيخ — ويجدر بى أن أسميه الآن شيخا لأنه كان قد بلغ الستين على الأقل — وانتهزها فى شوق معهود فى طبعه ، فكتب الى ولده حين تلقى رسالته يقول :

ان حماقة غرامك الهوائى بمس ألبى — هـذه الحمـاقة التى تفوق الوصف ، تملؤنى بأشد المخاوف ، وأنا مع ادراكى التام لما فى المحب من عمى ، لست أشك أن هذه الآنسة شابة حسنة السيرة لطيفة المعشر ، وأنها لن تغض من كرامة أسرتنا بزواجها منك ، ولكنها لو كانت تليق لك أضعاف ما أستطيع أن أطمع فيه ، فان فقركما جميعا يقف عقبة كؤودا فى سـبيل زواجكما . ان لى أربعة أولاد خلافك ، ونفقاتى لا تتيح لى وفرا فى المال ، وقد كانت هذه النفقات باهظة جدا هذا العام ، لأننى اضطررت الى شراء قطعتين من الأرض غير صغيرتين اتفق عرضهما فى السوق وكانتا ضروريتين لاكمال عقار طالما أردت تجميعه على هذه الصورة . لقد منحتك تعليما دون نظر الى ما كلفنى من نفقة ، وقد يسر لك هذا التعليم دخلا مريحا فى سن ما زال كثير من الشبان فيها كلاًّ على ذويهم . وهكذا مكنتك من أن تبدأ حياتك بداية طيبة ، ويحق لى أن أطالبك بأن تكف عن أن تكون عبئا علىّ أكثر مما كنت ، ان الخطبات الطويلة مضرب الأمثال فى عدم رضاء الناس عنها ، والأمل فى الزواج فى حالتك هذه يبدو بعيدا جدا ، فقل لى بربك ، أى نفوذ تظنه لى على الناس يتيـح أن أظفر لك بوظيفة فى الكنيسة ؟ أأستطيع أن أذرع البلاد طولا وعرضا لأستجدى وظيفة لولدى لأنه ركب رأسه وأراد أن يتزوج دون أن يكون له مورد كاف ؟

لست أريد أن أغلظ لك القول ، فليس أبعد من هذا عن حقيقة عواطفى من نحوك ، ولكن كثيرا ما يكون فى الكلام الصريح عطف أكثر مما يكون فى أى قدر من الألفاظ الناعمـة التى لا تتمخض عن نتيجة ملموسـة ، وأنا عالم بالطبع أنك قد بلغت رشدك ، وأنك لذلك تستطيع أن تفعل ما تشاء ، ولكنك اذا أبيت الا أن تطلب لنفسك ما خوله لك نص القانون

وحرفه فتصرفت دون مراعاة لمشاعر أبيك ، فلا تدهش اذا وجدت يوما أننى طلبت لنفسى مثل هذه الحرية .

والدك المحب

ج . پونتفكس

ولقد وجدت هذه الرسالة مع الرسائل التى أوردتها من قبل ، ومع رسائل أخرى لا داعى لايرادها هنا ، ولكنها كلها تتسم بذات النغمة ، وفيها كلها تهديد واضح وضوحا متفاوتا بالحرمان قرب ختام الرسالة . وأنا اذ أذكر ما كان يخيّم على ثيوبولد من صمت عن ذكر أبيه خلال السنوات الطويلة التى عرفته فيها بعد موت أبيه ، أرى فى احتفاظه بالرسائل ، وفيما كتبه على ظهرها (رسائل من أبى) ، بلاغة يخيل الى أن فى نضاعيفها رائحة طفيفة من سلامة التصرف وطبيعيته .

ولم يطلع ثيوبولد كرستينا على رسالة أبيه ، ولست أظنه أطلع عليها أحدا من الناس . لقد كان بطبيعته كتمة ، ولقد وقع عليه من الضغط والكبت قدر كبير ، وفى وقت مبكر ، فلم تتح له القدرة على التهكم أو على التنفيس عن غيظه المكظوم اذا كان الأمر متصلا بأبيه . وكان شعوره بالخطأ ما زال شعورا أخرس ، يحسه كأنه ثقل فادح ثابت لا يفتأ يجثم على صدره يوما بعد يوم ، فاذا استيقظ فى الليل شعر به ما يزال جاثما على صدره ، ولكنه لا يكاد يعرف له كنها . لقد كنت أوثق أصدقائه صلة به تقريبا ، ولكننى لم أكن ألقاه الا لماما ، لأننى لم أكن أستطيع الانسجام معه طويلا . كان يقول اننى خلو من من الاحترام والتوقير ، فى حين كنت أرانى كثير التوقير لما يستحق أن يوقر ، ولكن الآلهة التى خالها من ذهب كانت فى حقيقة أمرها مصنوعة من معدن أخس . ولم يكن يشكو لى قط من أبيه كما قلت ، وكان أصدقاؤه الوحيدون غيرى على غراره ، فيهم رزانة وتكلف

للمجد ، وفيهم نزعات تبشيرية ، ويملؤهم احساس التأثم من أى عمل من أعمال العصيان للآباء ، شبان فى الحق طيبون — والمرء لا يستطيع أن ينفس عن صدره لشاب طيب .

فلما أحاط ثيوبولد حبيبته كرستينا علما بمعارضة أبيه وبالزمن الذى لابد على الأرجح من انقضائه قبل أن يستطيع الزواج ، عرضت عليه — ولست أدرى مبلغ اخلاصها فى هذا العرض — أن تحلّه من خطبته ؛ ولكن ثيوبولد أبى أن يتحلّل — « ليس فى الوقت الحاضر على الأقل » على حد قوله ، وكانت كرستينا ومسز البى تعلمان أنهما تستطيعان أن تسوساه ، وعلى هذا الأساس الذى لم يكن مرضيا جدا استمرت الخطبة فى طريقها . ورفعت خطبة ثيوبولد ، ورفضه أن يخلى منها فى الحال ، من قدره فى عينى نفسه . ذلك أنه على بطء فهمه لم يكن يفتقر الى الاعجاب الصامت بنفسه . كان يعجب بنفسه لما أتيح له من تفوق فى الجامعة وما أوتى من طهارة فى الحياة (وقد قلت عنه مرة انه لو أوتى طبعا ألطف من طبعه لكان فى براءة زهرة لم تتلوث) ، ومن نزاهة فى مسائل المال لا يتطرق اليها الشك . ولم ييأس من الارتقاء فى وظائف الكنيسة اذا ظفر بوظيفة منها ، وكان فى حدود الامكان بالطبع أن يصبح يوما ما أسقفا ، وقالت كرستينا انها تشعر شعور الاقتناع بأن مآله فى النهاية الى الأسقفية .

وكانت أفكار كرستينا تشغل كثيرا بالدين كما كان طبيعيا أن تشغل أفكار ابنة قسيس وخطيبة قسيس ، وقد استقر فى ذهنها أن فضائلها — حتى اذا لم تظفر هى وثيوبولد بمقام رفيع فى هذه الدنيا — ستلقى التقدير الكامل فى الآخرة . وكانت آراؤها الدينية تتفق اتفاقا تاما مع آراء ثيوبولد ، وما كان أكثر أحاديثها معه عن مجد الله وعن تكريسهما نفسيهما لهذا المجد تكريسا كاملا فور حصول ثيوبولد على وظيفته

وزواجهما ، وكانت واثقة من النتائج العظيمة التى سيسفر عنها هذا وثوقا جعلها تعجب أحيانا من اغفال العناية لأعز مصالحها اذ لم تقتل القسس الذين وقفوا حائلا بين ثيوبولد ووظيفته بأسرع قليلا مما كانت تقتلهم .

كان الناس فى تلك الأيام يؤمنون فى سذاجة تامة لا ألحظها اليـــوم بين المتعلمين من الرجال والنساء ، وما كان ليخطر ببال ثيوبولد أن يشك فى صحة أى مقطع من مقاطع الكتاب المقدس صحة حرفية ، فانه لم ير قط كتابا يجادل فى هذه الصحة ، ولم يقابل انسانا يرتاب فيها . صحيح كان الناس يفزعون قليلا من أمر الچيولوچيا ، ولكن لم يكن فى هذا ضـــير كثير . وما دام قد قيل انه تعالى أنزل سباتا على آدم ، ونزع ضلعا منه وصنع منه امرأة ، فلابد أن الأمر حدث على هذه الصورة طبعا . فقد ذهب — أى آدم — لينام كما يذهب هو — ثيوبولد پونتفكس — فى حديقة أشبه بحديقة كنيسة كرامپسفورد خلال شهور الصيف التى تلبس فيها أجمل حللها ، بيد أن جنة آدم كانت أوسع ، وكان فيها بعض الحيوانات البرية الأليفة . ثم أقبل عليه الله ، كما يقبل مستر ألبى أو أبوه عليه ، وانتزع فى خفة ضلعا من أضلاعه دون أن يوقظه ، ثم أبرأ الجرح بطريقة معجزة فلم يترك للجراحة أثرا . وأخيرا أخذ الله الضلع — ربما الى المستنبت الزجاجى ، وهناك حوله الى امرأة شابة لا تختلف عن كرستينا . ذلك هو السبيل الذى اتخذه الله فى الخليقة ، فليس فى الأمر صعوبة ولا ظل صعوبة . ألا يستطيع الله أن يصنع ما يشاء ، وألم يقل لنا فى كتابه الموحى به انه صنع هذا ؟

ذلك — فى المتوسط — موقف الشباب الذى أصاب قسطا لا بأس به من التعليم من قصة الخليقة الموسوية منذ خمسين عاما أو أربعين أو حتى عشرين ، ومن ثم لم تتح محاربة الكفر والالحاد للشباب من رجال الدين

ذوى الجرأة والاقدام مجالا كبيرا للعمل ، كذلك لم تكن الكنيسة قد بدأت ذلك النشاط الذى أظهرته بعد تلك الفترة بين الفقراء فى مدننا الكبرى . فكان هؤلاء الفقراء متروكين دون محاولة تقريبا لمقاومة الجهود — أو لمعاونة الجهود — التى يبذلها رجال الدين من خلفاء وسلى . صحيح أن أعمال التبشير فى البلاد الوثنية كانت تجرى فى شىء من النشاط ، ولكن ثيوبولد لم يشعر بأى هاتف يدعوه الى الاشتغال مبشرا . لقد اقترحت عليه كرستينا غير مرة أن يكون مبشرا ، وأكدت له السعادة العظمى التى ستغمرها اذا أصبحت زوجا لمبشر وقاسمته مخاطر حياته ؛ بل قالت انها هى وثيوبولد ربما استشهدا فى سبيل رسالتهما ؛ وهما بالطبع يستشهدان معا فى وقت واحد ؛ ولم يبد لها الاستشهاد — اذا وقع بعد سنوات طويلة ، وهى تتأمله من خميلة حديقة الراعى — بالأمر المؤلم ؛ انه سيضمن لهما مستقبلا مجيدا فى العالم الآخر ، وعلى الأقل شهرة بعد موتهما فى العالم الحاضر — حتى اذا لم يرَدّا الى الحياة ثانية بمعجزة — وقد حدث مثل هذا من قبل للشهداء . على أن ثيوبولد لم تثر حميته حماسة كرستينا ، ومن ثم فقد وجهت همها الى كنيسة روما — وهى عدو أشد خطرا من الوثنية نفسها ، إن كان ذلك ممكنا . ان معركة يخوضانها مع الكثلكة قد تكسبها هى وثيوبولد اكليل الشهادة . صحيح أن كنيسة روما كانت تلتزم فى ذلك الحين هدوءا معتدلا ، ولكنه الهدوء الذى يسبق العاصفة ؛ وهى واثقة من هذا مقتنعة به اقتناعا أعمق مما كانت تبلغه بأية حجة مبنية على العقل وحده .

وهتفت قائلة « اننا يا عزيزى ثيوبولد سنكون أبدا أمينين وفيين . سنقف ثابتين ، وسيشد الواحد منا أزر صاحبه حتى فى ساعة الموت نفسه ، وقد يعفينا الله برحمته من أن نحرق أحياء . قد يفعل هذا وقد لا يفعله » .

(ثم تطلعت بعينيها الى السماء مبتهلة) « أيها الرب ، أنقذ حياة عزيزى ثيوبولد ، أو اسمح بأن يقطع رأسه » .

وقال ثيوبولد فى وقار « يا عزيزتى ، لا تدعينا نثير أنفسنا فى غير موجب . فاذا أتت ساعة الامتحان فسنكون متأهبين أفضل تأهب لملاقاتها لأننا عشنا حياة متضعة هادئة ، كلها انكار للذات وتعلق بمجد الله . فلنبتهل الى الله أن يرضى فيسمح لنا أن نصلى لنحيا مثل هذه الحياة » .

وهتفت كرستينا وهى تكفكف الدموع التى تجمعت فى مآقيها : « يا عزيزى ثيوبولد انك دائما ، دائما على حق . فلنكن منكرين لذاتينا ، تقيين مستقيمين ، صادقين فى القول والعمل » وضمت يديها وتطلعت الى السماء وهى تتكلم .

وأجاب حبيبها قائلا : « أيتها العزيزة ، اننا لم نأل جهدا فى أن نكون كل أولئك ؛ لقد كنا قوما زاهدين فى عرض الدنيا ؛ فلنسهر ولنصل لكى نظل كذلك الى النهاية » .

وكان القمر قد طلع وأصبحت الخميلة رطبة الهواء ، فأرجأ الحديث فى المزيد من آمالهما لوقت أنسب . وكانت كرستينا أحيانا أخرى تتخيل نفسها هى وثيوبولد يواجهان ازدراء كل انسان تقريبا فى سبيل تحقيق عمل جبار يفضى الى مجد الفادى . أجل ، ان فى وسعها أن تواجه كل شىء فى هذا السبيل ، ولكن مشهدا كان يسبق ختام رؤياها هذه على الدوام — مشهد تتويج صغير فى أبهى طباق السماوات العلا وابن الانسان نفسه يضع على رأسها اكليلا وسط جيش من الملائكة ورؤساء الملائكة الذين يتطلعون اليها فى حسد واعجاب — وهنا كان الجميع — حتى ثيوبولد نفسه — خارج المشهد ، لا يحظى بما حظيت به . ولو وجد شىء اسمه « صنم البر » ، لودت كرستينا ولا شك أن تصادقه . لقد كان أبوها وأمها

قوما محترمين جدا ، وسيحصلان فى الوقت المناسب على منازل سماوية يستمتعان فيها بالراحة العظمى، وكذلك ستفعل شقيقاتها ولا ريب ؛ بل ربما فعل أخواها أيضا ؛ أما هى نفسها فقد شعرت أن مصيرا أسمى قد أعد لها ، ومن واجبها ألاّ تغفل عينها عنه .وكانت أول خطوة نحوه هى زواجها من ثيوبولد . على أن كرستينا — رغم شطحات خيالها الدينى — كانت فتاة لطيفة الطباع دمثة الخلق ، ولو أنها تزوجت رجلا معقولا من غير رجال الدين — فندقيا مثلا — لأصبحت ربة نُزُل طيبة ، ولكانت جديرة بمحبة نزلائها .

كذلك كانت حياة ثيوبولد خلال خطبته ، وكم من الهدايا الصغيرة تبادلها الخطيبان ، وكم من المفاجآت الصغيرة أعدا لبعضهما البعض فى سرور وابتهاج . انهما لم يتشاجرا قط ، ولم يغازل أحدهما غير صاحبه قط . وكانت مسز ألبى وبناتها يعبدن ثيوبولد برغم استحالة الاستعانة بشماس آخر يأتمرن به لاقتناصه ما دام ثيوبولد قادرا على معاونة مستر ألبى ، وهى معاونة كان يقوم بها الآن بالطبع لوجه الله . على أن اثنتين من شقيقات كرستينا أفلحتا فعلا فى أن تجدا زوجين قبل أن تزف أختهما ، وكان ثيوبولد فى كل مرة يلعب دور الفيل الذى يوضع شركا لغيره من الأفيال . وهكذا لم يبق فى النهاية بغير زواج من البنات السبع سوى اثنتين فقط .

وبعد ثلاث سنوات أو أربع تعود الشيخ پونتفكس على خطبة ابنه وأصبح ينظر اليها نظرة الى الأشياء التى اكتسبت بالتقادم حقها فى تسامحه وغفرانه . وفى ربيع ١٨٣١ ، بعد انقضاء أكثر من خمس سنوات على أول زورة قام بها ثيوبولد لكرامپسفورد ، خلت وظيفة من أفضل الوظائف فى هبات الكلية على غير انتظار ، ولأسباب شتى رفضها الزميلان الأقدم من ثيوبولد ، واللذان كان ينتظر أن يأخذها واحد منهما . وهكذا عرضت

الوظيفة على ثيوبولد ، فقبلها بطبيعة الحال لأنها كانت تغل دخلا لا يقل عن خمسمائة جنيه في العام بالاضافة الى بيت مناسب وحديقة ، وهنا هزت الأريحية الشيخ پوتنفكس بأكثر مما كان متوقعا ، فأوصى لولده وزوجه بعشرة آلاف جنيه مدى حياتهما وبباقي نصيبهما لمن يعينانه من ذريتهما .

وفي شهر يوليو ١٨٣١ زف ثيوبولد الى كرستينا .

الفصل الثالث عشر

قذف على العربة التى رحل فيها العروسان انسعيدان عن بيت الراعى ما تيسر من الأحذية القديمة ، ودارت العربة حول الناصية فى نهاية القرية . وكانت ترى عندئذ مسافة مائتى ياردة أو ثلاثمائة وهى تدلف مارة بحرج من أشجار الشربين ، ثم غابت عن النظر .

وقال مستر ألبى لخادمه « أغلق البوابة يا چون » ثم دخل الى بيته وهو يتنهد تنهد الفرج والراحة ، وكأنه يقول : « لقد فعلتها وأنا حى بعد » . ذلك كان رد الفعل يعد نوبة من التهليل الحار جرى خلالها الشيخ عشرين ياردة وراء العربة ليقذفها بخف — وقد قذفها به كما ينبغى .

ولكن ، ماذا كانت مشاعر ثيوبولد وكرستينا حين جاوزا القرية وطوت بهما العربة الطريق فى هدوء مارة بحرج الشربين ؟ هذه هى اللحظة التى لابد أن يتخاذل فيها أشجع القلوب ، الا اذا كان يخفق فى صدر انسان غارق لآذانه فى الحب . فاذا ركب شاب زورقا صغيرا فوق بحر هائج مائج ومعه عروسه التى زفت اليها ، وأصيب كلاهما بدوار البحر ، واذا استطاع العاشق الجائش النفس أن ينسى ألمه وسط ما يحس من سعادة اذ يمسك برأس حبيبته الجميلة وهى فى أسوأ حالاتها — اذا استطاع أن يفعل هذا كان عاشقا حقا ، ولم يكن قلبه فى خطر من أن يخذله وهو يجتاز حرج الشربين ، ولكن غيره من الناس ، وأكثر من يزفون لأزواجهم لابد أن يدرجوا فى عداد هذا « الغير » لسوء الحظ ، لا مفر لهم من أن يجوزوا ربع أو نصف ساعة ـ يتا سوءا يختلف حسب الحالة . واذا راعينا الكم ، ففى

ظنى أن الشوارع المتفرعة من كنيسة القديس چورچ بميدان هانوڤر شهدت عذابا تعسيا أكثر مما شهدت زنزانات المحكوم عليهم بالاعدام فى سجن نيوجيت . فليس هناك وقت تضع فيه « بنت الموت »(*) كما يسميها الايطاليون يدها الباردة على رجل أبشع مما تضعها خلال نصف الساعة الأول الذى ينفرد فيه بامرأة زفّ اليها دون أن يحبها قط حبا حقيقيا .

و « بنت الموت » هذه لم تعف ثيوبولد . لقد سلك الى الآن مسلكا طيبا جدا ، فلما عرضت عليه كرستينا أن تخليه ثبت على عهده بشهامة ما فتىء يتيه بها فخرا منذ تلك اللحظة ، فيقول لنفسه : « أنا على أية حال عنوان الشرف ، فأنا لست كذا وكذا » الخ .. الخ ..

حقا ان الجزاء الفعلى — أو سمّه الدفع النقدى ان شئت — فى لحظة الشهامة بدا بعيدا ، فلما وافق أبوه على زواجه رسميا بدأت الأمور تتخذ سيماء الجد ، ولما خلت وظيفة الكلية وقبلها ثيوبولد ازداد جدّها ، ولكن لما حدّدت كرستينا اليوم فعلا ، ساخ قلب ثيوبولد فى باطنه .

وكانت الخطبة قد طالت طولا جعله يسكن مطمئنا ، لذلك كان احتمال التغيير أمرا مزعجا . لقد قال لنفسه انه هو وكرستينا عاشا متفاهمين تفاهما طيبا جدا سنين كثيرة ، فلماذا — لماذا — لماذا لا يمضيان فى هذا التفاهم بقية حياتهما ؟ ولكن ليس أمامه من فرصة للنجاة أكثر من فرصة الشاة تساق الى فناء الجزار الخلفى ، ولقد شعر كما تشعر الشاة أن لا جدوى من المقاومة ، لذلك لم يقاوم . والحق انه سلك سلوكا كريما ، فحكم الناس جميعا بأنه رجل من أسعد الرجال الذين يخطرون ببالهم .

(*) La figlia della Morte

أما الآن فقد سقطت « الطبلية » فعلا من تحته — ان شئت استعارة أخرى ، وتعلق هذا التعس المسكين بين الأرض والسماء مع المخلوقة التى أحبها . وكانت هذه المخلوقة تبلغ الآن الثالثة والثلاثين ، تفصح سحنتها عن سنها بأبلغ بيان ؛ وقد احمرت عيناها وأنفها من البكاء ؛ واذا كانت هـذه العبارة « لقد فعلتها وأنا حيّ بعد » قد كتبت على سحنة مستر ألبى بعد أن قدف بالحذاء ، فان هذه العبارة « لقد فعلتها ، ولست أرى كيف أستطيع أن أعيش أطول مما عشت » كتبت على سحنة ثيوبولد وهو راكب العـربة مجتازا حرج الشريين . على أن هذا لم يره أحـد من بيت الراعى . فكل ما أمكن رؤيته من هناك هو اهتزاز رأس الحوذى علوا وهبوطا وهو يرتفع قليلا عن قمة السياج المحاذى للطريق اذ يقوم الرجل فى ركابه ، ومنظر جسم العربة الذى اختلط فيه السواد بالصفرة .

ومضت فترة والعروسان لا ينبسان بكلمة : أما الشعور الذى لابد قد شعرا به فى نصف الساعة الأوّل فعلى القارىء أن يحزره لأنه فوق طاقتى أن أخبره به ؛ على أن ثيوبولد عثر ، بعد هذا الزمن ، بالتنقيب فى ركن من أركان نفسه على نتيجة خلاصتها أن الخير كل الخير — وقد أصبح هو وكرستينا الآن زوجين — فى أن يبادرا فورا بالدخول فى علاقاتهما المشتركة المستقبلة . حقا لو أن الناس الذين تعترضهم صـعوبة قاموا بأول خطوة معقولة صغيرة يستطيعون أن يتبينوا فى وضـوح أنها معقولة ، لوجـدوا الخطوة التالية لها دائما أيسر رؤية وتنفيذا . وقال ثيوبولد لنفسه ماهو اذن فى هذه اللحظة أول وأوضح أمر يجب النظر فيه ، وما الرأى العادل المنصف فى موقفه المشترك هو وكرستينا من هذا الأمر ؟ واضح أن غداءهما الأول هو أول مدخل مشترك الى واجبات الحياة الزوجية ومباهجها ، وليس أقل وضوحا من هذا أن من واجب كرستينا أن تطلب هذا الغداء ، ومن واجبه هو أن يأكله ويؤدى ثمنه .

ومضت فى عقل ثيوبولد الحجج المفضية الى هذه النتيجة ، والنتيجة نفسها ، بعد نحو ثلاثة أميال ونصف من مغادرته كرامپسفورد فى الطريق الى مدينة نيوماركت . لقد تناول افطارا مبكرا ، ولكن شهيته العادية خذلته . انهما بارحا بيت الراعى ظهرا دون أن ينتظرا للمشاركة فى افطار العرس ، وكان ثيوبولد يحب الغداء المبكر ؛ ولاح له أنه قد بدأ يجوع ؛ والخطوات يسيرة من هذا الخاطر الى النتيجة التى ذكرناها فى الفقرة السابقة . وبعد أن فكر دقائق أخرى فاتح عروسه فى الأمر ، وهكذا « تحطم الجليد » كما يقــولون .

ولم تكن مسز ثيوبولد مهيأة لواجب هام فجائى كهذا ، ولقد شدّت أوتار أعصابها ، التى لم تكن يوما من أقوى الأعصاب ، الى نهاية ما تطيق من شد بعد حدث الصباح ، وهى تريد الهروب من ملاحظة الناس لها ؛ وتشعر بأنها تبدو أكبر قليلا مما تحب أن تبــدو كعروس زفت فى ذلك الصباح ؛ انها تخشى صاحبة النزُل ، وتخشى الخادم ، وتخشى الساقى ، وتخشى كل انسان وكل شيء ؛ وخفق قلبها فى سرعة كادت تعجِزها عن الكلام ، فما بالك بمحنة طلب الغداء فى فندق غريب مع صاحبة نزل غريبة . لذلك رجت وتوسلت أن تعفَى من هذه المهمــة ، وقالت لو أن ثيوبولد طلب الغداء هذه المرة فقط لطلبته هى فى أى يوم ، وفى كل يوم ، فى مستقبل أيامها .

ولكن ثيوبولد الصلب العنيد ما كانت لتلينه أعذار سخيفة كهذه . فقد أصبح الآن سيدا . ألم تأخذ كرستينا على نفسها العهد المقدس قبل أقل من ساعتين فقط بأن تكرمه وتطيعه ، فهل تجمح الآن لأمر تافه كهذا ؟ وفارقت وجهه الابتسامة المُحِبة ، فخلفتها عَبَسَة لو رآها ذلك الطاغية أبوه لحسده عليها . وقال فى هدوء « هذا هراء بحت يا عزيزتى كرستينا »

ثم ضرب أرض العربة بقدمه وقال : « ان واجب الزوجة أن تطلب غـداء زوجها ؛ وأنت زوجتى ، وأنا أتوقع منك أن تطلبى لى غدائى » . ولا عجب، فان ثيوبولد لم يكن شيئا ان لم يكن منطقيا .

وبدأت العروس تبكى وتقول انه غير رفيق بها ؛ فلم يجب ، ولكنه أدار فى قلبه أشياء لا ينطق بها . أفهذه اذن نهاية ستة أعوام من الوفاء الذى لم يفتر ؟ أمن أجل هذا ثبت على خطبته حين عرضت كرستينا أن تحلّه منها ؟ أهذه ثمرة أحاديثها عن الواجب وعن التفكير الروحانى — أنها فى يوم زفافها ذاته تعجز عن أن ترى أن أول خطوة فى طاعة الله هى فى طاعته هو ؟ سيقفل راجعا بالعربة الى كرامپسفورد ؛ وسيشكو الأمر الى مستر ألبى وزوجه ؛ انه لم يقصد أن يتزوج كرستينا ؛ انه لم يتزوجها ؛ لقد كان كل هذا حلما مروعا ؛ سوف — ولكن صوتا ظل يرن فى أذنيه ويقول : « لن تستطيع ، لن تستطيع ، لن تستطيع » .

وصرخ المخلوق التعس بينه وبين نفسه ؛ « أفلا أستطيع ؟ » .

وقال الصوت القاسى : « أجل ، لن تستطيع ، لأنك رجل متزوج » .

وتراجع فى ركنه من العربة وشعر لأول مـرة بما فى قوانين الزواج الانجليزية من ظلم واثم . ولكنه سيشترى مؤلفات ملتن النثرية ويقرأ نبذته عن الطلاق ، ولعله واجدها فى نيوماركت .

وهكذا جلست العروس تبكى فى ركن من العربة ؛ وعبس العريس فى الركن الآخر ، وأحسّ من الخوف منها ما لا يسـتطيع الاحساس به الا عريس .

على أن صوتا ضعيفا ما لبث أن سُمع من ركن العروس يقول بعد قليل:

« يا عزيزى ثيوبولد — يا عزيزى ثيوبولد ، اغفر لى ؛ لقد كنت مخطئة جدا ، جدا . فأرجوك ألا تغضب منى . سأطلب ال ... ال ... » ولكن كلمة « الغداء » خنقها نشيجها العالى .

فلما سمع ثيوبولد هذه الكلمات بدأ يزاح عن قلبه حمل ، ولكنه اكتفى بأن نظر صوبها ، وحتى النظرة لم يكن فيها تلطف كثير .

ومضى الصوت يقول « أخبرني من فضلك عما تحبه ، وسأخبر ربة النزل اذا وصلنا الى نيومار — » ولكن نوبة أخرى من النشيج خنقتها فلم تتم الكلمـــة .

وأخذ الحمل الجاثم فوق قلب ثيوبولد يخف أكثر فأكثر . أمن الممكن رغم هذا الذى حدث أنها لن تستبد به استبداد النساء بأزواجهن ؟ ثم ، ألم تصرف انتباهه عنها الى غدائه الوشيك ؟

وابتلع قدرا أكثر من مخاوفه وقال ، ولكن فى وجوم ما زال يخالط كلامه « أظننا نستطيع أن نطلب دجاجة مشوية بصلصة خبز ، وشيئا من البطاطس الجديدة والبازلاء الخضراء ، ثم نرى هل يستطيعون أن يقدموا لنا « تورتة » من الكريز وبعض القشدة » . وبعد دقائق أدناها منه ، ومسح دموعها بقبلاته ، وأكد لها أنه موقن بأنها ستكون له زوجا طيبة .

وهتفت ترد عليه « يا عزيزى ثيوبولد ، أنت ملاك » .

وصدقها ثيوبولد ، وبعد عشر دقائق ترجّل العروسان السعيدان عند النزل فى نيوماركت .

وفى شجاعة اضطلعت كرستينا بمهمتها الشاقة ، وفى اهتمام شديدرجت ربة النزل سرا ألا تترك عزيزها ثيوبولد ينتظر أطول مما تقتضيه الضرورة القصوى .

« ان كان عندك حساء جاهز يا مسز باربر ، فقد يوفر هذا عشر دقائق كما تعلمين ، لأننا نستطيع أن نتناوله ريثما تشوى الدجاجة » .

فانظر كيف شددتها الحاجة وقوتها ! ولكن الحـق انها كانت تعانى صداعا كاد يحطم رأسها ، وودت لو ضحت بأى شىء لقاء أن تترك وحدها .

وكان الغداء موفقا . وأدفأت زجاجة من « الشرى » قلب ثيوبولد ، فبدأ يؤمل أن تسير الأمور معه رخاء رغم ما حدث . لقد انتصر فى المعركة الأولى، ومن شأن هذا الانتصار أن يرفع من قدر المرء كثيرا .

ثم ما كان أيسر هذا النصر ! لِمَ لم يعامل شقيقاته قط بهذه الطريقة ؟ انه سيفعل حين يلقاهن المرة التالية ؛ ولعله مستطيع بعد حين أن يثبت لشقيقه جون ، أو حتى لأبيه . وهكذا نبنى القلاع فى الهواء حين تأخذنا نشوة الخمر والنصر .

وشهدت نهاية شهر العسل مسز ثيوبولد أكثر نساء انجلترا بأسرها انكسارا صادقا . لقد قتل ثيوبولد القطة فى البداية كما يقول المثل القديم . كانت القطة صغيرة جدا ، قطيطة فى الواقع ، والا لخشى أن يواجهها ، ولكنها اذ كانت كذلك فقد تحداها فى معركة قاتلة ، وأمسك برأسها وهو يقطر دما فى تحدٍّ أمام وجه زوجته . وكان الباقى بعد ذلك سهلا ميسورا .

وعجيب أن ينقلب شخص وصفته الى الآن بأنه شديد التهيب ، يسهل التغرير به ، فيصبح فجأة طاغية مستبدا فى يوم زفافه . ولعلى مررت على سنوات خطبته بأسرع مما ينبغى ، ففى خلال هذه السنوات كان قد أصبح مدرسا فى كليته ، ثم أخيرا مشرفا ثانيا مقيما . ولم أعرف رجلا مثله لم يكتمل شعوره بأهميته بعد أن ظل زميلا مقيما فى الكلية خمس سنوات أو ستا . فالحق أنه ما ان يدخل دائرة نصف قطرها عشرة أميال من بيت أبيه حتى يحس كأن ساحرا رقاه ، فاذا ركبتاه تتخلعان ، واذا عظمته تفارقه ، فيحس نفسه وقد عاد طفلا كبيرا يجثم فوقه كابوس لا يريم ؛ على أنه لم يكن يختلف الى المهرست كثيرا فاذا بارحها رفعت عنه رقيته ؛ فاذا هو يعود الزميل والمدرس فى كليته ، والمشرف الثانى ، وخطيب كرستينا ، ومعبود جنس النساء من آل ألبى . وحاصل ما تقدم كله ، أنه لو كانت كرستينا

دجاجة برية ، فنفشت ريشها مبدية أى مظهر من مظاهر المقاومة ، لما جرؤ ثيوبولد على أن يختال عليها ، ولكنها لم تكن دجاجة برية ، انما هى دجاجة أليفة لا أكثر ، بل دجاجة أليفة لم تؤت من الشجاعة الشخصية التى أوتى غيرها من الدجاج الأليف الا قسطا ضئيلا .

الفصل الرابع عشر

كانت القرية التى أصبح ثيوبولد قسيسا عليها تدعى باترزبى الجبلية . وهى قرية فيها أربعمائة أو خمسمائة من السكان المنتشرين على مساحة كبيرة الى حد ما ، وقوامهم المزارعون والفلاحون لا غير . وكان بيت الراعى بيتا مريحا مبنيا على قمة تل يشرف منه على منظر مبهج . وعلى مقربة من البيت عدد لا بأس به من الجيران يمكن تبادل الزيارة معهم ، ولكنهم — اذا استثنينا أسرة أو أسرتين — كانوا قساوسة القرى المحيطة وأسرهم .

وقد رحب القوم بآل پوتنفكس بوصفهم كسبا عظيما للمنطقة ، وقالوا ان مستر پوتنفكس رجل موهوب ؛ لقد كان فى الجامعة طالبا متفوقا فى الدراسات القديمة وفى الرياضيات ؛ انه فى الحق نابغة ، وهو مع ذلك يمتاز بكثير من الادراك العملى السليم . وهو بوصفه ابنا لرجل نابه كمستر پوتنفكس الناشر العظيم ، سيرث عما قريب ثروة طائلة . ألم يكن له أخ أكبر ؟ نعم ، ولكن الرجل سيخلف ثروة تتيح لثيوبولد على الأرجح نصيبا كبيرا جدا . وبالطبع سيولم الزوجان الوافدان ولائم للجيران . ثم مسز پوتنفكس ، يا لها من امرأة ظريفة ؛ لعلها ليست بالطبع جميلة تماما ، ولكن لها ابتسامة حلوة ، وأسلوبها فى الحديث مشرق جذاب . ثم انها شديدة الاخلاص لزوجها ، كما أن زوجها شديد الاخلاص لها ؛ والحق أنهما يرتفعان الى فكرة القوم عما كان عليه المحبون فى الأيام الخالية ؛ ان من النادر أن يلقى المرء زوجين مثلهما فى هذا الجيل الفاسد ؛ وهو أمر جميل جدا الخ ... الخ ... تلك كانت تعليقات الجيران على الوافدين الجديدين .

فأما شعب كنيسة ثيوبولد فقد كان المزارعون منهم مؤدبين مجاملين ، والعمال وزوجاتهم أذلاء مستكينين . وكانت هناك قلة من الشعب منشقة على الكنيسة الأسقفية ، وهي تركة خلفها سلف مهمل ، ولكن ، كما قالت مسز ثيوبولد في فخر ، « أظن أنه يمكن الاطمئنان الى أن ثيوبولد سيقضي على هذا الانشقاق » . وأما الكنيسة فكانت نموذجا طريفا من العمارة النورمندية المتأخرة ، يخالطها اضافات انجليزية مبكرة . ولو كانت في يومنا هذا لوصفها الناس بأنها في حالة معمارية سيئة جدا ، ولكن قلّ من الكنائس ما كان في حالة جيدة منذ أربعين سنة أو خمسين . واذا كان للجيل الحاضر سمة تغلب عليه أكثر من غيرها من السمات فهو أنه معمِّر للكنائس أعظم من الأجيال السابقة .

لقد بشّر الشاعر هوراس بتعمير الكنائس في قصيدته :

« أيها الروماني ، ستظل عارا يجلل أسلافك
الى أن تصلح المعابد التي انهارت
وبيوت الآلهة التي سقطت
والتماثيل التي غطاها الدخان الأسود » .

ان الأمور في روما لم تسر على ما يرام بعد العصر الأوغسطي فترة طويلة غير مقطوعة ، ولكني لا أدري هل السبب أنها رمّمت المعابد أو أنها لم ترممها . ومن المؤكد أن الأحوال ساءت كثيرا بعد عهد قسطنطين ، ومع ذلك فما تزال روما مدينة لها بعض الأهمية .

ويجدر بي أن أذكر هنا أن ثيوبولد — قبل أن يقضي سنوات كثيرة في باترزبي — وجد مجالا للعمل النافع في اعادة بناء كنيسة باترزبي الذي قام به وكلفه نفقات كبيرة أسهم فيها هو نفسه مساهمة سخية ، ولم يستعن بمعماري غيره فوفر بعض النفقة ؛ ولكن العمارة لم يكن يفهمها الناس فهما

جيدا حوالى عام ١٨٣٤ حين بدأ ثيوبولد عمليات التعمير ، فلم تكن النتيجة التى أسفرت عنها جهوده مرضية كما كان يمكن أن تكون لو أنه تريث بضع سنوات .

واتتاج كل انسان ، سواء كان أدبا أو موسيقى أو تصويرا أو عمارة أو أى شيء آخر ، هو على الدوام صورة من نفسه ، وكلما حاول اخفاء نفسه ظهرت شخصيته أوضح وأجلى رغم أنفه . وقد أكون فى أغلب الظن دائنا نفسى حاكما عليها طوال كتابتى لهذا الكتاب ، لأننى عالم بأننى — أردت أو لم أرد — أصوّر فيه نفسى تصويرا أصدق من تصويرى لأى شخصية من الشخصيات التى أضعها أمام القارىء . ويؤسفنى أن يكون الأمر كذلك ، ولكن لا حيلة لى فيه — وأقول ، بعد هذه اللقمة التى أرضيت بها ربة القصاص « نمسس » ، ان كنيسة باترزبى فى صورتها المجدّدة كانت توحى الىّ على الدوام بأنها صورة لثيوبولد أفضل من أية صورة كان يمكن أن يخرجها مثّال أو مصور ، مالم يكن فنانا عظيما .

وأذكر أننى مكثت مع ثيوبولد زهاء ستة شهور أو سبعة بعد زواجه ، حين كانت الكنيسة القديمة ما تزال قائمة ، وذهبت الى الكنيسة ، وشعرت كما لابد أن نعمانا السريانى شعر أحيانا وهو مضطر الى مرافقة سيده بعد عودته اثر شفائه من البرص . ولقد عدت من زيارتى هذه أحمل لهذا الشعور ، ولشعب الكنيسة ، ذكرى أنصع من ذكراى لعظة ثيوبولد . وفى وسعى حتى الآن أن أرى الرجال فى قمصهم الزرقاء التى تصل الى أعقابهم وأكثر من امرأة عجوز ترتدى عباءة قرمزية ؛ وصفّ الفلاحين البلداء ، الأغبياء ، ذوى النظرات الخاوية ، والأجسام الغليظة الثقيلة ، والوجوه القبيحة ، الذين يفتقرون الى الحيوية وحرارة الشعور ، جيلا أقرب الى الفلاحين الفرنسيين قبل الثورة كما وصفهم كارليل ، منهم الى

جيل يطيب للمرء أن يفكر فيه — سلالة حل محلها اليوم جيـل أذكى ، وأجمل ، وأكثر تفاؤلا ، اكتشف أن له هو أيضا الحق فيما يسعه أن ينال من السعادة ، وله أفكار أكثر وضوحا فى أمثل السبل لنيل هذه السعادة .

انى لأراهم يدلفون الى الكنيسة واحدا اثر آخر ، والأبخرة تخرج مع أنفاسهم لأن الوقت شتاء ، وأحذيتهم الطويلة ذات المسامير الغليظة القصيرة تقعقع قعقعة عالية ؛ وهم ينفضون عنها الثلج اذ يدخلون ، وألمح لحظة من وراء الباب المفتوح جوا مكفهرا ملبدا بالغيوم ، وشواهد قبور يكللها الثلج، ثم أجد اللحن الذى ألّف هاندل بينه وبين كلمات الترنيمـة التى مطلعها « ذلك الحرّاث القريب » قد دخل رأسى على نحو ما ، وأبى أن يبرحه . حقا ما أعجب فهم هاندل العجوز لهؤلاء الناس ! .

انهم ينحنون لثيوبولد وهـم يمرون بمنبر القـراءة (وقـد همست كرستينا فى أذنى تقول « ان الناس هنا صادقو الاحترام ، فهم يعرفون من هم سادتهم ») ، ثم يجلسون فى صف طويل الى جدار الكنيسة . وتصعد فرقة المرتلين الى منصّتهم بآلاتهم — كمان(*) جهير ، ويراعة(**) ، وبورى طويل(***) . وأراهم ، ثم ما ألبث أن أسمعهم، لأن الخدمة تسبقها ترنيمة هى لحن غريب ، فى ظنى — ما لم أكن مخطئا — أنه بقية متخلفة من ورد قديم من الأوراد التى كانت ترتل فى الكنيسة (الكاثوليكية) قبل حركة الاصلاح البروتستنتى . ولقد سمعت ما أعتقد أنه السلف الموسيقى البعيد لهذا اللحن فى كنيسة القديسين چيوڤانى وپاولو بمدينة البندقية منذ خمس سـنوات أو أقل ؛ وسمعته مرة أخرى بعيدا جدا وسط مياه الأطلنطى فى يوم أحـد أغبر من أيام يونيو ، حين تسكن الريح والموج ، فيجتمع المهاجرون على ظهر السفينة ، ويتصاعد مزمورهم الشاكى الى غبش السماء الفضى ، وعلى

(*) Violencello (**) Clarinet (***) Trombone

بيداء بحر تنهد طويلا حتى لم يعد فى طاقته أن يزيد . وقد تستطيع أن تسمعه فى اجتماع معسكر من معسكرات « المثديين » على جانب تل من تلال ويلز ، أما فى الكنائس (الأسقفية) فقد اختفى الى الأبد . ولو كنت موسيقيا لاتخذته موضوعا للحركة الوئيدة(*) فى سمفونية وِسليّة .

اختفت الآن البراعة ، والكمان الجهير ، والبورى الطويل — موسيقى الشعراء الجوالين الوحشية التى تذكرك بموسيقى المخلوقات الحزينة فى سفر حزقيال ، فيها نشاز ولكنها مشجية أشد ما يكون الشجى . اختفى صاحب الصوت القوى الرهيب ، ثور « باشان » ذو الخوار ، حدّاد القرية ؛ واختفى النجار ذو الصوت الرخيم ؛ واختفى الراعى ذو العضل المفتول والشعر الأحمر ، ذلك الذى كان يزأر بقوة تفوق قوة رفاقه جميعا ، حتى اذا بلغوا من ترنيمتهم قولهم « أيها الرعاة المقيمون مع قطعانكم » غلبه التواضع فارتبك ، واضطر الى الصمت ، كأن القوم يشربون نخبه . لقد كان مقضيا عليهم بالفناء ، يساورهم احساس بمصيرهم السيىء حتى حين رأيتهم أول مرة ، ولكن مهلة ضئيلة من حياة الترتيل فى الكنيسة بقيت لهم ؛ فانطلقوا يزأرون :



الطب المصرى القديم

ولكن لا وصف يستطيع اعطاء القارىء فكرة صحيحة عن تأثير ترتيلهم. وحين كنت آخر مرة فى كنيسة باترزبى رأيت « هرمونيوم » صغيرا تعزف عليه فتاة حلوة الصورة يحيط بها فريق مرتلين من صبية المدرسة ، فرتلوا المزامير كأصح ما يكون الترتيل ، ورنموا من كتاب « الترانيم القديمة » ؛

(*) adagio

(**) «أيد أثيمة ثقبت جسده وسمرته ، ثقبت جسده وسمرته الى خشبة» .

وكانت المقاعد العالية قد اختفت ، أجل ، بل ان المنصة التى كان يرتل عليها فريق المرتلين القديم أزيلت كأنها شيء بغيض يخشى أن يذكر جمهرة الناس بذوى المراكز العالية ، وكان ثيوبولد قد شاخ ، وكرستينا ترقد تحت أشجار السدر فى فناء الكنيسة .

بيد أنى رأيت بعد ذلك ، ذات المساء ، ثلاثة رجال طعنوا فى السن ، خارجين — وهم يضحكون بينهم وبين أنفسهم ضحكات الظفـر — من اجتماع لطائفة من الطوائف المنشقة ، فتبينت فيهم أصدقائى القدامى — الحداد ، والنجار ، والراعى — ما فى ذلك ريب . ورأيت على وجوههم نظرة رضاء جعلتنى أشعر شعور الواثق بأنهم كانوا يرتلون ؛ لا تراتيل يصاحبها البهاء القديم بالطبع ، بهاء الكمان الجهير واليراعة والبورى الطويل ، ولكنها على أى حال تراتيل المتدينين ، لا التراتيل البابوية المقنّعة .

الفصل الخامس عشر

استغرقت الترنيمة انتباهي ؛ فلما فرغت أتيح لى أن أفحص المصلين ، وكانت كثرتهم من المزارعين — قوم أوتوا بسطة فى الرزق ، وبسطة فى الجسم ، أتى بعضهم مصطحبا أزواجهم وأبناءهم من ضياع تبعد ميلين أو ثلاثة ؛ أعداء للبابوية ولكل ما يطيب لأى انسان أن يسميه بابويا ؛ ناس معقولون ، طيبون ، يكرهون النظريات أيا كانت ، مثلهم الأعلى الابقاء على الأوضاع الراهنة ، وقد يخالط ذلك حنين لأيام الحرب التى ولّت ، واحساس بالخطأ لأنهم لا يسيطرون على الجو كما يشتهون ، قوم يريدون أسعارا أعلى وأجورا أرخص ، ويرضون فيما عدا ذلك غاية الرضا حين لا تتغير الأحوال الا أقل تغير ؛ يحتملون — ان لم أقل يحبون — كل مألوف ، ويبغضون غير المألوف ، يفزعهم على حد سواء أن يسمعوا أحدا يتشكك فى المسيحية ، وأن يروه يمارسها .

وقالت لى كرستينا خلال السهرة وزوجها غائب عنا لحظات : « أى شيء يمكن أن يكون مشتركا بين ثيوبولد وشعب كنيسته ؟ بالطبع على المرء ألا يشكو ، ولكنى أؤكد لك أنه يحزننى أن أرى رجلا فى كفاية ثيوبولد ملقى فى مكان كهذا . ولو أننا كنا فى جايزبرى حيث توجد أسرة فلان ، وفلان ، وفلان ، وحيث قصر اللورد الفلانى على مقربة من هذه البلدة كما تعلم ، لما أحسست عندها أننا نعيش فى صحراء كهذه » . ثم أضافت ببشاشة أكثر « ولكنى أحسب أن هذا للخير . ثم ان الأسقف بالطبع سيزورنا كلما جاء الى هذه المنطقة ، ولكن لو كنا فى جايزبرى لذهب الى بيت اللورد » .

ولعلى قلت الآن ما يكفى لبيان نوع البقعة التى قدر لثيوبولد أن يعيش فيها ، ونوع المرأة التى تزوجها ، أما عن عاداته ، فانى أراه يخوض وسط الأزقة الموحلة ، ويقطع مساحات طويلة من المراعى التى يؤمها الزقزاق ليزور زوجة فلاح تحتضر . وهو يأخذ لها اللحم والنبيذ من مائدته ، ويأخذه فى سخاء ، ثم هو — على قدر علمه — يقدم لها ما يطيب له أن يسميه التعزية الروحيـــة .

وتقول المرأة المريضة شاكية باكية « انى أخاف أن أذهب الى جهنم يا سيدى . أواه يا سيدى خلصنى ، خلصنى ، ولا تدعنى أذهب الى هناك . لا أستطيع أن أطيق ذلك يا سيدى ، وانى لأموت رعبا ؛ ان مجرد التفكير فى الأمر يغمرنى كلى بالعرق البارد » .

ويقول ثيوبولد فى جد ووقار « يا مسز طومسون ، يجب أن يكون لك ايمان فى خالقك ؛ انه هو وحده الذى يستطيع أن يخلصك » .

وتقول المرأة وهى تنظر اليه فى قلق « ولكن هل أنت واثق يا سيدى أنه سيغفر لى — فاننى لم أكن امرأة صالحة جدا ، نعم اننى لم أكن كذلك فى الحق ، وددت لو أن الله قال « نعم » صراحة بفمه حين أسأله هل غفر لى خطاياى — » .

ويقول ثيوبولد فى شىء من الصرامة ، لأن هـــذه الأرض داســتها ربع ساعة بأكمله « ولكنها مغفورة لك فعلا يا مسز طومسون » . ثم يضع حدا للحديث بتلاوته صلوات من كتاب « افتقاد المرضى » ويرهب هذه البائسة المسكينة لئلا تعرب عن مزيد من القلق على حالتها .

ثم تهتف به فى لهجة يرثى لها وهى تراه يتأهب للرحيل « ألا تستطيع أن تخبرنى يا سيدى ، ألا تستطيع أن تخبرنى أنه ليس هناك يوم حساب ، وأنه ليس هناك مكان اسمه جهنم ؟ اننى أستطيع أن أستغنى عن السماء يا سيدى،

ولكننى لا أستطيع أن أطيق جهنم » . ويصدم ثيوبولد كثيرا لقولها هذا .

فيجيبها فى لهجة قوية « يا مسز طومسون ، دعينى أرجوك ألا تسمحى لأى شك فى هذين الركنين من أركان ديننا أن يجول بخاطرك فى لحظة كهذه. واذا كان هناك أمر أكثر يقينا من غيره ، فهو أننا سنظهر جميعا أمام كرسى قضاء المسيح ، وأن الأشرار سيحرقون فى بحيرة من النـــار الأبدية . فان شككت فى هذا يا مسز طومسون هلكت » .

وتدفن المرأة المسكينة رأسها المحموم فى غطاء فراشها وقد انتابتها نوبة من الخوف تجد آخر الأمر تفريجا لها فى الدموع .

ويقول ثيوبولد ويده على الباب « يا مسز طومسن ، هدئى روعك ، تماسكى ، وأرجوك أن تصدقينى أن خطاياك سوف تطهر كلها فى دم الحمل فى يوم الدين يا مسز طومسن » ويهتف فى تحمس « أجل ، ان كانت حمراء كالقرمز تبيض كالصوف » ، ثم يفلت بأسرع ما يستطيع من هواء الكوخ الوخم الى الهواء النقى خارجه . حقا ما أشد امتنانه لانتهاء هذه المقابلة !

ويقفل راجعا الى بيته ، شاعرا بأنه أدى واجبه ، وقدم تعزيات الدين لخاطئة على سرير الموت . وفى بيته تنتظره زوجه المعجبة به ، وتؤكد له أن أحدا من رعاة الدين لم يخلص اخلاصه هذا الشديد لخير رعيته . وهو يصدقها ، لأنه بفطرته يميل الى تصديق أى شىء يقال له ، ومن أعلم بوقائع الحال من زوجه ؟ يا للمسكين ! لقد فعل قصاراه ، ولكن ما قصارى سمكة خرجت من الماء ؟ لقد ترك لها اللحم والنبيذ — ذلك يستطيعه ، وهو لابد زائرها مرة أخرى وتارك لها مزيدا من اللحم والنبيذ ، وهو يخوض يوما بعد يوم وسط الحقول التى يأوى اليها الزقزاق ، ويستمع فى نهاية رحلته الى عذاب الخوف والتشاؤم الذى استمع اليه من قبل ، فيسكته يوما بعد يوم ، ولكنه لا يمحوه ، الى أن يحل بالمرأة المعذبة آخر الأمر ضعف رحيم فيجعلها لا تكترث لمستقبلها ، ويقتنع ثيوبولد بأن عقلها الآن هادىء مطمئن فى المسيح .

الفصل السادس عشر

انه لا يحب ذلك الفرع من فروع عمله — والحق انه يبغضه — ولكنه يأبى أن يسلم بهذا لنفسه . وقد أزمنت فيه عادة عدم التسليم بالأشياء لنفسه . ومع ذلك يساوره شعور غامض بأن الحياة تصبح أمتع اذا لم يكن فيها خطاة مرضى ، أو اذا هم على الأقل واجهوا أبدية من العذاب بقدر أكبر من عدم الاكتراث . انه لا يشعر أنه فى محيطه الطبيعى ؛ أما المزارعون فيبدو عليهم أنهم فى محيطهم ، فهم ممتلئو الأجسام ، أصحاء راضون، ولكن بينه وبينهم هوة عظيمة . وتبدأ نظرة جامدة واجمة تستقر حول ركنى فمه ، بحيث يستطيع أى طفل أن يتبين فيه القسيس ولو لم يرتد سترته السوداء وياقته البيضاء .

وهو يعلم أنه يؤدى واجبه ، وكل يوم يقنعه بهذا اقناعا أرسخ ؛ ولكن ليس هناك واجب كثير عليه أن يؤديه . فهو مفتقر الى ما يشغله افتقارا مؤسفا . انه لا يميل الى أى رياضة من رياضات الخلاء التى لم تكن منذ أربعين سنة تعدّ هواية غير لائقة بالقسيس . فهو لا يركب الخيل ، ولا يصيد الحيوان ولا السمك ، ولا يسابق ، ولا يلعب الكركت . أما الدراسة فمن الانصاف له أن يقال بأنه لم يمل اليها قط ، وأى اغراء له بالدراسة فى باترزبى ؟ فهو اذن لا يقرأ الكتب — لا قديمها ولا جديدها — ولا يهتم بالفن ، ولا بالعلم ، ولا بالسياسة ، ولكنه يبادر بالمعارضة اذا أظهر أى منها تطورا لم يألفه . صحيح أنه يكتب مواعظه ، ولكن حتى زوجه ترى أن موطن القوة فيه يكمن فى قدوة حياته (التى هى عملية واحدة طويلة من

عمليات بذل النفس) أكثر مما يكمن فى مواعظه التى يلقيها من فوق المنبر .
وقد ألف أن يخلو الى مكتبه بعد الافطار ، فيقطع قصاصات صغيرة من الكتاب المقدس ويلصقها بعناية متناهية بجانب قصاصات صغيرة أخرى ، وهو يسمى هذا « تنسيقا بين العهدين القديم والجديد » ، والى جانب هذه المختارات ينسخ بخط دقيق غاية الدقة مقتطفات من شروح ميد (وهو فى رأى ثيوبولد الوحيد الذى فهم سفر الرؤيا فهما حقا) وپاتريك وغيرهما من قدامى اللاهوتيين . وهو يعمل فى هذا بانتظام نصف ساعة كل صباح خلال سنوات كثيرة ، فيسفر هذا عن نتيجة قيمة ولا ريب . وبعد سنوات يستمع الى أطفاله يتلون عليه دروسهم ، فتقص الصرخات التى تنبعث غير مرة كل يوم من مكتبه خلال ساعات الدرس قصتها المريعة فى أرجاء البيت كله . كذلك أخذ نفسه بتأليف مجموعة منسقة من النباتات المجففة ، وبفضل نفوذ أبيه ذكرت « مجلة السبت » مرة أنه أول من وجد نباتا — نسيت اسمه — فى منطقة باترزبى . وقد جلد هذا العدد من «مجلة السبت» فى غلاف من الجلد المغربى الأحمر واحتفظ به على خوان غرفة الزائرين ، وهو يسير متسكعا فى حديقته ، فاذا سمع دجاجة تلقلق جرىوأخبر كرستينا، ثم مضى من فوره ليبحث عن البيضة .

ولما أتت الآنستان ألبى فى زيارة لكرستينا — وكانتا تفعلان أحيانا — قالتا ان الحياة التى تحياها أختهما وزوجها أشبه بالأنشودة الريفية السعيدة. فما أسعد كرستينا حقا بزوجها الذى اختارته — لأن الزعم بأنه كان لها فى الأمر خيار ما لبث أن تعمقت جذوره فى الأسرة — وما أسعد ثيوبولد بزوجه كرستينا . وكانت كرستينا — على نحو ما — تخجل قليلا من ورق اللعب كلما أتت شقيقتاها لتمكثا معها ، وان كانت فى غير ذلك من الأوقات تجد متعة ، أى متعة ، فى أن تلعب دورا من « الكربدج » أو من « الوست » ،

ولكن شقيقتيها كانتا موقنتين أنها لن تدعوهما أبدا الى باترزبى اذا أشارتا الى هذه المسألة الصغيرة ، وكانت الدعوة الى باترزبى على الجملة جديرة بالقبول ، واذا كان طبع ثيوبولد فيه شيء من الحدة ، فانه لم يكن يفرغ ما فيه من حدة عليهما .

واذ كان بطبيعته صموتا فانه لو استطاع أن يجد انسانا يطهو له طعامه لآثر أن يعيش فى جزيرة مقفرة عن أن يخالط الناس . وكان فى أعماق قلبه يوافق الشاعر پوب على أن « أشد مكدر لبنى الانسان هو الانسان » أو ما فى هذا المعنى — ويزيد على ذلك أن النساء ، ربما باستثناء كرستينا ، أشد تكديرا . ورغم هذا كله ، فحين كان يفد عليه زوار كان يتكلف مظهرا أفضل مما يتوقعه أى انسان علىم ببواطن أمره .

كذلك كان يبادر بذكر أسماء الأدباء المشهورين الذين لقيهم فى بيت أبيه ، وسرعان ما كون لنفسه سمعة متعددة الجوانب رضيت عنها حتى كرستينا نفسها .

وكان القوم يتساءلون : من مثل مستر پونتفكس قسيس باترزبى ، أمين مبرأ من الذنوب ؟ من يصلح مثله لأن يستشار اذا قامت صعوبة فى ادارة الأبرشية ؟ من جمع مثله جمعا موفقا بين المسيحى المخلص غير الفضولى ورجل الدنيا ؟ لأنه هكذا كان الناس فعلا يصفونه . فقد قالوا عنه انه رجل أعمال جدير بالاعجاب الشديد ، فاذا قال انه سيدفع مبلغا من المال فى وقت معلوم ، دفع المبلغ فى اليوم المعين ما فى ذلك ريب ، وليس هذا بالاطراء القليل لشخص من الأشخاص . وقد جعله تهيبه الطبيعى عاجزا عن محاولة الاحتيال على غيره أو خديعته اذا كان هناك أبعد احتمالات المقاومة أو العلنية ، وكان سلوكه المستقيم ، وطلعته الصارمة ، واقيا كبيرا له من أن يحتال عليه أو يخدعه أحد . ولم يكن يتكلم قط عن المال ، وكان يغير

موضوع الحديث كلما ورد ذكره ، وكان اعرابه عن أشد التقزز والنفور من الخسة بكل ضروبها ضمانا كافيا بأنه ليس خسيسا . أضف الى ذلك أنه لم يكن له معاملات مالية الا من النوع العادى جدا ، كحساب الجـــزار أو الخباز . أما ميوله — ان كان له ميول — فبسيطة كما رأينا ؛ وهو صاحب ايراد يبلغ تسعمائة جنيه فضلا عن المنزل ؛ والحياة فى المنطقــة رخيصة ، وهو يظل فترة لا ينجب أطفالا يكونون كلا عليه ، فمن ذا الذى لا يُحسَد ، واذا حسد فهو اذن يُحترم ، ان لم يكن ذلك المحسود ثيوبولد ؟

ومع ذلك يخيل الى أن كرستينا كانت على الجملة أسعد من زوجها . فهى لم تكن مضطرة لزيارة المرضى من شعب الكنيسة ، وكانت ادارة بيتها وعمل حساباتها تشــغل من وقتها القدر الذى تريد ، أما أهــم واجباتها فواجبها نحو زوجها كما قالت — أن تحبه ، وتكرمه ، وتعينه على أن يظل رائق المزاج . ومن الانصــاف لها أن يقال انها أدت هــذا الواجب بكل ما وسعها من قوة . ربما كانت تحسن صنعا لو أنها لم تؤكد لزوجها مرارا وتكرارا أنه خير الناس وأحكمهم ، لأن أحدا فى عالمه الصغير لم يدر بخلده قط أن يقول له غير هذا ، فما لبث أن كف عن أى تشكك فى هذا الأمر . فأما طبعه الذى كان يعنف جدا فى بعض الأحيان ، فقد حرصت على ملاطفته لأقل بادرة تنذر بانفجاره ، وقد اكتشفت فى وقت مبكر أن هــذه أيسر الخطط . فاذا انفجر قلّ أن ينفجر على رأسها . بل انهــا درست عاداته الخاصة قبل زواجهما بزمان ، وعرفت كيف تزيد النار وقودا ما دامت تبدو فى حاجة الى الوقود ، ثم تسكب عليها الماء فى فطنة لتخمدها فلا ينبعث منها الا أقل ما يمكن من الدخان .

وأما فى مسائل المال فكانت آية فى النزاهة والتدقيق . وقد عيّن لها ثيوبولد مصروفا كل ثلاثة أشهر لملابسها ، ولجيبها الخاص ، وللصدقات

والهدايا الصغيرة . وكانت تسخو فى البندين الأخيرين بالقياس الى دخلها ؛ فالحق أنها كانت تراعى غاية الاقتصاد فى ملبسها وتبذل ما يفضل عنها للهدايا أو الاحسان . فيا لها من راحة لثيوبولد أن يرى له زوجة يستطيع أن يطمئن الى أنها لا تكلفه فلسا من نفقة لم يأذن بها ! ويا لها من حصن قوى له بتدقيقها فى مسائل المال ، فضلا عن خضوعها التام ، واتفاقها الكامل معه فى الرأى فى كل موضوع ، وتأكيداتها المستمرة له أنه على صواب فى كل ما يعن له أن يقوله أو يفعله ! وكلما مضت السنون كلف بزوجه على قدر ما كان فى طبيعته أن يكلف بكائن حى ، وأثنى على نفسه لثباته على خطبته — فهذا عمل من أعمال الفضيلة يجنى الآن ثماره . وحتى حين كانت كرستينا تتجاوز فعلا راتب ربع العام بنحو جنيه ونصف أو جنيهين ، فهى على الدوام تبين لثيوبولد فى جلاء تام منشأ هذا التجاوز — ربما شراء ثوب للسهرة أغلى مما اعتادت شراءه وينتظر أن يعيش طويلا ، أو أن زفافا غير متوقع اقتضى شراء هدية أجمل مما يسمح بشرائها الباقى من راتبها . وكانت الزيادة فى مصروفها ترد دائما فى ربع السنة أو أرباع السنة التالية ، حتى ولو لم تتجاوز فى المرة عشرة شلنات .

على أننى أعتقد أنهما بعد أن قضيا فى حياتهما الزوجية نحو عشرين عاما هبطت كرستينا قليلا عن مقامها الأول الرفيع فى مسائل المـــال . ذلك أن الديون تخلفت عليها شيئا فشيئا خلال أرباع متعاقبة الى أن تجمع عليها قرض مزمن ، تستطيع أن تسميه دينا أهليا منزليا ، يتراوح بين جنيهات سبعة وثمانية . وأخيرا شعر ثيوبولد بأن اللوم أصبح واجبا ، فانتهز فرصة عيد زفافه الفضى لينبىء كرستينا بأنه قد ألغى دينها ، وليرجوها فى الوقت ذاته أن تحاول الموازنة بين نفقتها ودخلها منذ الآن . فانخرطت باكية بدموع الحب وعرفان الجميل ، وأكدت له أنه خير الرجال وأكرمهم ، ولم تستدن بعد ذلك شلنا واحدا طوال حياتها الزوجية .

وكانت كرستينا تكره التغيير بكل أنواعه كراهية لا تقل صدقا واخلاصا عن كراهية زوجها له . فهى وثيوبولد يملكان تقريبا كل شىء يمكن أن يشتهياه فى هذه الدنيا ؛ فلم اذن يرغب الناس فى ادخال كل ضروب التغيير التى لا يستطيع أحد أن يتنبأ بنهايتها ؟ أما الدين فهى مقتنعة أعمق الاقتناع بأنه بلغ غاية تطوره منذ أمد بعيد ، ولا يمكن لانسان معقول أن يحدثه قلبه بتصور ايمان أكمل من الايمان الذى تلقنه كنيسة انجلترا للناس . ولم تستطع أن تتصور مركزا أشرف من مركز زوجة القسيس ، الا اذا كان مركز زوجة الأسقف . واذا ذكرنا ما كان لوالد ثيوبولد من نفوذ ، لم يكن من المستحيل اطلاقا أن يصبح ثيوبولد أسقفا يوما ما — وعندئذ — عندئذ تصطدم بذلك العيب الطفيف فى العادات التى تجرى عليها كنيسة انجلترا — وهو عيب لا يشوب عقيدة الكنيسة بل سياستها ، هذه السياسة التى تعتقد على الجملة أنها خطأ فى هذه الناحية . وأنا أعنى بهذا العيب ما درجت عليه الكنيسة من أن زوجة الأسقف لا تأخذ رتبة زوجها .

ذلك كان فعل الزبث ، وهى امرأة شريرة ، مريبة الأخلاق جدا ، بابوية فى أعماقها الى آخر نسمة من حياتها . ولعله كان خليقا بالناس أن يسموا فوق مجرد اعتبارات المراتب الدنيوية ، ولكن الدنيا هى الدنيا ، ومثل هذه الأشياء لها وزنها سواء كان خليقا بالناس أن يفعلوا هذا أو لا يفعلوه . صحيح أن نفوذها بوصفها « مسز پونتفكس » لا أكثر ، زوجة أسقف ونشستر مثلا ، سيكون عظيما ، وشخصية كشخصيتها لابد أن يكون لها تأثيرها اذا أتيح لها مجال بارز بروزا يكفى لاشعار الناس بهذا التأثير ؛ ولكنها لو كانت ليدى ونشستر — أو الأسقفة ونشستر — وهو لقب حلو المسمع — لو كانت كذلك ، فمن يستطيع أن يشك فى أن سلطانها على فعل الخير سيعظم ؟ وسيكون هذا ألطف كثيرا ، لأنها لو رزقت بنتا فان البنت

لن تصبح أسقفة الا اذا قدر لها أن تتزوج هى أيضا أسقفا ، وهو أمر غير محتمل .

تلك كانت أفكارها فى خير أيامها ، على أن الانصاف يقتضينا القول بأنها كانت فى غير ذلك من الأوقات تسائل نفسها فى ارتياب ، هل بلغت روحانية تفكيرها من جميع النواحى ، المبلغ الذى ينبغى لها ؟ فهى ترى لزاما أن تمضى فى كفاحها حثيثا ، وتمضى حثيثا ، حتى يقهر كل عدو من أعداء خلاصها ويخر الشيطان نفسه صريعا تحت أقدامها . وقد خطر لها مرة أنها قد تتقدم روحيا على بعض زميلاتها لو أنها أقلعت عن أكل الفصيد(*) الذى كانت تصيب منه حظا كبيرا كلما ذبحت الأسرة خنزيرا ؛ وكذلك اذا حرصت على ألا تقدم على مائدتها طيرا لويت رقبته ، فلا تقدم الا ما ذبح حلقومه وتــرك دمــه ليسيل . لقد أصر القديس بولس ، وأصرت كنيسة أورشليم ، على ضرورة امتناع المؤمنين — حتى المؤمنين الجدد من الأمميين — عن أكل المخنوق والدم ، وقد قرنا هذا التحريم برذيلة لا جدال فى بشاعة طبيعتها ؛ اذن فمن الخير أن تمتنع فى المستقبل ، وترى آيسفر امتناعها ذاك عن نتيجة روحية هامة . فامتنعت فعلا ، واقتنعت بأنها مذ صممت على هذا شعرت بأنها أعظم قوة ، وأنقى قلبا ، وأكثر روحانية فى كل ناحية مما كانت تشعر به فى أى يوم مضى . ولم يكن ثيوبولد يعلق على الأمر هذه الأهمية التى علقتها عليه ، ولكن اذ كانت هى التى تقرر ما يتناول فى غدائه فقد كان فى استطاعتها أن تحرص على ألا يأكل طيرا مخنوقا ؛ وأما الفصيد فان ثيوبولد لحسن الحظ رآه مرة يصنع وهو صبى ، ولم يفق قط بعدها من اشمئزازه منه . وقد ودّت لو أن الأمر لقى اهتماما أعم مما يلقى ؛ وهو

(*) Black Puddings دم يوضع فى معى ويشوى .

ليس الا مثالا لما كان يمكن أن تفعله — بوصـفها ليدى ونشستر ، وهو ما لا تطمع حتى فى محاولة فعله ما دام اسمها مسز يوتنفكس لا أكثر .

وهكذا مضى هذان الزوجان الفاضلان يقطعان رحلة الحياة فى بطء شهرا بعد شهر ، وعاما بعد عام . واذا كان القارىء قد جاوز الكهولة واتصل برجال الدين ، فهو فى أغلب الظن يذكر عشرات وعشرات من القساوسة ونساء القساوسة الذين لا يختلفون اختلافا جوهريا عن ثيوبولد وكرستينا. وفى رأيى — وأنا أتكلم عن ذكريات وخبرة تمتد ثمانين عاما تقريبا مذ كنت أنا نفسي طفلا فى بيت قسيس — أننى رسمت الجـانب الطيب أكثر من الجانب الخبيث فى حياة قسيس الريف الانجليزى كما كان منذ خمسين عاما . على أننى أسلم بأنك لا تجد اليوم أمثال هذين الزوجين . ولم يكن فى الامكان أن يوجد فى انجلترا زوجان أكثر اتحادا ، أو أكثر سعادة على الجملة ، من هذين الزوجين . ولم يكدر عليهما صفو السـنوات الأولى من حياتهما الزوجية سوى مكدر واحد : وأعنى به أنه لم يولد لهما أطفال أحياء فى تلك الفترة .

الفصل السابع عشر

على أن هذه السحابة ما لبثت أن انقشعت مع الزمن . ففى مستهل السنة الخامسة من حياة كرستينا الزوجية أنجبت غلاما ، وكان ذلك فى السادس من سبتمبر ١٨٣٥ .

وَطَيِّرَ النبأ فورا الى الشيخ پونتفكس الذى تلقاه بسرور حقيقى . ذلك أن زوجة ابنه جون لم تلد الا اناثا ، وكان الشيخ شديد القلق لئلا تنقطع سلالة الذكور من ذريته ، لذلك لقى النبأ السار منه ترحيبا مزدوجا ، وبعث من البهجة فى المهرست بقدر ما أثار من الفزع فى «ووبورن سكوير» حيث مسكن جون پونتفكس وزوجه .

والحق أن وقع هذه الفلتة من فلتات الحظ على جون وزوجه كان أقسى لاستحالة استنكارهما لها علانية ؛ ولكن الجد المبتهج لم يأبه لما يحسانه أو لا يحسانه ؛ لقد أراد حفيدا فجاءه الحفيد ، وخليق بهذا أن يُرضى كل انسان ؛ والآن وقد بدأت مسز ثيوبولد تسير فى الطريق الصحيح ، فلعلها تنجب له مزيدا من الأحفاد ، وهو أمر يرغب فيه كثيرا ، لأنه لن يشعر بالاطمئنان اذا كان له أقل من ثلاثة .

وقرع الجرس للساقى .

وقال له فى جدّ : « يا جلسترب ، أريد أن أنزل الى مخزن المؤونة » .

فتقدمه جلسترب بشمعة الى القبو الداخلى حيث كان يودع أفخر أنبذته .

ومَرّ الشيخ بخوابى كثيرة . كان هنـاك البورت ١٨٠٣ ، والتوكى

الامبراطورى ١٧٩٢ ، والكلاريت ١٨٠٠ ، والشيرى ١٨١٢ ، هذه وغيرها مَرّ بها الشيخ ، ولكن رأس أسرة پوتنفكس لم ينزل الى قبوه الداخلى بحثا عن تلك : وأخيرا وجد أن خابية من هذه الخوابى — بدت فارغة حتى سلط عليها ضوء الشمعة الكامل — تحتوى على زجاجة سعتها « پاينت » واحد . هذه الزجاجة كانت ضالة مستر پوتنفكس المنشودة .

وطالما فكر جلسترب فى أمر هذه الزجاجة . لقد وضعها مستر پوتنفكس نفسه فى مكانها هذا منذ نحو اثنتى عشرة سنة اثر عودته من زيارة لصديقه الرحالة الشهير الدكتور جونس — ولكن لم يكن فوق الخابية بطاقة تعينه على معرفة طبيعة ما تحتويه . وكلما خرج مستر پوتنفكس وترك مفاتيحه وراءه مصادفة كما كان يفعل أحيـانا ، عرض جلسترب الزجاجـة لكل الاختبارات التى جرؤ عليها ، ولكنها كانت مختومة فى عناية تامة ، فظلت الحكمة محبوسة دون هذا الباب الذى اشتهى أن يسكبها فيه — بل عن جميع الأبواب الأخرى — لأنه لم يستطع أن يفهم من الأمر شيئا .

والآن قدّر للسر أن ينكشف ، ولكن واأسفاه ! فقد بدا أن آخر أمل فى الحصول ولو على رشفة واحدة من محتويات الزجاجة مقضّى عليه الى الأبد ، ذلك لأن مستر پوتنفكس أخذ الزجاجة بين يديه ورفعها الى النور بعد أن فحص ختمها فحصا دقيقـا ثم ابتسم وغادر الخابية والزجاجة بين يديه .

وهنا وقعت كارثة . فقد تعثر فى سلة فارغة ، واذا صوت جسم يسقط — وزجاج يتهشم . وفى لحظة كانت أرض المخزن يغطيها السـائل الذى احتفظ به سنوات طوالا بهذه العناية البالغة .

وقال مستر پوتنفكس لجلسترب بسرعة خاطره المعهودة وهو يلهث — انه مطرود بعد شهر . ثم قام من سقطته وضرب الأرض بقدمه كما فعـل ثيوبولد حين أبت كرستينا أن تطلب له غداءه .

وصاح محنقا « انه ماء من نهر الأردن كنت أدخره لعماد حفيدى الأكبر. تبا لك يا جلسترب ، كيف تجرؤ على هذا الاهمال اللعين فتترك تلك السلة ملقاة على أرض المخزن ؟ » .

وانى لأعجب كيف لم يقف ماء النهر المقدس منتصبا فى كومة على أرض المخزن ويوبخه . وقد أخبر جلسترب الخدم الآخرين بعد ذلك أن الألفاظ التى استعملها سيده جعلته يحس الدم يتخثر فى عموده الفقرى .

على أنه ما ان سمع كلمة « ماء » حتى عادت له سرعة خاطره فخرج مسرعا الى المخزن الخارجى ، وقبل أن يلحظ سيده غيابه عاد باسفنجة صغيرة وحوض ، وبدأيمتص بها مياه الأردن كأنها الغسالة العادية .

وقال جلسترب فى وداعة «سأرشحها يا سيدى ، وستخرج نظيفة جدا».

ورأى مستر پوتنفكس أملا فى هذا الاقتراح الذى ما لبث أن نفذ تحت بصره — بالاستعانة بقطعة تشاف وقمع — ، وفى النهاية وجد أن هذه الطريقة استنقذت له نصف پاينت ، ورأى فى هذا القدر الكفاية .

بعد ذلك أعد العدة لزيارة باترزبى . فأمر بسلال كبيرة من أفخر المأكولات ، واختار سلة كبيرة من المشروبات الفاخرة . أقول المشروبات الفاخرة ولا أقول أفخر المشروبات ، لأنه وان كان فى فرحته الأولى قد اختار بعضا من أطيب أنبذته ، الا أنه بعد أن أنعم النظر شعر بأن الاعتدال فى كل شىء حسن ، واذا كان قد فرط فى أفخر الماء ، المجلوب من الأردن ، فقد اكتفى بأن يرسل بعضا من نبيذ المرتبة الثانية .

وقبل أن يذهب الى باترزبى عرج على لندن يوما أو يومين ، وقليلا ما كان يفعل — لأنه كان قد جاوز السبعين وتقاعد فعلا عن عمله ، واكتشف جون پوتنفكس وزوجه اللذان كانا يرصدان حركاته وسكناته اكتشافا أفزعهما ، وهو أنه قابل محامية فى رحلته تلك .

الفصل الثامن عشر

أحسّ ثيوبولد لأول مرة فى حياته بأنه فعل صوابا ، واستطاع أن يتطلع الى لقاء أبيه دون خوف أو فزع . والحق أن الشيخ كتب له رسالة ودية جدا ينبئه فيها بعزمه على أن يكون « أبا فى العماد » للصبى — ولكن يجدر بى أن أورد نص الرسالة كاملا لأنها تكشف عن كاتبها فى خير حالاته.
قال الشيخ :

عزيزى ثيوبولد ، — سرتنى رسالتك سرورا صادقا جدا ، وكان سرورى بها أعظم لأننى كنت قد وطنت نفسى على أسوأ الأنباء ؛ فتقبل أخلص تهانئى القلبية لزوجك ولك .

لقد احتفظت طويلا بقنينة من ماء الأردن لتعميد حفيدى الأول اذا منّ الله علىّ بحفيد . وقد أعطانى هذا الماء صديقى القديم الدكتور جونس ولعلك توافقنى على أنه وان كانت فاعلية سر العماد لا تتوقف على مصدر مياه المعمودية ، الا أنه اذا تساوت المياه فمن المؤكد أن هناك عواطف تقترن بمياه الأردن ولا يصح أن يستهان بها . وأشياء صغيرة كهذا الشىء تؤثر أحيانا فى مستقبل الطفل كله .

وسأحضر معى طباخى ، وقد أخبرته أن يجلب معه كل ما يلزم لوليمة العماد . فادع من خير جيرانك أكبر عدد تتسع له مائدتك . وبهذه المناسبة أقول اننى أخبرت طباخى « لزيور » ألا يشترى جرادة بحر « لبستر » — فيحسن بك أن تركب بنفسك وتشترى واحدة منها من صولتنس (لأن باترزبى لم تكن تبعد عن ساحل البحر سوى أربعة عشر أو خمسة عشر

ميلا) ؛ فهى أفضل عندكم عنها فى أى مكان آخر فى انجلترا — وهذا رأيى أنا على أية حال .

لقد أوصيت لولدك بمبلغ من المال يتسلمه حين يبلغ الرابعة والعشرين. واذا ظل أخوك جون لا ينجب غير البنات فقد أزيد المبلغ بعد حين ، ولكن المطالب علىَّ كثيرة ، ولست غنيا بالقدر الذى تحسب .

والدك المحب

ج . پوتنفكس

وبعد أيام وصل صاحب هذا الخطاب فى عربة يجرها جواد واحد واستقلها من جلدنهام الى باترزبى وهى مسافة أربعة عشر ميلا . وكان يركب العربة طباخه لزيور الى جوار السائق على كرسيه ، ووضع من السلال ما وسع العربة حمله على السقف وغيره . وفى اليوم التالى اضطر جون پوتنفكس وزوجته الى الحضور ، وحضرت اليزا وماريا ، وكذلك أليثيا التى كانت أما فى العماد للصبى بناء على طلبها الخاص : ذلك أن الشيخ پوتنفكس عقد النية على أن يؤلفوا جماعة عائلية سعيدة : واذن فليأتوا جميعا ، وليكونوا سعداء جميعا ، والا فالويل لهم . وفى اليوم التالى عمد فعلا العلة فى هذه الجلبة . واقترح ثيوبولد أن يسميه جورج تيمنا باسم الشيخ پوتنفكس ، ولكن العجب أن مستر پوتنفكس أبى عليه هذا مفضلا اسم ارنست Ernest . وكانت كلمة « ارنست »(*) قد بدأت تصبح كلمة عصرية ، فخيل اليه أن تسمية الصبى بهذا الاسم ، كتعميده بماء الأردن ، قد يكون لها أثر دائم فى شخصيته ، وتؤثر عليه تأثيرا طيبا فى فترات حياته الدقيقة .

(*) Earnest ومعناها جاد .

وطلب الى أن أكون « أبا » ثانيا فى العماد للصبى ، واغتبطت بالفرصة التى أتيحت لى للقاء أليثيا التى لم أرها لبضع سنوات خلت ، والتى كنت على اتصال دائم بها بطريق الرسائل ، لقد كنا على الدوام صديقين مذ كنا نلعب معا أيام الطفولة . ولما قطع موت جدها وجدتها صلتها ببيلام اتصلت صداقتى الوثيقة بآل پوتنفكس بفضل زمالتى لثيوبولد فى المدرسة ، ثم فى الجامعة ، وفى كل مرة أراها كان يزداد اعجابى بها لأنها خير من رأيت من النساء ، وأرفقهن ، وأذكاهن ، وأكثرهن جدارة بالمحبة ، وأجملهن فى رأيى . ولم يكن أحد من آل پوتنفكس قليل الحظ من جمال الصورة ، وكانوا جميعا أسرة حسنة النمو والمظهر ، ولكن أليثيا كانت زهرة القطيع كله حتى فى جمال الوجه ، أما فى باقى الصفات التى تجعل المرأة محبوبة فقد بدا أنها اختصت بكل النصيب الذى رصد للبنات الثلاث والذى كان يمكن أن يكفيهن جميعا ، فلم تصب أختاها شيئا ، وظفرت هى بالنصيب كله.

وليس فى استطاعتى أن أشرح للقارىء كيف أننا لم نتزوج . بيد أننا كنا على بينة من أمرنا ، وحسب القارىء هذا . وكان بيننا أتم التعاطف والتفاهم ، وكنا موقنين بأن أحدا منا لن يتزوج غير صاحبه ، وقد طلبت اليها غير مرة أن تتزوجنى . أما وقد ذكرت هذا القدر فلن أزيد عن نقطة لا أراها بحال ضرورية لسير قصتى . وقد اعترضت لقاءنا فى السنوات القليلة الأخيرة صعوبات فلم أرها وان كنت — كما قلت — وثيق الاتصال بها بالمراسلة . فطبيعى أن يكون ابتهاجى بلقائها الآن عظيما ، وكانت قد أكملت الثلاثين من عمرها ، بيد أننى خلتها تبدو أجمل مما كانت فى أى وقت مضى .

وكان أبوها بالطبع أسد الجماعة ، ولكنه اذ رأى أننا كنا كلنا ودعاء وعلى كامل الاستعداد لأن نؤكل ، فقد اكتفى بأن يزأر من بعيد صوبنا دون

أن يزأر علينا . وكان منظرا لطيفا أن نراه يدس منشفته تحت فكه العجوز المتورد ، ويرسلها على صدريته الواسعة بينما يتراقص النور العالى المنبعث من الثريا فوق النتوء البارز من رأسه الهرم الأصلع كأنه نجم المشرق .

وكان الحساء حساء سلحفاة أصيلا ، وكان واضحا أن الشيخ مبتهج ، فبدأ يتجلى . ووقف جلسترب خلف كرسى سيده . وجلست أنا الى جوار مسز ثيوبولد عن يسارها ، فكنت بذلك مواجها لحميها الذى أتيحت لى الفرصة الكاملة لأرقب حركاته .

ولعله كان يخيل لى فى الدقائق العشر الأولى أو نحوها التى شغل فيها الآكلون بالحساء وبتقديم السمك ، أنه شيخ لطيف جدا ، وأن أبناءه يجب أن يكونوا فخورين به ، لولا أننى كنت قد كونت لنفسى رأيا فيه منذ أمد بعيد ، ولكن بينما كان يتناول شيئا من مرق اللبستر ، اذا وجهه يحتقن فجأة ، واذا نظرة غيظ شديد تغشى وجهه ، واذا هو يصوب نظرتين ناريتين ، وان كانتا خفيتين — الى طرفى المائدة ، نظرة صوب ثيوبولد والأخرى صوب كرستينا . فأما الزوجان الساذجان المسكينان فقد رأيا بالطبع أن خطأ كبيرا لابد قد وقع ، وكذلك رأيت ، ولكننى لم أستطع أن أحزر ما هو حتى سمعت فحيح الشيخ فى أذن كرستينا وهو يقول « ان الحساء لم يصنع بأنثى اللبستر » . ثم مضى يقول « أى فائدة فى أن أسمى الصبى ارنست ، وأن أعمده بماء مجلوب من الأردن ، ان كان أبوه لا يعرف ذكر اللبستر من أنثاه ؟ » .

وكانت هذه الملاحظة لطمة لى أنا أيضا ، لأننى شعرت بأننى حتى تلك اللحظة لم أكن أعرف أن بين اللبستر ذكورا واناثا ، بل كان عندى فكرة غامضة أنها فى مسألة الزواج كانت كملائكة السماء ، وأنها تكاد تنمو تلقائيا من الصخور وأعشاب البحر .

وقبل أن ينتهي دور الطعام التالى كان مستر پوتنفكس قد استعاد هدوءه ، وظل الى نهاية السهرة فى خير حالاته . فقص علينا قصة هذا الماء المجلوب من الأردن ، وكيف أن الدكتور جونس جلبه مع جرار حجرية فيها ماء من الرين والرون والالب والدانوب ، ثم العنت الذى لقيه مع موظفى الجمرك ، وكيف أن النية كانت متجهة أولا الى صنع شراب البنش من مياه جميع الأنهار الكبيرة فىأوروبا ، وكيف أنه — أىمستر پوتنفكس — قد استنقذ مياه الأردن من أن تمزج مع غيرها فى وعاء واحد الخ .. الخ ...

ثم مضى يقول « لا ، لا ، لا ، ما كان هذا ليليق اطلاقا ، انها لفكرة مستبيحة ، وهكذا أخذ كل منا زجاجة من هذا الماء الى بيته ، وكان البنش أفضل بغيره . وقد أنقذت زجاجتى من خطر تهددها منذ أيام لأننى سقطت فوق سلة بمخزن المؤونة وأنا أخرجها لآتى بها الى باترزبى ، ولولا أننى كنت حريصا أشد الحرص لتحطمت الزجاجة يقينا ، ولكننى أنقذتها » . وكان جلسترب واقفا خلف كرسيه طوال هذا الوقت !

ولم يحدث بعد ذلك شىء يكدر مستر پوتنفكس ، فقضينا أمسية مبهجة كثيرا ما عاودتنى ذكراها وأنا أتتبع مستقبل ولدى فى العماد .

وزرت الأسرة بعد يوم أو يومين فوجدت مستر پوتنفكس ما يزال فى باترزبى ملازما الفراش اثر نوبة من نوبات الكبد والاكتئاب التى ازداد تعرضه لها مع الزمن . وبقيت لتناول الغداء . وكان الشيخ شرسا عسير الارضاء ، ولم يستطع أن يأكل شيئا — ولم تكن له شهية على الاطلاق ، وحاولت كرستينا أن تغريه بقليل من ضلع الضأن الأحمر فصاح بها غاضبا « كيف يعقل أن تطلبى الى أن آكل ضلع ضأن ؟ انك تنسين يا عزيزتى كرستينا أن أمامك معدة مختلة كل الاختلال » . ثم دفع الصحن من أمامه وهو يمط شفتيه ويقطب وجهه كأنه طفل عجوز شقى . وأنا اذ أكتب على

ضوء معلوماتى المتأخرة عن هذه الفترة ، أحسب أنه كان خليقا بى ألا أرى فى هذا شيئا سوى آلام الكبر ، ذلك القلق الذى لا يمكن فصله عن الحركة والانتقال فى الكائنات البشرية . ويخيل الىّ فى الحق أنه ما من ورقة شجرة تصفر فى الخريف دون أن تكفّ عن القلق على عصارتها ودون أن تزعج الشجرة الأم ازعاجا شديدا بدمدمتها وتمرمرها — ولكن من المؤكد أن الطبيعة تستطيع أن تجد طريقة تؤدى بها عملها أقل ازعاجا من هذه لو أنها قصدت ذلك ، فلم تتداخل الأجيال وتتلاحم ؟ ولم لا يمكن أن تدفن كما يدفن البيض فى حفر صغيرة نظيفة ، ومع كل منا عشرة آلاف من الجنيهات أو عشرون ، ملفوفة حولنا فى أوراق نقد من بنك انجلترا ، ثم نستيقظ كما يستيقظ الدبور (الحفار)(*) ليجد أن أباه وأمه لم يتركا له طعاما كافيا الى جواره وحسب ، بل أكلتهما العصافير منذ أسابيع قبل أن يبدأ هو الحياة واعيا لحسابه الخاص ؟

على أن الدائرة دارت على باترزبى بعد نحو عام ونصف — لأن مسز جون پونتفكس أنجبت غلاما . وبعد عام آخر أو نحوه أصيب جورج پونتفكس نفسه فجأة بالشلل كما أصيبت أمه من قبل ، ولكن المرض لم يمهله سنوات كما أمهل أمه ، ولما فتحت وصيته وجد أن النصيب الذى كان قد أوصى به أصلا لثيوبولد ، وقدره عشرون ألفا من الجنيهات (وهو بخلاف المبلغ الذى أوصى به لثيوبولد ولكرستينا عند زواجهما) قد خفّض الى سبعة عشر ألفا وخمسمائة جنيه حين أوصى مستر پونتفكس « بمبلغ » من المال لارنست ، واتضح أن هذا « المبلغ » ألفان وخمسمائة من الجنيهات أوصى بأن تستثمر وتتجمع فى أيدى أوصياء . أما باقى التركة فكانت من نصيب جون پونتفكس ، ولكن الأب أوصى لكل بنت من بناته بحوالى

(*) Sphex Wasp .

خمسة عشر ألفا من الجنيهات فضلا عن خمســـة آلاف ورثتها كل منهن عن أمها .

اذن فان أبا ثيوبولد قال الحق ، ولكن ليس الحق كله . ومع ذلك ، فأى حق لثيوبولد فى أن يشكو ؟ لا شك أنه لم يكن من اليسير اقناعه بأنه هو وأسرته هم الرابحون بهذه الوصية المشرفة فى الوقت الذى كان المال فيه يؤخذ فى الواقع من جيب ثيوپولد — ومن جهة أخرى كانت حجة الأب أنه لم يخبر ثيوبولد قط بأنه سيحصل على شىء اطلاقا ، وأن له كامل الحق فى أن يفعل بماله ما يشاء ، فاذا كان ثيوبولد قد شاء أن يسترسل فى أمانى لا مبرر لها فليس هذا شأن الأب الذى أوصى له فى الواقع بمبلغ سخى ؛ واذا كان قد اقتطع من نصيب ثيوبولد ألفين وخمسمائة فهو انما تركها لابن ثيوبولد ، والنتيجة واحدة فى النهاية .

ولا ينكر أحد أن الحق بمعناه الحرفى الدقيق كان فى جانب الموصى ؛ ومع ذلك فان القارىء يوافقنى على أن ثيوبولد وكرستينا ما كانا يريان أن وليمة العماد نجحت نجاحا عظيما لو أن جميع الحقائق كانت مكشوفة أمامهما . وكان مستر پوتنفكس قد أقام فى حياته نصبا بكنيسة المهرست تذكارا لزوجته (وهو لوحة تقش عليها أوان وملائكة يبدون كأبناء الملك جورج الرابع غير الشرعيين ، وما الى ذلك) ، وترك فراغا تكتب عليه عبارة رثاء تحت العبارة المكتوبة لزوجته . ولست أدرى أكتب هذه العبارة أحد أبنائه ، أم أنهم عهدوا الى صديق بكتابتها لهم ، ولست أعتقد أن كاتب العبارة قصد الى أى نوع من الهجو للشيخ ، انما قصد الى القول بأنه ليس غير يوم الدين بقادر على أن يعطى الناس فكرة عن مبلغ صـــلاح مستر پوتنفكس ، ولكنى حين قرأتها للوهلة الأولى وجدت من العسير علىّ أن أراها مبرأة من الخبث .

وتبدأ العبارة بذكر تاريخ الميلاد وتاريخ الوفاة ؛ ثم تقول ان المتوفى ظل سنوات طويلة مـــديرا لشركة فرلاى وپوتنفكس ، وكذلك مقيما بأبرشية المهرست . وليس فى العبارة مقطع واحد فيه مدح أو ذمّ . والى القارىء نص السطر الأخير منها :

« انه يرقد الآن فى انتظار قيامة سعيدة فى اليوم الآخر .

وسنيكشف هذا اليوم أى نوع من الرجال كان » .

الفصل التاسع عشر

على أن لنا أن نقول فى الوقت نفسه : انه وقد عمّر الى الثالثة والسبعين تقريبا ، ومات غنيا ، فلا بد أنه عاش فى توافق طيب جدا مع محيطه . لقد كنت أسمع الناس يقولون أحيانا ان حياة هذا الرجل أو ذاك كانت أكذوبة : ولكن لا يمكن أن تكون حياة انسان أكذوبة رديئة جدا ؛ فما دامت تستمر اطلاقا فهى صادقة فى تسعة أعشارها على أسوأ الفروض .

ان حياة مستر پوتنفكس لم تطل وحسب ، ولكنها كانت ناجحة مـيسـَّرة الى النهاية . أفلا يكفى هذا ؟ أليس أوضح مهامنا — ما دمنا فى هـذا العالم — أن نفيد منه أقصى فائدة — فنلاحظ الأشياء التى تفضى حقا الى الحياة المديدة والراحة ، ثم نسلك بمقتضى هذه الملاحظة ؟ ان كل الحيوانات — باستثناء الانسان — تعرف أن مهمة الحياة الأساسية هى الاستمتاع بها — وهى فعلا تستمتع بها بقدر ما يتيح لها ذلك الانسان وغـيره من الظروف . لقد أنفق حياته على خير وجه من استمتع بها ما وسعه ؛ والله كفيل بأننا لن نسرف فى هذا الاستمتاع اسرافا يؤذينا . فاذا كان هنـاك مجال للوم مستر پوتنفكس فعلى أنه لم يأكل ولم يشرب أقل مما فعـل فيعانى من كبده أقل مما عانى ، ويعيش عاما أو عامين أكثر مما عاش .

ان الطيبة أو التقوى لا قيمة لها ما لم تفض الى طول العمر وبسـطة الرزق . وأنا أتكلم هنا عموما وباستثناء من يفوقون أوساط الناس . يقول صاحب المزمور « البار لا يعوزه شيء طيب » . فاما أن العبـارة ليست الا خيال شاعر ، واما أنه يترتب عليها أن من يعوزه شيء طيب فهو ليس

بارا ؛ وهناك افتراض آخر أيضا ، هو أن من أنفق حياة طــويلة دون أن يعوزه شيء طيب كان هو أيضا طيبا بالقدر الذى يكفى للأغراض العملية .

ان مستر پوتنفكس لم يعــوزه قط شيء يباليــه أو يهتم به كثيرا . صحيح أنه ربما بدا أسعد حالا لو أنه اهتم بأشياء لم يكن يحبها ، ولكن بيت القصيد هنا هو هذا الشرط « لو اهتم » . اننا جميعا أخطأنا وأعوزنا مجد تحقيق ما كان فى استطاعتنا أن نحققه من الراحة لأنفسنا ، ولكن مستر پوتنفكس فى هذه الحالة التى نحن بصددها لم يهتم ، وما كان ليجنى كثيرا من وراء حصوله على أشياء لم يكن يريدها .

وليس هناك امتهان للعقول شرا من تملق الفضيلة وفرض نسب لها من أصل لا صلة لها به ، كأن أصلها الصحيح لا يشرفها تشريفا كافيا . ان نسب الفضيلة الصحيح أقدم وأجل من أى نسب يمكن اختراعه لها . فهى تنبعث من تجربة الانسان عن خيره ورفاهيته — وهذه الفكرة ، وان كانت غير منزهة عن الخطأ ، الا أنها أقل الأشياء التى لدينا خطأ . ونظام لا يستطيع أن يقف على أساس أفضل من هذا لابد ينطوى فى ذاته على شيء قلق مزعزع حتى أنه لا محالة منقلب أيا كانت المنصة التى نرفعه عليها .

لقد قرر العالم منذ أمد بعيد أن الأخلاق والفضيلة هما ما يجلبان للناس السلام فى النهاية . تقول كراسة الخط المدرسية « كن فاضلا تكن سعيدا ». فاذا خابت فضيلة مشهورة مرارا وتكرارا فى هذه الناحية فهى اذن ليست الاصورة خداعة من صور الرذيلة ، واذا لم تجر رذيلة مشهورة أذى خطيرا جدا على الانسان فى أخريات عمره فهى اذن ليست رذيلة سيئة بالقدر الذى يظنه الناس . على أننا وان اتفقنا كلنا على الرأى الأساسى الذى يقول ان الفضيلة هى ما يفضى الى السعادة ، والرذيلة ما ينتهى بالحزن والكدر ، الا أننا لسوء الحظ لسنا مجمعين هذا الاجماع على التفاصيل — أعنى هل يفضى مسلك ما ، كالتدخين مثلا ، الى السعادة أو الى عكسها .

واني أذكر للقارىء نتيجة لملاحظتي المتواضعة أن كثيرا من قسوة الآباء وأنانيتهم فى معاملة أبنائهم لا تترتب عليها بوجه عام نتائج وخيمة على الآباء أنفسهم . فقد يلقون ظلا كئيبا على حياة أبنائهم سنوات طويلة دون أن يضطروا الى معاناة أى شيء يؤذيهم هم . أقول اذن انه ليس دليلا على اعوجاج خلقى كبير فى الآباء أن يجعلوا حياة أبنائهم — فى حدود معينة — عبئا ثقيلا على هؤلاء الأبناء .

فاذا قيل ان شخصية مستر بونتفكس لم تكن سامية جدا قلنا انه لا يشترط فى الناس العاديين أن تكون شخصياتهم سامية جدا . وحسبنا أن نبلغ المستوى الخلقى والعقلى الذى يبلغه الشطر « الرئيسى »(*) أو « المتوسط »(**) من الناس .

ان فى طبيعة الأشياء ذاتها أن الأغنياء الذين يموتون معمرين كانوا فى حياتهم « وسطا » وانك لتجد فى أكثر الأحايين أن أعظم الناس وأحكمهم هم أقربهم الى المتوسط — أى الذين احتفظوا بأفضل وسط بين الافراط فى الفضيلة أو الرذيلة — ولولا هذا لما نجحوا قط ، واذا تذكرنا كثرة الناس الذين يخفقون فى الحياة اخفاقا تاما لم يكن بالفخر القليل للرجل أن يسلك فى الحياة طريقا ليس أسوأ من جيرانه . ويخبرنا هوميروس عن رجل همه فى الحياة « أن يتفوق دائما وأن يسمو على غيره من الناس » . فياله من رجل رذل لا يعاشر ! ولكن أبطال هوميروس كانوا عادة ينتهون نهاية سيئة ، ولست أشك فى أن هذا السيد ، أيا كان ، انتهى هذه النهاية عاجلا أو آجلا .

(*) Main .

(**) Mean ، وفيها تورية فى هذا الموضع وفى غيره من المواضع فى هذا الفصل ، لأن من معانيها أيضا الخسيس الدنيء .

ثم ان المستوى الرفيع جدا يقتضى الاتصاف بفضائل نادرة ، والفضائل النادرة أشبه بالنبات أو الحيوان النادر ، وهى أشياء لم تستطع أن تثبت للنضال فى العالم . فلابد للفضيلة اذا أريد أن تكون نافعة من أن تمزج كما يمزج الذهب بمعدن أكثر شيوعا ولكنه أبقى وأكثر احتمالا على الأيام .

والناس يفرقون تفريقا حادا بين الرذيلة والفضيلة كأنهما شيئان لم يشب أحدهما شائبة من الآخر . ولكن الواقع غير هذا — فليس هناك فضيلة نافعة لم تختلط ببعض الرذيلة ، ولا تكاد تجد رذيلة لا تحمل معها قدرا طفيفا من الفضيلة ؛ فالفضيلة والرذيلة هما الحياة والموت ، أو العقل والمادة — أشياء لا يمكن وجودها ما لم تتميز بأضدادها . وان أنقى ألوان الحياة يحتوى الموت ، كما أن جسم الميت هو فى كثير من النواحى حى بعد ؛ كذلك قيل « ان كنت أيها الرب تتشدد فراقب أخطاءنا » وهذا دليل على أنه حتى أسمى مثل أعلى نستطيع أن نتصوره يسلم بقدر من التسامح مع الرذيلة يكفى للتغاضى عن مساوىء العصر الهينة ما دامت ليست معيبة جدا. وتقديم الرذيلة ولاءها للفضيلة أمر مستنكر ، ونحن نسميه نفاقا ؛ ولكن يجب أن نجد لفظا للولاء الذى كثيرا ما تقدمه الفضيلة للرذيلة ، أو — على الأقل — الذى تقتضيها الحكمة أن تقدمه .

وأنا أسلم أن بعض الناس يجدون السعادة فى بلوغ ما نشعر كلنا بأنه مستوى خلقى أرفع من مستوى غيرهم . على أنهم ان فعلوا فلا بد لهم من أن يقنعوا بالفضيلة ثوابا لنفسها ، فلا يتذمروا اذا وجدوا المثالية الرفيعة ترفا غاليا يمت ثوابه الى مملكة ليست من هذا العالم . وعليهم ألا يدهشوا اذا أخفقوا فى الافادة الى أقصى حد من الدنيا والآخرة جميعا ؛ ومهما تشككنا فى تفاصيل الروايات التى سجلت نمو المسيحية ، فان جزءا كبيرا من التعاليم المسيحية يظل صادقا صدقها لو أننا قبلنا هذه التفاصيل . اننا

لا نقدر أن نخدم الله والمال ؛ و « ما أكرب الطريق وأضيق الباب » الذى يؤدى الى الغاية التى يعتقد من يعيشون بالايمان أنها خير ما يجدر بلوغه ، وليس هناك طريقة للتعبير عن هذا المعنى خيرا من الطريقة التى عبّر بها الكتاب المقدس عنه . ومن الخير أن يكون هناك نفر يفكرون على هذه الصورة ، كما أن من الخير أن يكون فى التجارة مضاربون كثيرا مايحرقون أصابعهم — ولكن ليس من الخير أن تترك الكثرة العظمى الدرب « الوسط » المطروق .

فاللذة — أى النجاح المادى الملموس فى هذه الدنيا — هى أسلم محك للفضيلة عند أكثر الناس وفى أكثر الظروف . لقد جاء التقدم دائما عن طريق اللذات لا عن طريق الفضائل الحادة المتطرفة ، وأكثر الناس فضيلة كانوا أميل الى الافراط منهم الى الزهد . وبعبارة مستعارة من دنيا التجارة ، نقول ان المنافسة حادة جدا ، ومجال الربح ضُيّق تضييقا لا يسع الفضيلة معه أن تفرط فى أى فرصة حقيقية أمامها ، فلا بد لها من أن تقيم تصرفاتها على « الفائدة المالية » الفعلية للسلوك أكثر مما تقيمها على برنامج وهمى . لذلك لا ترضى — وكذلك يفعل بعض من يبدون الحرص والقصد الكافيين فى غير ذلك من الأمور — بأن تغفل عاملا هاما هو عامل احتمال افلاتنا من أن يكشف أمرنا ، أو على الأقل احتمال موتنا قبل غيرنا . الفضيلة المعقولة تقدر هذا الاحتمال قدره الصحيح دون زيادة أو نقصان .

ثم ان اللذة هاد أسلم من الحق أو الواجب ؛ ذلك أنه برغم الصعوبة التى نجدها فى تبين ما يفضى الى سرورنا أو لذتنا ، فان الحق والواجب هما فى الغالب أصعب تمييزا ، واذا أخطأنا فى تبينهما انتهيا بنا الى موقف سيىء كما ينتهى بنا رأى خطأ فى اللذة . ان الناس حين يحرقون أصابعهم لجريهم وراء اللذة يكتشفون خطأهم ويستطيعون أن يعرفوا أين أخطأوا

بأيسر مما يفعلون لو أحرقوها جريا وراء واجب وهمى ، أو فكرة وهمية عن الفضيلة الحقة . والواقع أن الشيطان اذا تنكر فى ثياب ملاك لا يمكن أن يتبينه غير خبراء ذوى مهارة شاذة . وهو يتنكر فى هذه الصورة مرارا كثيرة بحيث لا يكون المرء فى مأمن أن يثرى وهو يتكلم الى ملاك على الاطلاق ، وحكماء الناس يتبعون اللذة لأنها هاد أو مرشد أبسط — ولكن أكثر احتراما وأجدر بالثقة على الجملة .

ولنعد الى مستر پوتنفكس فنقول انه فضلا عن كونه عاش عمرا مديدا ناجحا ، قد ترك ذرية كثيرة خلّف لأفرادها جميعا أولا سماته الجسدية والعقلية مع قدر من التعديل لا يزيد على القدر المألوف . وخلف لهم أيضا حظا غير قليل من سمات وخصائص تنتقل الى الذرية بسهولة أقل — وأعنى بها خصائصه المالية . وقد يقال انه اكتسب هذه الخصائص الأخيرة بجلوسه ساكنا وتركه المال يجرى نحوه ليصطدم به كما يقولون ، ولكن كم من الناس يجرى نحوهم المال فلا يأخذونه حين يفعل ، أو اذا أمسكوا به لحظة يعجزون عن أن يتمثلوه تمثّلا يجعله ينتقل منهم الى ذريتهم ؟ ولكن مستر پوتنفكس فعل هذا . لقد احتفظ بما يصح أن يقال انه كسبه ، والمال يشبه سمعة الكفاية — كسبه أيسر من الاحتفاظ به .

اذن ، فاذا أخذتُ الرجل فى جملته ، فلست أرانى ميالا الى أن أقسو قسوة أبى عليه . انك ان حكمت عليه حسب أى مستوى من المستويات الرفيعة جدا وجدته شديد القصور ، أما ان حكمت عليه حسب مستوى متوسط معقول فان تجد فيه عيبا كثيرا . وقد قلت ما قلت فى هذا الفصل مرة وكفى ، ولن أقطع خيط قصتى لأعيده . وينبغى أن يكون فى هذا الذى قلت ما يكفى لتعديل الحكم الذى قد يميل القارىء الى اصداره فى تسرع كثير ، لا على مستر جورج پوتنفكس وحده ، ولكن على ثيوبولد وكرستينا أيضا . والآن سأمضى فى سرد قصتى .

الفصل العشرون

فتح مولد ابن ثيوبولد عينيه على كثير مما لم يكن يدركه الى ذلك الوقت الا قليلا . ذلك أنه لم يكن لديه فكرة عن شدة المضايقة التى يسببها طفل صغير . فالأطفال يأخذوننا على غرة ويأتون الى العالم فى النهاية ، ويقلبون كل شىء رأسا على عقب حين يأتون : فلم لا يستطيعون أن يتسللوا الينا دون أن يزعزعوا نظام البيت الى هذا الحد ؟ كذلك لم تفق زوجته سريعا من نفاسها ، وظلت عليلة شهورا ؛ وتلك مضايقة أخرى ، ومضايقة غالية الثمن ، تدخلت فى مقدار المال الذى كان ثيوبولد يحب أن يدخره من دخله « اتقاء يوم مطير » على حد قوله ، أو لضمان مستقبل أبنائه ان رزق أبناء . والآن وقد بدأ هؤلاء الأبناء يقبلون ، فان الحاجة لادخار المال غدت أمسّ ، ولكن ها هو الطفل يقف حائلا بينه وبين هذا الهدف . ان فى وسع المفكرين النظريين أن يقولوا ما شاءوا عن أبناء الرجل وكونهم امتـدادا لشخصيته ، ولكنك تجد فى الأغلب الأعم أن الذين يتكلمون بهذه الطريقة ليس لهم أبناء ، أما أرباب الأسر العمليون فهم أعلم ببواطن الأمور .

وبعد حوالى عام من ميلاد ارنست ولد لثيوبولد طفل ثان كان هو أيضا ولدا ، وسمى چوزف ، وبعد أقل من عام آخر ولدت طفلة سميت تشارلت . وقبل مولد هـذه الفتاة بشهور زارت كرستينا آل جون پوتنفكس بلندن ، واذ كانت على بينة من حالتها فقد أنفقت وقتا طويلا فى معرض الأكاديمية الملكية تتطلع الى نماذج الجمال النسائى الذى صورته ريشة أساتذة الفن ، لأنها كانت قد عقدت النية على أن يكون الوليد فى

هذه المرة فتاة . وحذرتها أليثيا من أن تفعل هذا ، ولكنها أصرت عليه ، وجاءت الطفلة قبيحة الوجه طبعا ، ولست أدرى هل علة ذلك هى الصور أم غيرها .

ولم يكن ثيوبولد يميل قط للأطفال . كان دائما يبتعد عنهم بأسرع ما يستطيع ، وكذلك هم عنه ؛ وكان يميل الى أن يسأل نفسه : ليت شعري لِمَ لا يمكن أن يولد الأطفال فى العالم كبارا ؟ لو أن كرستينا استطاعت أن تلد نفرا من رجال الدين ، المكتملى النمو ، الذين بلغوا مراتب القسس — رجال لهم آراء معتدلة ، ولكنهم ينزعون أكثر الى « الانجيلية » ، لهم وظائف مريحة ، وهم من جميع الوجوه نسخ طبق الأصل من ثيوبولد نفسه — أجل فى هذه الحالة يكون الأمر معقولا أكثر منه الآن ؛ أو لو أن الناس استطاعوا أن يشتروا من المتاجر أطفالا جاهزين من أى الأعمار ومن أى الجنسين أرادوا ، بدلا من أن يضطروا دواما الى أن يصنعوهم فى البيت ويبدأوا معهم من البداية — ذلك يكون خيرا ، أما والأمر غير هذا فهو لا يحبه . وأحسّ كما أحس يوم طلب اليه أن يحضر ويتزوج كرستينا — أحس أنه قد سار على ما يرام زمنا طويلا ، وأنه يؤثر كثيرا أن يمضى فى سيره الراهن دون تبديل ولا تغيير . فأما فى مسألة الزواج فقد اضطر الى التظاهر بأنه يحبه ؛ ولكن الزمن تغير ، فاذا كان الآن لا يحب شيئا ، ففى استطاعته أن يجد عشرات الطرق لاظهار كراهيته له.

ولعله كان خيرا لو أن ثيوبولد قاوم أباه فى صباه أكثر مما فعل : فقد شجعه عدم المقاومة هذا على أن يتوقع من أبنائه الطاعة المطلقة . وكان يقول (وكذلك تقول كرستينا) انه يستطيع أن يطمئن الى أنه أكثر لينا مع أبنائه ربما مما كان أبوه معه ؛ وكان يقول (وكذلك أيضا تقول كرستينا) ان الخطر فى حالته سيكون أكثر فى ناحية الاسراف فى التسامح ؛ فعليه أن

يتنبه لهذا الخطر ، لأنه ليس هناك واجب أهم من تعليم الطفل أن يطيع أبويه فى كل شىء .

وكان قد قرأ منذ عهد بعيد عن سائح شرقى وجد فى أثنـاء ارتياده مكانا ما فى أقصى بقاع بلاد العرب وآسيا الصغرى جماعة مسيحية صغيرة كثيرة الجد والرزانة والصلابة — وكلهم فى صحة سابغة — اتضح أنهم الأسلال الأحياء ليوناداب بن ركاب(*) ؛ وجاء رجلان يتكلمان الانجليزية فى تعثر ، ويدل لونهما دلالة واضحة على أنهما شرقيان وان كانا يرتديان الثياب الأوروبية ، الى باترزبى ليستجديا بعد ذلك بقليـل ، وقالا انهما ينتميان الى الجماعة المذكورة ، وذكرا أنهما يجمعان مالا ليعينا على تحويل اخوانهم فى القبيلة الى الشعبة الانجليزية من الدين المسيحى ؛ صحيح أنه اتضح أنهما نصابان ، لأنهما بعد أن أعطـاهما ثيوبولد جنيهـا وأعطتهما كرستينا خمسة شلنات من مصروفها الخاص ، مضيا وسكرا بالمال فى ثانى قرية مجاورة لباترزبى ؛ ولكن ذلك لا يدحض قصة السائح الشرقى . ثم هناك الرومان — الذين كانت عظمتهم فى أغلب الظن راجعة الى السلطة النافعة التى كانت لرب الأسرة على أعضائها كلها — بل ان بعض الرومان كانوا يقتلون أبناءهم ؛ وهذا اسراف بالطبع ، بيد أن الرومان لم يكونوا مسيحيين ، ولم يؤتوا من العلم خيرا من هذا .

وكان الحاصل العملى لما تقدم اقتناعا رسخ فى عقل ثيوبولد ، وان رسخ فى عقله ففى عقل كرستينا أيضا ، بأن واجبهما يقتضيهما أن يبدآ

(*) « فقالوا لانشرب خمرا لأن يوناداب بن ركاب أبانا أوصـانا قائلا لاتشربوا خمرا أنتم ولا بنوكم الى الأبد ، ولا تبنوا بيتـا ولا تزرعوا زرعا ولا تغرسوا كرما ولا تكن لكم بل اسكنوا فى الخيام كل أيامكم ... فسمعنـا لصوت يوناداب بن ركاب أبينا فى كل ما أو صانا به ... الخ .. أرميـا ٣٥ : ٦ — ٨

تدريب أطفالهما فى الطريق الذى يجب أن يسلكوه ، حتى وهم بعد فى نعومة أظفارهم . فلا بد من البحث فى عناية عن أول بوادر للعناد فيهم واقتلاعها من جذورها فورا قبل أن يتاح لها وقت تنمو فيه . وقد التقط ثيوبولد هذه الاستعارة كما يلتقط أفعى خدرت من البرد ثم أدفأها فى صدره .

وقبل أن يستطيع ارنست أن يحبو علّماه أن يركع ، وقبل أن يستطيع الكلام علماء أن يلثغ بالصلاة الربانية وبقانون الايمان . فكيف أمكن تعليم الصبى هذه الأشياء فى هذا العمر المبكر جدا ؟ ان وهن انتباهه أو خانته ذاكرته كان معنى هذا أن هنا عشبا ضارا سينمو سريعا ان لم يقتلع لتوه ، والطريق الوحيد لاقتلاعه هو أن يساط الغلام أو يحبس فى دولاب أو يحرم من بعض لذات الطفولة الصغيرة . وقبل أن يتم عامه الثالث استطاع أن يقرأ، وأن يكتب على صورة ما . وقبل أن يتم عامه الرابع كان يتعلم اللاتينية ، واستطاع أن يحل مسائل النسبة والتناسب .

فأما الطفل نفسه فكان بفطرته هادىء الطبع ، كان شديد الولع بمربيته، وبالقطيطات والجراء ، وبجميع الأشياء التى تحسن اليه اذ تسمح له أن يغرم بها . وكان مغرما بأمه أيضا ، أما عن أبيه فقد أخبرنى الفتى فى فترة متأخرة من حياته أنه لا يستطيع أن يذكر نحوه شعورا غير شعور الخوف والاحجام . ولم تكن كرستينا تلوم ثيوبولد على صرامة الواجبات المفروضة على ولدهما ، لا ولا على الجلد المستمر الذى كان يراه ضروريا وقت الدرس . بل انها وجدت للأسف — حين كان ثيوبولد يكل اليها تدريس الصبى اذا غاب هو — أن ليس أمامها الا أن تصنع هذا ، فصنعته بطريقة لا تقل فاعلية عن طريقة ثيوبولد نفسه ، ومع ذلك فقد كانت شغوفة بولدها، وهذا ما لم يكنه ثيوبولد قط ، فمضى وقت طويل قبل أن تستطيع تدمير كل عاطفة من المحبة لها فى عقل ولدها البكر . ولكنها ثابرت .

الفصل الحادي والعشرون

عجيب أمرها حقا ! لقد اعتقدت أنها كلِفة به ، وما من شك فى أنها كانت تحبه أكثر مما تحب أى طفل من طفليها الآخرين . فأما روايتها للأمر فهى أنه لم يوجد أبوان اتصفا بما اتصفت هى وثيوبولد به من بذل واخلاص لأعز مصالح أبنائهما . أما ارنست فهى واثقة من أن مستقبلا عظيما ينتظره ، وقد زاد هذا من ضرورة الصرامة فى تربيته حتى يمكن حفظه منذ البداية نقيا من كل شائبة شر ، انها لم تستطع أن تسترسل فى بناء القصور الذى نقرأ أن كل أم يهودية استرسلت فيه قبل ظهور « المسيّا » ، لأن المسيح قد أتى فعلا ، ولكن سيأتى « عصر الألف السنة » السعيد عما قريب ، ومن المؤكد أنه لن يتأخر عن ١٨٦٦ ، حين يكون ارنست قد ناهز السن المناسبة له ، فتكون الحاجة لايليا جديد يبشر بمقدم العصر . وتشهد السماوات على أنها ما أحجمت قط عن فكرة الاستشهاد لها ولثيوبولد ، كذلك لن نهرب من هذا الاستشهاد لولدها ان طلبت اليها حياته فى خدمة فاديها . أجل ، لو أن الله أمرها بأن تقدم بكرها كما أمر ابراهيم لأخذته الى «پجبرى بيكن » وأغرقته — كلا ، لن تستطيع أن تفعل هــذا ، ولكنه لن يكون ضروريا — وقد يفعله غيرها ؛ فلم يكن عبثا تعميد ارنست فى ماء من الأردن، ذلك لم يكن من فعلها هى ، ولا حتى من فعل ثيوبولد . انهما لم يسعيا اليه، فلما طلب ماء من النهر المقدس لطفل مقدس ، وُجِد الطريق الذى يجرى فيه الماء من فلسطين النائية مخترقا البر والبحر الى باب البيت الذى يرقد فيه الطفل . أجل لقد كانت معجزة ! معجزة ! معجزة ! لقد تكشف لها الأمر

كله الآن . ان الأردن ترك قاعة وجرى الى بيتها هى . ومن الغباوة أن يقال ان هذه ليست معجزة فلا معجزة تتم دون وسيلة من نوع ما ؛ والفرق بين المؤمنين وغير المؤمنين هو أن الأولين يستطيعون أن يروا معجــزة حيث لا يستطيع الآخرون . ان اليهود لم يستطيعوا أن يروا معجزة حتى فى اقامة لعازر وفى اطعــام الآلاف الخمســة . وان آل جون پوتنفكس لن يروا معجزة فى أمر ماء الأردن هذا . وليس سرّ المعجزة فى الاستغناء عن الوسيلة أو الأداة ، بل فى اتخاذ وسيلة الى غاية عظمى لم تكن ميسورة دون تدخل وما من أحد يزعم أن الدكتور جونس كان جالبا الماء ما لم يوجه الى جلبه . ستقول هذا لثيوبولد وتحمله على أن يراه فى ... ولكن ربما كان من الخير ألا تفعل ، فان بصيرة المرأة النافذة الى أمور من هذا النوع أعمق وأبعد عن الخطأ من بصيرة الرجل . لقد كانت امرأة — لا رجلا — تلك التى امتلأت بكل ملء الله . ولكن لِمَ لم يحرصا على هذا الماء بعد أن استعملاه ؟ ما كان ينبغى قط أن يرمى ، ولكنه رُمِىَ . على أنه ربما كان هذا للخير أيضا — فلعلهما كانا يغريان بأن يغلوا فى تقدير قيمته ، وربما صار مبعث خطر روحى لهما — بل ربما مبعث كبرياء روحية ، وهى أشد الخطايا فى رأيها نكرا . أما الطريق الذى جرى فيه الأردن الى باترزبى ، فذلك لا يهم أكثر من التربة التى يجرى فيها النهر فى فلسطين نفسها . لقد كان الدكتور جونس رجلا ماديا ولا ريب — يهتم كثيرا بعرض الدنيا ؛ وكذلك كان حموها — وهو ما يشعرها بالأسف — وان كان بدرجة أقل ؛ ولكنه ولا شك روحانى فى صميمه ، وقد ازداد روحانية زيادة مطردة كلما تقدم فى السن ، ومع ذلك فقد كانت تشوبه شائبة من حب العالم، ربما الى ساعات قليلة جدا قبل موته، فى حين أنها هى وثيوبولد بذلا كل شىء فى سبيل المسيح . انهما ليسا محبين للعالم . ان ثيوبولد على الأقل ليس كذلك . أما هى فقد كانت كذلك من

قبل ، ولكنها واثقة أنها نمت فى النعمة مذ أقلعت عن أكل المخنوق والدم . ذلك أشبه بالاغتسال فى نهر الأردن اذا قيس بالاغتسال فى أبانة وفرفر نهرى دمشق(*) ان ولدها يجب ألا يمس دجاجة مخنوقة أو فصيدا — وهى كفيلة بأن تصونه عن هذا على الأقل . ويجب أن يؤتى له بمرجانة مصقولة عن منطقة يافا فان على سواحل هذه المنطقة حشرات مرجانية ، وهكذا يمكن الحصول على المرجانة بجهد قليل ؛ انها ستكتب بطلبها هذا للدكتور جونس ، الخ ... وهكذا وهكذا ساعات متصلة يوما بعد يوم لسنوات كثيرة . صحيح أن مسز ثيوبولد كانت تحب ولدها على قدر ما أوتيت من معرفة محبة عظيمة جدا ، ولكن الأحلام التى كانت تحلم بها فى نومها كانت حقائق رصينة اذا قيست بتلك التى كانت تسترسل فيها فى يقظتها .

ولما بلغ ارنست عامه الثانى بدأ ثيوبولد يعلمه القراءة كما قلت . وبدأ يسوطه بعد يومين من بداية هذا التعليم .

وكان يقول لكرستينا « انه أمر مؤلم » ، ولكنه الشىء الوحيد الذى يمكن أن يفعله ، وقد فعله ، وكان الطفل ضئيل الجسم شاحب الوجه معتلا ، فكان أبواه يرسلان دائما فى طلب الطبيب الذى كان يصف له الكالوميل (الزئبق الحلو) ومسحوق جيمس . كانا يفعلان هذا كله فى محبة ، وقلق ، وتردد ، وغباء ، ونفاد صبر . لقد كانا غبيين فى الأشياء القليلة ؛ والغبى فى القليل يكون غبيا أيضا فى الكثير .

(*) الاشارة الى قصة نعمان السريانى ، رئيس جيش ملك أرام الذى أرسل اليه النبى أليشع يقول اذهب واغتسل سبع مرات فى الأردن فيرجع لحمك اليك وتطهر ، فغضب نعمان .... وقال أليس أبانة وفرفر نهرا دمشق أحسن من جميع مياه اسرائيل (الملوك الثانى ٥ : ١٠ — ١٢) .

ثم ما لبث الشيخ پوتنفكس أن مات ، وتكشف هذا التعديل الصغير الذى أجراه فى وصيته يوم أوصى ببعض المال لارنست . وشق عليهما الأمر، لا سيما ولا سبيل الى مصارحة الموصى برأيهما فيه بعد أن لم يعد قادرا على ايذائهما . فأما عن الصبى نفسه ، ففى وسع أى انسان أن يرى أن هذه الوصية ستكون شرا خالصا عليه ، فان ترك مبلغ مستقل من المال للشاب ربما كان أشد ما يستطيع انسان أن يلحقه به من اضرار ، فذلك خليق بأن يشل طاقاته وأن يقتل رغبته فى العمل النشيط ، وكم من فتى جرّه الى مهاوى الشر علمه بأنه سيرث بضعة آلاف من الجنيهات حين يبلغ رشده . وكان يصح ولا ريب الاطمئنان الى أنهما سيحرصان أشد الحرص على مصالح ولدهما ، وأنهما يجب أن يكونا حكما فى هذه المصالح خيرا مما ينتظر أن يكون هو فى الحادية والعشرين : ثم ان والد يوناداب بن ركاب — أو لعله من الأبسط فى هذه الحالة أن تقول ركاب رأسا — لو أن ركابا هذا ترك ميراثا طيبا لأحفاده — فلعل يوناداب لم يكن يجد هؤلاء الأبناء طيّعين له الخ ... وبعد أن ناقش ثيوبولد الأمر مع كرستينا للمرة العشرين ، قال لها « يا عزيزتى ، يا عزيزتى ، ان الشىء الوحيد الذى يرشدنا ويعزينا فى كوارث كهذه هو أن نلجأ الى العمل المجدى. سأمضى وأزور مسز طومسن» .

فى مثل هذه الأيام كان يخبر مسز طومسن أن خطاياها طهرت كلها الخ... بأسرع وأقطع مما يخبرها فى أيام أخر .

الفصل الثاني والعشرون

ألفت أن أمكث فى باترزبى يوما أو يومين أحيانا حين كان ولدى فى العماد وأخوه وأخته أطفالا ، ولست أدرى لمَ كنت أذهب الى باترزبى ، فقد زادت شقة الخلاف أكثر فأكثر بينى وبين ثيوبولد ، ولكن المرء أحيانا يجد نفسه قد ألف مكانا وسكن اليه ، واستمرت الصداقة المزعومة بينى وبين آل پونتفكس وان لم تزد الآن كثيرا على الأثر المتخلف من صـداقة منقرضة . وقد سررت بولدى فى العماد أكثر مما سررت بأخيه أو أخته . ولكن كان يعوزه كثير من خفة الطفولة ومرحها ، وكان أقرب الى رجـل عجوز قصير شاحب اللون ضامر الجسد مما أحب له أن يكون . على أن أطفال الأسرة كانوا على استعداد كبير للتودد الى ومصادقتى .

وانى لأذكر ارنست وأخاه وقد راحا يحومان حولى فى أول يوم من أيام احدى هذه الزيارات وأيديهما مملوءة بالأزهار الذابلة التى قدماها الى فى النهاية . فلما فعلا قمت بما أحسبه كان منتظرا منى : سألتهما هل هناك دكان قريب يستطيعان أن يشتريا منه الحلوى . فقالا نعم ؛ وتحسست جيوبى ، ولكنى لم أجد الا بنسين ونصفا من العملة الصغيرة ، فأعطيتهما النقود وانطلق الطفلان فى خطواتهما الصـغيرة وحدهما وكانا فى الرابعة والثالثـة من عمرهما . ولم يمض طويل وقت حتى عادا ، وقال ارنسـت « لانستطيع أن نشترى حلوى بكل هذه النقود » (وشعرت بأنه يوبخنى وان لم يقصـد الى التوبيخ) ؛ « انما نستطيع أن نشترى حلوى بهذا » (وأشار الى أحد البنسين) ، « وبهذا » (وأشـار الى البنس الثانى) ،

« ولكنا لانستطيع أن نشترى بكل هذا » مضيفا نصف البنس الى البنسين. وأحسب أنهما أرادا شراء كعكة أو نحوها من ذات البنسين . وقد أضحكنى الأمر ، وتركتهما ليحلا المشكلة بطريقتهما الخاصـــة اذ كنت تواقا لرؤية ما يفعلان .

وبعد قليل قال ارنست : « أتسمح لنا بأن نرد اليك هذا » (مشيرا الى نصف البنس) « ولا نرد اليك هذا ، ولا هذا ؟ » (مشيرا الى البنسين) . فوافقت ، وتنفسا الصعداء ، ومضيا فى طريقهما يزأطان . وما هو الا مزيد قليل من عطايا البنسات واللعب الصغيرة حتى تم لى غزوهما ،فبدآ يثقان بى ويفضيان الىّ بأسرارهما .

وقد أخبرانى كثيرا مما أخشى أنه كان من واجبى ألا أصغى اليه . قالا لو أن جدهما عاش أطول لأصبح فى الغالب لوردا ، ولأصبح « بابا » فى هذه الحالة « الشريف » و « المبجل » ، ولكن الجد فى السماء الآن يرتل مع جدتهما ألبى التراتيل الحلوة للمسيح الذى يحبهما حبا جما ؛ وقالا انه حين مرض ارنست أخبرته « ماما » بأنه لا داعى لأن يخاف من الموت لأنه سيذهب رأسا الى السماء ، بشرط أن يندم على أنه أساء أداء واجباته وغاظ أباه العزيز ، وبشرط أن يعد بألا يغيظه أبدا أكثر من ذلك ، وانه اذا وصل الى السماء استقبله جده وجدته ألبى وأصبح معهما على الدوام ، وأحسنا اليه ، وعلماه أن يرتل التراتيل الجميلة ، التى هى أجمل كثيرا من تلك التى يحبها الآن الخ ... الخ ... ؛ ولكنه لم يرد أن يموت ، وقد سرّه أن يتماثل للشـــفاء لأنه ليس فى السماء قطيطات ،وهو لا يظن أن فيها الزهر الذى يصنع منه الشاى .

أما أمهما فكان واضحا أن أملها فيهما قد خاب . قالت لى على الافطار ذات صباح « ليس أحد من طفلىّ عبقريا يامستر أوفرتن .ان لهما مواهب

طيبة ، وهما بفضل تعليم ثيوبولد متقدمان بالنسبة لعمريهما ، ولكن ليس فيهما مايشبه النبوغ أو العبقرية : ان العبقرية شيء يختلف عن هذا ، أليس كذلك ؟ » .

وبالطبع قلت لها « انهـا شيء يختلف عن هـذا كل الاختـلاف » ولكن لو أن أفكارى أميط عنها اللثام لتكشفت عن هذه الكلمات «أعطينى قهوتى فورا يا سيدتى وكفى عن هذا الهراء » . لست أدرى ما هى العبقرية، ولكنى أقول — على قدر ما أستطيع أن أكوّن عنها أى مفهوم — انها كلمة غبية من الخير أن نسرع بتركها للهتافين والمطيبين للعلماء والأدباء .

ولست أعلم على التحقيق ما الذى كانت كرستينا تتوقعه ، ولكن يخيل الىّ أنه شيء قريب من هذا : « ينبغى أن يكون أطفالى كلهم عباقرة ، لأنهم أبنائى وأبناء ثيوبولد ، وانها « لشقاوة » منهم ألا يكونوا كذلك ؛ ولكنهم بالطبع لا يستطيعون أن يكونوا طيبين أذكياء كما كان ثيوبولد ، وكما كنت أنا ، واذا أبدوا أمارات على هذا فستكون هذه « شقاوة » منهم . على أنهم لحسن الحظ ليسوا كذلك ، ومع ذلك فمن المؤسف جدا أنهم ليسوا كذلك ، أما العبقرى — كذا ، كذا ، — أما العبقرى فيجب أن «يتشقلب» شقلبات ذهنية حالما يولد ، ولم يستطع أحد من أطفالى بعد أن يحمـل الصحف على نشر اسمه . اننى لا أرضى بأن يختال أحد أبنائى — ويكفيهم أن يختال ثيوبولد وأختال أنا » .

وما درت المرأة المسكينة أن العظمة الصادقة تلبس رداء خفيا تدخل وتخرج تحت ستارة بين الناس دون أن يلحظوها ؛ فاذا لم يخفها رداؤها عن نفسها دواما ، وعن سائر الناس سنوات طويلة ، انكمشت هذه العظمة بعد قليل حتى تصل الى حجم عادى جدا . وقد يسأل سائل أى فائدة اذن فى أن تكون عظيما ؟ والجواب هو أن تفهم العظمة فهما أفضل فى الآخرين،

أحياء كانوا أو أمواتا ، وتختار لك عشراء أفضل من بين هؤلاء ، وتستمتع بهذه العشرة وتفهمها فهما أفضل بعد أن تختارهم — وأن تستطيع أيضا أن تمنح السرور لأفضل الناس وأن تحيا في حياة من لم يولدوا بعد . ويخيل الي أن هذا كسب جوهرى جدير بأن تقنع به العظمة فلا تركب فوق رءوسنا حتى وهى متسترة بقناع التواضع .

كنت هناك ذات أحد ، ولحظت الصرامة التى كان الطفلان يتعلمان أن يحفظا بها يوم الرب ، فلم يكن مباحا لهما أن يقطفا شيئا ولا أن يستعملا علبة ألوانهما يوم الأحد ، وقد رأيا فى هذا ما شق عليهما لأنه كان مباحا لأبناء عمهما جون پوتنفكس . كان فى وسع هؤلاء أن يلهوا بقطارهم الذى يلعبون به يوم الأحد ، أما هما فمع أنهما تعهدا بألا يطلقا الا قطارات الأحد ، فان حركات المرور جميعها قد حرمت تحريما . ولم يسمح لهما بغير تسلية واحدة — فلهما فى أمسيات الآحاد أن يختارا ما يرتلان من تراتيل .

ثم ما لبثا فى المساء أن دخلا حجرة الاستقبال ، وتقرر استثناء من القاعدة ، اكراما لى ، أن يرتلا بعض تراتيلهما لى بدلا من أن يتلواها تلاوة ، وذلك لكى أسمع كيف يرتلان ترتيلا جميلا . وكان على ارنست أن يختار الترتيلة الأولى ، فاختار ترتيلة عن قوم سيأتون الى شجرة الغروب . وأنا لست اخصائيا فى النبات ، ولا أعرف أى نوع من الشجر هى شجرة الغروب هذه ، ولكن الترتيلة كان مطلعها « تعالوا ، تعالوا ، تعالوا ، تعالوا الى شجرة الغروب ، لأن النهار قد ولى » . وكان اللحن لطيفا استهوى ارنست ، اذ كان له ولع غير عادى بالموسيقى وصوت صغير حلو يحب أن يستعمله .

على أنه كان متخلفا فى قدرته على نطق حرف الكاف ، فبدلا من أن يقول « كم » (أى تعالوا) قال « تم ، تم ، تم » .

وقال ثيوبولد من مقعده الكبير المواجه للمدفأة حيث جلس عاقدا يديه على صدره « ارنست ، ألا تظن أنه يكون لطيفا جدا لو قلت « كم » كغيرك من الناس بدلا من « تم » ؟ » وأجاب ارنست « انى فعلا أقول « تم » » وهو يعنى أنه يقول « كم » .

وكان ثيوبولد دائما حاد المزاج سيىء الطبع فى أمسيات الآحاد . وقل أن يكون رجال الدين فى أحسن حالاتهم فى أمسيات الآحاد . ولست أدرى هل العلة أنهم يضيقون بالأحد ضيق جيرانهم به ، أم أنهم يرهقون فيه بالعمل ، أم أن هناك سببا غير هذا وذاك . وقد رأيت فى ذلك المساء علامات على أن رب البيت كان حاد الطبع ، وأن أعصابه اضطربت قليلا حين سمع ارنست يبادر الى القول « اننى أقول « تم » فعلا » فى حين أن أباه قال له انه لم ينطق الكلمة كما ينبغى .

ولحظ ثيوبولد من فوره أن الطفل يكذّبه ، فقام من كرسيه وذهب الى البيانو .

وقال « لا يا ارنست ، انك لا تقول شيئا من هذا ، وانما تقول « تم » لا « كم » . والآن قل « كم » ورائى كما أنطقها » . وقال ارنست لتوه « تم . أهذا أفضل ؟ » ولست أشك فى أنه ظنها أفضل ، ولكنها لم تكن كذلك .

« اسمع يا ارنست ، انك لا تبذل كل جهدك : انك لا تحاول كما ينبغى أن تحاول ، وقد آن الأوان أن تتعلم كيف تقول « كم » ؛ ان أخاك « چوى » يستطيع أن يقول « كم » ، ألا تستطيع يا چوى ؟ » .

وأجاب چوى متعثرا « نعم أستطيع » ثم قال شيئا لم يكن بعيد الشبه « بكم » .

« أسمعت يا ارنست ؟ ليس فى الأمر صعوبة ولا ظل صعوبة . والآن

تمهل ، وفكر ، وقل « كم » ورائى » . ولزم الصبى الصمت بضع ثوان ثم قال « تم » مرة أخرى .

وضحكت ، ولكن ثيوبولد تلفت الىّ فى ضجر قائلا « أرجوك ألا تضحك يا أوفرتن ، فان هذا يجعل الصبى يظن أن الأمر لا يهم ، مع أنه يهم كثيرا جدا » ثم قال وهو يتلفت لارنست « والآن يا ارنست سأعطيك فرصة واحدة أخرى ، فاذا لم تقل « كم » أيقنت أنك عنيد شقى » .

وبدا عليه الغضب الشديد ، واربدّ وجه ارنست كما يربد وجه جرو حين يوبخ دون أن يفقه للتوبيخ علّة ، ورأى الصبى جيدا ما هو حالّ به ، فخاف ، وبالطبع قال « تم » مرة أخرى .

قال أبوه وهو يمسك بكتفيه غاضبا « حسن جدا يا ارنست . لقد بذلت جهدى لأنقذك ، ولكنك ما دمت تريد ذلك فلك ما تشاء » ثم جرّ الصبى التعس من الحجرة وهو يصرخ توقعا لما سيصيبه . وما هى الا دقائق حتى استطعنا أن نسمع الصرخات آتية من حجرة الطعام عابرة البهو الفاصل بين حجرة الاستقبال وحجرة الطعام ، وعرفنا أن ارنست المسكين يضرب .

وقال ثيوبولد حين عاد الى حجرة الاستقبال « لقد أرسلته الى فراشه . والآن يا كرستينا أظننا يجب أن ندعو الخدم الى الصلاة » ثم دق الجرس يدعوهم ويداه مخضبتان بجريمته .

الفصل الثالث والعشرون

أتى الخادم وليم وأعد الكراسى للخادمات اللائى ما لبثن أن دخلن واحدة تلو أخرى . فأقبلت أولا خادم كرستينا الخاصة ، فالطاهية ، فخادمة البيت ، ثم وليم ، ثم السائق . وجلست أمامهم ، وراقبت وجوههم وثيوبولد يقرأ فصلا من الكتاب المقدس . كانوا ناسا لطفاء ، ولكنى لم أر على سحنة آدمى ما رأيت على سحنهم من خواء تام .

وبدأ ثيوبولد بقراءة بضع آيات من العهد القديم حسب طريقته . وكانت الآيات هذه المرة من الاصحاح الخامس عشر من سفر العدد : ولم يكن لها علاقة خاصة أستطيع أن أراها بأى مما كان يجرى قبل القراءة ، ولكن الروح التى كانت تتسم بها الفقرة كلها بدت لى شديدة الشبه بروح ثيوبولد نفسه ، بحيث استطعت أن أفهم بعد الاستماع اليها خيرا من ذى قبل كيف انتهى به الأمر الى أن يفكر كما فكر ويسلك كما سلك . واليك الآيات :

« وأما النفس التى تعمل بيد رفيعة من الوطنيين أو من الغرباء فهى تزدرى بالرب فتقطع تلك النفس من بين شعبها . لأنها احتقرت كلام الرب ونقضت وصيته . قطعا تقطع تلك النفس . ذنبها عليها .

« ولما كان بنو اسرائيل فى البرية وجدوا رجلا يحتطب حطبا فى يوم السبت . فقدمه الذين وجدوه يحتطب حطبا الى موسى وهرون وكل الجماعة . فوضعوه فى المحرس لأنه لم يعلن ماذا يفعل به . فقال الرب لموسى قتلا يقتل الرجل . يرجمه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة . فأخرجه كل

الجماعة الى خارج المحلة ورجموه بحجارة فمات كما أمر الرب موسى » .
الى آخر الآيات :

وسرحت أفكارى وثيوبولد يقرأ الآيات وارتدت الى شيء صغير لحظته فى عصر ذلك اليوم .

فقد اتفق قبل سنوات أن اتخذ سرب من النحل مسكنا له فى سقف البيت تحت البلاط ، وتكاثر النحل حتى أصبحت حجرة الاستقبال محطه الذى يختلف اليه فى الصيف حين تفتح النوافذ . وكان على الورق الذى يكسو جدرانها نموذج رسم من عناقيد وورود حمراء وبيضاء ، فرأيت عددا من النحل فى أوقات مختلفة يطير الى هذه العناقيد ويتحسسها ظنا منه بأنها أزهار حقيقية ، فاذا فرغ من عنقود تحسس ما يليه ، ثم ما يليه ، ثم ما يليه ، حتى بلغ العنقود القريب من السقف ، ثم نزل ثانية عنقودا بعد عنقود كما صعد ، حتى يوقفه ظهر المتكأ ، وعلى ظهره صعد عنقودا بعد عنقود الى السقف ثانية ، وهكذا دواليك حتى تعبت من مراقبته . واذ فكرت فى صلوات الأسرة التى تعاد صباح مساء ، أسبوعا بعد أسبوع ، وشهرا بعد شهر ، وعاما بعد عام ، لم يسعنى الا أن أفكر فى عظم الشبه بين هذا وبين الطريقة التى كان النحل يصعد بها الحائط ويهبط منه عنقودا بعد عنقود ، دون أن يدور بخلده أن كثيرا من الأفكار المترابطة قد تكون موجودة ، ومع ذلك فان الفكرة الأساسية قد تكون غائبة غيابا مؤسفا ، والى الأبد .

ولما فرغ ثيوبولد من قراءته ركعنا جميعا فأشرفت صورتا « كارلو دوتشى » و « ساسوفراتو » على بحر من الظهور المتجهة الى أعلى ونحن ندفن وجوهنا فى كراسينا . ولاحظت أن ثيوبولد ابتهل فى تلك الليلة الى الله أن يجعلنا « أمناء مدققين حقا » فى معاملاتنا ، وابتسمت لاستعماله

كلمة « حقا » . ثم ارتدت أفكارى الى النحل وقلت لنفسى انه على أى حال ربما كان من الخير ، على الأقل لثيوبولد ، أن صلواتنا قلما تتميز بدرجة مشجعة جدا من الاستجابة ، لأننى لو ظننت أن هناك أقل أمل فى أن تستجاب صلاتى لصليت أن يعامل بعضهم ثيوبولد ، دون ابطاء ، كما عامل ارنست .

ثم سرحت أفكارى الى تلك الاحصاءات التى يقوم بها بعض الناس عن مقدار ما يتبدد من وقت ، وما يستطيع المرء أن ينجزه اذا خصص لأمر من الأمور دقائق عشرا فى كل يوم ، وكنت أفكر فى ذلك الاقتراح النابى الذى أستطيع أن أقترحه فى هذا وفى الوقت الذى ينفق فى الصلوات العائلية التى يجب أن تكون معتدلة محتملة ، واذا أنا أسمع ثيوبولد يختم صلاته بالبركة ، وما هى الا ثوان حتى انفضت جماعة المصلين وخرج صف الخدم واحدا وراء الآخر كما دخلوا .

وما ان بارحوا حجرة الاستقبال حتى عادت كرستينا فى غير تبصر الى الحديث عن التصرف الذى شهدته من ثيوبولد ، وكانت تشعر بشىء من الخزى منه ، فبدأت تبرّره قائلة انه يحز فى نفسها ويحز فى نفس ثيوبولد أكثر منها ، ولكنه « الشىء الوحيد الذى يمكن عمله » .

وتلقيت هذا القول بما وسعنى من برود مهذب ، ودل صمتى خلال بقية السهرة على استنكارى لما رأيت .

وكان علىّ أن أعود الى لندن فى الغد، ولكننى قلت قبل رجوعى اننى أود أن آخذ معى بعض البيض الطازج ، لذلك صحبنى ثيوبولد الى بيت فلاح فى القرية يسكن على مرمى حجر من بيت الراعى لعلى أجد عنده بغيتى . ولأمر ما أذن لارنست فى أن يأتى معنا . وأظن أن الدجاج كان قد بدأ رقاده على البيض ؛ على أى حال كان البيض شحيحا ، ولم تستطع

زوج الفلاح أن تجد لى أكثر من سبع بيضات أو ثمان ، فأخذنا نلف كلا منها فى قطعة ورق منفصلة لآخذها كلها سليمة الى لندن .

وكانت هذه العملية تجرى على الأرض أمام باب الكوخ ، وفيما نحن نقوم بها داس ابن الفلاح ، وكان صبيا فى نحو سن ارنست ، على بيضة منها ملفوفة فى ورقة فهشمها .

وقالت أمه « والآن انظر يا جاك ، انظر ما فعلت ، انك كسرت بيضة لطيفة وكلفتنى بنسا » ثم أضافت وهى تنادى ابنتها « تعالى يا ايما وخذى الطفل بعيدا ، هيا يا حبيبى » . وجاءت ايما فى الحال وابتعدت بالصبى عن موطن الأذى .

وقال ارنست بعد أن بارحنا بيت الفلاح « لِمَ لَم تضرب مسز هيتن ولدها جاك بالسوط يا بابا حين داس على البيضة ؟ » .

وكان فىّ من الغلّ والحقد ما جعلنى أبتسم لثيوبولد ابتسامة كالحة قالت بأجلى بيان ان ارنست لطمه لطمة فيها شىء من القسوة .

واحتقن وجه ثيوبولد وبدا عليه الغضب ثم قال بسرعة « ربما ضربته أمه الآن بعد انصرافنا » . وأبيت أن أسلم بهذا فقلت اننى لا أعتقد ذلك ، وانتهى الأمر عند هذا الحد ، ولكن ثيوبولد لم ينسها لى ، وقل ترددى على باترزبى منذ ذلك الوقت .

وعند رجوعنا الى البيت وجدنا ساعى البريد قد وصل وأتى بخطاب عيّن به ثيوبولد نائبا للأسقف فى الريف ، وهى وظيفة خلت مؤخرا بوفاة رجل من رجال الدين المجاورين شغلها سنوات طويلة . وكتب الأسقف لثيوبولد كتابا حارا أكد له فيه أنه يعرف له قدره بين أكثر القسس جدا واخلاصا فى أبرشيته ، وابتهجت كرستينا بطبيعة الحال وأفهمتنى أن هذا ليس الا قسطا من تكريم أعظم من هذا بكثير يدخره المستقبل لثيوبولد حين تعرف فضائله وتذيع .

ولم أدرك وقتها مدى الرباط الوثيق الذى سيربط حياة ولدى فى العماد بحياتى فى مستقبل الأيام ، ولو فعلت لنظرت اليه ولا ريب بعينين مختلفتين ، وللحظت كثيرا مما لم ألق اليه بالا يومها . أما الآن فقد سررت بالابتعاد عنه ، لأننى لم أستطع أن أصنع له شيئا ، أو لأننى قلت لنفسى اننى لا أستطيع ، ولأن منظر هذا العذاب الكثير الذى كان يعانيه آلمنى . وواجب المرء ألا يكتفى بانفاذ رغباته ما استطاع الى انفاذها سبيلا ، ولكن عليه ألا يعاشر من الأشياء الا تلك التى تنفذ رغباتها الى حد يحقق لها على الأقل الراحة ، وعليه أن يتجنب حتى رؤية الأشياء التى أصيبت بالعجز أو الجوع — ما لم يكن ذلك لفترات قصيرة وفى ظروف استثنائية — بل عليه ألا يأكل لحما كدره الكد الكثير أو الغذاء الضئيل أو الاصابة بأى مرض ، وألا يمس خضرا لم تزرع زرعا طيبا . ذلك أن هذه الأشياء كلها «تعترض»(*) المرء وتختلط به ، فكل شيء يحتك به الانسان على أية صورة يكون معه « صليبا » فيخلفه خيرا أو شرا مما كان ، وكلما كانت الأشياء التى تختلط به طيبة كان الاحتمال أكبر فى أن يحيا حياة طويلة سعيدة . وكل الأشياء يجب أن تخلط قليلا ، والا كفت عن الحياة — ولكن الأشياء المقدسة — كقديسى چيوڤانى بللينى(**) مثلا — لم «يخلط» بها الا ما هو طيب .

(*) cross ، ومن معانيها التى يستعملها المؤلف للتورية فى هذا الفصل وغيره الصليب ، والتهجين أو التخليط .

(**) مصـــور بندقى مشهور رسم عددا كبيرا من الصـــور الدينية (١٤٣٠ ـ ١٥١٦) .

الفصل الرابع والعشرون

كانت العاصفة التي وصفتها فى الفصل السابق نموذجا من العواصف التي ظلت تهب كل يوم مدى سنوات طويلة . فمهما صفت السماء ، فقد كانت على الدوام عرضة للاكفهرار والتلبد فى هذه البقعة أو تلك ، وكان الرعد والبرق ينزلان على رءوس الصغار قبل أن يعرفوا أين هم .

قال لى ارنست وقد طلبت اليه منذ زمن غير طويل أن يقص علىّ المزيد من ذكريات طفولته لأخدم به قصتى ، « ثم لا تنس أننا كنا نتعلم تراتيل مسز باربود ، وكانت نثرا ، ومنها ترتيلة عن الأسد مطلعها « تعالوا أدلكم على ما هو قوى . الأسد قوى ؛ حين ينهض من عرينه ، وحين ينفض عرفه ، وحين يسمع زئيره تهرب ماشية الحقل ، وتختبىء وحوش الفلاة ، لأنه مرعب جدا » وكنت أقول هذا لأخى جوى وأختى تشارلت وأنا أعنى به أبى نفسه حين كبرت قليلا ، ولكنهما كانا على الدوام ينزعان الى التعليم والتهذيب ، ويقولان ان هذه شقاوة منى .

« ان من أهم الأسباب فى تعاسة أسر رجال الدين عموما أن القسيس يلزم بيته أو حدود بيته كثيرا جدا . فالطبيب يخرج ليزور مرضاه نصف وقته ، وللمحامى أو التاجر مكتب فى غير بيته ، ولكن ليس لرجل الدين مكان رسمى للعمل يكفل بعده عن بيته ساعات بطولها فى أوقات معلومة . لقد كانت أمتع أيامنا تلك التى يذهب فيها أبى ليقضى يوما فى شراء حاجات البيت من جلدنهام . وكنا نبعد عن هذه المدينة أميالا ، فتتراكم المطالب فى قائمة أبى حتى ليفرد لها يوما يمضى فيه الى المدينة لينجزها كلها . وما ان

يولّى ظهره حتى يخفّ الهواء ؛ فاذا فتح باب الردهة ليدخل ثانية عاد الينا الناموس مصلتا فوق رءوسنا بكل تحريماته الشاملة « لا تمس ، لا تذق ، لا تمسك » وكان شر ما فى الأمر أننى لا أستطيع أبدا أن أثق بچـوى وتشارلت ؛ فقد يمضيان معى شوطا بعيدا ثم ينكصان على أعقابهما ، بل انهما قد يمضيان الشوط كله ثم يضطرهما ضميرهما الى أن يخبرا « پاپا » و « ماما » . لقد كان يروقهما أن يجريا مع الأرنب الى نقطة معينة ، ولكن غريزتهما كانت مع كلاب الصيد .

ثم مضى يقول « يخيل الى أن الأسرة بقية متخلفة من المبدأ الذى تراه مجسما فى الحيوان « المجمع »(*) تجسيما منطقيا أكثر منه فى الانسان — والحيوان المجمع صورة من صور الحياة اتضح أنها متعارضة مع الرقى العظيم . ولو أن الأمر بيدى لصنعت بالأسرة فى النوع الانسانى ما صنعته الطبيعة بالحيوانات المجمعة ؛ فقصرتها على الأجناس الدنيا والأقل تقدما . وما من شك فى أنه ليس فى الطبيعة نفسها أى حب فطرى لنظام الأسرة . استعرض شتى صور الحياة تجد هذا النظام لا يتمثل الا فى أقلية ضئيلة ضآلة مضحكة . فالأسماك لا تعرفه وهى تعيش مع بعضها فى وئام تام . أما النمل والنحل ، التى تفوق الانسان أعدادا بما لا يقاس ، فهى تلسع آباءها حتى تقتلها لأن هذا أمر لابد منه ، وهى تميل بطبيعتها الى تقطيع تسعة أعشار النسل الموكول اليها وتشويهه تشويها فظيعا ، ومع ذلك فأين الجماعات التى تلقى احتراما أعم وأشمل من جماعات النمل والنحل ؟ ثم خذ مثل الوقوق « الكوكو » — أهناك طائر نحبه أكثر منه ؟ » .

ورأيته يستطرد بعيدا عن ذكرياته فحاولت أن أرده اليها ولكنى لم أفلح . قال « ما أشد حماقة انسان يحاول أن يتذكر أى شىء وقع له منذ

(*) Compound animal

أكثر من أسبوع ، ما لم يكن هذا الشيء سارا ، أو ما لم يرد أن يفيد منه بعض الفائدة .

« ان الناس المعقولين يتمون الجزء الأكبر من موتهم خـلال حياتهم . فالرجل فى الخامسة والثلاثين يجب ألا يأسف على أنه لم يظفر بطفولة سعيدة أكثر مما يأسف على أنه لم يولد أميرا من أمـراء البيت المالك . ولعله لو كان أكثر حظا فى طفولته لكان أسعد ، ولكن ما يدريه أنه حتى لو كان كذلك لحدث شيء آخر ربما قضى عليه منذ أمد بعيد . ولو كان على أن أولد ثانية لولدت فى باترزبى من أبى وأمى بعينهما كما ولدت من قبل ، ولما غيرت أو بدلت شيئا مما وقع لى » .

وأطرف ما يحضرنى من أحداث طفولته كان يوم أخبرنى — وهو يناهز السابعة من عمره — أنه سينجب « طفلا طبيعيا » . فسألته عن الأسباب التى تدعوه الى هذا الظن ، فقال ان « پاپا » و « ماما » كانا يخبرانه على الدوام بأن أحدا من الناس لا ينجب أطفالا حتى يتزوج ، وما دام هذا اعتقاده فانه لم يفكر بالطبع فى انجاب ولد حتى يكبر ؛ ولكنه كان يقرأ منذ عهد قريب كتاب مسز ماركهام عن تاريخ انجلترا فصادف هذه الكلمات : « وكان لجون أف جونت عدد من الأبناء الطبيعيين » فسأل مربيته ما الابن الطبيعى — وأليس كل الأبناء طبيعيين ؟ فقالت له « يا عزيزى ان الابن الطبيعى هو ابن يرزقه الانسان قبل أن يتزوج » . وكان يستنبع هـذا القول منطقيا — كما بدا له — أنه اذا كان چون أف جونت قد رزق أبناء قبل أن يتزوج فانه هو ، ارنست پوتنفكس ، قد يرزق أبناء أيضـا ، وسيكون شاكرا لى أن أدله على ما يحسن به فعله فى هذه الحالة .

وسألته منذ متى كشف هذا الكشف . قال منذ أسبوعين ، وهو لا يعلم أين يبحث عن الطفل ، لأنه قد يأتى فى أى لحظة . ثم قال « ان الأطفال

يأخذوننا على غرة كما تعلم ؛ فالمرء يمضي الى فراشه ليلا ، فاذا هو يجد طفلا فى الصباح . أجل ، ربما مات الطفل من البرد اذا لم نكن متنبهين لمقدمه . وانى لأرجو أن يكون صبيا » .

« وهل أخبرت مربيتك بهذا ؟ » .

« لا ، لا ؛ لأن مسز برن كما تعلم أتت هنا منذ أيام ، فأرسلت أمى قبل سنوات طويلة ، وهى ترجو ألا يأتى بعد هذه السنوات » .

« وهل أنت واثق أنك لم ترتكب خطأ فى هذا كله ؟ » .

« لا ، لا ؛ لأن مسز برن كما تعلم أتت هنا منذ أيام ، فأرسلت أمى فى طلبى لتلقى هذه السيدة نظرة علىّ . وأمسكت بى أمى على مسافة قريبة منها وقالت « أهو ابن مستر پوتنفكس أم ابنى يا مسز برن ؟ » وبالطبع ما كانت لتقول هذا لولا أن پاپا نفسه قد أنجب أطفالا . وكنت أظن فعلا أن الرجل ينجب الصبيان كلهم ، وأن السيدة تنجب البنات كلهن ؛ ولكن لا يمكن أن يكون الأمر كذلك ، والا لما سألت ماما مسز برن أن تحزر ابن من أنا ؛ ولكن مسز برن قالت « أوه ، انه ابن مستر پوتنفكس بالطبع » ، ولم أعرف تماما ما تعنيه بقولها « بالطبع » : وبدا لى أننى مصيب فى الظن بأن الزوج ينجب الصبيان والزوجة تنجب البنات ؛ فليتك تشرح لى الأمر كله » . ولكنى لم أستطع ، لذلك غيرت موضوع الحديث بعد أن طمأنته جهد استطاعتى .

الفصل الخامس والعشرون

رزقت كرستينا طفلا آخر بعد مولد ابنتها بثلاث سنوات أو أربع ، ولم تكن صحتها قوية منذ تزوجت ، وكان يساورها هاجس بأنها لن تعيش بعد طفلها هذا . لذلك كتبت الرسالة التالية التى رغبت فى أن تسلم الى ولديها حين يبلغ ارنست السادسة عشرة من عمره كما كتبت على ظهرها . وقد وصلته عقب موت أمه ، بعد سنوات كثيرة ، لأن الذى مات الآن لم يكن كرستينا بل الطفل الوليد . وقد وجدت الرسالة وسط أوراق رتبتها بعناية مرارا وتكرارا ، وكان خاتمها مفضوضا . وهذا — كما أخشى — دليل على أن كرستينا قرأتها ورأت فيها من التشريف لها ما لا يجوز معه اتلافها بعد أن انتهت المناسبة التى دعت اليها . والى القارىء نص الرسالة :

باترزبى

١٥ مارس ١٨٤١

يا ولدىّ العزيزين ، — هلاّ حاولتما — اذا وصلت هذه الرسالة الى أيديكما — أن تتذكرا الأم التى فقدتماها فى طفولتكما ، والتى أخشى أن تكونا أوشكتما على نسيانها ؟ انك يا ارنست ستذكرها خيرا من أخيك ، لأنك جاوزت الخامسة ، ولن تكون المرات الكثيرة التى علمتك فيها صلواتك وترانيمك ومسائل حسابك وقصصت عليك فيها القصص ، وأمسيات آحادنا السعيدة ، قد غابت كل الغياب عن ذاكرتك ؛ وأنت يا جوى ، وان كنت لم تتجاوز الرابعة ، لعلك لازلت تذكر بعض هذا ؛ يا ولدىّ العزيزين ، يا ولدى العزيزين ، اكراما لتلك الأم التى أحبتكما

حبا جما — وتحقيقا لسعادتكما الى أبد الآبدين — استمعا وحاولا أن تذكرا ، ومن حين الى حين اقرآ مرارا وتكرارا ، الكلمات الأخيرة التى تستطيع أمكما أن تحدثكما بها . حين أفكر فى أننى سأترككم جميعا ، يثقل قلبى شيئان : أولهما حزن أبيكما (لأنكما يا حبيبى بعد أن تفتقدانى قليلا ستنسيان خسارتكما سريعا) ، والثانى هو خير ولدىّ الأبدى . وأنا أعلم طول هذا الحزن وعمقه ، وأعلم أنه سيتطلع الى ابنيه ليجد فيهما عزاءه الأرضى الوحيد تقريبا . وأنتما تعلمان ، (لأننى واثقة أن الأمر سيكون كذلك) ، كيف كرّس حياته لأجلكما وعلّمكما وجهد ليرشدكما الى كل ما هو حق وخير . اذن فاعملا على أن تكونا عزاء له حقا ، واجتهدا أن يجدكما مطيعين ، محبين ، مصغيين لرغباته ، مستقيمين ، منكرين لذواتيكما ، دءوبين على العمل ، ولا تدعاه يخجل أو يحزن لخطايا وحماقات من يدينان له بهذا الفضل الكبير ، ومن أول واجباتهما أن يفكرا فى سعادته . ان لكما كليكما اسما يجب ألاّ يدنّس ، لكما أب وجدّ يجب أن تثبتا جدارتكما بهما ، واحترام النّاس لكما ونجاحكما فى الحياة رهينان أولا وقبل كل شيء بنفسيكما ، ولكن أهم كثيرا من هذا الاحترام والنجاح الأرضيين شيء اذا قيس به هذان لم يكونا أمرا مذكورا ، وهو أن سعادتكما الأبدية رهينة بنفسيكما . أنتما تعلمان واجبكما ، ولكن الفخاخ والمغريات تحدق بكما من الخارج ، وكلما قاربتما مرحلة الشباب اشتد شعوركما بهذا . ولكنكما تستطيعان بعون الله ، وبكلمة الله ، وبالقلب المتضع ، أن تثبتا رغم كل شيء ، أما اذا كففتما عن طلب العون من الله فى جد وعزيمة ، وعن درس كلمة الله ، واذا تعلمتما أن تتكلا على نفسيكما ، أو تركنا الى نصيحة الكثيرين ، وقدوة الكثيرين ممن يعيشون حولكما ، فانكما تسقطان ، بل أنتما ساقطان لا محالة . أجل « ليكن الله صادقا وكل انسان

كاذبا » ، فهو يقـــول انكما لن تستطيعا أن تخدما الله والمال . ويقول ما أضيق الباب الذى يؤدى الى الحياة الأبدية . كثيرون هم الذين يحاولون أن يوسّعوه ؛ سيقولون لكما ان هذا الارضاء أو ذاك لميول النفس من الخطايا البسيطة — وان هذا الاذعان أو ذاك للرغبات الدنيوية يغتفر ، بل انه ضرورى . ولكن هذا لا يمكن أن يكون ؛ لأن الله يخبركما بهذا فى عشرات المواضع — فابحثا وفتشا فى كتابكما المقدس هل هذه النصيحة صادقة — فاذا لم تكن صادقة « فلا تعرجا بين الرأيين » فاذا كان الله هو الرب فاتبعاه ؛ انما كونا قويّين شجاعين ، وهو لن يترككما أو يخذلكما . اذكرا أنه ليس فى الانجيل ناموس للأغنياء وناموس للفقراء — ناموس للمتعلمين وناموس للجهلة . فالجميع يحتاجون الى شىء واحد ، والجميع يجب أن يعيشوا لله ولاخوتهم لا لأنفسهم . والجميع يجب أن يطلبوا أولا ملكوت الله وبرّه — ويجب أن ينكروا ذواتهم ، وأن يكونوا أتقيــاء طاهرين محبين بأكمل وأوسع معنى — الكل ، وهم « ناسون ما هو وراء » يجب « أن يسيروا حثيثا الى الهدف ، الى جعالة دعوة الله العليا » . والآن لن أزيد سوى شيئين اثنين : كونا خلال حياتكما أمينين لبعضكما البعض ، أحبّا كما يجب أن يحب الاخوة ، وشدّدا وأنذرا وشجعا بعضكما بعضا وأشعرا كل من يحاربكما أن لكل منكما فى أخيه صديقا وفيا ثابتا سيظل كذلك الى النهاية ؛ ثم أناشدكما أن ترفقا بشقيقتكما العزيزة وترعياها ؛ فهى وقد حرمت الأم والأخوات ستكون حاجتها لمحبة شقيقيها وحنانهما وثقتهما مضاعفة ، وأنا واثقة أنها ستطلب هذه الأشياء ، وستحبكما وتحاول اسعادكما ؛ فحذار اذن أن تخذلاها ، واذكرا أنها لو فقدت أباها وظلت بغير زواج لتضاعفت حاجتها الى من يحميها . اذن فاليكما خاصة أعهد بها وديعة فى عنقكما . أواه يا أبنائى الثلاثة الأعزاء ، كونوا مخلصين لبعضكم

البعض ، ولأبيكم ، ولالهكم . أسأله تعالى أن يرشدكم ويباركم ، ويسمح بأن نلتقى ثانية فى عالم أفضل وأسعد من هذا العالم .

أمكم المحبة جدا

كرستينا پوتتفكس

وقد أقنعنى ما قمت به من تحرٍ أن أكثر الأمهات يكتبن رسائل كهذه الرسالة قبل الولادة ، وأن نصفهن يحتفظن بها بعدها كما فعلت كرستينا .

الفصل السادس والعشرون

تدل الرسالة السابقة على أن اهتمام كرستينا بخير ولديها الأبدى كان أعظم كثيرا من اهتمامها بخيرهما الدنيوى . وكان يخيل للمرء أنها بذرت الى الآن ما يكفى من حماقات الشباب الدينية هذه ، بيد أنه كان أمامها الكثير الذى ينتظر أن يبذر . ويبدو لى ان السعداء فى هذه الدنيا قوم أطيب وأحب الى الناس من غير السعداء ، فاذا جاءت قيامة أو يوم حساب كانوا اذن أكثر الناس جدارة بالحصول على منزل سماوى . ولعل ادراكا لاشعوريا غامضا لهذا هو الذى دعا كرستينا الى هذا الاهتمام الشديد بسعادة ثيوبولد الدنيوية ، أم لعل السبب هو اقتناعها بأن خيره الأبدى أمر مفروغ منه ، فلم يبق الا ضمان سعادته الدنيوية ؟ واذن فقد وجب أن « يجد ولديه مطيعين ، محبين ، مصغيين لرغباته ، منكرين لذواتيهما ، دءوبين على العمل » ، وهذا فى الحق عقد طيب انتظم جميع الفضائل الملائمة غاية الملاءمة للوالدين ؛ كذلك وجب ألا يفعلا ما يضطره الى الخزى من حماقات من « يدينان له بهذا الفضل الكبير » و « اللذين أول واجباتهما أن يفكرا فى سعادته » . فياله من اهتمام بالبنين جدير بالأمهات ! اهتمام — أولا وقبل كل شىء — مخافة أن يكون للأبناء رغبات ومشاعر مستقلة قد تسبب صعوبات كثيرة ، وهمية أو حقيقية . هذا هو أساس البلوى كلها ؛ ولكن ، سواء سلمنا بهذه القضية الأخيرة أو لم نسلم ، فاننا نلاحظ على أى حال أن كرستينا كانت تقدر واجبات الأبناء نحو آبائهم تقديرا قويا ، وتشعر بأن مهمة أداء هذه الواجبات كما ينبغى أن تؤدى مهمة

شاقة جدا ، حتى لقد ساورتها الشكوك الكثيرة فى مدى نجاح ارنست وجوى فى القيام بها ، وواضح فى الواقع أن نظرة الوداع التى زعمت أنها تلقيها عليهما هى نظرة ارتياب وشبهة . أما ثيوبولد فلا شبهة فى أمره ؛ وأما تكريسه حياته لخير أبنائه فقضية مسلمة لا تحتاج الى برهان .

وأنا أستميح القارىء فى أن أتساءل ، كيف يمكن لطفل لم يتجاوز الخامسة الا قليلا ، طفل ربّى فى هذا الجو من الصلوات والتراتيل ومسائل الحساب وأمسيات الأحد السعيدة — فضلا عن الضرب المتكرر كل يوم بسبب هذه الصلوات والتراتيل الخ .. ذلك الضرب الذى تلزم كاتبة الرسالة الصمت عنه — أقول كيف يمكن لطفل ربّى هذه التربية أن ينمو نموا صحيا أو قويا ، وان كانت أمه ولا ريب شغوفة به على طريقتها الخاصة ، وان كانت تقصّ عليه القصص أحيانا ؟ أتعجز عين أى قارىء عن أن تلحظ غضب الله الآتى ، وهو وشيك الوقوع على رأس من ينشأ فى ظل رسالة كالرسالة السالفة ؟

لقد طالما خطر لى أن كنيسة روما أحسنت صنعا بتحريم الزواج على كهنتها . ولا شك فى أن من الأمور التى يلحظها الجميع فى انجلترا أن أبناء القساوسة كثيرا ما تكون حالهم غير مرضية . وتعليل هذا فى غاية البساطة ، ولكن الناس كثيرا ما يغفلون عنه غفلة قد تشفع لى فى ذكره هنا .

ان الناس ينتظرون من القسيس أن يكون ضربا من « الأحد » اتخذ صورة بشر . فيجب ألاّ يجرى فيه من الأعمال ما يغتفر فى أيام الأسبوع الأخرى . والقسيس ينقد راتبه عن مهمة العيش عيشة أكثر صرامة من غيره من الناس . فتلك هى « علة وجوده » . واذا شعرت رعيته أنه يفعل هذا استحسنوا وجوده ، لأنهم ينظرون اليه باعتباره مساهمتهم الخاصة فيما يحسبونه حياة مقدسة . وهذا هو السبب فى أن القسيس كثيرا

ما يسمى « النائب »(*) أو الوكيل — لأنه الشخص الذى سينوب صلاحه النائب عن صلاح أولئك الذين وكل أمرهم اليه . بيد أن بيته حصنه الذى يعتصم به كما يعتصم أى رجل انجليزى ببيته ، لذلك فالتوتر غير الطبيعى الذى يفرض عليه أمام الناس يتبعه الاعياء حين لا يعود التوتر ضروريا — شأنه شأن غيره من الناس . وأبناء القسيس هم أكثر الأشياء التى فى متناوله عجزا عن الدفاع عن نفسها ، وعلى رءوس هؤلاء — فى تسع حالات من عشر — يفرّج عن عقله المتوتر .

ثم ان رجل الدين لا يستطيع أن يأذن لنفسه أبدا فى النظر الى الحقائق وجها لوجه ؛ ذلك أن مهنته هى أن يؤيد جانبا واحدا ؛ فمحال عليه اذن أن يفحص الجانب الآخر فحصا منزها عن الهوى .

ونحن ننسى أن كل رجل دين بشغل وظيفة قسيس ، كبير أو صغير ، لا يعدو أن يكون محاميا مأجورا كالمحامى الذى يحاول أن يقنع المحلفين بالافراج عن أحد السجناء . وينبغى أن نستمع اليه معلّقين الحكم ، فاحصين حجج الخصم فحصا كاملا شأن القاضى وهو ينظر قضية من القضايا . فما لم نعرف هذه الحجج ، ومالم نستطع ذكرها بطريقة يسلّم خصومنا بأنها تعبير منصف عن آرائهم ؛ فليس لنا الحق فى أن نزعم أننا كونّا رأيا على الاطلاق .. والمؤسف أنه طبقا لقانون انجلترة لا يمكن الاستماع الاّ لجانب واحد من الجانبين .

ولم يكن ثيوبولد وكرستينا استثناء من القاعدة العامة . فحين أتيا الى باترزبى كانا شديدى الرغبة فى أداء واجبات وظيفتهما ، وفى أن يكرسا نفسيهما لمجد الله واكرامه . ولكن كان واجب ثيوبولد أن ينظر الى مجد الله واكرامه بعينى كنيسة عاشت ثلاثمائة سنة دون أن تجد داعيا يدعوها لتغيير رأى واحد من آرائها .

(*) Vicar

وأنا أشك فى أنه وصل فى تفكيره الى حدّ التشكك فى حكمة كنيسته فى أى أمر من أمور الدين . وكانت حاسته — التى تتيح له أن يشم أى شر ممكن الوقوع — متوسطة القوة ، وكذلك كانت حاسة كرستينا ، ومن المحتمل أنه لو اكتشف أحدهما فى نفسه أول بادرة طفيفة من بوادر ضعف الايمان لقتلها فى المهد بحزم لا يقل عن الحزم الذى يقتل به بوادر العناد فى ارنست — وبنجاح أكثر فيما أحسب . ومع ذلك فان ثيوبولد كان يعدّ نفسه ، وكان الناس عموما يعدونه ، وربما كان فى حقيقته ، رجلا صادقا الى درجة غير عادية ؛ لا بل كان على الجملة ينظر اليه كأنه قد تجسمت فيه كل الفضائل التى تجعل الفقــراء جديرين بالاحترام ، والأغنياء محترمين ، وبمضى الزمن اقتنع هو وزوجته اقتناعا يكاد يكون لاشعوريا بأن مجرد السكنى تحت سقفهما كانت كافية لتطويق عنق الساكنين بأعمق الشكر لهما ، ومن المفروغ منه أن أبناءهما ، وخدمهما ، ورعيتهما ، قوم محظوظون لأنهم ينتمون لهما . وما من طريق الى السعادة ، فى هذا العالم أو فى العالم الآخر ، غير الطريق الذى سلكاه ، ولا صلاح فى قوم مالم يفكروا كما فكرا فى كل موضوع ، وما من انسان يكون معقولا اذا كانت له حاجات يضايقهما هما ، ثيوبولد وكرستينا ، أن يلبياها .

وهذا هو السبب فى أن أبناءهما شبّوا شاحبى اللون ضئيلى الجسم ؛ لقد كانوا يعانون من « مرض البيت »(*) . كانوا يتضورون جوعا بسبب شحنهم بالأشياء الخطأ . وقست الطبيعة عليهم ، ولكنها لم تقس عــلى ثيوبولد وكرستينا . ولِمَ تفعل ؟ فهما لم يعيشا عيشة الجوع والجدب . ان الناس فى هذه الدنيا فئتان ، أولئك الذين يأثمون ، وأولئك الذين يؤثم فى حقهم ؛ واذا لم يكن بد من أن ينتسب المرء لاحدى الفئتين ، فخير له أن ينتسب للأولى .

(*) home-sickness وفيها تورية لأن الكلمة تعنى الحنين للوطن أو البيت.

الفصل السابع والعشرون

لن أزيد القارىء تفصيلا عن حياة بطل قصتى فى سنوات صباه . وحسبه أن يعلم أنه كافح وناضل خلالها ، وأنه حين بلغ الثانية عشرة كان يحفظ عن ظهر قلب كل صفحة من صفحات كتب النحو اللاتينى واليونانى التى يدرسها ، وكان قد قرأ أكثر ڤرجل ، وهوراس ، وليڤى، وعددا لا أعرفه من المسرحيات الاغريقية : وكان متفوقا فى الحساب وأتقن اتقانا تاما الكتب الأربعة الأولى من اقليدس ، وكان له المام لا بأس به بالفرنسية . وقد بلغ الآن سن المدرسة ، فليذهب اذن الى المدرسة ، مدرسة رفبرو التى يديرها الدكتور سكنر المربى الأشهر .

وكان ثيوبولد قد عرف الدكتور سكنر معرفة طفيفة فى كمبردج . وكان الرجل نجما ساطعا فى كل مركز شغله منذ صباه . انه عبقرى هائل جدا ، وكل الناس يعرفون عنه هذا ؛ بل انهم يقولون انه أحد القلائل الذين يمكن أن تطبق عليهم كلمة عبقرى دون مبالغة . ألم ينل كذا وكذا من المكافآت الجامعية فى أول سنواته بالكلية ؟ ألم يتفوق بعد ذلك على كل زملائه فى الرياضيات بكمبردج ، وألم ينل وسام مدير الجامعة وغيره من الجوائز التى لا أعرف لها عددا ؟ ثم انه خطيب مفوّه ؛ لقد كان نسيج وحده فى نادى مناظرات الاتحاد ، وكان بالطبع رئيسا للنادى ؛ وأما خلقه الشخصى — وهى نقطة ضعف فى كثير من العباقرة — فكان نقيا لا تشوبه شائبة ؛ على أن أولى فضائله العظيمة الكثيرة ، التى ربما كانت أظهر حتى من عبقريته ، تلك التى وصفها كتّاب السير بجد الخلق — « الجد الساذج

الشبيه بجد الأطفال » وهو جد يمكن أن تدركه من الخطورة التى يتحدث بها حتى عن توافه الأشياء ، ولا حاجة بنا للقول بأنه — من حيث الآراء السياسية — كان يقف فى صف الأحرار .

فأما مظهره الشخصى فلم يكن شديد الجاذبية . كان ربعة ، بدينا ، له عينان شهباوان وحشيتان تنفثان النار من تحت حاجبين ناتئين متدليين ، غزيرين ، كبيرين ، وترهبان كل من يدنو منه . على أنه ان كان يمكن أن يكون فيه مغمز أو موطن ضعف على الاطلاق ، فذلك فى هيئته ومظهره . كان شعره فى شبابه أحمر اللون ، ولكنه بعد أن حصل على درجته الجامعية أصيب بحمى مخية فحلق له شعر رأسه ؛ فلما طلع على الناس من جديد طلع عليهم فى شعر مستعار كان أبعد كثيرا عن الحمرة مما كان شعره الأصلى . ولم يكن ينزع عن رأسه هذا الشعر قط ، زد على ذلك أن هذا الشعر أخذ ينحرف قليلا قليلا عن الحمرة ، حتى اذا بلغ صاحبه الأربعين لم يعد فيه أثر لحمرة ، واستحال الى جمة بنية اللون .

وحين كان الدكتور سكنر شابا صغيرا جدا لا يكاد يجاوز الخامسة والعشرين خلت وظيفة ناظر مدرسة رفبرو الثانوية فعين فيها دون تردد . وقد بررت النتيجة هذا الاختيار . فقد برز تلاميذ الدكتور سكنر فى الجامعات التى التحقوا بها أيا كانت . ذلك أنه شكل عقولهم وصاغها على غرار عقله وطبعهم بطابع لم يمح فيما تلا ذلك من حياتهم ؛ ومهما قيل فى خريج مدرسة رفبرو ، فمن المؤكد أنه يشعر كل انسان بأنه مسيحى ، جاد ، تقى ، وبأنه فى السياسة من الأحرار ان لم يكن من الراديكاليين . صحيح أن بعض الأولاد كانوا بطبيعة الحال عاجزين عن تقدير ما فى طبيعة الدكتور سكنر من جمال وسمو . ومثل هؤلاء تجدهم وا أسفاه فى كل مدرسة ؛ وعليهم كانت يد الدكتور سكنر ثقيلة الوطأة ، وحق لها أن

تكون . كانت يده عليهم ،ويدهم عليه خلال جميع الحقبة التى اتصلا فيها ، ولم يكتفوا بأن يبغضوه ، بل انهم أبغضوا أبرز ما تجسدّ فيه من المعانى والصفات ، وكانوا طوال حياتهم يكرهون كل ما يذكرهم به . على أن هؤلاء الأولاد لم يكونوا سوى قلة ، لأن زوح المدرسة كانت « سكنرية » خالصة لا شك فيها .

وقد تشرفتُ مرة بلعب دور من الشطرنج مع هذا الرجل العظيم . كان ذلك فى عطلة عيد الميلاد ، وكنت قد قدمت الى رفبرو لأمكث أياما فى قضاء عمل يتصل بأليثيا پونتفكس (التى كانت تسكن هناك) وكان فضلا كبيرا منه أن يلحظنى برعايته ، لأننى ان كنت قد أصبحت نجما من نجوم الأدب اطلاقا ، فقد كنت أنتمى الى نوع ضعيف جدا من النجوم .

صحيح أننى فى فترات فراغى من العمل كتبت كثيرا ، ولكن أعمالى كانت كلها تقريبا للمسرح ، وبخاصة للمسارح التى كرست نفسها للهزليات الغريبة والماجنة . وقد كتبت قطعا كثيرة من هذا النوع مملوءة بالتوريات والأغانى الهزلية ، فأصابت نجاحا لا بأس به ، ولكن خير قطعة كتبتها تناولت التاريخ الانجليزى فى فترة الاصلاح الدينى ، وقد أدخلت فيها كرامر ، وسرتوماس مور ، وهنرى الثامن ، وكترين الأرجونية ، وتوماس كرمويل (الذى اشتهر فى شبابه باسم « ماليوس موناكورم ») وجعلتهم يرقصون رقصة زنجية عنيفة . كذلك مسرحت « رحلة الحاج »(*) لعرض ميلادى بالاشارات « پنطميم » وألفت منظرا هاما من مشهد سوق الغرور(**) ، كان أهم شخوصه مستر جريتهارت ، وأپوليون ، وكرستيانا ، ومرسى ،

(*) Pilgrim's Progress لجون بنيان .
(**) Vanity Fair مشهد من مشاهد كتاب « جون بنيان » المذكور .

وهوپفل . وعزفت الأركسترا موسيقى مأخوذة من أشهر أعمال هاندل ، ولكن الأيام كانت قد تغيرت كثيرا ، وعلى الجملة لم تكن الألحان بالضبط كما خلفها هاندل . وكان مستر جريتهارت بدينا جدا ، أحمر الأنف ، يرتدى صدرية هائلة ، وقميصا بكشكشة ضخمة تتدلى من وسط مقدمته . وكان هوپفل يحاول القيام بكل ما استطعت أن أدفعه اليه من ألاعيب خبيثة ، وكان يرتدى حلة فتى مختال من فتيان العصر وفى فمه سيجار ينطفىء باستمرار .

أما كرستينا فلم ترتد من الثياب شيئا كثيرا : بل لقد روى ان الثوب الذى اقترحه مدير المسرح أصلا لترتديه رآه حتى كبير الحجاب غير كاف ، ولكن الرواية ليست صحيحة . وكان طبيعيا وذكرى هذه الانحرافات كلها تثقل عقلى أن أشعر باقتناعى بخطيئتى وأنا ألعب الشطرنج (الذى أبغضه) مع الدكتور سكنر ناظر رفبرو العظيم — كاتب تاريخ أثينا وناشر خطب ديموستينيس . ثم ان الدكتور سكنر كان أحد أولئك الذين يفخرون بأنهم يستطيعون بث الطمأنينة فى الناس فورا ، وكنت جالسا على طرف مقعدى طوال السهرة . ولكننى كنت على الدوام من أولئك الذين يسهل جدا على ناظر المدرسة أن يرهبهم .

وكان دور الشطرنج طويلا ، وفى الساعة التاسعة والنصف حين قدم العشاء كان قد بقى لكل منا قطع قليلة لم نلعبها بعد . وقالت مسز سكنر فى صوت فضى « ماذا تتناول لعشائك يا دكتور سكنر ؟ » .

ومضت برهة وهو لا يحير جوابا ، ولكنه قال أخيرا بنغمة فيها من الجلال ما يكاد يسمو على الطبيعة الانسانية « لا شىء » ، ثم أردف « لا شىء اطلاقا » .

على أن احساسا طرأ على بعد قليل — احساس بأننى أصبحت أدنى

من النهاية التى تنتهى اليها كل الأشياء منى فى أى وقت مضى — وبدا أن الحجرة تظلم حين طرأ على سحنة الدكتور سكنر تعبير دل على أنه موشك على الكلام ، وازداد التعبير قوة ، وازدادت الحجرة اظلاما . وأخيرا أضاف الى عبارته السابقة قوله « انتظرى » ، وشعرت أننا على أية حال بلغنا نهاية وضع معلق أخذ يصبح بسرعة وضعا غير محتمل . « انتظرى ، ربما أخذت بعد قليل كوبا من الماء البارد — وقطعة صغيرة من الخبز والزبد » .

وخفت صوته وهو ينطق بكلمة « الزبد » الى همس لا يكاد يسمع ؛ ثم تلا ذلك تنهد كأنه تنهد الفرج بعد أن اختتمت هذه الجملة ، ولم يصب الكون هذه المرة بسوء .

وبعد دقائق عشر من السكون الرهيب فرغنا من الدور ، ونهض الدكتور فى نشاط من كرسيه وأخذ مكانه على مائدة العشاء ثم قال فى مرح « يا مسز سكنر ، ما هذه الأشياء الغامضة التى تحيط بها البطاطس؟ » .

« هذا محار يا دكتور سكنر » .

« أعطينى بعضه ، وأعطى بعضه لأوفرتن » .

وهكذا حتى أكل طبقا مفعما بالمحار ، وملء صدفة من اللحم البقرى المفروم والمحمر تحميرا لطيفا ، وتورتة تفاح ، وقطعة من الخبز والجبن . وتلك هى « القطعة الصغيرة من الخبز والزبد » .

وكان غطاء المائدة قد رفع الآن ، ووضع عيها أكواب فيها ملاعق وليمونة أو ليمونتان وابريق من الماء المغلى . وهنا لانت أسارير الرجل العظيم وأشرق وجهه .

ثم قال فى اغراء « وماذا تشرب ؟ أنشرب البراندى والماء ؟ لا بل الجن والماء . فالجن هو الشراب الأصح » .

فليكن الجن اذن ، وليكن حارا مركزا أيضا .

ومن يستطيع أن يعجب لأمره ، أو يسعه ألا أن يرثى له ؟ ألم يكن ناظرا لمدرسة رفبرو ؟ من كان يدينه بمال فى أى وقت من الأوقات ؟ ثور من أخذ ، أو حمار من أخذ ، أو من ظلم ؟ (*) أىّ همس همس به الناس قط للطعن فى خلقه ؟ واذا كان قد أثرى فانما بأشرف الوسائل — وهى كفايته الأدبية ، ففضلا عن آثاره العلمية الكبيرة ، وضعه كتابه « تأملات فى رسالة الرسول يهوذا وشخصيته » فى صف أكثر اللاهوتيين الانجليز شهرة وذيوعا ، وقد كان الكتاب مستنفدا لموضوعه استنفادا لم يترك لمشتريه أى حاجة للتأمل ثانية فى الموضوع — والحق انه « استنفد » طاقة جميع من كان لهم به صلة . وقد كسب من هذا الكتاب وحده خمسة آلاف من الجنيهات ، وأغلب الظن أنه سيكسب خمسة آلاف أخرى قبل أن يموت . فرجل صنع هذا كله ، ان رغب فى قطعة من الخبز والزبد ، كان له الحق فى أن يعلن هذه الرغبة بشىء من الزهو والاعتداد بالنفس . ثم ان ألفاظه يجب ألاّ تؤخذ دون أن يرافقها تنقيب عما كان يسميه « بالمعنى الأعمق والأخفى » ، والذين ينقبون عن هذا المعنى ، حتى فى أخف عباراته ، لن يخرجوا من تنقيبهم هذا فارغين ، فسيجدون أن « الخبز والزبد » انما هو تعبير « سكنرى » يعنى فطائر المحار وتورتة التفاح ، وأن « الجن الحار » هو الترجمة الحقيقية للماء .

ولكن كتبه كسبت له اسما مخلدا فى عالم الأدب بغض النظر عن قيمتها المالية . وأكبر الظن أن « جاليو » كان يتوهم أن شهرته ستستند الى

(*) الاشارة هنا الى النبى صموئيل يوبخ بنى اسرائيل بعد ان حملوه على أن يختار لهم ملكا يقضى لهم كسائر الشعوب « هأنذا فاشهدوا على قدام الرب وقدام مسيحه (أى شاول الذى مسحه عليهم ملكا) ثور من أخذت ، وحمار من أخذت ، ومن ظلمت ، ومن سحقت ، ومن يد من أخذت فدية لأغضى عينى عنه فأرد لكم » .

الأبحاث التى روى سنيكا أنه ألفها فى التاريخ الطبيعى ، والتى لعلها كانت تشتمل على نظرية تطور كاملة ؛ ولكن هذه الأبحاث اندثرت كلها وأصبح جاليو خالدا بفضل آخر سبب يتوقعه ، وبفضل آخر سبب يمكن أن يرضى غروره . لقد خلد اسمه لأنه لم يكترث اطلاقا بأهم حركة اتصل بها فى حياته (ووددت لو أن الباحثين عن الخلود حفظوا هذا الدرس ووعوه فلم يثيروا هذه الضجة الكبرى عن الحركات الهامة) . واذن ، فان أتيح لاسم الدكتور سكنر الخلود فسيكون هذا الخلود على الأرجح راجعا لسبب يختلف كل الاختلاف عن السبب الذى كان يحبّ أن يتخيله .

وهل ينتظر أن يدخل عقل رجل كهذا أنه انما يكسب ماله فى الواقع بافساد الشباب ، وأن مهنته التى يؤجر عليها هى أن يجعل الحجة الأسوأ تبدو الأفضل فى أعين من هم أصغر وأقل خبرة من أن يستطيعوا الكشف عن غشّه ، وأنه أخفى عن أنظار الذين زعم أنه يعلّمهم نقطا جوهرية فى الجدل ، لهم حق الاعتماد فى ابرازها على شرف من يزعم أنه مخلص ؛ وأنه كان رجلا حاد المزاج ، خليطا من الديك الرومى والاوز ، يستطيع بوجهه الصفراوى المريض وصوته الفظ الغليظ أن يروع الجبناء ، ولكنه يبادر الى الفرار لو ثبت له خصمه ، وأن تأملاته عن الرسول يهوذا قد سرقها دون اقرار فى الكتاب بفضل صاحبها ، وأنها ما كانت لتستحق حتى الازدراء من الناس لو لم يعتقد كثير منهم أنها كتبت بأمانة ؟ ولعل مسز سكنر كانت خليقة بأن تضعه أكثر قليلا فى مكانه الصحيح لو أنها رأت فى هذا ما يستحق بذل الجهد ، ولكنها كانت مثقلة بالأعباء — أعباء بيتها ، والتأكد من أن الصبيان يتناولون الغذاء الطيب ، وأنهم اذا مرضوا يجدون الرعاية الصحية — وهذا ما كانت حريصة على أن تحققه لهم .

الفصل الثامن والعشرون

كان ارنست قد سمع قصصا مروّعة عن طبع الدكتور سكنر وعن الاستبداد والعتوّ اللذين كان على صغار الصبيان فى رفبرو أن يحتملوه من كبارهم . وكان قد نُاله من هذا كله ما لا يطيق عليه مزيدا ، لذلك شعر أن الحياة ستقسو عليه كثيرا لو زادت عليه الأعباء أيا كانت ، ولم يبك حين غادر البيت ، ولكنى أخشى أنه فعل حين أُخبر أنه يدنو من رفبرو . وكان أبوه وأمه معه ، اذ ركبا مركبتهما من بيتهما ؛ ولم يكن لرفبرو سكة حديد بعد ، واذ كانت لا تبعد عن باترزبى سوى أربعين ميلا أو نحوها ، فقد كانت هذه أيسر وسيلة لبلوغها .

واذ رأته أمه يبكى شعرت بالزهو واحتضنته ثم قالت انها تعرف أنه لابد شاعر بالحزن الشديد لتركه بيتا سعيدا كبيته وذهابه بين قوم لا يستطيعون أبدا ، أبدا ، أن يكونوا فى طيبة « بابا » العزيز وفى طيبتها — مهما عاملوه برفق شديد ؛ ومع ذلك فانها هى — لو علم — أجدر منه بالرثاء لأن الفراق أقسى عليها مما يمكن أن يكون عليه الخ .. ، ولما قيل لارنست ان دموعه هى دموع الحزن على تركه البيت صدّق هذا كله ، ولم يكلف نفسه مشقة البحث والتنقيب عن السبب الحقيقى الذى دعاه الى البكاء ، واذ دنوا من رفبرو تماسك وأصبح هادئا هدوءا لا بأس به حين وصل الى بيت الدكتور سكنر .

ولما وصلوا تناولوا الغداء مع الدكتور وزوجه ، ثم أخذت مسز سكنر كرستينا لتريها حجرات النوم ، وأرتها أين سينام ولدها الصغير العزيز .

ومهما يكن رأى الرجال فى موضوع دراسة الرجل ، فان النساء يؤمن ايمانا لا شك فيه بأن أنبل دراسة لجنس النساء هى المرأة ، وقد استغرقت كرستينا فى تأمل مسز سكنر استغراقا منعها من أن تعير أى شىء آخر التفاتا كثيرا ، ولعل مسز سكنر كانت هى الأخرى تفحص كرستينا فحصا دقيقا . كانت كرستينا قد افتتنت بها افتتانها بأى شخص جديد تتعرف اليه ، لأنها وجدت فى معارفها الجدد (وكذلك نجد كلنا ولا ريب) شيئا جديدا يعترضها ، وأما مسز سكنر فيخيل الى أنها رأت من مثيلات كرستينا العدد الكثير الذى لم تجد معه فى هذا المثال الماثل أمامها الآن كثيرا من التجديد ، وفى اعتقادى أنها كانت تردد بينها وبين نفسها قولا مأثورا لناظر مشهور ، هو أن الوالدين كلهم مغفلون ، ولكن الأمهات — على الأخص — أشدهم غفلة ، على أنها مع ذلك كانت تفيض ابتساما ورقة ، فالتهمت كرستينا هذا كله فى سماحة كأنه ثناء بذل لها هى خاصة ، وثناء لا يحتمل اطلاقا أن تكون أم أخرى قد ظفرت به .

وكان ثيوبولد وارنست فى هذا الوقت نفسه مع الدكتور سكنر فى مكتبته — وهى الحجرة التى يمتحن فيها الجدد من الأولاد ، ويدعى اليها القدامى منهم ليوبخوا أو يعاقبوا . ولو أن جدران هذه الحجرة استطاعت أن تتكلم ، فكم من القسوة الهوجاء العمياء تنطق شاهدا عليه !

وكان لبيت الدكتور سكنر رائحته الخاصة شأن البيوت جميعا . فأما الرائحة الغالبة على حجرة مكتبته فرائحة الجلد المسكوفى ، ولكن معها رائحة أخف منها شبيهة برائحة دكان الصيدلى . ومصدر هذه الرائحة الأخيرة معمل صغير يقوم فى ركن من أركان الحجرة — كان امتلاك الدكتور سكنر له ، وكثرة ترديده السطحى الأجوف لكلمات مثل « الكربونات » ، و « الهيپو سلفيت » و « الفوسفات » و « الألفة الكيمية » ، كافيين لاقناع الناس — حتى أكثرهم تشككا ، بأن للدكتور سكنر معرفة عميقة بالكيمياء .

ويجدر بى أن أذكر للقارىء ملاحظة عابرة ، هى أن الدكتور سكنر هوى أشياء أخرى كثيرة جدا غير الكيمياء . كان رجلا صاحب معارف صغيرة كثيرة ، كل معرفة منها خطرة . ويحضرنى قول أليثيا پوتتفكس لى مرة بأسلوبها الخبيث ان الدكتور سكنر يذكرها بأمراء أسرة بوربون بعد أن عادوا من المنفى عقب معركة ووترلو ، غير أنه كان عكسهم تماما ؛ فهم لم يتعلموا شيئا ولم ينسوا شيئا ، أما الدكتور سكنر فقد تعلم كل شىء ونسى كل شىء . وهذا يذكرنى بقول خبيث آخر من أقوالها عن الدكتور سكنر ، فقد ذكرت لى يوما ان له براءة الحيّات ، وحكمة الحمام .

ولكن لنعد الى مكتبة الدكتــور سكنر ؛ ففوق رفّ المدفأة قامت صورة كبيرة للدكتور سكنر نفسه رسمها « پكرسجيل » الأب ، الذى كان الدكتور سكنر من أول من فطنوا الى موهبته واحتضنوها . ولم يكن فى المكتبة صور أخرى ، بيد أن حجرة الطعام كان فيها مجموعة جميلة جمعها الدكتور بما عهد فيه من ذوق رفيع ، ثم أضاف اليها اضافات كثيرة فيما تلا ذلك من حياته ، ولما انتهى بها المطاف الى البيع بالمزاد فى محل كرستى ، وهو ما حدث منذ عهد غير بعيد ، اتضح أنها تحتوى على كثير من أحدث وأنضج آثار سولومون هارت ، وأونيل ، وتشارلز لاندسير ، وغيرهم من الأكاديميين الانجليز المحدثين الذين لا تحضرنى أسماؤهم الآن . وهكذا جمعت وعرضت فى صعيد واحد آثار فنية كثيرة كانت قد استرعت النظر فى معارض الأكاديمية ، وكان الناس تواقين الى معرفة ما آل اليه أمرها . بيد أن الأثمان التى حققتها هذه الصور كانت مخيبة لآمال منفّذى الوصية ، ولكن لنذكر أن هذه الأشياء يلعب فيها الحظ والمصادفة دورا كبيرا . فقد كتب كاتب خرب الذمة فى جريدة أسبوعية مشهورة يغضّ من قدر هذه المجموعة . يضاف الى هذا أن مزاد الدكتور سكنر كان

قد سبقه بوقت قصير مزاد أو مزادان كبيران ، فلما جاء مزاده كان الناس يشعرون بما يشبه الذعر من ارتفاع الأثمان ، فحدث رد فعل للأثمان التى سيطرت على السوق آخيرا .

وكانت منضدة المكتبة تثقلها صفوف عميقة من الكتب ، واختلطت بهذه الكتب فى فوضى مخطوطات من شتى الأنواع — هى فى أغلب الظن كراسات الأولاد وأوراق الامتحان — ولكنها كلها مبعثرة هنا وهناك فى غير نظام . كانت الغرفة فى الواقع تبعث الغمّ فى النفس بمظهرها القذر كما تبعثه بجوها العلمى . ولما دخلها ثيوبولد وارنست تعثرا فوق ثقب واسع فى البساط التركى ، ودل التراب الذى ثار على طول الوقت الذى انقضى منذ أن رفع هـذا البساط ونفض . وعندى أن هذا ليس ذنب مسز سكنر ، وانما ذنب الدكتور نفسه الذى كان يقول انه لو قلقلت أوراقه من مكانها لكان فى ذلك حتفه . وكان يقوم الى جانب النافذة قفص أخضر يحوى زوجا من القمرى زاد هديله الحزين من كآبة الحجرة . أما الجدران فتغطيها رفوف الكتب من الأرض الى السقف ، وعلى كل رف صفوف مزدوجة من الكتب . كان منظرا مريعا . وقد برزت من بين أبرز الكتب المصفوفة على أبرز رف مجموعة من الكتب المجلدة تجليدا فاخرا والتى كتب عليها « مؤلفات سكنر » .

وفى الصبيان ميل مؤسف للقفز الى النتائج ، وقد اعتقد ارنست أن الدكتور سكنر على علم بجميع الكتب فى هذه المكتبة المريعة ، وأنه لابد له هو أيضا من الالمام بها ان أريد أن يرجى منه أى نفع . لذلك ساخ قلبه فى باطنه .

وأُمِر بالجلوس على كرسى الى الحائط ففعل ، بينما كان الدكتور سكنر يتحدث الى ثيوبولد فى موضوعات اليـوم . تحدث عن جـدل

« هامپدن » المحتدم اذ ذاك ، وتكلم كلام علامة عن « البريمونيرى » (*) ؛ ثم تحدث عن الثورة التى نشبت يوما فى صقلية ، واغتبط بأن البابا رفض أن يسمح للجيوش الأجنبية بالمرور فى أملاكه لقمعها . وكان الدكتور سكنر وغيره من المعلمين يرتبون جريدة التيمز ليقرأوها فيما بينهم ، فردد الدكتور سكنر افتتاحيات التيمز . ولم تكن هناك جرائد ذات بنس واحد فى تلك الأيام ، ولم يكن ثيوبولد يرتب سوى جريدة سپكتاتور — لأنه كان فى تلك الفترة من حيث السياسة فى صف حزب الأحرار ؛ وكان الى هذه الجريدة يتلقى « النشرة الكنسية » مرة فى الشهر ، ولكنه لا يرى صحفا أخرى ، فأدهشته السهولة والطلاقة التى كان الدكتور سكنر ينتقل بهما سريعا من موضوع الى آخر .

وأدى الحديث بالدكتور عن تصرف البابا فى مسألة ثورة صقلية بطبيعة الحال الى الاصلاحات التى أدخلها قداسته فى أملاكه ، وضحك ملء شدقيه على النكتة التى ظهرت منذ عهد غير بعيد فى صحيفة « پنتش » والتى ذكرت أن « پيــو » « نو ، نو » (لا ، لا) أولى به أن يسمى « پيــو » « يس ، يس » (نعم ، نعم) لأنه كما قال الدكتور منح رعيته كل ما طلبوه . وكانت كل تورية أو ما يشبه التورية تنفذ رأسا الى قلب الدكتور سكنر .

ثم مضى فى حديثه الى مناقشة هذه الاصلاحات ذاتها . لقد افتتحت عهدا جديدا فى تاريخ العالم المسيحى ، وسيكون لها نتائج خطيره بعيدة المدى قد تصل الى التوفيق بين كنيستى انجلترا وروما . وكان الدكتور سكنر قد نشر مؤخرا نبذة عن هذا الموضوع دلت على عظيم ثقافته ، وهاجمت كنيسة روما بطريقة لا يرجى معها كثيرا فى تحقيق هذا التوفيق .

(*) Praemunire قانون يعاقب بمقتضاه الأشخاص المؤيدون لسلطة البابا القضائية فى انجلتره .

وقد بنى هجومه على هذه الحروف .A.M.D.G التى رآها خارج كنيسة صغيرة كاثوليكية رومانية ، والتى لابد أنها اختصار لـ Ad Mariam Dei Genetricem فهل يمكن أن يكون هناك شيء أكثر وثنية من هذا ؟

وبهذه المناسبة قيل لى انه لابد أننى تركت ذاكرتى تخدعنى باحدى هذه الخدع التى كثيرا ما تخدعنى بها ، حين قلت ان الدكتور اقترح عبارة Ad Mariam Dei Genetricem بوصفها العبارة الكاملة للحروف .A. M. D. G ، لأن هذا لاتينى ردىء ، وأن الدكتور فى الحقيقة نظم الحروف على هذا النحو : Ave Maria Dei Genetrix ، ولا شك فى أن الدكتور قد أصاب الحقيقة فى أمر لاتينيته — فقد نسيت القليل الذى تعلمته من اللاتينية ، ولست مزمعا أن أحقق العبارة فى القاموس ، ولكنى أعتقد أن الدكتور قال Ad Mariam Dei Genetricem فاذا كان الأمر كذلك وجب أن نثق بأن Ad Mariam Dei Genetricem لاتينية فيها من الصحة على الأقل ما يكفى للأغراض الكنسية .

ولم يكن رد قسيس المنطقة (الكاثوليكى) قد ظهر بعد ، وكان الدكتور سكنر متهللا بانتصاره ، ولكن عندما ظهر هذا الرد ، وأعلن فى تأكيد أن .A. M. D. G ليست الا اختصارا لعبارة لا خطر فيها ، وهى Ad Majorem Dei Gloriam كان الشعور أنه وان كانت هذه الحيلة الوضيعة لن تفلح فى اقناع أى رجل انجليزى ذكى ، فانه من المؤسف أن الدكتور سكنر قد اختار هذه النقطة بعينها لهجومه ، لأنه اضطر أن يترك عدوه وقد انفرد بأرض المعركة . وحين يترك الناس وقد انفردوا بأرض المعركة ، فان من عادة المتفرجين — وهى عادة سمجة — أن يعتقدوا أن الخصم لا يجرؤ على النزال .

وكان الدكتور سكنر يقص على ثيوبولد كل شيء عن نبذته تلك التى

كتبها ، وانى لفى شك من أن هذا السيد كان يشعر بالراحة خلال ذلك أكثر من ارنست نفسه . فقد اعتراه الضجر ، لأنه كان يبغض مذهب الأحرار فى صميم نفسه وان أخجله أن يصرح بهذا فيزعم للناس كما قلت أنه من أنصار الأحرار . وهو لم يرد توفيقا بينه وبين كنيسة روما ، انما كان يبتغى أن يحوّل جميع الكاثوليك الرومان الى البروتستنتية ، ولم يستطع قط أن يفهم لم لا يتحولون ، ولكن الدكتـــور كان يتكلم بروح الأحـــرار الصادقة ، وأسكته بحدّة حين حاول أن يدسّ كلمة أو كلمتين ، بحيث اضطر أن يتركه لينفرد بالحديث كله كما يشاء ، ولم يكن هذا بالأمر الذى اعتاده ثيوبولد . وكان يسائل نفسه كيف يستطيع أن يضع حدا لحديث الدكتور ، واذا هما ينصرفان عنـــه بما كشفا من أن ارنست بدأ يبكى — طبعا بسبب احساس قوى ، وان كان مكتوما ، بسأم لم يستطع أن يطيقه . وواضح أنه كان فى حـــالة عصبية شديدة ، وأن انفعالات ذلك الصباح قد هزته هزا عنيفا ، لذلك اقترحت مسز سكنر التى دخلت الحجرة مع كرستينا حين وقعت هذه الواقعة أن ينفق ارنست أمسيته مع المدّبرة مسز چاى ، وألاّ يقدم الى رفقائه الصغار الاّ فى صباح الغد . فحيّاه أبوه وأمه تحية وداع حارة ، ثم سلم الغلام الى مسز چاى .

فيا أيا المعلمون — ان قرأ أحدكم هذا الكتاب — تذكروا حين يأتى أب الى مكتبتكم مصطحبا غلاما شديد التهيب كثير البكاء ، وحين تعاملونه بما يستحق من احتقار ، ثم تجعلون حياته بعد ذلك عبئا على كاهله مدى سنوات عديدة — تذكروا أن مؤرخكم العتيد سيبدو مستخفيا فى صورة غلام كهذا الغلام تماما . فحذار أن تروا صبيا صغيرا ذابل العين حقيرا ، جالسا على طرف كرسى الى جوار مكتبكم دون أن يقول الواحد منكم لنفسه « ربما كان هذا الصبى (مالم أكن حريصا) هو الذى سيخبر العالم يوما ما أى نوع من الرجال كنت » . واذا وعى هذا الدرس وحفظه من المعلمين حتى اثنان أو ثلاثة ، فلن تكون الفصول السابقة كتبت عبثا .

الفصل التاسع والعشرون

ولم يلبث ارنست أن أدركه النعاس فوق كتاب أعطته اياه مسز چاى بعد أن تركه أبوه وأمه ، ولم يفق من نومه الا في الغسق . وجلس على كرسي واطىء أمام نار المدفأة التى كانت تتألق تألقا مبهجا فى أصيل يناير المتأخر ، ثم استغرق فى التفكير . لقد أحس أنه ضعيف هزيل ، قلق عاجز عن أن يتبين طريقه وسط المشكلات الكثيرة التى عرضت له . وقال لنفسه انه قد يموت ، ولكن هذا الموت — فضلا عن كونه لن ينهى متاعبه — سيكون بداية متاعب جديدة ؛ لأنه ، على أحسن تقدير ، انما سيمضى الى جده پونتفكس وجدته ألبى ، . قد يكون السير معهما أيسر من السير مع « پاپا » و « ماما » ، ولكن ما من شك فى أنهما ليسا طيبين حقا مثلهما ، وأنهما أشد منهما تعلقا بعرض الدنيا ؛ زد على ذلك أنهما قوم كبار السن — لا سيما الجد پونتفكس ، الذى كان على قدر ما أستطاع أن يفهم — رجلا كبيرا جدا ، ولكن كان هناك دائما شيء يمنعه — لسبب لا يدريه — من أن يحب أى قوم كبار حبا جما ، فيما عدا خادما أو خادمين بلغا فى الحق غاية ما يتصوره من اللطف . وفضلا عن هذا فانه حتى ولو مات وذهب الى السماء ، فسيكون لزاما عليه أن يتم تعليمه فى مكان ما .

وكان أبوه وأمه فى هذه الأثناء يطويان بعربتهما الطرق الموحلة ، وقد لزم كل منهما ركنه وأدار فى رأسه أشياء كثيرة ستقع أو لا تقع . لقد تغيرت الدنيا مذ عرضتهما آخر مرة على القارىء جالسين معا فى عربة والصمت يخيم عليهما ، ولكنا اذا استثنينا ما يتصل بعلاقتهما المتبادلة ، فانه لم يطرأ

عليهما من التغيير الا أقل القليل . لقد كان من رأيي حين كنت أصغر سنا أن كتاب الصلوات أخطأ حين طلب الينا أن تتلو الاعتراف العام مرتين فى الأسبوع من الطفولة الى الشيخوخة ، دون أن يأخذ فى الحسبان أننا لن نكون خطاة غارقين فى الخطيئة ونحن فى السبعين كما كان شأننا فى السابعة ؛ ومع التسليم بأننا يجب أن نمضى الى المغسل كأننا غطاء مائدة مرة فى الأسبوع على الأقل ، فاننى كنت أرى أنه لابد أن يأتى يوم نحتاج فيه الى قدر أقل من الدعك والتنظيف . أما الآن وقد أدركنى أنا نفسى الكبر ، فرأيى أن الكنيسة قدّرت الاحتمالات خيرا مما قدرتها .

ولم ينبس أحد الزوجين بكلمة للآخر ، ولكنهما راقبا النور الذابل والأشجار العارية الجرداء ، والحقول البنية اللون التى تشتتت فيها أكواخ كئيبة على قارعة الطريق ، والمطر وقد اشتد وقعه على نوافذ العربة . وكان المساء من تلك الأمسيات التى يؤثر أكثر القوم الناعمين فيها الراحة فى البيت ، وقد احتدّ مزاج ثيوبولد قليلا حين فكر فى الأميال الكثيرة التى عليه أن يقطعها قبل أن يستطيع العودة الى جوار مدفأته ثانية . على أى حال لم يكن له فى الأمر حيلة ، وهكذا جلس الزوجان صامتين يرقبان الأشياء المنتشرة على الطريق تمرق مارة بهما ولونها يربدّ ويكفهر كلما اضمحل النور .

ومع أن أحدهما لم يكلم صاحبه ، فقد كان الى جوار كل منهما شخص أقرب اليه من صاحبه يستطيع أن يتحدث اليه فى غير حرج . قال ثيوبولد لنفسه : « انى لأرجو ، أرجو أن يجدّ — أو ن يرغمه سكنر على أن يجدّ . أنا لا أحب سكنر ، ولم أحبه قط ، ولكن ما من شك فى أنه عبقرى ، ولا أحد يخرج مثله عددا كبيرا من التلاميذ يوفّقون فى أكسفورد وكمبّردج ، وهذا خير محك لعبقريته . لقد قمت بنصيبى فى البدء بتدريبه بداية طيبة ،

وقال سكنر انه مؤسس أناسا حسنا ، وانه متقدم جدا . وأحسب أنه سيعتمد على هذا الآن ولا يفعل شيئا ، لأن له طبيعة بليدة . انه ليس شديد التعلق بى ، وأنا واثق من هذا ، مع أنه جدير به أن يتعلق بى بعد كل هذا العناء الذى جشمته نفسى من أجله ، ولكنه عاق وأنانى . انه مما يجافى الطبيعة ألا يكون الصبى متعلقا بأبيه . ولو كان متعلقا بى لتعلقت أنا به ، ولكنى لا أستطيع أن أحب ابنا أنا واثق أنه يبغضنى . انه يتنحى عن طريقى فى احجام كلما رآنى أدنو منه . ولا يرضى بأن يمكث خمس دقائق فى ذات الحجرة التى أمكث فيها اذا استطاع الى ذلك سبيلا . انه غشاش خداع ، ولولا ذلك لما احتاج الى أن يختبىء منى بهذه الكثرة . وتلك علامة سيئة ، وعلامة تجعلنى أخشى أن يشب مسرفا . أنا واثق أنه سيشب مسرفا ، ولولا يقينى من هذا لأعطيته مصروفا أكبر — ولكن أى خير فى اعطائه مصروفا ؟ انه يبدده حالما يأخذه . واذا لم يشتر به شيئا فهو يعطيه لأول صبى أو صبية يراها فتستهويه . وهو ينسى أن هذا المال الذى يبدده انما هو مالى . وأنا أعطيه المال ليكسبه ويتعلم أن يختبر فوائده ، لا ليمضى ويبعثره لتوه . ليته لم يكن مغرما هذا الغرام بالموسيقى ؛ فسيعوق هذا دراسته للاتينية واليونانية . وسأضع له حدا جهد استطاعتى . أجل ، انه حين كان يترجم ليفى منذ أيام أخطأ فأبدل باسم « هانيبال » اسم « هاندل » ، وقد أخبرتنى أمه أنه يحفظ عن ظهر قلب نصف نغمات لحن « المسيا » . فأى شىء يفترض فى صبى فى سنه أن يعرفه عن لحن « المسيا » ؟ لو أننى وأنا صبى أبديت نصف ما يبدى من نوازع خطرة لألحقنى أبى صبيا لبائع خضر ، وأنا واثق من هذا كل الثقة » الخ .. الخ ..

أما خواطر مسز ثيوبولد فقد جرت فى اتجاه مختلف « ان حفيد اللورد لونسفورد — ومن أسف أن اسمه فجنز ؛ ولكن الدم النبيل يجرى فى

اناث الأسرة كما يجرى فى ذكورها ؛ بل ربما كان أكثر جريا فى الاناث لو علمت الحقيقة ، ولست أدرى من كان مستر فجنز . وأظن أن مسز سكنر قالت انه مات ؛ على أى حال يجب أن أعرف كل شيء عنه . وسيكون ممتعا أن يدعو الفتى فجنز ارنست ليقضى العطلة فى بيتهم . ومن يدرى ، فلعله يقابل اللورد لونسفورد نفسه ، أو على أى حال بعض أحفاد اللورد لونسفورد الآخرين ؟ » .

وفى هذه الأثناء كان الصبى نفسه ما زال جالسا أمام النار مكتئبا مهموما فى حجرة المسز چاى يقول لنفسه « ان « پاپا » و « ماما » أكثر طيبة وحذقا من جميع الناس ، أما أنا فوا أسفاه ! اننى لن أكون أبدا طيبا ولا حاذقا » .

ومضت مسز پونتفكس فى خواطرها :

« ربما كان من الأفضل دعوة الصبى فجنز ليزورنا أولا . فسيكون هـذا ممتعا . ان ثيوبولد لن يميل الى هـذه الزيارة ، لأنه لا يحب الأطفال ، ولابد أن أرى كيف أرتب الأمر ، لأنه سيكون لطيفا جدا أن يأتى الصبى فجنز — ولكن لا ! سيذهب ارنست ويمكث مع فجنز ، ويلقى لورد لونسفورد العتيد ، الذى أحسب أنه لابد فى سن ارنست ، فاذا أصبح هو وارنست صديقين ربما دعاه ارنست الى باترزبى ، وربما وقع فى حب تشارلت . أظن أننا كنا حكيمين جدا اذ أرسلنا ارنست الى مدرسة الدكتور سكنر . ان تقوى الدكتور سكنر ليست أقل شهرة من عبقريته . فمثل هذه الأشياء يستطيع المرء أن يحكم عليها بنظرة سريعة ، ولابد أنه شعر هـذا الشعور نحوى فى قوة لا تقل عن شعورى به نحوه . وأظن أنه قد بدا عليه الاعجاب الشديد بثيوبولد وبى — أجل ، فان قوة ثيوبولد العقلية تقع لا محالة موقعا طيبا من نفس أى إنسان ، وأما أنا فكنت أبدو — فيما

أعتقد — فى أحسن حالاتى . وأنا واثقة أنه سُرّ سرورا عظيما حين ابتسمت له وقلت اننى تاركة ولدى بين يديه وأنا مؤمنة ايمانا كاملا بأنه سيلقى من الرعاية ما يلقاه فى بيتى . ولست أظن أن كثيرا من الأمهات اللاتى يأتينه بأبنائهن يستطعن أن يؤثرن فيه مثل هذا التأثير الطيب أو يقلن له مثل هذه الأشياء اللطيفة التى قلتها . ان ابتسامتى ولا شك حلوة حين أريدها حلوة . ربما لم أكن قط جميلة بمعنى الكلمة ، ولكننى كنت دائما باعتراف الجميع جذابة . والدكتور سكنر رجل وسيم الطلعة جدا — وهو على الجملة فى رأيى أفضل كثيرا مما تستحقه مسز سكنر . يقول ثيوبولد انه ليس وسيما ، ولكن الرجال ليسوا حكما فى هذه الأمور . وان له وجها مشرقا مبهجا . وأظن أن قبعتى كانت تناسبنى . وحالما أعود الى البيت سأطلب الى تشامبرز أن يحلّى قبعتى « المرينـــو » الزرقاء الصفراء بـ » الخ .. الخ .. وفى هذه الأثناء كلها كانت الرسالة التى أوردتها من قبل راقدة فى خزانة كرستينا اليابانية الصغيرة ، بعد أن قرأتها وأعادت قراءتها ، وأمّنت عليها مرات ومرات ، بل أعادت كتابتها أكثر من مرة لو علمت الحقيقة ، وان أرّختها بنفس تاريخ الخطاب الأصلى .. هذا مع أن كرستينا كانت مولعة بالنكتة الى حد ما .

ومضى ارنست فى خواطره وهو ما يزال فى حجرة مسز چاى . قال لنفسه « ان الكبار من الناس ، اذا كانوا سيدات وسادة مهذبين ، لا يأتون أبدا أفعال « الشقاوة » ، أما هو فيأتيها دائما . لقد سمع أن بعض الكبار متعلقون بعرض الدنيا ، وهذا خطأ بالطبع ، ومع ذلك فان هذا يختلف تمام الاختلاف عن الشقاوة ، وهو لا يجرّ عليهم عقابا أو توبيخا . ان أباه وأمه ليسا متعلقين بعرض الدنيا ، فكثيراً ما بيّنا له أنهما زاهدان فى الدنيا زهدا شديدا ، وهو موقن أنهما لم يرتكبا شقاوة .

مذ كانا طفلين ، وأنهما حتى وهما طفلان كانا مبرأين من الخطأ تقريبا .
أواه ، ما أعظم الفرق بينهما وبينه ! فمتى يتعلم أن يحب أباه وأمه كما أحبا هما أبويهما ! كيف يستطيع أن يطمع فى أن يشب طيباعاقلا مثلهما ، أو حتى طيبا وعاقلا بدرجة معتدلة ؟ أسفا ! لن يفعل . ولن يتسنى له هذا أبدا . انه لا يحب أباه وأمه ، برغم كل طيبتهما فى ذاتهما وطيبتهما معه . انه يكره پاپا ، ولا يميل الى ماما ، وهذا لا يفعله الا ولد شرير عاق بعد كل ما صنعاه من أجله ، ثم انه لا يميل الى يوم الأحد ؛ انه لا يميل الى شيء طيب حقا ؛ ان ميوله منحطة يخجل منها . فهو يميل أكثر ما يميل الى الناس اذا كانوا أحيانا يسبون ويشتمون قليلا ، ما دام السباب والشتم ليس موجها اليه . وأما قراءاته فى كتاب « التعليم المسيحى » وفى الكتاب المقدس فهو لا يضع فيها قلبه . انه لم يصغ قط الى موعظة فى حياته ، وحتى حين أخذ ليستمع الى مستر ڤوجان فى برايتون وهو الذى كان يعظ العظات الجميلة للأطفال كما يعلم الجميع ، فانه ابتهج ابتهاجا شديدا حين انتهت العظة ، ولم يكن يعتقد أنه يستطيع البقاء الى نهاية الخدمة اطلاقا لولا ذلك العازف المتطوع بالعزف على الأرغن ولولا الترانيم والترتيل .
أما كتاب التعليم المسيحى فرهيب ، فهو لم يستطع قط أن يفقه ما الذى « يرغبه من الرب الهه وأبيه السماوى » ، كذلك لم يفقه فكرة واحدة تتصل بكلمة « السر المقدس » . أما واجبه نحو جاره أو قريبه فكان غولا آخر يفزعه . لقد خيل اليه أن عليه واجبات نحو كل انسان تتربص به على كل جانب ، ولكن أحدا من الناس لم يكن عليه واجبات قِبَله . ثم هذه الكلمة الرهيبة الغامضة — كلمة «الأعمال» فما معنى هذه الكلمة ؟ وما هى هذه الأعمال ؟ لقد كان أبوه « رجل أعمال » ممتازا كما كانت أمه تخبره بذلك كثيرا — أما هو فلن يكون هذا الرجل أبدا ، انه أمر ميئوس منه ،

وأمر مريع جدا ، لأن الناس كانوا لا يفتأون يخبرونه بأن عليه يوما ما أن يكسب قوته . وهذا حق ولا شك ، ولكن كيف — وهو بهذه الغباوة والكسل والجهالة والأنانية وهزال البدن ؟ ان كل الكبار مهرة حاذقون ، فيما عدا الخدم — وحتى هؤلاء أشد حذقا مما يطمع أن يكون يوما من الأيام . أواه ، لم ، لم ، لم لا يستطيع الناس أن يولدوا فى هذا العالم أشخاصا كبارا ؟ ثم فكر فى كازابيانكا . لقد امتحنه أبوه فى هذه القصيدة منذ وقت غير بعيد . « فى أى الظروف فقط رضى كازابيانكا أن يترك مكانه ؟ ومن نادى ؟ وهل تلقى جوابا ؟ ولماذا ؟ وكم مرة دعا أباه ؟ وما الذى حدث له ؟ وما أنبل حياة هلكت هناك ؟ أتظن ذلك ؟ ولم تظن ذلك ؟ » الى آخر هذا كله ، وبالطبع كان رأيه أن حياة كازابيانكا أنبل حياة هلكت هناك ، فلا يمكن أن يختلف فى هذا اثنان ، ولم يخطر بباله قط أن مغزى القصيدة هو أن على الصغار أن يمارسوا منذ نعومة أظفارهم الحكمة فى طاعة آبائهم وأمهاتهم . لا ، لا ! ان الفكرة الوحيدة التى خطرت له هى أنه ما كان قط ليشبه كازابيانكا ، وأن كازابيانكا كان يحتقره احتقارا شديدا لو استطاع أن يعرفه ، وأنه ما كان ليتنازل ويتحدث اليه . ولم يكن أحد غيره على السفينة جديرا بالاعتبار اطلاقا : ولا يهم ما كانوا يتصفون به من زهو وانتفاخ . وقد عرفتهم مسز هيمانز كلهم وكانوا قوما لا فى العير ولا فى النفير . ثم ان كازابيانكا كان جميل الطلعة وكان ينتسب الى أسرة طيبة جدا » .

وهكذا ظل عقله الصغير يسرح حتى عجز عن أن يتابعه أكثر من ذلك فعاد يهوم فى نعاسه مرة ثانية .

الفصل الثلاثون

استيقظ ثيوبولد وكرستينا فى صباح الغد وهما يشعران بشىء من التعب اثر رحلتهما ، ولكنهما كانا سعيدين يشعران بأعظم ألوان السعادة ، ألا وهى رضا ضميريهما . فاذا لم يتقدم ولدهما الآن فى دراسته ، واذا لم يفلح كما كان من المرغوب جدا أن يفعل ، فالذنب اذن ذنبه من الآن فصاعدا . فأى شىء يستطيع الوالدان أن يصنعاه أكثر مما صنعا ؟ ان الجواب بـ « لا شىء » ليقفز الى شفتى القارىء بالسرعة التى قفز بها الى شفتى ثيوبولد وشفتى كرستينا .

وبعـد أيام أحس الوالدان الرضا عندما تلقيا الخطاب التـالى من ولدهما :

أمى العزيزة — ان صحتى على ما يرام ، وقد أعطانى الدكتور سكنر قطعة من الشعر اللاتينى عن الحصان الذى كان يجول فى الحقول الفسيحة حرا سعيدا ، ولكننى اذ كنت قد قرأت هذه القطعة مع أبى من قبل ، فقد عرفت كيف أجيب ، وكانت اجاباتى كلها صحيحة تقريبا ، فوضعنى فى الصف الرابع الذى يشرف عليه مستر تمپلر ، وعلىّ الآن أن أبدأ قراءة كتاب نحو لاتينى جديد مختلف عن الكتاب القديم ، ولكنه أصعب منه كثيرا ، وأنا أعلم أنك تريديننى أن أجد ، وسأحاول ذلك بكل جهدى . أبعث بمحبتى الحارة لچوى ، وتشارلت ، ولپاپا .

ولدك المحب

ارنست

ولم يكن فى الامكان ألطف ولا أليق من هــذا الخطاب . وقد بدا كأن الصبى يميل الى أن يبدأ صفحة جديدة .وكان الأولاد قد عادوا من العطلة ، وانتهت الامتحانات ، وبدأ نظام العمل العادى فى نصف الســنة الثانى ؛ ووجــد ارنست أن مخاوفه عن ضرب كبار الأولاد لصــغارهم واستبدادهم بهم مغالى فيها ، اذ لم يصنع به أحد شيئا يروّعه كثيرا . كان عليه أن يقضى بعض المهام بين ساعات معلومة للأولاد الكبار ، وأن يقوم بما فرض عليه فى دوره من تشحيم كور اللعب وما الى ذلك ، ولكن الروح المدرسية فيما يختص باضطهاد الكبار للصغار كانت روحا طيبة جدا .

ومع ذلك فانه لم يكن سعيدا قط ، فلقد كان الدكتور سكنر شديد الشبه بأبيه . صحيح أن ارنست لم يجد نفسه بعد مضطرا للقائه كثيرا ، ولكنه كان دائما هناك ؛ وما كان يدرى أية لحظة يفجؤه ، فاذا ظهر فانما ليصخب ويثور لسبب من الأسباب .وما كان أشبهه بالأسد فى قصة الأحد المأثورة عن أسقف أكسفورد — دائما يحتمــل اندفاعه من خلف دغــل ليفترس شخصا حين لا يتوقع الا أقل توقع . كان يسمى ارنست « زاحفة وقحة » ، ويعجب كيف لا تفتح الأرض فاها وتبتلعه لأنه ينطق « ثالسيا » بياء قصيرة لا طويلة ، ثم يقول مرعدا « وهذا تصنعه أمامى أنا الذى لم أخطىء طوال حياتى فى نطق الحركات بطولها الصحيح » . وما من شك فى أنه لو كان فى شبابه أخطأ فى نطق هذه الحركات كما يخطىء غيره من الناس لغدا شخصا ألطف كثيرا مما هو . ولم يستطع ارنست أن يتصور كيف ظل الأولاد فى صف الدكتور سكنر أحياء ؛ ولكنهم مع ذلك ظلوا أحياء ، بل انهم زكوا ، وكانوا شديدى الاعجاب به — وان بدا هــذا عجيبا — أو زعموا ذلك فيما تلا هذه الفترة من عمرهم . أما ارنست فقد بدت له الحياة معه كالحياة على فوهة بركان ڤيزوف .

وكان كما قلنا فى صف مستر تمپلر ، الذى كان حاد المزاج ، ولكنه لم يكن شريرا شرا خالصا ، وكان من السهل جدا أن يغش التلاميذ اجابات اللاتينية من مفتاح لها تحت بصره ، وكان ارنست يعجب من عمى مستر تمپلر ، لأنه اعتقد أنه لابد أن مستر تمپلر كان يغش هذه الاجابات وهو تلميذ ، ثم يسأل نفسه أتراه ينسى أيام صباه حين يكبر كما نسيها مستر تمپلر . وكان من عادته الاعتقاد بأنه لا يمكن أن ينسى أى شطر من صباه .

ثم هناك مسز چاى التى كانت أحيانا مرعبة جدا . فقد اندفعت بعد أيام من بداية الفترة الثانيــة حين سمعت فى القاعة ضجة تزيد قليلا على المألوف ، ومنظارها فوق عينيها وشرائط قبعتها تتطاير فى الهواء ، فرمت الصبى الذى اصطفاه ارنست من بين الأولاد بطلا له — بأنه « أشــد الأولاد هرجا ومرجا ، وضجيجا وعجيجا ، وصخبا ولجبا فى المدرســة بأسرها » ولكنها كانت تقول أشياء يستلطفها ارنست . فاذا ذهب الناظر الى عشائه ولم يكن هناك صلاة تتلى كانت تدخل وتقول « أيها السادة الصغار ، أنتم معفون من الصلاة هذا المساء » وكانت — اذا أخذتها جملةً — امرأة عجوزا لطيفة .

وأكثر الأولاد يكتشفون بعد دخولهم المدرسة بقليل الفرق بين الصياح والصخب ، وبين الخطر الحقيقى ؛ ولكن غيرهم يرون أنه ليس من الطبيعى أن يهدّدوا ما لم يقصدوا الشر ، فلا بد أن يمضى على هؤلاء وقت طويل قبل أن يكفوا عن أخذ الديكة الرومية والاوز مأخذ الجد . وكان ارنست من هذا الصنف ، وقد وجد فى جو رفبرو من الصخب ما جعله يغتبط بالانزواء بعيدا عن الأنظار ، بعيدا عن العقول كلما وجد الى ذلك سبيلا . وكان يبغض الألعاب أكثر حتى من عواصف الفصل والقاعة ، لأنه كان لا يزال ضعيفا هزيلا ، اذ لم يمتلىء ويبلغ تمام قوته الا فى وقت متأخر

جدا عن معظم الأولاد . ولعل هذا كان راجعا الى ما أخذه به أبوه من لزوم كتبه فى طفولته لزوما شديدا ، ولكنى أحسب بعضه أيضا راجعا الى ميل نحو التخلف فى بلوغ مرحلة النضج ، وهو ميل موروث فى أسرة پوتنفكس التى كان أفرادها كذلك من المعمرين بدرجة غير عادية . وكان فى الثالثة أو الرابعة عشرة هيكلا عظميا لا أكثر ، لا يزيد سمك ساعده على معصم غيره من الأولاد الذين فى سنه ؛ وكان صدره الصغير أقعس ؛ وبدا أنه خلا من كل قوة أو حيوية ، واذ وجد نفسه على الدوام مغلوبا فى المباريات البدنية سواء كانت هزلا أو جدا حتى مع أولاد أقصر منه قامة ، ازداد احجامه — وهو احجام طبيعى فى الطفولة — الى حد أخشى أنه بلغ مرتبة الجبن . وصيّره هذا أقل قدرة مما كان ممكنا أن يكون ، لأنه كما أن الثقة تزيد من قوة صاحبها ، كذلك يزيد عدم الثقة من ضعفه . فبعد أن قطع نفسه ورفست قصبة رجله عدة مرات فى معارك كرة القدم التى تورط فيها على كره شديد ، كفّ عن أن يجد بعد ذلك أى متعة فى كرة القدم ، وتهرّب من الاشتراك فى هذه اللعبة العظيمة بطريقة أوقعته فى مشكلات مع كبار الأولاد الذين ما كانوا يحتملون من صغارهم أى تهرّب أو احجام .

وكان فى لعبة الكريكت خائبا مضطربا خيبته واضطرابه فى كرة القدم ، وما كان ليستطيع مهما جهد أن يقذف بكرة أو بحجر ، وسرعان ما وضح للجميع أن پوتنفكس كان طفلا مخنثا رعديدا ، يجب ألا يعذّب ، ولكن يجب ألا ينظر اليه نظرة تقدير كبير. على أنه لم يكن يلقى كراهية ايجابية ، لأنه لوحظ أنه مستقيم مع رفاقه ، غير محب للثأر على الاطلاق ، سهل الارضاء ، كثير الجود بالمال القليل الذى يملكه ، غير محب لعمله المدرسى بأكثر من محبته للألعاب ، وأكثر ميلا على الجملة الى الرذيلة المعتدلة منه الى الفضيلة المفرطة .

وهذه الصفات من شأنها أن تحول بين أى صبى وبين الهبوط الى درك سحيق فى رأى زملائه ؛ ولكن ارنست ظن أنه هبط أكثر مما يرجح أنه هبط ، وكره نفسه واحتقرها لما حسبه — كما حسبه غيره — جبنا منه . ولم يكن يحب الأولاد الذين يحسبهم على غراره . وكان أبطاله أقوياء أشداء ، وكلما قل ميلهم اليه ازداد اعجابه بهم ، وصيّره هذا كله تعيسا جدا ، لأنه لم يدر بخلده قط أن الغريزة التى جعلته يحجم عن الألعاب التى لا تناسبه هى أكثر منطقا من العقل الذى يود أن يحمله على الاشتراك فيها . على أية حال اتبع ارنست غريزته فى أكثر الأحيان أكثر مما اتبع عقله .

« فالحكيم » كما يقولون « من عرف حكمته » .

الفصل الحادي والثلاثون

أما قدر ارنست فى أعين المدرسين فلم يلبث أن سقط سقوطا تاما . لقد أصبحت له الآن حرية لم يعرفها من قبل . فلم تعد يد ثيوبولد الثقيلة وعينه الساهرة تكتنفان طريقه وفراشه وترقبان كل مسالكه ، وكان العقاب بنسخ سطور من فرجل شيئا يختلف كل الاختلاف عما كان يوسعه أبوه من ضرب وحشى . لقد كان هذا النسخ فى الواقع أقل عناء فى أكثر الأحيان من الدرس نفسه . ذلك أنه لم يكن فى اللاتينية والاغريقية ما يزكيهما لغريزته بوصفهما شيئا قد يجلب له السلام فى النهاية ، وما كانا يغريانه بأى أمل على الاطلاق فى أن يفعلا ذلك بعد وقت معقول ، وكان الموات الذى يلازم هاتين اللغتين البائدتين لا يقابله أى نظام موضوع للمكافأة الصادقة على الجد فيهما . لقد كان هناك ما شئت من عقوبات على التقصير فيهما ، ولكن لا لون من ألوان الرشوة المريحة الطيبة يغريه بدرسهما كما يغرى الطعم السمكة .

والحق أن الجانب اللذيذ من تعلم هذا الشىء أو ذاك كان ينظر اليه القوم على الدوام على أنه أمر لا شأن لارنست به . لم يكن لنا شأن بالأشياء اللذيذة على الاطلاق ، أو هو شأن قليل جدا ، على أى حال لم يكن له هو ، ارنست ، أى شأن بها . لقد وضعنا فى هذا العالم لا للذة بل للواجب ، وفى صميم اللذة شىء أثيم اثما قليلا أو كثيرا ، فاذا فعلنا شيئا نحبه كان علينا ، أو عليه هو على أى حال ، أن يعتذر ويعتقد أنه عومل معاملة رحيمة جدا اذا لم يؤمر لتوه بأن يمضى ويفعل شيئا آخر . على

أن الأمر كان يختلف عن هذا فى الأشياء التى لا يحبها ؛ فكلما كره شيئا كان الزعم أكبر بأن هذا الشىء صواب وحق . ولم يخطر له قط أن هذا الزعم يؤيد صواب الشىء الذى يجلب له أكبر لذة ، وأن العبء فى اثبات عدم صوابه يقع على المعارضين فى صوابه . وقد قلت غير مرة انه كان يؤمن بفساده ، وما خلق الله آدميا صغيرا أكثر منه استعدادا لأن يتقبل فى غير مكابرة أى شىء يقوله له من لهم سلطان عليه : أو على الأقل خيّل اليه أن يصدّق ما يقولون ، لأنه لم يكن بعد يعرف شيئا عن ارنست الآخر الذى يسكن بين جنبيه ، والذى كان أكثر قوة وحقيقة من ارنست الذى يعى به . وكان ارنست الأخرس يحاول اقناعه بمشاعر صامتة لا تنطق ، مشاعر أسرع وأيقن من أن تترجم ألفاظا تقبل الأخذ والرد ، ولكنها تلح عليه الحاحا عمليا على النحو الآتى :

« ليس النمو بالعمل السهل اليسير الذى يفترضه الناس عموما : انه عمل شاق — وأشق من أى عمل يستطيع الصبى النامى أن يفهمه ؛ فهو يحتاج الى الانتباه والاهتمام ، وليس لك من القوة ما يتيح لك الاهتمام بنموّك البدنى وبدروسك أيضا ، ثم ان اللاتينية واليونانية دجل كبير ؛ وكلما زاد علم الناس بهما اتضح لهم أنهما على الجملة بغيضتان شنيعتان ؛ والقوم اللطفاء الذين تغتبط بهم ، اما لم يعرفوهما اطلاقا واما نسوهما بأسرع ما يستطيعون ؛ وهم لم يعودوا الى الدراسات القديمة قط بعد أن لم يعد هناك داع يضطرهم الى قراءتها ؛ اذن فهذه الدراسات هراء ، لم يكن بها بأس فى زمانها وفى بلادها ، ولكنها هنا شىء نشاز لا محل له . لا تتعلم شيئا الا اذا وجدت أن الجهل به قد ضايقك طويلا ؛ واذا وجدت أن هناك داعيا لتعلم هذا العلم أو ذاك ، أو رأيت سلفا أن سيكون له داع عما قليل ، فكلما أسرعت بتعلمه كان ذلك خيرا ، ولكن الى أن يأتى هذا

الظرف ، أنفق وقتك فى تنمية عظامك وعضلاتك ؛ فهى ستكون أكثر نفعا لك من اللاتينية واليونانية ، ثم انه لن يتاح لك أبدا أن تنميها مالم تفعل ذلك الآن ، أما اللاتينية واليونانية فيستطيع من يحتاجون اليهما أن يحصلوهما فى أى وقت .

« انك محاط من كل جانب بأكاذيب قد ينخدع بها حتى صفوة الناس ، مالم تكن هذه الصفوة يقظة بوجه عام يقظة شديدة ؛ والنفس التى أنت واع بها ، نفسك العاقلة المفكرة ، تصدّق هذه الأكاذيب وتأمرك بأن تتصرف وفقا لها . ان نفسك الواعية هذه يا ارنست ليست الا نفس انسان مغرور ، ولد لمغرورين وربّى ونشىء فى الغرور ؛ ولن أسمح لها بأن تشكل سلوكك ، وان شكلت ولا ريب ألفاظك سنوات كثيرة فى المستقبل . ان أباك ليس هنا ليضربك الآن ؛ وهذا تغير فى أحوال حياتك ، ويجب أن يتبعه تغير فى سلوكك . فأطعنى أنا نفسك الصادقة ، تسر الأمور معك سيرا طيبا ، أما اذا أصغيت الى « قشرتك » العجوز الخارجية المنظورة التى تسمى أباك ، فانى سأمزقك اربا الى الجيل الثالث والرابع لأنك أبغضت الله ؛ فاننى أنا ، يا ارنست ، هو الاله الذى صنعك » .

ولو أن ارنست استطاع أن يسمع النصيحة التى يتلقاها لصدمه سماعها كثيرا ، ولكان الذعر كذلك شديدا فى باترزبى ؛ ولكن الأمر لم يقف عند هذا ، لأن هذه النفس الباطنة الخبيثة ذاتها بذلت له النصح السيىء فى مسائل أخرى ، كمصروف جيبه ، وكاختيار رفقائه ؛ وكان ارنست على الجملة مصغيا مطيعا لأوامرها ، أكثر مما كان ثيوبولد فى صباه . والنتيجة أنه تعلم القليل ، لأن عقله نما بأبطأ وجسمه بأسرع من ذى قبل ؛ فلما حفزته نفسه الباطنة بعد قليل على السير فى اتجاهات لقى فيها عقبات لا قبل لقوته بمقاومتها ، اتخذ من الطرق أقربها الى الطريق الذى صدّ دونه (وان يكن بوخز شديد فى ضميره)

ويستطيع القارىء أن يحزر أن ارنست لم يكن الصديق الذى يصطفيه أكثر طلبة رفبرو رزانة وأحسنهم سلوكا . وقد ألف بعض الأولاد غير المرغوب فى صحبتهم كثيرا أن يختلفوا الى الحانات ويشربوا من الجعة قدرا أكبر مما يناسبهم ؛ ولا يمكن أن تكون نفس ارنست الباطنة قد أخبرته بأن يصاحب هؤلاء السادة الصغار ، ولكنه فعل فى سن مبكرة ، فكان أحيانا يعتريه غثيان أليم لشربه قدرا من الجعة ما كان ليحدث أى تأثير فى صبى أقوى منه . ولابد أن نفس ارنست الباطنة تدخلت عند هذه النقطة ، وأخبرته بأن ليس فى هذا الأمر كبير متعة ، لأنه أقلع عن هذه العادة قبل أن تتمكن منه ، ولم يعد اليها قط ؛ ولكنه تعلم عادة أخرى لم يقلع عنها ، وتعودها فى سن مبكرة الى حد معيب ، وهي ما بين الثالثة والرابعة عشرة ، وان تكن نفسه الواعية لا تفتأ الى اليوم تردد فى أذنه أنه كلما قلل من التدخين كان ذلك خيرا له .

وهكذا سارت الأمور حتى ناهز بطل قصتى الرابعة عشرة . واذا لم يكن فى تلك الفترة قد أصبح بالفعل وغدا صغيرا ، فقد كان ينتمى الى طبقة مائعة بين أصحاب المرتبة الثانية فى حسن السمعة وأصحاب المرتبة العليا فى سوئها ، وربما كان أميل الى هؤلاء اذا استثنينا رذائل الخسة والدناءة التى كان خلوا منها خلوّا تاما . وقد فهمت هذا مما رواه لى ارنست من ناحية ، ومن كشوف حساب مدرسته من ناحية أخرى ، وهى الكشوف التى أذكر أن ثيوبولد أطلعنى عليها فى كثير من الشكوى . ذلك أنه كان فى رفبرو نظام يسمونه نقود الثواب الشهرية ؛ وكان الحد الأقصى للمبلغ الذى يستطيع غلام فى سن ارنست أن يحصل عليه من هذه النقود أربعة شلنات وستة بنسات ؛ وقد حصل كثير من الأولاد على أربعة شلنات ، وحصل قليل منهم على أقل من ستة بنسات ، أما ارنست فلم يحصل قط

على أكثر من نصف كراون(*) وقلما حصل على أكثر من ثمانية عشر بنسا ؛ وأظن أن متوسطه شلن وتسعة بنسات ، وهو متوسط أعلى من أن يضعه فى صف الأولاد السيئى السلوك جدا ، وأقل من أن يسلكه فى عداد الأولاد الحسنى السلوك .

(*) أى شلنان ونصف .

الفصل الثاني والثلاثون

لابد لى الآن أن أعود الى الحديث عن مس أليثيا پوتنفكس التى ربما كان حديثى عنها الى الآن أقل مما ينبغى ، نظرا لما اتضح من تأثيرها العظيم فى مصير بطل قصتى .

فبعد أن مات أبوها وهى فى نحو الثانية والثلاثين من عمرها ، افترقت عن أختيها اللتين لم يكن بينهما وبينها من التعاطف الا أقله ، وذهبت الى لندن ، وقالت انها تعتزم أن تجعل ما بقى من حياتها أسعد ما تستطيع ، وكان لها فى أمثل الطرق لانفاذ هذا العزم أفكار هى أشد وضوحا من أفكار النساء بل الرجال عموما .

وكان قوام ثروتها كما قلت خمسة آلاف من الجنيهات ورثتها هبة زواج من أمها ، وخمسة عشر ألفا أخرى خلّفها لها أبوها . وكان لها فى هذين المبلغين مطلق التصرف الآن ، وقد غلّ لها هذان المبلغان ريعا يبلغ نحو تسعمائة جنيه فى العـام ، واذ كانت هذه الثروة لا تستثمر الا فى أكثر السندات ثباتا وسلامة ، لم يكن هناك ما يقلقها من ناحية ايرادها . وقد عوّلت على أن تصبح غنية ، لذلك وضعت نظاما للصرف يقتضيها انفاق نحو خمسمائة جنيه فى العام ، وصممت على أن تدخر فائض ايرادها . وقالت وهى تضحك « ان فعلت هذا فلعلى أفلح بالجهد فى أن أعيش عيشة مريحة فى حدود دخلى » . وعملا بهذا النظام الذى وضعته استأجرت مسكنا غير مفروش فى منزل بشارع جروور ، كانت حجر طابقه الأرضى مؤجرة مكاتب لرجال الأعمال ، وقد حاول چون پوتنفكس حملها على أن تستأجر

بيتا كاملا لنفسها ، ولكن أليثيا أخبرته فى صراحة أن يعنى بشئونه الخاصة ، فاضطر الى أن يتقهقر . ولم تكن تحبه قط ، ومن ذلك الوقت أسقطته من حسابها اسقاطا يكاد يكون تاما .

ومع أنها لم تكن كثيرة الاختلاط بالمجتمع ، فانها عرفت أكثر الرجال والنساء الذين بلغوا مكانا مرموقا فى ميادين الأدب والفن والعلم ، وكان عجيبا هذا التقدير الكبير لرأيها برغم أنها لم تحاول قط أن تبرز فى أية ناحية من النواحى . كان فى وسعها أن تكتب لو شاءت ، ولكنها وجدت المتعة فى أن ترى غيرها يكتبون ، وفى أن تشجعهم ، أكثر مما وجدتها فى القيام بدور أكثر ايجابية . ولعل الأدباء ازداد حبهم لها لأنها لم تكتب .

وكنت على الدوام مخلصا لها وفيا كما كانت تعلم جيدا ، ولو شاءت لكان لها عشرات غيرى من المعجبين ، ولكنها صدتهم جميعا ، وكانت تسخر من الزواج سخرية ندر أن تصدر عن النساء ، مالم يكن لهن ايراد خاص مريح . على أنها لم تسخر قط من الانسان سخريتها من الزواج ، ومع أنها عاشت بطريقة لا يمكن أن يجد فيها الناس — حتى أشدهم ميلا الى اللوم والنقد — ما يدعوهم للشكوى ، فانها كانت تدافع عمن كان المجتمع يقسو أشد القسوة فى الحكم عليهن من بنات جنسها ما استطاعت الى الدفاع المشرب باللياقة سبيلا .

أما فى مسائل الدين فأحسب أنها كانت مفكرة حرة بقدر ما يمكن أن يتاح التفكير لشخص لا ينصرف عقله الى هذا الموضوع الا قليلا ، فهى تذهب الى الكنيسة ، ولكنها تكره على السواء من يستعرضون ايمانهم أو كفرهم . وأذكر أننى سمعتها مرة تلح على فيلسوف معروف فارق هذه الحياة فى أن يكتب رواية بدلا من أن يواصل حملاته على الدين . ولم يرق هذا للفيلسوف كثيرا ، وأسهب فى الكلام على أهمية تبصير الناس بسخف

كثير مما يزعمون الايمان به . فابتسمت وقالت متكلفة الجد « أليس عندهم موسى والأنبياء ؟ (*) ليسمعوا منهم » : ولكنها كانت أحيانا تقول في هدوء عبارة خبيثة تعرب بها عن رأيها الخاص ، وقد لفتت نظرى مرة لهامش في كتاب صلاتها وردت فيه قصة المسيح وهو يسير مع التلميذين الى عمواس وكيف قال لهما « أيها الغبيان والبطيئا القلوب في الايمان « بجميع » ما تكلم به الأنبياء » — وقد طبعت كلمة « جميع » بحروف تاج صغيرة .

ومع أنها كانت مقطوعة الصلة أو تكاد بأخيها چون ، فقد احتفظت بصلة أوثق مع ثيوبولد وأسرته ، وألفت أن تختلف الى باترزبى أياما في كل عامين أو نحوهما ، وكانت أليثيا تحاول على الدوام أن تحب ثيوبولد وتنضم الى صفه جهد طاقتها (لأنهما كليهما أرنبا الأسرة الطريدان ، وباقى أفراد الأسرة جميعا كلاب الصيد) ، ولكنها لم توفق في محاولتها . واعتقد أن أهم ما دعاها للابقاء على صلات الود مع شقيقها رغبتها في أن ترقب أبناءه ، وأن تمد لهم يد المعونة اذا اتضح أنهم ظرفاء .

ولم يكن هؤلاء الأبناء يضربون حين كانت مس پوتنفكس تزور باترزبى فيما سلف من أيامها ، وكانت واجباتهم تخفف عنهم . وكان يسيرا عليها أن ترى ما هم فيه من ارهاق وشقاء ، ولكنها لا يمكن أن تكون قد حزرت تماما ما في نظام حياتهم من تعسف شامل . وقد أيقنت أنها لن تستطيع يومها التدخل تدخلا مجديا ، فأمسكت في حصافة عن الاكثار من السؤال والاستفسار ، وقالت في نفسها انه ان قدر لها أن تتدخل ، فسيكون ذلك يوم لا يعود الأبناء يعيشون تحت سقف واحد مع والديهم . وانتهى الأمر باعتزامها ألا يكون لها شأن بأى من چون أو تشارلت ، وأن ترى ارنست بالقدر الذى يتيح لها أن تكون لها رأيا في ميوله وقدراته .

(*) الاشارة الى مثل الغنى والمسكين (لعازر) الذى ضربه المسيح (لوقا ١٦ — ٢٦) .

وكان ارنست قد مكث الآن عاما ونصفا فى رفبرو ، وناهز الرابعة عشرة ، بحيث بدأت شخصيته تتشكل وتتميز ، وكان قد غاب عن عمته حينا . ورأت أنها ان أرادت تنشئته وفق هواها ، فربما كان ذلك أيسر الآن منه فى أى وقت آخر ، لذلك اعتزمت الذهاب الى رفبرو منتحلة عذرا لا يرى فيه ثيوبولد غرابة ، وفحص ابن أخيها واختباره فى ظروف تستطيع فيها أن تخلو به ساعات . وهكذا حدث فى أغسطس من عام ١٨٤٩ — حين كان ارنست على عتبة الفترة النصفية الرابعة — أن وقفت عربة بباب الدكتور سكنر ، وطلبت راكبتها مس پو نتفكس الاذن لارنست بأن يصحبها ليتناول معها العشاء فى فندق « البجعة » ، فأجيبت الى ما طلبت . وكانت قد كتبت لارنست أنها حاضرة . فترقب بالطبع مجيئها ، وكان لطول انقطاعها عنه خجلا أول اللقاء ، ولكن سرعان ما هدأت بشاشتها من روعه وأدخلت الطمأنينة الى نفسه . وكان فيها من التحيز القوى لكل صغير ما جعل قلبها يحن له توا وان لم تقع طلعته فى نفسها الموقع الذى أملته . وأخذته الى فطائرى وأعطته ما اشتهى بمجرد أن أخرجته من نطاق مدرسته ؛ وأحس ارنست من فوره أنها بالمقارنة ترجح حتى خالاته الآنسات ألبى اللائى كن لطيفات طيبات غاية اللطف والطيبة . لقد كن فقيرات جدا ؛ ونصف شلن عندهن تقابله خمسة شلنات عند أليثيا — وكيف يمكن أن يثبتن للمقارنة بمن لو شاءت لوفرت من دخلها ضعفى ما تنفقه هؤلاء المسكينات ؟

وكان فى الغلام معين كبير من « الدردشة » حين لا يصد أو يزجر ، وقد شجعته أليثيا على الثرثرة فى أى موضوع يغلب على تفكيره . وكان على الدوام مستعدا للوثوق بأى شخص يتلطف معه ؛ وقد اقتضاه الحذر المعقول فى هذه الناحية سنوات طويلة — وان كنت حقيقة فى شك من أنه

سيكون حذرا بالقدر الذى ينبغى — وما لبث بعد قليل أن سلخ عمته تماما عن أبيه وأمه وسائر أفراد الأسرة الذين حدثته فطرته بوجوب الحذر منهم . ولم يدر أن النتائج المترتبة على سلوكه هذا خطيرة جدا — فيما يتصل به — وربما لو درى للعب دوره بنجاح أقل .

واستدرجته عمته حتى ذكر لها من التفاصيل عن حيـاته فى البيت والمدرسة قدرا أكبر مما كان أبوه وأمه يوافقان عليه ، ولكنه لم يدر بخاطره أن عمته تستدرجه لتستقى منه المعلومات بأسئلتها . فعلمت منه كل شىء عن أمسيات الأحد السعيدة ، وعن مشاجراته مع جوى وتشارلت أحيانا ، ولكنها لم تنحز الى أحد الجانبين ، بل تقبلت كل شىء كأنه أمر طبيعى لا غرابة فيه . وكان كسائر الأولاد يستطيع أن يقلد الدكتور سكنر ، فلما أدفأه العشاء وكأسان من النبيذ كادا يديران رأسه ، أتحف عمته بنماذج من طريقة الدكتور سكنر فى الحديث وراح يلقبه « بسام » فى غير كلفة .

قال « ان سام خدعة قديمة بشعة » . بيد أن النبيذ الذى شربه هو المسئول عن هذه « الفشرة » ، لأنه مهما يكن من أمر الدكتور سكنر ، فانه كان بالنسبة للسيد ارنست حقيقة ماثلة يقشعر منها فرقا حالما يقع عليها بصره . وابتسمت أليثيا وقالت : « يجب ألا أعلق على هذا بشىء . أليس كذلك ؟ » وقال ارنست « أعتقد ذلك » ، وأوقفته هذه الملاحظة عنـد حدّه . وسرعان ما تفسّس عن أمثلة من الغرور هزيلة التقطها من غيره ظانا أنها صائبة ، ووضح منها بجلاء أنه حتى فى هذه السن المبكرة كان ارنست يؤمن بارنست ايمانا مضحكا لشدة سخفه . وترفقت عمته فى الحكم عليه كما كان ينتظر منها ، وكانت تعلم يقينا من أين أتاه الغرور ، واذ رأت أن عقدة لسانه حلّت الى درجة كافية ، فقد كفّت عن اعطائه المزيد من النبيذ .

على أنه لم يتم غزو قلب عمته الا بعد العشاء ، حين اكتشفت أنه مِثلها شديد الشغف بالموسيقى ، وبأرفع ألوان الموسيقى . كان يحفظ ، وراح « يدندن » لها أو يصفر شتى القطع المختارة من آثار كبار الموسيقيين ، وهى آثار قل أن يتوقع الانسان من صبى فى سنه أن يلمّ بها ، وكان ظاهرا أن هذا فطرة خالصة فيه ، لأن الموسيقى لم تكن تلقى أى نوع من أنواع التشجيع فى رفبرو . ولم يكن فى المدرسة صبى له مثل غرامه بالموسيقى . وقال لها انه التقط معلوماته من عازف كنيسة سانت ميكل الذى كان يتمرن على أرغن الكنيسة أحيانا عصرا فى غير يوم الأحد . وسمع ارنست الأرغن يجلجل وهو مار بالكنيسة ، فتسلل الى داخلها وصعد الى منصة الأرغن خفية ، وبمضى الوقت تعود عازف الأرغن على رؤيته زائرا مألوفا ، وأصبح الاثنان صديقين .

ذلك هو الذى جعل أليثيا تستقر على أن الصبى يستحق أن تبذل فى سبيله الجهد . وقالت فى نفسها « انه يحب أرفع ألوان الموسيقى ، وهو يكره الدكتور سكنر . وتلك بداية طيبة جدا » . وحين صرفته ليلا وفى جيبه جنيه من الذهب (وما كان يطمع فى أكثر من خمسة شلنات) شعرت كأنها ظفرت لقاء جنيهها بأضعاف قيمته .

الفصل الثالث والثلاثون

وفى الغد عادت مس پوتنفكس الى المدينة وأفكارها مشغولة بابن أخيها وبأمثل الطرق لنفعه .

وبدا لها أنها ان أرادت أن تخدمه حقا ، وجب عليها أن تفرغ له بجملتها تقريبا ؛ كأن تتخلى عن سكنى لندن — وقتا طويلا على أية حال ، وأن تعيش فى رفبرو حيث تستطيع أن تراه باستمرار . وكان هذا التزاما خطيرا ؛ وذلك أنها عاشت فى لندن الأعوام الاثنى عشر الأخيرة ، وكانت بالطبع تكره فكرة الحياة فى بلدة ريفية صغيرة مثل رفبرو . فهل من الحكمة أن تحاول بذل هذه التضحية الغالية ؟ أليس من واجب الناس أن يأخذوا حظهم فى هذه الدنيا ؟ أيستطيع انسان أن يفعل الكثير لآخر ، الا أن يوصى له بماله ثم يموت فى التو والساعة ؟ أليس جديرا بكل انسان أن يرعى سعادته هو ؟ ألا يسير العالم أفضل سيرة اذا اهتم كل انسان بشأنه وترك غيره من الناس يهتمون بشئونهم ؟ ليست الحياة سباق حمير يركب فيه كل حمار جاره ويكون الأخير هو الرابح ؛ ولقد صاغ لنا صاحب المزمور منذ القدم خلاصة تجربة مشتركة بين الناس جميعا حين قال انه ليس فى قدرة انسان أن ينقذ أخاه ولا أن يتقرب الى الله متشفعا له ، لأن افتداء نفوسهم يكلف أكثر من ذلك ؛ لذلك وجب أن يطلق هذه المحاولة الى الأبد .

لقد خطر لها هذا كله ، وكثير غيره من الأسباب الوجيهة التى تحملها على أن تدع ابن أخيها وشأنه ، ولكن قام يعارضها حب المرأة للولد ، ورغبتها فى أن تجد بين صغار أفراد أسرتها شخصا تستطيع أن تتعلق به وأن تجعله يتعلق بها تعلقا حارا .

ثم انها كانت فوق هذا كله فى حاجة الى شخص تترك له مالها ؛ فلقد أبت أن تتركه لقوم لا تعرف عنهم الا أقل القليل ، لا لسبب الا لأن المصادفة شاءت أن يكونوا أبناء أو بنات لأشقاء لها وشقيقات لم تحبهم قط ، كانت عليمة كل العلم بقوة المال وقيمته ، وبالعدد الكبير من الناس الجديرين بالمحبة الذين يتعذبون ويموتون كل عام لافتقارهم للمال ؛ لذلك ما كانت لتترك مالها دون أن تطمئن الى أن الذين أوصت اليهم به قوم أمناء ، جديرون بالمحبة ، محتاجون الى المال حاجة قد تكون كثيرة أو قليلة . كانت تريد ألا تتركه الا لمن يرجى منهم كثيرا أن يستعملوه استعمالا سمحا معقولا ، ومن يمكن فى هذه الحالة أن يعمل هذا المال على اسعادهم أكبر سعادة ؛ فلو قيض لها شخص بهذا الوصف من بين أبناء أو بنات اخوتها أو أخواتها ، فبها ونعمت ، ولا بأس ببذل الجهد الكبير فى سبيل العثور عليه ؛ والا بحثت عن وريث لا ينتسب اليها بصلة الدم .

وكانت تقول لى غير مرة « وبالطبع سأتخبط فى اختيار هذا الوريث . وسأختار فتى لطيف المظهر حسن الهندام له طباع السادة التى تخدعنى ، وسيذهب ويرسم صورا لمعارض الأكاديمية الملكية أو يكتب لجريدة التيمز ، أو يفعل أى شىء آخر من هذه الأشياء الفظيعة فى اللحظة التى ألفظ فيها أنفاسى الأخيرة » . على أنها لم تكن بعد قد كتبت وصية على الاطلاق ، وكان هذا من الأشياء القليلة التى أقلقت بالها . وأحسبها كانت تاركة لى أكثر مالها لولا أنى نهيتها عن هذا . فقد تركنى أبى فى يسر كثير ، وكان أسلوب حياتى على الدوام بسيطا فلم يعرف القلق على المال سبيلا الى ؛ زد على ذلك أننى كنت حريصا جدا على ألا ينشأ بيننا أى داع يدعو الناس للتقول الخبيث ، ومن ثم فقد كانت على يقين من أن تركها مالها لى سيكون

أكثر الأشياء اضعافا للروابط القائمة بيننا اذا كنت على بينة منه ، ولكنى لم أكن أجد بأسا بحديثها عن الشخص الذى ستختاره وريثا لها ما دام مفهوما تماما أننى لن أكون هذا الشخص .

وقد جعلها حديثها مع ارنست تطمئن الى أن فيه ما يكفى لاغرائها اغراء قويا بأن ترعاه ، ولكنها لم تتجه الى تنفيذ هذا الرأى فعلا — بما يقتضيه التنفيذ من قلب لأسلوب حياتها اليومية — الا بعد التفكير فى ذلك أياما كثيرة . على أية حال قالت لى انه اقتضاها بضعة أيام ، ومن المؤكد أنه اقتضاها هذا الوقت ، ولكنى منذ اللحظة التى بدأت فيها بهذا الموضوع ، حزرت النهاية التى سينتهى اليها الأمر .

وتم الاتفاق على أن تستأجر بيتا فى رفبرو ، وتذهب لتعيش هناك عامين . على أنها ارتضت استجابة لبعض اعتراضاتى — أن تحتفظ بمسكنها فى شارع جروور ، وأن تقضى فى لندن أسبوعا من كل شهر ؛ ثم اتفقنا بالطبع على أن تبرح رفبرو أكثر العطلات المدرسية . وبعد عامين تنتهى هذه المحاولة ، مالم يثبت نجاحها العظيم . على أية حال ستكون قد استقرت على رأى فى شخصية الغلام فتتصرف بوحى من الظروف .

وكانت الحجة التى تذرعت بها أمام الناس أن الطبيب نصحها بأن تقضى فى الريف عاما أو عامين بعد هذه السنوات الطويلة التى عاشتها فى لندن ، وأنه أوصاها باختيار رفبرو لصفاء هوائها ولسهولة الوصول اليها من لندن والعودة منها — لأن السكة الحديدية كانت قد مدّت اليها فى ذلك الوقت . وكانت حريصة على ألا تعطى أخاها وزوجته أى حق فى اللوم والشكوى ان وجدت نفسها بعد اختيارها لابنهما أنها لا تستطيع الانسجام معه ، كذلك كانت حريصة على ألا تخلق الآمال الباطلة أيا كان نوعها فى عقل الغلام نفسه .

فلما استقرت على هذه الأوضاع كلها ، كتبت لثيوبولد تقول انها تعتزم استئجار بيت فى رفبرو ابتداء من عيد الملاك ميخائيل القادم (٢٩ سبتمبر) ، ثم ذكرت له — كأنها تقول هذا عرضا — أن مما يغريها بهذه البلدة أن ابن أخيها مقيم فى مدرستها وأنها ترجو أن تتاح لها فرص رؤيته أكثر مما أتيحت لها الى ذلك الحين .

وكان ثيوبولد وكرستينا يعرفان تعلق أليثيا الشديد بلندن ، فاستغربا جدا رغبتها فى الذهاب الى رفبرو للحياة فيها ، ولكن لم يدر بخلدهما أنها ذاهبة اليها بسبب ولدهما دون غيره ، ولا أنها تفكر فى جعل ارنست وريثا لها . ولو حزرا هذا لتملكتهما غيرة تكاد تحملنى على الظن بأنهما كانا فى هذه الحالة يطلبان اليها أن تذهب الى بلدة أخرى لتعيش فيها . على أن أليثيا كانت تصغر ثيوبولد بعامين أو ثلاثة ؛ وكان لا يزال أمامها بضع سنوات لتبلغ الخمسين ، ولعلها تعمر الى الخامسة والثمانين أو التسعين ؛ اذن لم يكن مالها جديرا بأن يقلقهما أمره ، ومن ثم فقد طرد أخوها وزوجته من ذهنهما التفكير فيه طردا تاما ، مفترضين على أية حال أن المال سيؤول اليهما بالطبع اذا أصابها سوء خلال حياتهما .

وكانت فكرة التقاء أليثيا بارنست كثيرا أمرا خطيرا . وتوجست كرستينا الشر من بعيد كما كان شأنها فى الحق . ان أليثيا دنيوية التفكير — دنيويته الى القدر الذى يمكن أن تكونه شقيقة لثيوبولد ، وقد ذكرت لثيوبولد فى خطابها له أنها تعلم مدى انشغال أفكاره هو وكرستينا وقلقهما على صالح ولدهما . وظنت أليثيا أن فى عبارتها هذه كثيرا من اللطف واللياقة ، ولكن كرستينا كانت تطمع فى أفضل وأقوى منها ، وقالت لثيوبولد حين أطلعها على خطاب شقيقته « أنّى لها أن تعرف مبلغ تفكيرنا فى ولدنا الحبيب ؟ أظن يا عزيزى أن أليثيا كانت تفهم هذه الأشياء فهما

أفضل لو كان لها أبناء» . كان أقل ما يرضى كرستينا أن يقال لها انه لم يوجد قط والدان يمكن أن يقارنا بثيوبولد وبها . ولم تكن فى مأمن من قيام حلف من نوع ما بين العمة وابن أخيها ، ولكن لا هى ولا ثيوبولد يريدان أن يكون لارنست أى حلفاء . وحسبه من الحلفاء چوى وتشارلت . على أنها حدثت نفسها بأن أليثيا ، رغم هذا كله ، ان قر رأيها على أن تذهب الى رفبرو وتعيش هناك فلن يمكنهما أن يمنعاها ، فعليهما اذن أن يحتملا الأمر كأفضل ما يستطيعان .

وبعد أسابيع قليلة قر رأى أليثيا فعلا على أن تذهب الى رفبرو وتعيش فيها . فوجدت لها بيتا فيه ملعب وحديقة صغيرة لطيفة تلائمها كثيرا . وقالت لنفسها « على أية حال سيكون عندى بيض طازج وزهور » ؛ بل انها فكرت فى أن تربى بقرة ولكنها فى النهاية عدلت عن الفكرة . وأثثت بيتها كله بأثاث جديد دون أن تنقل شيئا من مسكنها بشارع جروور ، وما وافى عيد الملاك ميخائيل — لأن البيت كان خاليا حين استأجرته — حتى كانت قد انتقلت اليه واستقرت وبدأت تعود نفسها على محيطها الجديد .

وكان من الخطوات الأولى التى اتخذتها مس پونتفكس أن تدعو اثنى عشر صبيا من بين ألطف الصبية وأكثرهم تهذيبا الى الافطار معها . فقد استطاعت من مقعدها فى الكنيسة أن ترى وجوه أولاد الصف الأعلى ، وسرعان ما استقرت على أيهم أجدر بأن تتعهدهم برعايتها . وخلصت مس پونتفكس — وهى فى مجلسها أمام الأولاد فى الكنيسة ، تفحصهم وتزنهم بعينيها الثاقبتين من وراء نقابها بكل معايير المرأة — الى نتيجة فى أمر معظم من فحصتهم أصدق حتى من النتيجة التى خلص اليها الدكتور سكنر ، وقد أحبت صبيا منهم من رؤيته وهو يلبس قفازه .

ظفرت مس پونتفكس كما قلت ببعض هؤلاء الفتيان عن طريق ارنست،

وأطعمتهم جيدا . وما من صبى يستطيع أن يقاوم الطعام الجيد يقدم له من امرأة دمثة الخلق لا تزال تحتفظ بجمالها . وما أشبه الأولاد فى هذا بالكلاب اللطيفة — أعطهم عظمة يحبوك على الفور . واستخدمت أليثيا كل حيلة صغيرة أخرى ظنتها جديرة بأن تكسبها ولاءهم ، ورضاهم عن ابن أخيها نتيجة لولائهم : فوجدت النادى الذى يلعبون فيه كرة القدم يشكو أزمة مالية طفيفة ، فبادرت بالتبرع بنصف جنيه لتعينهم على التغلب عليها . وكان الأولاد أمامها ضعافا لا حول لهم ، فصرعتهم واحدا بعد واحد فى سهولة ويسر كأنهم من الديكة الأليفة ، ولكنها لم تخرج من المعركة سليمة ، فقد ظفر بقلبها ستة منهم كما كتبت لى . قالت « ما أكثر لطفهم وعلمهم عن أولئك الذين يزعمون أنهم يعلمونهم ! » .

وأعتقد أن من الآراء التى عرضت أخيرا الرأى بأن ذوى الشباب والحسن هم الشيوخ حقا ، والمختبرون حقا ، ما داموا هم وحدهم الذين يملكون ذاكرة حية ترشدهم . وقد قيل فى هذا « ان كل سحر الشباب كامن فى تفوقه على الشيخوخة من حيث الخبرة ، فاذا أخفقت هذه الميزة أو استعملت استعمالا خطأ لسبب من الأسباب بطل هذا السحر ، فبدلا من أن نقول اننا نشيخ ، أخلق بنا أن نقول اننا نصغر ونشكو من عدم الخبرة ؛ لأننا نحاول أن نصنع أشياء لم نصنعها من قبل ، ثم نخفق أكثر فأكثر ، حتى نبلغ فى الختام عجز الموت المطلق » .

لقد ماتت مس بونتفكس قبل أن تكتب هذه الفقرة بسنوات كثيرة ، ولكنها خلصت الى هذه النتيجة نفسها دون معونة من أحد .

ومن ثم فقد بدأت بكسب الأولاد . واستطاعت أن تكسب الدكتور سكنر بأيسر حتى مما كسبت تلاميذه . زارها هو وزوجه بالطبع حالما استقرت فى بيتها ، وتملقت هى غروره ما شاء أن يتملق ، وحصلت منه —

بمناسبة زيارته الأولى لها — على وعد بأن يهديها نسخة خطية من احدى قصائده الصغار (ولا غرو فالدكتور سكنر اشتهر بأنه أحد شعرائنا الصغار الذين توافرت لهم سهولة الأسلوب ورشاقته) ، ولم تنس غيره من المعلمين وزوجاتهم . لقد حرصت أليشيا على التلطف مع القوم ، كما كان فى الحق شأنها أينما ذهبت ، واذا حرصت امرأة على أن تفعل هذا فهى بالغة ما تريد فى الأغلب الأعم .

الفصل الرابع والثلاثون

سرعان ما اكتشفت مس پونتفكس أن ارنست لا يحب الألعاب ، ولكنها وجدت كذلك أن هذا الحب لا يمكن أن ينتظر منه . كان جسمه حسن التكوين ، ولكنه خلا من القوة البدنية خلوا غير عادى . وقد واتاه حظ طيب من هذه القوة فى فترة تالية من حياته ، ولكنه واتاه متأخرا عن غيره من الصبيان ، ولم يكن فى الفترة التى نحن بصددها أكثر من هيكل عظمى صغير . وكان يفتقر الى شيء يقوى ذراعيه وصدره دون أن يوجعه كثيرا كما تفعل الألعاب المدرسية ، واهتمت أليثيا اول ما اهتمت بأن توفر له هذه الحاجة بوسيلة تضيف أيضا الى لذته وسروره . وكان التجذيف خليقا بأن يحقق هذا الغرض لولا أن رفبرو لم يكن فيها نهر لسوء الحظ .

وأيا كان هذا الشيء فلا بد أن يكون شيئا يحبه كما يحب غيره من الصبيان الكريكت أو كرة القدم ، ولابد أن يحسب أن الرغبة فيه صادرة أصلا عنه هو ؛ ولم يكن من السهولة بمكان العثور على شيء يحقق هذا الغرض ، ولكن لم يمض طويل وقت حتى خطر لها أنه قد يكون من الخير أن تستعين فى اختيارها هذا بحبه للموسيقى ، وسألته يوما وهو ينفق فى بيتها عطلة بعد الظهر ، أيحب أن تشترى له أرغنا ليعزف عليه ؟ وقال الغلام بالطبع أنه يحب ؛ فأخبرته عن جده وعن الأرغنين اللذين صنعهما بيديه ، ولم يكن قد خطر بباله قط أن فى استطاعته أن يصنع أرغنا . ولكنه حينما فهم مما قالته عمته أن هذا ليس بالأمر المستحيل ، استجاب للطعم الذى أغرته به بأقصى ما كان يمكن أن تطمع فيه من تشوّق ، وأبدى رغبته

فى أن يبدأ بتعلم نشر الخشب ومسحه ليصنع الأنابيب الخشبية اللازمة للأرغن من فوره .

ولم تعرف مس پونتفكس كيف كانت واجدة شيئا أنسب من هذا ، وأعجبتها فكرة حصوله عرضا على الخبرة بالنجارة ، لأنها كانت تعجب اعجابا ، وربما كان فيه شيء من الغفلة ، بحكمة العادة الألمانية التى تقضى بتعليم كل ولد حرفة أيا كانت .

وكتبت لى تقول فى هذا الموضوع « لا بأس بالمهن الراقية لمن يتاح لهم الاتصال الاجتماعى والنفوذ ورأس المال ، ولكنها فيما عدا ذلك عبء باهظ ، فكم من الناس ممن تعرفهم أنت وأنا ، وممن توافرت لهم الموهبة والمثابرة وحسن التمييز والاستقامة بل وكل صفة خليقة بالنجاح ، يقضون مع هذا حياتهم عاما بعد عام ينتظرون ، ويؤملون — رغم كل المثبطات — فى العمل الذى يأبى أن يوافيهم » وكيف بالله ينتظر أن يجيء الا للذين ولدوا ولهم نفوذ ، أو للذين يتزوجون لكى يحصلوا على هذا النفوذ ؟ ليس لأب ارنست ولا لأمه نفوذ ، ولو وجد لما استعملاه . وفى ظنى أنهما سيجعلان منه رجل دين ، أو سيحاولان أن يفعلا — ولعل هذا أن يكون خير ما يصنع به ، لأنه يستطيع أن يشترى وظيفة دينية بالمال الذى خلفه له جده ، ولكن من يتكهن برأى الصبى اذا أتى الوقت ، فلعله يصر على أن يرحل الى مجاهل غابات أمريكا كما يفعل كثير غيره من شباب اليوم » .. ولكنه على أى حال يحب أن يصنع أرغنا ، ولن يؤذيه هذا ، واذن فخير البر عاجله .

ورأت أليثيا أنه مما يوفر عليها العناء فى النهاية أن تخبر بمشروعها هذا أخاها وزوجته فكتبت لهما تقول : « لست أظن الدكتور سكنر موافقا من كل قلبه على محاولتى أن أدخل صناعة الأرغن فى منهاج الدراسة فى رفبرو ،

ولكنى سأرى ما أستطيع صنعه معه ، لأننى صممت على أن أمتلك أرغنا تصنعه يدا ارنست ، ويستطيع أن يعزف عليه ما شاء ما دام الأرغن فى بيتى ، وسأعيره له على الدوام حالما يكون له بيت خاص به ، ولكن الأرغن سيكون ملكى فى الوقت الحاضر لأنى أعتزم دفع ثمنه » . ذكرت هـذا لتفهم ثيوبولد و كرستينا بجلاء أن هذا المشروع لن يكلفهما أى نفقة .

ولو كانت أليثيا فقيرة كالآنسات ألبى لاستطاع القارىء أن يحزر رأى والدى ارنست فى هذا الاقتراح ؛ ولكنها لو كانت فقيرة مثلهن لما تقدمت بمثل هذا الاقتراح اطلاقا ، انهما لم يحبا لارنست أن يظفر أكثر فأكثر برضى عمته ؛ ومع ذلك فلعله من الخير أن يفعل عن أن تضطر هى الى العودة الى الاتصال بآل جون پونتفكس . وقال ثيوبولد ان الشىء الوحيد الذى يجعله يتردد فى الموافقة على المشروع هو خوفه من أن يدفع ولده الى عشرة أشخاص وضعاء فى فترة تالية اذا شجع تذوقه للموسيقى — وهو تذوق كان ثيوبولد دائما يبغضه . وقد لاحظ فى أسف أن ارنست قد أظهر من قبل شيئا من الشوق الى المعاشرات الوضيعة ، ويخشى أن يتعرف بمن يلوثون براءته . وارتعدت كرستينا لهذه الفكرة ، ولكنهما بعد أن نفّسا التنفيس الكافى عن هواجسهما شعرا — (وحين يبدأ الناس « يشعرون » فانهم يعمدون دائما الى اتخاذ الطريق الذى يعتقدون أنه أكثر تمشيا مع المصلحة الدنيوية) — شعرا بأن معارضة اقتراح أليثيا فيه اضرار أكثر مما ينبغى بالفرص المتاحة لولدهما ، لذلك وافقا ولكن فى غير تلطف كبير .

على أن كرستينا ألفت الفكرة بعد حين ، وخطرت لها عند ذاك اعتبارات جعلتها تندمج فيها بحماستها المعهودة . ولو أن مس پونتفكس كانت سهما من أسهم شركة السكك الحديدية لجاز أن يقال انها ارتفعت فى سـوق باترزبى أياما قليلة ، لم يكن ممكنا قط أن يرتفع هذا السهم فى سـوق

باترزبى فترة طويلة متصلة ، انما كانت هناك فعلا حركة صعودية امتدت أياما ، وسرح عقل كرستينا الى الأرغن نفسه ؛ وخيل اليها أنها صنعته بيديها هى ؛ لن يكون فى انجلترا أرغن آخر يضارعه فى حلاوة الصوت وقوته معاً .وسمعت بأذن الخيال عازف كمبردج الشهير الدكتور ولمسلى يحسب الأرغن خطأ من طراز « الأب سميث » . سيأتى الأرغن ولا ريب الى كنيسة باترزبى حقيقة ، فالكنيسة فى حاجة الى أرغن ، وما من شك فى سخف هذا الحديث عن رغبة أليثيا فى حيازته . أما ارنست فلن يتاح له بيت خاص به الا بعد سنوات طويلة ، ولن يستطيعوا أبدا أن يأتوا به الى بيت الراعى . لا ، لا ! ان كنيسة باترزبى هى المكان الوحيد الذى يليق به .

وبالطبع سيحتفلان بهذه المناسبة احتفالا فخما ، وسيحضر الأسقف ، وربما كان الفتى فجنز يزورهم آنذاك — انها لابد سائلة ارنست هل غادر فجنز رفبرو — بل ربما حمل الفتى جده اللورد لونسفورد على أن يحضر . وسيهنئها عندئذ اللورد لونسفورد والأسقف وسائر الحاضرين ، وسيقول لها الدكتور وسلى ، أو الدكتور ولميسلى ، الذى ينبغى أن يرأس الاجتماع (وليس من المهم أيهما) « يا عزيزتى مسز پونتفكس ، اننى لم أعزف فى حياتى على آلة ممتازة كهذه » فتبتسم له ابتسامة من أعذب ابتساماتها ، وتقول ، انها تخشى أنه يجاملها ، فيجيب بدعابة صغيرة لطيفة عن الرجال الممتازين (والرجل الممتاز هو ارنست مؤقتا) وأنهم كانوا على الدوام أبناء نساء ممتازات . الخ .. الخ .. وهناك ميزة لقيام المرء بنظم عقود الثناء لنفسه ، وهى أنه يستطيع أن يغالى فى هذا الثناء ويضعه بالضبط فى مواضعه الصحيحة .

وكتب ثيوبولد لارنست رسالة قصيرة فظة خاصة بما اعتزمته عمته فى هذا الشأن .

قال « اننى لن التزم برأى فيما قد يسفر عنه المشروع من نفع ؛ فهذا كله رهن بجهودك أنت ؛ لقد أتيح لك حتى الآن مزايا فريدة ، وعمتك العطوف تبدى كل رغبة فى اعزازك ، ولكن عليك أن تعطينا برهانا على اتزانك وثبات خلقك أكبر مما فعلت الى الآن اذا لم ترد أن تسفر مسألة الأرغن هذه فى النهاية عن خيبة أخرى لآمالنا فيك تضاف الى أخواتها السابقة .

« ولابد لى أن أصرّ على شيئين : أولهما أن هذا الشغل الجديد الذى ستشغل نفسك به لن يصرفك عن لاتينيتك ويونانيتك » — (وقال ارنست لنفسه : انهما ليسا ، ولم يكونا قط ، لاتينيتى ولا يونانيتى) « ثانيا أنك لا تجلب معك الى بيتنا هنا رائحة غراء أو نشارة خشب اذا صنعت أى جزء من الأرغن فى عطلتك المدرسية » .

وكان ارنست لا يزال من الحداثة بحيث لا يدرك مبلغ ما فى هذا الخطاب الذى تلقاه من سماجة ، فقد اعتقد أن ما يحويه من غمز ولمز حق لا مراء فيه . وكان يعلم أنه يفتقر افتقارا مؤسفا الى المثابرة . كان يميل الى أشياء فترة قصيرة ، ثم يكتشف أنه لم يعد يميل اليها — وهى حالة سيئة غاية السوء . وأحسّ بعد قراءة خطاب أبيه نوبة من نوبات الاكتئاب الكثيرة التى كانت تنتابه من جراء شعوره بالتفاهة ، ولكن فكرة الأرغن كانت عزاء له ، وكان واثقا أن فيه على أية حال ما يستطيع أن ينصرف اليه انصرافا جادا متصلا دون كلل .

وتقرر ألاّ يبدأ العمل فى الأرغن قبل أن تنتهى عطلة عيد الميلاد ، وأن على ارنست أن ينفق هذه الفترة فى تعلم بعض النجارة البسيطة ليستطيع الالمام باستعمال أدواته ، وأمرت مس پونتفكس فجىء بمنضدة نجار الى بناء صغير ملحق ببيتها ، واتفقت مع نجار — كان أكثر نجارى رفبرو احتراما — على أن يرسل أحد عماله ساعتين فى يومين من أيام الأسبوع

ليرشد ارنست الى الأصول الصحيحة للنجارة ؛ ثم اكتشفت أنها فى حاجة الى بعض أشغال النجارة البسيطة ، فكلفت الغلام بصنعها وتقدته على ذلك أجرا طيبا كما أمدته بالآلات والمواد . ولم تعطه قط كلمة نصيحة واحدة ، ولم تقل له أن كل شيء رهن بما يبذل من جهد ، ولكنها كانت تقبّله أحيانا ، وتزوره فى ورشته ، وتمثل دور من يهتم بما يجرى هناك تمثيلا فيه من المهارة ما يجعل هذا الاهتمام بعد قليل حقيقة لا خيالا .

فأى صبى لا يعكف بجملته على أى عمل تقريبا ما دامت تقدم له مثل هذه المعونة ؟ ان كل الأولاد يميلون الى صنع الأشياء بأيديهم ؛ وكانت رياضة نشر الخشب ومسحه ودقه هى بالضبط ما تبحث عنه عمته — شيء يدرب جسمه ولكن فى غير ارهاق ، ويسليّه فى الوقت نفسه ؛ وحين كان وجه ارنست الشاحب يتوهج من حرارة العمل ، وعيناه تلمعان سرورا ، كان يبدو صبيا يختلف كل الاختلاف عن ذلك الذى تلقفته عمته قبل شهور قليلة . ان نفسه الباطنة لم تحدثه قط بأن هذا العمل وهم أو خدعة كما حدثته عن اللاتينية واليونانية ، وصنع الأدوات والأدراج يستحق أن يعيش المرء لأجله ، وهكذا لاح له شبح الأرغن من بعيد بعد عيد الميلاد ، ولم يغب هذا الشبح قط عن عقله .

وسمحت له عمته بأن يدعو أصدقاءه ، وشجعته على أن يأتى بمن حدثتها فطنتها بأنهم أكثر من تستحب عشرتهم . كذلك صقلت مظهره الشخصى دون أن تنصحه أو تعظه اطلاقا . والحق أنها أتت بالعجب المعجز فى هذه الفترة القصيرة التى أتيحت لها ، ولو أفسح لها فى الأجل فلست أظن أن بطل قصتى كان سيقع تحت ظل تلك السحابة التى ألقت كآبة ثقيلة على رجولته الباكرة . ولكن هذا النور الذى أشرق عليه كان لسوء حظه أشد حرارة وسطوعا من أن يطول اشراقه ، وكان على ارنست أن

يواجه عواصف كثيرة مقبلة قبل أن يظفر بحظ معتدل من السعادة فى النهاية . على أنه كان فى الوقت الحاضر غاية فى السعادة ، وكانت عمتـه سعيدة تحس الرضا والامتنان بسبب سعادته وما لحظته فيه من تحسن وما كان يفيض عنه من محبة لها . وأصبحت أكثر تعلقا به يوما بعد يوم برغم أخطائه الكثيرة وحماقته التى لا تكاد تصدق . ولعلها رأت بسبب هذه الأشياء ذاتها مبلغ حاجته اليها ؛ على أية حال ، أيا كان السبب ، فانها ازدادت قوة فى تصميمها على أن تكون له فى مكان أبويه ، وأن تجد فيه ولدا أكثر من ابن أخ . ولكنها مع ذلك لم تكتب وصيتها .

الفصل الخامس والثلاثون

سارت الأمور على ما يرام فى القسم الأول من الفترة الدراسية الأولى التى تلت هذه الأحداث . وأنفقت مس پوتنفكس أكثر أجازاتها فى لندن . كذلك رأيتها فى رفبرو حيث قضيت أياما نزلت فيها بفندق « البجعة » ، وسمعت كل شيء عن ولدى فى العماد ، وكنت على أى حال أعيره من الاهتمام قدرا أقل مما زعمت . كنت أهتم بالمسرح فى تلك الفترة أكثر من اهتمامى بأى شيء آخر ، وأما ارنست فقد كنت أضيق به لأنه استغرق كثيرا من عناية عمته ، ولأنه أبعدها أكثر الوقت عن لندن . وكان قد بدأ صنع الأرغن وسار العمل فيه سيرا طيبا فى الشهرين الأولين من الفترة الدراسية ، وشعر ارنست بأنه أسعد حالا منه فى أى وقت مضى ، وكان يكافح صعدا ، وقد بذل له أفضل الأولاد مزيدا من الاهتمام والرعاية اكراما لعمته ، وقلّت مخالطته للأولاد الذين يدفعونه الى طريق الأذى .

ولكن أيا كان الجهد الذى بذلته معه مس پوتنفكس فهى لم تستطع أن تبطل بين عشية وضحاها أثر البيئة التى أحاطت بالصبى فى باترزبى . ذلك أنه برغم خوفه من أبيه وبغضه اياه (وان كان لا يزال يجهل كم يخافه ويبغضه) فانه أخذ عنه الكثير ؛ ولو كان ثيوبولد أكثر عطفا عليه لصاغ ارنست نفسه على غراره تماما ، ولأصبح قبل زمن طويل — فى أكبر الظن — أشد من يلقى المرء بين الفتيان غرورا وتيها .

بيد أن طبعه لحسن الحظ كان قد جاءه من أمه . وكانت هذه الأم امرأة لطيفة طيبة — حين لا يستولى عليها الخوف وحين لا يكون فى الأفق

شيء يعارض أنفه نزوات زوجها ، ولولا أنها عبارة رهيبة تقال عن أي انسان ، لقلت انها كانت امرأة حسنة النية .

كذلك ورث ارنست حب أمه لبناء القصور في الهواء ، وورث أيضا غرورها — وأظن أن الغرور هو الصفة التي يجب أن ينعت بها . كان شديد الغرام بالظهور ، فاذا استطاع أن يلفت اليه الأنظار لم يهمه من أين أتاه هذا الطبع ولا الى أي شيء يهدف . وكان يلتقط ما يسمع من الكبار من عبارات جوفاء كأنه الببغاء وهو يحسبها الصواب عينه ثم ينطق بها في مناسبة وغير مناسبة كأنها من بنات أفكاره .

وكانت مس پونتفكس قد بلغت من النضج والحكمة ما جعلها بصيرة بأن هذه هي الطريقة التي يبدأ بها الناس — حتى أعظم عظمائهم — في النمو والتقدم . وكان سرورها بقدرته على التقبل والمحاكاة أشده من فزعها من الأشياء التي يلتقطها ويحاكيها .

ورأت أنه شديد التعلق بها ، فاطمأنت الى هذا أكثر من اطمئنانها الى أي شيء آخر . كذلك رأت أن غروره لم يكن شديد العمق ، وأن نوبات احتقار النفس التي تنتابه كانت مفرطة كخيلائه ، وأقلقها اندفاعه العاطفي وثقته الساذجة في أي انسان يبتسم له في لطف ، بل قل أي انسان لا يعامله بغلظة خالصة ، أكثر مما أقلقها أي ضعف آخر في خلقه ؛ ورأت في جلاء أنه لا مناص من أن تصدم أوهامه صدمات عنيفة مرارا وتكرارا قبل أن يتعلم كيف يميز صديقه من عدوه في فترة معقولة . وكان ادراكها لهذا هو الذي حملها على اتخاذ ذلك الاجراء الذي اضطرت اليه عاجلا .

كانت تتمتع عادة بصحة سابغة ، ولم تشك طوال حياتها مرضا خطيرا . ولكنها ذات صباح ، عقب عيد القيامة في عام ١٨٥٠ ، استيقظت وهي تحس أنها مريضة جدا . وكان القوم يتحدثون قبيل ذلك عن وجود الحمى في

المنطقة ، ولكن الناس فى تلك الأيام لم يكونوا يفهمون تماما الاحتياطات الواجب اتخاذها لمنع انتشار العدوى كما يفهمونها اليوم ، فلم يفعل أحد شيئا ، وما مضى يوم أو يومان حتى وضح أن مس پوتنفكس مصابة بحمى التيفود ، وأن حالتها خطرة . فلما علمت بالأمر أوفدت للتو رسولا الى لندن ورغبت اليه فى ألا يعود الا فى صحبة محاميها وصحبتى .

ووصلنا بعد ظهر اليوم الذى دعينا فيه ، فوجدناها سليمة التفكير لم تصب بعد بهذيان الحمى : بل ان طريقتها المرحة التى تلقتنا بها جعلت من الصعب علينا الاعتقاد بأنها فى خطر . وسرعان ما شرحت لنا رغباتها الخاصة بابن أخيها كما توقعت ، وذكرت لنا خلاصة ما أشرت اليه من قبل باعتباره أهم مبعث لقلقها عليه . ثم رجتنى — باسم صداقتنا الوثيقة الطويلة ، ونظرا لهذا الخطر المباغت الذى دهمها وعجزها عن دفعه — أن أضطلع بأمانة كانت على يقين من أنها ستكون اذا ماتت أمانة شاقة مؤذية .

أرادت أن توصى بالجانب الأكبر من مالها لى فى ظاهر الأمر ، ولكنها ستتركه فى الحقيقة لابن أخيها ، بمعنى أننى سأكون أمينا على مالها نيابة عنه الى أن يبلغ الثامنة والعشرين ، ولكن لا هو ولا أى انسان آخر غير محاميها وغيرى يجب أن يعلم عن الأمر شيئا . وقالت انها ستترك خمسة آلاف من الجنيهات توصى بها لأشخاص آخرين ، وخمسة عشر ألفا لارنست — ستزداد بالاستثمار فى الفترة الباقية على بلوغه الثامنة والعشرين حتى تبلغ ثلاثين ألفا مثلا . وقالت « عليك أن تبيع السندات التى استثمر فيها المال الآن — واستثمره كله فى سندات « مدلاند أوردنرى » .

وقالت « دعه يرتكب أخطاءه فى المال الذى خلفه له جده . لست نبية ، ولكن حتى أنا أستطيع أن أرى هذا الغلام سينفق السنوات الطوال قبل أن يتعلم رؤية الأشياء كما يراها جيرانه . انه لن يتلقى معونة

من أبيه أو أمه ، اللذين لن يغتفرا له حظه الطيب لو تركت له المال الآن صراحة ؛ ولعلى أكون مخطئة ، ولكنى أحسب أن لابد له من أن يخسر أكثر ما يملك قبل أن يعرف كيف يحتفظ بما سيحصل عليه منى » .

فاذا أفلس قبل أن يبلغ الثامنة والعشرين آل الىّ المال كلية ، ولكنها قالت انها تستطيع أن تثق بى أن أسلمه لارنست فى الوقت المناسب .

ثم واصلت حديثها قائلة « أما اذا كنت مخطئة ، فان شر ما يمكن أن يصيبه هو أنه سيرث فى الثامنة والعشرين مبلغا أكبر مما يرثه فى الثالثة والعشرين مثلا ، لأننى لن أرضى أبدا بوضع هذا المال بين يديه قبل هذه السن ، وما دام لا يعرف عن هذا المال شيئا فلن يكون شقيا بسبب افتقاره اليه » .

ورجتنى أن آخذ ألفين من الجنيهات نظير العناء الذى سأتكبده فى تعهدى تركة الصبى ، وعلامة على أمل الموصية فى أن أرعاه بين الحين والحين وهو حدث بعد . أما الآلاف الثلاثة الباقية فعلى أن أؤديها ميراثا ومرتبات لأصدقاء وخدم لها .

وعبثا حاول محاميها وحاولت معه الاعتراض على ما فى هذا الترتيب من شذوذ وخطر . قلنا لها ان الناس المعقولين لن يكون رأيهم فى الطبيعة البشرية أكثر براءة من دور القضاء . بل قلنا كل شىء يمكن أن يقوله أى انسان آخر . وسلمت هى بهذا كله ، ولكنها احتجت بأن الوقت قصير ، وأن لا شىء يحملها على أن تترك مالها لابن أخيها بالطريق العادى ، قالت « انها وصية تتسم بحماقة غير مألوفة ، ولكنه صبى فيه حماقة غير مألوفة » ؛ وابتسمت فى مرح شديد لهذه الدعابة الصغيرة . وكانت كباقى أفراد أسرتها شديدة العناد اذا انتهت الى قرار . وهكذا انفذ الأمر طبقا لرغبتها .

ولم يتخذ أى احتياط فى حالة موتى أو موت ارنست — لأن مس

بونتفكس استقر رأيها على أن أحدا منا لن يموت ، وكانت مريضة جد الى حد منعها من الخوض فى التفاصيل ؛ يضاف الى ذلك أنها كانت شـديدة الحرص على أن توقع وصيتها وهى بعد قادرة على التوقيع ، بحيث لم يكن أمامنا من سبيل — عمليا — الا أن تفعل كما أخبرتنا ، حتى اذا أبلت من مرضها استطاعت أن ترسى الأمور على أساس أفضل . وكان واضحا أن المزيد من النقاش سيعطل فرص الشفاء المتاحة لها ؛ وهكذا بدا أن الاختيار محصور بين أمرين ، فاما كتابة هذه الوصية واما لا وصية على الاطلاق .

فلما تم التوقيع على الوصية كتبت خطابا من نسختين ذكرت فيه أننى أحتفظ بكل ما تركته لى مس بونتفكس أمانة لارنست ، باستثناء خمسة آلاف من الجنيهات ، على ألا يتسلم هذا الميراث ، ولا يعرف عنه شيئا على الاطلاق بطريق مباشر أو غير مباشر ، حتى يبلغ الثامنة والعشرين ، فاذا أفلس قبل أن يتسلم المال آل المال الى كلية . وفى ذيل كل خطاب كتبت مس بونتفكس هذه العبارة « المذكورة أعلاه كان مفهوما لى حين كتبت وصيتى » ، ثم وقعت باسمها ، وشهد بذلك المحامى وكاتبه ؛ واحتفظت بنسخة لى ، وسلمت النسخة الثانية لمحامى مس بونتفكس .

فلما أنجزنا هذا كله اطمأن قلبها عن ذى قبل . وراحت تتحدث خصوصا عن ابن أخيها ، فقالت « لا توبخه اذا كان هوائيا متقلبا ، لا يأخذ الأشياء الا ليدعها ثانية . فكيف يمكن أن يكتشف قوته أو ضعفه الا عن هذا الطريق ؟ » ثم قالت وهى تضحك احدى ضحكاتها الصغيرة الخبيثة « ان مهنة الرجل ليست كزوجته التى لابد أن يأخذها مرة ويحتفظ بها طوال حياته — خيرا كانت النتيجة أم شرا — دون سابق تجربة ، فدعه اذن يذهب هنا وهناك ، ويكتشف أصدق ميوله بالتعرف على ما يجد نفسه متجهة اليه أكثر الأحايين — ثم اتركه يثبت عليه ؛ ولكننى أحسب أن ارنست

سيبلغ الأربعين أو الخامسة والأربعين قبل أن يستقر على شيء . وعنــدها ستعمل كل ذبذباته السابقة معا لخيره ان كان هو الغلام الذى أرجو أن يكونه » .

ثم مضت تقول « وأهم من ذلك كله ، لا تدعه يعمل الى طاقته الكاملة باستثناء مرة أو مرتين فى عمره ؛ فلا شيء يعمل حسنا ، أو يستحق العمل ، الا اذا كان فى جملته ميسورا . ان ثيوبولد وكرستينا ليودان أن يعطياه ذرة من الملح ويأمراه بأن يضعها على أذناب الفضائل السبع القاتلة » ؛ — وهنا عادت الى الضحك بأسلوبها المعهود ، الأسلوب الذى يجمع بين السخرية والظرف — « وأظن أنه اذا كان يحب الكعك المقلى (البانكيك) فخير له أن يأكله فى «ثلاثاء الاعتراف»(*) . ولكن فى هذا القدر الكفاية ». وكانت هذه العبارة آخر ما فاهت به من كلمات مترابطة ، فقد ساءت حالها منذ ذلك اللحظة سوءا مطردا ، ولم يبرحها الهذيان الى أن ماتت — وكان موتها بعد هذا بأقل من اسبوعين ، ففجع فيها كل عارفيها ومحبيها فجيعة تجل عن الوصف .

(*) Shrove Tuesday اليوم السابق للصوم الكبير Lent ، وفيه تسمع الكنيسة اعترافات الخطاة وتصفح عنهم .

الفصل السادس والثلاثون

كانت الخطابات قد أرسلت الى أشقاء مس پونتفكس وشقيقاتها ، فأقبل الجميع فى عجلة الى رفبرو ، ولكن المسكينة كانت تهذى قبل أن يصلوا ، وانى لأشعر ببعض الفرح لأنها لم تعد الى وعيها ، وذلك من أجل سلامها وهدوئها فى أيامها الأخيرة .

كنت قد عرفت هؤلاء القوم طوال حياتهم ، اذ لا يصل الى هذه المعرفة غير من لعبوا معا وهم أطفال ؛ عرفت كيف أنهم جميعا —وربما كان ثيوبولد أقلهم فى هذا ، ولكنهم جميعا بدرجات متفاوتة — جعلوا من حياتها عبئا ثقيلا عليها الى أن صيرها موت أبيها سيدة نفسها ، وقد ساءنى مجيئهم الى رفبرو واحدا بعد الآخر وسؤالهم هل أفاقت أختهم بالقدر الذى يتيح لها أن تراهم . وكان معلوما أنها أرسلت فى طلبى حين دهمها المرض ، وأننى مكثت فى رفبرو ، وأعترف أن هذا الجو الذى اختلطت فيه الريبة والتحدى والفضول فى نظراتهم لى قد أثار غضبى . وأعتقد أنهم كانوا جميعا — فيما عدا ثيوبولد — يتجاهلوننى تجاهلا تاما لولا اعتقادهم أننى أعرف شيئا يريدون هم أن يعرفوه ، وقد يتاح لهم أن يعرفوه منى — لأنه كان واضحا أن لى صلة — على نحو ما — بكتابة وصية أختهم . ولم يدر بخلد واحد منهم ما ستكون عليه هذه الوصية فى ظاهرها ، ولكنى أحسب أنهم كانوا يخشون أن تترك مس پونتفكس مالا للخدمات العامة . وقال لى چون بأرق ما يستطيع من عبارة انه يخيل اليه أنه يذكر أخته تقول بأنها تفكر فى ترك مال لتأسيس كلية لمعاونة المؤلفين المسرحيين الذين أخنى عليهم

الدهر ؛ ولم أرد بشيء على هذا ، ولست أشك فى أن امتناعى عن الرد قد زاده ريبة على ريبة .

فلما أتت النهاية طلبت الى محامى مس پوتنفكس أن يكتب الى اخوتها وأخواتها كيف أوصت بمالها . واشتد غضبهم بالطبع ، وذهب كل الى بيته دون أن يحضر المأتم أو يلقى الىّ بالا . ولعل هذا أرحم شيء كانوا يستطيعون أن يصنعوه بى ، لأن سلوكهم بعث فىّ من الغضب ما كدت معه أرتضى وصية أليثيا بدافع السرور لما أثارته فيهم من غيظ ، ولولا هذا لاشتد شعورى بثقل هذه الوصية لأنها أوقفتنى موقفا كنت أشـد الناس حرصا على تجنبه ، ولأنها حمّلتنى تبعة جسيمة جدا . ومع ذلك فقد كان محالا علىّ أن أهرب . ولم يكن من سبيل أمامى الاّ أن أدع الأمور تجرى مجراها .

كانت مس پوتنفكس قد أعربت عن رغبتها فى أن تدفن فى پيلام ؛ لذلك نقلت جثتها اليها خلال الأيام القليلة التالية . ولم أكن قد رأيت پيلام منذ موت أبى قبل ست سنوات . ولقد طالما تاقت نفسى الى الذهاب اليها ، ولكننى أحجمت عن هـذه الزيارة وان كانت شقيقتى قد زارتها مرتين أو ثلاثا ؛ ذلك أننى لم أطق أن أرى البيت الذى ظل موطنى سنوات طويلة من العمر ملكا لقوم أغراب ؛ وأن أقرع فى وقار وتكلّف جرسا لم أجذبه قط الاّ فى طفولتى على سبيل المزاح ؛ وأن أشعر أن لم يعد لى علاقة بحديقة طالما جمعت منها فى طفولتى الأزهار والورود ، وطالما بدت لى أنها ملكى بعد أن بلغت مبلغ الرجال بسنوات كثيرة ؛ لم أطق أن أرى الحجرات وقد جردت من كل قطعة أثاث مألوفة لى وأصبحت غريبة عنى برغم ألفتى بها . ولو كان هناك مبرر كاف لقبلت هذه الأشياء على أنها أشياء عادية ، ولوجدت توقّعها أسوأ مما هى فى واقع الأمر ، ولكن بما أنه لم يكن هنـاك داع

خاص يدعونى للذهاب الى پيلام فقد تحاشيته الى ذلك اليوم . على أن ذهابى أصبح الآن ضرورة ، وأعترف أننى ما شعرت فى حياتى بغم أكثر مما شعرت حين وصلت هناك بجثة رفيقة طفولتى .

ووجدت القرية وقد عراها من التغيير أكثر مما توقعت . فقد مدت اليها السكة الحديدية ، وقامت محطة من الطوب الأصفر الجديد فى المكان الذى كان يشغله منزل آل پوتنفكس القديم . ولم يبق الآن من هـذا المنزل الا دكان النجار . ورأيت وجوها كثيرة أعرفها ، ولكنها بدت لى وقد شاخت على صورة عجيبة وان لم تزد الفترة على سنوات ست ، وكان بعض الطاعنين فى السن قد ماتوا ، والشيوخ أخذوا يطعنون فى السن ليحلوا محلهم ، وشعرت كأننى ذلك الطفل البديل الذى تروى قصة الجان أنه عاد بعد أن قضى فى النوم سبع سنوات . ولاح لى أن كل انسان رآنى سُر برؤيتى وان لم أعطهم أى مبرر خاص لهذا السرور ، وتحدث كل من تذكر الشيخين پوتنفكس وزوجه عنهما فى حرارة ، وأبدى سروره لأن حفيدتهما رغبت فى أن تدفن الى جوارهما ، واذ دخلت فناء الكنيسة ووقفت فى أصيل أمسية غائمة عاصفة على البقعة الملاصقة لقبر مسز پوتنفكس العجوز ، وهى البقعة التى اخترتها مدفنا لأليثيا ، طافت بذهنى ذكرى المرات الكثيرة التى كانت هى — هى التى سترقد هناك منذ اليوم ، وأنا — أنا الذى لابد راقد فى مكان كهذا يوما ما وان كنت لاأرى أين ومتى — أقول طافت بذهنى ذكرى هذه المرات التى كنا فيها كلانا نلعب ونرتع فوق هذه البقعة ذاتها كما يلعب العاشقان الساذجان معا .

وشيّعتها فى صبيحة الغد الى القبر ، وأقمت عليه فى الوقت المناسب شاهدا رأسيا بسيطا تذكارا لها أشبه بالنصبين القائمين على قبرى جدها

وجدتها ، وذكرت فى الشاهد تاريخ ولادتها وموتها ومكانهما ؛ ولكنى لم أزد سوى أن هذا الشاهد الحجرى أقامه شخص عرفها وأحبها . وإذ كنت على علم بشغفها بالموسيقى فقد حدثتنى نفسى مرة بأن أنقش سطورا من الموسيقى على الشاهد ان استطعت أن أعثر على ما يلائم خلقها . ولكنى كنت أعلم أنها لو خيّرت فى ما يكتب على شاهد قبرها لنفرت من أى شىء شاذ . لذلك عدلت عن الفكرة .

على أننى قبل أن أنتهى الى هذه النتيجة خطر لى أن ارنست قد يستطيع أن يعيننى بأن يدلنى على ما أنشد . فكتبت اليه فى الأمر وتلقيت منه هذا الرد :

والدى العزيز — أبعث اليك بخير قطعة تخطر ببالى ؛ وهى موضوع آخر (فوج) من الفوجات الستة الرائعة التى كتبها هاندل ، ونصها كالآتى :



واللحن أنسب لرجل — وبخاصة لرجل متقدم العمر ، كان فى حياته شديد الحزن على تصاريف الدهر — منه لامرأة ، ولكن لا يحضرنى ما هو أفضل منه ؛ فاذا لم تكن تحبه رثاء لعمتى أليثيا فسأحتفظ به لشاهد قبرى .

ابنك المحب

ارنست پونتفكس

أفهذا هو الغلام الصغير الذى قال لى مرة انه يستطيع أن يشترى حلوى ببنسين ولكنه لا يستطيع شراءها ببنسين ونصف بنس ؟ قلت لنفسى ويحى ويحى كم يفوتنا هؤلاء الأطفال والرضع ويخلفوننا وراءهم حقا ! انه ليختار رثاءه وهو فى الخامسة عشرة كرجل « كان شديد الحزن على تصاريف الدهر » ، ويختار لحنا كهذا اللحن — لعمرى لقد كان يصلح رثاء لليوناردو داڤنشى نفسه . وحكمت على الغلام بأنه نسناس صغير مغرور ، وهو ما كانه ولا ريب — ولكن كذلك أيضا الكثير جدا من الشباب فى عمر ارنست .

الفصل السابع والثلاثون

اذا كان ثيوبولد وكرستينا لم يشعرا بسرور كثير يوم تولت مس پونتفكس أمر ارنست لأول مرة ، فقد كان سرورهما أقل حين انفصمت الصلة بين الاثنين قبل الأوان على هذا النحو ، وقالا انهما تأكدا مما قالته أختهما أنها ستجعل ارنست وريثها . ولست أعتقد أنها أعطتهما ولو تلميحا واحدا لهذه النية . حقيقة أن ثيوبولد أفهم ارنست ذلك فى خطاب سأورده بعد قليل ، ولكن كان فى طبيعة ثيوبولد ، اذا أراد أن يجعل نفسه رذلا ثقيلا ، أن يضخم البصيص الضئيل من النور فى خياله فيخلع عليه بعد ذلك أنسب صـــورة تلائمه . بل انني لا أعتقد أن رأيهما استقر على ما كانت أليثيا صانعة بمالها قبل أن يعلما بأنها تحتضر ، ولو أنهما — كما قلت من قبل — فكّرا فى احتمال جعلها ارنست وريثا لها دون علم منهما ، ودون أن يكون لهما حق الانتفاع بتركتها فى حياتهما ، لوضعا العراقيل سريعا فى طريق العمة وابن أخيها لمنعهما من توثيق الصلة بينهما .

على أن هذا لم يمنع حقهما فى الشعور بالظلم الآن بعد أن لم يظفرا لا هما ولا ارنست بشىء على الاطلاق ، واستطاعا الآن أن يجهرا نيابة عن ولدهما بخيبة أمل كانت كبرياؤهما تمنعهما من الاعتراف بها عن شخصيهما ، والواقع أنه كان لطيفا منهما أن يكتفيا بالشعور بالخيبة فى هذه الظروف .

وقالت كرستينا ان الوصية زائفــة ، وانها مقتنعة بأن فى الامكان ابطالها اذا اتخــذت هى وثيوبولد الاجراءات الواجب اتخاذها . وقالت ان الواجب على ثيوبولد أن يتقدم لقاضى القضـــاة ، فى جلســـة سرية

لا علنية ، حيث يستطيع أن يشرح له الأمر كله ؛ أو لعل الأفضل من هذا أن تذهب هي بنفسها — ولست أجرؤ على الوثوق بنفسى اذا شئت أن أصف للقارىء حلم اليقظة الذى أثارته فى عقلها هذه الفكرة الأخيرة . وأعتقد أن ثيوبولد مات فى ختام الحلم ، وأن قاضى القضاة (الذى كان قد ترمّل قبل ذلك بأسابيع) عرض عليها الزواج ، وهو عرض رفضته على أية حال رفضا حاسما ولكنه لم يخل من الاعتراف بالفضل ؛ وقالت انها ستظل أبدا تفكر فيه بصفته صديقا — وحين بلغت هذه النقطة دخلت الطباخة لتنبئها بأن الجزار أتى ، ولتسألها عما تريد منه .

وأظن أن ثيوبولد لابد قد شك فى أن وراء الوصية بالتركة لى أمرا ، ولكنه لم يذكر عن هذا شيئا لكرستينا . وكان غاضبا ، شاعرا بأنه ظلم لأنه لم يستطع أن يصل الى أليثيا ليصارحها برأيه فى فعلتها أكثر من استطاعته الوصول الى أبيه من قبل . وقال لنفسه « انها غاية الخسة من الناس أن يوقعوا بغيرهم أذى من هذا النوع ، ثم يحجموا عن مواجهة من آذوهم ؛ فلنرج على أية حال أن نلتقى معا فى السماء » . ولكنه كان يشك فى هذا ، لأنه اذا كان الناس يظلمون ظلما كبيرا كهذا ، فليس من المحتمل أن يذهبوا الى السماء اطلاقا . أما أن يلقاهم فى مكان آخر غير السماء ، فان الفكرة لم تخطر له ببال .

على أنك تستطيع أن تطمئن الى أن شخصا بلغ به الغضب هذا المبلغ ، ولم يألف كثيرا فى عهده الأخير أن يُعارض ، سيثأر لنفسه من انسان ما . وكان ثيوبولد قد استقر منذ أمد طويل على الأداة التى ينفّس بها عن غلّه الكظيم تنفيسا يعرّضه لأقل الأخطار ويجلب له أكبر قسط من الرضا . ولعل القارىء قد حزر أن هذه الأداة ليست سوى ارنست ؛ فالى ارنست اذن بدأ يتجه للتنفيس عن نفسه ، لا شخصيا ، ولكن برسالة بعث بها اليه .

كتب اليه يقول : « ينبغى أن تعلم أن عمتك أليثيا قد أفهمت أمك وأفهمتنى أنها ترغب فى أن تجعلك وريثها — بالطبع اذا سلكت سلوكا يجعلها تثق فيك ، ولكنها فى الواقع لم تترك لك شيئا ، وقد أصبحت كل ثروتها ملكا لمستر أوفرتن والدك فى العماد . وأمك وأنا نود أن نرجو أنها لو أفسح لها فى الأجل لنجحت فى كسب رضاها ، ولكن التفكير فى هذا قد فات أوانه .

« إن اشتغالك بالنجارة وبصنع الأرغن يجب أن يوقف فى الحال . فأنا لم أومن قط بهذا المشروع ، ولست أرى مبررا يجعلنى أعدل عن رأيى الأول ، ولست آسف من أجلك لتوقف هذا الأمر ، كذلك بالطبع لن تأسف أنت عليه فى مستقبل أيامك .

« بقيت كلمات عن مستقبلك ، فأنت تملك ميراثا قليلا كما اخالك تعرف ، وهو الميراث الذى أصبح من حقك شرعا بمقتضى وصية جدك . وقد أوصى لك بهذا الميراث عن سهو واهمال ، وأعتقد أيضا أن الأمر كله نتيجة سوء فهم من جانب المحامى . ولعل التركة الموصى بها لم يقصد بها أن تصبح نافذة الآن بعد وفاة أمك ووفاتى ؛ على أية حال فالتركة — حسب نص الوصية الفعلى — ستصبح الآن تحت تصرفك اذا بلغت الحادية والعشرين من عمرك . على أن استقطاعات كبيرة يجب أن تخصم منها . فهناك رسوم التركات ، ولست أدرى هل ليس من حقى أن أخصم منها نفقات تعليمك وتكاليف معيشتك منذ ولادتك الى حين بلوغك الرشد ؛ على أننى على الأرجح لن أصر على حقى هذا كاملا اذا سلكت كما ينبغى ، ولكن مبلغا كبيرا يجب أن يخصم بالتأكيد ؛ ومن ثم فلن يفضل الآن القليل جدا — ألف أو ألفان من الجنيهات تقريبا ، هو ما ستناله فعلا — ولكن الحساب الدقيق سيقدم اليك فى الوقت المناسب .

« ودعني أنبهك تنبيها جادا الى أن هذا هو كل ما يجب أن تنتظره مني» (وكان واضحا حتى لارنست أن المال ليس مال ثيوبولد على الاطلاق)، « على أية حال حتى وفاتي ، ومن يدرينا فلعل أجلي يطول سنوات كثيرة ، وهو مبلغ ليس بالكبير ، ولكنه يكون كافيا اذا أكملته بالجد والاجتهاد ، لقد سميناك أنا وأمك « ارنست » آملين أن يذكرك هـذا الاسم على الدوام بـ »— ولكن الحق أنني لا أستطيع أن أنقل الى القارىء مزيدا من هذه الشقشقة . فقد كان هذا الكلام هو هو اللعبة القديمة ، لعبة التهديد بالوصية ، وكانت خلاصته العملية أن ارنست لا خير فيه ، وأنه اذا ظل يسلك كما يسلك الآن فأغلب الظن أنه سيتشرد في الشوارع والطرقات يستجدي قوته حافي القدمين بمجرد تركه المدرسة أو الكلية ، وأنه هـو — أي ثيوبولد — وكرستينا يكادان يكونان من الطيبـة والصـلاح بحيث لا يستحقهما هذا العالم .

وبعد أن كتب ثيوبولد خطابه هذا شعر بالرضى ، وأرسل لعجوز تلك اللحظة — مسز طومسن أو غيرها — قدرا من الحساء والنبيذ أسخى حتى من راتبها العادي الذي لم يكن يعوزه السخاء .

وبلبل الخطاب فكر ارنست بلبلة شديدة عميقة ، وقد آلمه التفكير في أن الكل — حتى عمته العزيزة ، وهي الشخص الوحيد من أقاربه الذي أحبه حقا ، انقلبت عليه وساء رأيها فيه رغم كل محبتها له . « لقد كانت هذه الطعنة أقسى الطعنات جميعا »(*) وكانت مس پوتنكس في غمرة مرضها ، وهي لا تفكر الا في صالحه ، قد أغفلت أن تذكره وقتها ولو ذكرا طفيفا يجعل تلميحات أبيه المسمومة عديمة الأذى ، واذ كان مرضها معديا فانها لم تره بعد أن اتضحت طبيعة هذا المرض . وأنا نفسي لم أعلم بخطاب

(*) عبارة وصف بها أنطوني طعنة بروتس لصديقه قيصر .

ثيوبولد ، ولم أفكر فى ولدى بالعماد تفكيرا يجعلنى أحزر حالته . وقد انقضت سنوات طويلة قبل أن أجد رسالة ثيوبولد فى جيب حافظة قديمة كان ارنست يستعملها فى المدرسة ، وهى حافظة جمعت فيها رسائل قديمة أخرى ووثائق مدرسية مما استعنت به فى كتابة هـذا الكتاب ، وكان ارنست قد نسى أنه محتفظ بالرسالة ، ولكنه أخبرنى حين رآها أنه يذكرها باعتبارها أول شىء جعله يبدأ فى التمرد على أبيه تمردا كان يتبين ما فيه من عدالة ، وان لم يجرؤ على الجهر به . ولم يكن أقل الأفكار التى حدثته بها نفسه خطرا أن واجبه يقتضيه أن يتنازل عن التركة التى خلفها له جده ؛ لأنه اذا كانت هذه التركة قد آلت اليه عن طريق الخطأ ، فكيف يستطيع الاحتفاظ بها ؟

وبات ارنست مبلبل الخاطر شقيا طوال ما بقى من الفصل الدراسى الثانى . وكان كثير الولع ببعض زملائه فى المدرسة ، ولكنه يخشى أولئك الذين يحسبهم أفضل منه ، وكان ميالا الى تمثل الكمال فى كل شخص والظن بأنه أرفع منه ، باستثناء من كان واضحا أنهم أدنى منـه كثيرا . كان يبخس قدر نفسه كثيرا ، واذ كان محروما مما يشتهى من قوة البدن والنشاط ، واذ كان أيضا يعلم أنه يتهرب من دروسه ، فقد اعتقد أنه خلو من أى شىء يستحق اسم الصفة الطيبة ، واعتقد أنه ردىء بطبيعته ، وأحد أولئك الذين لا أمل لهم فى التوبة وان التمسها بدموع . ومن ثم فقد انزوى عن أنظار أولئك الذين كان فى طفولته يمجّدهم ، ولم يدر بخاطره لحظة أنه قد يكون له نصيبه الكامل من القدرات كنصيبهم وان اختلف نوعها ، وزاد اختلاطه بمن عَرفوا بأنهـم أخس معـدنا ، والذين كان يستطيع على الأقل أن يقف معهم على قدم المساواة .

وقبل أن تنصرم فترة نصف العام كان قد سقط من المكانة التى ارتفع

اليها خلال اقامة عمته فى رفبرو ، واستبد به من جديد شعور الغم القديم وان تخللته على أية حال هبات من الخيلاء والغرور كان ينافس فيها أمه . قال الدكتور سكنر حين فاجأه ذات يوم فى قاعة المدرسة كأنه صخر « معنوى » وقع عليه بغتة قبل أن يتسع له الوقت للهروب : « ألا تضحك أبدا يا پوتنفكس ؟ أهكذا تبدو على الدوام رزينا الى هذا الحد المفرط ؟ » ولم يكن الدكتور يقصد أن يكون فظا معه ، ولكن الصبى اصطبغ وجهه بالحمرة ولاذ بالفرار .

ولم يكن هناك سوى مكان واحد يشعر فيه بالسعادة ، وذلك هو كنيسة سانت ميكل العتيقة ، حين كان صديقه عازف الأرغن يتدرب على العزف . وفى تلك الفترة أو نحوها ظهرت طبعات رخيصة من الألحان الدينية الرائعة ، فاشتراها ارنست كلها حال ظهورها ؛ وكان يؤثر أحيانا أن يبيع كتابا من كتبه المدرسية لتاجر من تجار الكتب القديمة ، ويشترى بحصيلة البيع عددا أو عددين من « المسيا » أو « الخليقة » أو « ايليا » ، ولم يكن هذا منه الا غشّا لأبيه وأمه ، ولكن ارنست كان ينحدر من جديد — أو ظن أنه ينحدر — وكان به رغبة شديدة الى الموسيقى ، بينما هو قليل الرغبة فى كتبه المدرسية أيا كانت . وقد يحدث أحيانا أن يمضى عازف الأرغن الى بيته ويترك مفاتيحه مع ارنست فيتاح له أن يعزف وحده ثم يقفل الأرغن والكنيسة فى موعد يسمح له بالعودة الى المدرسة قبل التتميم على التلاميذ . وكان فى أحيان أخرى يجول حول الكنيسة وصديقه يعزف ، ويتأمل ما فيها من آثار ومن نوافذ رصّعت بالزجاج الملون القديم ، مسحور الأذنين والعينين فى وقت واحد . وذات مرة عثر عليه قسيس الكنيسة العجوز وهو يتأمل نافذة جديدة تركّب فى مكانها ، وكان القسيس قد اشتراها فى ألمانيا — وقيل انها من صنع ألبرت دورر . فأخذ يوجه

الأسئلة الى ارنست ، واذ وجده مولعا بالموسيقى قال بنبراته المتهدجة العجوز (لأنه كان قد جاوز الثمانين) « اذن كان ينبغى أن تتعرف الى الدكتور برنى الذى كتب تاريخ الموسيقى . لقد عرفته جيدا حين كنت فى شبابى » . وخفق قلب ارنست لهذا ، فهو يعرف أن الدكتور برنى كان قد ألف وهو صبى بالمدرسة فى تشستر أن يرتاد الأماكن المحظورة على التلاميذ لكى يرقب هاندل وهو يدخن قصبته فى نادى سوق الأوراق المالية — وهو الآن فى حضرة رجل رأى على الأقل من رأوا هاندل ، ان لم يكن قد رأى هاندل نفسه رأى العين .

تلك كانت واحات فى صحرائه ، ولكن الغلام كان بصفة عامة يبدو نحيلا شاحب الوجه ، وكأنه يخفى سرا يملأ نفسه غما — وهو صحيح ولا شك ، ولكنى لا ألومه عليه . على أنه ارتقى فى صفوف الدراسة رغم أنفه ، ولكنه ظل ينحدر أكثر فأكثر فى أعين مدرسيه ، ولم يصلح فيه رأى الصبية الذين كان واثقا أنهم لا يعرفون أبدا ما يعنيه أن ترزح عقولهم تحت ثقل سرّ يعذّبها . ذلك ما كان يحزّ فى نفس ارنست ؛ فهو لم يعبأ كثيرا بالصبية الذين يحبونه ، وهو يعبد أولئك الذين كانوا يبعدونه عنهم ما استطاعوا ، ولكن هذا شأن جميع الصبيان فى كل مكان .

وأخيرا بلغت الأمور أزمة ما كان يمكن أن تتجاوزها . ذلك أن ارنست حمل معه فى حقيبة ملابسه الى بيت أبيه عقب الفترة الدراسية التالية لتلك التى ماتت فيها عمته وثيقة دمغها ثيوبولد بأنها « فاضحة مشينة » . ولا حاجة بى الى القول بأننى أشير بهذه الوثيقة الى قائمة الحساب .

وكانت هذه الوثيقة على الدوام مبعث قلق ارنست ، لأنها كانت تفحص بعناية مدققة ، وكان يستجوب فى أمرها استجوابا طويلا . وقد ألف أحيانا أن يكتب لادارة المدرسة طالبا ما يلزمه من أدوات لتعليمه

كحافظة للكتب مثلا أو قاموس ، ثم يبيعها كما قلت ليزيد من مصروف جيبه حتى يتاح له أن يشتري في الغالب لحنا موسيقيا أو تبغا ، وكان هناك خطر داهم من أن تكتشف هذه الحيل والخدع أحيانا كما اعتقد ارنست ، فاذا انتهى استجوابه بسـلام أحس كأن حملا قد أزيح عن صدره . وأثار ثيوبولد هذه المرة ضجة كبرى حول النفقات الاضافية ، ولكنه أجازها على مضض ؛ بيد أن الأمر كان مختلفا حين فحص تقرير المدرسة عن خلقه ، وقرأ درجات سلوكه كما وردت فى ختام الحساب .

والى القارىء نص الصفحة التى وردت فيها هذه التفاصيل :

تقرير عن سلوك ارنست پوتنفكس وسيره فى الدراسة .

(الفرقة الخامسة أ ، فترة نصف العام المنتهية فى منتصف صيف ١٨٥١) .

الدراسات القديمة	— كسول عديم الانتباه لم يتحسن
الرياضيات	— كسول عديم الانتباه لم يتحسن
الديانة	— كسول عديم الانتباه لم يتحسن
السلوك فى المدرسة الداخلية	— محافظ على النظام
السلوك العام	— غير مرض بسبب تقصيره الشديد فى المواظبة واهمـاله الكبـير للواجبات .

نقود الثواب الشهرية	١شلن ٦بنس	٦بنس	صفر	٦بنس	الجملة ٢شلن ٦بنس
درجات الثواب	٢	صفر ١	١	صفر	٤
درجات العقاب	٢٦	٢٠ ٢٥	٣٠	٢٥	١٢٦
العقوبات الاضافية	٩	٦ ١٠	١٢	١١	٤٨

أوصى بأن يقدر مصروف جيبه على أساس ما يحصل عليه من نقود الثـواب .

ناظر المدرسة

ش . سكنر

الفصل الثامن والثلاثون

وهكذا كان ارنست غير مرضي عنه منذ بداية العطلة المدرسية ، ولكن حادثا وقع عقب ذلك فدفع به الى ألوان من الجنوح لا تعد الذنوب السابقة بالقياس اليها سوى هنات تغتفر له .

وبيان ذلك أنه كان بين الخدم فى منزل الراعى فتاة جميلة جدا تدعى الن ، قدمت أصلا من ديفونشير ، وكان أبوها صيادا غرق وهى طفلة بعد ففتحت أمها دكانا صغيرا فى القرية التى كان زوجها يعيش فيها واستطاعت بالجهد أن تكسب قوتها ، وعاشت الن معها حتى بلغت الرابعة عشرة ثم ذهبت لتشتغل خادما لأول مرة فى حياتها . وبعد سنوات أربع تقدمت لكرستينا بتوصية قوية يوم كانت فى حاجة الى خادم بعد أن مضى على سكناها باترزبى نحو اثنى عشر شهرا ، وكانت الفتاة تناهز الثامنة عشرة ، ولكنها يفعت الى حد بدت معه كأنها بنت العشرين .

وكان فى الفتاة كما قلت حسن يلفت النظر ؛ فبدت غاية فى الصحة والعافية ودماثة الطبع ، والحق أن وجهها كان عليه سيماء من الصفاء والهدوء يأسر جميع من رأوها تقريبا ؛ وبدا على وجهها أن الأمور تسير معها على ما يرام وأنها ستفعل ذلك دائما فى المستقبل ، وكأنه ما من ظروف تخطر بالبال تستطيع أن تأتمر معا فتذهب عنها هدوء طبعها ورضاها عن نفسها أو عن غيرها من الناس أمدا طويلا . وكانت بشرتها صافية نقية ولكنها تميل الى الاحمرار ، وعيناها رماديتين بديعتين وشفتاها ممتلئتين هادئتين تتسمان بشىء يشبه الطابع الذى تتسم به شفتا أبى الهول . وحين

علمت أنها أتت من ديڤونشير خيل الى أننى ألمح فيها أثرا من دم مصرى بعيد جدا لأننى كنت قد سمعت قبل ذلك — وان كنت لا أعلم الأساس الذى تستند اليه القصة — أن المصريين أنشأوا مستعمرات على شاطىء ديڤونشير وكورنوول قبل أن يفتح الرومان بريطانيا بأمد طويل . وكان شعرها ذا لون بنى خصبا ، وقوامها المتوســط تقريبا يبلغ الكمال لولا ما فيه من انحراف — ان كان فيه انحراف على الاطلاق — الى قوة العضل . وكانت على الجملة من أولئك الفتيات اللاتى يحملن المرء على التساؤل كيف يمكن أن يبقين بغير زواج أسبوعا أو يوما آخر .

وكان وجهها عنوانا صادقا لطبعها (كما هو شأن الوجوه عادة ، وان كنت أسلم بأنها تكذب أحيانا) فقد كانت اللطف ودماثة الطبع مجسمين ، فتعلق بها كل من فى البيت — بمن فيهم حتى ثيوبولد نفسه الذى تعلق بها قليلا فى ظنى . أما كرستينا فقــد اهتمت بها أشــد اهتمام وآلفت أن تأتى بها الى حجرة الطعام مرتين فى الأسبوع ، وتعدها لتثبيت العمــاد (لأنها بالصدفة لم تكن قد ثبتت قط فى العماد من قبل) وذلك بأن تشرح لها جغرافية فلسطين والطرق التى سلكها القديس بولس فى رحلاته المختلفة بآسيا الصغرى .

ولما أتى الأسقف تردول فعلا الى باترزبى وأقام خدمة لتثبيت العماد هناك (وهكذا تحققت رغبة كرستينا ، ونام الرجل فى باترزبى ، وأولمت له وليمة فاخرة ، ونادته مرات سيدى اللورد) لفت نظره كثيرا وجهها الحسن وسلوكها المتواضع وهو يضع يديه فوق رأسها . فسأل كرستينا عن أمرها ، فلما أجابته بأن الن من بين خادماتها ، بدا أن الأسقف سر كثيرا — فكذلك خيل اليها أو أرادت أن يخيل اليها — لأن فتاة جميلة جدا مثلها وجدت وظيفة فى بيت ممتاز كهذا البيت .

وكان ارنست قد ألف أن ينهض مبكرا خلال العطلة المدرسية حتى يعزف على البيانو قبل الافطار دون أن يزعج أباه وأمه — أو ربما على الأصح دون أن يزعجاه . وكان يجد الن عادة فى حجرة الاستقبال فى هذه الأثناء لتكنس الحجرة وتنفض عن أثاثها الغبار وهو يعزف ، وسرعان ما تعلق بها الغلام الذى كان على استعداد للتودد الى أكثر الناس . ولم يكن فى طبيعته بصفة عامة حساسية لمفاتن الجنس اللطيف ، بل انه قلّ أن أوجدته الظروف مع امرأة اللهم الاّ خالاته بنات ألبى ، وعمته أليثيا ، وأمه ، وأخته تشارلت ، ومسز چاى ؛ كذلك كان يضطر أحيانا الى رفع قبعته تحية لمس سكنر ، وكان يحس كأن الأرض تميد به وهو يفعل ، ولكن خجله ذهب عنه شيئا فشيئا مع الن ، وأصبح الاثنان صديقين حميمين .

ولعله كان من الخير لارنست ألاّ يستمر مكثه فى البيت فترات طويلة جدا ، ولكن محبته للفتاة حتى ذلك التاريخ كانت أفلاطونية خالصة على الرغم من قوتها وصدقها . فهو لم يكن بريئا وحسب ، ولكن بريئا الى درجة مؤسفة — بل أكاد أقول الى درجة آثمة . وكان ميله للفتاة مرجعه أن الن لم تكن تزجره قط ، ولكنها على الدوام باسمة الثغر رضية الطبع ؛ زد على ذلك أنها كانت تحب سماعه وهو يعزف ، فزاده هذا لذة فى العزف . والواقع أن استطاعته هذا العزف فى الصباح هى الميزة البارزة الوحيدة التى تميزت بها العطلة فى نظر ارنست ، وذلك لأنه ما كان يستطيع وهو فى المدرسة الوصول الى بيانو الاّ خلسة أو كالخلسة فى دكان مستر پيرسول بائع الآلات الموسيقية .

فلما عاد الى بيته فى فترة الصيف هذه هاله أن يجد صاحبته الأثيرة لديه تبدو شاحبة مريضة . لقد ذهب عنها كل مرحها القديم ، وذبلت الوردتان اللتان كانتا تتألقان على وجنتيها وبدت مشرفة على الانهيار .

وقالت انها شقية بسبب أمها التى كانت صحتها تسوء ، وانها تخشى أنها هى نفسها لن تعمر طويلا ، ولحظت كرستينا بالطبع هذا التغير فى حال الفتاة وقالت « لقد طالما لاحظت أن هؤلاء الفتيات النضرات المشرقات بالصحة والعافية يكنّ أول من يتداعين . انى أعطيتها عدة جرعات من مسحوق الكالوميل ومسحوق جيمس ، وأظن أنه يجب علىّ أن أعرضها علـى الدكتور مارتن فى أول زورة له هنا وان كانت هى لا ترغب فى هذا » . وقال ثيوبولد « حسنا جدا يا عزيزتى » وهكذا أرسلت كرستينا فى طلب الن حين حضر الدكتور مارتن . وسرعان ما اكتشف الطبيب ما كان على الأرجح واضحا جليا لكرستينا نفسها لو أنها استطاعت أن تتصور أن علّة كهذه قد تصيب خادما تعيش تحت سقف واحد مع ثيوبولد ومعها — وهما اللذان كانت طهارة حياتهما الزوجية خليقة بأن تصون كل من يتصل بهما عن قريب من غير المتزوجين من أى شائبة شر أو رذيلة .

فلما عُرف أنه لن تنقضى ثلاثة أشهر أو أربعة حتى تصبح الن أما ، كان من الجائز أن تجد كرستينا نفسها مدفوعة بطبيعتها الفطرية الى معالجة الأمر بما تستطيع من رفق وتسامح ، لولا أن أفزعها الخوف من أن تفسّر أية رحمة بالفتـاة من جانبها وجانب ثيوبولد بأنها تساهل ولو جـزئى فى كبيرة كهذه ، وهنا اندفعت الى الاعتقاد بأن الشىء الوحيد الذى يجب عليها عمله هو أن تؤدى لالن أجرها وتطردها لفورها بقضها وقضيضها من البيت الذى اختصته الطهارة بأن يكون مأوى لها ، ولما فكرت فى العدوى المخيفة التى ينشرها استمرار وجود الن فى الدار ولو أسبوعا آخر لم تستطع أن تتردد فى قرارها .

ثم أتى هذا السؤال — ويا له من فكرة رهيبة ! — فمن يكون الشريك فى جريمة الن ؟ أهو ابنها وحبيبها ارنست ؟ أيمكن أن يكون هو ؟ ان

ارنست يشب عن الطوق الآن ، وهى تستطيع أن تغتفر لأية شابة هيامها به ؛ أما هو فهى واثقة من أنه ليس بأقل من أى فتى فى عمره تقديرا لمفاتن امرأة شابة جميلة . وما كان هذا ليهمها ما دام هو بريئا ، ولكن آه لو كان مذنبا !

ولم تستطع أن تطيق التفكير فى الأمر ، ومع ذلك فليس الاحجام عن مواجهة أمر كهذا الا جبنا — لقد كان رجاؤها فى الرب ، وكانت على استعداد أن تحتمل فى سرور ، وتصبر على أى عذاب قد يرى الرب أن يبتليها به . ووضح لها شىء واحد على الأقل ، وهو أن الطفل المرتقب اما غلام واما فتاة ، وليس أقل من هذا وضوحا أن الطفل اذا كان غلاما سيشبه ثيوبولد ، واذا كان فتاة فسيشبهها هى . فالشبه فى الجسم أو العقل يقفز عادة ويتخطى جيلا . ان ذنب الأبوين يجب ألا يشارك فيه نسل الجريمة البرىء — كلا كلا — وطفل كهذا سيصبح .. ثم انطلقت على الفور تهيم فى حلم من أحلام يقظتها .

وكان الطفل على وشك أن يترسم رئيسا لأساقفة كنتربرى حين دخل ثيوبولد قادما من زيارة فى الأبرشية فأخبرته بهذا الكشف المشين .

ولم تذكر كرستينا شيئا عن ارنست ، وأعتقد أنها كانت أقرب الى الغضب حين ألقى اللوم على كاهل غيره . على أنها سرّى عنها بسهولة ، فارتدت الى فكرة مزدوجة ، أولا أن ابنها طاهر نقى ، ثانيا أنها واثقة أنه ما كان يمكن أن يكون كذلك لولا معتقداته الدينية التى صدّته عن الشر — كما ينتظر بالطبع أن تصدّه .

ووافق ثيوبولد على أنه يجب المبادرة بأداء أجر الن وفصلها . وهكذا كان ، فلم تنقض ساعتان على دخول الدكتور مارتن البيت حتى كانت الن جالسة الى جوار الحوذى چون ووجهها مدثر حتى لا يراها أحد وهى تبكى بكاء مرا فى العربة المنطلقة بها الى المحطة .

الفصل التاسع والثلاثون

كان ارنست خارج الدار طوال الصباح ، ولكنه دخل الفناء من الأجمة التى خلف البيت فى اللحظة التى كانت فيها حقائب الن توضع فى العربة ، وخيل اليه أن المرأة التى يراها تركب العربة هى الن ، ولكن لما كان وجهها مخفيا فى منديلها فانه لم يستطع أن يتبين صاحبته فى وضـــوح ، واستبعد فكرته هذه لأنها غير محتملة .

وذهب الى نافذة المطبخ الخلفى حيث كانت الطاهية تقف وهى تقشر البطاطس لوجبة الغداء ، فوجدها تبكى بكاء مرا . وابتأس ارنست كثيرا لبكائها ، لأنه كان يحب الطاهية ، وأراد بالطبع أن يعرف حقيقة الأمر كله ، ومن تلك التى انطلقت لتوها فى العربة ، ولم ؟ وأخبرته الطاهية أنها الن ، ولكنها قالت له انه ما من قوة على الأرض تستطيع أن تحملها على أن تتفوه بسبب ذهابها ؛ على أنه حين صدّق ارنست كلامها حرفيا وكفّ عن أسئلته ، قصت عليه القصة كلها بعد أن انتزعت منه الأيمان المغلظة بأنه لن يفضى بالسر .

أما ارنست فقد اقتضاه ادراك حقائق الحالة عدة دقائق ، ولكنه حين فهمها اتكأ على مضخة الماء القريبة من نافورة المطبخ الخلفى ومزج دموعه بدموع الطاهية .

ثم بدأ دمه يغلى فى عروقه . انه لم يفطن الى أن أباه وأمه كانا مع ذلك قادرين على أن يصنعا كثيرا غير ما صنعاه فعلا . ربما كان يصح أن يكونا أقل تسرعا فيما فعلاه بالفتاة ، وأن يحاولا تهدئة الأمر . ولكن ما كان هذا

ليتيسّر ، ثم انه ما كان ليصلح الأمر صلاحا جوهريا — فما زالت الحقيقة المرة أن الفتاة اذا أتت أمورا معينة فلا مفر من أن تتحمل المخاطر التى تترتب عليها ، ولا عبرة بكونها صغيرة وجميلة ، ولا بالاغراء الذى خضعت له . تلك سنّة الخلق فى هذه الدنيا ، ولم يوجد الى الآن مندوحة عنها .

ولم يستطع ارنست أن يتبين من الأمر غير ما فهمه من الطاهية ، وهو أن صاحبته المفضلة الن طردت من البيت وهى لا تحمل فى جيبها أكثر من ثلاثة جنيهات لتمضى الى مكان لا تعلمه ، ولتؤدى من الأعمال مالا تعرفه ، وأنها قالت انها ستشنق أو تغرق نفسها ، وهو تهـديد صـدقه الفتى تصديقا أعمى .

وبادر الى عدّ نقوده بسرعة خاطر تفوق كثيرا مما أبدى الى الآن ، فوجد أن فى جيبه شلنين وثلاثة بنسات ؛ وكانت معه مديته التى قد تباع بشلن ، والساعة الفضية التى أعطته اياها عمته أليثيا قبيل وفاتها . وكانت العربة قد قطعت الآن ربع ساعة كاملا . ولابد أنها بعدت عنه مسافة طيبة ، ولكنه اعتزم أن يحاول اللحاق بها جهد استطاعته ، وفى الطريق مسالك مختصرة ربما تتيح له فرصة اللحاق بالعربة . فانطلق لتوه ، واستطاع من قمة التل القائم وراء حظيرة الدار أن يرى العربة وهى تبدو ضئيلة على طريق يظهر أمامه على نحو ميل ونصف .

وكان من الألعاب المحببة الى تلاميذ رفبرو لعبة درّبوا عليها يسمونها « كلاب الصيد » — وهى تشتهر فى غيرها من المدارس « بالأرنب وكلاب الصيد » ، وكان الأرنب فى رفبرو ولدين يسميان بالثعلبين ، والأولاد شديدو التدقيق فى صحة الأسماء اذا اتصل الأمر بألعابهم ، بحيث لا أجرؤ على أن أقول ان تلاميذ رفبرو كانوا يلعبون لعبة «الأرنب وكلاب الصيد»؛ انما هم « كلاب الصيد » فقط . ولم يهزم ارنست فى هذه اللعبة افتقاره

الى قوة العضل ؛ انه لم يتدافع فيها بالمناكب مع صبيان أشد منه بنية وان لم يكونوا أكبر سنا ولا أطول قامة ؛ واذا كان الأمر آمر جَلَد لا أكثر ؛ فهو لا يقل عن أى صبى آخر ، لذلك حين أكره على الكف عن النجارة عكف بالطبع على لعبة « كلاب الصيد » باعتبارها تسليته المفضلة . وقويت رئتاه بفضل هذه الرياضة ، واذ لم يكن الجرى فى الخلاء مسافة ستة أميال أو سبعة بالأمر الذى يشق عليه ، فانه لم ييأس من اللحاق بالعربة اذا اتخذ الطرق المختصرة ، أو على أسوأ الفروض من اللحاق بالن فى المحطة قبل أن يغادرها القطار . لذلك راح يجرى ، ويجرى ، ويجرى ، حتى نفدت طاقته الأولى ، ثم استأنف الجرى واستطاع أن يتنفس أيسر من ذى قبل . انه لم يجر قط فى لعبة « كلاب الصيد » بمثل هذه السرعة وبمثل هذه الوقفات القليلة التى تخللت عدوه الآن ، ولكنه برغم جهوده كلها ، وبرغم الطرق المختصرة التى سلكها لم يستطع اللحاق بالعربة ، ولعله ما كان ليلحق بها لولا أن جون تلفت برأسه مصادفة الى الخلف فرآه يعدو ويشير للعربة أن تقف وهو على بعد ربع ميل منها . وكان قد قطع الآن خمسة أميـال من البيت ، وأوشك أن يهلك اعياء . كان وجهه قانى الحمرة من الاعياء ؛ واذ كان معفرا ، وسراويله وأكمامه قصيرة بعض الشىء ، فقد بدا فى صورة يرثى لها وهو يدفع الى الن ساعته ومديته والقليل من المال الذى يملك . وكان الشىء الوحيد الذى توسل اليها أن تفعله هو ألا تأتى هذه الأشياء الرهيبة التى هددت بها — اكراما لخاطره ان لم يكن لأى سبب آخر .

أما الن فقد أبت أول الأمر أن تأخذ منه شيئا ، ولكن الحوذى — وكان من أهل الشمال — انضم الى ارنست فقال متلطفا « خـذى ، خـذى أيتها الصبية ، خذى ما تستطيعين الحصول عليه ما دمت قادرة ؛ أما السيد ارنست هذا — فقد جرى طويلا حقا ؛ لذلك دعيه يمنحك ما يريد » .

وفعلت الن ما قيل لها ، وافترق الاثنان بعد أن ذرفا دموعا كثيرة ، وكانت آخر كلمات الفتاة أنها لن تنساه أبدا ، وأنهما سوف يلتقيان ثانية ، فهي واثقة من ذلك ، وعندها سترد له هذا الدين .

عند ذلك دخل ارنست حقلا على جانب الطريق وارتمى على العشب ، وانتظر تحت ظل سياج من النبات الى أن تمر به العربة فى عودتها من المحطة فتلتقطه لأنه كان منهوك القوى . وعاودته الأفكار التى خطرت له فى شيء من القوة من قبل وقد ازدادت قوّتها ، ورأى أنه زج بنفسه فى ورطة جديدة — أو على الأصح فى عدة ورطات .

فهو أولا سيتأخر عن موعد الغـداء ، وكان هذا من الذنوب التى لا يغتفرها ثيوبولد . كذلك كان عليه أن يقول أين كان ، وهو فى خطر من أن يكشف أمره ان لم يقل الحق . وليس هذا كل ما فى الأمر ، ولكن لا مفر من أن ينكشف ضياع الساعة الجميلة التى أعطته اياها عمته العزيزة ان آجلا أو عاجلا — ترى ما الذى صنعه بها ، أو كيف ضيّعها ؟ ان القارىء يعرف جيدا ما كان ينبغى لهأن يفعل . كان يجب أن يمضى رأسا الى البيت فاذا سئل أجاب « كنت أجرى خلف العربة لألحق بخادمتنا الن التى أحبها حبا جما ، وقد أعطيتها ساعتى ومديتى وكل مصروف جيبى ، ولم يعد معى الآن مصروف على الاطلاق ، والغالب أننى سأطلب اليك مصروفا آخر قبل الموعد المقرر ، وعليك أيضا أن تشترى لى ساعة جديدة ومدية » . ولكن تصور مبلغ الفزع الذى كان يسببه نبأ كهذا ! تصور ثيوبولد الثائر وقد تجهم وجهه وقدحت عيناه الشرر ! انه سيصبح « أيها الوغد الصغير السافل ، أتعنى أن تسب والديك بعملك هذا الذى يعنى أنهما أساءا معاملة فتاة دنّس فجورها بيتهما ؟ » .

أو لعله يقابل الأمر بلذعة من لذعات الهدوء الساخر التى كان يعتقد أنه أتقنها غاية الاتقان ، فيقول :

« حسنا جدا يا ارنست ، حسنا جدا : لن أقول شيئا ؛ تستطيع أن تفعل ما تشاء ؛ انك لم تبلغ بعد الحادية والعشرين ، ولكن رجائي اليك أن تتصرف كأنك سيد نفسك ؛ فلا شك أن عمتك المسكينة أعطتك الساعة لكي تضيّعها على أول شخص حقير تلقاه ؛ على أنني أستطيع الآن أن أن أدرك لِمَ لم تترك لك عمتك مالها ؛ ولا بأس بأن يأخذ والدك بالعماد هذا المال على أية حال كما يأخذه أمثال أولئك الذين كنت تغدقه عليهم لو ملكته يدك » .

ثم تنفجر أمه باكية ضارعة اليه أن يتوب ويسعى فى طلب الأشياء التى تجلب له السلام ما دام هناك فى الوقت فسحة ، فيركع على ركبتيه لثيوبولد ويؤكد له محبته الدائمة له لأنه أكثر الآباء فى هذه الدنيا عطفا وحنانا . كان من الممكن لارنست أن يفعل هذا كله كما يفعله أبواه ؛ على أنه حين رقد على العشب ، ظلت عبارات — كان توارد بعضها عليه أكيدا كغروب الشمس — تدور فى رأسه بسرعة ، حتى سفّهت فكرة قوله الحق لأنها ليست الا سخافة — ان الحق قد يكون بطوليا ، ولكنه لا يدخل فى نطاق سياسة البيت العملية .

واذ استقر رأيه على الكذب سأل نفسه أى كذبة يخترع ؟ أيقول أنه سُرق ؟ لقد أوتى من الخيال قدرا بصّره بأنه لم يؤت من الخيال ما يكفى للمضى به الى نهاية الشوط فى هذه الكذبة . ومع أنه كان حدثا بعد فقد أنبأته غريزته أن أنجح الكذّابين هو ذلك الذى يجعل أقل قدر من الكذب يمضى أطول شوط — فيقتصد فى كذبته قصدا شديدا يمنعه من الاسراف فيها اذا أمكن توفيرها . فأيسر سبيل اذن هو القول بأنه ضيّع الساعة ، وأنه تأخر عن الغداء لأنه كان يبحث عنها . لقد خرج يتمشى فى نزهة طويلة — واختار الطريق المخترق للحقول الذى اتخذه فعلا — واذ كان الجو

شديد القيظ فقد خلع سترته وصدرته ؛ وبينما كان يحملهما على ذراعه سقطت منهما ساعته ونقوده ومديته ، واذ أوشك على بلوغ الدار اكتشف ضياع ما ضاع منه ، فجرى عائدا بأسرع ما يستطيع وهو ينظر على طول الطريق الذى سار فيه الى أن يئس فى النهاية من العثور على هذه الأشياء ؛ واذ رأى العربة عائدة من المحطة أوقفها لتلتقطه وتوصله الى البيت .

وكانت هذه الكذبة تغطى كل شىء ، وتعلل الجرى وغيره ؛ ذلك أن وجهه كان لا يزال يدل على أنه لابد قد جرى جريا مجهدا ؛ وكان السؤال الوحيد هو ، هل رآه قرب البيت أحد غير الخدم قبل انصراف الن بساعتين أو نحوهما ، وقد أسعده أن يعتقد أن أحـدا لم يره ؛ لأنه كان خارج البيت الا فى الفترة التى تحدث فيها مع الطاهية ، وهو حديث لم يستغرق سوى دقائق . وكان أبوه يجول خارجا فى الأبرشية ؛ أما أمه فلا ريب أنها لم تصادفه ، وأما أخوه وأخته فكانا أيضا خارج الدار مع المربيـة . وهو على يقين أنه يستطيع الاعتماد على الطاهية وعـلى الخـدم الآخرين — فالحوذى كفيل بهذا ؛ ومن ثم فقد رأى هو والحوذى على الجملة أن القصة كما اقترحها ارنست تحقق على التقريب جميع مطالب الحالة .

الفصل الأربعون

سمع ارنست ، وقد بلغ الدار وتسلل من الباب الخلفى ، صوت أبيه يعلو بأكثر نبراته غضبا ويسأل هل عاد السيد ارنست . وأحس كما لابد أن چاك أحس فى قصة « چاك وقصلة الفول » حين سمع من الفرن الذى كان مختبئا فيها صوت الغول يسأل زوجته كم من صغار الأطفال هيأت لعشائه . على أنه تذرع بكثير من الشجاعة ، وبقدر من الحكمة لا يقل عن هذه الشجاعة ، فواجه الأمر الواقع ، وأعلن أنه حضر لتوه بعد أن لقى كارثة رهيبة . ثم أخذ يقص قصته شيئا فشيئا ، ومع أن ثيوبولد ثار قليلا « لحماقته واهماله اللذين لا يصدقهما انسان » فقد خرج ارنست من المأزق خيرا مما توقع . صحيح أن ثيوبولد وكرستينا كانا أول الأمر ميالين لربط غيابه عن الغداء بطرد الن ، ولكن حين وجدا أن من الواضح ، كما قال ثيوبولد — فثيوبولد كان يرى الوضوح فى كل شىء — ان ارنست لم يكن فى البيت طوال الصباح ، واذن لم يكن ممكنا أن يعرف شيئا مما حدث ، بُرِّىء هذه المرة لهذا السبب ، وخرج دون شائبة تلوث خلقه . ولعل ثيوبولد كان وقتها رائق المزاج ؛ ولعله تبين من صحيفة ذلك الصباح أن أوراقه المالية فى صعود ؛ لعل هذا أو غيره من عشرات الأشياء هو السبب ، ولكن أيا كان هذا السبب ، فانه لم يوبخ ارنست بالقدر الذى توقعه ، واذ رأى ثيوبولد الفتى بادى الاعياء ، وظنه محزونا جدا لضياع ساعته ، فقد أمر له فعلا بكوب من النبيذ بعد الغداء ، والغريب أن الكوب لم يخنقه ، ولكنه جعله يرى الأشياء بتفاؤل وبشر أكثر مما ألف أن يراها .

وحين تلا صلواته تلك الليلة أدخل فيها فقرات مؤداها الرجاء

بألاّ يكشف أمره ، وبأن تسير الأمور مع الن سيرا طيبا ، ولكنه كان قلقا مبلبل الخاطر ، وقد أشار له ضميره المذنب على عشرات من مواطن الضعف فى قصته ، ومن المحتمل أن ينفذ الكشف عن سره من أى موطن منها . وكان فى اليوم التـالى وفى الأيام الكثيرة التى تلته يجرى هاربا من مطارد لا وجود له ، ويرتعـد كلما سمع صـوت أبيه يناديه . لقـد كان عنده من دواعى القلق ما لا يتسع لمزيد ، وعلى الرغم من كل جهوده فى أن يبدو مبتهجا فقد كان واضحا حتى لأمه أن شيئا ينوش عقله . هنالك عادت اليها فكرتها الأولى ، وهى أن ولّدها قد يكون رغم هذا كله غير برىء فى أمر الن — وكان فى هذا من التشويق لها ما أشعرها بأنها لابد مقتربة من الحقيقة على قدر ما تستطيع .

وقالت له يوما بأرق نبراتها « تعال هنا يا ولدى المسكين ، الذابل العينين ، الشاحب الوجه ، تعال واجلس بجانبى فنتحدث حديثا خاصـا وهادئا ، أليس كذلك ؟ » وذهب الفتى آليا الى الأريكة . وكانت أمـه كلما رغبت فى أن تتحدث اليه هذا الحديث الذى تسميه بالخاص تختار هذه الأريكة لأنها أصلح ميدان تبدأ فيه حملتها عليه . وكل الأمهـات يفعلن هذا ؛ فالأريكة عندهن كحجرة الطعام عند الآباء . وكانت الأريكة فى حالتنا هذه غاية فى الصلاحية لهدف كرستينا الاستراتيجى ، لأنها أريكة عتيقة الطراز ذات ظهر عال ، وذات حشيّة ووسائد طويلة ومربعة ، فاذا أمكن حبس الغلام بأمان فى ركن من أركانها العميقة أصبحت مثل كرسى المرضى فى عيادة طبيب الأسنان ، وبات من العسير عليه أن يخرج منها ثانية . هنالك تستطيع أن تظفـر به خـيرا مما تظفر فى أى مكان آخـر لكى تستدرجه ان كان هذا مرغوبا فيه ، أو اذا رأت أن من الأنسب أن تبكى فانها تستطيع أن تدفن رأسها فى وسادة الأريكة وتطلق العنان لنوبة من

الحزن والبكاء قلما يخيب فعلها . ولم تكن تقوم بمناورة من مناوراتها المحببة اليها بمثل هذه السهولة وهى جالسة فى مقعدها المألوف — وهو الكرسى ذو المسندين القائم الى يمين المدفأة — ، وقد أيقن ارنست من نبرات أمه أن هذا الحديث سيكون حديث أريكة ، بحيث اتخذ مجلسه كأنه الحمل لحظة أن بدأت تتكلم وقبل أن تصل هى نفسها الى الأريكة .

وبدأت أمه تقول وقد أخذت يده بين يديها « يا بنى العزيز ، عدنى ألا تخاف أبدا لا من أبيك العزيز ولا منى ؛ عدنى بهذا يا عزيزى ان كنت تحبنى ، عدنى به » ثم قبلته مرة ومرة وربتت على شعره . ولكنها كانت ما تزال ممسكة بيدها الأخرى يده ؛ لقد ظفرت به ، وهى مصممة على الاحتفاظ به .

وأرخى الصبى رأسه ووعد ، فما الذى يستطيعه الا أن يعد ؟

« انك تعلم أيها العزيز المحبوب ارنست أنه ليس هناك أحد يحبك كما يحبك أبوك وأنا ؛ ولا أحد يسهر مثلنا بعناية على مصالحك أو يهتم مثلنا بأن يشاركك فى كل مسراتك ومتاعبك الصغيرة ؛ ولكن يحزننى يا ولدى الصغير أن يخطر لى أحيانا أنك لا تشعر بما ينبغى أن تشعر به من محبة كاملة لنا وثقة تامة فينا . وأنت تعلم يا حبيبى أنه من بواعث سرورنا كما أنه من واجبنا أن نرعى نمو طبيعتك الخلقية والروحية ، ولكن وا أسفاه ! فأنت تأبى أن تطلعنا على طبيعتك الخلقية والروحية ، وتأتى علينا أوقات نكاد نميل فيها الى الشك فى وجود هذه الطبيعة الخلقية والروحية عندك . اننا يا عزيزى لا نعلم عن حياتك الباطنة شيئا أكثر من هذه النتف التى نستطيع جمعها بمشقة بالرغم منك ، من الأشياء الصغيرة التى تفلت منك قبل أن تعرف أنك فهت بها » .

وجفل الغلام لما سمع وأحس فى جسمه كله الحرارة وعدم الارتياح .

انه كان يعلم جيدا أن عليه أن يكون شديد الحذر ، ولكن مهما فعل ، فان نسيانه لدوره الذى لعبه كان بين الحين والحين يخذله ويسلمه الى شىء من عدم الحيطة . ورأت أمه أنه جفل ، ولذّتها هذه الخمشة التى خمشته بها . ولو أحست ثقة بالنصر أقل مما أحسّت لنزلت عن هذه اللذة ، لذة من يمس عيون القوقع التى فى أطراف قرونه ليستمتع برؤيته يسحبها ثانية — ولكنها كانت تعلم أنها اذا ظفرت باجلاسه فى مكانه من الأريكة وأمسكت بيده ، أصبح العدو تقريبا تحت رحمتها المطلقة ، وكان فى استطاعتها أن تفعل به ما تشاء .

ومضت تقول « ان أباك لا يشعر أنك تحبه المحبة الكاملة المطلقة التى تحملك على ألاّ تخفى شيئا وأن تبوح له بكل شىء فى غير تحفظ ولا خوف ، لأنه أعظم أصدقائك الأرضيين محبة لك بعد أبيك السماوى فقط . ونحن نعلم أن المحبة الكاملة تطرد الخوف خارجا : ان أباك يحبك محبة كاملة يا عزيزى ، ولكنه لا يشعر أنك تحبه محبة كاملة جزاء محبته . فاذا كنت تخافه فلأنك لا تحبه كما يستحق ، وأنا أعلم أنه يحز فى نفسه حزا شديدا أحيانا أن يفكر فى أنه يستحق منك عطفا أعمق وأصدق مما تبدى نحوه . فيا ارنست ، يا ارنست ، لا تحزن أبا له مثل هـذه الطيبة ونبل النفس بسلوك لا أستطيع أن أنعته الا بالعقوق » .

ولم يكن ارنست يطيق قط أن تحدثه أمه بهذا الأسلوب : ذلك أنه كان لا يزال يعتقد أنها تحبه ، وأنه مغرم بها ، وأن له فيها صديقا — الى حد ما . ولكن جعبة أمه بدأت تفرغ ، لقد لعبت عليه لعبة الثقة العائلية هذه مرات لا حصر لها . وكم من مرة استلّت منه كل ما أرادت أن تعرفه ، ثم أوقعته بعد ذلك فى أشد المآزق حرجا باطلاعها ثيوبولد على سرّه كله . وطالما احتج ارنست غير مرة فى هذه المناسبات ، وأوضح لأمه أن افضاءة

بأسراره لها كان نكبة عليه ، ولكن كرستينا كانت دائما تجادله ، وتريه بأجلى بيان أنها محقة فى كل حالة ، وأنه لا حق له فى الشكوى . كان ضميرها فى العادة هو الذى يمنعها من السكوت . وحكم الضمير لا نقض فيه ولا ابرام ، لأنه لابد لنا جميعا من آن نصدع بما تمليه علينا ضمائرنا . وكان مؤدى حجتها أنك اذا لم تصغ الى صوت ضميرك فانه سرعان ما يكفّ عن الكلام . قال ارنست لأحد رفاقه فى رفبرو « ان ضمير أمى لم يكفّ عن الكلام . انه يثرثر على الدوام » .

واذا تحدث صبى بمثل هذه الاستهانة عن ضمير أمه فقد انتهى كل شىء بينه وبينها تقريبا . كان ارنست بحكم العادة ، وبحكم الأريكة ، وبحكم ارتداد الأفكار المرتبطة ، ما يزال يتأثر بصوت حورية البحر فيحن الى الاتجاه بسفينته نحوها والارتماء بين أحضانها ، ولكن هذا لم يعد يجدى ؛ فقد ارتدت الى عقله أيضا أفكار ذات ارتباطات أخرى ، وكانت العظام الشائهة التى خلفتها الاعترافات الصريعة الكثيرة تنتشر مبيضّة حول أطراف ثوب أمه بحيث تمنعه بتاتا من الوثوق بها بعد ذلك ، ومن ثم فقد أرخى رأسه وبانت على نظراته البلاهة ، ولكنه كتم سره فى صدره .

ومضت أمه تقول « يبدو لى يا حبيبى اما أننى مخطئة اذ ليس هناك همّ ينوش عقلك ، واما أنك لا تريد أن تتخفف من همك فتطلعنى عليه : ولكن بحقك يا ارنست أنبئنى بهذا على الأقل ؛ أليس هناك شىء تندم عليه ، شىء يجعلك شقيا فيما يتصل بتلك الفتاة البائسة الن ؟ »

وساخ قلب ارنست فى باطنه . وقال لنفسه « لقد حانت منيتى الآن » ولم تخطر بباله أدنى فكرة عن المعنى الذى رمت اليه أمه ، فظن أنها ترتاب فى أمر الساعة ، ولكنه لم يتزعزع .

ولست أحسبه أكثر جبنا من أصحابه ، انما حقيقة الأمر أنه

لم يعرف أن جميع الناس المعقولين يجبنون اذا بعدوا عن ميدانهم المألوف ، أو اذا ظنوا أنهم سيلقون عنتا وشدة . وأعتقد أنه لو عرفت الحقيقة لاتضح أن الملاك ميخائيل الباسل نفسه قد حاول جاهدا أن يتجنب معركته المشهورة مع التنّين ؛ فتظاهر بأنه لا يرى عدوان التنين على اختلاف ضروبه ؛ وأغمض عينيه عن افتراسه مئات لا أعرف عددها من الرجال والنساء والأطفال الذين وعدأن يحميهم ؛ وسمح بأن يُسَبّ علنا مرارا وتكرارا دون أن ينكر ذلك ؛ وفى النهاية ، حين لم يعد — حتى فى طاقة ملاك — أن يحتمل أكثر من ذلك ، تردد وداور وقتا غير قليل قبل أن يحدد اليوم والساعة للقاء التنين . فأما المعركة الفعلية ذاتها فكانت أشبه بمناورة مسز ألبى مع الشاب الذى تزوج فى النهاية ابنتها الكبرى ، ولم يمض قليل حتى كان التنين صريعا على الأرض ، والملاك نفسه حيا لم تلحقه اصابات تذكر .

وقال ارنست فى قلق وفى شىء من الهرولة « لست أدرى ماذا تقصدين يا أماه » . وعزت أمه لهجته الى سخطه لتشككها فيه ؛ واذ كانت هى نفسها تشعر ببعض الخوف فانها استدارت وولّت الفرار بأسرع ما استطاع لسانها أن يحملها .

قالت « أوه ! أوه ! أرى من نبراتك أنك برىء ! أوه ! أوه ! ما أعظم شكرى لأبى السماوى على هذا ؛ أسأله من أجل ابنه الحبيب أن يحفظك نقيا طاهر الذيل أبدا . ان أباك يا عزيزى » (وهنا تكلمت فى عجلة ولكنها نظرت اليه نظرة فاحصة) « ان أباك كان نقيا كالملاك الطاهر حين جاء يخطبنى ، فكن كما كان منكرا لذاتك أبدا ، صادقا حقا فى القول والفعل ، غير ناس أبدا ابن من أنت وحفيد من أنت ، ولا الاسم الذى دعوناك به ، ولا النهر المقدس الذى غسلت فى مياهه خطاياك بدم المسيح وبركته » الخ ..

ولكن ارنست جعل حديثها — لا أقول قصيرا ، بل أقصر كثيرا مما كان يمكن أن يكون لو أنها مضت فيه الى النهاية ، وذلك بانتزاعه نفسه من حضن أمه والافلات منها ، واذ دنا من المطبخ (حيث كان يشعر باطمئنان أكثر) ، سمع أباه ينادى أمه ، فانتفض من جديد ضميره المذنب صائحا « لقد كشف الآن كل شيء وسيخبر أمي — انى هالك هذه المرة » ولكن لم يكن فى الأمر شيء ؛ انما كان أبوه يريد مفتاح غرفة المؤونة . فانسلّ ارنست خارج البيت الى أجمة خلف الحظيرة ، وسرّى عن نفسه بتدخين قصبة من التبغ . فهنا فى هذه الأجمة ، وشمس الصيف تغمر الأرض من خلال الشجر ، وفى يد ارنست كتاب وفى فمه قصبة تبغه ، كان ينسى همومه ويستمتع بفترة من فترات الراحة التى لولاها لكانت حياته فى اعتقادى عبئا لا يطاق . .

وبالطبع حمل الأب ارنست على أن يبحث عن أشيائه المفقودة ، ووعده بجائزة اذا وجدها ، ولكن بدا أن ارنست ابتعد ، غير مرة ، عن الطريق المطروقة ظنا منه أنه سيجد عش قبّرة ، والبحث عن ساعة وكيس نقود عند طيور باترزبى كان أشبه بالبحث عن ابرة فى كومة من القش : أضف الى ذلك أن هذه الأشياء ربما وجدها متشرد وأخذها ، أو وجدها عقعق من العقاعق التى كانت كثيرة الانتشار فى هـذه المنطقة . وعـلى ذلك فقد كف ارنست عن البحث بعد أسبوع أو عشرة أيام ، وكان على الأسرة أن تواجه حقيقة غير سارة ، هى أن ارنست يجب أن تشترى له ساعة أخرى ، ومدية أخرى ، ويجب أن يمنح مصروفا صغيرا آخر .

على أنه كان حقا وعدلا أن يدفع ارنست نصف ثمن الساعة ؛ وقد يُيسّر له هذا بخصم الثمن من مصروفه على أقساط نصف سنوية تمتد سنتين أو ثلاثا . اذن ففى مصلحة ارنست ، كما هو فى مصلحة أبيه وأمه ،

أن يعثر على ساعة تكلف أقل ما يمكن من ثمن . ومن ثم فقد استقر الرأى على شراء ساعة مستعملة . على أن شيئا من الأمر لن يذكر لارنست ، ولكن الساعة ستشترى وتوضع على صحنه كمفاجأة قبل أن تنتهى العطلة المدرسية ، وتقرر أن يذهب ثيوبولد الى عاصمة الاقليم بعد أيام فيستطيع عندها العثور على ساعة مستعملة تحقق هذا الغرض . فلما جاء الوقت المناسب ذهب ثيوبولد مزودا بقائمة طويلة من المطالب المنزلية الواجب أداؤها ، ومن بينها شراء ساعة لارنست .

تلك كما قلت كانت أويقات سعيدة ، حين يغيب ثيوبولد عن الدار غيابا لا ريب فيه يوما كاملا ؛ وكان الفتى قد بدأ يشعر بهدوء البال والطمأنينة كأن الله قد استجاب صلاته ولن يكشف أمره . وكان اليوم على الجملة يوما شديد الهدوء . ولكن وا أسفاه ! لم يكتب له أن يختتم كما بدأ ؛ فان الجو القلّب الذى كان الفتى يعيش فيه لم يكن أقرب الى العاصفة منه عقب فترة من الصفاء والاشراق كهذه الفترة ، فلما عاد ثيوبولد لم يحتج ارنست الا نظرة واحدة لوجه أبيه ليرى أن العاصفة وشيكة الهبوب .

ورأت كرستينا أن أمرا سيئا جدا قد وقع ، وخشيت أن يكون ثيوبولد قد سمع بأنباء خسارة مالية جسيمة ؛ على أنه لم يبح بالأمر فور وصوله ، بل قرع الجرس وقال للخادم « أخبر السيد ارنست أننى أريد التحدث اليه فى حجرة الطعام » .

الفصل الحادى والأربعون

قبل أن يبلغ ارنست حجرة الطعام ببرهة طويلة كانت نفسه المتوجسة قد أنبأته بأن خطيئته فضحته ، فأى رب أسرة يرسل فى طلب أحد أفرادها فى حجرة الطعام اذا كانت نواياه شريفة ؟

فلما وصل الى الحجرة وجدها خالية — لأن أباه كان قد دعى على غير انتظار الى مهمة خاصة بالأبرشية تستغرق بضع دقائق — فترك نهبا لقلق أشبه بما يحسه الناس اذا أدخلوا الى حجرة انتظار طبيب الأسنان .

كان يبغض حجرة الطعام هذه أشد من أى حجرة أخرى فى البيت . فهنا كان عليه أن يحفظ دروس اللاتينية واليونانية على يد أبيه . وكان لها رائحة نوع خاص من الطلاء أو الدهان الذى يستعمل فى صقل الأثاث . وليس فى استطاعتى حتى اليوم — لا أنا ولا ارنست — أن نقرب من رائحة هذا النوع من الطلاء دون أن تخذلنا شجاعتنا .

وفوق رف المدفأة كانت هناك صورة أصيلة بيد فنان قديم ، وهى احدى الصور الأصيلة القليلة التى اشتراها مستر چورچ پونتفكس من ايطاليا . والمفروض أنها من أعمال الفنان سلڤاتور روزا ، وقد اشتراها الرجل بثمن بخس ، وكان موضوع الصورة ايليا ، أو أليشع ، (لست أدرى أيهما) تطعمه الغربان فى الصحراء . كانت الغربان تبدو فى الركن الأيمن بأعلى الصورة وقد حملت الخبز واللحم فى مناقيرها ومخالبها ، والنبى المذكور فى الركن الأيسر السفلى يتطلع فوقه فى شوق نحوها . وحين كان ارنست صبيا صغيرا جدا كان من بواعث أسفه دائما أن الطعام

الذى تحمله الغربان لم يصل قط فعلا الى النبى ؛ ولم يكن يدرك الحدود المفروضة على فن المصور ، فأراد أن يصل بين اللحم والنبى وصلا مباشرا . وذات يوم تسلق الى الصورة مستعينا بسلم ترك فى الحجرة ، وخط على الصورة بقطعة من الخبز والزبد خطا من الدسم يمتد من الغربان الى فم ايليا ، وشعر بعد ذلك أنه أكثر راحة من ذى قبل .

كان عقل ارنست يسرح الى نزوة صباه هذه حين سمع يد أبيه على الباب ، وبعد لحظة دخل ثيوبولد .

وقال فى لهجة مرتجلة أقرب الى المرح « هناك أمر صغير أود أن تفسره لى ، فلست أشك أنك مستطيع تفسيره فى يسر كثير » وأخذ قلب ارنست يخفق كأنه المطرقة بين أضلاعه ، واشتد خفقانه ، ولكن لهجة أبيه كانت ألطف كثيرا مما ألف ، فبدأ يظن هذا نذيرا وهميا آخر لا أكثر .

« لقد بدا لأمك ولى أن نزودك بساعة ثانية قبل عودتك الى المدرسة »
(وقال ارنست لنفسه وقد أحس الفرج « أوه ، هذا كل ما فى الأمر »)
« وقد كنت اليوم أبحث لك عن ساعة مستعملة تفى بكل الأغراض طوال وجودك فى المدرسة » قال ثيوبولد هذا وكأن للساعات ستة أغراض غير بيانها للوقت ، ولكنه ما كان يستطيع أن يفتح فمه دون أن يستعمل عبارة أو أخرى من عباراته الجوفاء ، وكانت احداها « الوفاء بكل الأغراض » .

وكان ارنست قد بدأ ينطلق فمه بعبارات الشكر العادية حين قال أبوه « انك تقاطعنى » ، وخفق قلب ارنست مرة أخرى .

« انك تقاطعنى يا ارنست . اننى لم أفرغ بعد » وخرس ارنست لتوه .

« مررت بعدد من الحوانيت التى تبيع الساعات القديمة ، ولكنى لم أر ساعة بالوصف والثمن اللذين أرضى عنهما ، حتى أرانى أحد أصحاب هذه الحوانيت ساعة قال انها تركت معه أخيرا ليبيعها ، وقد تبينت فيها

على الفور الساعة التى أعطتك اياها عمتك أليثيا . وحتى لو كنت أخفقت فى تبينها ، كما كان من الجائز أن أفعل ، لميزتها فور تناولى اياها ، لأنه حفر على ظرفها من الداخل هـذه العبارة : « ا . ب هـدية من أ . ب » . وغنى عن البيان أن هـذه الساعة كانت هى نفسها التى أخبرت أمـك وأخبرتنى أنها سقطت من جيبك » .

كانت لهجة ثيوبولد الى هنا هادئة عن عمد ، وكلماته تخرج من فمه بطيئة ، ولكن ما ان بلغ هذا الحد حتى أسرع فجأة وألقى بقناع وجهه وهو يضيف « أو لفّقت عنها قصة بعيدة التصديق كانت أمك وكنت أنا من الاستقامة بحيث لم نكذبها . وفى وسعك أن تحزر مشاعرنا الآن » .

وأحسّ ارنست أن هذه الطعنة الأخيرة كانت حقا وعدلا . لقد كان فى أويقاته التى يخف فيها قلقه يحسب أباه وأمه « غشيمين » بسبب هذه السرعة التى صدقاه بها ، ولكنه لم يستطع أن ينكر أن سرعة تصديقهما كانت دليل ما ألف عقلاهما من عادة الاستقامة . وكان الانصاف يقتضيه التسليم بأن من أشد الأشياء قسوة على انسانين صادقين مثلهما أن يكون لهما ولد كاذب كما يعرف نفسه .

« واذ اعتقدت أن ابنا لى ولأمك لا يمكن أن يكذب ، فقد افترضت من فورى أن جوّابا متشردا قد التقط الساعة وهو يحاول الآن أن يتصرف فيها » . ولم يكن هذا صحيحا فيما أعلم . فان فرض ثيوبولد الأول هو أن ارنست كان يحاول أن يبيع الساعة ؛ لقد كان قوله ان عقله النبيل خطرت له أول ما خطرت فكرة ذلك الجواب المتشرد قولا من وحى اللحظة .

« وفى وسعك أن تتصور عنف الصدمة التى تلقيتها حين اكتشفت أن الساعة قد أتت بها للبيع هذه المرأة الشقية الن » — وهنا تماسك قلب أرنست قليلا ، وشعر شعورا قربه من غريزة الهجوم ، كأشد ما ينتظر من

انسان عاجز عن الدفاع عن نفسه ، وأحس أبوه هذا سريعا وواصل حديثه قائلا « التى طردت من هذا البيت فى ظروف لست أريد أن ألوث أذنيك بوصفها وصفا مفصلا .

« ونحيت عنى الفكرة الرهيبة التى بدأت تلوح لى ، وافترضت أنها فى الفترة التى انقضت بين طردها وتركها هذا البيت قد أضافت السرقة الى خطيئتها الأخرى ، فسرقت ساعتك اذ وجدتها فى حجرة نومك . بل لقد خطر لى أنك ربما افتقدت ساعتك بعد انصراف المرأة ، واذ خامرك الشك فيمن يكون قد أخذها جريت خلف العربة لتستردها ، ولكنى حين أخبرت التاجر بشكوكى أكد لى أن المرأة التى تركتها معه أقسمت له أن الساعة أعطاها لها ابن سيدها الذى كان يمتلكها وله مطلق الحق فى التصرف فيها .

« وأضاف الى ذلك أنه اذ ظن أن الظروف التى عرضت فيها الساعة للبيع مريبة بعض الشىء ، فقد أصر على أن تخبره المرأة بقصة حصولها عليها كاملة ، قبل أن يرضى بشرائها منها .

« وقال التاجر ان المرأة فى أول الأمر حاولت أن تراوغ — كما تفعل مثيلاتها من النساء — ولكن حين هددها بأن يسلمها فورا الى الشرطة مالم تقل الحق كله ، قصت عليه كيف جريت خلف العربة ، حتى امتقع وجهك على حد قولها ، وكيف أصررت على أن تعطيها كل مصروفك ، ومديتك ، وساعتك ، وأضاف ان الحوذى جون — الذى سأطرده توا — كان شاهدا على هذه العملية كلها . والآن يا ارنست ، تفضل باخبارى هل هذه القصة الرهيبة صادقة أم كاذبة ؟ » .

ولم يخطر لارنست قط أن يسأل أباه لِمَ لا يضرب رجلا من عياره ، أو أن يوقفه فى منتصف قصته معترضا على أنه يرفسه وهو صريع على الأرض . ولا عجب فان الصبى كان مهزوزا مصعوقا الى درجة لم تتح له

التفكير المبتكر ؛ فلم يستطع الا ّ أن يستسلم ويقول متلعثما ان القصة صادقة .

قال ثيوبولد « كذلك خفت أن تكون . والآن تفضل بقرع الجرس يا ارنست » .

فلما لبّى الخادم أرسله ثيوبولد فى طلب چون ، وحسب ثيوبولد الأجر الذى يستحقه چون حين حضر ، ورغب اليه فى أن يترك البيت من فوره .

وكان مسلك چون هادئا مشربا بالاحترام . وقد تقبّل طرده على أنه أمر طبيعى لا غرابة فيه ، لأن ثيوبولد كان قد لمّح بما يكفى لافهامه السبب فى طرده ، ولكنه حين رأى ارنست جالسا شاحب الوجه مصعوقا على طرف كرسيه المسند الى جدار حجرة الطعام خطرت بباله فكرة مفاجئة ، فالتفت الى ثيوبولد وقال بلهجة شمالية قارحة لن أحاول تقليدها هنا : « اسمع يا سيدى ، أستطيع أن أحزر السبب فى هذا كله — والآن قبل أن أنصرف أريد أن أقول لك كلمة » .

وقال ثيوبولد « ارنست ، اترك الحجرة » .

وقال چون وهو يتكىء بجسمه على الباب « لا يا سيد ارنست ، انك لن تفعل » . ثم واصل حديثه قائلا « والآن يا سيد ، لك أن تفعل بى ما تشاء . لقد كنت لك خادما طيبا ، ولست أعنى أن أقول انك كنت لى سيدا رديئا ، ولكنى أريد أن أقول انك اذا قسوت فى معاملة السيد ارنست هذا فان لى فى القرية من سيسمعون ويخبروننى بالأمر ؛ ولو سمعت به فاننى عائد لك ومحطم كل عظمة فى جسدك . وحسبك هذا ! » .

وكان نفس چون يتردد فى سرعة كأنه يسرّه كثيرا أن يبدأ مهمة تحطيم عظم ثيوبولد من فوره ، واكتسى وجه ثيوبولد بلون الرماد — لا لتهديدات

فارغة من وغد مفضوح غاضب كما زعم فيما بعد ، ولكن لهذه الوقاحة الفظيعة تصدر من أحد خدمه .

وأجاب ثيوبولد فى كبرياء « سأترك السيد ارنست لتبكيت ضميره يا چون » (وقال ارنست فى نفسه « شـــكرا الله ، وشكرا لچون ») « وأما أنت فانى أعترف بأنك كنت خادما ممتازا حتى حدثت هذه الحادثة المنكودة ، ويسرنى جدا أن أعطيك شهادة بحسن السير والسلوك اذا كنت فى حاجة اليها . ألديك مزيد ؟ » .

وقال چون فى تجهم « لا مزيد على ما قلت ، لكن ما قلته أعنيه ولن أتخلى عنه قيد شعرة — سواء أعطيتنى شهادة أو لم تعطنى » .

وقال ثيوبولد متلطفا « لا حاجة بك الى الخوف على شهادتك يا چون . ولما كان الوقت قد تأخر بك فلا داعى يدعوك لترك البيت قبل صباح الغد »

ولم يجب چون ، ولكنه انسحب من الحجـــرة وحزم متاعه وانصرف من البيت لتوه .

ولما سمعت كرستينا بما حدث قالت انها تستطيع أن تغضى عن كل شىء الا ّ أن يتعرض ثيوبولد لمثل هذه الوقاحة من أحد خدمه بسبب سوء سلوك ولده . ان ثيوبولد أشجع رجل فى الوجود ، وكان يسيرا عليه أن يمسك بتلابيب هذا الشقى ويطرده من الحجرة ، ولكن ما كان أكرم ردّه وأنبله ! وما أجدره بأن يقصّ فى رواية أو يمثل على المسرح ، فمع أن المسرح على الجملة فاسد منحلّ ، الا ّ أن هناك ولا ريب مسرحيات هى مشاهد مهذّبة للخلق ؛ كان فى وسعها أن تتخيل المسرح كله وقد سكن سكونا عميقا لشدة انفعال النظارة وهم يسمعون تهديد چون ، ويمسكون أنفاسهم شوقا الى سماع الجواب التالى . عندئذ يقول الممثل — ولعله

مستر ماكريدى الممثل العظيم الطيب « سأترك السيد ارنست لتبكيت ضميره يا چون » . أوه ، ياله من جواب رائع جليل ! ويالها من ضجة تصفيق لابد أن تتبعه ! عندها يجب أن تدخل هى بشخصها ثم تطوق عنق زوجها بذراعيها ، وتدعوه زوجها « قلب الأســد » ، فاذا نزل الســتار لغط الجمهور بأن المشهد الذى رأوه لتوهم مستقى من واقع الحياة ، وأنه حدث فعــلا فى بيت القس ثيوبولد پونتفكس ، الذى تزوج من الآنســة ألبى الخ .. الخ ..

فأما من جهة ارنست فان الشكوك التى طافت بعقلها من قبل ازدادت الآن عمقا ، ولكنها استصوبت أن تترك الأمر عند هذا الحد . لقد كانت الآن فى موقف قوى جدا . ان طهارة ارنست الرسمية ثبتت ثبوتا أكيدا ، ولكنه فى الوقت ذاته أثبت أنه شديد الحساسية ، وهكذا استطاعت أن تدمج فكرتين متناقضتين عنه فى فكرة واحدة ، فتعتبره فتى يجمع فى شخصه بين يوسف الصدّيق ودون چوان . وكان هذا ما اشتهته دائما ، ولكن الأمر انتهى بعد أن أشــبع غرورها أن لها ولدا كهذا الولد ، أما الولد نفسه فهو صفر لا قيمة له .

ولا شك أنه لولا تدخل چون لكان على ارنست أن يكفر عن ذنبه بالألم والعوز والحبس . أما الآن فقد قيل للغلام أن « يعتبر نفسه » واقعا تحت طائلة هذه العقوبات ، وأنه يتعذب فوق ذلك بعذاب من الندم الذى لا ينفعه ، ولكن الفتى لم توقع عليه عقوبة ظاهرة ، اللهم الا أن ثيوبولد ألزمه واجبات العطلة المدرسية أكثر من ذى قبل ، وأن والديه كانا يعاملانه بفتور مستمر . على أن ارنست أخبرنى أن هذه الفترة فى رأيه هى التى بدأ يعرف فيها أنه يضمر لوالديه جميعا بغضا نشيطا ، وهذا فى ظنى معناه أنه بدأ الآن يعى بأنه بالغ مبلغ الرجال .

الفصل الثاني والأربعون

قبل أن يعود ارنست الى المدرسة بنحو أسبوع أرسل أبوه فى طلبه مرة أخرى فى حجرة الطعام وأخبره أنه سيرد له ساعته ، ولكنه سيقتطع من مصروفه المبلغ الذى دفعه ثمنا لها — لأنه رأى أن دفع شلنات قليلة خير له من أن ينازع فى ملكية الساعة بعد أن لم يعد هناك ريب فى أن ارنست أعطاها لالن — وسيقتطعه على أقساط تمتد فترتين دراسيتين . وعليه اذن أن يعود الى رفبرو فى فترة نصف العام هذه وفى جيبه مصروف لا يتجاوز خمسة شلنات . فاذا أراد مزيدا فعليه أن يكسب مزيدا من نقود الثـــواب .

ولم يكن ارنست حريصا على ماله حرص غلام مثالى . لم يكن يقول لنفسه « عندى الآن جنيه يجب أن يكفينى خمسة عشر أسبوعا ، فلى أن أنفق بالضبط شلنا وأربعة بنسات كل أسبوع » — ثم ينفق بالضبط شلنا وأربعة بنسات فى الأسبوع طبقا لقراره . كان يستنفد نقوده بالسرعة التى يستنفد بها غيره من الأولاد نقودهم ، لأنه يكاد ينفقها كلها بعد عودته الى المدرسة بأيام . فاذا نفدت النقود ، استدان قليلا ، فاذا بلغ الدّين الحد الذى يستطيع أن يرى معه طريقه الى الوفاء استغنى عن الكماليات ، وكان حالما يحصل على نقود يسدّد ديونه ؛ فاذا فضل عنه شىء أنفقه ؛ واذا لم يفضل — وقلما كان يفضل — بدأ يشترى بالدين مرة أخرى .

وكان أساس ماليته دائما افتراضه أنه سيعود الى المدرسة وفى جيبه جنيه — هو مدين منه بخمسة عشر شلنا مثلا . وتبقى خمسة شلنات لمختلف

نفقاته فى المدرسة — فاذا دفع هذه النفقات استطاع أن يدبر أمره طوال نصف العام من الاعانة الأسبوعية التى تعطى لكل ولد فى قاعة المدرسة وقدرها ستة بنسات ، ومن نقود الثواب (التى كان مصمما فى هذه الفترة أن ترتفع الى رقم طيب) ، ومن ديونه المجدّدة .

ولكن اقتطاع خمسة عشر شلنا فجأة من مصروف بطل قصتى كان كارثة على خطته المالية . ونمّ وجهه عن انفعالاته بصورة واضحة ، فقال ثيوبولد انه مصمم « أن يعرف الحقيقة فورا ، ويعرفها هذه المرة دون أن تنقضى أيام وأيام من الكذب » قبل أن يصل الى معرفتها . ولم يطل به الوقت حتى ظهرت الحقيقة التعسة ، وهى أن ارنست الشقى أضاف الدين الى رذائل البلادة والكذب ، وربما انحلال الخلق — لأن هذه الرذيلة الأخيرة لم تكن مستحيلة .

كيف حدث أنه وقع فى الدين ؟ أيفعل الأولاد الآخرون مثله ؟ واعترف ارنست على مضض أنهم يفعلون .

ومن أى الحوانيت يستدينون ؟

وكان فى هذا السؤال تجاوز للحد . وقال ارنست انه لا يعرف !

وقالت أمه التى كانت فى الحجرة « أواه يا ارنست ، يا ارنست ، لا تستغل مرة ثانية ، وبهذه السرعة ، أناة أب هو أكثر الآباء فى هـذه الدنيا حنانا ورقة . اترك لطعنة واحدة فسحة من الوقت لتلتئم قبل أن تعاجله بجرح آخر » .

كل هذا جميل جدا ، ولكن ما الذى يفعله ارنست ؟ كيف تطاوعه نفسه على جر المتاعب على أصحاب الحوانيت القريبة من المدرسة باعترافه بأنهم يسمحون لبعض الأولاد أن يبتاعوا منهم بالدين ؟ هناك مسز كروس العجوز الطيبة التى كانت تبيع الفطائر الساخنة والزبد للافطار ، أو البيض

والعيش المقمر ، أو ربما ربع الدجاجة بالخبز والمرق والبطاطس الممهوكة التى تبيعها بستة بنسات . فاذا كسبت فلسا واحدا فى هذه البنسات الستة فذلك قصارى ما تكسبه . وكم من مرة سمعها ارنست تقول لخادماتها اذا جاء الأولاد الى دكانها فى رتل عقب جريهم فى لعبة « كلاب الصيد » « والآن أيتها الفتيات ، أحضرن بعض الكراسى » . كان الأولاد مولعين بها ، فهل يشى بها ارنست ؟ هذا فظيع .

وقال أبوه وقد علت وجهه جهمة سوداء « أصغ الىّ يا ارنست ، سأضع حدا لهذا الهراء مرة واحدة وكفى — فاما أن تطلعنى على سرّك كله كما يجدر بالولد أن يطلع أباه ، وتثق بأننى سأعالج الأمر بوصفى قسيسا ورجل دنيا — واما أن تفهم بجلاء أننى سآخذ القصة برمتها الى الدكتور سكنر الذى أظنه سيتخذ من الاجراءات ما هو أشد وأعنف » .

وقالت كرستينا وهى تنتحب « أواه يا ارنست ، يا ارنست ، كن عاقلا وفى الوقت متسع بعد ، وثق بهؤلاء الذين أثبتوا لك من قبل انهم يعرفون جيدا كيف يحتملون ويصفحون » .

ان أى بطل حقيقى من أبطال الخيال ما كان ليتردد فى قراره لحظة واحدة ، وما كان لشىء أن يغريه أو يخيفه فيشى بزملائه فى المدرسة . وفكر ارنست فى زملائه المثاليين ؛ كان على يقين أنهم يؤثرون أن تقطع ألسنتهم من أفواههم قبل أن تنتزع المعلومات من أى كلمة يفوهون بها . ولكن ارنست لم يكن ولدا مثاليا ، ولم يكن له من القوة ما يكفى للثبات أمام بيئته ؛ ولست أدرى الى أى حد كان أى صبى غيره يستطيع مقاومة الضغط الأدبى الذى وقع عليه ؛ على أى حال لم يستطع هو أن يقاومه ، وبعد قليل من التلوّى سلّم نفسه فريسة عاجزة للعدو . وعزّى نفسه بفكرة هى أن أباه لم يلعب عليه لعبة الثقة بالكثرة التى لعبتها أمه ، وأنه لعله من

الأفضل أن يخبر أباه عن أن يصر أبوه على أن يحقق الدكتور سكنر فى الأمر — حقا ان ضمير أبيه كان « يثرثر » كثيرا ، ولكن ليس بالكثرة التى يثرثر بها ضمير أمه ، وغاب عن هذا الأحمق الصغير أنه لم يتح لأبيه من فرص خذلانه ما أتاحه لكرستينا .

هنالك افتضح كل شيء . فهو مدين بكذا لمسز كروس ، وبكذا لمسز چونس ، وبكذا لمشرب « البجعة والزجاجة » ، فضلا عن شلن آخر أو ستة بنسات أو بنسين لجهات أخرى . ولكن ثيوبولد وكرستينا ما كانا ليشبعا ، بل انهما كلما اكتشفا مزيدا ازادت شهيتهما لكشف جديد ؛ كان واجبهما الواضح أن يكشفا عن كل شيء ، انهما قد يستطيعان انقاذ ولدهما الحبيب من حمأة الرذيلة هذه دون أن يظفرا بأكثر مما ظفرا به فى الوقت الحاضر ، ولكن أليس هنالك آباء وأمهات أخر لهم أبناء أعزاء من واجبهما أيضا أن ينقذاهم ما دام هـذا فى الامكان ؟ اذن فأى الأولاد مدينون كارنست بنقود لهؤلاء التجار الجشعين القساة ؟ هنـا أيضـا بدر من ارنست مظهر ضعيف من مظاهر المقاومة ، ولكن آلة التعـذيب ركبت ثانية على أصابعه لتعصرها عصرا ، فعدل عن الموقف لما أصابه من خور وتخاذل ، وسلم نفسه فريسة للسلطان . واعترف تقريبا بكل ما يعلم أو يظن أنه يعلم . وقد امتحن ، ثم أعيد امتحانه ، ثم شدد عليه الامتحان ، ثم أرسل ليعتكف فى حجرة نومه وأعيد عليه الفحص المشدّد مرة أخرى ، وانكشف السر كله — سرّ التدخين فى مطبخ مسز چونس ؛ ومَن مِن الأولاد يدخن ومن لا يدخن ؛ ومن منهم مدين ، وبكم تقريبا ، ولمن ؛ ومَن مِن الأولاد يحلفون ويستعملون الألفاظ النابية . كان ثيوبولد مصمما أن يفضى ارنست اليه هذه المرة بسرّه دون تحفظ على حد قوله ، فأتى بقائمة تلاميذ المدرسة المرفقة بحساب نصف العام المرسل من الدكتور سكنر ، واستعرض مستر

بوتنفكس وزوجه خلق كل تلميذ وأخص خصائص هذا الخلق نقطة فنقطة على قدر ما استطاع ارنست أن يدلى بالمعلومات عنه ، مع أن ثيوبولد كان قد ألقى فى الأحد السابق عظة أضعف قليلا من عظاته العادية ، وكان موضوع عظته فظائع محاكم التفتيش . ومهما كانت المفاسد التى انكشفت لكليهما رهيبة ، فانهما لم ينكصا قط أو يجفلا ، بل تعمقا فى الفحص أكثر فأكثر حتى أوشكا أن يصلا الى موضوعات أكثر حساسية ودقة مما مسّاه الى الآن . وهنا تكفّلت نفس ارنست اللاواعية بالأمر ، وقاومت مقاومة لم تكن نفسه الواعية كفئا لها ، وذلك بأن قلبته عن كرسيه فى نوبة اغماء .

وأُرسِل فى طلب الدكتور مارتن ، فصارح أبويه بأن الصبى مريض جدا ، وأشار فى الوقت نفسه بالزامه الراحة التامة وابعاده عن الانفعالات العصبية — وهكذا اضطر الوالدان القلقان ، على غير ارادتهما ، الى الاكتفاء بما وصلا اليه فعلا ، لأن الخوف حملهما على أن يتركاه يقضى الفترة القصيرة الباقية من العطلة فى هدوء . انهما لم يكونا عاطلين ، ولكن الشيطان يستطيع أن يجد من الشر والأذى للأيدى المشغولة ما يجده للأيدى العاطلة ، لذلك بعث بمهمة صغيرة صوب باترزبى اضطلع بها ثيوبولد وكرستينا من فورهما . وقالا انه سيكون من المؤسف أن يغادر ارنست مدرسة رفبرو بعد أن مكث فيها ثلاث سنوات ، وسيكون من العسير العثور على مدرسة أخرى له وتعليل مغادرته مدرسة رفبرو . يضاف الى ذلك أن المفروض أن الدكتور سكنر وثيوبولد صديقان قديمان ، وسيكون من الأمور الثقيلة أن يسىء اليه ، تلك كلها أسباب وجيهة حملتهما على عدم اخراج الصبى من المدرسة ، اذن فأنسب ما يمكن عمله هو تحذير الدكتور سكنر سرا من حالة مدرسته ، وتزويده بقائمة بأسماء تلاميذه ، عليها ملاحظات انتزعت من ارنست تلحق باسم كل صبى .

وكان ثيوبولد عنوان الدقة والتنظيم ، فبينما كان ولده مريضا فى الطابق العلوى ، نسخ قائمة التلاميذ ليضع ملاحظاته على شكل جدول بالصورة التالية — ولكننى غيرت الأسماء بالطبع . والصليب الواحد فى كل مربع يدل على ذنب عرضى ؛ والصليبان على ذنوب متكررة ، والثلاثة على الجنوح المزمن .

	التدخين	شرب الجعة فى مشرب البيرة والزجاجة	الحلف والشتيم	ملاحظات
سمث	• •	• •	× ×	سيدخن فى الفترة القادمة
براون	× × ×	• •	×	
جونز	×	× ×	× × ×	
روبنسن	× ×	× ×	×	

وهكذا الى آخر المدرسة كلها .

وبالطبع سيتعهد الدكتور سكنر — انصافا لارنست — بكتمان السر قبل أن تقال له كلمة واحدة ، ولكن لم يكن فى الامكان أن يزوّد الناظر بالحقائق كاملة جدا بعد أن حمى ارنست على هذا النحو .

الفصل الثالث والأربعون

اهتم ثيوبولد بهذا الأمر اهتماما جعله يسافر خصيصا الى رفبرو قبل بداية فترة نصف العام . وكان من بواعث الارتياح لارنست أن يغيب أبوه عن البيت ، ولكن ارنست حزر مقصد رحلته هذه وان لم يذكر له .

وهو الى اليوم يعتبر مسلكه فى هذه الأزمة من أخطر الزلات فى حياته — زلة لا يمكن أن يفكر فيها دون أن يحس الخزى والسخط . وهو يقول ان واجبه كان يقتضيه الهرب من البيت . ولكن ما جدوى الهرب ؟ كان سيقبض عليه ويعاد ، ويفحص فحصا سيتأخر يومين بدل أن يتقدم يومين . ان ولدا لا يكاد يبلغ السادسة عشرة لا يستطيع مقاومة الضغط الأدبى الواقع عليه من أب وأم يظلمانه على الدوام ، أكثر من استطاعته المقاومة الجسدية لرجل قوى مكتمل النمو ؛ قد يقال انه يستطيع أن يدعهما يقتلانه خيرا له من أن يسلم . ولكن فى هذا التصرف من البطولة المريضة المنحرفة ما يقربه ثانية من الجبن ؛ لأنه ليس الا انتحارا ، والانتحار فى رأى الناس جميعا عمل من أعمال الجبن .

فلما التأم شمل المدرسة فى مستهل الفترة الدراسية كان واضحا أن شيئا خطيرا قد وقع ، فقد جمع الدكتور سكنر الأولاد ، وفى خيلاء كثيرة أصدر « حرما » على مسز كروس ومسز چونس ، فأعلن أن حانوتيهما محظوران على التلاميذ . كذلك حرم على التلاميذ ارتياد الشارع الذى يقع فيه مشرب « البجعة والزجاجة » . اذن فرذيلتا الشراب والتدخين هما الهدف الواضح لهذه الحملة ، وقبل الصلاة تكلم الدكتور سكنر بعبارات

قوية التأثير عن خطيئة أخرى منكرة هى خطيئة استعمال الألفاظ النابية .
وفى وسع القارىء أن يتصور شعور ارنست .

وفى اليوم التالى حين كانت العقوبات اليومية تقرأ على التلاميذ ، أعلن أن ارنست پونتفكس قد جلب على نفسه كل عقوبة ينص نظام المدرسة على توقيعها على المذنبين ، مع أنه لم يمض عليه فى المدرسة وقت يتيح له اقتراف الذنوب ، فوضع فى قائمة الكسالى طوال الفترة الدراسية كلها ، وكذلك فى كشف المحبوسين يوميا ، واختزل عدد الأماكن التى يرتادها ، وأجبر على أن يحضر مع التلاميذ الصغار خلال نداء الأسماء ؛ واحدقت به فى الواقع العقوبات من كل حدب وصوب بحيث أصبح من العسير عليه جدا أن يخرج من باب المدرسة . ولم تربط هذه العقوبات التى لا نظير لها، والتى وقعت عليه فى أول يوم من أيام الفترة وتقرر أن تستمر الى عطلة عيد الميلاد التالى ، بأى ذنب محدد ، ومن ثم لم يتطلب الأمر من الأولاد كثيرا من الفطنة والذكاء ليربطوا بين ارنست وبين حظر حانوتى مسز كروس ومسز چونس عليهم . وما كان أعظم سخطهم حقا لما حلّ بمسز كروس ؛ هذه المرأة التى كان معروفا أنها تتذكر الدكتور سكنر نفسه صبيا صغيرا حديث العهد بسترة التلميذ ، والتى كانت ولا ريب تسمح له بأن يشترى كثيرا من السجق والبطاطس المهوكة بالدين . واجتمع عرفاء التلاميذ اجتماعا سريا ليتدارسوا الخطوات التى يجب عليهم اتخاذها ، ولكنما كادوا يفعلون حتى قرع ارنست باب الحجرة فى تردد واستحياء ، وواجه المشكلة بأن شرح وقائع الحال على قدر ما استطاع أن يحمل نفسه على شرحها .
شرح وقائع الحال عـلى قدر ما استطاع أن يحمل نفسه عـلى شرحها .
واعترف لهم بكل شىء فيما عدا قائمة التلاميذ والملاحظات التى أدلى بها عن خلق كل ولد . لقد كان عار للاعتراف بهذا فوق ما يطيق ، فكتم السر

فى صدره . ولحسن حظه لم يتعرض للخطر فى هذه الناحية ، لأن الدكتور سكنر رغم تحذلقه الشديد كان لا يزال عنده من الفطنة ما جعله ينقلب على ثيوبولد فى شأن قائمة التلاميذ التى أعدها له . ولست أدرى أأنكر من ثيوبولد أنه أنبأه بجهله خلق تلاميذ مدرسته ، أم خشى الفضيحة التى تلحق بالمدرسة . على أية حال فحين سلمه ثيوبولد القائمة التى أنفق فى اعدادها عناء كثيراً قطع الدكتور سكنر عليه تدبيره قطعا غير مألوف ، وفى شىء من اللطف فاق المألوف ألقى بالقائمة فى التو واللحظة طعمة للنيران أمام عينى ثيوبولد .

أما ارنست فكان حظه مع العرفاء أيسر مما توقع ، فقد سلّموا بأن ذنبه على فداحته اقترف فى ظروف مخففة ، وكان من شأن الصراحة التى حملت المذنب على الاعتراف بكل شىء ، وندمه الذى كان واضحا أنه غير مصطنع ، والعنف الذى كان يطارده به الدكتور سكنر — كان من شأن هذا كله أن يحدث رد فعل فى صالحه بوصفه مظلوما أكثر منه ظالما .

واذ أوشكت فترة نصف العام على الانقضاء أخذت معنويته تنتعش تدريجيا ، فاذا هاجمته نوبة من نوبات احتقار النفس كان مما يعزيه بعض العزاء أن يجد غيره من الناس ، وحتى أباه وأمه اللذين كان يحسبهما نقيين من كل شائبة ، غير كاملين . وكان من عادة تلاميذ المدرسة حوالى الخامس من نوفمبر أن يجتمعوا فى ساحة معلومة لا تبعد كثيرا عن رفبرو ، ويحرقوا دمية تصوّر أحد الناس ، اذ كانت هذه العادة هى التسوية التى أمكن الوصول اليها فى احتفالات الصواريخ النارية فى ذكرى جريمة جاى فوكس ، وتقرر هذا العام أن يكون الضحية أب ارنست ، ولم ير ارنست ، رغم قلقه الكثير وتفكيره فيما يجدر به أن يعمله ، سببا كافيا يدعوه للامتناع عن المشاركة فى هذه الاجراءات التى علق عليها بأنها لن تلحق بأبيه أى أذى .

واتفق أن أقام الأسقف خدمة لتثبيت العماد فى المدرسة فى الخامس من نوفمبر . ولم يكن الدكتور سكنر يحب اختيار هذا اليوم بالذات ، ولكن الأسقف كانت تزحمه المواعيد الكثيرة ، فاضطر الى تحديد هذا اليوم . وكان ارنست بين الذين تقرر أن يثبّت عمادهم ، وقد تأثر تأثرا عميقا بأهمية الاحتفال ورهبته . ولما شعر بالأسقف العجوز الضخم يدنو من فوقه وهو راكع فى كنيسة المدرسة كادت أنفاسه تنقطع ، وحين وقف الشيخ أمامه ووضع يديه على رأسه ملك الخوف عليه زمام أمره . وأحسّ أنه بلغ نقطة من نقط التحول العظيمة فى حياته ، وأن ارنست المستقبل لا يمكن أن يشبه ارنست الماضى الا أضعف الشبه .

حدث هذا حوالى الظهر ، ولكن ما ان وافى غداء الساعة الواحدة حتى كان أثر حفلة التثبيت قد زال ، فلم ير سببا يدعوه للنزول عن تسليته السنوية بحضور حفلة الحريق ؛ لذلك ذهب مع الآخرين ، وكان فى غاية الشجاعة حتى أخرجت الدمية فعلا وكانت على وشك أن تحرق ؛ هنالك شعر بشىء من الرعب . كانت دمية حقيرة مصنوعة من الورق والبفتة والقش ، ولكنهم سموها القس ثيوبولد پونتفكس ، وقد أحسّ شيئا من النفور والاشمئزاز حين رآها تحمل الى النار . ومع ذلك فانه ثبت ، وبعد دقائق حين انتهى كل شىء لم يشعر بأنه أسوأ حالا من ذى قبل بعد حضوره حفلا كان الدافع اليه — على أية حال — حب الأولاد للعبث لا الغلّ أو الحقد .

ويجدر بى أن أقول ان ارنست كتب لأبيه يخبره بطريقة معاملته التى لم يسبق لها مثيل ؛ بل انه اجترأ على أن يقترح تدخل ثيوبولد لحمايته وذكّره كيف انتزعت القصة منه ، ولكن ثيوبولد كان قد لقى من الدكتور سكنر ما يكفى فى الوقت الحاضر ؛ وكان احراق الدكتور قائمة التلاميذ

صدمة لم تشجعه على أن يتدخل مرة ثانية فى شئون رفبرو الخاصة . ومن ثم فقد ردّ على ارنست بأنه اما أن ينقل من رفبرو كليّة — وهو أمر غير مرغوب فيه لأسباب كثيرة ، واما أن يثق بحكمة الناظر فى اختيار المعاملة التى يراها أنسب لأى من تلاميذه . ولم يزد ارنست ، فهو لا يزال يشعر بأنه كان عارا عليه أن يسمح لأبيه بأن ينتزع منه أى اعتراف ، بحيث لم يستطع الالحاح عليه فى الوفاء بما وُعِد به من أمان .

وفى أثناء « زوبعة مسز كروس » كما ظلت تسمى طويلا فى محيط الأولاد ، شوهدت ظاهرة عجيبة فى رفبرو ، وأعنى بها قيام عرفاء التلاميذ فى ظروف معينة بقضاء المهام لمن هم أصغر منهم من التلاميذ . ذلك أنه لم يكن هناك أماكن محظورة على هؤلاء العرفاء ، وكان فى استطاعتهم أن يذهبوا الى دكان مسز كروس متى شاءوا ، وهكذا جعلوا من أنفسهم فى الواقع وسطاء ، وكانوا يبتاعون أى شىء سواء من مسز كروس أو من مسز چونس ، لأى ولد مهما كان صغيرا ، بين الساعة التاسعة الا ربعا والتاسعة فى الصباح ، وبين السادسة الا ربعا والسادسة فى المساء . على أن الأولاد تشجعوا شيئا فشيئا ، وأصبح السماح بارتياد هذه الحوانيت مفهوما ضمنا وان لم يكن مباحا صراحة .

الفصل الرابع والأربعون

يجدر بى أن أوفر على القارىء مزيدا من التفاصيل عن أيام بطل قصتى الدراسية ، فقد نقل ، رغم أنفه دائما ، الى فصل الناظر ، وأصبح فى العامين الأجيرين أو نحوهما أحـد العرفاء ، وان لم يرقَ قط الى نصفهم الأعلى . كان يبذل جهدا قليلا ، وأحسب أن الناظر يئس منه باعتباره ولذا يحسن به أن يتركه وشأنه ، فقلما كان يجعله يترجم ، وكان ارنست يقدم كراسات تمارينه أو لا يقدمها كما يشاء . وبمضى الوقت حقق عناده اللاشعورى ، المفهوم ضمنا لا تصريحا ، نتائج ما كانت لتحققها بعض الهجمات الجريئة لو بدأ بها أول الأمر . وظل مكانه بين أقرانه الى نهاية دراسته هو هو كما كان فى البداية ، أعنى بين القسم الأعلى من الفرقة الأقل سمعة — سواء فى المدرسة الثانوية أو الابتدائية — لا بين القسم الأدنى من الفرقة الأكثر احتراما .

ولم يظفر فى حياته المدرسية كلها بمديح من الدكتور سكنر على تمرين أدّاه الاّ مرّة واحدة ، وقد احتفظ بذكرى هذا المديح على أنه أفضل مثل شهده على الاستحسان المتحفظ . كان عليه أن يكتب أبياتا من البحر الألكوى(*) موضوعها « كلاب رهبان سانت برنار » فلما أعيد اليه تمرينه هذا ، وجد أن الدكتور علّق عليه بالعبارة التالية : « فى هذه الأبيات من البحر الألكوى — التى هى مع ذلك رديئة جدا — يخيل الىّ أننى

(*) Alcaies نسبة للشاعر الغنائى اليونانى Alcaeus (٦٠٠ ق٠م٠) أو البحر الذى ابتكره ٠

أستطيع تبين مظاهر طفيفة من التحسن » . ويقول ارنست انه لو كان فى التمرين أى تحسن عن تمارينه العادية الأخرى لكان ذلك رمية من غير رام ، لأنه واثق أنه يحب الكلاب دائما ، لا سيما كلاب سانت برنار ، ويحبها حبا جما لا يمكن أن يجد معه لذة فى كتابة أبيات من البحر الألكوى عنها .

وقال لى منذ أيام وهو يطلق ضحكة حارة صادقة « حين أعود بالذاكرة الى هذا الحادث يرتفع قدرى فى عينى لأننى لم أحصل قط — ولو مرة — على أعلى درجة على تمرين ، أكثر مما يرتفع لو كنت حصلت على هذه الدرجة كل مرة يمكنني الحصول عليها . وأنا مبتهج لأن شيئا لم يستطع أن يحملنى على كتابة الشعر اللاتينى واليونانى ؛ ومبتهج لأن سكنر لم يستطع أن يؤثر فىّ أى تأثير أدبى ؛ ومبتهج لأننى كنت كسولا فى المدرسة ؛ ومبتهج لأن أبى أرهقنى بالواجبات وأنا صبى — والاّ لكنت على الأرجح أرضى بهذا الغش ، ولكنت كتبت أبياتا جيدة من البحر الألكوى عن كلاب رهبان سانت برنار كما فعل أصحابى ؛ ومع ذلك فلست أدرى ، لأنى أذكر أن ولدا آخر قدم أبياتا لاتينية غير ممتازة ، ولكنه ليرضى نفسه كتب الآتى بالانجليزية :

« تنطلق الكلاب التى يملكها رهبان سانت برنار باحثة عن الأطفال لتخرجهم من تحت الثلوج وحول أعناقها شراب الجن المنعش مربوطا فى بكرة صغيرة » .

كان بودى لو كتبت هذا ، ولقد حاولت ذلك فعلا ، ولكنى عجزت . اننى لم أحب البيت الأخير تماما ، وقد حاولت اصلاحه ، ولكنى لم أستطع . »

وخيّل الى أننى أستشف فى لهجة ارنست آثار المرارة على معلميه فى صباه ، فقلت له شيئا بهذا المعنى .

وأجاب وهو ما يزال يضحك « أوه ، كلا ، لا مرارة أكثر مما شعر به القديس أنطونى نحو الشياطين التى كانت تزيّن له المنكر فى شبابه حين لقى بعضها مصادفة بعد مائة عام أو مائتين . كان يعلم بالطبع أنها شياطين ، ولكن لم يكن بهذا بأس ؛ اذ لابد من الشياطين . وأغلب الظن أن القديس أنطونى أحب هذه الشياطين أكثر من معظم الشياطين الأخرى ، وأبدى نحوها — رعاية لحقوق المعرفة القديمة — من التسامح الكثير ما يتفق وأصول اللياقة .

ثم قال « أضف الى هذا أن القديس أنطونى ، كما تعلم ، جرّب الشياطين كما جرّبته ؛ ذلك أن قداسته الفذة كانت له امتحانا أعظم من أن تقوى عليه الشياطين ، فاذا توخينا الدقة قلنا ان الشياطين هى التى كانت تستحق العطف والرثاء ، لأن القديس أنطونى قادها الى التجربة فسقطت بينما لم يسقط القديس أنطونى . انى أعتقد أننى كنت ولدا كريها غبيا ، ولو أننى لقيت سكنر لما كان هناك أحد أحب أن أصافحه أو أخدمه باستعداد أكثر من استعدادى لمصافحته وخدمته . »

أما فى البيت فقد سارت الأمور سيرا أفضل نوعا من سيرها السابق ، وانحدرت الى الأفق شيئا فشيئا الضجتان اللتان أثيرتا حول الن والأم كروس ، وظفر حتى فى البيت بأوقات أهدأ بعد أن ارتقى الى مقام العرفاء . ومع ذلك كانت العين اليقظة ، واليد الحارسة ، لا تبرحانه لتحفظا مداخله ومخارجه ولتكشفا كل طرقه . فهل من العجيب أن الصبى ، مع محاولته على الدوام أن يحتفظ بالمظاهر ويبدو مرحا راضيا — وكذلك كان فى الواقع أحيانا — كثيرا ما كان ينظر نظرة القلق والاعياء حين يعتقد أن أحدا لا يرقبه ، مما أنبأ بصراع فى باطنه لا يكاد ينقطع ؟

لا شك فى أن ثيوبولد كان يرى هذه النظرات ويعرف كيف يفسرها ،

ولكن مهنته هى أن يعرف كيف يغمض عينيه عن الأشياء التى تضايقه — وليس فى استطاعة قسيس آن يحتفظ بوظيفته شهرا واحدا ما لم يستطع أن يفعل هذا ، أضف الى ذلك أنه كان قد سمح لنفسه سنوات طويلة بأن يقول أشياء ما كان ينبغى أن يقولها ، وبأن يمسك عن أشياء كان ينبغى أن يقولها ، فلم ينتظر منه بعد هذا أن يرى شيئا من المريح له آلايراه ، ما لم يكره على رؤيته اكراها .

لم يكن المطلوب منه كثيرا . عليه ألا يحيط الأشياء بالغموض حين لا تحيطها الطبيعة بغموض ، وأن يضع ضميره تحت سيطرة معقولة ، وأن يطلق لارنست قدرا أكبر قليلا من حرية التصرف ، وأن يسأله أسئلة أقل ، وأن يعطيه مصروفه لينفقه على شراء ما يشتهى .

وضحك ارنست حين قرأت له ما كتبته الآن وقال « سمّ هذا بالشىء غير الكثير حقا . بيد انه يحمل كل واجبات الأب ، ولكن احاطة الأشـياء بالغموض هو شر الأشياء . ولو أن الناس اجترأوا على أن يكلم بعضهم بعضا فى غير تحفظ لقلّ الحزن كثيرا فى العالم بعد مائة عام » .

ولنعد على أى حال الى رفبرو . ففى اليوم الذى تخرج فيه ارنست ، حين طلب فى المكتبة ليصافحه الناظر ، أدهشه أن يشعر انه مع سروره الأكيد بمبارحته المدرسة لم يكن يبارحها وفى صدره أى حقد أو ضغينة على الدكتور سكنر . لقد وصل الى نهاية المرحلة كلها وهو ما زال حيا بعد ، وهو فى جملته ليس أسوأ حالا من غيره من الناس . واستقبله الدكتور سكنر متلطفا ، بل انه كان يمزح على طريقـته الثقيلة . والشباب ليّن العريكة متسامح ، وقد أحس ارنست وهو ينصرف أن مقابلة ثانية كهذه لم تكن كفيلة بأن تمحو آثار الجراح القديمة وحسب ، بل بأن تضمه الى صفوف المعجبين بالدكتور المناصرين له — ومن الانصاف أن نقول ان أكثر الأولاد الواعدين كانوا ينتمون الى هذه الصفوف .

وقبل أن يودع الناظر ارنست أنزل بيده فعلا مجلدا من تلك الرفوف التي لاحت لارنست رهيبة جدا قبل ذلك بست سنوات ، ثم أعطاه اياه بعد أن كتب عليه اسمه وعبارة باليونانية أعتقد أنها تعني « مع أطيب تمنيات المهدى » ، وكان الكتاب مؤلفا باللاتينية بقلم ألماني يدعى شومان : — De Comitiis Atheniensilris — ولم يكن بالكتــــاب الخفيف أو الممتع ، ولكن ارنست شعر أن قد آن الأوان ليحاول فهم دســتور أثينا وطريق التصويت فيها ؛ لقد حضّرهما من قبل مرات كثيرة ولكنه كان ينساهما بالسرعة التي يحفظهما بها ؛ أما وقد أهداه الدكتور هــذا الكتاب فقد عوّل على أن يتقن الموضوع هذه المرة فلا ينساه بعــدها . حقا ما كان أغرب حاله ! لقد أراد صادقا أن يتذكر هذه الأشياء ؛ وكان يعرف أنه يريد ، ولكنه لم يستطع قط الاحتفاظ بها في عقله ؛ فعلى الرغم منه ما كانت تقع على عقله حتى تنزلق عنه مرة أخرى ، فيا لها من ذاكرة مزعجة ؛ في حين أنه لو عزف له أحدهم قطعة موسيقية وأخبره بمصدرها لما نسي ذلك قط دون أن يبذل أي جهد لتذكره ، بل دون أن يشعر أنه يحاول تذكره اطلاقا — فلابد أن عقــله سيىء التركيب ، وهو انسان لا يرجى منه خير .

واذ بقيت له بقية من الوقت أخذ مفاتيح كنيسة سانت ميكل وذهب ليعزف عزف الوداع على الأرغن ، وكان يستطيع الآن أن يعزف عليه عزفا لا بأس به . وأخذ يروح ويغدو في ممشى الكنيسة متأملا متفكرا ، ثم استقر على كرسيه الى الأرغن وعزف لحنا يسمى « لقد عافوا الشرب من النهر » نحو ست مرات أحسّ بعدها أنه أكثر هدوءا وسعادة ؛ ثم انتزع نفسه انتزاعا من الآلة التي كان يحبها حبا جما وهرول الى المحطة .

واذ ابتعد القطار به أطل من جسر عال على البيت الصغير الذي اتخذته

عمته ، والذى يمكن أن يقال انها ماتت فيه بسبب رغبتها فى أن تحسن اليه . ورأى الشرفتين اللتين يعرفهما جيدا ، واللتين كثيرا ما نزل منهما يعدو على المخضرة قاصدا ورشته . لقد أنب نفسه على عرفانه القليل لجميل هـذه السيدة الطيبة القلب — هذه الوحيدة بين أقاربه التى شعر فى حياته بأنه يستطع أن يأتمنها على سره . ومع أنه كان يعز ذكراها كثيرا فقد ابتهج مسرورا لأنها لم تعرف المآزق التى تورط فيها بعد وفاتها ؛ فلعلها ما كانت لتغفرها له — وما كان أقسى ذلك عليه لو وقع ! ولكن ، لو أنها عاشت لكان من الجائز أن يوفّر عليه كثير من أوجاعه . واذ استغرق فى هـذه التأملات عاد اليه شعور الحزن مرة أخرى ، وسأل نفسه « أين ، أين ، أين سينتهى هذا كله ؟ أستظل حاله اثما ، وعارا ، وندما ، فى المستقبل كما كانت فى الماضى ، وعين أبيه الساهرة أبدا ويده الحارسة تلقيان عليه أعباء أبهظ مما يطيق — أم أن الأمر سينتهى به ، هو أيضا ، فى يوم ما الى الشعور بأنه فى حال لا بأس بها من الخير والسعادة ؟

وكان يغطى قرص الشمس ضباب أغبش فاستطاعت عينه أن تحتمل ضوءها ، وكان ارنست وهو غارق فى تأملاته هذه ينظر فى عين الشمس كأنه ينظر فى وجه انسان يعرفه ويغرم به . كان وجهه أول الأمر مكتئبا ولكن فى حنان كأنه وجه انسان مجهد يحسّ أنه قد فرغ من عمل طويل ؛ ولكن ما مضت ثوان حتى وضح أمامه الجانب المضحك من عثراته ، وابتسم ابتسامة اختلط فيها اللوم بالمرح اذ خطر له أن كل ما وقع له لا يهم كثيرا فى الحقيقة ، وأن متاعبه ضئيلة اذا قيست بمتاعب أكثر الناس ، وخطر له وهو ما زال ينظر فى عين الشمس ويبتسم حالما كيف ساعد فى احراق دمية أبيه ، فازدادت نظرته مرحا ، حتى انتهى به الأمر الى أن ينفجر ضاحكا . فى هذه اللحظة بالضبط انجاب عن الشمس غشاء السحاب الرقيق ، ونزل

مرة أخرى الى الأرض اليابسة عندما انبثقت أشعة الشمس . وهنا شعر بأن زميلا من الركاب جالسا أمامه يراقبه فى اهتمام ، وكان سيدا كهلا له رأس كبير وشعر أشيب .

وقال الرجل فى لطف « يا صديقى الصغير ، يجب ألاّ تمضى فى حديثك مع القوم الذين فى الشمس وأنت فى عربة سكة حديد عامة » .

ولم يفه الكهل بكلمة أخرى ولكنه نشر أمامه صحيفة التيمز وبدأ يقرأ . أما ارنست فقد اصطبغ وجهه بحمرة الخجل ولم يتكلم الاثنان طوال بقائهما فى العربة ، ولكن الواحد كان يرمق صاحبه بنظراته من حين لآخر حتى انطبع وجهه على ذاكرته .

الفصل الخامس والأربعون

يزعم بعض الناس أن أيامهم المدرسية كانت أسعد أيام الحياة . وقد يكونون صادقين فى هذا الزعم ، بيد أنى أنظر دائما فى ريبة الى من أسمعهم يقولون هذا . فان من العسير أن يعرف المرء أهو الآن سعيد أم غير سعيد ، وأشد من ذلك عسرا أن يقارن ويوازن بين السعادة أو الشقاء النسبى الذى شعر به فى أوقات مختلفة من حياته ؛ وقصارى ما يمكن قوله هو أننا نكون سعداء سعادة متوسطة ما دمنا لا نشعر شعورا واضحا بأننا أشقياء . وبينما كنت أتحدث مع ارنست فى يوم غير بعيد عن هذا الموضوع قال لى انه الآن سعيد جدا الى حد يثق معه أنه لم يكن قط أسعد حالا فى الماضى ، وأنه لا يريد أن يكون أسعد حالا فى المستقبل ، ولكن كمبردج كانت أول مكان كان فيه سعيدا سعادة واعية متصلة .

وكيف لا يشعر أى فتى بسرور غامر حين يجد نفسه لأول مرة فى مسكن يعرف أنه سيكون له قلعة فى السنوات القليلة التالية ؟ هنا لن يكره على التخلى عن أكثر الأماكن راحة له حالما يستقر فيه ، لا لشىء الا لأن أباه أو أمه اتفق دخوله الحجرة ، فأصبح من واجبه أن ينزل عن مكانه . ان أكثر المقاعد راحة خالص له ، وليس هناك أحد يشاركه حتى فى الحجرة كلها ، أو يمنعه من أن يفعل فيها ما شاء — بما فى ذلك التدخين . ولو أن حجرة كهذه أطلت من أمام ومن خلف على جدار مسدود لكانت برغم ذلك جنة فى عينيه ؛ فكيف بها وهى تطل على فناء مُعشوشب هادىء ، أو دير ، أو حديقة ، كما تطل نوافذ أكثر حجرات الطلبة فى أكسفورد وكمبردج .

واستطاع ثيوبولد بوصفه زميلا ومشرفا قديما في كلية عمانوئيل — وهي الكلية التي ألحق بها ارنست — أن يحصل من المشرف الحالي على بعض الحق في اختيار مسكن ارنست ؛ لذلك كانت حجراته التي سكن فيها لطيفة جدا ، مشرفة على الفناء المعشوشب الذي تحده حدائق مساكن الزملاء في الكلية .

وصحبه ثيوبولد الى كمبردج ، وكان خلال ذلك في أحسن حالاته . لقد أحب الرحلة ، وحتى هو لم يكن خلوا من شعور بالفخر لأن له في الجامعة ولدا متفتحا ناضجا . وقد سمح لبعض الأشعة المنعكسة من هذا السناء أن تسقط على ارنست نفسه . وقال ثيوبولد « انه راغب في أن يرجو » — وتلك احدى عباراته البالية — أن يبدأ ولده صفحة جديدة بعد أن ترك المدرسة ، أما من ناحيته هو فهو « على أتم استعداد » — وهي عبارة بالية أخرى من عباراته — لأن يعتبر الماضي نسيا منسيا .

واستطاع ارنست ، الذي لم يكن اسمه قد سجل بعد في دفاتر الكلية ، أن يتناول الغداء مع أبيه على مائدة الزملاء في كلية من الكليات الأخرى بدعوة من صديق قديم لثيوبولد ؛ وعلى هذه المائدة تعرف الى كثير من طيبات هذه الحياة ، وكانت حتى أسماؤها جديدة عليه ، وأحس وهو يأكلها أنه الآن يتلقى حقا تعليما سمحا حرا . فلما آن أوان ذهابه الى كلية عمانوئيل لينام في مسكنه الجديد ، أوصله أبوه الى البوابة وودعه الى داخل الكلية ؛ وما هي الا دقائق حتى وجد نفسه وحيدا في حجرة لديه مفتاحها.

من هذه اللحظة مرت به أيام كثيرة كانت في جملتها سعيدة جدا وان لم تخل تماما من الغيوم . على أنه لا حاجة بي الى وصفها ، لأن حياة الطالب الجامعي الهادىء المستقر وصفت في عشرات الروايات خيرا مما

أستطيع وصفها . والتحق بعض زملاء ارنست فى المدرسة بكمبردج فى الوقت الذى التحق فيه بها ، فاستمرت صلاته الودية بهم طوال دراسته بالكلية . وكان هناك زملاء آخرون من المدرسة لا يتقدمون عليه الا عاما أو عامين ؛ وقد زاره هؤلاء ، وهكذا كان مدخله الى حياة الكلية مدخلا موفقا . وكان فى استقامة الخلق المطبوعة على وجهه ، وفى حبه للفكاهة ، وفى طبعه الذى كانت تهدئته أيسر من اثارته ، ما عوّضه عن شائبة من الارتباك والحاجة الى الحذق . وسرعان ما أصبح عضوا محبوبا فى أفضل جماعة فى صفه ، ومع أنه كان عاجزا عن الوصول الى الزعامة أو الطموح اليها فقد سمح له الزعماء بأن يكون تابعا من المقربين اليهم .

أما الطموح فلم يكن له منه فى ذلك الوقت مثقال ذرة ؛ وبدت له العظمة ، أو قل التفوق أيا كان نوعه ، شيئا بعيدا عنه جدا ، غير مفهوم له ، بحيث لم تخطر لعقله قط فكرة الربط بين التفوق وبين شخصه . وقد خيّل اليه آنه لو استطاع الهروب من عيون كل الذين لا يشعر بأنه على انسجام معهم لكان ذلك نصرا كافيا ، ولم يهمه أن يحصل على درجة جيدة ، ما دام يحصل على درجة كافية لاسكات أبيه وأمه . ولم يحلم بالقدرة على نيل مكافأة زمالته فى الكلية ؛ ولو حلم بذلك لحاول جاهدا أن يفعل ، لأنه كلف بكمبردج كلفا جعله لا يطيق فكرة الاضطرار الى مغادرتها ؛ والحق أن قصر الفترة المفروض أن تستمر خلالها سعادته الراهنة كاد يكون الشىء الوحيد الذى عكر عليه الآن صفوه .

واذ قل الجهد الذى وجب أن يبذله فى مسألة نموّه ، وازدادت حريته فى التصرف ، انصرف الى القراءة انصرافا لا بأس به — لا لأنه أحبها ، ولكن لأنه قيل له انه ينبغى له أن يفعل ، وكان على غريزته أن تفعل ما يخبره به أصحاب السلطان ، شأن غرائز جميع الشبان الصغار الذين يصلحون

لأى شىء ، وبما أن الدكتور سكنر قال ان ارنست لن يستطيع الحصول على زمالة ، فقد كانت النية فى باترزبى متجهة الى أن يأخذ درجة تكفى لحصوله على وظيفة مشرف فى الكلية أو مدرس فى احدى المدارس تمهيدا لرسامته قسيسا . فاذا بلغ الحادية والعشرين من عمره كان المفروض أن تؤول اليه ثروته ، وكان خير ما يفعله بها أن يشترى أول ترشيح لوظيفة قسيس فى كنيسة قسيسها الآن شيخ ، وأن يعيش على مرتب وظيفة المعلم فى الكلية أو المدرسة حتى تخلو وظيفة القسيس . وكان فى استطاعته أن يشترى وظيفة طيبة جدا بالمبلغ الذى تجمع الآن من ميراثه عن جده ، لأن ثيوبولد لم يكن لديه أية نية جدية فى أن يقتطع من هذه الثروة المبالغ التى أنفقها على معيشة ولده وتربيته ، فتجمعت الثروة حتى أصبحت الآن خمسة آلاف من الجنيهات تقريبا ، انما تحدث عن هذا الاقتطاع ليحفز الغلام على بذل قصارى جهده حين يظن أن هذه فرصته الوحيدة لكى يتقى الفقر والجوع — أو لعله فعل ذلك بدافع حب المعاكسة لا أكثر .

فاذا ظفر ارنست بوظيفة فى الكنيسة دخلها ستمائة جنيه أو سبعمائة فى العام بالاضافة الى مسكن خاص ، وشعب غير كبير — فما أيسر أن يضيف الى دخله بالدروس الخاصة أو حتى بادارة مدرسة ، ثم يتزوج فى الثلاثين مثلا . ولم يكن من السهل على ثيوبولد أن يعثر على خطة معقولة أكثر من هذه . انه لا يستطيع أن يلحق ارنست بعمل من أعمال التجارة ، لأنه ليست له صلات تجارية — أضف الى ذلك أنه لا يعرف ما تعنيه التجارة ، كذلك لا نفوذ له فى مهنة المحاماة ، أما الطب فمهنة تعرض طلابها لمحن ومغريات ارتعد منها هذان الوالدان الساذجان نيابة عن ولدهما ، انه لو دخلها لاتصل

برفاق ولعرف تفاصيل قد تلوث خلقه ، وهو وان جاز أن يقف على قدميه ، الا أنه « من الممكن جدا » أن يسقط . ثم ان احتراف الدين هو الطريق الذى يعرفه ثيوبولد ويفهمه ، بل هو الطريق الوحيد الذى يعرف عنه شيئا على الاطلاق ، فلا عجب أن يكون الطريق الذى اختاره لارنست .

هذا الذى ذكرناه أشربه ذهن بطل قصتى منذ نعومة أظفاره كما أشربه ذهن ثيوبولد نفسه من قبل ، وكانت النتيجة واحدة — هى أن الفتى اقتنع بأنه سيكون قسيسا ما فى ذلك ريب ، ولكن الطريق الى ذلك ما زال بعيدا جدا ، وأنه ظن أن لا بأس بهذه المهنة . فأما واجب القراءة بهمة ، والحصول على أفضل درجة يستطيع الحصول عليها ، فذلك واضح لا لبس فيه ، لذلك عكف على العمل كما قلت فى مثابرة ، واستطاع فى أول فتراته بالكلية ، على غير ما توقع كل انسان ، وعلى غير ما توقع هو نفسه ، أن يظفر بمنحة دراسية من الكلية ليست بذات قيمة كبيرة ، ولكنها على أية حال منحة ، ولا حاجة بى الى القول بأن ثيوبولد تشبث بحقه فى هذه المنحة كلها ، معتقدا أن المصروف الذى عينه لارنست يكفيه ، عالما مبلغ الخطر على الشباب حين يكون المال رهن اشارتهم . ولست أظن أنه قد خطر بباله أن يحاول تذكر شعوره يوم اتخذ منه أبوه هذا الموقف بعينه .

وكان وضع ارنست فى هذا وضعه يوم كان فى المدرسة ، ولكن على نطاق أوسع . كان أبوه يدفع له حساب معلمه وحساب طباخه ؛ ويرسل له نبيذه ؛ ويعطيه فوق ذلك خمسين جنيها فى العام يدبر بها ملابسه وسائر نفقاته ؛ وكان هذا هو وضع التلاميذ عادة فى كلية عمانوئيل يوم كان ارنست طالبا بها ، وان أصاب كثير من الطلبة حظا أقل كثيرا من حظه هذا . وكان ارنست ينهج نهجه فى المدرسة من قبل — ينفق ما يسعه انفاقه عقب تسلمه

تقوده مباشرة ، ثم يستدين بعض الديون المتواضعة ، ثم يضيّق على نفسه حتى الفترة التالية ، وعندها يدفع ديونه فورا ، ثم يبدأ ديونا جديدة تبلغ نفس المستوى الذى بلغته ديونه التى تخلص منها لتوه . وكان يقول لنفسه انه اذا حصل على آلافه الخمسة واستقل عن أبيه ، كفت خمسة عشر جنيها أو عشرون لتغطية هذا التجاوز كله فى نفقاته .

والتحق بنادى التجديف ، وواظب على التمرين على سباق الزوارق . وكان ما يزال يدخن ، ولكنه لم يشرب قط من النبيذ أو الجعة ما يزيد على طاقته الا فى مناسبة عشاء بالنادى مثلا ، وحتى فى هذه المناسبات كان يجد العواقب مؤذية ، فسرعان ما تعلم ألا يتجاوز نطاق الحدود الآمنة . وكان يحضر الكنيسة كلما اضطر الى حضورها ، ويتناول العشاء الربانى مرتين أو ثلاثا فى العام لأن معلمه قال له ان من واجبه أن يفعل ، والحق انه أخذ نفسه بالحياة الرصينة النظيفة كما حفزته غرائزه كلها فى ظنى ، فاذا سقط — وأى مولود للمرأة يملك الا يسقط أحيانا ؟ — فبعد كفاح عنيف مع اغراء لا قبل للحم والدم بمقاومته ، ثم يندم بعد سقطته أشد الندم ، ويسير أمدا طويلا دون أن يأثم مرة أخرى ، وكذلك كان شأنه مذ بلغ سنوات الطيش .

ولم يكن يعلم الى نهاية دراسته بكمبردج أن فى طبيعته القدرة على أن يحقق شيئا ، ولكن آخرين بدأوا يرون أن الكفاية لا تعوزه ، وكانوا أحيانا يخبرونه بذلك . ولكنه لم يصدق ، بل انه كان موقنا أنهم ان حسبوه على مهارة وحذق فهم مخدوعون ، الا أنه سُرّ لاستطاعته أن يخدعهم ، وحاول أن يفعل ذلك الى مدى أبعد ، لذلك كان يكثر من البحث عن

العبارات البراقة الجوفاء التى يستطيع أن يتلقفها ويستعملها فى المناسبات ، ولعله كان بهذا جالبا على نفسه بعض الأذى لولا استعداده لاطراح أى عبارة منها حالما يصادف أخرى تستهويه أكثر من سابقتها ، وكان أصدقاؤه يقولون انه اذا نهض طار كالشنقب * مندفعا مرات فى اتجاهات مختلفة قبل أن يستقر على اتجاه مستقيم مطرد ، ولكنه متى استقر عليه مضى فيه لا يلوى .

(*) Snipe

الفصل السادس والأربعون

حين كان ارنست فى عامه الثالث بالكلية أنشئت فى كمبردج مجلة اقتصر التحرير فيها على الطلاب . وقدّم ارنست مقالا عن المسرحية اليونانية . وقد رفض أن يسمح لى بنقله هنا دون أن أتيح له تنقيحه . لذلك لم أستطع أن أورده فى صورته الأصيلة ، ولكن اذا نفض عنه ما فيه من حشو وفضفضة ، وهو كل ما صنع به ، كان كما يأتى :

لن أحاول فى هذا الحيّز المتاح لى أن أكتب مجملا لنشأة المسرحية اليونانية وتقدمها ، ولكنى سأجتزىء بالبحث فى الشهرة التى يتمتع بها الثلاثة الكبار من بين كتاب المأساة اليونانية ، وأعنى بهم اسخيلوس ، وسوفوكليس ، ويوربيديس ، وهل ستدوم هذه الشهرة أبدا أم سيرى الناس فى يوم من الأيام أننا بالغنا فى تقديرهم .

وانى لأسأل نفسى لِمَ أرى أشياء كثيرة تستهوينى بسهولة فى هومر ، وثيوكيديديس ، وهيرودوت ، وديموستينيس ، وأرستوفانيس ؛ وثيوكريتس ، وفى بعض آثار لوكريتيوس ، وفى نقد هوراس ورسائله ، وفى غير هؤلاء من قدامى الكتاب ، ولكنى أجد نفسى وقد صدّتنى على الفور أعمالِ اسخيلوس وسوفوكليس ويوربيديس ، حتى ما كان منها يحظى بالاعجاب العام .

اننى اذ أقرأ الكتاب الأولين أجد نفسى بين أيدى أشخاص يشعرون ، ان لم يكن بشعورى ، فبشعور أستطيع فهمه وأجد لذة فى أن أراهم قد شعروا به ؛ أما الكتاب الأخيرون فلا أجد فى نفسى نحوهم الآن مشاركة

وجدانية ضئيلة تجعلنى لا أفهم كيف شعر انسان من الناس نحوهم بأى اهتمام . ولا تبدو لى أعلى تحليقاتهم فى سماء المسرحية الا تناجا مزهوا مملا مفتعلا ، لو أنه ظهر اليوم لأول مرة لكان نصيبه فى ظنى اما الموت فورا واما النقد الصارم من النقاد . وبودى أن أعلم أأنا المخطىء فى هذا أم أن بعض اللوم فيه يقع على كتاب المآسى هؤلاء .

ولست أدرى الى أى حد كان الأثينيون يعجبون بهؤلاء الشعراء حقا ، والى أى حد كان الاستحسان الذى أغدق عليهم راجعا الى تقاليد العصر أو التظاهر والادعاء ؟ الى أى حد فى الواقع كان الاعجاب بهؤلاء الكتاب القدامى للمأساة يحتل بين الأثينيين المكان الذى يحتله بيننا الذهاب الى الكنيسة ؟

ذلك سؤال جرىء اذا راعينا الحكم الذى حكم به الناس جميعا عليهم أكثر من ألفى عام ، كذلك ما كنت لأسمح لنفسى أن أسأله لولا أن أوحى الى به كاتب بلغت سمعته الشأو الذى بلغته سمعتهم ودعمها طول الزمن الذى دعم شهرتهم ، وأعنى به أرستوفانيس .

لقد تضافر الاجماع ، وقوة السند ، وطول الزمن على رفع أرستوفانيس الى ذروة فى مكان الأدب لا تقل عما ارتفع اليه أى كاتب قديم ، ربما باستثناء هومر ، ولكنه لا يخفى كراهيته الصادقة ليوربيديس وسوفوكليس ، وأخشى كثيرا أنه لا يمدح اسخيلوس الا ليذم صاحبيه وهو فى مأمن أعظم . ذلك أنه ليس بين اسخيلوس وخليفتيه فى الواقع ذلك الفارق الكبير الذى يجعل انتاجه جيدا جدا وانتاجهما رديئا جدا ؛ والطعنات الموجهة الى اسخيلوس ، والتى يضعها ارستوفانيس على لسان يوربيديس ، تنفذ الى الصميم بحيث لا يمكن أن يكون كاتبها من المعجبين به .

ويلاحظ أنه بينما نرى يوربيديس يتهم اسخيلوس بأنه « رصّاص للكلمات الفخمة الجوفاء » يرد عليه اسخيلوس بأنه « ملتقط للقيل والقال ، وصّاف للمتسولين ، مرقّع للخرق البالية » ومن هذا نستنتج أنه كان أقرب الى حياة معاصريه من الناس مما كان اسخيلوس . على أن تصوير الحياة المعاصرة تصويرا أمينا هو بالضبط الصفة التى تعطى أى عمل من انتاج الخيال — سواء فى الأدب أو التصوير — طرافته الدائمة ، فلا غرابة أن نجد أنه بينما لم تصل الينا الا سبع مسرحيات بقلم اسخيلوس ، ومثلها بقلم سوفوكليس ، فان ما وصل الينا بقلم يوربيديس لا يقل عن تسع عشرة مسرحية .

على أن هذا استطراد ، فالسؤال الذى علينا أن نجيب عنه هو هل كان ارستوفانيس يعجب حقا باسخيلوس أم أنه كان يتظاهر بهذا الاعجاب فقط ؟ ويجب أن نذكر أن حق اسخيلوس وسوفوكليس ويوربيديس فى أن يشغلوا مكان الطليعة بين كتاب المآسى كان يعدّ قضية لا تقبل المناقشة أو الجدل كما يعد الايطاليون المحدثون حق دانتى وبترارك وتاسو وأريوستو فى أن يكونوا أعظم الشعراء الايطاليين . فاذا تصورنا كاتبا ذكيا لطيفا فى فلورنسة مثلا يجد نفسه ضيقا بهؤلاء الشعراء الايطاليين جميعا ، نستطيع مع ذلك أن نصدق أنه سيتردد فى الجهر بكراهيته لهم جميعا دون استثناء . فهو يؤثر القول بأنه يستطيع أن يرى شيئا على الأقل فى دانتى ، الذى يمكنه أن يرفعه فى سهولة أكثر الى مرتبة سامية لأنه أبعد من الآخرين عهدا ، وهو يحاول أن يلتقى بمواطنيه فى نقط أكثر مما يتفق وغرائزه لكى يحملهم على مزيد من الاقتناع برأيه . فلولا أن أرستوفانيس خفف من نقده لكتاب المسرحية القدامى بالاعجاب بواحد على الأقل منهم ، لكان خطرا عليه أن يهاجمهم ، كما هو خطر على أى رجل انجليزى فى أيامنا هذه

أن يقول انه لا يقدر المسرحيين الاليزابيثيين تقديرا كبيرا . ومع ذلك فمن منا فى قلبه يعجب بأى مسرحى اليزابيثى الا شكسبير ؟ أليسوا فى الواقع مخلوقات لعنت بالخلود(*) فى عالم الأدب ؟

وأختم مقالى هذا بالقول عموما ان ارستوفانيس لم يعجب بأى من كتاب المآسى هؤلاء ؛ ولكن لا ينكر أحد أن هذا الكاتب الصريح الذكى النافذ البصيرة كان حكما كفئا على القيمة الأدبية وكان له ما لتسعة أعشارنا على الأقل من قدرة على أن يلحظ أى مواطن للجمال تحتويها المآسى . وكان الى ذلك يمتاز عنا بالفهم الدقيق للزاوية التى كان كتاب المآسى يتوقعون الحكم منها على انتاجهم ، وماذا كانت النتيجة التى انتهى اليها ؟ لم تكن غير هذا بايجاز ، انهم خدعة ، أو أقرب ما يكونون الى الخدعة . أما أنا فانى أتفق معه من صميم قلبى . وأنا فى حل من الاعتراف بأننى — ربما باستثناء بعض مزامير داود — لا أعرف آثارا أقل جدارة بالسمعة التى تستمتع بها آثار هؤلاء الشعراء . ولست أظننى أمانع كثيرا فى أن يقرأ شقيقاتى آثارهم ، ولكنى حريص على أننى لن أقرأها أنا نفسى .

وكانت هذه العبارة الأخيرة الخاصة بمزامير داود مخيفة ، واحتدم النضال مع المحرر حول السماح بنشرها . وكان ارنست نفسه يرتعب منها ، ولكنه كان قد سمع بعضهم مرة يقول ان كثيرا من هذه المزامير ردىء جدا ، فلما قرأها بمزيد من العناية والتدقيق عقب سماعه هذا النقد ، وجد أنه لا يمكن أن يختلف اثنان على هذا الأمر . لذلك التقط هذه الملاحظة وأخرجها من جديد على أنها من بنات أفكاره ، منتهيا الى هذه النتيجة ، وهى أن هذه المزامير فى أكثر الظن لم يكتبها داود اطلاقا ، ولكنها اندست مع غيرها من المزامير خطأ .

(*) Struldbrugs فى قصة سويفت « رحلات جلفر » .

وأحدث المقال ضجة كبيرة — ربما بسبب الفقرة الخاصة بالمزامير ، واستقبله القراء على العموم استقبالا طيبا . وامتدحه أصدقاء ارنست أكثر مما يستحق ، وكان هو نفسه فخورا جدا به ، ولكنه لم يجرؤ على ابرازه فى باترزبى . كذلك كان يعلم أنه قد أفرغ الآن جعبته ، فتلك كانت فكرته الوحيدة (وأنا واثق أنه التقط أكثر من نصفها من غيره) ولم يعد لديه الآن شيء آخر يكتب عنه . ووجد نفسه مبتلى بسمعة صغيرة بدت له أكبر مما كانت ، وبشعوره بأنه عاجز عن الاحتفاظ بها . وقبل أن تمضى أيام كثيرة شعر بأن هذا المقال التعس كان كلاً عليه ، لا مفر من اطعامه بشتى المحاولات السريعة التى يبذلها ليحقق نصرا أعظم ، ولكن هذه المحاولات أخفقت كما يستطيع القارىء أن يتصور .

لقد فاته أنه لو تريث ، وأنصت ، ولاحظ ، لطرأت له فى أغلب الظن فكرة أخرى من نوع ما فى يوم من الأيام ، ولأوحى له تطور هذه الفكرة بدوره أفكارا أخرى غيرها . ولم يعلم بعد أن شر وسائل الظفر بالأفكار هو تصيّدها عمدا . انما وسيلة الظفر بها هى أن يدرس المرء شيئا يكون مولعا به ، وأن يدوّن ما يخطر له فى موضوعه ، سواء خلال الدرس أو الاسترخاء ، فى مفكرة صغيرة يحتفظ بها دائما فى جيب صدرته . ولقد انتهى ارنست الى أن يلمّ بهذا كله الآن ، ولكن الوصول اليه اقتضاه أمدا طويلا ، لأنه ليس من نوع الأشياء التى تدرس فى المدارس والجامعات . كذلك لم يعلم بعد أن الأفكار ، شأنها فى ذلك شأن الأحياء الذين تنبعث فى عقولهم ، يجب أن تولد من أبوين لا يختلفان عنها كثيرا ، ولا تختلف أكثر هذه الأفكار أصالة وابتكارا الا اختلافا طفيفا عن آبائها . فما أشبه الحياة باللحن المتسلسل (الفوج) ، كل ما فيه يجب أن ينمو من الموضوع ، ويجب ألا يكون فيه شيء دخيل . كذلك لم يفطن الى أنه من

الصعب جدا أن يقول المرء أين تنتهى فكرة من الأفكار وأين تبدأ أخرى ، ولا الى الشبه بين هذا وبين صعوبة القول أين تبدأ أو تنتهى الحياة ، أو العمل ، أو أى شىء فى الواقع ، لأن هناك وحدة على الرغم من التعدد الذى لا حصر له ، وهناك تعدد لا حصر له ، على الرغم من الوحـدة . انما حسب أن الأفكار تأتى فى أدمغة الأذكياء من الناس بنوع من التوالد التلقائى ، دون أن يكون لها أصل فى أفكار الآخرين أو فى طريق الملاحظة ، لأنه كان الى ذلك الحين يؤمن بالعبقرية ، التى كان على يقين بأن لا حظ له منها ان كانت هى ذلك الشىء المجنون الرائع الذى يتوهمه .

وكان قبل ذلك بوقت غير طويل جدا قد بلغ سن الرشد ، فسلمه ثيوبولد ماله الذى صار الآن خمسة آلاف من الجنيهات ؛ وقد استثمر هذا المال ليغل فائدة قدرها خمسة فى المائة ، فدر عليه دخلا قدره مائتان وخمسون جنيها فى العـام . على أنه لم يدرك (وما كان يستطيع أن يدرك شيئا غريبا عن تجربته) أنه قد استقل عن والده الا بعد هذا التاريخ بزمن طويل ؛ كذلك لم يغير ثيوبولد طريقته معه أى تغيير . فلقد بلغ سلطان العادة والترابط على كلا الوالد والولد مبلغا حسب معه الواحد أن له حقه القديم فى املاء ارادته ، والآخر أنه ما زال محروما من حقه فى المعارضة .

وفى خلال عامه الأخـير فى كمبردج أرهق نفسه كثيرا فى الدراسـة بحكم هذا الاحترام الأعمى لرغبات أبيه ، لأنه لم يكن هناك داع يدعوه الى أن يأخذ درجـة تزيد على درجـة مقبول الا اهتمام والده بحصوله على درجة شرف . بل لقد اعتلت صحته جدا ، بحيث كان هناك شـك الى أى مدى يستطيع التقدم لنيل درجته اطلاقا ؛ ولكنه استطاع ، وحين ظهرت النتيجة تبين أن درجته أعلى مما توقع هو أو أى شخص غيره ،

لأنه كان أحد الثلاثة أو الأربعة المتفوقين فى الرياضيات(*) ، وبعد أسابيع قليلة كان ترتيبه بين النصف الأدنى من الحاصلين على مرتبة الشرف الثانية فى الدراسات القديمة(**) . وبالرغم من اعتلال صحته يوم عاد الى بيت أبيه ، جعله ثيوبولد يقرأ معه جميع أوراق الامتحان ، بل يعطيه قدر استطاعته صورة من الاجابات التى قدمها . لقد بلغ من ضعف روح المقاومة فيه ، ومن عمق القناة التى استقر فيها ، أنه راح وهو فى بيت أبيه ينفق ساعات من كل يوم فى مواصلة دراسته للغات القديمة والرياضيات كأنه لم يفز بعد بدرجته الجامعية .

(*) Senior Optimes

(**) Classical Tripos

الفصل السابع والأربعون

عاد ارنست الى كمبردج ليبدأ فترة مايو ١٨٥٨ بحجة التحضير لرسامته قسيسا ، وهي الرسامة التى أصبح الآن يقف أمامها وجها لوجه ، واقترب منها قربا أكثر مما يحب . وكان الى ذلك العهد لا يشك على الاطلاق فى صدق أى شيء أخبر به عن المسيحية ، وان لم يكن ذا ميول دينية . انه لم ير قط أحدا يشك ، ولم يقرأ شيئا يثير فى عقله الريبة فى الصفة التاريخية للمعجزات الواردة فى العهدين القديم والجديد .

وليذكر القارىء أن سنة ١٨٥٨ كانت نهاية فترة اتصل فيها سلام الكنيسة الانجليزية اتصالا يسترعى النظر . وبين عام ١٨٤٤ الذى ظهر فيه كتاب « آثار الخليقة »(*) وعام ١٨٥٩ الذى بدأت فيه بظهور « بحوث ومقالات نقدية »(**) تلك العاصفة التى هبت سنوات طويلة ، لم ينشر كتاب واحد فى انجلترا يسبب أى اضطراب خطير داخل الكنيسة . ولعل كتاب بَكِل « تاريخ الحضارة »(***) وكتاب مِل « الحرية »(****) كانا أكثر ما ظهر ازعاجا ، ولكن أحدهما لم يصل الى الطبقة السفلية من جمهور القراء ، وكان ارنست وأصدقاؤه يجهلون حتى وجود هذين الكتابين . أما الحركة «الانجيلية» ، باستثناء واحد سأعود اليه بعد قليل ، فقد أصبحت تقريبا فى خبر كان . وأما حركة « النبــذ الدينية »(*****) فقد هبطت اثارتها أول الأمر ، كانت لا تزال تعمل ولكن فى غير ضجة . وكان كتاب

(*) Vestiges of Creation

(**) Essays and Reviews

(***) History of Civilization

(****) Liberty

(*****) Tractarianism

« آثار الخليقة » قد نسى قبل أن يذهب ارنست الى كمبردج ؛ ولم يعد الفزع من العدوان الكاثوليكى يثير الرعب فى النفوس ؛ أما « الطقسية » فكانت لا تزال مجهولة من عامة الجمهور فى الأقاليم ، وكانت مجادلات « جورام » و « هامبدن » قد ماتت قبل ذلك بسنوات ؛ ولم تكن حركة الخروج على الكنيسة الانجليكانية واسعة الانتشار ؛ وكانت حرب القرم هى الموضوع الوحيد الذى استغرق اهتمام الناس ، وتبعها حركة التمرد فى الهند ، والحرب الفرنسية النمساوية . هذه الأحداث العظيمة حولت عقول الناس عن الموضوعات النظرية المجردة ، ولم يقم عدوّ للدين يستطيع أن يثير اهتماما ولو فاترا بين الناس . ولعله لم تأت منـذ بداية القرن فترة يستطيع فيها المراقب العادى أن يتبين نذر الاضطراب المقبل أقل من نذر هذه الفترة التى أتحدث عنها .

ولا حاجة بى الى القول ان هذا الهدوء كان على السطح فقط . ولابد أن المتقدمين من القوم سنا رأوا أن موجة التشكك التى طغت من قبـل على شواطىء ألمانيا كانت متجهة الى شـواطئنا ، وما لبثت أن بلغتها . ولم يكد ارنست يرسم قسيسا حتى استرعت انتباه الناس — حتى أقلهم اكتراثا بالجدل اللاهوتى — ثلاثة كتب ظهرت فى تتابع سريع ، وهى كتاب « بحوث ومقالات نقدية » ، وكتاب تشارلز داروين « أصل الأنواع » ، وكتاب الأسقف كولنسو « مقالات نقدية عن أسفار موسى الخمسة » .

على أن هذا ليس الاّ استطرادا ؛ ولأعد الى الناحية الوحيدة من نواحى النشاط الروحى التى كان فيها رمق من الحياة خلال الفترة التى قضاها ارنست بكمبردج ، وأعنى بهذه الناحية بقايا النهضة « الانجيلية » التى سبقت هذه الفترة بأكثر من جيل ، والتى كانت مرتبطة باسم سيمون .

كان لا يزال هناك كثير من السيمونيين (أو « السمز » كما كانوا

يسمون على سبيل الاختصار) على عهد إرنسبت بكمبردج . وكانت كل كلية تحوى عددا منهم ، ولكن مقرهم الرئيسى كان فى كايوس ، حيث اجتذبهم مستر كلايتون الذى كان فى تلك الفترة معلما أول ، وبين طلاب كمبردج المتمتعين بالمصروفات المخفضة (*) فى كلية سانت چون .

فكنت تجد خلفه كنيسة كلية سانت چون هذه تيها أو « لابرنثا » (وهو الاسم الذى سميت به غرفهم) من الغرف المتهدمة المظلمة التى يستأجرها كلها أفقر الطلاب الذين يعتمدون على الاعفاءات من المصروفات وعلى المنح الدراسية لتيسر لهم الحصول على درجاتهم الجامعية . وكان كثيرون — حتى فى كلية سانت چون — يجهلون وجود هذا التيه ومكان هذه الغرف التى يعيش فيها أكثر هؤلاء الطلاب المعفين من المصروفات ؛ وكان بعض الرجال فى أيام ارنست ، ممن كانت لهم حجرات فى الفناء الأول بالكلية ، لا يستطيعون العثور على طريقهم فى الممر الكثير المنعطفات الذى يؤدى الى هذا التيه .

كان يعيش فى هذا التيه رجال من شتى الأعمار ، من الغلمان الى الشيوخ الذين اشتعلت رءوسهم شيبا والذين بدأوا الحياة فى سن متأخرة . وقلما كانوا يرون الا فى القاعة أو الكنيسة أو قاعة المحاضرات ، حيث كانت عاداتهم — سواء فى الطعام والصلاة والدراسة — تثير النفور والاستياء . ولم يكن أحد يعرف من أين أتوا ولا الى أين يذهبون ، ولا ماذا يفعلون ، لأنهم لم يكونوا يظهرون قط فى لعب الكركت أو مسابقات التجذيف ؛ انما كانوا جماعة كئيبة معتلة المظهر يزهدون فى اللباس وآداب السلوك زهدهم فى الجسد نفسه .

وكان ارنست وأصدقاؤه يرون أنفسهم آية فى التدبير لأنهم يعيشون

(*) Siyars

على هذا القدر اليسير من المال ، ولكن لو كان الرأى لسكان هـذا التيه لعـدّوا نصف نفقات هؤلاء ترفا عظيما ، وأى تقشف مارسـه ارنست كان اذن ضئيلا ولا ريب بالقياس الى ما يحتمله الطالب المتوسط من هذه الجماعة فى كلية سانت چون .

وكان ينبه من هؤلاء نفر حالما يتضح عقب امتحانهم الأول أنهم قد يشرفون الكلية ، ويظفر هؤلاء بمنح دراسية قيمة تمكنهم من الحياة فى شىء من اليسر ، فيختلطون بالمجتهدين من الطلاب الذين يتمتعون بمركز اجتماعى أفضل ، ولكن حتى هذا النفر — باستثناء عدد قليل — كان يقتضيهم التخلص من الحشافة التى جلبوها معهم الى الكلية أمدا طويلا ؛ كذلك لم يكن يصعب على الناظر أن يستشف أصلهم حتى يصبحوا معلمين ومشرفين فى الكلية . ولقد رأيت بعض هؤلاء يصلون الى مكان رفيع فى ميدان السياسة أو العلم وهم لا يزالون رغم ذلك يحتفظون بسيماء غرف « التيه » ومجانية كلية سانت چون على وجوههم .

كان هؤلاء الطـلاب الفقراء اذن ، المنفّرون فى ملامحهم ومشيتهم وعاداتهم ، المشعثون الرّثو الثياب الى حد لا يوصف ، يؤلفون طبقة قائمة بذاتها ، تختلف أفكارها وطرقها عن أفكار ارنست وأصدقائه وطرقهم ، وبين صفوفهم على الأخص كانت السيمونية تزدهر .

واذ كان أكثر هؤلاء السيمونيين يعدون أنفسهم لخـدمة الكنيسة (وقلما كانت تسمع فى تلك الأيام عبارة «رتبة الكهنوت»)(*) فقد زعموا أنهم تلقوا نداء عاليا يدعوهم للخدمة الدينية ، وكانوا على استعداد للتقتير على أنفسهم سنوات طوالا ليحضروا لها بالدراسات اللاهوتية اللازمة . وكان احتراف الدين لأكثرهم خليقا بأن يكون مدخلا الى مكانة فى المجتمع

(*) Holy Orders

حرموا منها بفعل حواجز كانوا يعلمون جيدا أن لا سبيل الى اجتيازها ؛ كانت الرسامة اذن تفتح أمامهم ميادين للطموح جعلتها محورا لتفكيرهم ، بعكس الحال مع ارنست الذى رأى فيها شيئا لابد منه فى يوم ما ، ولكنه يرجو — كما يرجو فى أمر الموت — ألا يضطر لمضايقة نفسه الآن به .

وكان هؤلاء الطلاب ، رغبــة فى الاعداد الأكمل لمهنتهم ، يعقدون اجتماعات فى بيوت بعضهم البعض لتناول الشاى والصلاة وغير ذلك من ألوان الرياضة الروحية . واذ وضعوا أنفسهم تحت ارشاد بعض المعلمين المعروفين ، فقد راحوا يعلمون فى مدارس الأحد ، ويبادرون — فى مناسبة وفى غير مناسبة — الى ايصال التعاليم الروحية الى جميع من يستطيعون حملهم على الاصغاء اليهم .

ولكن تربة الطلاب الميســورى الحال لم تكن صالحة للبذار التى حاولوا أن يبذروها . وكانت العبارات التقية الورعة ، التى يتحلّون بها أحاديثهم اذا ألقت بهم الصدفة فى صحبة طالب يعدوّنه « دنيويا » ، لا تثير غير النفور فى عقول أولئك الذين قصدوا بها . فاذا وزعوا النبذ الدينية التى يسقطونها ليلا فى صناديق بريد أناس طيبين وهم نيام ، أحرقت نبذهم أو أهينت اهانة أشنع من الاحراق ؛ كذلك كانوا هم أنفسهم يلقون الهزء الذى يذكرون فى فخر أنه كان حظ أتباع المسيح المخلصين فى كل زمان . وكثيرا ما كانوا فى اجتماعات صلواتهم يستشهدون بالفقرة التى كتبها الرسول بولس منبها فيها المؤمنين من أهل كورنثوس الى أن أكثرهم لم يكونوا ذوى تربية عالية أو ثقافة كبيرة . وكانوا يذكرون فى فخر أنهم هم أيضا ليس لديهم ما يعتزون به فى الناحيتين ، فافتخروا كالرسول بولس بأنه ليس لهم فى الجسد كثير مما يفخر به .

وكان لارنست عدد من الأصدقاء فى كلية سانت جون ، فاستطاع

أن يسمع عن السيمونيين وأن يرى منهم نفرا ممن كان يشار اليهم وهم يمرون بأفنية الكلية . وكان فيهم جاذبية تثير تقززه ؛ كان يكرههم ، ولكنه لم يستطع ان يحمل نفسه على تركهم وشأنهم . وفى مرة بلغ به الأمر أنه كتب تقليدا ساخرا لنبذة وزعوها فى الليل ، ووضع نسخة فى صندوق بريد كل من القادة السيمونيين . وكان موضوع النبذة الذى اختاره لها « النظافة الشخصية » . وقال فيها ان النظافة تقف الى جانب التقوى ؛ وقد تساءل فى أى جانب تقف ، وانتهى الى حضّ السيمونيين على أن يكثروا من غسل أجسادهم وثيابهم . ولست أستطيع اطراء دعابة بطلى فى هذا الأمر ؛ ولم تكن نبذته لامعة ، ولكنى أوردت هذه الواقعة لأبين أنه كان فيه ابان هذه الفترة شيء من خلق شاول(*) وكان يستمتع باضطهاد المختارين ، لا لأنه يشتهى التشكك كما قلت ، ولكن لأنه — كالمزارعين فى قرية أبيه — لا يود أن يرى الناس يأخذون المسيحية جادّين ، وان لم يحتمل أن يرى أحدا يستهين بها . وظن أصدقاء ارنست أن كراهيته للسيمونيين راجعة الى أنه ابن قسيس يستبد به على ما يعلمون . بيد أنها نشأت على الأرجح من عطف لاشعورى عليهم ، انتهى كما هى الحال مع الرسول بولس باجتذابه الى صفوف من كان يمعن فى احتقارهم وبغضهم .

(*) مضطهد المسيحيين ، وهو بولس بعد الايمان .

الفصل الثامن والأربعون

وحدث قبيل ذلك ، حين كان فى بيت أبيه بعد نيله درجته الجامعية ، أن تحدثت اليه أمه مرة حديثا قصيرا عن احترافه الدين . وكان الحديث بتحريض من ثيوبولد الذى كان يحجم عن خوض الموضوع بشخصه . وكان الحديث هذه المرة خلال جولة فى الحديقة ، لا على الأريكة — التى كان يحتفظ بها للمناسبات الجليلة .

وقالت أمه له « أنت تعلم يا ولدى الحبيب أن بابا (وكانت تدعو ثيوبولد بابا كلما تحدثت الى ارنست) شديد الحرص على ألا تبدأ خدمة الكنيسة فى غير تبصر ودون ادراك تام للمصاعب التى تكتنف مهنة القسيس . لقد بحثها كلها بنفسه فظهر له ضآلتها حين يواجهها الانسان فى شجاعة ، ولكنه يرغب اليك أنت أيضا فى أن تعيها وعيا قويا كاملا ما استطعت الى ذلك سبيلا قبل أن ترتبط بعهود لا رجوع فيها ، حتى لا تضطر أبدا الى الندم على الخطوة التى اتخذتها » .

وكانت هذه أول مرة سمع فيها ارنست بوجود أى مصاعب أو عقبات ، فلا غرابة أن سألها بطريقة مبهمة عن طبيعتها .

وأجابت كرستينا لفورها « ذلك سؤال لست أصلح لمناقشته يا ولدى العزيز ، لا بحكم طبيعتى ولا بحكم تعليمى . وقد أبلبل عقلك بحديثى عنه دون أن أستطيع اعادته الى استقراره الأول ، كلا ! كلا ! خير للنساء أن يجتنبن الخوض فى مسائل كهذه ، بل قد أقول خير للرجال أيضا ، لولا أن أباك رغب الى فى أن أتحدث اليك فى هذا الموضوع حتى لا يكون خطأ فيما بعد ، وها أنذا قد فعلت . وها أنت اذن عرفت كل شيء » .

وهنا انتهى الحديث فيما يتصل بهذا الموضوع ، وظن ارنست أنه فعلا يعرف كل شيء . فلولا أنه يعرفه فعلا لما أخبرته أمه بأنه يعرف عنه كل شيء — لا سيما فى موضوع من هذا النوع ؛ حسنا ، ليس هناك شيء كثير يستحق أن يُعرف عن الموضوع ؛ لقد قدّر أن هناك بعض العقبات ، ولكن أباه ، وهو برغم كل شيء عالم ممتاز ورجل مثقف ، كان فى أغلب الظن على حق فى هذا ، فلا حاجة به الى مزيد من عناء التفكير فى هذه المصاعب . ولقد بلغ من ضآلة تأثير هذا الحديث على عقله أنه لم يتبيّن الا بعد زمن طويل ، حين تذكر الحديث مصادفة ، كيف جازت عليه هذه الخدعة الشبيهة بخفة اليد . على أن ثيوبولد وكرستينا اقتنعا بأنهما أديا واجبهما بفتح عينى ولدهما على المصاعب التى تكتنف رضى رجل الدين بكل ما يجب أن يرضى به . فحسبهما هذا ؛ ومن دواعى الاغتباط أنه لم ير هذه المصاعب ذات بال برغم أنها بسطت أمامه فى تفصيل وصراحة . انه لم يكن باطلا اذن ما صليّا لأجله السنين الطوال ليكونا « أمينين مدققين حقا » .

وواصلت كرستينا الكلام بعد أن صرفت كل المصاعب التى قد تعترض طريق ارنست فى خدمته الدينية « والآن يا عزيزى هناك أمر آخر أحب أن أحدثك عنه ، وهو متصل بشقيقتك تشارلت ، وأنت تعلم مبلغ مهارتها وحذقها ، وكم كانت أختا عطوفا محبة ، وكم ستكون كذلك على الدوام لك ولأخيك چوى . وددت يا حبيبى ارنست لو أتيحت لى فرصة للعثور لها على زوج صالح أكبر مما يتاح لى فى باترزبى ، ويخيل لى أحيانا أنك قد تستطيع أن تفعل أكثر مما تفعل لمساعدتها » .

وبدأ ارنست يغتاظ حين سمع هذا ، لأنه كان قد سمعه مرات ومرات ، ولكنه لم يقل شيئا .

« انك تعلم يا عزيزى أن فى استطاعة الأخ أن يفعل الكثير لأخته ان

قصد . أما الأم فما أقل ما تستطيع فعله — والحق أنه ليس من عمل الأم أن تبحث عن الشبان ؛ انما هى مهمة الأخ أن يجد شريكا كفئا لأخته ؛ وقصارى ما أستطيع هو أن أحاول أن أجعل باترزبى أكثر ما يمكن جاذبية لمن تدعوهم اليها من أصحابك » ثم أضافت بحركة من رأسها « وفى هذا لست أحسبنى كنت مقصرة الى الآن » .

وقال ارنست انه قد دعا فعلا عددا من أصحابه من قبل .

« صحيح يا عزيزى ، ولكن يجب أن تسلم بأن أحدا منهم لم يكن بالضبط من ذلك النوع من الشباب الذى يمكن أن يستهوى تشارلت . ولا يسعنى فى الحق الا الاعتراف لك بأن ظنى خاب قليلا لأنك اخترت أحدا من هؤلاء صديقا حميما لك » .

وجفل ارنست ثانية :

« انك لم تحضر معك قط « فجنز » حين كنت فى رفبرو ، ويخيل الى أن فجنز هو من النوع الذى يصح أن تدعوه لزيارتنا » .

كانت أمه قد خاضت حديث فجنز هذا مرات لا حصر لها من قبل . ولم يكن ارنست على معرفة تذكر به ، واذ كان هذا الفتى يكبر ارنست بما يقرب من ثلاث سنوات فقد ترك المدرسة قبل أن يتركها هو بأمد طويل ، ثم انه لم يكن ولدا ظريفا ، وقد سلك مع ارنست سلوكا ثقيلا بطرق شتى .

ومضت أمه فى حديثها تقول « ثم هناك تاونلى . لقد سمعتك تتحدث عن تاونلى وتقول انه جدّف معك فى زورق بكمبردج . فليتك يا عزيزى تنمّى معرفتك بتاونلى وتدعوه لزيارتنا . ان لاسمه رنينا أرستقراطيا ، وأظننى سمعتك تقول انه الابن الأكبر لأبيه » .

واحمر وجه ارنست حين سمع اسم تاونلى .

كان ما يحدث حقيقة فى أمر أصدقاء ارنست هو هذا بايجاز : فأمه تحب أن تعرف أسماء الأولاد لا سيما من كان منهم وثيق الصداقة بولدها ؛ وكلما سمعت رغبت فى المزيد ؛ كان نهمها لا يشبع ؛ وما كان أشبهها بطائر صغير نهم من « الكوكو » يطعمه أبو فصادة على العشب . انها تبتلع كل ما يأتيها به ارنست وتظل جائعة كما كانت . وكانت تؤثر أن تلتمس طعامها عند ارنست لا عند چوى ، فقد كان چوى اما أغبى من أخيه واما أكثر امتناعا عليها ، على أية حال كان « استدراج » ارنست للحصــول على معلومات منه أيسر كثيرا من استدراج چوى .

وكان يلقى اليها بين الحين والحين بولد حى حقيقى ، اما بالقبض عليه والاتيان به الى باترزبى ، واما بدعوته للقائها ان أتت فى أى وقت الى رفبرو . وكانت تسلك فى الجملة مسلكا لطيفا أو كاللطيف ما دام الولد حاضرا ، ولكنها ما ان تنفرد بارنست حتى تغير نغمتها . وأيا كانت الصورة التى تصور فيها نقدها فخلاصتها دائما أن صــديقه لا خــير فيه ، وأن ارنست ليس خيرا منه ، وأنه كان جــديرا به أن يأتيها بغيره لأن هــذا لا يصلح أبدا .

وكلما كان الولد وثيق الصداقة بارنست ، أو يظن أنه وثيق الصداقة به ، انتقصت من قدره ، حتى اهتدى آخر الأمر الى هذه الخطة ، وهى أن يقول عن أى ولد يؤثره بمحبته أنه ليس واحدا من أخصائه ، وأنه فى الواقع لا يدرى لم دعاه ؛ ولكنه وجد أنه كان فى هــذا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لأنه ان صرحت أمه بأن الصبى أكثر نجاحا من سابقه ، لامت ارنست لأنه لم يقدره تقديرا أعظم .

وكانت اذا ظفرت مرة باسم لا تنساه قط . فتقول « وكيف حــال فلان ؟ » ذاكرة صديقا سابقا لارنست تشاجر معه الآن ، أو ثبت منذ أمد

بعيد أنه نيزك لا أكثر ، وأنه ليس نجما ثابتا على الاطلاق . وكم ودَّ ارنست لو لم يذكر قط اسم فلان هذا ، ونذر بينه وبين نفسه ليكتمن الحديث عن أصدقائه ، ولكن سرعان ما ينسى نذره بعد ساعات ، فيروح يثرثر فى غير حرص شأنه من قبل ، وعندها تنقض أمه فى سكون على ملاحظاته انقضاض البومة على الفأر ، ثم تبعث هذه الأسماء وتقذفه بها بعد ستة أشهر حين لا يعود هناك انسجام بينها وبين محيطها .

ثم هناك ثيوبولد أيضا . كان اذا دعا صبيا أو صديقا من أصدقاء الكلية الى باترزبى حاول ثيوبولد أول الأمر أن يتلطف معه . وكان يستطيع أن يفعل هذا الى حد لا بأس به حين يشاء ، وكان على الجملة يشاء فعلا ما دام الأمر متصلا بغير أهل بيته . وكان احترام جيرانه من رجال الدين له، بل قل جيرانه أجمعين ، يزداد عاما بعد عام ، وكانوا خليقين بجعل ارنست يندم بحق على قلة حذره لو اجترأ ولمّح أن لديه سببا للشكوى مهما كان تافها . كان عقل ثيوبولد يفكر بهذه الطريقة : « أنا أعلم أن ارنست أخبر هذا الصبى بأنى شخص رذل ، وسأريه أننى لست رذلا أبدا ، ولكنى رجل طيب ، بل ولد لطيف مرح ، بل فتى محبوب جدا ، وأن ارنست هو المخطىء من البداية الى النهاية » .

ومن ثم يسلك مع الولد مسلكا ظريفا جدا أول الأمر ، ويغتبط الولد به وينضم الى صفه ضد ارنست . وما دام ارنست قد حمل الولد على أن يأتى الى باترزبى فهو يريده بالطبع أن يستمتع بزيارته ، لذلك كان يسره أن يسلك ثيوبولد هذا المسلك الكريم ، ولكنه كان فى الوقت ذاته لشعوره بالافتقار الى سند خلقى يشد أزره ، يؤلمه أن يرى أحد أصدقائه الحميمين ينتقل الى معسكر العدو . ذلك أننا مهما بلغ علمنا بشىء من الأشياء — مهما بلغ الوضوح الذى نرى به بقعة من اللون حمراء

مثلا ، فانه يهزنا ويضعفنا أن نجد انسانا آخـر يراها خضراء ، أو يميل كثيرا الى رؤيتها خضراء .

وكان من عادة ثيوبولد أن يبـدأ بأن يضيق قليـلا قبل أن تنتهى الزيارة ، ولكن الفكرة التى يكونها الصبى فى القسم الأول من الزيارة هى الفكرة التى يحملها معه . ولم يكن ثيوبولد يناقش ارنست فى أمر واحد من هؤلاء الأولاد ، انما الذى يناقش هو كرستينا . كان ثيوبولد يسمح لهم بالمجىء ، لأن كرستينا تصرّ على مجيئهم بطريقة صامتة ملحة ؛ فاذا أتوا فعلا سلك معهم سلوكا مؤدبا مجاملا كما قلت ، ولكنه لم يكن يحب هذا ، بينما تحبه كرستينا كثيرا جدا ؛ وكان بودها لو استقدمت نصف تلاميذ رفبرو وكبمردج واستضافتهم فى باترزبى لو استطاعت أن تدبّر ذلك ، ولولا أنه يكلفها مالا كثيرا : كانت تحب مجيئهم لتتعرف على أشخاص جدد ، وتحب أن تمزقهم اربا وتقذف بالفضلات الى ارنست حالما تأخذ منهم كفايتها .

وكان شرّ ما فى الأمر أنه كثيرا ما كان يثبت أنها على حق . ان الأولاد والشبان عنيفون فى محبتهم ، ولكن قل أن يثبتـوا عليها كثيرا ؛ وهم لا يصلون حقيقة الى معرفة نوع الصديق الذى يحتاجون اليه الا حين يكبرون ؛ فالشبان فى محاولاتهم الأولى انما يتعلمون الحكم على الخلق . ولم يكن ارنست استثناء لهذه القاعدة العامة . وكثيرا ما اتضح ، حتى باعترافه هو ، أن الغزال بعد الغزال من أصدقائه ليس فى الواقع الا قردا ، وكان يؤمن أن أمه حكم أصدق على الأخـلاق منه ؛ ولكننا نستطيع أن نقول فى شىء من اليقين ، انه حتى لو جاءها ارنست بغزال صغير حقيقى لحكمت عليه أنه أقبح وأسوأ ما رأت من قرود .

وفى أول الأمر لم يكن يحسب أن أصدقاءه مطلوبون بسبب تشارلت ،

كان مفهوما أن تشارلت وهؤلاء الأصدقاء قد يستلطف أحدهما الآخر ، وسيكون هذا جميلا جدا ، أليس كذلك ؟ ولكنه لم ير فى هذا الترتيب أي سوء نية . أما الآن وقد تنبه الى معنى هذا كله فقد أصبح أقل ميلا الى دعوة أي صديق من أصدقائه الي باترزبى . وبدا لعقله الصغير الساذج أنه يكاد يكون من الخيانة أن تدعو صديقك لزيارتك بينما كل ما تعنيه فى الواقع هو « من فضلك تزوج أختى » . وما أشبه هذا بمحاولة الحصول على المال بحجج وأعذار مزيفة . ولو كان ارنست مغرما بشارلت لاختلف الأمر ، ولكنه كان يراها من أرذل الشابات فى محيط معارفه جميعا .

كانوا يزعمون أنها شديدة الحذق والمهارة . وكل الشابات اما جميلات جدا ، واما موهوبات جدا ، واما لطيفات جدا ؛ ولهن أن يخترن الى أى من هذه الطوائف يسعين ، ولكن لا مفر من أن يسعين الى واحدة من الثلاثة . وكان من العبث محاولة التمويه على الناس بأنها جميلة أو لطيفة ، وهكذا أصبحت موهوبة لأنه لم يبق أمامها غير هذا . ولم يعرف ارنست قط ما هو فرع الدراسة الذى تجلت فيه مواهبها ، لأنها كانت لا تعزف ولا ترتل ولا تصور ، ولكن بلغ من دهاء النساء وسعة حيلتهن أن أمه وتشارلت أقنعتاه فعلا بأن فى تشارلت شيئا أقرب الى العبقرية الصادقة مما فى أى فرد من أفراد الأسرة .

على أن أحدا من جميع الأصدقاء الذين حمل ارنست على محاولة اغرائهم لم يبد أقل بادرة على اعجابه بمواهب تشارلت الفائقة اعجابا يرغبه فى تملكها ، ولعل لهذا علاقة بالسرعة والحسم اللذين كانت كرستينا تصرف بهما النظر عن هؤلاء الأصدقاء واحدا تلو الآخر وتطلب جديدا .

وها هى ذى الآن تطلب تاونلى . ورأى ارنست هذا الخطر يلوح

من بعيد فحاول أن يتجنبه ، لأنه كان يعرف أنه يستحيل عليه أن يدعو تاونلى حتى ولو رغب فى أن يفعل .

كان تاونلى ينتمى الى جماعة من أخص جماعات الطلبة فى كمبردج ، ولعله كان أحب الطلاب الى اخوانه جميعا . كان كبير الجسم وسيم الطلعة — فقد بدا لارنست أوسم من رأى أو يستطيع أن يرى من الرجال طلعة ، لأنه لم يكن من الممكن تصور وجه أكثر من وجهه حيوية ولطفا . وكان يجيد لعبة الكركت والتجديف ، دمث الطبع جدا ، أبعد ما يكون عن الغرور ، شديد الفطنة وان لم يكن شديد المهارة والحذق ، وأخيرا فان أباه وأمه كانا قد غرقا فى قارب انقلب فى الماء وهو لا يتجاوز الثانية من عمره وخلفاه ولدا وحيدا وريثا لضيعة من أجود الضياع فى جنوبى انجلترا . وربة الحظ تغدق بين الحين والحين الحسنات من كل صوب على انسان ؛ ولقد كان تاونلى واحدا من أولئك الذين أحبتهم هذه الربة ، وكان حكم الناس عامة أنها حكيمة فى اختيارها هذه المرة .

كان ارنست ينظر الى تاونلى كما ينظر اليه كل انسان آخر فى الجامعة (فيما عدا المشرفين بالطبع) ، لأنه كان فتى ممتازا ، واذ كان ارنست شديد الحساسية فقد أحب تاونلى أكثر مما أحبه الجميع ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يخطر له قط أنه يجدر به أن يتعرف اليه ويصاحبه ؛ كان يحب أن يتطلع اليه اذا واتته الفرصة ، وكان شديد الخجل من نفسه لأنه يفعل هذا ، ولكن الأمر انتهى عند هذا الحد .

على أنه حدث فى العام الأخير الذى قضاه ارنست بالجامعة أنه حين ألقيت القرعة لاختيار أسماء الطلاب الذين يجدفون فى زوارق السباق الرباعى وجد ارنست نفسه — بفضل مصادفة عجيبة — قائدا لفريق من هؤلاء ، وكان بين الفريق بطله المثالى تاونلى ؛ أما الثلاثة الآخرون

فكانوا بشرا عاديين ، ولكنهم يحسنون التجذيف ، وكان الفريق على الجملة لا بأس به .

وارتاع ارنست ارتياعا كاد يذهب بلبه . غير أنه حين التقى الاثنان ، وجد أن تاونلى لم يكن فى افتقاره التام الى الغرور ، وفى قدرته على أن يبث الطمأنينة فى نفوس من يلقونه ، أقل منه فى سلوكه الخارجى ؛ والفرق الوحيد الذى وجده بين تاونلى وغيره من الناس أن الانسجام معه كان أيسر كثيرا . وبالطبع ازداد ارنست محبة له واعجابا به .

وانتهت الصلة بينهما بانتهاء السباق الرباعى ، ولكن تاونلى لم يكن يمر بعدها فى طريقه بارنست دون ايماءة منه وكلمات لطيفة يبادله اياها . وفى لحظة نحس ذكر ارنست اسم تاونلى فى باترزبى ، فماذا كانت النتيجة ؟ ها هى ذى أمه ترهقه بالحاحها عليه أن يدعو تاونلى الى الحضور الى باترزبى والزواج من تشارلت . انه فى الحق لو ظن أن هناك احتمالا ولو بعيدا جدا فى أن يتزوج تاونلى من تشارلت لركع على ركبتيه أمامه وأخبره بأنها فتاة شنيعة ، ولتوسل اليه أن ينجو بجلده ما دام فى الوقت متسع للنجاة .

ولكن ارنست لم يصلّ ليكون « أمينا مدققا حقا » سنوات طويلة كما صلّت كرستينا . لذلك حاول أن يخفى شعوره وأفكاره ما استطاع الى اخفائهما سبيلا ، وعاد بالحديث الى المصاعب التى قد يحس رجل الدين أنها تعوق رسامته — لا لأنه كان يحس أى شكوك أو هواجس ، ولكن ليحول انتباهها عن تاونلى . أما أمه فكانت تعتقد أنها فرغت من هذا الموضوع كله من قبل ، فلم يظفر منها بمزيد فيه . وبعد قليل وجد سبيله الى الهروب فلم يبطىء فى الافادة منه .

الفصل التاسع والأربعون

حين عاد ارنست الى كمبردج فى فترة مايو ١٨٥٨ خلص هو وبعض أصحابه ممن كانوا على شاكلته يعدون أنفسهم للرسامة الى أن من واجبهم أن ينظروا الآن فى موقفهم بمزيد من الجد والاهتمام . لذلك ازداد ترددهم على الكنيسة انتظاما ، وكانوا يعقدون اجتماعات مسائية خفية عن الأعين يدرسون فيها العهد الجديد . بل انهم بدأوا يحفظون عن ظهر قلب رسائل الرسول بولس فى لغتها الأصلية وهى اليونانية . وقرأوا ما كتبه بڤردج عن المواد التسع والثلاثين ، وما كتبه پيرسون عن قانون الايمان ، وكانوا فى ساعات رياضتهم يقرأون كتاب مور «سر التقوى» الذى استهوى ارنست، وكتاب تيلر « الحياة والموت المقدسان » الذى أثر فيه كذلك تأثيرا عميقا لجلال أسلوبه كما خيل اليــه . وأسلموا أنفسهم لمذكرات دين ألفورد مرشدا عن الانجيل اليونانى ، تلك المذكرات التى بصرت ارنست خيرا من ذى قبل بمعنى « المصاعب » ، ولكنها أيضا أشعرته بما كان فى النتائج التى خلص اليها اللاهوتيون العقليون الألمان من ســطحية وعجز — هــؤلاء اللاهوتيون الذين لم يكن له من سبيل الى التعرف على مؤلفاتهم غير هذا لأنه كان بريئا من العلم بالألمانية . وكان بعض الأصحاب الذين انضموا اليه فى هذه الدراسات من كلية سانت چون ، وكثيرا ما كانت الاجتماعات تعقد داخل جدران هذه الكلية .

ولست أدرى كيف وصلت أنباء هذه الاجتماعات السرية الى آذان السيمونيين ، ولكنها لابد قد وصلتهم بطريق ما ، اذ لم تمض عليها أسابيع

كثيرة حتى أرسلت نشرة الى كل شاب من المختلفين اليهـا تنبئـه بأن القس « جديون هوك » ، وهو واعظ انجيلى لندنى مشهور كانت عظاته حديث القوم يومها ، قادم لزيارة صديقه الشاب « پادكوك » الطالب بكلية سانت جون ، وأنه يسره أن يتحـدث الى أى من الشـبان الذين يودون الاستماع اليه فى مسكن بادكوك فى أمسية معلومة من أمسيات شهر مايو .

وكان بادكوك من أسوأ السيمونيين سمعة ، ذلك أنه لم يكن قبيح الوجه ، قذرا ، رث الثياب ، معتدا بنفسه ، مستهجن السلوك من كل وجه فحسب ، ولكنه كان أيضا مشوه الخلقة ، يهتز اذا مشى اهتزازا أكسبه كنية لا أستطيع أن أحكيها الا بهذه العبارة « هنا ظهرى ، وهناك ظهرى » ، لأن عجزيه كانا يؤكدان نفسيهما تأكيدا واضحا يكاد يوحى الى الناظر بأنهما فى كل خطوة يخطوها سيطيران فى اتجاهين مضادين كأنهما نغمتان موسيقيتان متضادتان فى المقام السادس الاضافى . ومن هنا يستطيع القارىء أن يحزر أن وصـول هذه النشرة كان له تأثير صاعق على من وجهت اليهم لحظة تسلموها نظرا للدهشة التى بعثتها فيهم . ولا شك أنها كانت مفاجأة جريئة، ولكن بادكوك كان ككثيرين من المشوهين أمثاله صفيقا يصعب صده ، كان فتى مغامرا بدا له هذا الظرف الحاضر فرصته التى يترقبها لينقل الحرب الى معسكر العدو .

وتشاور ارنست وأصحابه فقرروا قبول الدعوة ، مدفوعين بشعورهم بأنهم ما داموا يعدون أنفسهم للرسامة فجدير بهم ألا يتشبثوا هذا التشبث الشديد بالكرامة الاجتماعية ، وربما أيضا برغبتهم فى القاء نظرة فاحصة قريبة على واعظ يجرى ذكره على كل لسان . فلما جاء اليوم الموعود ذهبوا فى شىء من الارتباك والشعور بالهوان الى مسكن ذلك الشاب الذى كانوا ينظرون اليه من قبل نظرة من يشرف على انسان من علو شاهق ، والذى

ما كان لشيء أن يحملهم قبل ذلك بأسابيع على الظن بأنهم فى يوم من الأيام سيبادلونه الحديث .

كان مستر هوك شخصا يختلف فى مظهره كل الاختلاف عن بادكوك ، فهو وسيم الطلعة الى حد يلفت النظر ، أو لعله كان كذلك لولا رقة شديدة فى شفتيه ، ولولا نظرة فيها غلو فى الصلابة والعزيمة . وكانت قسمات وجهه كثيرة الشبه بقسمات وجه ليوناردو داڤنشى ، أضف الى ذلك أنه كان مرتب الشعر يبدو فى صحة سابغة وبشرة نضرة متوردة . وكان شديد التأدب فى سلوكه كثير الاحتفال ببادكوك ، الذى يبدو أنه كون فيه رأيا طيبا . وقد أخذ أصحابنا الشبان بهذا كله على الجملة ، وبدأ اعجابهم بأنفسهم يصبح أقل ، واعجابهم ببادكوك يصبح أكثر مما يطيب لآدم العتيق الذى كان لا يزال حيا فى باطنهم . وكان بين الحاضرين بعض السيموئيين المعروفين من كلية سانت جون وغيرها من الكليات ، ولكن عددهم كان أقل من أن يطغى على جماعة ارنست كما سأسميهم على سبيل الايجاز .

وبعد أن تبادل الحاضرون حديثا تمهيديا لم يكن فيه ما يؤذى شعور أحد ، بدأت مهمة المساء بأن وقف مستر هوك فى نهاية المنضدة وقال « لنصل » . ولم يتعجب هذا جماعة ارنست ، ولكن لم يكن لهم فيه حيلة ، فركعوا وتلوا الصلاة الربانية وبعض العبارات الأخرى خلف مستر هوك ، الذى ألقاها القاء جيدا جدا . ولما جلس الجميع خاطبهم مستر هوك دون أن يستعين بمذكرات ، متخذا آية لعظته هذه الكلمات « شاول ، شاول ، لماذا تضطهدنى ؟ » ولست أدرى أهى طريقة مستر هوك الشديدة الوقع فى النفوس ، أم هى شهرته الخطابية الذائعة ، أم علم كل واحد من جماعة ارنست بأنه يضطهد السيمونيين اضطهادا قليلا أو كثيرا ومع ذلك فهو يشعر شعورا فطريا بأنهم أشد منه شبها بالمسيحيين الأولين — على أى حال

فان الآية نفذت الى ضمائر ارنست وأصحابه كما لم تنفذ اليها من قبل ، برغم أنها مألوفة لهم . ولو أن مستر هوك وقف عند هذا الحد لكان فيما قال الكفاية تقريبا ، ولعله وهو يفحص الوجوه المشرئبة نحوه ويرى التأثير الذى طبعه عليها حدثته نفسه بأن ينهى عظته قبل أن يبدأها ، ولكن ان كانت حدثته ، فقد فكر فى الأمر ثانية ، ثم واصل خطابه على النحو الآتى . وكانت العظة نموذجية ، وهى تفسر حالة عقلية سيبدو بعد جيل أو جيلين أنها فى حاجة مؤسفة الى الشرح والايضاح :

قال مستر هوك « أيها الأصدقاء الشبان ، انى موقن أنه ليس بينكم واحد هنا يشك فى وجود ذات الهية . فان وجد هــذا الشخص فواجبى ولا ريب أن أوجه اليه الخطاب أولا . فاذا كنت مخطئا فى اعتقادى أن جميع الحاضرين هنا يؤمنون باله حاضر بيننا وان كنا لا نراه ، اله تكشف عينه أخفى أفكارنا ، فدعونى أتوسل الى هذا الشاك أن يجتمع بى عــلى حدة قبل أن نفترق ، وسأبسط أمامه اعتبارات شاء الله برحمته أن يعلن بها نفسه لى على قدر ما فى طاقة الانسان أن يفهمه ، ووجدت أنها تجلب سلاما لعقول الآخرين الذين كانت تساورهم الشكوك والريب(*) .

« انكم تعرفون هذه الأمور . فما بالى اذن أتكىء عليها ؟ أيها الأصدقاء الشبان الأعزاء ، لابد أن ضمائركم قد أجابت كلا منكم عن هذا السؤال فعلا ، فمع علمكم بأن هذه الأشياء حدثت حقا وفعلا فأنتم تعلمون أيضا أنكم لم تحققوها لأنفسكم كما كان واجبا عليكم أن تفعلوا ، وأنكم لم تعبأوا بمغزاها الخطير الرهيب .

« والآن دعونى أمضى شوطا أبعد . فأنتم جميعا تعلمون أنكم فى يوم ما سيدركم الموت ، فان لم يدركم — لأن هناك علامات غير قليلة تحدونى

(*) يلى هذا حديث عن المسيح ومولده وحياته ومعجزاته وموته وقيامته .

الى الأمل بأن المسيح قد يأتي ثانية وبعض الحاضرين الآن ما يزالون أحياء — فستتغيرون ؛ « فانه سيبوّق فيقام الأموات عديمي فساد .. لأن هذا الفاسد لابد أن يلبس عدم فساد ، وهذا المائت يلبس عدم موت .. فحينئذ تصير الكلمة المكتوبة ابتلع الموت الى غلبة » .

« أتؤمنون أم لا تؤمنون بأنكم في يوم ما ستقفون أمام كرسى قضاء المسيح ؟ أتؤمنون أم لا تؤمنون بأن عليكم أن تؤدوا حسابا عن كل كلمة باطلة تندّ عنكم ؟ أتؤمنون أم لا تؤمنون بأنكم مدعوون للحياة ، لا حسب مشيئة الانسان بل حسب مشيئة المسيح الذى أتى الى الأرض بدافع محبته لكم ، والذى تألم ومات من أجلكم ، والذى يدعوكم اليه ويتوق الى أن تنتبهوا في يومكم هذا — المسيح الذى ، ان لم تفعلوا ، فهو دائنكم يوما ما ، والذى ليس عنده تغيير ولا ظل دوران ؟

« أيها الأصدقاء الشبان الأعزاء ، «ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى يؤدى الى الحياة . وقليلون هم الذين يجدونه » . قليلون ، قليلون ، قليلون ؛ لأن من لم يبذل الكل فى سبيل المسيح ، لم يبذل شيئا .

« فان شئتم أن تعيشوا فى صحبة هـذا العـالم ، بل ان لم تكونوا مستعدين لبذل كل عزيز غال ان اقتضى المسيح بذله ، فاطرحوا فى الحال فكرة المسيح عمدا . ابصقوا عليه ، الطموه ، اصلبوه من جديد ، وافعلوا به ما شئتم ما دمتم تظفرون بصداقة هذا العالم وما دام الظفر بها فى استطاعتكم ؛ ان لذّات هذه الحياة القصيرة قد لا تساوى أن تشترى بعـذاب الأبدية ، ولكنها شيء والسلام طوال بقائها . أما ان شئتم الحياة فى صـحبة الله ، وان شئتم أن تكونوا فى عداد من لم يمت المسـيح من أجلهم باطلا ؛ أن كنتم — بايجاز — تحرصون الحرص كله على خيركم الأبدى ؛ اذن فتخلوا عن صداقة هذا العالم ؛ ولا مفر من أن تختـاروا بين الله والمـال ، لأنكم لا تستطيعون أن تخدموا الاثنين .

« انى أضع هذه الاعتبارات أمامكم بوصفها عملية تجارية واضحة — ان اغتفر لى استعمال هذا التعبير الدارج . وليس فى هذا القول شىء مبتذل أو مهين كما ادعى بعضهم أخيرا ، لأن الطبيعة كلها تدلنا على أنه ليس شىء أكثر قبولا عند الله من أن يكون لنا رأى رشيد فى صالحنا الذاتى ؛ فحذار أن تدعوا أحدا يخدعكم فى هذا الأمر ؛ انه سؤال بسيط عن حقيقة، أحدثت أمور معينة أم لم تحدث ؟ فان كانت قد حدثت فعلا ، أيكون معقولا أم غير معقول الرأى بأنكم ستسعدون أنفسكم وغيركم بتخير سلوك معين دون غيره ؟

« والآن دعونى أسألكم : أى جواب أجبتم به عن هذا السؤال الى الآن ؟ وصداقة من اخترتم ؟ فان كنتم وأنتم تعلمون هذا لم تبدأوا بعد فى العمل حسب وفرة العلم الكامن فيكم ، فان شخصا يبنى بيته ويضع كنزه على فوهة بركان لهو شخص فطن سليم العقل اذا قيس بكم . ولست أقول هذا مجازا ، ولست أقوله ترويعا لكم ، ولكنه الحقيقة التى لا غلو فيها ولا تزويق ، والتى لا تقبل جدالا ولا نقاشا منكم ولا منى » .

وهنا غير مستر هوك أسلوبه — وكان الى هذه اللحظة يتكلم فى هدوء عجيب — الى أسلوب أشد حماسة ، فمضى يقول :

« أواه « أيها الأصدقاء الشبان ، اهربوا ، اهربوا ، اهربوا ، الآن قبل أن ينقضى اليوم — الآن منذ هذه الساعة ، منذ هذه اللحظة ؛ لا تمكثوا ولو لتمنطقوا أحقاءكم ؛ لا تنظروا خلفكم لحظة واحدة ، بل اهربوا الى حضن المسيح الذى يجده كل من يطلبه ، اهربوا من غضب الله المخيف الذى ينتظر الذين لا يعرفون أسباب سلامهم . لأن ابن الانسان يأتى كلص فى الليل ، وليس منا واحد يستطيع أن يقول ان نفسه لن تطلب منه اليوم . فان كان بين الحاضرين هنا ولو واحد فقط تنبّه لكلامى هذا » —

وهنا جعل عينه تقع لحظة على كل السـامعين تقريبا ، لاسيما على جماعة ارنست — « فسأعلم أنه لم يكن عبثا شعورى بدعوة الرب ، وسماعى — كما خيل الىّ — صوتا فى الليل يأمرنى بأن آتى الى هنا سريعا ، لأن هناك اناء مختارا يحتاج الى معونتى » .

وهنا أنهى مستر هوك عظته فى شىء من الاقتضاب ، وكانت طريقته الجادة وطلعته الملفتة للنظر ، والقاوه الرائع — كل أولئك أحدث أثرا أبلغ مما تستطيع الكلمات الفعلية التى أوردتها أن تنقله الى القارىء ، فالسر فى الرجل أكثر مما هو فيما قال ، أما كلماته الغامضة الأخيرة عن سماعه صوتا فى الليل فان فعلها كان سحريا ، فلم يبق واحد لم يغضّ من بصره ، ولم تحدثه نفسه بأنه هو الاناء المختار الذى من أجله أرسل الله مستر هوك الى كمبردج . وحتى اذا لم يكن الأمر كذلك ، فان كلا منهم أحس أنه للمرة الأولى فى حضرة انسان تلقّى رسالة مباشرة منه تعالى ، وهكذا اقتربوا فجأة من معجزات العهد الجديد مائة مرة أكثر من ذى قبل . لقد ذهلوا ، ان لم يكونوا روّعوا ، فالتفوا كأنما باجماع تفاهموا عليه حول مستر هوك وشكروه على عظته ، وأقرأوا بادكوك وغيره من السيمونيين تحية المساء فى لهجة مشربة بالتواضع والاحترام ، ثم غادروا الحجرة معا . انهم لم يسمعوا غير ما كانوا يسمعون طوال حياتهم ، فما بالهم اذن ذهلوا وانعقدت ألسنتهم؟ بعض هذا فى ظنى راجع الى ما أخذوا به أنفسهم أخيرا من التفكير الجاد ، وما كانوا فيه من استعداد للتأثر ، وبعضه الى ما شعر به كل منهم من أن العظة موجهة اليه مباشرة لأنها ألقيت بين جدران أربعة ، وبعضه الى ما اتسم به خطاب مستر هوك من اتساق منطقى وخلو من المبالغة ، وروح اقتناع عميقة . لقد تأثروا ببساطة الرجل وجدّه الواضح حتى قبل أن يشير الى رسالته الخاصة ، ولكن هذه الاشارة ثبتت الأثر ومكنت كل شىء قاله فى

نفوسهم ، وأصبحت الكلمات « أهو أنا أيها الرب ؟ » مطبوعة على قلب كل منهم وهم عائدون الى مساكنهم غارقين فى تأملاتهم بين الأفنية والأديرة التى يسطع عليها ضوء القمر .

ولا علم لى بما دار بين السيمونيين بعد أن تركتهم جماعة ارنست ، ولكنهم لا يكونون بشرا ان لم يهزهم الطرب بما حققوا من نتائج فى ليلتهم . أجل ، لقد كان أحد أصحاب ارنست عضوا فى فريق الجامعة للكركت ، وحضر فعلا الى مسكن بادكوك ، ثم تسلل وهو يقرئه تحية المساء فى وداعة كما فعل الجميع . ولم يكن الظفر بنصر كهذا بالأمر الهيّن .

الفصل الخمسون

شعر ارنست الآن بأن نقطة التحول فى حياته قد أتت . انه سيضحى بكل شىء لأجل المسيح — حتى بالتدخين .

وهكذا جمع قصباته وأكياس تبغه وحبسها فى حقيبته تحت فراشه ليخفيها عن نظره ، وعن عقله جهد طاقته . انه لم يحرقها مخافة أن يدخل عليه ضيف يريد التدخين . فهو لا يمانع فى الحد من حريته هو ، ولكن لا مبرر للجور على حرية غيره ما دام التدخين ليس خطيئة .

وغادر مسكنه عقب الافطار ليزور رجلا اسمه دوسن ، وكان أحد المستمعين لمستر هوك فى الليلة البارحة ، وأحد الذين يعدون أنفسهم للرسامة فى الصوم الكبير الذى لم يبق عليه أكثر من أربعة أشهر . وكان هذا الرجل على الدوام جاد التفكير — أكثر قليلا مما يروق ارنست ؛ ولكن الظروف تغيرت الآن ، وبدا أن اخلاص دوسن الذى لا مراء فيه يؤهله ليكون مشيرا صالحا لارنست فى الوقت الحاضر . وفيما هو مار بالفناء الأول من أفنية كلية سانت چون فى طريقه الى مسكن دوسن ، لقى بادكوك فحياه فى شىء من الاحترام . فتلقى الرجل هذه البادرة بومضة من هذه الومضات الطروبة التى كانت تسطع من حين لحين على وجه بادكوك ، والتى لو أتيح لارنست مزيد من العلم لكان خليقا بها أن تذكره بروبسپير . والذى حدث أنه رآها وفطن لاشعوريا الى قلق الرجل وأنانيته ، ولكنه لم يستطيع بعد أن يعبر عنها تعبيرا دقيقا ؛ لقد كره بادكوك أكثر مما كرهه فى أى وقت مضى ، ولكن لما كان يبغى الانتفاع بالمزايا الروحية التى أتاحها له فلم يكن مناص من أن يتأدب معه ، فتأدب .

وأخبره بادكوك أن مستر هوك عاد الى المدينة عقب القاء عظته فورا ، ولكنه قبل أن يفعل سأله خاصة من يكون ارنست واثنان أو ثلاثة غيره . وفى اعتقادى أنه أفهم كل صديق من أصدقاء ارنست أن مستر هوك قد خصّه — قليلا أو كثيرا — بالسؤال والاستفسار عنه . وقد أشبع هـذا الاستفسار غرور ارنست — ولا عجب فهو ابن أمه ؛ وعاودته الفكرة بأنه قد يكون الشخص الذى أُرسل مستر هوك خصيصا لمعاونته . كذلك كان فى أسلوب بادكوك شيء يشتم منه أنه يستطيع أن يقول مزيدا اذا شاء ، ولكنه مأمور بالصمت .

واذ وصل الى مسكن دوسن وجد صديقه وقد استخفه الطرب لعظة البارحة . ولم يكن أقل ابتهاجا بما أحدثته من أثر فى نفس ارنست . قال انه كان دائما على علم بأن ارنست سيهتدى ؛ انه كان على يقين من هذا ، ولكنه لم يتوقع أن تكون هدايته فجائية على هذا النحو . فقال ارنست انه ولا هو توقع هذا ، أما الآن وقد وضح واجبه أمامه فى جلاء فانه سيعمل على أن يرسم بأسرع ما يمكن ، وسيتخذ وظيفة مساعد قسيس وان أكرهه هـذا على مبارحة كمبردج بأسرع مما يبتغى ، وهو أمر سيحزنه حزنا شديدا . وأثنى دوسن على هذا القرار ، واذ كان أرنست ما يزال أخا ضعيفا فى الايمان بعض الشيء فقد رتبا أن يرعاه دوسن رعاية روحية ويرشده بعض الوقت ويقوى ايمانه ويثبته .

وهكذا أبرم بين الاثنين حلف هجومى دفاعى (وكانا فى الواقع متنافرين تنافرا عجيبا) وعكف ارنست على التمكن من الكتب التى سيمتحنه فيها الأسقف . وانضم اليهما غيرهما شيئا فشيئا حتى كونا جماعة صغيرة ، أو كنيسة (والاثنان شيء واحد) ، وبدل أن يبلى أثر عظة مستر هوك فى نفس ارنست بعد أيام قليلة كما كان متوقعا ، ازداد وضوحا بحيث وجد

أصدقاء ارنست أن من الضرورى صده لا دفعه الى الأمام ، لأنه بدا مقبلا على تطور جديد — تطور أقبل عليه فى الواقع حينا — وهو أن يصبح من المتحمسين للدين .

ولم يرتد ارتدادا صريحا الا فى أمر واحد . فقد حبس كما قلت تبغه وقصبات تدخينه لكى لا يُغرى باستعمالها ، وتركها بشجاعة طوال اليوم التالى لعظة مستر هوك راقدة فى حقيبته ؛ ولكن هذا لم يكن بالأمر العسير، لأنه مرت به فترة كان يمسك فيها عن التدخين الى ما بعد الغداء فى القاعة . وبعد الغداء فى ذلك اليوم لم يدخن حتى جاء موعد الكنيسة ، فذهب الى الكنيسة من قبيل الدفاع عن النفس . ولما عاد صمم على أن ينظر الى الأمر من زاوية معقولة . فرأى أن لا فرق بين التدخين وتعاطى الشاى أو القهوة ، بشرط ألا يؤذى صحته — وهو لم يلحظ أنه ألحق بها أذى .

والتبغ لم يحرم فى أى موضع من مواضع الكتاب المقدس ، ولكن لنذكر أنه لم يكن قد اكتشف بعد ، ولعله لم ينج من التحريم الا لهذا السبب . وفى وسعنا أن نتصور الرسول بولس ، أو حتى المسيح نفسه ، يتناول قدحا من الشاى ، لكنا لا نستطيع أن نتخيل أيا منهما يدخن لفافة أو « شبكا » . ولم يستطع ارنست أن ينكر هذا ، وسلم بأن بولس كان من المحقق سيندد بالتبغ فى عبارات واضحة صريحة لو عرف بوجـوده . اذن ، أفليس من الاستغلال الدنىء للرسول أن نحتج بأنه لم يحرمه نصا ؟ ولكن يجوز من ناحية أخرى أن الله علم أن بولس كان سيحرم التدخين ، فقضى عمدا أن يكشف التبغ فى فترة لا يكون بولس فيها حيا بعد . وقد يكون فى هـذا بعض القسوة على بولس اذا قدرنا كل ما أدى من خدمات للمسيحية ، ولكنه سيعوض عنه بطرق أخرى .

وأقنعت هذه التأملات ارنست أنه يحسن به على الجملة أن يدخن ،

وهكذا تسلل الى حقيبته وأخرج منها قصباته وتبغه ثانية . لقد شعر بأنه يجب أن يكون هناك اعتدال في كل شيء حتى في الفضيلة ؛ لذلك دخن في تلك الليلة باسراف . على أنه من المؤسف أنه كان قد فاخر أمام دوسن باقلاعه عن التدخين . لذلك استصوب أن يحفظ القصبات في خزانته أسبوعا أو أسبوعين حتى يثبت ارنست من نواح أخرى أيسر من هذه الناحية أنه راسخ مكين ، وهنا يمكن أن تخرج خلسة مرة أخرى شيئا فشيئا — وهذا ما حصل.

وكتب ارنست الآن رسالة الى أبيه صاغها في أسلوب يختلف عن أساليبه العادية . كانت رسائله في العادة مادة مألوفة وحشوا يملأ فراغ الرسالة فقط لأنه ، كما بينت للقارىء من قبل ، كان اذا كتب عن أى شيء يهمه حقا ، أرادت أمه على الدوام أن تعلم المزيد عنه — لأن كل جواب جديد كان شبيها ببتر رأس من رءوس الأفعوان وظهور ستة أسئلة جديدة أو أكثر في مكانه — ولكن الأمر كان دائما ينتهى الى نتيجة واحدة ، هى أنه كان واجبا عليه أن يفعل غير ما فعل ، أو ألا يمضى في فعل ما يقترح فعله . أما الآن فقد خرج على طريقته وانتهى للمرة الألف الى أنه موشك على اتخاذ طريق سيوافق عليه أبوه وأمه ، وسيثير هذا الطريق اهتمامهما ، وهكذا يمكن أن يتفق هو وهما اتفاقا أكثر تعاطفا من ذى قبل . لذلك كتب رسالة متدفقة بالعاطفة ، شديدة الاندفاع ، كانت مبعث تسلية كبيرة لى وأنا أقرؤها ، ولكنها أطول من أن أوردها هنا . وقد ورد في عبارة من عباراتها : « اننى الآن منصرف الى المسيح ؛ وأخشى أن يكون أكثر أصدقائى بالكلية منصرفين عنه ؛ فعلينا أن نصلى من أجلهم حتى يجدوا السلام الذى في المسيح كما وجدته أنا » . وغطى ارنست وجهه بيديه خجلا وهو يقرأ هذه العبارة من حزمة الرسائل التى وضعها بين يدى — وكان أبوه قد ردها اليه بعد موت أمه التى احتفظت بها في حرص وعناية .

وسألته « أأحذف هذه الفقرة ؟ سأحذفها ان شئت » .

فأجاب « يقينا لا تفعل . واذا كان هناك أصدقاء ظرفاء يحتفظون بمزيد من السجلات لحماقاتى فاختر منها أفضل ما يروّح عن القارىء ، ودعه يضحك منها ما شاء أن يضحك » . ولكن تصور أى أثر أحدثته فى باترزبى رسالة كهذه — رسالة لم يمهد لها اطلاقا ! فحتى كرستينا نفسها صدت نفسها عن الفرحة الشديدة بما كشفه ولدها من قوة كلمة المسيح ؛ أما ثيوبولد فقد أخذ الروع منه كل مأخذ . انه لم ير بأسا بأن يُعفى ولده من الشكوك والمصاعب ، ولا بأن يرسم دون أن يثير عن رسامته ضجة ، غير أنه توجس شرا من هذه الهداية الفجائية التى أعلنها شخص لم يُبد الى الآن أى ميل للدين على الاطلاق . كان ثيوبولد يكره من الناس من لا يعرفون أين يحسن بهم أن يقفوا . وكان ارنست دائما غريب الأطوار عجيبا ؛ وما كان يدرى أبوه ما هو فاعل فى خطوته التالية ، الا أن يأتى أمرا شاذا أخرق . ولو أن الحبل أطلق له على الغارب بعد رسامته وشرائه وظيفة قسيس لأتى من الحركات والألاعيب قدرا لا يقاس به ما أتاه ثيوبولد فى شبابه . ولا شك أن رسامته وشراءه وظيفة دينية ستعمل كثيرا على تثبيت خلقه وارسائه ، فاذا تزوج كان على زوجته أن تتكفل بالباقى ؛ تلك فرصته الوحيدة ، ولم يكن ثيوبولد فى صميم قلبه — ان أردنا أن نصف فطنته — كبير الثقة فى هذه الفرصة .

وحين ذهب ارنست الى باترزبى فى يونيو حاول فى غير تبصر أن يبدأ مع أبيه صلات أقل تحفظا مما ألف . وكان أول الاتجاهات المتذبذبة التى اتخذها طيران ارنست حين انتشى بعظة مستر هوك هو الغلو فى «الانجيلية». وكان ثيوبولد نفسه أقرب الى حزب الكنيسة غير الطقسية* منه الى حزب

(*) Low Church

الكنيسة الطقسية(*) . وهذا هو التطور العادى الذى مر به قساوسة الريف الانجليزى خلال السنوات الأولى من حياته الكهنوتية ، أى بين عامى ١٨٢٥ ، ١٨٥٠ تقريبا ؛ ولكنه مع هذا لم يكن مستعدا لهذه النظرة التى يشوبها كثير من الاحتقار ، والتى نظر بها ارنست الآن الى عقائد الولادة الجديدة بالعماد ، والحل الكهنوتى (ما شاء الله ، أى شأن له بهذه المسائل ؟) ولا لرغبته فى أن يجد وسيلة للتوفيق بين المثدية والكنيسة الأسقفية . كان ثيوبولد يكره كنيسة روما ، ولكنه يكره المنشقين على الكنيسة الأسقفية أيضا لأنه يجدهم فى العادة قوما يزعجه التعامل معهم ؛ وهو على الدوام ضيق بمن لا يتفقون فى الرأى معه : أضف الى ذلك أنهم يدعون العلم بكل ما يعلم ؛ ومع ذلك فلو أنه ترك وشأنه لمال اليهم أكثر من ميله الى حزب الكنيسة الطقسية . على أن القساوسة المجاورين له كانوا يأبون أن يتركوه وشأنه . فلقد خضعوا واحدا تلو الآخر خضوعا مباشرا أو غير مباشر لتأثير «حركة أكسفورد» التى بدأت قبل عشرين عاما . وكان عجيبا منه أن يطبق هذه الطقوس الكنسية الكثيرة التى كان فى شبابه يعدها بابوية؛ اذن فهو على بينة تامة من الاتجاه الذى تسير فيه الأمور فى الكنيسة ، ورأى أن ارنست كعادته يتجه الى نقيضه . ورأى فرصة اخبار ولده بأنه أحمق أنسب من أن يغفلها ، ولم يكن ثيوبولد بطيئا فى تحيّنها . واغتاظ ارنست ودهش . أفلم يرغب اليه أبوه وأمه فى أن يكون أكثر تدينا طوال حياته ؟ والآن وقد فعل ، فهما ما يزالان غير راضيين . وقال لنفسه ليس نبى بلا كرامة الا فى وطنه ، ولكنه كان فى الفترة الأخيرة — أو على الأصح حتى هذه الفترة الأخيرة — قد اعتاد عادة منكرة ، هى عادة قلب الأمثال رأسا على عقب ، وقد خطر له أن ليس وطن أحيانا بلا كرامة

(*) High Church

الا بسبب نبيه . فضحك ، وشعر بقية اليوم شعورا أقرب الى شعوره قبل أن يستمع الى عظة مستر هوك .

وعاد الى كمبردج ليقضى العطلة الطويلة لعام ١٨٥٨ — وعاد فى أوانه ، لأنه كان عليه أن يتقدم لامتحان اللاهوت الاختيارى الذى كان الأساقفة يصرون الآن على عقده . وكان يخيل اليه طوال تحضيره للامتحان أنه يزوّد نفسه بالمعرفة التى تؤهله خير تأهيل للعمل الذى اضطلع به . أما الحقيقة فهى أنه كان « يصـــم » لينجح فى الامتحان . وقد نجح فعلا — وبتفوق ، ورسم شماسا مع ستة آخرين من أصحابه فى خريف ١٨٥٨ ، وكان اذ ذاك قد بلغ عامه الثالث والعشرين .

الفصل الحادى والخمسون

رسم ارنست لوظيفة مساعد قسيس فى حى من أحياء لندن الوسطى . وكان علمه بلندن الى ذلك الحين لا يكاد يذكر ، ولكن غرائزه اجتذبته اليها. وبدأ مباشرة واجباته فى اليوم التالى لرسامته — شاعرا شعور أبيه حين وجد نفسه محبوسا فى العربة مع كرستينا فى صبيحة زواجه . وقبل أن يسلخ الأيام الثلاثة الأولى ، شعر بأن سناء السعادة التى عرفها خلال أعوامه الأربعة فى كمبردج قد انطفأ ، وارتاع لأنه لم يجد سبيلا للرجوع فى الخطوة التى أحس الآن أنه اتخذها فى كثير من التسرع .

وأرفق ما أستطيع أن ألتمس لبطل قصتى من معاذير تشفع له فى تقلباته الذهنية التى علىّ الآن أن أدونها ، هو أن صدمة التغير المترتبة على تدينه الفجائى ورسامته ومغادرته كمبردج كانت أقوى من أن يحتملها ، وأنها زعزعت توازنه الذى كان الى ذلك الحين يفتقر الى الخبرة ، ومن ثم يعوزه بالطبع الاستقرار والثبات .

وفى كل منا تفاية عليه أن يعمل على التخلص منها قبل أن يستقيم له أمره — بل انه كلما كان عمله الحسن النهائى أبقى على الأيام ، كان حتما عليه أن يجوز فترة ، وربما فترة طويلة جدا ، يبدو أن الأمل فيه ضئيل جدا . لابد لنا جميعا من أن نبذر حماقات شبابنا الروحية . ولكن الخطأ الذى أميل شخصيا الى لوم ولدى بالعماد عليه ليس أنه كان لديه حماقات يبذرها ، ولكن هو أن هذه الحماقات كانت هزيلة لا طرافة فيها . فروح الفكاهة والميل الى التفكير المستقل ، وهما أمران كان قد أبدى الى شهور قليلة خلت

استعدادا طيبا فيهما ، قد قتلا فيه كأنما هبط عليهما صقيع متأخر ، فى حين ارتدت اليه عادته القديمة ، عادة تصديق كل ما يقوله له أصحاب السلطان ، واتباع كل شيء الى نهايته المرة مهما كان سخيفا غير معقول ، وارتدت بقوة مضاعفة . وفى ظنى أن هذا ما ينتظر من أى شخص يوضع فى مكان ارنست ، لاسيما اذا ذكرنا سوابقه ، ولكن الأمر أدهش وخيب ظنون بعض أصحاب كمبردج الأكثر اتزانا ، والذين كانوا قد بدأوا يحسنون الظن بقدرته وكفايته . أما هو فقد بدا له أن الدين لا يتفق مع أنصاف الحلول أو حتى مع التوفيق والتسوية . لقد أدت الظروف الى أن يرسم ، وهو آسف فى الوقت الحاضر لهذا ، ولكنه فعل فعلته ولابد أن يمضى فيها الى النهاية . ومن ثم فقد عكف على البحث عما ينتظر منه ، وعلى التصرف بناء على ذلك .

وكان رئيسه القسيس رجلا معتدلا من رجال الكنيسة الطقسية ذا آراء يعوزها الوضوح الشديد — كهلا تقلب عليه من المساعدين ما يكفى لتبصيره بأن العلاقة بين القسيس ومساعده ، كالعلاقة بين صاحب العمل والموظف فى فى أى مرفق آخر من مرافق الحياة ، هى علاقة عمل لا أكثر . وكان عنده الآن مساعدان أصغرهما ارنست ؛ فأما المساعد الأكبر فكان يسمى « پراير » ، فلما حاول هذا الشاب التقرب من ارنست — وهو ما فعله بعد قليل — رحب ارنست فى يأسه بهذه المحاولات .

وكان پراير يناهز الثامنة والعشرين من عمره . تلقى علومه قبل ذلك فى ايتن وأكسفورد . وكان طويل القامة يحسبه الناظرون عامة وسيم الطلعة ، ولم أره غير مرة فترة لا تزيد على خمس دقائق ، خيل لى فيها أنه قبيح منكر سواء فى طبعه أو طلعته . وربما كان ذلك لأنه قاطعنى بطريقة لم تعجبنى . فقد كنت اقتبس عبارة من شيكسبير لأننى لم أجد خيرا منها لاكمال جملة — وقلت ان لمسة واحدة من الطبيعة تجعل الدنيا كلها متماثلة . فقال پراير

بطريقة صفيقة وقحة آذتني « نعم ، ولكن لمسة واحدة من الشذوذ تجعلها أكثر تماثلا » ، ثم حدجني بنظرة كأنه يحسبني شيخا ثقيــلا لا يهمه أن يصدمني قوله هذا أولا يصدمني . وطبيعي أنني بعد هذا لم أحبَّه .

على أن هذا سبق للحوادث ، لأنني لم أقابل بالصدفة پراير هذا الا بعد أن قضى ارنست ثلاثة أشهر أو أربعة فى لندن ، والذى يهمنى هنا هو أن أتناول أثره فى ولدى بالعماد لا فيَّ . كان پراير أنيق الهندام فضلا عن وسامته فى أعين الناس بوجه عام ، وكان على الجملة من ذلك الطراز الذى ينتظر أن يخشاه ارنست ومع ذلك ينخدع به . كان فى زيه مغاليا فى الطقسية، وأصحابه كلهم من حزب الكنيسة الطقسية المتطرف ، ولكنه كان فى حضرة رئيسه يستر آراءه الى حد كبير ، ولم يجد الرجل للشكوى منه مبررا يدعوه لقطع الصلة بينهما وان نظر شزرا الى بعض أصدقائه . كذلك كان پراير محبوبا حين يعتلى المنبر ، ولعلك اذا أخذته فى جملتــه واجد فى صــغار القساوسة أمثاله كثرة أســوأ منه مقابل قلة أفضل . فلما زار پراير بطل قصتى ، اشتمله بنظرة سريعة نفاذة حال أن انفرد به ، وبدا أنه غير مستاء من النتيجة — لأنه لابد من أن أذكر للقارىء بهذه المناسبة أن مظهر ارنست كان قد صلح بفضل المعاملة اللطيفة التى لقيها فى كمبردج . والواقع أن پراير استحسن مظهره استحسانا حمله على معاملته بأدب ، وكان كل من يفعل هذا يكسب ارنست لتوه . ولم يمض طويل وقت حتى اكتشف ارنست أن حزب الكنيسة الطقسية ، وحتى روما نفسها ، كان عندهما من أسباب الدفاع عن نفسيهما أكثر مما ظن . وكانت هذه أول ذبذبة من ذبذبات طيرانه .

وقدمه پراير الى عدد من أصدقائه ، وكلهم من صغار القساوسة الذين ينتمون الى أكثر أحزاب الكنيسة الطقسية تطرفا ، ولكن ارنست دهش حين وجد الشبه الكبير بينهم وبين غيرهم من الناس حين يجتمع بعضهم ببعض .

وكانت هذه صدمة له ؛ وبعد قليل عاجلته صدمة أقوى اذ وجد أن بعض الأفكار التى حاربها لأنها قتالة للروح والتى تصور أنه سيودعها الى الأبد عند رسامته ، ما زالت تزعجه كما أزعجته من قبل ؛ كذلك رأى فى وضوح وجلاء أن الشبان الذين يؤلفون حلقة پراير واقعون فى نفس الورطة الأليمة التى كان واقعا فيها .

وكان هذا أمرا مؤسفا . ولم ير ارنست من سبيل أمامه سوى أن يعجل بالزواج . ولكنه لا يعرف امرأة يريد أن يتزوجها . بل انه لا يعرف أى امرأة لا يؤثر أن يموت على أن يتزوجها . فلقد كان من أهم أهـداف ثيوبولد وكرستينا أن يبعداه عن طريق النساء ، فوفقا فى هذا توفيقا جعل النساء فى رأيه مخلوقات غامضة عويصة الفهم لا يطيقها المرء الا اذا اسـتحال عليه تجنبها ، ولكن يجب ألا يلتمسها أو يشجعها . أما أن يقع رجل ما فى الحب، أو أن يكلف اطلاقا بأى امرأة ، فرأيه أن هذا يحدث ، ولكنه اعتقد أن معظم من يدعون هذه العواطف كاذبون . على أنه وضح الآن أنه علل نفسه طويلا بأمل كاذب ، وأن الشيء الوحيد الواجب عليه عمله هو أن يمضى ويطلب الى أول امرأة ترضى بالاستماع اليه أن تأتى وتتزوجه بأسرع ما تستطيع .

وفاتح پراير فى الأمر ، فأدهشه أن يجد هذا السيد — الذى كان كثير الاحتفال بمن وهب الشباب والحسن من رعيته — يحبذ أشد التحبيذ عزوبة رجال الدين ، وكذلك كان القساوسة الصغار المتزنون الذين عرفهم پراير بارنست .

الفصل الثاني والخمسون

وقال پراير « يا عزيزى پونتفكس » وكان قد تعرف اليه منذ أسابيع قليلة (وهما يتمشيان فى حدائق كنزنجتن) « اسمع يا عزيزى پونتفكس ، لا بأس بأن نختلف مع كنيسة روما ، ولكن كنيسة روما حولت معاملة النفس الانسانية الى علم من العلوم ، أما كنيستنا فهى وان كانت أنقى جدا فى كثير من النواحى ، فهى لا تملك نظاما موضوعا لا للتشخيص ولا لعلم الأمراض — وأنا بالطبع أعنى التشخيص الروحى ، وعلم الأمراض الروحية . فكنيستنا لا تصف علاجا بناء على نظام مقرر ، وأسوأ من هذا أنه حتى حين يقـرر أطباؤها نوع المرض ويذكرون العلاج على قدر ما أوتوا من علـم ، فهى لا تملك من النظام والتأديب ما يكفل استخدام هذا العلاج فعلا . فاذا لم يشأ مرضانا أن يفعلوا ما تأمرهم به فاننا لا نستطيع أن نحملهم على فعله . ولعل هذا خير فى الظروف الراهنة كلها ، لأننا من الناحية الروحية لا نعدو أن نكون بياطرة اذا قستنا بكهنة روما ، ولا أمل لنـا فى أن نحقق أى تقدم فى محاربة ما يحيط بنا من خطيئة وبؤس حتى نعود فى بعض النواحى الى ما كان يفعله السلف والشطر الأكبر من العالم المسيحى » . وسأله ارنست فى أى النواحى يرغب صديقه فى أن نعود الى ما كان يفعله السلف.

فأجاب « عجبا يا عزيزى ، أيمكن حقـا أن تجهل هـذا ؟ ان المسألة بالضبط هى : اما أن يكون القسيس مرشدا روحيا فى الحقيقـة والواقع بوصفه قادرا على تبصير الناس بالحياة خـيرا مما يسـتطيعون البصر به بأنفسهم ، واما ألا يكون شيئا على الاطلاق — اذ ليس له « علة وجود » .

فاذا لم يكن القسيس شافيا ومرشدا لنفوس الناس ، كما أن الطبيب هو الشافى والمرشد لأبدانهم ، فماذا يكون عمله اذن ؟ لقد أظهر لنا تاريخ الأجيال كلها — ولابد أنك تعلم هذا كما أعلمه أنا — انه كما أن الناس لا يستطيعون علاج أجسام مرضاهم ما لم يدربوا تدريبا صحيحا فى مستشفيات تحت اشراف أساتذة مهرة ، فكذلك لا يمكن شفاء النفوس من أمراضها الأكثر خفاء دون الاستعانة برجال مهرة فى فن الروح — أى بعبارة أخرى دون الاستعانة بالقساوسة . والا فماذا تعنيه نصف طقوسنا ونصف العبارات فى كتب صلواتنا ان لم يكن هذا ؟ فكيف يعقل اطلاقا أن نكشف عن الطبيعة الصحيحة لمرض روحى ان لم تتوافر لنا الخبرة بحالات مماثلة أخرى ؟ وكيف نصل الى هذه الخبرة دون تدريب خاص ؟ أما الآن فعلينا أن نبدأ كل التجارب بأنفسنا دون الانتفاع بخبرة السلف المنظمة ، ما دامت هذه الخبرة لم تنظم ولم تنسق على الاطلاق . ومن ثم فلا بد فى البداية من أن يهلك كل منا نفوسا كثيرة كان يمكن انقاذها بالعلم ببعض المبادىء الأولية » .

ووقع هذا فى نفس ارنست وقعا قويا جدا .

ومضى پراير يقول «أما أن يشفى الناس أنفسهم ، فذلك ما لا يستطيعونه أكثر مما يستطيعون شفاء أبدانهم أو مباشرة قضاياهم أمام المحاكم بأنفسهم . فهم يتبينون فى هاتين الحالتين حماقة تدخلهم فى شئونهم الخاصة ، فيذهبون بطبيعة الحال الى مستشار محترف ؛ ولا ريب فى أن نفس الانسان شىء أصعب وأعقد علاجا من البدن أو المال ؛ وعلاجها فى الوقت نفسه علاجا صحيحا أهم عنده من علاج بدنه أو ماله . فما ظنك بمسلك كنيسة تشجع الناس على أن يعتمدوا على نصيحة غير أهل المهنة فى شئون تمس مصالحهم الأبدية ، فى حين لا يخطر ببالهم أن يعرضوا مصالحهم المادية للخطر بتصرف أخرق كهذا ؟ » .

ولم ير ارنست فى هذا الكلام مغمزا . لقد طافت هذه الأفكار بعقله بصورة مبهمة غامضة قبل الآن ولكنه لم يتمكن منها قط ولا استطاع أن يضعها أمامه فى صورة مرتبة . كذلك لم يسعفه ذكاؤه فيكشف عن المقارنات الزائفة والاستعارات المضللة فى حديث پراير ؛ والواقع أنه لم يكن سوى طفل فى يد زميله القسيس الشاب .

وعاود پراير حديثه فقال « الام يشير هذا كله ؟ أولا الى واجب الاعتراف للقسيس — وهو واجب أستسخف الضجة التى تثار ضده كالضجة التى تثار ضد التشريح بوصفه جزءا من تدريب طلبة الطب . فنحن نسلم بأن هؤلاء الطلبة الشبان مضطرون أن يروا ويفعلوا كثيرا مما لا نحب نحن أنفسنا حتى أن نفكر فيه ، ولكن عليهم أن يتخذوا مهنة أخرى ان لم يكونوا مستعدين لهذا كله ؛ ولقد يتلقحون بالسم من جسم ميت ويهلكون ، ولكن لابد لهم من أن يجربوا حظهم . فاذا كنا نطمح فى أن نكون قسيسين فعلا لا اسما فحسب ، وجب علينا أن نطلع على أدق تفاصيل الخطيئة — بشتى أنواعها — وأشدها تنفيرا ، حتى نستطيع أن نتبينها فى كل مراحلها . ولا مفر من أن يهلك بعضنا روحيا فى أبحاث كهذه . ولكن لا حيلة لنا فى الأمر ؛ فلكل علم شهداؤه ، ولا شهداء أجدر بتقدير البشرية من أولئك الذين سقطوا فى دراسة علم الأمراض الروحية » .

وازداد ارنست شوقا ولكنه لتواضعه لم يقل شيئا .

ومضى صديقه يقول « لست أبتغى هذا الاستشهاد لنفسى ، بل اننى على العكس سأتجنبه بأقصى ما فىّ من قوة ، ولكن اذا كانت مشيئة الله أن أسقط فى أثناء دراستى لشىء أعتقد أنه يستهدف تمجيد الله — عندئذ أقول فلتكن أيها الرب لا مشيئتى بل مشيئتك » .

وكان هذا اسرافا حتى فى رأى ارنست . فقال وهو يبتسم « سمعت مرة بامرأة ارلندية قالت انها شهيدة الشراب » .

وأجاب پراير فى حماسة « وكذلك هى فى الحق » ؛ ثم راح يدلل على أن هذه المرأة الطيبة مجربة ، وأن تجربتها تزخر بالتعليم والارشاد لغيرها من الناس وان كانت وخيمة العواقب عليها . فهى اذن شهيدة ، أو شاهدة صادقة على العواقب الرهيبة التى يسفر عنها الاسراف فى الشراب ، الأمر الذى يؤدى ولا شك الى انقاذ كثيرين ممن كانوا سيدفعون الى الشراب لولا استشهادها . انها مخلوقة يائسة أعان اخفاقها فى اتخاذ موقف ما على اثبات امتناعه عليها واذن على التخلى عن كل محاولة لاتخاذه . وهـذا كسب للانسانية لا يقل عن الاتخاذ الفعلى لهذا الموقف .

ثم أضاف فى مزيد من العجلة « زد على ذلك أن الفواصل بين الرذيلة والفضيلة سيئة التحديد الى درجة مؤسفة . فنصف الرذائل التى يسفهها العالم بأعلى صوته تنطوى بين ثناياها على بذور من الخـير ، وتتطلب الاعتدال فيها أكثر من الامتناع التام عنها » .

وسأله ارنست فى استحياء أن يمثل له .

وقال پراير « لا ، لا ، لن أمثل ، ولكنى سأعطيك قانونا يشتمل جميع الحالات ، وهو أن أى عادة لم يقض عليها بين أكثر أجناس البشر وسامة وعافية وثقافة ، برغم قرون من المحاولات لاستئصالها ، لا تكون شريرة شرا خالصا . فاذا استطاعت رذيلة برغم هذه المحاولات أن تثبت بين أكثر الشعوب تهذيبا فلا بد أنها قائمة على حق ثابت أو حقيقة لا تتغير فى الطبيعة البشرية ، ولا بد أن لها نفعا معوضا لا نملك أن نستغنى عنه استغناء تاما » .

وقال ارنست فى تردد « ولكن أليس هذا فى حقيقته الغاء لكل تفرقة بين الحق والباطل ، وتركا للناس دون أى مرشد خلقى كائنا ما كان ؟ » .

وكان جواب پراير « لن يترك الناس ، فيجب أن نحرص على أن نكون مرشدين لهؤلاء الناس ، لأنهم دائما عاجزون وسيظلون دائما عاجزين عن أن يرشدوا أنفسهم ارشادا كافيا . وينبغى أن نخبرهم بما يجب أن يفعلوه ،

وفى الأحوال المثالية ينبغى أن يكون فى استطاعتنا أن نحملهم على فعله : ولعلنا حين تتلقى تعليما أفضل قد نصل الى هذه الحال المثالية ؛ وليس شىء أدعى الى تحقيقها من المامنا الماما أعظم بعلم الأمراض الروحية . وهـذا يقتضينا ثلاثة أشياء ؛ أولها أن تطلق يدنا نحن الكهنة فى التجربة اطلاقا تاما ؛ ثانيها أن يتاح لنا العلم التام بما يفكر فيه غير رجال الدين وما يفعلونه والعلم بالأحوال الروحية الناشئة عن هذه الأفكار والأفعال ؛ وثالثها أن ننظم أنفسنا تنظيما أكثر احكاما .

« فاذا أردنا أن نحقق أى نجاح وجب علينا أن نكون هيئة وثيقة الترابط فيما بينها ، مميزة تمييزا واضحا عن العلمانيين . كذلك يجب أن نتحرر من الروابط التى يقتضيها وجود الزوجة والأبناء . ولست بقادر على أن أصف لك الرعب الذى يملؤنى وأنا أرى القساوسة الانجليز يعيشون فى حالة لا أستطيع أن أسميها الا بـ « الزواج المفتوح » ، وهى حالة مؤسفة . اذ يجب أن يكون الكاهن مجردا من الجنس اطلاقا (أى لا بالذكر ولا بالأنثى) — ان لم يكن عمليا ، فمن الناحية النظرية المجردة على الأقل ، — ويكون هذا أيضا عملا بنظرية يتقبلها الناس فى كل مكان بحيث لا يجرؤ أحد على الجدل فيها » .

وقال ارنست « ولكن ألم يخبر الكتاب المقدس الناس بما ينبغى وما لا ينبغى أن يفعلوه ، وألا يكفينا أن نتمسك بما يمكننا أن نجده فيه ، وندع الباقى وشأنه ؟ » .

وكان جواب پراير « انك لو بدأت بالكتاب المقدس لسرت ثلاثة أرباع الشوط فى طريق الكفر وستسير الربع الباقى قبل أن تعرف أين تقف . ان الكتاب المقدس له قيمته لنا نحن الكهنة ، أما لغيرنا فهو حجر عثرة من الخير التعجيل برفعه من طريقهم تماما . وأنا أعنى هذا بالطبع مفترضا أنهم يقرءونه ،

ولكنهم لحسن الحظ قل أن يفعلوا . فاذا قرأ الناس الكتاب كما يقرؤه الرجل أو المرأة البريطانيان العاديان من رواد الكنائس فلا ضير في قراءته ؛ أما اذا قرءوه في شيء من التدقيق — وهو ما ينبغي أن نفترضه اذا أعطيناهم الكتاب اطلاقا — فهو يؤذيهم أذى كبيرا » .

وقال ارنست وقد ازداد دهشة ، ولكنه ازداد شعورا بأنه على الأقل بين يدي رجل له أفكار محددة « ماذا تعني ؟ » .

« ان سؤالك يدلني على أنك لم تقرأ كتابك قط . فليس مثله كتابا لا يمكن الركون اليه ، فخذ نصيحتي ولا تقرأه ، الا اذا كبرت بضع سنوات فتستطيع أن تقرأه وأنت في مأمن » .

وقال ارنست « ولكن من المؤكد أنك تصدق الكتاب المقدس حين ينبئك بأشياء كموت المسيح وقيامته ؟ لا شك أنك تصدق هذا ؟ » وكان وهو يسأل على استعداد لتلقي الجواب من پراير بأنه لا يصدق شيئا من هذا .

« لست أصدقه ، انما أنا أعرفه » .

« ولكن كيف — ان لم يكن بشهادة الكتاب المقدس ؟ » .

« أعرفه بشهادة صوت الكنيسة الحي ، الذي أعلم أنه معصوم ، وأنه تلقى العلم من المسيح نفسه » .

الفصل الثالث والخمسون

تأثر بطل قصتي أعمق تأثر بالحـديث السابق وبأحاديث أخـرى على غراره . ولو أنه خرج فى الغد ليتمشى مع مستر هوك وسمع حججه المضادة لدهش دهشة لا تقل عن دهشته من أحاديث پراير ، ولكان على استعداد لاطراح ما أخبره به هذا كما كان الآن مستعدا لاطراح كل ما سمعه من قبل من أى مخلوق سوى پراير ؛ ولكن لم يكن مستر هوك فى متناوله ، لذلك انفرد پراير بالميدان .

والعقول الجنينية تجتاز ألوانا من التحول الغريب قبل أن تتخذ لها شكلا نهائيا ، فليس فى مرور انسان ، سيتحول فى النهاية الى المذهب الكاثوليكى الرومانى ، بطور يكون فيه متشدد المذهب أولا ، ثم بطور آخر يكون فيه مفكرا حـرا — ليس فى هـذا عجب أو غرابة أكثر من كون الانسان زمن ماض مجرد خلية ثم أصبح بعد ذلك حيوانا لافقاريا . على أن ارنست ما كان ليعرف هذا ؛ لأن الأجنّة لا تعرفه . انما هى تظن فى كل مرحلة من مراحل تطورها أنها بلغت الحالة الوحيدة التى تناسبها حقا ، فلا بد أن هذه المرحلة آخر مراحلها ، لأن نهايتها ستكون صدمة هائلة لا تبقى ولا تذر . وكل تغير صدمة ؛ وكل صـدمة موت محقق . وما نسـميه الموت — الا صدمة بلغت من الشدة مبلغا يدمّر قوتنا على تبين ماض وحاضر يشبه أحدهما الآخر . انه صدمة تجعلنا نرى وجوه الخلاف بين حاضرنا وماضينا أكبر من وجوه الشبه ، فلا يعود فى استطاعتنا أن نرى أولهما امتدادا بالمعنى

الصحيح لثانيهما ، بل نجد من الأيسر أن نرى فيه شيئا نفضل أن نسميه جديدا .

ولكن لنعد الى موضوعنا فنقول انه كان واضحا أن علم الأمراض الروحية (وأعترف أننى شخصيا لا أعرف ماذا يعنى علم الأمراض الروحية — ولكن پراير وارنست كانا يعرفان ولا ريب) هذا العلم كان حاجة العصر العظمى التى يفتقر اليها . وبدا لارنست أنه هو صاحب هذا الكشف ، وأنه كان خبيرا به طوال حياته ، بل انه لم يكن يعرف شيئا سواه . وراح يدبج الرسائل الطويلة لأصدقاء الكلية شارحا فيها آراءه كأنه أب من الآباء الرسوليين . أما كتّاب أسفار العهد القديم فقد ضاق بهم ذرعا . فتراه يكتب لأحد أصحابه يقول « تفضل على بقراءة النبى زكريا ثم أعطنى رأيك الصريح فيه . ان مادته فقيرة وهو حافل بالوثبات العنيفة ؛ انه ليسقم النفس أن يعيش المرء فى جيل يعجب اعجابا صادقا بمثل هذا اللغو سواء كان شعرا أو نبوءة . » قال هذا لأن پراير أثاره ضد زكريا . ولست أدرى ما الذى فعله زكريا ؛ وأنا شخصيا يخيّل الى أن زكريا كان نبيا ممتازا ؛ ولعل كونه كاتبا لسفر من أسفار الكتاب المقدس ، وكاتبا غير بارز جدا ، هو الذى جعل پراير يختاره لينال — عن طريقه — من الكتاب مقارنا بالكنيسة .

وتراه يكتب بعد قليل الى صديقه دوسن يقول :

« اننا نواصل الخروج للسير أنا وپراير مناقشين أفكار بعضنا البعض فى اسهاب . كان فى أول الأمر ينفرد بالتفكير كله ، ولكنى أحسبنى لحقت به الآن ، وأنا أضحك فى سرى حين أرى أنه بدأ يعدل بعض الآراء التى كان يدين بها فى قوة حين عرفته أول مرة .

كان وقتها يسير حثيثا نحو كنيسة روما ؛ أما الآن فيبدو أنه راقه كثيرا اقتراح لى قد يشوقك أنت أيضا . فان من واجبنا كما ترى أن نبعث حياة

جديدة فى الكنيسة بطريقة ما ؛ ونحن لا نقف موقفا قويا أمــام كنيسة روما أو أمام الالحاد . (وأقول بهذه المناسبة اننى لا أعتقد أن ارنست كان الى ذلك الحين قد رأى ملحدا قط — فضلا عن التحدث اليه) . لذلك اقترحت على پراير منذ أيام — وقد رحب باقتراحى حالما رأى أننى أملك الوسيلة لانفاذه — وخلاصة الاقتراح أن نبدأ حركة روحية شبيهة بعض الشبه بحركة « انجلترا الفتاة » التى قامت منذ عشرين عاما ، ويكون هدف حركتنا التغلب على روما من ناحية ، وعلى الشك الدينى من ناحية أخرى . ولتحقيق هذا الغرض لا أجد خيرا من تأسيس معهد أو كلية ترسى البحث فى طبيعة الخطيئة وعلاجها على أساس علمى أكثر مما يقوم عليه هذا البحث فى الوقت الحاضر . فنحن فى حاجة الى كلية لعلم الأمراض الروحية — وهى عبارة مفيدة أستعيرها من پراير — حيث يدرس الشبان (ولعل ارنست رأى أنه لم يعد الآن شابا) طبيعة الخطايا الروحية وعلاجها كما يدرس طلبة الطب طبيعة الأمراض وعلاجها . ولعلك توافقنى على أن كلية كهذه ستقرب من روما من ناحية ، ومن العلم من ناحية أخرى — فأما روما فلأنها ستتيح لرجال الدين مزيدا من المهارة فتمهد السبيل بذلك لحصولهم على مزيد من القوة ، وأما العلم فلأنها ستسلم بأن التفكير الحر نفسه له بعض القيمة فى الأبحاث الروحية . ولقد اعتزمنا آنا وپراير أن نكرس نفسينا منذ الآن تكريسا صادقا لتحقيق هذا الهدف .

« وما زالت أفكارى بالطبع تفتقر الى التحديد ، وهذا كله رهن بالرجال الذين يديرون الكلية أولا . وأنا لم أصبح بعد قسيســا ، ولكن پراير قسيس ، واذا بدأت الكلية فلعل پراير يضطلع بادارتها حينا أشتغل فيــه تحت رياسته اسما . وقد اقترح پراير نفسه هذا ، أليس هذا كرما منه ؟

« وشر ما فى الأمر أننا لا نملك من المال ما يكفى ؛ صحيح أننى أملك

خمســـة آلاف من الجنيهات ، ولكن پراير يقول اننا نحتاج الى عشرة آلاف على الأقل قبل أن نستطيع البدء بمشروعنا ،فاذا سرنا فيــه حثيثا ربما استطعت أن أعيش فى الكلية وآخذ مرتبا من المؤسسة ، والخلاصة أنه يستوى عنــدى تماما ، أو يستوى تقريبا ، أن أستثمر مالى بهــذه الطريقة أو بشراء وظيفة قسيس ، أضف الى ذلك أن حاجاتى قليلة جدا ، ومن المؤكد أننى لن أتزوج أبدا ، فما ينبغى لرجــل الدين أن يفكر فى الزواج ، أما الرجل الأعزب فيستطيع أن يعيش على الكفاف . ومع ذلك لا أتبين سبيلى الى الحصول على القدر الذى أحتاج اليه من المال ، وقــد اقترح پراير أننا مادمنا لا نستطيع أن نكسب المزيد من المال الآن فلا بد لنا من الحصول عليه بسلسلة حكيمة من الاستثمارات . ويعرف پراير كثيرا من الناس يكسبون دخلا طيبا من رأسمال قليل جدا ، بل من لا شيء على الاطلاق ، وذلك بشرائهم أشياء فى مكان يسمونه سوق الأوراق المالية ، ولست أعرف الكثير عن هــذا الأمر بعــد ، ولكن پراير يقول انه ينبغى أن أتعلم سريعا ، والواقع أنه يرى أننى أظهرت موهبة فى هذه الناحية وأنه خليق بى اذا أتيحت لى الرعاية الصالحة أن أصبح رجل أعمال ممتازا . على أن القول الفصل فى هذا يجب ألا يكون لى بل لغيرى ، ولكن الانسان يستطيع أن يفعل أى شيء اذا ألقى اليه بالا ، ومع أنه لا يهمنى الحصول على مال كثير لنفسى ، فان ذلك يهمنى كثيرا جدا حين أفكر فى الخير الذى استطيع أن أفعله به اذ أخلص أرواحا من العذاب الرهيب الذى ينتظرها . أجل ، لو أن هذا المشروع نجح — ولست أرى فى الواقع سببا يعوق نجاحه — فمهما قلت فلن أغالى فى أهميته ولا فى المدى الذى قد يصل اليه فى النهاية » الخ ...

وسألت ارنست هنا أيضا هل يمانع فى أن أنقل هذا الخطاب للقارىء

فى كتابى ، فجفل ولكنه قال « لا ، ما دام يعينك على أن تروى قصتك ، ولكن ألا ترى أنه طويل جدا ؟ » .

قلت « انه سيجعل القارىء يرى بنفسه كيف كانت الأمور تسير ، فى نصف الوقت الذى يقتضينى بيانها له » .

قال « لا بأس اذن ، فانقله دون تردد » .

ثم أمضى فى تقليب حافظة رسائل ارنست فأجد هذه الرسالة :

« شكرا لرسالتك الأخيرة التى أرد عليها بمسودة رسالة بعثت بها الى جريدة التيمز منذ يوم أو يومين . والرسالة لم تنشر ولكن فيها شرحا وافيا لأفكارى فى موضوع افتقاد القس لرعيته ، ويوافق پراير كل الموافقة على الرسالة . ففكر فى الأمر بعناية ورد لى الرسالة بعد أن تقرأها ، لأنها تمثل عقيدتى الراهنة تمثيلا صادقا دقيقا بحيث لا يسعنى أن أفرط فيها .

« ويطيب لى جدا أن أناقش هذه الأمور شفويا : اذ يبدو لى جليا أننا خسرنا خسارة فادحة لأننا لم نعد قادرين على توقيع الحرم الكنسى . ينبغى أن يتاح لنا حرم الأغنياء والفقراء على السواء ، ودون قيود أيضا . فلو أن هذه السلطة ردت الينا لاستطعنا ، فى ظنى ، أن نضع بعد قليل حدا لمعظم الخطيئة والتعاسة اللتين تحيطان بنا » .

وقد كتب ارنست هاتين الرسالتين بعد أن رسم بأسابيع ، ولكنهما لا تعدان شيئا مذكورا بالقياس الى الرسائل التى كتبها بعدهما بقليل .

وخطر له لشوقه الى احياء الكنيسة الانجليزية (واحياء العالم كله عن طريق احيائها) بالوسيلة التى اقترحها عليه پراير ، أن يحاول الاطلاع بنفسه على عادات الفقراء وأفكارهم ، وذلك بالذهاب اليهم والعيش بين ظهرانيهم ، وفى ظنى أنه التقط هذه الفكرة من كتاب كنجسلى « ألتون لوك » الذى

التهمه التهاما كما التهم كتاب ستانلى « حياة آرنولد » ، وقصص دكنز ، وأى نفاية من أدب عصره خليقة بأن تؤذيه قراءتها ، مع أنه كان يميل مؤقتا الى حزب الكنيسة الطقسية ؛ على أى حال أنفذ ارنست مشروعه هذا فعلا ، فاتخذ له مسكنا فى « آشپت پليس » ، وهو شارع صغير يقع على مقربة من مسرح « درورى لين » ، فى منزل كانت صاحبته أرملا لحوذى .

وكانت هذه السيدة تشغل الطابق الأرضى كله . فأما المطبخ الأمامى فيسكنه سباك ، وأما الخلفى فمؤجر لصانع يصلح المنافيخ . وأما فى الطابق الأول فيسكن ارنست بحجرتيه اللتين فرشهما فرشا مريحا ، لأنه لابد للمرء من أن يضع حدا بين الأشياء لا يجاوزه . وكان الطابقان العلويان موزعين على أربع جماعات مختلفة من السكان : فهناك خياط يسمى هولت، وهو رجل سكير اعتاد أن يضرب زوجته فى الليل حتى توقظ صرخاتها البيت ؛ ومن فوقه خياط آخر له زوجة ولا أولاد ؛ والأسرة « وسلية » المذهب ، تحب الشراب ولكنها لا تحدث ضجيجا . وأما الحجرتان الخلفيتان فيسكن كلا منهما سيدة غير متزوجة ، وخيل لارنست أنهما ولا ريب من بيئة محترمة ، لأنه كان يرى شبانا مهذبى المظهر وحسنى الملبس يصعدون ويهبطون مارين بمسكنه ليزوروا مس سنو على الأقل — اذ كان ارنست يسمع بابها يقفل بشدة بعد مرورهم . كذلك خيل اليه أن بعضهم يصعد الى حجرة مس ميتلاند . وأخبرته مسز چب—وهى صاحبة البيت— أن هؤلاء الشبان اخوة مس سنو وأبناء عمومتها وخئولتها ؛ وأن هذه الآنسة تبحث عن وظيفة مربية ، ولكنها تشتغل الآن ممثلة فى مسرح درورى لين . وسأل ارنست هل مس ميتلاند المقيمة فى الحجرة الخلفية العليا تبحث أيضا عن وظيفة ، فأجابت انها تريد أن تشتغل بائعة قبعات . وكان يصدق أى شىء تقوله له مسز چب .

الفصل الرابع والخمسون

علق أصحاب ارنست على هذه الخطوة التى اتخذها تعليقات مختلفة . وكان الرأى الغالب انها لا تستغرب أبدا من يوتنفكس ، فهو لا محالة فاعل شيئا شاذا أينما ذهب ، ولكن الفكرة فى جملتها محمودة . ولم تستطع كرستينا أن تضبط عواطفها حين استطلعت رأى جيرانها من رجال الدين فوجدتهم يميلون الى الثناء على ولدها لسلوكه الذى سموا به وحمّلوه من انكار الذات ما لا يطيق . فهى لم تحب سكناه فى هذا الحى غير الارستقراطى ؛ ولكن هذه الخطوة التى اتخذها قد تجد سبيلها الى الصحف ، وعندها يتنبه اليه كبار القوم . زد على ذلك أن هذه السكنى ستكون رخيصة جدا ؛ فهو يستطيع أن يحيا وسط هؤلاء الفقراء بتكاليف تافهة ، وقد يدخر جانبا كبيرا من دخله ، وأما المغريات بالخطيئة فلا يمكن الا أن تكون قليلة أو معدومة فى مكان كهذا . وكانت حجة الرخص هى الحجة التى أتاحت لها التوفيق الكبير فى اقناع ثيوبولد وكان قد زاد تذمره من اسراف ولده وغروره . فلما ذكرت له كرستينا أن سكناه بين الفقراء ستكون قليلة النفقة أجاب بأن فى هذا القول شيئا من الصواب .

أما أثر هذه الخطوة فى ارنست نفسه فهو أنها ثبتت فكرته الطيبة عن نفسه ، هذه الفكرة التى أخذت تستهويه مذ بدأ يعد نفسه للرسامة ، وجعلته يزهى بأنه أحد الفئة القليلة المستعدة لبذل كل شىء فى سبيل المسيح . ولم يمض وقت طويل حتى بدأ يتصور نفسه رجلا صاحب رسالة

ينتظره مستقبل عظيم . وبدأت أخف آرائه وزنا وأكثرها تعجلا تبدو له جليلة الخطر ، ففرضها كما بينت على أصحابه القـدامى ، وكلما مرت الأسابيع غدا أكثر عنادا وغرورا بنفسه ونزواته . وبودى لو سترت هذا الجانب من حياة بطل قصتى ، ولكنى لا أستطيع دون أن أفسد القصة .

كتب فى ربيع عام ١٨٥٩ يقول :

« لا أستطيع أن أسمى الكنيسة « المنظورة » كنيسة مسيحية حتى تصبح ثمارها مسيحية ، أى حتى تصبح ثمار أعضاء الكنيسة الانجليزية مطابقة لتعاليمها أو قريبة منها . وأنا أتفق من كل قلبى مع تعاليم الكنيسة الانجليزية فى معظم النواحى ، ولكنها تقول شيئا وتفعل غيره ، والى أن تلجأ الكنيسة الى الحرم — أجل ، والحرم بالجملة — لا أستطيع أن أسميها منظمة مسيحية . ولو أن الأمر بيدى لبدأت بقسيسنا ، فاذا وجدت من الضرورى أن أتبعه بحرم الأسقف فلن أحجم حتى عن هذا .

« ان قساوسة لندن الحاليين قوم ميئوس منهم . والقسيس الذى أعمل تحت رياسته من أفضلهم ، ولكنه ما ان يلحظ من پراير أو منى بوادر الرغبة فى مهاجمة شر من الشرور بطريقة لا يقرها الروتين ، أو فى علاج أى شىء ثارت حوله ضجة ، حتى يقول لنا « لست أرى ماذا تقصـدان بهذه الضجة كلها ، فلا أحد غيركما من رجال الدين يرى هـذه الأشياء ، ولا رغبة لى فى أن أكون أول بادىء بقلب كل شىء رأسا على عقب » . ثم يسميه الناس رجلا معقولا ! اننى أضيق بهم ذرعا . على أى حال كلانا على بينة مما نريد ، وعندنا مشروع أعددناه للتنفيذ كما كتبت لدوسن منذ أيام ، وهو فى ظنى سيحقق مطالبنا . ولكننا فى حاجة الى مزيد من المال ، ولم تكن الخطوة الأولى التى اتخذتها للحصول على هذا المال مرضية كما كنت أنا وپراير نؤمل ، ولكننا ولا شك سنصحح الخطأ عما قريب » .

ولما حضر ارنست الى لندن أراد أن يكثر من زيارة الناس فى بيوتهم ، ولكن پراير أقنعه بالعدول عن هذه الفكرة حتى قبل أن يستقر فى حجرتيه الجديدتين اللتين اختارهما اختيارا غريبا . وغدا موقفه الآن هو أن الناس اذا كانوا يحتاجون الى المسيح فعليهم أن يثبتوا حاجتهم بأن يبذلوا شيئا من الجهد ، والجهد المطلوب منهم هو أن يأتوا ويبحثوا عنه — أى عن ارنست ؛ فاذا فعلوا وجدوه فى وسطهم على استعداد لتعليمهم ؛ أما اذا لم يشأ الناس أن يأتوا اليه فليس الذنب ذنبه .

وتراه يكتب مرة أخرى لدوسن قائلا « ان مهمتى الكبرى هنا هى أن ألاحظ . اذ لست أقوم بكثير من النشاط الرعوى فوق نصيبى من الخدمات الكنسية اليومية ؛ فعندى فصل من الرجال أدرس معهم الكتاب، وفصل آخر من الأولاد ، وعدد كبير من الشبان والأولاد الذين أعلمهم بطريقة أو بأخرى ؛ ثم هناك أطفال مدرسة الأحد الذين أملأ بهم حجرتى فى مساء الأحد على قدر ما تطيق ، وأجعلهم ينشدون الترانيم والألحان الكنسية . وهم يحبون هذا . وأنا أقرأ كثيرا — لا سيما الكتب التى نظنها أنا وپراير جديرة بأن تعيننا ؛ ونحن لا نجد ما يضارع كتب اليسوعيين . ان پراير رجل مهذب لحما ودما ، وهو رجل أعمال جدير بالاعجاب ، والواقع أن فطنته فى أمور هذه الدنيا لا تقل عن فطنته فى الأمور الروحية ؛ ولقد استطاع بحركة بارعة أن يسترد تماما ، أو تقريبا ، خسارة خطيرة الى حد ما كانت تهدد تنفيذ مشروعنا العظيم بالتعطيل الى أجل غير مسمى . ونحن نجمع المبادىء الجديدة كل يوم ، وأعتقد أن أشياء عظيمة تنتظرنا ، وأملى قوى فى أن أستطيع أن أنفذ الكثير عما قريب .

« أما أنت فأرجو لك التوفيق . كن جسورا ولكن كن منطقيا ، كن مغامرا ولكن فى حذر ، شجاعا الى حد الاقتحام ولكن شديد الحيطة فى الوقت نفسه » الخ .. الخ ..

وأعتقد أن فى هذا القدر ما يكفى .

الفصل الخامس والخمسون

ذهبت لأزور ارنست بطبيعة الحال حين وصل الى لندن لأول مرة ، ولكنى لم أره . وكنت خارج البيت حين رد لى الزيارة ، وهكذا مكث بالمدينة أسابيع قبل أن أراه فعلا ، وقد لقيته بعد وقت غير طويل من استئجاره مسكنه الجديد . وأعجبنى وجهه ، ولكنى اذا استثينا رابطة الموسيقى التى جمعتنا ، والتى كان مشربانا فيها متشابهين تشابها عجيبا ، ما كنت لأعرف كيف أنسجم معه . ومن الانصاف أن أقول انه لم يكاشفنى بأى من مشاريعه حتى استدرجته للكلام فيها ، وقد اكتشفت — وأنا على حد قول مسز چب صاحبة الدار التى استأجر ارنست منها حجرتيه « لست من المواظبين جدا على حضور الكنيسة » . — أقول اننى اكتشفت بعد التدقيق فى سؤال مسز چب أنها ذهبت الى الكنيسة مرة حين سجل اسمها لمولد ولدها توم قبل خمسة وعشرين عاما ، ولكنها لم تذهب اليها قط لا من قبل ولا من بعد؛ بل أخشى أن أقول انها لم تذهب اليها لعقد زواجها ، فمع أنها كانت تسمى نفسها « مسز » فهى لم تلبس خاتم زواج ، وكانت تشير الى الشخص المفروض أنه مستر چب بقولها « أبو ولدى العزيز المسكين » لا بكلمة « زوجى » . ولكننى أعود الى قصتى فأقول اننى اغتظت لأن ارنست رسم للخدمة الدينية . فأنا نفسى لم أرسم ، ولم أحب أن يرسم أحد أصدقائى خادما للدين ؛ كذلك لم أحب أن أبدو فى أحسن سلوكى ، وأن أتكلف الوقار ، الى آخر ذلك كله مراعاة لصبى أتذكره حين كان لا يعرف من الألفاظ غير لفظ أمس ، وغد ، ويوم الثلاثاء ؛ ولكنه لا يعرف يوما آخر

من أيام الأسبوع — ولا حتى يوم الأحد ذاته — وأتذكره حين قال انه لا يحب القطيطة لأن فى أصابع أقدامها دبابيس .

ونظرت اليه وفكرت فى عمته أليثيا ، وفى السرعة التى كان يتكاثر بها المال الذى خلفته له ، هذا المال كله مصيره الى هذا الفتى الذى سيستخدمه على الأرجح فى آخر الوجوه التى كانت مس پوتنفكس ترضى عنها . وضايقنى هذا ، وقلت لنفسى « انها كانت تقول دائما انها ستعبث بمالها ، ولكن يخطر لى أنها ما كانت تعبث به مثل هذا العبث الخطير » ثم قلت لعل الفتى كان شأنه غير هذا لو أفسح لعمته فى الأجل .

وكان مسلك ارنست معى غاية فى اللطف . وأعترف أن الذنب ذنبى اذا كان الحديث قد اتجه الى موضوعات خطرة . فقد كنت المعتدى ، ولعلى اعتمدت على كبر سنى وطول معرفتى به ليخولا لى الحق فى أن أكون ثقيلا سمجا دون ضجة .

ثم كشف عن نفسه ، والذى غاظنى فى الأمر أنه كان الى حد ما على صواب تام . فلو سلمت له بمقدماته وجدت نتائجه التى انتهى اليها سليمة لا غبار عليها ، كذلك لم أستطع — بعد أن رأيته قد رسم فعلا — أن أدخل معه فى جدل حول مقدماته كما كنت فاعلا ولا ريب لو أتيحت لى الفرصة قبل رسامته . والنتيجة أننى اضطررت الى التقهقر فخرجت من عنده ومزاجى ليس فى أصفى حالاته . والحقيقة فيما أعتقد هى أننى أحببت ارنست ، وأننى اغتظت لأنه أصبح من رجال الدين ، ولأن رجلا من رجال الدين سيرث هذه الثروة الطائلة .

وتحدثت قليلا مع مسز چب وأنا منصرف عن الدار . وكان كل منا قد فهم صاحبه للنظرة الأولى وأدرك أنه ليس « من رواد الكنائس المواظبين » ، فانطلق عقال لسانها . وقالت ان ارنست سيموت ، فهو أطيب من أن يصلح

لهذه الدنيا . وهو يبدو حزينا جدا « تماما كالفتى واتكنز الذى كان يعمل فى مشرب » كراون . الواقع على الطريق ، والذى مات منذ شهر ، وأصبح جلده المسكين أبيض كالمرمر ؛ ولعله أطلق الرصاص على نفسه كما يقولون. وقد أخرجوه من المشرحة ، ولقيته وأنا فى طريقى مع روز لآتى بقدح من الجعة، وكان ذراعها فى جبيرة . وقد أخبرت أختها بأنها تريد الذهاب الى محل پرى لتجلب صوفا ، ولم تكن هذه غير حجة لتأتينى بقدح من الجعة بورك فيها؛ فليس أحد غيرها يرضى بأن يفعل هذا كله لأجل حب العجوز المسكينة ، وانها لكذبة شنيعة أن يقال انها فتاة مستهترة ؛ لا لأنى لا أحب المرحات المستهترات ، فأنا أحبهن : وانى لأرضى أن أعطى الواحدة منهن نصف كراون عن أن أقدم لامرأة محتشمة قدحا من الجعة على حسابى ، ولكنى مع ذلك لا أحب أن أخالط الفتيــات السيئات السمعة . والخلاصة أنهم أخذوه من المشرحة ؛ ورفضوا أن يأخذوه الى البيت بعدها ؛ وقد فعــل فعلته هذه بحيلة كما تعلم . كانت زوجه فى الريف تسكن مع أمها ، وكانت دائما تتحدث باحترام عن روز . يا للمسكين ، أرجو أن تكون روحه فى السماء . والآن يا سيدى أتصدق أن فى وجه مستر پوتنفكس شيئا شديد الشبه بالفتى واتكنز ؛ انه يبدو أحيانا قلقا مطحونا ، ولكن ليس للسبب نفسه أبدا ، لأنه لا يعرف شيئا على الاطلاق ، لا يعرف أكثر مما يعرف الجنين الذى لم يولد ، نعم انه لا يعرف شيئا ؛ بل ليس هناك قرد يجوب شوارع لندن مع ايطالى يحمل أرغنا الا ويعرف أكثر مما يعرف مستر پوتنفكس . أنه لا يعرف — حسنا ، أظن — » .

وهنا دخل طفل فى مهمة أرسله فيها جار فقطع عليها حديثها ، ولولا ذلك لما عرفت أين أو متى تنهى محاضرتها . وانتهزت الفرصة لأهرب ، ولكن بعد أن نفحتها بخمسة شلنات وجعلتها تكتب عنوانى ، لأن حديثها

قد أخافنى بعض الشيء . وقلت لها ان عليها أن تحضر وتنبئنى ان ظنت أن حال ارنست قد ساءت .

ومضت أسابيع دون أن أراها ثانية . واذ فعلت ما فعلت ، فقد شعرت أن كثرة لقائنا لن تسفر الا عن ضيق أحدنا بصاحبه .

وكان قد مضى على رسامته أربعة أشهر ، غير أن هذه الشهور لم تجلب له السعادة أو الرضى . كان قد عاش طوال حياته فى بيت قسيس ، ويفترض فيه أن يفقه جيـدا معنى أن يكون المـرء قسيسا — قسيس أرياف ، وكذلك فعل ؛ على أنه كان قد كوّن مثلا أعلى عما يستطيع قسيس المدينة أن يصنعه ، وكان يحاول أن يحقق هذا المثل بطريقة مترددة واهنة ، ولكنه كان يروغ منه على الدوام .

لقد عاش بين الفقراء ولكنه لم يجد أنه وصل الى معرفتهم . وثبت أن فكرته عن اقبالهم اليه خطأ . حقا انه زار أفرادا ممن يعزهم قسيسه وممن رغب اليه فى أن يرعاهم . وكان منهم شيخ وزوجه يعيشان فى ثانى بيت بعد مسكن ارنست نفسه ؛ ثم سباك يسمى تشسترفيلد ؛ وسيدة عجوز تسمى جوفر ، عمياء طريحة الفراش ، تمضغ فكيها العجوزين الواهنين الأدردين وارنست يكلمها أو يقرأ لها ، ولكنها لا تستطيع أن تفعل أكثر من هذا ؛ ثم مستر بروكس ، وهو تاجر بضائع قديمـة فى « بردسيز رتس » بلغ آخر مرحلة من مراحل الاستسقاء ، وغير هؤلاء ستة أو نحوهم . ولكن ما الذى انتهت اليه زياراته حين ذهب فعلا لرؤيتهم ؟

فأما السباك فيريد أن يتملّق ، ويحب أن يعبث بأحد السادة ليضيع وقته فى أن يداعب له أذنيه بحديثه . وأما مسز جوفر العجوز المسكينة فتريد المال ؛ فهى طيبة ووديعة جدا ، تقول حين يأتيها ارنست بشلن من وقف ليدى آن جونز ان الشلن « قليل ولكنه جاء فى أوانه » ثم تمضغ

فكيها لتظهر عرفانها للجميل . وكان ارنست أحيانا يعطيها قليلا من ماله ولكنه لم يبلغ فى ذلك — كما يقول الآن — نصف ما كان ينبغى أن يعطيها .

ثم ماذا يستطيع فعله مما قد يفيدها أقل فائدة ؟ لا شىء فى الحق ؛ ولكن نفح مسز جوفر بين الحين والحين بأنصاف الكراونات لم يكن فيه احياء روحى للعالم ، وكان هدف ارنست لا يقل عن هذا طموحا . فالعالم كله تفككت أوصاله ، وبدل أن يشعر بأن من حظه العاثر أنه وُلد ليصحح ما فيه من خطأ * ، خيل اليه أنه هو الشخص المطلوب لهذا العمل ، وكان تواقا الى البدء بمهمته ، لولا أنه لم يعرف تماما كيف يبدأ ، لأن بدايته مع مستر تشسترفيلد ومسز جوفر لم تبشر بتقدم عظيم .

ثم مستر بروكس المسكين — انه يتألم جدا ، يتألم الى حد مريع فى الحق ، وهو ليس فى حاجة الى النقود ، بل يريد أن يموت ولا يستطيع ، تماما كما نريد أحيانا أن ننام فلا نستطيع . كان رجلا جاد التفكير ، لذلك روعه الموت كما يروّع انسانا يعتقد أن أخفى أفكاره كلها ستفتضح بعد قليل . وحين قرأت لارنست وصفى لزيارات أبيه لمسز طمسون فى باترزبى احمر وجهه وقال « ذلك بالضبط ما اعتدت أن أقوله لمستر بروكس » . وأحس ارنست أن زياراته لمستر بروكس جعلته يخشى الموت أكثر من ذى قبل بدلا من أن تطمئنه وتعزيه ، ولكن ما حيلته فى هذا ؟

ولم يكن پراير نفسه يعرف شخصيا أكثر من مائتين فى الأبرشية على أكثر تقدير مع أنه أمضى عامين مساعدا للقسيس ، ولم يكن يزور من هؤلاء فى بيوتهم الا نفرا قليلا جدا ، ولكن پراير كان من حيث المبدأ يعترض اعتراضا قويا على افتقاد رجل الدين للناس فى بيوتهم . وما أشبه هؤلاء النفر الذين اتصل ارنست وپراير بهم اتصالا مباشرا بقطرة فى بحر

* الاشارة الى عبارة قالها هملت .

اذا قيسوا بمن يجب على ارنست أن يصل اليهم ويؤثر فيهم ان أراد أن يحدث أى أثر كبير على نحو أو آخر . أجل ، لقد كان فى الأبرشية بين خمسة عشر ألفا وعشرين من الفقراء لا يحضر مكان العبادة منهم الا أقل القليل . فنفر يذهبون الى كنائس المنشقين ، ونفر يتبعون الكنيسة الكاثوليكية الرومانية؛ ولكن الكثرة الغالبة من الناحية العملية كافرة ، ان لم تقف من الدين موقف العداء الايجابى ، أو هى على الأقل لا تكترث للدين ، فى حين كان الكثيرون يجهرون بالالحاد — وهم من المعجبين بتوم پين الذى سمع عنه الآن الأول مرة ؛ ولكنه لم يلق أحد هؤلاء ولم يتحدث اليه قط .

اذن أكان يفعل حقا كل ما ينتظر منه أن يفعله ؟ جميل جدا أن يقول انه يفعل مثلما يفعل غيره من شباب رجال الدين ؛ ولكن ليس هـذا نوع الجواب الذى ينتظر أن يقبله المسيح ؛ أجل ، ان الفريسيين أنفسهم كانوا فى أغلب الظن يفعلون مثلما يفعل غيرهم من الفريسيين . أما واجبه فهو أن يذهب الى الشوارع والأزقة ويكره الناس على دخول الكنيسة . أكان يفعل هذا ؟ أم على الأصح هم الذين كانوا يكرهونه على البقاء خارجا — خارج أبوابهم على الأقل ؟ وبدأ يساوره القلق بأنه ان لم يفتح عينيه جيدا فسينزلق عما قريب الى موقف الرجل المنافق .

صحيح أن كل هذا سيتغير اذا استطاع أن يدبر المال اللازم لكلية الأمراض الروحية ؛ ولكن الأمور لم تجر على ما يشتهى من حيث « الأشياء التى يشتريها الناس فى مكان يسمى سوق الأوراق المالية » . ورغبة فى التعجيل بالمشروع ، اتفق على أن يشترى ارنست من هذه الأشياء قدرا أكثر مما يستطيع أداء ثمنه ، على أمل أن ترتفع قيمتها فى أسابيع ، بل ربما فى أيام ، فيستطيع أن يبيعها بربح هائل ؛ ولكن الذى حدث لسوء الحظ أنها بدل أن ترتفع هبطت فور شراء ارنست لها ، وأبت فى عناد أن تعود

الى الارتفاع ؛ وبعد بضع تسويات لمركزه فى السوق تسلط عليه الخوف ، لأنه قرأ مقالا فى صحيفة ذكر كاتبه أنها ستواصل الهبوط الشديد ، فأصر على البيع برغم نصيحة پراير — وبلغت خسارته نحو خمسمائة جنيه . ولكنه ما ان باع حتى بدأت الأسهم ترتفع من جديد ، ورأى كم كان غبيا وكم كان پراير حكيما ، لأنه لو اتبع مشورته لكسب خمسمائة جنيه بدل أن يخسرها . ولكنه قال لنفسه انه يجب أن يعيش ويتعلم .

وهنا ارتكب پراير خطأ . ذلك أنهما اشتريا أسهما ، وظلت هذه الأسهم ترتفع ارتفاعا مدهشا مدى أسبوعين . لقد كانت فترة سعيدة حقا ، لأنه فى نهاية الأسبوعين أمكن استرداد خسارة الجنيهات الخمسمائة ، واستخلص فوقها ثلاثمائة أو أربعمائة أخرى . وكان فى هذا تعويض ، بل أكثر من تعويض ، عن القلق المحموم الذى ساور ارنست فى تلك الأسابيع الستة التعسة التى خسر فيها الجنيهات الخمسمائة . وأراد أن يبيع ويضمن الربح ، ولكن پراير أبى الاستماع لهذا الرأى ؛ فقد أصر على أن الأسهم سيطرد ارتفاعها الكبير ، وأطلع ارنست على مقال فى صحيفة أثبت كاتبه أن ما يقوله پراير معقول ، وقد ارتفعت فعلا ارتفاعا قليلا — قليلا جدا ، اذ ما لبثت أن هوت ، ورأى ارنست نفسه يفقد أولا ربحه الصافى الذى بلغ ثلاثمائة أو أربعمائة جنيه ، ثم رأى أن الجنيهات الخمسمائة التى خسرها من قبل وظن أنه استردها تفلت منه بهبوط قدره جنيه ونصف فى كل مرة ، وأخيرا خسر مائتى جنيه فوق هذا كله . وهنا قالت صحيفة ان هذه الأسهم أكبر خدعة فرضت على الشعب الانجليزى ، ولم يستطع ارنست أن يحتمل فوق ما احتمل ، فباع برغم نصيحة پراير هذه المرة أيضا ، فلما عادت الأسهم الى الارتفاع — كما حدث بعد قليل — انتصر رأى پراير على ارنست للمرة الثانية .

ولم يكن ارنست ممن يألفون تقلبات من هذا النوع ، فأضنته الى حد أضر بصحته . لذلك اتفق على أن من الخير له ألا يعرف شيئا عما يفعله پراير بأسهمه ، فقد كان پراير رجل أعمال أفضل من ارنست ، لذلك سيتكفل عنه بالأمر كله . وقد أعفى هذا الاتفاق ارنست من عناء كثير ، وكان على أية حال فى صالح الأوراق المستثمرة نفسها ؛ ذلك أن المرء — على حدّ قول پراير — يجب ألا يكون ضعيف القلب اذا كان يرجو النجاح فى البيع والشراء فى سوق الأوراق المالية ، وكان پراير يخاف حين يرى ارنست خائفا — أو على الأقل هكذا زعم . وهكذا انزلقت النقود أكثر فأكثر الى يد پراير . فأما پراير نفسه فلم يكن يملك غير وظيفته فى الكنيسة واعانة صغيرة تصله من أبيه .

واستنتج بعض أصدقاء ارنست القدامى من خطاباته طرفا مما كان يفعله فحاولوا جهدهم أن يثنوه عنه ، ولكنه كان متيما بمشروعه كأنه عاشق صغير فى الثانية والعشرين . ولما رأى أن أصدقاء هؤلاء يستنكرون تصرفه انصرف عنهم ، أما هم فاذ سئموا أنانيته وشطحاته الفكرية لم يأسفوا على انصرافه عنهم . وبالطبع لم يقل شيئا عن مضارباته — بل انه ما كان يعلم أن شيئا يؤدى لغرض نبيل كهذا يمكن أن يسمى مضاربة . وأما فى باترزبى فحين حثه أبوه على ترقب وظيفة قسيس شاغرة يمكن أن يرشح لها ، بل حين دلّه على وظيفة أو وظيفتين يرجى من ورائهما خير ، أبدى اعتراضات وأعذارا ، وان وعد فى كل مرة بأن يحقق رغبة أبيه بعد وقت قصير جدا .

الفصل السادس والخمسون

وبدأ يتسلط عليه بعد قليل اعياء عام غامض لا يعرف له كنها . لقد رأيت ذات مرة مهرا صغيرا يحاول أن يأكل نفاية ضارة جدا ، وهو عاجز عن أن يحكم أهي صالحة أم غير صالحة . وواضح أنه كان فى حاجة الى ارشاد . ولو رأت أمه ما هو فاعل لصححت خطأه فى لحظة ولتبين المهر أن ما يأكله وسخ حالما تخبره أمه بذلك ، ولما احتاج الى أم تنبهه مرة أخرى ؛ ولكن المهر لم يستطع أن يفصل فى الأمر بنفسه ، أو أن يقرر دون معونة من الخارج أهو يحب ما يحاول أكله أم لايحبه . وفى ظنى أنه كان سينتهى الى هذا القرار بعد قليل ، ولكن فى هذا ضياعا للوقت والجهد كانت توفره عليه نظرة واحدة من أمه ، والحال فيه حال الجعة تختمر من نفسها فى الوقت المناسب ، ولكنها تختمر أسرع كثيرا لو أضيفت اليها خميرة صغيرة . وما أشبهنا بالجعة فى معرفة ما يسبب لنا اللذة أو السرور ، فاذا لم تتلق معونة من الخارج لا نستطيع أن نختمر الا فى بطء وعناء .

كان بطل قصتى التعس فى هذه الفترة شديد الشبه بالمهر ، أو قل انه أحسّ ما كان يحسه المهر لو أن أمه وسائر الجيـــاد الكبيرة فى الحقـــل أقسمت له أن ما يأكله هو أفخر وأنفع طعام يمكن أن يوجد فى أى مكان . كان تواقا جدا الى أن يفعل الصواب ، على استعداد لأن يصدق أن الناس جميعا يفضلونه معرفة ، بحيث لم يجرؤ على التسليم بينه وبين نفسه بأنه ربما كان طوال هذه الفترة فى ضلال مبين . ولم يخطر له أن هناك خطأ فاحشا فى موضع ما ، ولا خطر له أن يحاول العثور على موضع الخطأ .

ومع ذلك فقد ازداد فى كل يوم اعياء ، وازداد — على غيره علم منه — تهيؤا واستعدادا للانفجار اذا وقعت عليه شرارة . .

على أن شيئا واحدا بدأ فعلا يتكشف له من ذلك الضباب الشامل الذى يكتنفه ، فاتجه اليه بفطرته كأنه يحاول القبض عليه — وأعنى به أنه لم يكن يخلص من نفوس الخاطئين الا أقل القليل ، فى حين يهلك الألوف كل ساعة من حوله ممن كان ينقذهم جهد قليل كجهد مستر هوك . كان اليوم ينقضى تلو اليوم ، فما الذى يصفه خلال ذلك ؟ انه يتمسك بتقاليد المهنة وآدابها ، ويصلى أن ترتفع أسهمه أن تنخفض كما يشاء لكى تعطيه ما يكفى من المال الذى يتيح له احياء العالم روحيا . ولكن الناس يموتون خلال ذلك . فكم من الأنفس سيحكم عليها بأدهار لا تنتهى من العذاب الذى لا يتصور العقل أبشع منه قبل أن يستطيع توجيه آلة علم أمراضه الروحية لنفعهم ؟ لم لا يقف ويبشر كما رأى المنشقين يفعلون أحيانا فى « لنكولنز ان فيلدز » وغيره من الشوارع ؟ انه يستطيع أن يقول كل ما قاله مستر هوك . لقد بدا مستر هوك الآن مخلوقا مسكينا جدا فى نظر ارنست لأنه ينتمى للكنيسة غير الطقسية ، ولكن خليق بنا ألا تألف من التعلم مَن أى انسان ، ولا ريب فى أنه يستطيع التأثير فى سامعيه بالقوة التى أثر بها مستر هوك فيه لو أتيح له من الشجاعة ما يجعله يشرع فى العمل . ان الناس الذين رآهم يعظون فى الميادين كانوا يجتذبون أحيانا جماهير كبيرة من المستمعين ، وهو يستطيع على الأقل أن يعظ خيرا مما يعظون .

وفاتح ارنست پراير فى اقتراحه ، ولكن صاحبه نظر اليه كأن فى اقتراحه من الاهانة ما لا يسمح حتى بالتفكير فيه . وقال انه ليس شىء أدعى من هذا الى الحط من كرامة رجال الدين وجر الاحتقار على الكنيسة . وكانت طريقته فى الجواب مقتضبة بل وقحة .

واجترأ ارنست على أن يعارض صاحبه فى اعتدال ؛ فسلّم له بأن اقتراحه غير عادى ولكن شيئا يجب أن يعمل على أية حال ، ويعمل بسرعة. فتلك هى الطريقة التى بدأ وسلى ووايتفيلد بها حركتهما العظمى التى أججت نار الحياة الدينية فى نفوس مئات الألوف . وليس هذا وقت التشبث بالكرامة . والذى أتاح لوسلى ووايتفيلد كسب أتباع لهم خسرتهم الكنيسة الانجليزية الآن هو بالضبط أنهما فعلا ما أبت هذه الكنيسة أن تفعله .

وحدج پراير ارنست بنظرة فاحصة وبعد هنيهة قال « لست أدرى ما أرى فى كلامك هذا يا پوتنفكس ، فأنت مصيب جدا ومخطىء جدا فى وقت معا . انى أوافقك من كل قلبى على أن شيئا يجب أن يعمل ، ولكن يجب ألا يعمل بطريقة أثبتت التجربة أنها لا تؤدى الا الى التعصب والانشقاق . فهل يعجبك هؤلاء الوسليون ؟ وهل هانت عليك نذور رسامتك الى حد يجعلك ترى أن لا فرق بين أن تؤدى خدمات الكنيسة الانجليزية فى كنائسها وبشعائرها الواجبة أو العكس ؟ ان كان الأمر كذلك ، فانى أصارحك بأنه ما كان لك أن ترسم ؛ وان لم يكن فاذكر أن من أول واجبات الشماس أن يطيع أولى الأمر . فلا الكنيسة الكاثوليكية ، ولا حتى الكنيسة الانجليزية ، تسمح لرجالها بأن يعظوا فى شوارع المدن التى لا تعوزها الكنائس » .

وشعر ارنست بقوة هذه الحجة ، ورأى پراير أنه يتأرجح ، فواصل حديثه بأسلوب ألطف قائلا : « اننا نعيش فى عصر انتقال ، وفى بلد لا يدرك كم خسر من جراء حركة الاصلاح البروتستنتى وان كان قد كسب كثيرا من ورائها . انك لا تستطيع أن « تسرح » مناديا على المسيح فى الشوارع كأنك فى بلد وثنى لم يسمع أهله بالمسيح قط . فالناس هنا

فى لندن توفرت لهم التنبيهات والانذارات . وكل كنيسة يمرون بها هى احتجاج موجه الى حياتهم ودعوة تهيب بهم أن يتوبوا . وكل جرس كنيسة يسمعونه ينهض شاهدا عليهم ، وكل شخص ممن يلقونهم أيام الآحاد رائحين الى الكنيسة أو غادين منها هو صوت نذير من الله . فاذا كانت هذه التأثيرات التى لا حصر لها لا تحدث فيهم أثرا فلن تحدثه الكلمات العابرة القليلة التى قد يسمعونها منك . وما أشبهك بالغنى (*) فى قصة الانجيل ، فأنت تظن أنه لو قام أحد من الأموات فانهم يصغون اليه ، ولعلهم يفعلون ، ولكنك لا تستطيع أن تزعم أنك قمت من بين الأموات » .

وكان فى هذه الكلمات القليلة الأخيرة تهكم مستور جعل ارنست يجفل بالرغم من أن پراير قالها مازحا ، ولكنه غلب الآن على أمره تماما ، وهكذا انتهى الحديث . على أنه خلف ارنست شاعرا — كما شعر من قبل — بعدم الرضى عن پراير ، ميالا الى اطراح آراء صديقه جانبا — لا جهرا ، ولكن فى هدوء ، دون أن يخبر پراير بشىء عن ميله هذا .

(*) الاشارة الى مثل الغني ولعازر المسكين « فقال لا يا أبى ابراهيم • بل اذا مضى اليهم واحد من الأموات يتوبون • فقال له ان كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء ولا ان قام واحد من الأموات يصدقون • »

الفصل السابع والخمسون

وما ان فارق پراير حتى حدث حدث آخر مكن شعور عدم الرضا فى نفسه . ذلك أنه وقع كما بينت للقارئ فريسة لعصابة من اللصوص أو المزيفين الروحيين الذين أدخلوا عليه أخسّ المعادن قدرا دون أن يستطيع كشف زيفه لأنه ساذج لا خبرة له الا بهذه الدوامات الصغيرة الخلفية فى هذا العالم ، وأعنى بها المدارس والجامعات . وبين قطع النقود الصغيرة الزائفة التى أدخلت عليه ، والتى كان يحتفظ بها لنفقاته النثرية خلال ساعات النهار ، ملاحظة تزعم أن الفقراء ألطف وأظرف كثيرا من الأغنياء وأفضل منهم تربية . كان ارنست الآن يقول انه يسافر فى الدرجة الثالثة دائما ، لا لرخصها ولكن لأن الناس الذين يلقاهم فى عربات الدرجة الثالثة ألطف كثيرا وأحسن تهذيبا . فأما الأحداث الذين يحضرون فصول ارنست المسائية فقد قيل له انهم أذكى وأكثر نظاما على الجملة من أوساط الطلاب فى أكسفورد وكمبردج . واذ سمع صاحبنا الصغير الأحمق هذا الكلام من پراير ، فقد التقطه كله وأخرجه من عنده من جديد على طريقته .

على أنه حدث ذات مساء فى هذه الفترة أو نحوها أن رأى شخصا قادما من شارع صغير غير بعيد عن شارعه ، وشد ما كان عجبه حين تبين أن هذا الشخص ليس الا تاونلى . وقد بدا ممتلئا حيوية ومرحا كعادته ، وازداد وسامة عما كان فى كمبردج — ان كان هناك متسع لمزيد من الوسامة . ومع أن ارنست كان كثير الاعجاب به ، فقد وجد نفسه يحجم

عن التحدث اليه ويحاول أن يمر عليه دون كلام . ولكن تاونلى لمحه فأوقفه فى الحال ، اذ سره أن يرى وجها من وجوه كمبردج القديمة . وبدا عليه لحظة بعض الارتباك لأنه رؤى فى حى كهذا الحى ، ولكنه تمالك نفسه بسرعة حتى أن ارنست لم يكد يلحظ عليه شيئا ، ثم بدأ ملاحظات لطيفة عن أيام الجامعة القديمة . وأحس ارنست أنه يرتعد وهو يرى عينى تاونلى تسرحان الى رباط رقبته الأبيض ، وحين رأى أنه قد كشف ، وكشف فى شيء من الاستنكار ، أنه رجل دين . ولم يتجاوز الأمر غمامة عابرة طافت بوجه تاونلى ، ولكن ارنست شعر بها .

وقال تاونلى بضع كلمات من قبيل المجاملة العادية لارنست عن مهنته ، وانها فى ظنه أكثر ما ينتظر أن يشوق ارنست من المهن ، وأما ارنست فكان لا يزال مرتبكا خجلا ، لذلك أعطاه عملته الصغيرة التى تزعم أن الفقراء غاية فى اللطف والظرف ، لأنه لم يجد ما يقوله خيرا من هذا . وتقبل تاونلى هـذه الملاحظة على علاتها وأومأ بالموافقة ، ولكن ارنست تمادى قائلا فى غير حيطة « ألا تحب أنت نفسك الفقراء حبا جما ؟ » .

ولوى تاونلى وجهه فى سخرية مشربة باللطف ثم قال فى هدوء ولكن فى بطء وحسم « لا ، لا ، لا » وولى هاربا .

من هذه اللحظة فسد أمر ارنست وانتهى ولم يتبين هذا كعادته ، ولكن هذا لا ينفى أنه دخل على رد فعل جديد . لقد أخذ تاونلى عملة ارنست الصغيرة بين يديه ، ونظر فيها ، ثم ردها اليه لأنها زائفة . فما باله رأى فى لحظة أنها زائفة الآن ، مع أنه كان عاجزا عن أن يرى هذا الزيف حين تناولها من پراير ؟ لا شك أن بعض الفقراء لطفاء جدا ، وسيظلون كذلك دائما ، ولكنه رأى الآن — وكأن قشورا قد سقطت من عينيه فجأة — أن الناس لا يكونون ألطف بسبب فقرهم ، وأن بين الطبقتين العليا

والدنيـا هوة تبـلغ — من الناحيـة العملية — مبلغ السد المنيع الذى لا سبيل الى عبوره .

فى ذلك المساء أخذ يتأمل موقفه طويلا . فان كان تاونلى على حق ، وقد شعر ارنست أن « لا » التى رددها لا تنطبق على ملاحظته عن الفقراء فحسب ، ولكنها تنسحب أيضا على نظام أفكاره التى اعتنقها حديثا وعلى مجالها كله — اذن فهو وپراير لا محالة فى ضلال . ان تاونلى لم يدخل معه فى جدل ، لقد اكتفى بكلمة واحدة ، وهى من أقصر الكلمات فى اللغة ، ولكن ارنست كان فى حالة ملائمة لقبول هذا اللقاح ، وبدأت هذه الذرة الصغيرة من الڤيروس تفعل فعلها فيه فورا .

أيهما كان الآن فى رأيه يتخذ من الحياة والأشياء — فى أكبر الظن — الموقف الأصوب ، وأيهما يحسن به أن يقلـده ، أهو تاونلى أم پراير ؟ وأجاب قلبه عن سؤاله دون أن يتردد لحظة واحدة . ان وجوه رجال كتاونلى صريحة لطيفة ، فهم يبدون مطمئنين ، راغبين فى أن يبثوا الطمأنينة قدر ما يستطيعون فى نفوس كل من يتصل بهم . وأما وجوه پراير وأصحابه فلم تكن كذلك . فما باله شعر بتأنيب صامت بمجرد لقائه لتاونلى ؟ ألم يكن مسيحيا ؟ بلى ، انه يؤمن بالكنيسة الانجليزية ايمانه بأمر طبيعى . اذن فكيف يمكن أن يكون ارنست مخطئا اذا حاول أن يسلك حسب الايمان الذى يشترك فيه هو وتاونلى ؟ لقد كان يحاول أن يحيا حيـاة هادئة متواضعة كلها تكريس للذات ، فى حين لم يكن تاونلى — على قدر ما بدا له — يحاول شيئا من هذا ، انما هو يحاول أن يحيا حياة مريحة فى هذه الدنيا ، وأن يبدو لطيفا ، ويكون لطيفا ما استطاع . ولقد كان لطيفا ، وكان ارنست يعلم أن رجالا مثله هو وپراير ليسوا لطفاء ، فعاوده شعور القنوط القديم .

وهنا ساورته فكرة أسوأ من هذه ، فكيف لو كان قد وقع فريسة للصوص ماديين كما وقع فريسة للصوص روحيين ؟ كان علمه بمصير ماله ضئيلا جدا ، فقد أودعه كله فى يد پراير ، ومع أن پراير كان يعطيه ما يطلب من نقود لنفقاته كلما احتاج ، فقد كان يبدو عليه الضجر اذا سئل عما جرى لرأس المال ، وقال انه مما سبق التفاهم عليه بينهما أن هذا الأمر سيترك له ، وخير لارنست أن يبقى على هذا التفاهم ، والا اطرح پراير كلية الأمراض الروحية جملة وتفصيلا ؛ وهكذا رضى ارنست بعد أن أرهبه پراير ، أو لاطفه وأغراه حسبما وجد مزاجه . وخيل لارنست أن الاكثار من الأسئلة سيظهره بمظهر المتشكك فى كلمة پراير ، كذلك رأى أنه قطع فى الأمر شوطا بعيدا لا يتيح له التراجع بكرامة أو شرف . على أنه شعر بأنه لو فعل لكان ذلك بحثا منه عن المتاعب دون مبرر . صحيح أن پراير أبدى شيئا من الضجر ، ولكنه انسان مهذب ورجل أعمال جـدير بالاعجاب ، واذن فنقوده مردودة اليه كاملة سليمة لا محالة فى يوم ما .

وطمأن ارنست نفسه من جهة هذا الشاغل ، أما من جهة الشاغل الآخر فقد بدأ يشعر بأنه لابد لانقاذه من « سامرى صالح » يخف لنجدته من مكان ما — ولكنه لا يعرف من أين .

الفصل الثامن والخمسون

وفى الغد شعر بأنه عاد أقوى مما كان بالأمس . انه كان يصغى الى صوت الشيطان فى الليلة البارحة ولن يعبث أكثر من ذلك بمثل هــذه الأفكار . لقد اختار مهنته ، وواجبه يقتضيه أن يمضى فيها قــدما . أما شقوته فلعل مبعثها أنه لم يبذل الكل فى سبيل المسيح . فلينظر اذن ، أليس فى استطاعته أن يزيد على ما يصنعه الآن ، فلعل نورا يضىء له طريقــه ان فعل .

جميل جدا هذا الكشف الذى كشفه ، وهو أنه لا يحب الفقراء كثيرا ، ولكن من واجبه أن يحتملهم ، لأن عمله محصور بينهم . ان رجالا كثاونلى غاية فى اللطف والمجاملة بشرط ألا يعظهم ، وهو شرط يعلمه يقينا . انه يستطيع أن يسوس الفقراء خيرا مما يسوس أولئك ، لذلك صمم على أن يخالطهم أكثر من ذى قبل مهما تهكم به پراير ، وأن يجرب الأثر الذى يحدثه فيهم تقديمه المســيح اليهم ان لم يشــاءوا أن يأتوا ويبحثوا عنه بأنفسهم . وسيبدأ بالبيت الذى يسكنه .

فبمن من أهل هذا البيت يبدأ ؟ ان خير ما يصنع ولا ريب هو أن يبدأ بالخياط الذى يسكن فوقه مباشرة ، لا لأنه الشخص الذى بدا أحوج ما يكون الى الهداية وحسب ، بل لأنه ان اهتدى كفّ عن ضرب زوجته فى الساعة الثانية صباحا فأصبح البيت أبهج وألطف . اذن فسيصعد الى هذا الرجل من فوره ويتحدث اليه حديثا هادئا .

وقبل أن يصعد خطر له أنه يحسن به رسم خطة شبيهة بخطة الحملة

الحربية ؛ لذلك فكر فى بعض الأحاديث اللطيفة التى تناسب المقام لو أن مستر هولت تلطف فرد بالأجوبة المنتظرة منه فى مواضعها الصحيحة . ولكن الرجل كان مخلوقا ضخما ثقيلا ، وحشى الطبع ، فاضطر ارنست الى التسليم بأن تطورات غير منظورة قد تطرأ فتقلب خطته . والمثل الانجليزى يقول « ان صنع رجل يقتضى تسعة خياطين » ، بيد أن ارنست شعر بأن صنع رجل كمستر هولت يقتضى تسعة على الأقل من أمثال ارنست . فماذا تكون الحال لو أن الخياط أصبح عنيفا بذيئا بمجرد دخول ارنست بيته ؟ ماذا يستطيع أن يفعل ؟ فالرجل فى مسكنه ، ومن حقه ألا يزعجه فيه أحد . ذلك حقه الشرعى ولا ريب ، ولكن أله حق أدبى ؟ فى رأى ارنست أن ليس له الحق اذا نظرنا الى أسلوب حياته . ولكن لندع هذا ؛ ولنفرض أن الرجل أصبح عنيفا فماذا ينبغى لارنست أن يفعل ؟ لقد صارع القديس بولس وحوشا مفترسة فى أفسس — ولابد أنه كان صراعا رهيبا — ولكن لعلها لم تكن وحوشا مفترسة جدا ؛ فالأرنب وعصفور الجنة وحشان مفترسان ؛ ولكن مهما كان خطرهما أو هوانهما فى دنيا الوحوش المفترسة فلن يكون لهما أمل كبير فى الانتصار على القديس بولس ، لأنه ملهم ؛ والمعجزة أحرى أن تكون فى نجاة الوحشين ، لا فى نجاة القديس بولس ؛ وأيا كان الأمر فقد شعر ارنست بأنه لا يجرؤ على أن يبدأ هداية مستر هولت بمصارعته . أجل ، انه حين سمع مسز هولت تصرخ « انه يقتلنى » انكمش تحت غطائه وانتظر ، متوقعا أن يسمع الدم يقطر من السقف على أرض حجرته . وترجم خياله كل صوت الى هذه القطرات تتساقط قطرة بعد قطرة ، وخيل اليه مرة أو مرتين أنه يحس الدم يقطر على لحافه ، ولكنه لم يصعد قط ليحاول انقاذ مسز هولت المسكينة . وتبيّن فى الصباح لحسن الحظ أن مسز هولت سليمة معافاة كعادتها .

وكان ارنست يائسا من العثور على أى وسيلة مناسبة يبدأ بها الاتصال الروحى مع جاره ، فخطر له أنه قد يكون من الخير أن يبدأ بصعود السلم وقرع باب مستر هولت فى رفق كثير . فاذا فعل أسلم نفسه لارشاد الروح القدس ، وتصرف حسبما تمليه المناسبة ، وهى فيما أحسب اسم آخر للروح القدس ، واذ اتخذ لنفسه من هذه الفكرة سلاحا قويا صعد السلم فى مرح ، وكان على وشك أن يطرق الباب حين سمع صوت هولت من الداخل يسب زوجته فى شراسة ووحشية . وأكرهه هذا على الوقوف ليسأل نفسه أهى لحظة مواتية للزيارة . وفى وقفته هذه فتح مستر هولت الباب بعد أن سمع خطى صاعدة ، وأطل برأسه من الداخل . فلما رأى ارنست ندت عنه حركة غير لطيفة ، ولا أقول مؤذية ، ربما كانت موجهة الى ارنست أو غير موجهة اليه ، وبدا أنه شخص كريه جدا بحيث أحس بطل قصتى الهاما عاجلا لا لبس فيه من الروح القدس بمواصلة رحلته صعدا فى الحال كأنه لم يقصد قط قطعها عند حجرة مستر هولت ، وبأن يبدأ هداية مستر باكستر وزوجته اللذين يتبعان الكنيسة المثدية ويسكنان الحجرات الأمامية فى الطابق الأعلى . وكذلك فعل .

وتلقته الأسرة الطيبة بالترحاب ، وكان الزوجان على أتم استعداد للحديث معه . وشرع فى تحويلهما من المذهب المثدى الى المذهب الأنجليكانى ، واذا هو يجد نفسه فجأة وقد أربكه اكتشافه أنه لا يدرى عمّ يريد أن يحولهما . انه يعرف الكنيسة الانجليكانية ، أو خيل اليه أنه يعرفها ، ولكنه لا يعرف من المذهب المثدى أكثر من اسمه . فلما وجد مما قاله مستر باكستر أن للوسليين جهازا قويا من النظام الكنسى (نجح من الناحية العملية نجاحا جديرا بالاعجاب) بدا له أن جون وسلى سبق فكشف الآلة الروحية التى كان هو وپراير يعدان لها . ولما غادر

الحجرة شعر بأنه قد وقع على رجل أشد مراسا فى الروحيات مما توقع . ولكنه مبيّن ليراير لا محالة أن للوسليين جهازا من النظام الكنسى ، فهذا من الأهمية بمكان .

ونصح مستر باكستر ارنست بألا يتدخل فى شئون مستر هولت بحال، وارتاح ارنست كثيرا لهذه النصيحة . وقال لنفسه انه ان سنحت له فرصة ليمس قلب الرجل انتهزها ؛ انه سيربت على رءوس أطفاله اذا رآهم على السلم ، ويكسب ودهم ما استطاع الى كسبه سبيلا ؛ لقد كانوا أطفالا صلابا أشداء ، وارنست يخاف حتى منهم ، لأنهم « مســحوبون » من لسانهم ، يعرفون الكثير بالنسبة لسنهم . وأحس ارنست أنه يكاد يكون خيرا أن « يربط حجر رحى فى عنقه ويلقى به الى اليم » من أن يسىء الى أحد أبناء هولت . عــلى أى حال سيحاول ألا يسىء اليهم ؛ ولعل بنسا أو بنسين ينفحهم بهما بين الحين والحين قد يكسبانه ودهم . ذلك قصارى ما يستطيعه ، والا فمحاولة العمل السريع فى غــير أوانه ، كمحاولته فى أوانه ، ستنتهى بالاخفاق بالرغم من أمر القديس بولس .

وصورت مسز باكستر مس املى سنو التى تقطن الطابق الثانى من الخلف الى جوار مستر هولت تصويرا سيئا جدا . وكانت قصتها تختلف تمام الاختلاف عن قصة مسز چب صاحبة البيت . قالت ان هــذه الفتاة ستسر كثيرا ولا ريب بأن تتلقى خدمات ارنست أو غــيره من السادة ، ولكنها ليست مربية أطفال ، انما هى تشتغل فى المرقص بدروورى لين ، ثم انها شابة سيئة السمعة جدا ، ولو كانت مسز باكستر صاحبة البيت لما سمحت لها أن تمكث فيه ساعة واحدة ، كلا ثم كلا .

أما مس ميتلاند التى تسكن الحجرة الملاصقة لحجرة مسز باكستر فكل الظواهر تدل على أنها شابة محترمة هادئة ؛ ولا علم لمسز باكستر

بوفود زائرين على حجرتها ، ولكن الظواهر — رعاك الله — تغر ، وهاتان الفتاتان من طينة واحدة ، وليست الواحدة خيرا من الأخرى . ثم ان هذه الفتاة تخرج من البيت فى أوقات عجيبة ، فاذا عرفت ذلك عرفت كل شيء ..

ولم يلق ارنست بالا الى هذه الشائعات التى قالت بها مسز باكستر من سمعة مس ميتلاند . فان مسز چب كانت قد ألمت بأكثر مواطن ضعفه الكثيرة ، وحذرته من تصديق مسز باكستر ، لأنها امرأة سليطة اللسان على حد قولها .

وكان ارنست قد سمع بأن النساء دائما شديدات الغيرة فيما بينهن ، ولا ريب فى أن هاتين الشابتين أكثر جاذبية من مسز باكستر ، فلعل الغيرة اذن هى الكامنة وراء كلامها . فاذا كانتا مفترى عليهما فلا اعتراض على تعرفه اليهما ؛ وان لم تكونا فهما أحوج الى رعايته الدينية . وسيشرع فورا فى تخليص نفسيهما .

وأخبر مسز چب بما نوى . فحاولت أولا أن تثنيه عن عزمه ولكنها حين رأته مصمما اقترحت عليه أن تقابل هى مس سنو أولا لتهيئها لزيارته لئلا تفجأ بها . ولم تكن الفتاة فى البيت وقتها ، ولكنها قالت انها ستدبر الأمر خلال الغد . وفى هذه الأثناء يحسن به أن يحاول التحدث الى مستر شو ، السباك الذى يقطن المطبخ الأمامى . وكانت مسز باكستر قد أخبرت ارنست أن مستر شو من أهل الشمال أصلا ، وأنه يجهر بتفكيره الحر ؛ وقالت انه لن يمانع فى أن يزوره ارنست ، ولكنها لا ترى أن لارنست أملا كبيرا فى هدايته .

الفصل التاسع والخمسون

وقبل أن ينزل ارنست الى المطبخ ليهدى السباك بالتحليل الذى أعده لكتاب پالى « الأدلة » ووضع فى جيبه نسخة من كتاب رئيس الأساقفة ويتلى « الشكوك التاريخية » . ثم هبط السلم العتيق القذر المظلم وطرق باب السباك . وكان مستر شو غاية فى الأدب ، فقال ان العمل يزحمه فى تلك اللحظة ، ولكنه يسره جدا أن يتحدث مع ارنست ان لم يبال بسماع صوت مطرقته . ووافق بطل قصتى ولم يلبث أن وجه الحديث الى كتاب ويتلى «الشكوك التاريخية» وهو كتاب يتظاهر — فيما يعلم القارىء — بأن يثبت أنه لم يعش قط رجل باسم ناپليون بوناپرت ، وبهذه الطريقة يتهكم بحجج من هاجموا معجزات المسيح .

وقال مستر شو انه يعرف « الشكوك التاريخية » جيد المعرفة .

وقال ارنست « وما رأيك فيه ؟ » وكان يرى هذا الكتيب آية فى البراعة وقوة الحجة .

وقال مستر شو والخبث يلمع فى عينه « فى ظنى — ان شئت حقا أن تعرف رأيى فيه — أن الرجل الذى أراد واستطاع أن يثبت أن ما كان لم يكن ، يستطيع ويريد أن يدافع بالمثل عن الرأى القائل بأن ما لم يكن قد كان ، اذا وافق هذا غرضه » . ودهش ارنست أشد الدهشة ، فكيف لم ينبهه قط كل جهابذة كمبردج لهذا الرد البسيط ؟ الجواب سهل ؛ انهم لم يصطنعوه لنفس السبب الذى جعل الدجاجة لا تصطنع أرجلا ذات نسيج — أعنى لأنهم لم يريدوا أن يفعلوا ؛ ولكن هذا كان سابقا لظهور

نظرية التطور ، ولم يستطع ارنست بعد أن يعرف شيئا عن القانون العظيم الكامن وراء التطور .

وواصل مستر شو حديثه قائلا « ان هؤلاء الكتاب جميعهم كما تعلم يكسبون قوتهم بالكتابة فى اتجاه معين ، وكلما كتبوا فى هذا الاتجاه ازدادت فرص نجاحهم فى الحياة . وينبغى ألا ترميهم بعدم الأمانة بسبب هذا ، أكثر مما يرمى القاضى محاميا بعدم الأمانة لأنه يكسب قوته بالدفاع عن شخص لا يؤمن ببراءته ايمانا جادا ؛ ولكن ينبغى أن تستمع الى محامى الطرف الآخر قبل أن تفصل فى القضية »[1].

وكانت هذه لطمة أخرى . ولم يسع ارنست الا أن يقول فى تلعثم انه حاول أن يفحص هذه المسائل بما وسعه من عناية .

وقال مستر شو « انك تحسب أنك فحصتها ، وأنتم يا رجال أكسفورد وكمبردج تحسبون أنكم فحصتم كل شىء . وأنا شخصيا لم أفحص من الأشـياء الا القليل جـدا باستثناء قاع الغلايات والطاسات ، ولكنك لو تكرمت بالاجابة عن بضعة أسئلة قلت لك أينا فحص أشياء أكثر من صاحبه » .

وأبدى ارنست استعداده لأسئلته :

وقال السباك «اذن فارو لى قصة القيامة كما وردت فى انجيل يوحنا».

ويؤسفنى أن أقول ان ارنست خلط بين الروايات الواردة فى الأناجيل الأربعة خلطا يرثى له ؛ بل انه جعل الملاك ينزل ويدحرج الحجر ويجلس فوقه . وقد اشتد ارتباكه حين ذكر له السباك ، أولا دون الاستعانة بالانجيل ، بعض زلاته الكثيرة ، ثم حقق نقده هذا بالرجوع الى العهد الجديد نفسه .

وقال مستر شو متلطفا « انى شيخ وأنت شاب ، فلعلك لا تمانع فى

أن أبذل لك النصح . وأنا أحبك لأنني اعتقد أنك حسن النية ، ولكنك نشئت تنشئة سيئة حقا ، وفى ظنى أنه لم تتح لك أقل الفرص الى الآن . فأنت لا تعرف شيئا عن وجهة نظرنا فى هذه المسألة ، وقد أظهرت لك الآن أن معرفتك بوجهة نظركم ليست أفضل ، نعم ، ولكنى أظن أنك ستصبح يوما ما رجلا من طراز كارليل . فاصعد الآن الى مسكنك واقرأ الروايات عن القيامة قراءة صحيحة دون أن تخلط بينها ، وكون لك فكرة واضحة عما يرويه كل من الكتّاب الأربعة ، فاذا شعرت بميل الى زيارتى ثانية سرنى أن ألقاك ، لأننى سأعلم عندئذ أنك بدأت بداية طيبة ، وأنك جاد فيما أنت بسبيله . وحتى ذلك الوقت يا سيدى ، على أن أتمنى لك صباحا طيبا جدا » .

وانسحب ارنست من حجرة الرجل يجلله الخزى . وكفته ساعة ليقوم بالمهمة التى فرضها عليه مستر شو ، وفى نهاية الساعة عادت اليه « لا ، لا ، لا » التى كانت ما تزال تتردد فى أذنيه كما سمعها من تاونلى ، وعادت من صفحات الانجيل نفسه أعلى رنينا من ذى قبل ، وفيما يتصل بأهم الأحداث المدونة فيه . لم تكن هباء اذن محاولة اليوم الأول التى بذلها ارنست فى مزيد من الزيارات لكل من هب ودب وفى تطبيق مبادئه تطبيقا أدق وأكمل . ولكن لابد له من أن يمضى ويتحدث الى پراير . لذلك تناول غداءه الخفيف ثم ذهب الى مسكن پراير . فلما لم يجده راح يتسكع حتى وصل الى قاعة المطالعة فى المتحف البريطانى ، وكانت قد افتتحت حديثا ، ثم طلب كتاب « آثار الخليقة » الذى لم يكن رآه قط . وأنفق بقية المساء فى قراءته .

ولم يلق ارنست پراير يوم حديثه مع مستر شو ، ولكنه لقيه فى صباح الغد ، ووجده رائق المزاج وهو ما لم يكنه فى أيامه الأخيرة الا فيما

ندر . لقد كان يسلك أحيانا مع ارنست سلوكا لا يعين على الانسجام الذى تقتضيه ادارة كلية الأمراض الروحية حين تؤسس . وكاد يخيل اليه أن پراير يحاول أن يفرض عليه سلطانا أدبيا شـــاملا لكى يصـــيره مخلوقا من صنعه .

ولم ير ارنست أن صاحبه قد يتمادى فى شططه ، والحق اننى كلما فكرت فى حماقة بطل قصتى وقلة خبرته ، وجدت لپراير عذرا كبيرا فى النتيجة التى خلص اليها .

على أن الواقع كان غير ذلك . كانت ثقة ارنست فى پراير أعظم من أن تتزعزع فى لحظة ، ولكنها أخيرا اعتورها غير مرة ما أضعفها وقد ناضل ارنست نضالا شديدا ليمنع نفسه من أن يرى هذا ، ومـــع ذلك فان أى شخص ثالث خبير بالاثنين كان فى استطاعته أن يتبين أن الصـــلة بينهما قد تنقطع فى أى لحظة ، لأنه حين أتى الوقت لكى يغير ارنست من اتجاه طيرانه المذبذب لم يتوان فى تغييره ؛ على أن الوقت لم يكن قد أتى بعد ، وظلت الصلة الحميمة بينهما تبدو كما كانت من قبل . انما هى هذه المسألة البغيضة ، مسألة المال ، التى كانت السبب فيما بينهما من جفوة ان وجدت (كذلك قال ارنست لنفسه) ، ولا ريب فى أن پراير على حق ، وأن ارنست مسرف فى قلقه . على أن هذه المسألة يمكن تأجيلها فى الوقت الحـــاضر .

وكذلك كان شأنه فى تغيير آخر ، فانه بالرغم من الصدمة التى تلقاها من جراء حديثه مع مستر شو واطلاعه على كتاب « آثار الخليقة » ، فقد كان الى الآن مشدوها الى حد منعه من ادراك ما يحل به من تغيير . ولقد دفعته قوة العادات القديمة فى كل حالة من هاتين الى الأمام فى اتجـــاهه القديم . ولذلك زار پراير ، وأنفق معه ساعة أو يزيد .

ولم يقل له انه كان يزور جيرانه ، فقد كان هذا بالنسبة لپراير أشبه براية حمراء يلوح بها لثور . انما اكتفى بالكلام بأسلوبه العادى عن الكلية المقترحة وعما يتسم به المجتمع العصرى من افتقار مؤسف الى الاهتمام بالأمور الروحية ، وما الى ذلك من مواضيع ؛ واختتم حديثه بأنه يخشى فى الوقت الحاضر أن يكون پراير على حق فعلا ، وأنه ليس فى الامكان القيام بأى عمل .

وقال پراير « لا شيء فيما يخص العلمانيين ، الا اذا توفر لنا نظام نستطيع أن نفرضه بجزاءات وعقوبات . فكيف يستطيع كلب الغنم أن يسوس القطيع ما لم يستطع بين الحين والحين أن يعض كما ينبح ؟ أما فيما يخصنا نحن فنستطيع أن نصنع الكثير » .

وكانت هيئة پراير غريبة خلال هذا الحديث ، وبدا كأنه يفكر طوال الوقت فى شيء آخر . وراحت عيناه تجولان فى ارنست بصورة عجيبة كثيرا ما لحظها ارنست من قبل ، كانت كلماته تدور حول نظام الكنيسة ، ولكن جانب القصة المتصل بالنظام كان يسقط منها — على نحو ما — بعد تأكيد پراير المرة بعد المرة أنه ينطبق على العلمانيين لا على رجال الدين: بل ان پراير قال مرة فى ضيق ونزق « أوه ، تبا لكلية الأمراض الروحية » . فأما عن رجال الدين ، فان ظلفا مشقوقا(*) كبيرا جدا راح يطل من تحت الرداء المقدس الذى استتر وراءه حديث پراير ، ومفاد هذا الحديث انهم ما داموا كاملين من الناحية النظرية ، فان الهنات أو الهفوات العملية أقل أهمية . وكان يبدو عليه القلق كأنه يريد طرق موضوع لا يجرؤ تماما على أن يتناوله ، وظل (مرة كل ثلاثة أيام تقريبا) يضرب على وتر ، هو ذلك الافتقار المؤسف الى التحديد الواضح للفواصل بين

(*) كناية عن الشيطان أو الطبيعة الشريرة .

الرذيلة والفضيلة ، وكيف أن نصف الرذائل يحتاج الى التنظيم أكثر من الحظر . كذلك أطال الحديث عن فوائد التحرر المطلق ، وألمع الى أن هناك أسرارا غامضة لم يطلع ارنست عليها بعد ، ولكنها ستنير له الطريق اذا وصل الى العلم بها ، وهو ما سيسمح له به حين يرى أصدقاؤه أنه بلغ من القوة مبلغا كافيا .

وكثيرا ما بدا پراير هكذا من قبل ، ولكن خيل الى ارنست أنه لم يقرب قط من بيت القصيد قربه منه هذه المرة ، وان لم يستطع أن يفقه تماما ما هو بيت القصيد هنا . وكان قلقه يسرى الى ارنست ، الذى كان على الأرجح سيحيط علما بعد قليل بما وسع پراير أن يخبره به من أنباء ؛ ولكن الحديث انقطع فجأة بقدوم زائر . ولن يتاح لنا أبدا العلم بما كان يمكن أن تكون خاتمته ، لأن هذه آخر مرة رأى فيها ارنست صاحبه پراير . ولعل پراير كان موشكا أن ينبئه بنبأ سيىء عن مضارباته .

الفصل الستون

مضى ارنست الآن الى البيت وشغل نفسه الى فترة الغداء بدراسة مذكرات الأسقف ألفورد عما سجله البشيرون عن القيامة ، فاعلا ما أخبره به مستر شو ، غير محاول أن يكتشف أن رواياتهم جميعها صحيحة دقيقة، بل هل هذه الروايات صحيحة دقيقة أم لا . ولم يعبأ بالنتيجة التى قد يصل اليها ، ولكنه كان مصرا على الوصول الى احدى النتيجتين . فلما فرغ من مذكرات دين ألفورد وجد أن هذا محصلها — أنه لم يوفق أحد بعد الى التنسيق بين الروايات الأربع تنسيقا معقولا ، وأن الأسقف اذ رأى أن لا أمل له فى أن يلقى من التوفيق أكبر مما لقى سابقوه ، أوصى بأن تؤخذ القصة كلها بالايمان — وهذا ما لم يكن ارنست على استعداد لأن يفعله .

وتناول غداءه وخرج يتمشى طويلا ثم عاد الى العشـــاء فى السادسة والنصف . وبينما كانت مسز چب تحضر له عشاءه — وكان قطعة من البفتيك وقدحا من الجعة ، أخبرته أن مس سنو يسعدها جدا أن تلقاه بعد نصف ساعة . فأزعجه الخبر ، لأن ذهنه كان فى حالة من الاضطراب لا ترغبه فى هداية أى انسان فى تلك اللحظة . وتأمل الموقف مليا ، فوجد أنه بالرغم من الصدمة المفاجئة التى منيت بها آراؤه ، فهو مسوق حتما للقيام بهذه الزيارة كأن شيئا لم يحدث . فليس من اللائق ألا يذهب ، لأن الجيران يعلمون أنه فى البيت . وينبغى له ألا يتعجـل كثيرا فى تغيير آرائه عن موضوع كموضوع الأدلة على قيامة المسيح فجأة — ثم انه لا حاجة تدعوه الى التحدث الى مس سنو فى هذا الموضوع اليوم — فهناك أشياء أخرى

يمكن أن يتحدث فيها . ولكن ما هي هذه الأشياء ؟ وشعر ارنست بقلبه يخفق فى سرعة وعنف ، وأنذره نذير باطن بأنه يفكر فى أى شىء الا فى نفس مس سنو .

فماذا ينبغى له أن يفعل ؟ يهرب ، يهرب ، يهرب — ففى الهروب وحده السلامة . ولكن أكان المسيح يهرب ؟ انه حتى لو لم يمت المسيح ويقم ، فلا جدال فى أنه القدوة التى يجب أن نقتدى بها . ان المسيح ما كان ليهرب من مس سنو ، ذلك لا ريب فيه ، لأنه كان يخالط على الأخص سيئى السمعة والنسوة الخاطئات . ومهمة المسيحى الحق هى اليوم كما كانت بالأمس — ألا يدعو الأبرار بل الخطاة الى التوبة . ان تغييره مسكنه سيضايقه ، وهو لا يستطيع أن يطلب الى مسز چب أن تطرد مس سنو ومس ميتلاند من بيتها . اذن فأين يكون الحد الفاصل المميز ؟ ومَن من سكان البيت يصلح للعيش معه فى نفس البيت ، ومن منهم لا يصلح ؟

ثم الى أين تمضى هاتان الفتاتان المسكينتان ؟ أيطردهما من بيت الى بيت حتى تغلق فى وجهيهما البيوت كلها ؟ ان هذا سخف ، وواجبه واضح: سيمضى ويزور مس سنو فورا ، ويحاول أن يقنعها بتغيير أسلوب حياتها ، فاذا وجد أن الامتحان أقوى من أن يثبت له هرب — وهكذا صعد يتأبط كتابه وفى قلبه نار آكلة .

ووجد مس سنو وقد بدت ظريفة جدا فى حجرتها المؤثثة بأثاث يتميز بالنظافة والترتيب بل بالاحتشام . وفى ظنى أنها اشترت آية أو آيتين مزخرفتين وعلقتهما فوق المدفأة فى ذلك الصباح . وسر بها ارنست كثيرا جدا ، فوضع كتابه آليا فوق المنضدة . وما ان بدأ حديثا مترددا ، واصطبغ وجهه بحمرة الخجل ، حتى سمعت خطى سريعة تقفز فوق السلم

كأنها خطى انسان لم يكن لجاذبية الأرض عليه كبير سلطان . واذا رجل يندفع فى الحجرة قائلا « جئت قبل موعدى » ، وكان الداخل تاونلى .

وتغير وجهه حين لمح ارنست وقال « ماذا ، أنت هنا يا پوتنفكس ! يا للعجب ! » .

ولست أستطيع أن أصف التفسيرات العجلى التى تبادلها ثلاثتهم بسرعة — ويكفى أن أقول انه فى أقل من دقيقة تسلل ارنست من الحجرة وقد ازداد وجهه اصطباغا ، حاملا كتابه وهو أشد ما يكون شعورا بالذل والهوان اذ قارن بينه وبين تاونلى . وقبل أن يصل الى أسفل السلم المؤدى الى حجرته سمع ضحكة تاونلى المرحة تصله من وراء باب مس سنو ، فلعن الساعة التى ولد فيها .

عند ذلك ومض فى ذهنه خاطر ، ذلك أنه ان كان قد عجز عن زيارة مس سنو فهو يستطيع على أية حال أن يزور مس ميتلاند . انه يعلم جيدا ما يريده الآن ، فأما كتابه فقد دفع به بعيدا عنه الى طرف المنضدة فسقط منها على الأرض . وكان هو الكتاب الذى أعطته اياه خالته المحبة الزبث ألبى يوم عماده . حقا انه لا يعرف عن مس ميتلاند الا القليل جدا ، ولكن الأغرار الجهال من الشباب الذين فى موقف ارنست لا يفكرون أو يزنون الأمور فى تدقيق . لقد قالت مسز باكستر أن مس ميتلاند ومس سنو طيران متشابهان ، ولعل مسز باكستر أدرى بالحقيقة من تلك الكذوب مسز چب . يقول شكسپير (*) .

« ايه أيتها الفرصة ، ان جرمك لعظيم ،
فأنت التى تنفذين خيانة الخائن :
وتدفعين الذئب الى حيث يظفر بالحمل ؛

(*) فى قصيدته The Rape of Lucrece

أنت التى تزدرين الحق والقانون والمنطق السليم .
وفى كهفك المستور الذى لا تنفذ اليه عين
يربض الاثم ليتصيّد النفوس الهائمة بقربه » .

فاذا كان جرم الفرصة عظيما ، فما بالك بجرم ما يُظن أنه فرصة ، وهو فى الواقع لا يمت الى الفرصة بسبب . واذا كان خير جوانب الشجاعة هو الحذر ، أفلا يكون الحذر خير جوانب الرذيلة ؟

وحاصل القول أنه ما مضت عشر دقائق على ارنست بعد آن رأيناه فى موقفه ذاك ، حتى شوهدت فتاة مرتاعة مهينة ، منفعلة مرتعدة الفرائص، تهرول من بيت مسز چب بأسرع ما يتيح لها اضطرابها ، وبعد عشر دقائق أخرى شوهد شرطيان يخرجان أيضا من بيت مسز چب وبينهما صاحبنا التعس ارنست يجر رجليه جرا ولا أقول يسير ، وعيناه تحملقان ، ووجهه فى صفرة الموت ، واليأس مطبوع على كل قسمة من قسماته .

الفصل الحادى والستون

أحسن پراير صنعا حين حذر ارنست من زيارة كل من هب ودب من الناس فى بيوتهم . انه لم يخرج عن باب مسز چب ، فماذا كانت النتيجة ؟ لقد ألقى مستر هولت الرعب فى بدنه ؛ وكاد مستر باكستر وزوجه يخرجانه من مذهبه الى مذهب المتديين ؛ وقوض مستر شو ايمانه بالقيامة ؛ وأفسدت مفاتن مس سنو خلقه — أو كادت تفعل هذا لولا حدث عارض. فأما مس ميتلاند فقد فعل قصاراه فى أن يفسد خلقها ، فجرّ على نفسه نتيجة لذلك أذى بليغا لا سبيل الى دفعه . أما الساكن الوحيد الذى لم يضره فهو مصلح المنافيخ الذى لم يزره .

ان غيره من صغار الكهنة ، الذين يفوقونه غفلة فى نواح كثيرة ، ما كانوا يتورطون فى هذه المآزق . فيبدو أنه عود نفسه على شهوة المعابثة منذ اليوم الذى رسم فيه تقريبا . انه لا يكاد يعظ دون أن يزل زلة منكرة. وعظ صباح أحد والأسقف حاضر فى كنيسة رئيسه القسيس ، وجعل عظته تدور حول هذا السؤال : ما نوع الكعكة الصغيرة التى قصدت أرملة « صرفة » أن تخبزها حين وجدها ايليا تجمع بعض الحطب . فبين أنها كعكة حلوة مخلوطة بالكراوية . وكانت العظة والحق يقال مضحكة جدا ، ورأى غير مرة ابتسامة تعلو الوجوه الكثيرة التى يشرف عليها من منبره . وغضب الأسقف جدا . ووبخ بطل قصتى توبيخا شديدا فى غرفة الملابس بعد انتهاء الصلاة ؛ وكان عذره الوحيد الذى احتج به انه يعظ ارتجالا ، وأنه لم تخطر له هذه النقطة بالذات الا حين وجد نفسه على المنبر فعلا فاستهوته .

وفى مرة أخرى وعظ عن شجرة التين العاقر ، ووصف آمال صاحبها وهو يرقب الزهر الرقيق يتفتح ويبشر بثمر جميل جدا فى الخريف . وفى الغد تلقى رسالة من أحد أفراد رعيته — وكان من المشتغلين بعلم النبات — فبين له أن هذا لا يمكن أن يكون ، لأن التين يثمر ثمرة أولا ثم يزهر فى داخل الثمرة أو قرب داخلها بحيث لا تبدو الزهرة للناظر العادى . على أن هذه الزلة صدفة قد تحدث لأى انسان الا العالم أو الكاتب الملهم .

ولست أجـد عذرا ألتمسه له الا حداثة سنه — اذ لم يكن قد بلغ الرابعة والعشرين بعد — وأنه كان فى عقله كما كان فى جسمه بطىء النمو، شأنه فى ذلك شأن جميع من ينتهون آخر الأمر الى التفكير المسـتقل . أضف الى ذلك أن الجانب الأكبر من تعليمه كان الى حد كبير محاولة لا تهدف الى ستر الحقائق عنه بقدر ما تهدف الى قلع عينيه قلعا تاما .

ولكن لنعد الى قصتنا . فقد اتضح فيما بعد أن مس ميتلاند لم تقصد الى تسليم ارنست للبوليس حين خرجت تجرى من بيت مسز چب . فهى كانت تجرى لأنها مرتاعة ، ولكن اتفق أن أول شخص تقريبا صادفته كان شرطيا يميل الى الجد ويريد أن يشتهر بالنشاط ، فأوقفها ، واستجوبها ، وزادها ارتياعا على ارتياع ، وكان هو — لا مس ميتلاند — الذى أصر على تسليم بطل قصتى لنفسه ولشرطى آخر .

وكان تاونلى لا يزال فى بيت مسز چب حين أتى الشرطى . فسـمع ضجيجا ، ولما نزل الى حجرة ارنست ومس ميتلاند فى الخارج وجـده مصعوقا كأنه صريع فى قرار الهوة الخلقية التى تردى فيها لتوه . وتبين الحقيقة كلها بنظرة واحدة ، ولكنه قبل أن يستطيع القيام بأى عمـل دخل الشرطى ، وأصبح العمل مستحيلا .

وسأل ارنست من أصدقاؤه فى لندن . وأراد ارنست أولا أن يمتنع

عن الجواب ، ولكن تاونلى ما لبث أن أفهمه أن لا مفر من الجـواب ، فاختارنى من بين النفر القليل الذين سماهم ، وقال تاونلى « انه يكتب للمسرح ، أليس كذلك ؟ أهو كاتب ملاه ؟ » وخيـل لارنست أن تاونلى يقصد أنه ينبغى أن أكتب المآسى ، وقال انه يخشى أن يقول اننى أكتب مهازل صاخبة . وقال تاونلى « أوه ، حسنا ، حسنا ، هذا عظيم . سأذهب وأراه فى الحال » . ولكنه حين فكر مليا قرر أن يمكث مع ارنست ويمضى معه الى مركز الشرطة ، لذلك بعث الىّ بمسز چب . وهرولت مسز چب باحثة عنى فى سرعة جعلتها تتصبب عرقا — كما قالت — بالرغم من أن الجو كان لا يزال باردا . وكانت هذه العجوز التعسة المسكينة تريد أن تستقل عربة لولا أنها لم تملك أجرتها ، ولم ترد أن تسأل تاونلى بعض المال . ورأيت أن أمرا خطيرا جدا لابد قد وقـع ، ولكنى لم أكن مهيئا لسماع خبر مؤسف جدا كالخبر الذى أنبأتنى به مسز چب فعلا . أما هى فقالت ان قلبها ظل يقفز من حفرته ويعود اليها منذ وقعت هذه الواقعة .

واصطحبتها معى فى عربة ، وانطلقنا الى مركز الشرطة وهى لا تكف عن الكلام .

قالت « واذا كان الجيران يشيعون عنى شائعات قاسية فأنا واثقة أنه الملوم ان صحت . فمستر پوتنفكس لم يلتفت الىّ أكثر مما لو كنت أخته . أوه ، ان هذا يجعل الدم يجمد فى عروق أى امرأة . وظننت أن فتاتى روز قد تنسجم معه خيرا منى ، فحملتها على تنظيف حجرته ونفضها كأننى مشغولة ، وأعطيتها « مريلة » حديثة نظيفة جميلة ، ولكنه لم يعرها من الالتفات أكثر مما أعارنى مع أنها لم تكن فى حاجة الى اعجاب أو ثناء منه ، وما كانت لتأخذ منه شلنا واحدا وان عرضه عليها ، ولكن يظهر أنه

لم يكن يعرف شيئا على الاطلاق . ولا أدرى ماذا سينتهى اليه أمر هؤلاء الشبان ؛ فلتقرب ساعتى وليأكلنى الدود هذه الليلة ان كان هذا لا يكفى لقتل المرأة منا ، ولجعل نصف النساء يفقدن عقولهن حين يرين مصيرهن هذا ؛ وكم من فتاة طيبة تضطر للعودة الى بيتها ليلة بعد ليلة وليس فى جيبها أربعة بنسات ، مع أنها تدفع ثلاثة شلنات وستة بنسات فى الأسبوع ايجارا ومسكنها خلو من رف أو دولاب ، وأمام نافذتها حائط مسدود » .

ثم واصلت كلامها تقول « ولكن ليس الشرير هو مستر پوتنفكس ؛ فهو طيب القلب ، لا يقول كلمة قاسية على الاطلاق . ثم لا تنس عينيه الحبيبتين ، ولكنى حين أذكرهما لفتاتى روز ترمينى بأنتى عجوز حمقاء وتقول انه يجب أن يقطع رأسى . انما هو پراير الذى لا أطيقه ، تبا له : انه يحب أن يجرح عواطف المرأة ، نعم ، وأن يقذف بأى كلام فى وجهها ، نعم — انه يحب التنكيل بالمرأة . ان واجب الرجل المهذب أن يلطف ألم المرأة ، أما هو فيود أن يقتلع شعرها حفنا فى يديه . نعم ، لقد قال لى فى وجهى اننى أشيخ ؛ أشيخ . حقا ! ليس فى لندن امرأة تعرف عمرى سوى مسز ديفز التى تسكن « أولد كنت رود » ، واذا استثنيت عرقا فى احدى ساقى فاننى ما زلت صغيرة كما كنت فى شبابى . أشيخ حقا ! كم من ألحان جميلة تعزف على قيثارة قديمة ، انى أمقت غمزاته القذرة » .

وما كنت لأستطيع أن أكفها عن الكلام حتى لو شئت . وقد قالت أكثر كثيرا مما ذكرت آنفا . وحذفت من كلامها الكثير لأننى لم أستطع تذكره ، ولكنى حذفته على الأخص لأنه يستحيل على فى الواقع أن أنشره.

فلما وصلنا الى مركز الشرطة وجدت تاونلى وارنست سبقانا اليه ، وكانت التهمة الموجهة الى ارنست هى محاولة الاغتصاب ، ولكنها محاولة خفف منها عدم استعمال العنف الشديد . على أنها تهمة مؤسفة حتى مع

هذا التكييف ، ورأينا كلانا أن صديقنا الشاب لا محالة دافع ثمن عدم خبرته غاليا . وحاولنا أن نطلق سراحه تلك الليلة بكفالة ، ولكن مفتش الشرطة رفض قبول الكفالة ، فاضطررنا الى تركه فى مركز الشرطة .

وهنا ذهب تاونلى الى بيت مسز چب ليرى هل يستطيع العثور على مس ميتلاند وتسوية الأمور معها . فلم يجدها فى البيت ، ولكنه اقتفى أثرها الى بيت أبيها الذى يسكن بحى كمبرول . وكان الأب شديد السخط يأبى الاستماع الى أى شفاعة من تاونلى . وكان من المنشقين على الكنيسة الأنجلكانية ، فسره أن يستغل أى فضيحة ضد رجل من رجال هذه الكنيسة ، وهكذا اضطر تاونلى الى العودة خائبا .

وفى الصباح زارنى تاونلى — وكان يرى ارنست غريقا لابد من انتشاله من الماء على نحو ما ان أمكن ، دون نظر الى كيفية سقوطه فى هذا الماء — ووضعنا الأمر بين يدى محام من أشهر المحامين . وسررت بتاونلى سرورا عظيما ، ورأيت من حقه أن أخبره بما لم أخبر به أحدا سواه ، وأعنى أن ارنست سيتسلم ميراث عمته بعد سنوات قليلة فيصبح عندئذ رجلا موسرا .

وكان تاونلى يفعل قصاراه قبل أن يسمع بهذا ، ولكننى كنت أعلم أن المعلومات التى أدليت اليه بها ستشعره بأن ارنست فرد ينتمى الآن لطبقته أكثر مما كان ينتمى من قبل ، فهو بهذه المثابة ذو حق أكبر فى معونته . فأما ارنست نفسه فقد كان عرفانه بالجميل أعظم مما يستطيع التعبير عنه بالكلام . ولقد سمعته يقول انه يستطيع تذكر لحظات كثيرة يمكن أن تعد كل منها أسعد لحظات حياته ، ولكن هذه الليلة تتميز فى ذاكرته بأنها أشد الليالى التى قضاها ايلاما للنفس ، ومع ذلك فان تاونلى أبدى من العطف والمجاملة ما جعلها محتملة جدا .

ولكن برغم جميع الأمانى الطيبة التى يمكن أن تخطر بالبال ، لم

نستطيع لا تاونلى ولا أنا أن نساعده بأكثر من التأييد الأدبى . وأخبرنا محامينا أن القاضى الذى سيمثل أمامه ارنست صارم جـدا فى مثل هـذه القضايا ، وأن اشتغال ارنست بالدين سيسوىء مركزه . وقال « لا تطلبا اعادته للسجن ولا تقدما أى دفاع . اننا سنطلب القسيس الذى يشغل پوتنفكس تحت رياسته ، ونطلبكما أنتما أيها السيدان شاهدين على حسن خلق المتهم فيما مضى ، وفى هذا الكفاية . وبعد هذا لنقدم اعتذارا صادقا ولنطلب الى القاضى أن يتصرف فى القضية بصفة مستعجلة بدل أن يقدمها للمحاكمة العلنية . فاذا ظفرتما بهذا فصدقانى ان صديقكما الشاب سيخرج من تهمته خيرا مما يحق له أن يتوقع » .

الفصل الثاني والستون

كانت هذه النصيحة خليقة بأن توفر على ارنست الوقت والقلق الفكرى ، فضلا عن كونها ولا ريب معقولة ، لذلك لم نتردد فى اتباعها . ونودى على القضية حوالى الساعة الحادية عشرة ، ولكننا أفلحنا فى تأجيلها الى الثالثة لنتيح لارنست الوقت الكافى لتسوية شئونه جهد الطاقة ، وليعطينى توكيلا يمكنني من أن أنوب عنه فيما أراه ضروريا وهو فى سجنه .

وهنا افتضح كل خفى عن پراير وكلية الأمراض الروحية . ولقى ارنست فى الاعتراف بهذا مشقة أكبر حتى مما لقى فى اخبارنا بأمره مع مس ميتلاند ، ولكنه باح لنا بكل شيء ، وحاصل القول أنه كان قد سلم فعلا لپراير كل فلس يملكه دون ضمان سوى صك كتبه پراير على نفسه بالمبلغ . وكان ارنست قد تنبه الى حماقة ما صنع ، مع أنه ما زال يأبى أن يصدق أن پراير قد يقترف أمرا يخدش الشرف ؛ على أنه أكد لنا أنه سيستعيد على الأقل معظم ثروته حالما يتـاح لپراير الوقت لبيع الأسـهم . أما تاونلى وأنا فكان رأينا فى الأمر غير هذا ، ولكننا لم نصرح به .

وكان الانتظار طوال الصباح ثقيلا مقبضا وسط هذه البيئة الغريبـة المحزنة . وتذكرت ما قاله كاتب المزمور فى تهكم هادىء « ان يوما واحدا فى ديارك (*) خير من ألف » وخيل الى أننى أستطيع الاعراب عن شعور شديد الشبه بهذا الشعور فيما يتصل بالمحاكم التى اضطررت أنا وتاونلى أن نتلكأ فيها . وأخيرا ، وحوالى الساعة الثالثة ، نودى على القضية ،

* والكلمة بالانجليزية Courts وتعنى أيضا دور القضاء
(مزمور ٨٤ ـ ١٠)

وذهبنا الى المكان المخصص للجمهور بينما أخذ ارنست الى قفص المتهمين . وما ان تمالك نفسه تمالكا كافيا حتى تبين فى القاضى ذلك الشيخ الذى تحدث اليه فى القطار يوم ترك المدرسة ، ورأى أو خيل اليه أنه رأى فى أسف شديد ، أن الرجل هو أيضا قد تبينه .

واتبع مستر أوترى — وهو اسم المحامى الذى اخترناه — الطريق الذى اقترحه من قبل ، فلم يطلب شهودا غيرى وغير القسيس الذى يعمل ارنست تحت رياسته ، وتاونلى ، ثم ناشد القاضى أن يستعمل الرأفة . ولما اختتم حديثه قال القاضى « يا ارنست پوتنفكس ، ان قضيتك من أشد القضايا التى اضطررت لنظرها ايلاما للنفس . فلقد حبتك الطبيعة الى حد كبير فى مولدك وفى تربيتك . وكان أمامك قدوة الوالدين النقيى السيرة اللذين غرسا فيك ولا ريب منذ الطفولة الايمان بفداحة الجرم الذى اقترفته باعترافك . لقد أرسلاك الى مدرسة من خيرة المدارس الخاصة فى انجلترا ، فليس من المعقول فى جو سليم كجو مدرسة رفبرو أن تكون قد صادفت مؤثرات مفسدة ؛ ولعل المدرسة ، بل أقول من المؤكد أن المدرسة طبعت فيك الاعتقاد بشناعة أية محاولة للخروج على العفة الصارمة الى أن تبلغ الوقت الذى تبدأ فيه حياتك الزوجية . وفى كبمردج حميت من النجاسة بكل معوق استطاع أن يضعه أولو الأمر الفضلاء اليقظون . وحتى لو كانت هذه المعوقات أقل ، فمن المرجح أن والديك حرصا على ألا تتيح لك مواردك المالية أن تبدد المال على من لفظهم المجتمع . وفى الليل كان المشرفون يجوبون الشوارع ويتعقبون خطاك لو حاولت دخول أى مأوى يشتبه فى وجود الرذيلة فيه . أما فى النهار فكانت النسوة اللائى يسمح لهن بالدخول فى حرم الكلية يخترن على أساس الشيخوخة والدمامة قبل كل شىء . فمن العسير أن يرى المرء ماذا كان من الممكن صنعه لشاب

أكثر من هذا . ولقد كنت فى الشهور الأربعة أو الخمسة الأخيرة رجلا من رجال الدين ، فلو كانت هناك فكرة نجسة واحدة لا تزال تسكن عقلك لاقتلعتها رسامتك ، ومع ذلك يبدو أن عقلك ليس فاسدا وحسب — وكأن واحدا من المؤثرات التى أشرت اليها لم يستخدم للتأثير فيك — بل ان نتيجتها الوحيدة هى هذه — أنك لا تملك حتى الادراك الكافى للتمييز بين الفتاة المحترمة والفاجرة .

« ولو شئت أن أطبق ما يمليه علىّ واجبى تطبيقا دقيقا لأحلتك الى المحاكمة العلنية ، ولكن نظرا لأن هذه الجريمة هى جريمتك الأولى ، فسأعاملك برفق وأحكم عليك بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة ستة أشهر » .

وخيل الى تاونلى والىّ أن فى حديث القاضى مسحة من التهكم ، وأنه كان يستطيع أن يصدر حكما أخف لو شاء ، ولكن هذا لم يكن يقدم أو يؤخر كثيرا . وحصلنا على اذن بمقابلة ارنست دقائق قليلة قبل أن ينقل الى كولدباث فيلدز حيث تقرر أن يقضى مدة السجن ، فوجدناه شاكرا للفصل فى أمره على وجه السرعة ، شكرا كاد ينسيه شقاء الشهور الستة التالية . وقال انه حين يخرج من السجن سيأخذ ما بقى له من مال ويسافر الى أمريكا أو استراليا فلا يسمع عنه بعد ذلك شىء أبدا .

وتركناه مصمما كل التصميم على هذا الأمر ، ومضيت أنا للكتابة الى ثيوبولد ، ولأطلب الى محامىّ أن يستنقذ مال ارنست من يد پراير ، ومضى تاونلى ليلقى مخبرى الصحف فيمنعهم من كتابة شىء فى صحفهم عن القضية . وقد أفلح فى جهوده مع جميع مخبرى الصحف الراقية . على أن صحيفة واحدة — كانت من أحط الصحف — لم يكن سبيل الى رشوتها .

الفصل الثالث والستون

لقيت محاميّ في الحال ، ولكنى حين حاولت أن أكتب لثيوبولد وجدت من الخير أن أقول له اننى قادم اليه . واقترحت عليه هذا فى خطابى ، وسألته أن يلقانى فى المحطة ، وألمعت الى أننى مضطر الى أن أحمل اليـه نبأ سيئا . وكنت أعلمُ أنه لن يصله خطابى الا قبل أن ألقاه بساعتين على الأكثر ، وخيل اليّ أن فترة القلق القصيرة قد تخفف من صدمة النبأ .

ولست أذكر وقتا فى حياتى ترددت فيه بين رأيين أكثر ممـا ترددت فى أثنـاء رحلتى هذه التعسة الى باترزبى . فحين تذكرت ذلك الصبى الشاحب الصغير الذى عرفته قبل سنوات ، وتذكرت القسوة الضارية التى عومل بها فى طفولته — وهى قسوة لا يقلل من حقيقتها أنها ترجع الى الجهل والغباوة أكثر مما ترجع الى الشر المتعمد ، وتذكرت الجو الذى ربى فيه — جو الكذب والهلوسة بتمجيد الذات ، والاسـتعداد الذى أبداه الصبى لأن يحب أى شىء يتعطف بأن يدعه يحبه ، وتذكرت كيف أن محبته لوالديه لم تمت فيه ، على قدر ما أعلم ، الا لأنها كانت تقتل مرة ومرة كلما حاولت أن تظهر — حين فكرت فى هذا كله شعرت أنه لو أن الأمر بيدى لحكمت على ثيوبولد وكرستينا بعذاب نفسى أقسى حتى من العذاب الذى كان وشيكا أن يصيبهما . ولكنى من الناحيـة الأخرى حين فكرت فى طفولة ثيوبولد ، وفى ذلك الشيخ الرهيب چورج بونتفكس أبيه ، وفى أخيه چون وزوجته ، وفى شقيقتيه ، وحين فكرت أيضا فى السنوات الطويلة التى قضتها كرستينا تعلل نفسها بالأمل المؤجل

عاما بعد عام تأجيلا يكسر القلب قبل أن تتزوج ، وفى الحياة التى لابد قد عاشتها فى كرامپسفورد ، وفى البيئة التى عاشت فيها هى وزوجها فى باترزبى ، شعرت أن وجه العجب هو أن عثرات الحظ هذه المتوالية الملحة لم يتبعها عقاب أخطر حتى مما وقع .

يا للمسكينين ! لقد حاولا أن يكتما جهلهما بشئون الدنيا عن نفسيهما فسمياه السعى وراء السماويات ، ثم أغمضا عينيهما عن أى شىء قد يكدر صفوهما . ولما ولد لهما ولد أغمضا عينيه هو أيضا جهد طاقتهما . ومن يستطيع أن يلومهما ؟ لقد كان لديهما سند لكل شىء يصنعانه أو يدعانه ؛ وليس هناك مبرر أيسر من هذا لعمل الانسان قسيسا أو زوجا لقسيس . فمن أى الوجوه كانا يختلفان عن جيرانهما ؟ من أى الوجوه كان بيتهما يختلف عن بيت أى قسيس من الطراز الأفضـل من أقصى انجلترا الى أقصاها ؟ اذن فلم سقط عليهما وحدهما دون جميع الناس برج سلوام (*) هـذا ؟

لا ريب أن الذنب ذنب البرج لا ذنب الواقفين تحته ؛ ان العيب فى النظام لا فى الناس . فلو أن ثيوبولد وزوجه عرفا عن الدنيا وعن الأشياء التى فيها أكثر مما عرفا لما ألحقا بأحد ضررا يذكر . قد يظلان أنانيين ، ولكنهما لن يكونا أكثر أنانية مما يغتفر ، ولا أكثر أنانية من غيرهما من الناس. أما الآن فلا أمل فيهما ، ولن يجدى حتى أن يدخلا بطنى أميهما ويولدا من جديد . فالأمر لا يقتضى أن يولدا من جديد وحسب ، بل أن يولد كل منهما من جديد من أب جديد وأم جديدة ومن سلالة مختلفة من الأجداد

(*) « أو أولئك الثمانية عشر الذين سـقط عليهم البرج فى سـلوام وقتلهم ، أتظنون أن هؤلاء كانوا مذنبين أكثر من جميع الناس السـاكنين فى أورشليم . » (لوقا ١٣ ــ ٤)

مدى أجيال كثيرة قبل أن يطوّع عقلاهما للتعلّم من جديد . ولا حيلة للمرء فيهما الآن الا أن يلاطفهما ويحتملهما جهد الطاقة الى أن يموتا — ويكون شاكرا حين يفعلان .

وتسلم ثيوبولد خطابى كما توقعت ، فقابلنى على أقرب محطة لباترزبى. وبينما كنت أسير معه الى بيته سقت اليه النبأ كأرفق ما أستطيع . وزعمت له أن الأمر كله خطأ الى حد كبير ، وأنه على الرغم من أن ارنست كانت له ولا ريب نوايا ينبغى أن يقاومها ، فانه لم يقصد أن يمضى الى المدى الذى ظنته مس ميتلاند . وقلت له اننا أحسسنا بأن ظواهر الحال ضده ، واننا لم نجرؤ على هذا الدفاع أمام القاضى ، وان كنا لا نشك فى أنه الدفاع الحق .

وتصرف ثيوبولد بحسّ أدبى أسرع وأشد حسما مما خلته فيه .

وقال لى على الفور « لا شأن لى بعد ذلك به ، ولن أرى وجهه ثانية ، لا تدعه يكتب لى ولا لأمه ؛ اننا لا نعرف شخصا كهذا . أخبره أنك لقيتنى ، وأننى منذ اليوم سألفظه من عقلى كأنه لم يولد قط . لقد كنت له أبا طيبا ، وكانت أمه تعبده ؛ ولكن الأنانية والعقوق كانا الجزاء الوحيد الذى لقيناه منه على الدوام ؛ فيجب أن يكون رجائى منذ الآن معقودا على أبنائى الباقين » .

وأخبرته كيف أن مساعد القسيس ، زميل ارنست ، استولى على ماله ، وألمعت الى أنه ربما سيكون مفلسا أو كالمفلس حين يغادر السجن . ولم يبد على ثيوبولد الاستياء لسماعه هذا النبأ ، ولكنه أضاف بعد قليل « ان كانت هذه حاله فقل له عنى اننى سأعطيه مائة جنيه اذا أخبرنى عن طريقك بالموعد الذى يردها فيه . ولكن قل له ألا يكتب لى ويشكرنى ، وأنه ان حاول أن يبدأ الاتصال المباشر بأمه أو بى فلن يظفر ببنس واحد من هذا المبلغ » .

واذ كنت عالما ببواطن الأمور ، مصمما على أن أخالف تعليمات مس پوتنفكس لو اقتضت الضرورة هذه المخالفة ، فانني لم أر أن ارنست ستزداد حاله سوءا لو وقعت القطيعة بينه وبين أسرته ، وهكذا رضيت باقتراح ثيوبولد بأسرع مما توقع .

ورأيت من الخير ألا ألقى كرستينا ، فتركت ثيوبولد قرب باترزبى وعدت أدراجى الى المحطة . وسرنى فى طريقى أن أفكر فى أن أبا ارنست أقل غفلة مما حسبته ، وازداد أملى فى أن تكون أخطاء ولده راجعة الى حظه السيىء بعد مولده لا قبله . فالحوادث التى تقع للانسان قبل أن يولد ، فى شخص أجداده — اذا تذكرها اطلاقا — تترك أثرا لا يمحى فيه ، لأنها تكون قد شكلت خلقه تشكيلا يجعل من المحال عليه ، مهما فعل ، أن يهرب من نتائجها . فاذا أراد انسان أن يدخل ملكوت السموات وجب عليه ألا يفعل ذلك طفلا صغيرا ، بل جنينا صغيرا ، أو على الأصح بذرة صغيرة — وليس هذا وحسب ، بل أيضا بذرة أتت من بذرات دخلت ملكوت السموات قبله بأجيال كثيرة . أما الحوادث التى تحدث للمرء للمرة الأولى ، وتحدث فى الفترة التالية لمولده الأخير ، فلا تبقى آثارها كتلك ، وان حدث هذا بالطبع أحيانا . على أية حال لم تسؤنى النظرة التى اتخذها والد ارنست من الموقف .

الفصل الرابع والستون

بعد أن حكم على ارنست أعيد الى غرف المسجونين لينتظر العربة التى ستقله الى « كولدباث فيلدز » حيث تقرر أن يقضى مدة العقوبة . وكان لا يزال مصعوقا مشدوها من السرعة المفاجئة التى وقعت بها الأحداث خلال الساعات الأربعة والعشرين الأخيرة بحيث لم يستطع أن يدرك حقيقة موقفه . لقد انشقت هوة عظيمة بين ماضيه ومستقبله ؛ ومع ذلك فهو يتنفس ونبضه يخفق ، وهو يستطيع أن يفكر ويتكلم . وبدا له أنه كان ينبغى أن تصرعه اللطمة التى أصابته ، ولكنه لم يصرع ؛ لقد عانى قبل ذلك ألما أشد حدة لهفوات كثيرة أهون من هذه . ولم يحس أنه يؤثر التضحية بكل ما يملك عن أن يقع فى ورطته الحاضرة ، الا حين فكر فى الألم الذى سيجلبه عاره هذا على أبيه وأمه . ان حاله هذه ستفطر قلب أمه . أجل ، انها لا محالة فاعلة ، وهو على يقين من ذلك — والذنب ذنبه هو .

وكان يحس صداعا مقبلا عليه طوال المساء ، ولكنه حين فكر فى أبيه وأمه ، اشتدت سرعة نبضه وأصبح الألم فى رأسه فجأة عنيفا . ولم يستطع أن يسير الى العربة الا بالجهد ، ووجد حركتها لا تطاق . فلما وصل الى السجن كان المرض قد بلغ منه مبلغا لم يستطع معه السير دون معونة عبر البهو الى الممر أو الممشى الذى يصف فيه المسجونون حين وصولهم . واذ تبين حارس السجن لتوه أنه رجل دين لم يخطر بباله أنه يتظاهر بالضعف ، وهو خاطر كان يمكن أن يساوره لو كان ارنست من رواد السجون ، لذلك أرسل فى طلب الطبيب . فلما وصل قال ان ارنست يشكو

اصابة مبتدئة من الحمى المخية ، فنقل الى المستشفى . وهناك ظل يتذبذب بين الحياة والموت مدى شهرين ، كان خلالهما لا يملك وعيه تماما ، وكثيرا ما كان ينتابه هذيان الحمى . ولكن أخيرا ، وعلى العكس مما توقع الطبيب والممرضة كلاهما ، بدأ يتماثل للشفاء تدريجا .

يقولون ان الذين أشرفوا على الغرق يجدون الرجوع الى الوعى أشد ايلاما من فقده ، وهكذا كانت حال بطل قصتى . فقد خيّل اليه وهو عاجز واهن القوى فى فراشه ، أن من التفنن فى القسوة أنه لم يمت ويسترح خلال هذيان الحمى . وبدا له أنه فى أغلب الظن سيشفى ، لينتكس بعد قليل من الخـزى والحزن ؛ ومع ذلك تحسنت حاله يوما بعد يوم وان سار هذا التحسن بطيئا الى درجة لم يستطع معها هو نفسه أن يتبينه . على أنه حدث ذات مساء ، بعد نحو ثلاثة أسابيع من عودته الى وعيه ، أن الممرضة التى كانت تعنى به وتعطف عليه كثيرا داعبته بنكتة صغيرة سرته ؛ فضحك لها . ولما فعل صفقت بيديها قائلة انه سيعود رجـلا كما كان . وهكذا اشتعلت فيه شرارة الأمل ، فعاد يرغب فى الحياة من جديد . ومن هـذه اللحظة تقريبا بدأ يفكر أقل من ذى قبل فى آلام الماضى وأهواله ، ويفكر أكثر فى الطريقة المثلى التى يواجه بها المستقبل .

وكان أمض آلامه من أجل أبيه وأمه وكيف يلقاهما من جديد . وظل على سابق رأيه فى أن من الخير له ولهما أن يقطع علاقته بهما تماما ، وأن يأخذ من ماله ما يستطيع استرداده من پراير ، ويذهب الى مكان قصىّ ، حيث لا يعود يلقى أى انسان عرفه فى المدرسة أو الكلية ، ثم يبدأ الحياة هناك من جديد . أو لعله يذهب الى مناجم الذهب فى كاليفورنيا أو استراليا ، وهى المناجم التى كانت تروى عنها فى ذلك الوقت أعجب الروايات . فهناك ربما استطاع أن يجمع ثروة طائلة ، فيعود بعد سنوات كثيرة رجلا هرما

لا يعرفه أحد ، وعندها يستطيع أن يعيش فى كمبردج . وفيما كان يبنى هذه القصور فى الهواء ازداد اشتعال شرارة الحياة فيه ، فاشتاق الى أن تعود اليه صحته ، واشتاق الى الحرية التى أصبحت الآن غير بعيدة منه بعد أن قضى شطرا كبيرا من عقوبته .

ثم بدأت الأمور تتخذ صورة أوضح وأكثر تحديدا . انه لن يعـود الى مهنة الدين مهما يحدث . كان من المحال عمليا أن يجد وظيفة مساعد قسيس أخرى حتى اذا شاء ، ولكنه لا يشاء . لقد كره الحياة التى كان يحياها مذ بدأ يحضر للرسامة ، انه لا يستطيع مناقشة هذا الأمر ، ولكنه يمقتها ويتقزز منها بكل بساطة ويأبى أن يعود الى مزيد منها . وحين فكر فى الأمل الذى راوده — أمل العودة رجلا علمانيا مهما يكن مجللا بالخزى والعار ، اغتبط بما وقع له ، ووجد نعمة فى هذا السجن الذى بدا له أول الأمر نقمة لا توصف .

ولعل الصدمة التى أصابته من جراء هذا التغير الهائل فى محيطه عجلت بالتغيرات التى طرأت على آرائه ، تماما كما يحدث لشرانق الحرير حين تشحن فى سلال بالقطار فتفقس قبـل الأوان بفعل الحـرارة والاهتزاز الجديدين . ولكن أيا كان الأمر ، فان ايمـانه بموت المسيح وقيامتـه وصعوده ، واذن فايمانه بسائر المعجزات المسيحية ، قد انسلخ منه الى الأبد . وكان البحث الذى قام به نتيجة لتوبيخ مستر شو — على سرعته — قد ترك طابعا عميقا على عقله ، واذ أصبح الآن فى صحة تسمح له بالقراءة فقد عكف على دراسة العهد الجديد أولا ، ومضى فيه بالروح التى رغب اليه مستر شو أن يقرأ بها ، أى بروح رجل لا يريد أن يصدق أو لايصدق ، بل يهمه فقط أن يعرف هل ينبغى له أن يصدق أو لا يصدق . وكلما قرأ بهذه الروح بدا له أن كفة عدم التصديق ترجح ، حتى أصبح المزيد من

الشك فى الأمر محالا . ومن الخير أنه انتهى الى هذه النتيجة بهذه السرعة، فالمشكلة كانت ستعرض له لا محالة ، بصورة أو بأخرى ، ان عاجلا أو آجلا . ولعله كان يتبينها قبل ذلك بسنوات لولا أن ضلله قوم كانوا يؤجرون ليضللوه . فماذا تراه كان فاعلا لو أنه لم يصل الى هذا الكشف الا بعد سنوات ، وقد تورط فى حياته قسيسا تورطا أشد . أكان يؤتى من الشجاعة ما يكفى لمواجهة هذا الكشف ، أم كان على الأرجح يختلق عذرا جميلا للمضى فى التفكير كما كان يفكر الى الآن ؟ أكان يؤتى من الشجاعة ما يتيح له أن يعتزل حتى وظيفة مساعد القسيس الحالية ؟

قال لنفسه لا ، ولم يدر أيهما أحق بشكر أوفر ، أهو كشف خطئه له أم الامساك به وليّه ليّا يعجزه عن التمادى فى خطئه فى اللحظة التى اكتشف فيها هذا الخطأ . ان الثمن الذى عليه أن يدفعه عن هذه النعمة زهيد اذا قيس بالنعمة نفسها . فأى ثمن يعز على المرء دفعه لقاء أن يوضح له واجبه وييسّر عليه بدلا من أن يعسّر ؟ انه آسف من أجل أبيه وأمه ، آسف من أجل مس ميتلاند ، ولكنه لم يعد آسفا من أجل نفسه .

على أن الشىء الذى حيّره هو أنه لم يكن يعرف الى الآن كم يمقت مهنة رجل الدين . انه يعلم أنها لم ترقه كثيرا ، ولكن لو أن انسانا سأله من قبل أيكرهها فعلا ، لأجاب لا . وفى ظنى أن الناس فى معظم الأحيان يحتاجون الى شىء خارج عن ذواتهم ليكشف لهم محابهم ومكارههم . فنحن لم نصل الى معرفة الأشياء التى نحبها أيقن ما يكون الحب فى أغلب الحالات بالاستبطان ولا بأية عملية من عمليات الاستدلال الواعى ، ولكن بوثبات القلب وطفراته ترحيبا بالبشارة يزفها اليه قلب آخر . اننا نسمع من يقول ان هذا الشىء أو ذاك هو كذا أو كذا ، وفى لحظة نجد أن القطار المحبوس فى داخلنا دون أن نعلم بوجوده قد انطلق الى وعينا وادراكنا .

فمنذ سنة واحدة وثب قلبه مرحبا بعظة مستر هوك ، وبعدها وثب شوقا لكلية الأمراض الروحية ، وهو الآن يتحرق شـوقا الى المذهب العقلى الخالص البسيط ، فكيف يمكنه الوثوق من أن حالته العقلية الراهنة ستكون أبقى وأدوم من حالاته الماضية ؟ لا سبيل الى ذلك ، ولكنه شعر كأنه الآن يقف على أرض أثبت وأرسخ مما وقف فى أى وقت من الأوقات، ومهما يتضح فيما بعد من تقلّب آرائه الحاضرة فهو لا يملك الا أن يسلك طبقا لها حتى يرى مبررا لتغييرها . وقال فى نفسه كم كان هذا مستحيلا عليه لو أنه ظل محاطا بأناس مثل أبيه وأمه أو مثل پراير وأصحاب پراير، أو مثل القسيس الذى يعمل تحت رياسته . لقد كان طوال هذه الشهور يلاحظ ويفكر ، ويمثل أفكاره ، وهو لا يعى نموه العقلى أكثر مما يعى تلميذ نموه الجسدى ، ولكن أكان يستطيع التسليم لنفسه بأنه ينمو ، ويستطيع السلوك حسبما تقتضيه قوته المتزايدة لو أنه ظل على صـلة وثيقة دائمة بقوم يؤكدون له تأكيدا جازما أنه يعانى الهلوسة ؟ لقد كانت المؤامرة المحبوكة ضده أقوى من أن تستطيع قوته هو وحده أن تحطمها ، وقد ساءل نفسه الى أى حد كانت صدمة أقل عنفا من تلك التى يعانى منها الآن تكفى لتحريره ؟ .

الفصل الخامس والستون

وبينما كان راقدا فى فراشه يوما بعد يوم وهو يتماثل للشفاء فى بطء ، تنبه لحقيقة ينتهى اليها أكثر الناس ان آجلا أو عاجلا ، وهى أن قليلين جدا هم الذين يأبهون مثقال ذرة بالحق ، أو يثقون بأنه أصوب وأفضل أن يؤمن الانسان بالحق عن أن يؤمن بغير الحق ولو بدا الايمان بغير الحق لأول وهلة غاية الحكمة والحصافة . ومع ذلك فهذا النفر القليل وحده هو الذى يمكن أن يقال عنه انه يؤمن بأى شىء على الاطلاق ؛ أما الباقون فما هم الا كفرة مقنّعون . ولعل هؤلاء فى الواقع على صواب : فالاجماع فى صفهم والتوفيق فى الحياة فى جانبهم . وعندهم كل ما يستند اليه المفكر العقلى فى قياسه للحق والباطل . فالحق فى رأيه هو ما يبدو حقا للغالبية من الناس المعقولين الموفقين ؛ ونحن لا نعرف مقياسا أسلم من هذا ، ولكن علام ينطوى هذا القرار الذى وصلنا اليه بهذه الطريقة ؟ على هذه النتيجة بكل بساطة ، وهى أن مؤامرة من الصمت حول الأشياء التى يتضح صدقها فورا للباحث المنزه عن الهوى — هذه المؤامرة ليست مغتفرة محتملة وحسب ، بل هى بارة فاضلة فى نظر أولئك الذين يزعمون أنهم أفضل حماة ومعلمين للحق ويتقاضون المال على هذه المهمة .

ووضح لإرنست أنه ليس هناك مهرب منطقى من هذه النتيجة . ورأى أن ايمان المسيحيين الأولين بالطبيعة المعجزية لقيامة المسيح ممكن تفسيره دون أى افتراض للمعجزة . فالتفسير واضح لأى انسان يريد أن يجشم نفسه مشقة غير كبيرة ؛ ولقد بُسِط أمام العالم مرات ، ولم تقم محاولة

جادة لتفنيده . فكيف لا يستطيع ، أو لا يشاء ، رجل كالأسقف ألفورد مثلا جعل من العهد الجديد مادة تخصصه ، أن يرى ما هو واضح جلى لارنست نفسه ؟ أيمكن أن يكون هناك سبب آخر سوى أنه لم يرد أن يراه ، فاذا كان الأمر كذلك أفلا يكون الرجل خائنا لقضية الحق ؟ أجل ، ولكن ألم يكن هو أيضا رجلا محترما ناجحا ، وألم تكن الغالبية الكبرى من الرجال المحترمين الناجحين ، الأساقفة ورؤساء الأساقفة مثلا ، يفعلون تماما كما يفعل الأسقف ألفورد ، واذن ، ألا يجعل هذا عملهم صوابا ، سواء أكان هذا العمل أكلا للحوم البشر ، أم قتلا للأطفال ، أم كذبا ألفته عقولهم ؟ .

يا لها من ضلالة بشعة رهيبة ! وأسرع نبض ارنست الواهن ، واحتقن وجهه الشاحب ، حين تمثلت هذه الفكرة البغيضة عن الحياة أمامه فى كل اتساقها المنطقى . وليس الذى صدمه أن معظم الناس كذابون — فذلك أمر يمكن احتماله ، بل ذلك الشك الذى خامره ولو مؤقتا فى أمر القلة التى لا تكذب ، وهلا ينبغى لها أن تصبح هى أيضا كذابة . فان كان الأمر كذلك لم يبق هناك أمل على الاطلاق ، ان كان الأمر كذلك فليمت ، وكلما عجل الموت باختطافه كان خيرا . وصاح فى باطنه « رباه ! لست أومن بكلمة واحدة من هذا . فقوّ أنت عدم ايمانى وثبته » . وبدا له أنه منذ الآن لن يستطيع أن يرى أسقفا يذهب الى احتفال تكريسه دون أن يقول لنفسه « لولا نعمة الله لذهب ارنست پونتفكس الى هناك » . ولكن لا فضل له فى الأمر . فهو لا يستطيع أن يفاخر به ؛ ولو أنه عاش فى أيام المسيح لكان هو نفسه أحد المسيحيين الأولين ، بل ربما أصبح رسولا من رسل المسيحية . وأحس على الجملة أن عنقه مطوّق بأفضال كثيرة يجب أن يكون شاكرا لأجلها .

اذن فالنتيجة التى تزعم أنه قد يكون خيرا أن يؤمن المرء بالباطل عن أن يؤمن بالحق يجب أن تشطب فورا دون اعتبار لوضوح المنطق الذى أوصلنا اليها ؛ ولكن ما هو البديل لهذه النتيجة ؟ هو هذا : أن المقياس الذى نقيس به الحق — وهو أنه ما تستصوبه غالبية النـاس المعقولين الناجحين — هذا المقياس ليس معصوما . فالقاعدة سليمة ، وهى تشمل الى حد كبير أكثر الحالات ، ولكن لها استثناءات .

وسأل نفسه ما هى هذه الاستثناءات ؟ آه ! ذلك أمر عسير ؛ فهناك استثناءات كثيرة جدا ، والقواعد التى تحكمها تدق أحيانا الى حد وقعت معه الأخطاء وستقع على الدوام ؛ وهذا بالضبط ما يجعل من المستحيل أن نحيل الحياة الى علم بالمعنى الصحيح . وهناك مقياس تقريبى عملى للحق ، وعدد من القواعد الخاصة بالاستثناءات يمكن اتقـانها دون كبير عناء . ولكن تبقى بعد ذلك بقية من الحالات التى يكون الحكم عليها عسيرا — بحيث يحسن بالمرء أن يتبع فيها غريزته عن أن يحاول الفصل فيها بأى عملية من عمليات الاستدلال العقلى .

اذن فالغريزة هى محكمة الاستئناف العليا . وما الغريزة ؟ انها ضرب من الايمان بشهادة الأشياء التى لا ترى بالعيان . وهكذا عاد بطل قصتى تقريبا الى النقطة التى بدأ منها أولا ، وأعنى بها أن « البار بالايمان يحيا ».

وهذا هو ما يفعله الأبرار — أى الناس المعقولون — فى شئون الحياة اليومية التى تعنيهم كثيرا . فهم يفصلون فى شئونهم الصغيرة بتفكيرهم هم . أما الشـئون الأكثر منها أهمية ، كعلاج أبدانهم وأبدان من يحبونهم ، وكاستثمار مالهم ، واستنقاذ مصالحهم من أى خطر — هذه كلها يكلونها عموما الى غيرهم ممن لا علم لهم بكفايتهم الا سماعا ؛ فهم اذن فى سلوكهم يعتمدون على الايمان لا العلم . وهكذا يكل الشعب الانجليزى شئون

الدفاع عن أسطوله وبحريته الى وزير البحرية ، ولما كان هذا الوزير غير بحار ، فهو لا يستطيع أن يعرف عن هذه الأمور شيئا الا بالايمان . فلا ريب اذن فى أن الايمان لا العقل هو « الحجة النهائية » (*) .

بل ان اقليدس لا يستطيع أن يجاوز هذا وهو أقل الكتّاب تعرضا لتهمة السذاجة وسهولة التسليم . فليس لديه مقدمة أولى يمكن البرهنة على صحتها . انما هو يفترض مسلمات وبديهيات تتجاوز البرهان ، وبدونها لا يستطيع أن يفعل شيئا . حقيقة ان البناء الذى يقيمه فوقها برهان ، ولكن أساس البناء هو الايمان . ثم انه لا يستطيع أن يعدو القول للقارىء بأنه يكون أحمق لو أصر على أن يختلف معه . فهو يقول « وهذا سخف » ثم يأبى أن يمضى فى مناقشة الأمر . اذن فالايمان والسلطان عنده ضروريان ضرورتهما عند أى انسان آخر . وتساءل ارنست « ولكن بالايمان بأى شىء يحاول البار أن يحيا فى هذا الزمان ؟ » وأجاب عن سؤاله قائلا « انه على أية حال ليس الايمان بالعنصر الخارق فى المسيحية » .

فما هى أمثل الطرق لاقناع مواطنيه بالكف عن الايمان بهذا العنصر الخارق ؟ انه اذ نظر الى الأمر من زاوية عملية رأى أن عند رئيس أساقفة كنتربرى أفضل مفتاح للموقف . فالحل يقع بينه وبين بابا روما . ولعل البابا خير انسان يصلح لهذه المهمة من الناحية النظرية ، ولكن رئيس أساقفة كنتربرى لا بأس به من الناحية العملية . فلو أنه استطاع أن يرش ذرة من الملح كما يقولون على ذيل رئيس الأساقفة ، فقد يحول كنيسة انجلترة كلها الى التفكير الحر بضربة بارعة . ولا بد أن يكون فى كلامه قدر من قوة الحجة لا يستطيع دفعه حتى رئيس أساقفة — رئيس أساقفة لم يرهف من ادراكه السجن بتهمة محاولة الاغتصاب . فاذا ووجه بالحقائق كما يستطيع

(*) ultima rotio

ارنست أن يرتبها ، فلن يكون أمـــام نيافته من سبيل الا التسليم بها ؛ ولما كان رجلا شريفا فهو اذن سيتخلى عن منصب الرياسة هذا ، ولن تمضى شهور حتى تنقرض المسيحية من انجلترة . هذا على أية حال هو ما ينبغى أن تنتهى اليه الأمور . ولكن ارنست خلال تفكيره كله لم يكن واثقا أن رئيس الأساقفة لن يقفز بعيدا فى ذات اللحظة التى تكون ذرة الملح على وشك الوقوع عليه ، فبدا له فى هذا من الظلم ما جعل دمه يغلى فى عروقه لمجــرد الفكرة . فاذا فعل فليحاول أن يثبته فى مكانه باستخدام مخيط أو فخ فى حكمة ، أو أن يرمى الملح على ذيله من مخبأ .

ومن الانصاف له أن نقول ان ذاته لم تكن جلّ همه فى هذا كله ، صحيح أنه يعــلم أنه كان ضــحية الدجــل والغش ، ويعلم أيضــا أن معظم الخطوب التى نكب بها سببها غير المباشر ، الى حد كبير ، تأثير التعاليم المسيحية ؛ ومع ذلك فلو أن الشر انتهى عنده لما فكر فيه كثيرا ، ولكن هناك شقيقته ، وأخاه جوى ، والمئات والألوف من الشباب فى انجلترا من أقصاها الى أقصاها ، هؤلاء الذين تدمر حياتهم أكاذيب يرددها قوم واجبهم يقتضيهم أن يعرفوا خيرا مما يعرفون ، ولكنهم لفقوا عملهم تلفيقا ، وراغوا من المصاعب بدلا من أن يواجهوها . هذا هو الذى جعله يرى أن الأمر يستحق الغضب ، ويستحق النظر فى قيامه بعمل على الأقل ليجنّب غيره سنوات الخسران والتعاسة التى اضطر الى معاناتها . فاذا لم يكن هناك صدق فى القصص المعجزية التى كتبت عن موت المســيح وقيامته ، اذن فكل الدين القائم على الصدق التاريخى لهذه الأحداث ينهار الى الأرض . وقال فى كل غرور الشباب وخيلائه « أجل ، انهم يودعون المرأة الغجــرية أو قارئة الحظ السجن لابتزازها المال من المغفلين الذين يظنون أن فيها قوة خارقة ، فما بالهم لا يودعون القسيس السجن لأنه يزعم أنه يُحل

الخاطىء من ذنوبه أو يحيل الخبز والخمر الى جسد ودم انسان مات منذ ألفى عام ؟ » وتساءل « أى شيء أكثر دجلا من وضع الأسقف يديه على رأس شاب وزعمه أنه ينقل اليه سلطانا روحيا يخول له أن يصنع هذه المعجزة ؟ جميل جدا أن يتحدث المرء عن التسامح ؛ ولكن للتسامح حدوده ككل شيء آخر ؛ واذا كان التسامح يشمل الأسقف ، فليشمل أيضا قارئة الحظ » . انه سيشرح هذا كله لرئيس أساقفة كنتربرى عما قريب ، ولكن بما أنه لا يستطيع أن يظفر به الآن ، فقد خطر له أن يقوم بتجربة مفيدة على نفس أخس من نفس رئيس الأساقفة ، وهى نفس قسيس السجن . ولا يأتى عظائم الأمور فى النهاية الا الذين يتخذون أول خطوة ، وأوضح خطوة فى طاقتهم أن يتخذوها . وهكذا حدث ذات يوم ، بينما كان مستر هيوز — قسيس السجن — يتحدث معه ، أن أقحم ارنست موضوع الشواهد على صدق المسيحية ، وحاول أن يثير النقاش حوله . وكان مستر هيوز شديد العطف عليه ، ولكنه كان يكبر بطل قصتى بأكثر من ضعف عمره ، وطالما قاس وعبّر اعتراضات كتلك التى حاول ارنست أن يبسطها أمامه . ولست أخاله كان مؤمنا بالصدق الموضوعى الفعلى فى قصص قيامة المسيح وصعوده أكثر من ايمان ارنست به ، ولكنه كان يعلم أن هذا أمر تافه ، وأن بيت القصيد فى الأمر أكثر عمقا من هذا .

وكان مستر هيوز رجلا مارس السلطة سنوات طوالا ، فنحّى ارنست جانبا كأنه ذبابة . وفعل هذا فى احكام لم يجرؤ بعده بطل قصتى على أن يهاجمه ثانية ، وقصر الحديث معه بعد ذلك على أمور أخرى ، كاستشارته فيما يحسن به أن يصنعه اذا خرج من السجن ؛ وفى هذه الأمور كان مستر هيوز على استعداد للاصغاء اليه فى عطف ورفق .

الفصل السادس والستون

نقه ارنست الآن من مَرضه الى حد مكنه من الجلوس فى فراشه أكثر النهار . كان قد قضى فى السجن ثلاثة أشهر ، وغدا فى مأمن من النكسة وان لم يبلغ من القوة مبلغا يسمح له بمغادرة المستشفى . وكان يتحدث يوما الى مستر هيوز عن مستقبله ، فأعرب من جديد عن رغبته فى الهجرة الى استراليا أو نيوزيلنده بالمال الذى سيستعيده من پراير . وكلما تكلم فى هــذا لحظ أن مستر هيوز يبدو متجهما ويصمت : فظن أن القسيس ربما يريده أن يعود الى مهنته ، ويستنكر تشوقه الواضح للاتجاه الى مهنة غيرها ؛ أما الآن فقد سأل مستر هيوز صراحة لم لا يوافق على فكرة الهجــرة ؟

وحاول مستر هيوز أن يروغ من الجواب ، ولكن ارنست أبى ارجاء الجواب أو المماطلة فيه . وكان فى هيئة القسيس ما أوحى بأنه يعرف من الأمر أكثر مما يعرف ارنست ، ولكنه لا يحب أن يبوح بما يعرف . وأزعج هذا ارنست ازعاجا حمله على أن يتوسل الى القسيس الا يتركه فى قلقه وحيرته ؛ وبعد قليل من التردد ، وبعد أن رأى مستر هيوز أن ارنست قد بلغ من القوة ما يعينه على احتمال النبأ ، ساقه اليه كأرفق ما يستطيع ، وقال له ان ماله كله قد تبخّر .

وكنت غداة رجوعى من باترزبى قد زرت محامى ، فأخبرنى أنه كتب الى پراير يطلب اليه رد المبلغ الذى كتب على نفسه صكا به . وأجاب پراير أنه أعطى تعليمات لسمساره بأن ينهى عملياته المالية ، فكانت النتيجة لسوء

حظه خسارة جسيمة ، وقال ان باقى المال سيدفع الى المحامى فى غداة يوم التسوية ، وهو يقع بعد نحو أسبوع . فلما جاء اليوم الموعود لم يصلنا من پراير خبر ، فلما ذهبنا الى مسكنه وجدناه غادره حاملا متاعه القليل فى اليوم التالى لوصول خطابنا اليه ، ولم يعثر له بعدها على أثر .

وكنت قد سمعت من ارنست اسم السمسار الذى استخدمه پراير ، فذهبت توا لأقابله ، وأخبرنى الرجل أن پراير أقفل حساباته نقدا فى اليوم الذى حكم فيه على ارنست ، وأنه تسلم ألفى جنيه وثلاثمائة وخمسة عشرا كانت كل ما بقى من مال ارنست الأصلى البالغ خمسة آلاف جنيه . وبهذه البقية هرب ، ولم يكن عندنا دليل كاف يعيننا على تعرف مكانه حتى يتسنى لنا اتخاذ أى خطوات لاسترداد المال . والواقع أنه لم يكن أمامنا من سبيل الا أن نعتبر المال كله مفقودا . وأضيف هنا أنه لا أنا ولا ارنست سمعنا عن پراير بعد ذلك شيئا ، وليست لدينا أية فكرة عما آل اليه أمره .

ووضعنى هذا فى مأزق حرج . كنت أعلم بالطبع أن ارنست سيحصل بعد بضع سنوات على أضعاف ما خسر ، ولكنى كنت أعلم أيضا أنه لا يعرف هذا ، وخشيت أن الخسارة المزعومة لكل ما يملك فى الدنيا قد تكون أشد مما يستطيع احتماله اذا أضيفت الى كوارثه الأخرى .

وكان رجال السجن قد وجدوا عنوان ثيوبولد فى خطاب بجيب ارنست ، فاتصلوا به غير مرة بشأن مرض ولده ، ولكن ثيوبولد لم يكتب لى ، وكنت أحسب ولدى فى العماد يتمتع بصحة جيدة . كان سيبلغ الرابعة والعشرين حين يغادر السجن ، فاذا اتبعت تعليمات عمته كان عليه أن يكافح مع الحظ جهد استطاعته أربع سنوات أخرى . وكان السؤال الذى يواجهنى هو ، أيكون صوابا أن أدعه يغامر هذه المغامرة الكبيرة ، أم أتجاوز الى حد ما تعليماتى — ولم يكن هناك ما يحول دون تجاوزى اياها

اذا قدرت أن مس پونتفكس كانت ترغب فى ذلك — فأدعه يتلقى المبلغ الذى كان سيسترده من پراير ؟

ولو كان ولدى بالعماد رجلا أكبر سنا وأكثر استقرارا فى أى مكان ثابت لفعلت هذا ، ولكنه كان ما يزال حدثا جدا جدا ، ناقص التشكيل بالنسبة لسنه نقصا غير عادى . ثم اننى لو كنت علمت بمرضه لما اجترأت على أن أزيد أعباءه عبئا جديدا ؛ ولكنى اذ لم أكن قلقا على صحته ظننت أنه لن يضار من بضع سنوات يخشوشن فيها ويتعلم الحرص على المال وعدم العبث به . لذلك قررت أن أرقبه بعين يقظة حالما يترك سجنه ، ثم أتركه يتخبط فى المياه العميقة على قدر استطاعته حتى أرى أيستطيع أن يسبح أم هو مشرف على الغرق . فان كانت الأولى تركته يسبح حتى يقارب الثامنة والعشرين ، وعندها أهيئه شيئا فشيئا للحظ السعيد الذى ينتظره ؛ وان كانت الأخرى سارعت الى نجدته . لذلك كتبت اليه أقول ان پراير فر بماله ، وأنه يستطيع أن يتسلم مائة جنيه من أبيه اذا خرج من السجن . ثم انتظرت لأرى أثر هذه الأخبار فيه ، وأنا لا أتوقع منه ردا قبل ثلاثة أشهر ، لأننى أخبرت عند الاستفسار أن السجين لا يمكن أن يتسلم رسائل قبل أن يقضى فى السجن ثلاثة أشهر . كذلك كتبت لثيوبولد أخبره باختفاء پراير .

والذى حدث أنه حين وصل خطابى قرأه مأمور السجن ، وكان من الممكن فى حالة هامة كهذه أن يتسامح فى قواعد السجن لو كانت حالة ارنست تسمح بذلك ، ولكن مرضه حال دون ذلك ، فترك المأمور لقسيس السجن وللطبيب مهمة ابلاغه النبأ حين يظنانه من القوة بحيث يحتمله ، وكانت هذه حاله الآن . وفى الوقت نفسه تسلمت من السجن رسالة رسمية طبقا للقواعد الجارية تنبئنى ان خطابى وصل ، وسيبلغ الى السجين فى

الوقت المناسب ؛ وأعتقد أن عدم ابلاغى بمرض ارنست انما يرجع لخطأ ارتكبه كاتب السجن ، ولكنى لم أسمع شيئا عن هذا المرض حتى لقيت ارنست بناء على رغبته بعد أن أبلغه قسيس السجن خلاصة ما ذكرت .

وصدم ارنست صدمة عنيفة حين سمع بفقد ماله ، ولكن جهله بالدنيا منعه من أن يرى المدى الكامل لهذا الخطب . فهو لم يجرب من قبل الحاجة الماسة الى المال ولم يعرف معنى هذه الحاجة ؛ ان فقدان المال فى الواقع أشق ضروب الخسارة وأقساها على الذين بلغوا من السن مبلغا يتيح لهم ادراك هذه الحقيقة .

فقد يحتمل المرء أن تخبره بأن لابد أن تجرى له جراحة خطيرة ، أو أنه مصاب بمرض سيقتله عما قليل ، أو أنه سيقضى ما بقى له من عمره مقعدا أو مكفوفا ؛ وهذه الأنباء على سوئها لا تتخاذل لها أعصاب الغالبية الكبرى من الناس ؛ لا بل ان أكثر الناس يمضون فى هدوء غير قليـــل حتى الى المشنقة ، ولكن أقواهم يرتجفون فرقا أمام الخراب المالى ، وكلما كان معدنهم كريما كان انهيارهم فى الأغلب الأعم كاملا . والانتحار نتيجة شائعة للافلاس المالى ، وقلما يلجأ اليه الانســان ليهــرب من آلام الجســد . فاذا كنا نشعر أن لنا دخلا مريحا يسند ظهرنا بحيث نستطيع أن نموت على فراشنا فى دفء وهدوء دون داع للقلق على النفقات ، عشنا حياتنا الى آخر قطرة فيها مهما برح بنا الألم . ولعل أيوب شعر بفقد قطعان غنمه وماشيته أشــد مما شــعر بفقد زوجته وأسرته ، فهو يستطيع أن يتمتع بقطعانه دون أسرته ، ولكنه لا يستطيع التمتع بأسرته — طويلا — لو فقد كل ماله . والواقع أن فقد المـــال ليس شر الآلام فى ذاته وحسب ، ولكنه الأصل الذى تنبثق عنه جميع الآلام الأخرى . فلنفرض أن انسانا نشىء على دخل مريح متوسط ولم يختص فى أى مهنة ، ثم أخذ منه ماله فجأة ،

فكم من الزمن يرجى أن تحتمل صحته ما يجره فقدان ماله من انقلاب فى كل أساليب حياته وعاداته الخاصة ؟ وكم من الزمن أيضا يرجى أن يظل احترام الأصدقاء وعطفهم بعد هذا الخراب ؟ قد يأسف الناس علينا أسفا شديدا ، ولكن موقفهم منا كان الى الآن يقوم على افتراض أن لنا هذا الوضع المالى أو ذاك ؛ فاذا انهار هذا الوضع لم يكن بدّ من تكييف جديد لوضعنا الاجتماعى ؛ لأننا نكون حاصلين على الاحترام والتقدير على أساس زائف . فلنفرض اذن أن أفدح الخسائر التى يمكن أن يبتلى بها انسان هى خسائر المال ، والصحة ، وحسن السمعة . ففى هذه الحالة تكون خسارة المال أفدحها ، ثم تليها خسارة الصحة ، وأخيرا خسارة السمعة ؛ وخسارة السمعة لا تستحق أن تكون ثالث هذه الخسائر ، لأنه اذا احتفظ انسان بصحته وماله كاملين ، وجدنا على العموم أن فقدانه لسمعته يرجع الى خروج على أوضاع اجتماعية محدثة ليس الا ، وليس خروجا على القوانين الأقدم ، والأرسخ ، والتى لها سلطان غير منازع . وفى هذه الحالة قد يكوّن هذا الرجل لنفسه سمعة جديدة بالسهولة التى يكون بها « اللوبستر » مخلبا جديدا ؛ أو يزكو وينعم بسلام نفسى عظيم دون سمعة على الاطلاق ما دام يملك الصحة والمال . أما من فقد ماله ففرصته الوحيدة أن يكون من الحداثة بحيث يحتمل اقتلاعه من مكانه الأول وشتله فى مكان جديد دون أن يضار بأكثر من القلقلة المؤقتة ، وهذا ما كنت أظن أنه حال ولدى فى العماد .

وكانت لوائح السجن تخول له أن يتسلم ويرسل خطابا بعد قضائه ثلاثة أشهر فيه ، وأن يزوره صديق مرة واحدة أيضا . فلما تلقى خطابى طلب الىّ لتوه أن أزوره ، ففعلت بالطبع ، ووجدته قد تغير كثيرا جدا ، وكان لا يزال ضعيفا واهنا فلم يحتمل الجهد الذى بذله ليأتى من مستشفى

السجن الى الحجرة التى سمح لى فيها بمقابلته ، ولا الانفصال التى أحدثته رؤيته لى . وانهار تماما أول الأمر ، فآلمتنى جدا حاله حتى لقد أوشكت أن أخالف تعليماتى فى التو واللحظة . على أننى اكتفيت مؤقتا بالتأكيد له بأننى سأساعده حالما يغادر السجن ، وأنه بمجرد أن يستقر على رأى فيما هو فاعل ، عليه أن يأتى الىّ ويأخذ ما يحتاج اليه من مال ان لم يستطع الحصول عليه من أبيه . وأخبرته — تيسيرا عليه — أن عمته رغبت الىّ وهى على فراش موتها فى أن أصنع به مثل هذا ان طرأت ضرورة ملحة ، فاذن لن يأخذ منى سوى ما تركته له عمته .

فقال « اذن فلن آخذ الجنيهات المائة من أبى ، ولن أراه هو وأمى ثانيــة » .

قلت له « خذها يا ارنست وخذ منه ما تستطيع ، ثم لا تلقهما بعد ذلك ان لم تشأ » .

ولكن ارنست أبى أن يفعل ، لأنه اذا أخذ منهما مالا فلن يستطيع أن يقاطعهما ، وهو يريد أن يقاطعهما . وخطر لى أن ولدى بالعماد ستصلح حاله كثيرا لو ملك من الحزم والثبات ما يجعله ينفذ رغبته فى القطيعة التامة بينه وبين أبيه وأمه ، فصارحته برأيى هذا . وقال بنظــرة دهشة « اذن أفلا تحبهما ؟ » .

قلت « أحبهما ! فى ظنى أنهما شنيعان » .

وصاح « أوه ، ان هذا أرفق من كل ما صنعته بى . لقــد ظننت أن جميع — جميع الكهول يحبون أبى وأمى » .

وكان على وشك أن يقول جميع « الشيوخ » ، ولكننى لم أكن قد جاوزت السابعة والخمسين ، وما كنت لأقبل منه أن يدعونى شيخا ، لذلك لويت وجهى وعبست حين رأيته مترددا ، فاضطر أن يقول « الكهول »

السجن الى الحجرة التى سمح لى فيها بمقابلته ، ولا الانفعال الذى أحدثته بدلا من « الشيوخ » .

وقلت له « بل أقول لك — ان كان هذا يعجبك — ان جميع أفراد أسرتك شنيعون باستثنائك أنت وعمتك أليثيا . ان أكثر أفراد أى أسرة دائما كريهون ؛ واذا وجدت واحدا أو اثنين طيبين فى أسرة كبيرة جدا ، فذلك قصارى ما يمكن أن تطمع فيه » .

وأجابنى بامتنان « شكرا لك ، أظننى الآن أستطيع احتمال كل شيء تقريبا . سأذهب لزيارتك حال خروجى من السجن . وداعا » . وكان السجان قد أخبرنا بأن وقت الزيارة قد انتهى .

الفصل السابع والستون

حين وجد ارنست أنه لم يعد لديه مال يعتمد عليه اذا غادر السجن رأى أن أحلام الهجرة وزراعة الضيعة لابد أن تنتهى لأنه يعلم أنه عاجز عن الشغل بالمحراث أو الفأس بيده أمدا طويلا . وها قد بدا الآن أنه لن يملك المال الذى يؤديه لأى انسان يؤجره على القيام له بهذا العمل . هذا هو الذى جعله يعقد العزم على أن يفترق نهائيا عن والديه . ولو كان مسافرا الى الخارج لأمكن أن يحتفظ بعلاقته بهم لأنهم سيكونون أبعد من أن يتدخلوا فى شئونه .

وكان يعلم أن أباه وأمه سيعترضان على هذه القطيعة ؛ فهما يودان أن يبدوا عطوفين غافرين ؛ كذلك سيكرهان ألا يكون لهما بعد اليوم القدرة على أن ينغصا عليه حياته ؛ ولكنه كان عليما أيضا بأنه ما دام مشدودا معهما كالخيل فى صف واحد فسيختلف معهما . كان يريد أن يطلق مظهر حياة الطبقة الراقية ويهبط الى صفوف الدهماء ، مبتدئا من أسفل السلم حيث لا يعلم أحد شيئا عن عاره أو يبالى لو علم ، أما أبوه وأمه فسيريدانه أن يتشبث بأهداب هذه الطبقة ولو على راتب لا يكاد يقيم أوده ودون أى أمل فى الترقى . وكان ارنست قد رأى فى آشبت پليس ما يكفى لتبصيره بأن الخياط يستطيع — اذا كان زاهدا فى الخمر منصرفا الى عمله — أن يكسب من المال أكثر من الكاتب أو مساعد القسيس ، فى حين لا يطلب منه أن ينفق مثلهما على المظاهر . كذلك للخياط حرية أكبر وفرصة للترقى أفضل . واستقر رأى ارنست فى الحال على أنه ما دام

قد نزل الى هذا الدرك فسينزل الى أسفل منه — فورا ، وبكل رضى ، وبفكرة الصعود من جديد ، ذلك خير من أن يتشبث بأهداب طبقة راقية ستسمح له بالعيش بينها تفضلا لا أكثر ، وتكرهه على أن يدفع ثمنا باهظا فى سلعة يستطيع أن يستغنى عنها .

ووصل الى هذه النتيجة بأسرع مما كان يصل اليها فى ظروف أخرى حين تذكر شيئا سمع عمته مرة تقوله عن « تقبيل التربة » . ولقد أثر فيه قولها ولصق بذهنه ربما بسبب ايجازه ؛ فلما اطلع بعد ذلك على قصة « هرقول وأنتيوس » وجدها من الخرافات القديمة القليلة جدا التى أثرت فيه ، وكانت أكبر دين يدين به للآداب القديمة . كانت عمته تريده أن يتعلم النجارة وسيلة لتقبيل التربة لو أن هرقول صرعه يوما ما . صحيح أن الوقت تأخر جدا بتعلمه هذه الحرفة الآن — أو لعله خيل اليه أنه تأخر — ولكن طريقة تنفيذه فكرة عمته ليست سوى تفصيل ؛ فهناك مائة طريقة لتقبيل التربة غير احتراف النجارة .

وكان قد أخبرنى بهذا فى أثناء مقابلتنا ، فشجعته بكل قوتى . انه أبدى من الفطنة قدرا أوفر كثيرا مما قدرت ، فاطمأن قلبى عليه أكثر من ذى قبل ، وصممت على أن أدعه يلعب لعبته ، وان ظللت على الدوام قريبا منه لأنجده اذا ساءت الأمور كثيرا . وهو لم يرد أن ينبت ما بينه وبين أبيه وأمه لمجرد كراهيته لهما ؛ ولو كان الأمر كذلك فقط لاحتملهما ؛ ولكن نذيرا فى باطنه كان يقول له فى وضوح انه لو استطاع أن ينسلخ منهما انسلاخا تاما لبقى له أمل فى النجاح ، فى حين لو أنهما ظلا على صلة به ، أو حتى علما بمكانه ، لعرقلا سبيله ولدمرا حياته فى النهاية . فالاستقلال التام عنهما هو فى اعتقاده فرصته الوحيدة للحياة نفسها .

فاذا لم يكن هذا كافيا ، فقد كان لارنست ، فضلا عنه ، ايمان فى

حظه يشعر به معظم الشبان فى ظنى ، ولكن أسس هـذا الايمان لم تكن ظاهرة لأحد غيره . وسواء كان على صواب أو خطأ ، فقد كان يعتقد بينه وبين نفسه أن له قوة لو أتيح له حرية استخدامها بطريقته الخاصة لحقق جلائل الأعمال يوما ما . ولم يكن يعلم متى ، ولا أين ، ولا كيف تأتيه فرصته ، ولكن الشك لم يخامره قط فى أنها آتية رغم كل ما حدث ؛ وفوق كل شيء كان يدفىء صدره الأمل بأنه قد يعلم كيف يقتنصها اذا أتت ، لأنها أيا كانت فستكون شيئا لن يستطيع غيره أن يفعله فى اتقان كما يفعله هو . ان الناس يقولون انه ليس هناك تنانين ولا مردة يحاربها المغامرون اليوم ؛ ولكنه بدأ يدرك أنها اليوم كثيرة كما كانت فى أى عهد مضى .

ومهما بدا فى هذا الايمان من غرابة فى انسان يؤهل نفسه لرسـالة عظمى بقضـاء عقـوبة السجن ، فانه لم يكن له فيه حيلة أكثر مما له فى تنفّسه ؛ كان ذلك فطرة فيه ، وهذا السبب — أكثر من أى سبب آخر — هو الذى رغبه فى قطع الصلة بينه وبين والديه ؛ ذلك أنه عليم بأنه لو أتى اليوم الذى يتبين فيه أن أمامه هو أيضا سباقا يشرّفه أن يجلى فيه من المجلين ، لكان أبوه وأمه أول من يتركانه يعدو مع المتسابقين ، ثم يضعان العراقيل فى سبيله . لقد كانا أول من قال انه ينبغى له أن يجرى فى مثل هذا السباق ؛ وسيكونان كذلك أول من يُعثره لو صدّق كلامهما ، ثم يوبخانه بعد ذلك لأنه لم يفز فى السباق . فالقيام بعمل جليل أيا كان نوعه محال مالم يتحرر من أولئك الذين لا يفتأون يجرّونه خلفا الى العرف الاجتماعى . لقد جرب العرف من قبل فوجده ناقصا معيبا .

والآن هاهى الفرصة سانحة لو شاء أن ينتهزها ليهرب الى الأبد ممن يعذبونه ، وفى الوقت نفسه يقيدونه الى الأرض لو أتيـح له أن يحلّق فى الجو . وما كان ليظفر بمثل هذه الفرصة لولا سجنه هذا ، فلولاه لغلبته

قوة العادة والروتين على أمره ، وما كان ليظفر بها لولا أنه خسر كل ماله ، وما كانت الهوة لتنفرج هذا الانفراج الواسع الذى لولاه لمال الى أن يطرح عليها لوحا يعبر عليه . ومن ثم اغتبط الآن بخسارة ماله كما اغتبط بالسجن، فقد سهلت عليه السعى وراء أصدق مصالحه وأكثرها بقاء .

ومرت به أوقات كان يتردد فيها اذا ذكر كم ستبكى وتحزن عليه أمه التى تحبه على طريقتها ، كما يظن ، أو كيف أنها قد تمرض وتموت ، وأن الذنب فى هذا ذنبه . وكان تصميمه فى مثل هذه الأوقات يوشك أن ينهار ، ولكنه حين وجدنى استحسنت خطته أصبح الصوت الذى يأمره فى باطنه بألا يرى وجه أبيه وأمه بعد اليوم أعلى وأشد الحاحا . فلو عجز عن الافلات ممن يعرف أنهم مثعثروه حين لا يكلفه الافلات الا جهدا يسيرا ، لكان حلمه بحظه حلما فارغا ، فما قيمة الحصول على مائة جنيه من أبيه اذا قيس بمثل هذا الخطر ؟ انه ما زال يشعر فى أعماقه بالألم الذى أوقعه عاره بأبيه وأمه ، ولكنه بدأ يزداد قوة ، وخطر له أنه جرب حظه معهما والدين ، فليجربا حظهما معه ولدا .

وكان قد أوشك أن يستقر على هذه النتيجة حين تلقى خطابا من أبيه جعل قراره هذا نهائيا لا رجعة فيه . ولو أن قواعد السجن طبقت عليه تطبيقا دقيقا لما سمح له بأن يتسلم هذا الخطاب الا بعد ثلاثة أشهر أخرى لأنه كان قد وصله خطاب منى قبل ذلك ،ولكن مأمور السجن تساهل معه ، وعدّ خطابى رسالة عمل لا تكاد تندرج تحت خطابات الأصدقاء . وهكذا سلم ارنست خطاب ثيوبولد ، والى القارىء نصه :

عزيزى ارنست — ليس هدفى من كتابة هذا الخطاب اليك أن أوبخك على العار والخزى اللذين ألحقتهما بأمك وبى ، فضلا عن أخيك جوى

وشقيقتك . فلا مفر من أن تقاسى بالطبع ،ولكننا نعرف الى من تتطلع فى مصيبتنا ، ونحن قلقون أشد القلق ، لا على أنفسنا بل عليك أنت على أن أمك تحتمل الأمر احتمالا عجيبا . وهى فى صحة جيدة ، وقد رغبت الى فى أن أبعث اليك بمحبتها .

هل فكرت فيما أنت صانع حين تبرح السجن ؟ لقد فهمت من مستر أقرتن أنك خسرت التركة التى خلفها لك جدك ومعها كل الفوائد التى تجمعت وأنت قاصر ، وذلك خلال مضاربات فى سوق الأوراق المالية ! فلو كنت حقيقة اقترفت هذه الحماقة الرهيبة فانه يصعب على أن أرى أى عمل ستجرب الاشتغال به ، ويخيل الى أنك ستحاول أن تجد وظيفة كتابية فى أحد المكاتب ، وسيكون راتبك ولا ريب ضئلا أول الأمر ، ولكنك أخطأت ، فلا تشك ان لم يكن لك بد من تحمل مغبة خطئك . وأحسب أن رؤساءك لن يتأخروا فى ترقيتك اذا اجتهدت فى ارضائهم .

وحين سمعت أول وهلة من مستر أقرتن بالكارثة الفظيعة التى حلت بأمك وبى ، صممت على ألا أراك بعدها . على أننى لست راغبا فى اتخاذ اجراء قد يحرمك من آخر حلقة تربطك بالناس المحترمين . فسنلقاك أنا وأمك بمجرد خروجك من السجن ، لا فى باترزبى — فلسنا نريدك أن تأتى الى هنا فى الوقت الحاضر — ولكن فى مكان آخر ، وفى لندن على الأرجح . ولا داعى يدعوك للاحجام عن لقائنا ، فلن نوبخك . وعند لقائنا بك سننتهى الى رأى فى مستقبلك .

ونحن نشعر فى الوقت الحاضر أنك واجد بداية لمستقبلك ربما فى استراليا أو نيوزيلنده أفضل مما قد تجد هنا ، وأنا على استعداد لاعطائك خمسة وسبعين جنيها أو مائة جنيه اذا اقتضت الضرورة لتدفع نفقات رحلتك الى هناك ، فاذا وصلت الى المستعمرة وجب أن يكون اعتمادك على جهدك الخاص .

عسى أن ترعى السماء جهدك وترعاك ، وتردك الينا بعد سنوات عضوا محترما فى المجتمع .

والدك المحب

ث . پوتنفكس

ويلى ذلك حاشية بخط كرستينا :

يا ولدى الحبيب الغالى ، صلّ معى كل يوم بل كل ساعة لنعود أسرة تقية متحدة سعيدة كما كنا قبل أن تصيبنا هذه الكارثة الرهيبة .

أمك الحزينة المحبة على الدوام

ك . پ .

ولم يحدث هذا الخطاب فى ارنست الأثر الذى كان يمكن أن يحدثه قبل أن يدخل السجن . لقد ظن أبوه وأمه أنهما يستطيعان أن يلتقطاه كما طرحاه . ولكنهما نسيا السرعة التى يتبع بها التطور الكارثة اذا كان ضحيتها صغير السن سليم الفطرة . ولم يجب ارنست عن خطاب أبيه ، ولكن رغبته فى القطيعة التامة أصبحت أقرب الأشياء الى الشهوة . فصاح يخاطب نفسه . « ان للأطفال الذين فقدوا آباءهم ملاجىء — فلِمَ ، نِعم ، نِعم لا يكون هناك ملاجىء يلوذ بها الكبار الذين لم يفقدوا آباءهم بعد ؟ » ثم راح يتأمل طويلا فى السعادة التى كان يرتع فيها « ملكى صادق » ، الذى ولد يتيما ، بلا أب ، ولا أم ، ولا نسب .

الفصل الثامن والثمانون

حينما أفكر فى كل ما أخبرنى به ارنست عن تأملاته فى السجن ، وعن النتائج التى سيق اليها ، يبدو لى أنه كان فى الواقع يريد أن يفعل آخر شىء خطر بباله أنه يريد فعله . وأعنى بذلك أنه كان يحاول أن يضحى بأبيه وأمه فى سبيل المسيح . ولو سئل لقال انه يضحى بهما لأنه يحسبهما معطلين له فى سعيه وراء أصدق وأدوم ضروب السعادة . وأنا أسلم بهذا ، ولكن ماذا يكون هذا ان لم يكن هو المسيح ؟ وما المسيح ان لم يكن هذا؟ ان الذى يقف من مصلحته أسمى وأكرم موقف يستطيع تصوره ، ثم يتشبث بهذا الموقف برغم العرف والأوضاع ، هو مسيحى سواء أعرف ذلك ودعا نفسه مسيحيا أم لم يفعل . فالوردة لا ينتقص من كونها وردة أنها لا تعرف اسمها .

وأى فرق ان كانت الظروف يسّرت عليه واجبه أكثر مما يسرته لمعظم الناس ؟ ذلك حظه ، كما أن حظ بعض الناس أن ييسر غير هذا من الواجبات عليهم بصدفة الميلاد مثلا . فالناس اذا ولدوا ذوى مال أو جمال كان من حقهم بالطبع أن يتمتعوا بحظهم السعيد . وأنا أعلم أن البعض يقولون أن ليس لرجل حق فى أن يولد أقوى بنية من غيره ؛ والبعض من ناحية أخرى يقولون ان الحظ هو الشىء الفاضل الوحيد الذى يستحق تبجيل الناس . ولعل كليهما يستطيع أن يدفع عن قضيته دفعا موفقا جدا ، ولكن أيا كان المصيب منهما فلا شك أن لارنست من الحق فى هذا الحظ الطيب الذى يسّر عليه واجبه مثل ما له من حق فى الحظ السيىء الذى أوقعه فى

مأزق زج به فى السجن . فيجب ألا نسخر من انسان لأنه يملك فى يده ورقة رابحة ؛ انما نسخر منه اذا لعب الورقة الرابحة لعبا سيئا .

والحق أننى أشك فى أن أحدا من الناس يجد التضحية بأبيه وأمه فى سبيل المسيح أشق كثيرا مما وجدها ارنست . فالعلاقات بين الطرفين تكون فى جميع الحالات تقريبا قد وصلت الى التأزم الشديد قبل أن تنتهى الى هذا . وأنا أشك فى أن أحدا من الناس يطلب اليه التضحية بمن يتعلق قلبه بهم تعلقا شديدا لمجرد ارضاء ضميره : فهو فى هذه الحالة يكون قد توقف عن التعلق بهم قبل أن يطلب اليه أن يقطع صلته بهم بزمن طويل ؛ ذلك أن الخلافات فى الرأى على أى أمر بالغ الأهمية تنبع من فوارق فى البيئة والمزاج ، ومثل هذه الفوارق تكون قد أدت لخلافات أخرى كثيرة ، حتى تصبح « التضحية » حين تأتى أشبه بتضحية ضرس مؤلم ولكنه واهن نخر جدا . أما الذى يؤلمنا حقا فهو فقد أولئك الذين لا نضطر للتضحية بهم من أجل المسيح ، هنالك يكون الوجع الصحيح . على أنه أيا كانت سهولة الواجب الذى يطلب الينا أداؤه ، فيكفى لحسن الحظ أن نؤديه ؛ فسنجنى ثمرة جهدنا كما لو كان جهدا جبارا .

ولكن لنعد الى قصتنا فأقول ان النتيجة التى انتهى اليها ارنست هى أن يشتغل خياطا . لذلك ناقش الأمـــر مع القسيس فقال له انه لا يرى ما يمنعه من كسب ستة أو سبعة شلنات يوميا حين يأتى اليـــوم الذى يخرج فيه من السجن ، ان أراد أن يتعلم هذه الحرفة خلال المدة الباقية من عقوبته — ولم تكد تبلغ ثلاثة أشهر ؛ وقال الطبيب انه بلغ من القوة ما يمكنه من تعلمها ، وان هذه الحرفة تكاد تكون الشىء الوحيد الذى يصلح له الآن ؛ وهكذا ترك مستشفى السجن بأسرع مما كان يتركه لولا نيته هذه ، ودخل دكان الخياط وهو مغتبط أشد الاغتباط لأنه أخذ يتبين

طريقه مرة أخرى ، واثقا بالنهوض من عثرته يوما ما لو استطاع أن يرسى قدمه على أرض راسخة يبدأ منها الحياة .

ورأى كل من اتصل به آنه لا ينتمى الى ما يسمونه بالطبقات المجرمة ، واذ وجدوه تواقا الى التعلم والى توفير العناء عليهم عاملوه على الدوام برفق ، بل بما يقرب من الاحترام . ولم يجد العمل مملا أو متعبا : لقد كان ألذ كثيرا من كتابة الشعر اللاتينى واليونانى فى رفبرو ؛ وأحس أنه يؤثر أن يظل فى هذا السجن عن أن يعود الى رفبرو — أجل ، بل الى كمبردج نفسها . ولم يكن هناك متاعب تتهدده الا من تبادل الكلمات والنظرات مع زملائه السجناء الذين يبدو عليهم التهذيب ، فقد كان هذا محظورا ، ولكنه لم يفوت قط فرصة يخالف فيها القواعد فى هذا الشأن .

وكل من أوتى قدرة ارنست وشوقه الى التعلم فى الوقت نفسه لابد بالطبع أن يتقدم تقدما سريعا ، فقبل أن يغادر السجن قال حارسه انه بأشهره الثلاثة التى تعلم فيها الخياطة أصبح لا يقل مهارة عمن يقضون فى تعلمها اثنى عشر شهرا . ولم يثن مدرس قط على ارنست طوال حياته مثل هذا الثناء العاطر . وكان كلما ازداد عافية وتعودا على محيطه رأى فى موقفه ميزة جديدة لم يكن يهدف اليها ، ولكنها وافته على الرغم منه تقريبا ، فتعجب لحظه السعيد الذى رتب له الأمور أفضل كثيرا مما كان يستطيع أن يرتبها لنفسه .

وكان عيشه من قبل ستة أشهر فى أشيت پليس عاملا هاما فى الموضوع . فقد أصبحت الأشياء المستحيلة على أمثاله ممكنة له . ولو أن رجلا كتاونلى أخبر بأن عليه أن يعيش منذ الآن فى بيت كبيوت أشيت پليس لكان ذلك فوق ما يطيق ؛ وما كان ارنست نفسه ليطيق هذا لو أنه ذهب ليسكن هذا الحى مدفوعا بفقره . انما الذى منعه من الهروب من هذا الحى هو شعوره

بأنه يستطيع هذا فى أية لحظة شاء ؛ أما الآن وقد ألف الحياة فى آشپت پليس فانه لم يعد يبالى بهذا الأمر ، وكان فى استطاعته أن يسكن مسرورا فى أحياء لندنية أكثر فقرا ما دام يستطيع أن يكسب قوته . انه لم يقض فترة التتلمذ هذه للحياة بين الفقراء بدافع الحيطة أو بعد النظر . لقد كان يحاول بطريقة واهنة ضعيفة أن يكون فى عمله دقيقا : انه لم يكن دقيقا ، وفشلت المحاولة كلها فشلا ذريعا ؛ ولكنه قام بجهد واه ضئيل ليكون صادقا ، وها هو ذا فى ساعة محنته قد رُد اليه بجزاء أوفر كثيرا مما يستحق . وما كان يستطيع أن يواجه حياة الفقر الجديدة لولا هذه القنطرة التى تعينه على العبور الى الفقراء والتى وجدها على غير قصد منه فى آشپت پليس . صحيح كانت هناك عيوب فى البيت الذى اختاره بالذات ، ولكنه لم يعد مضطرا الى سكنى بيت فيه رجل كمستر هولت ، ولن يربط بعد اليوم بالمهنة التى يمقتها مقتا شديدا ؛ فاذا لم يكن هناك صراخ ولا قراءة كتاب ، استطاع أن يكون سعيدا ولو فى غرفة على السطح ايجارها ثلاثة شلنات فى الأسبوع كتلك التى تسكنها مس متلاند .

ولما مضى فى التفكير تذكر أن « كل الأشياء تعمل معا للخير للذين يحبون الله » ؛ وتساءل أممكن أنه هو أيضا كان يحاول أن يحب الله ، مهما يكن من نقص فى محبته ؟ انه لم يجرؤ على أن يجيب نعم ، ولكنه سيحاول جاهدا أن يكون هذا شأنه . وهنا خطر بباله لحن هاندل السامى : « أيها الاله العظيم الذى ما زال علمنا بك غامضا » وشعر باللحن كما لم يشعر به قط من قبل . لقد فقد ايمانه بالمسيحية ، ولكن ايمانه بشىء — لا يعرف ما هو ، ولكنه يعرف أن هناك شيئا ما زال علمنا به غامضا ، يجعل الحق حقا والباطل باطلا — ان ايمانه بهذا ازداد قوة يوما بعد يوم .

ثم ساورته أفكار عن القوة التى يشعر بأنها فى باطنه ، وكيف وأين

يجب أن تجد لها متنفسا . وهنا أيضا بادرت الى نجدته تلك الغريزة التى دفعته الى العيش بين الفقراء لأن هذا العيش كان أقرب شيء يستطيع أن يتناوله فى شيء من الوضوح . وتذكر الذهب الاسترالى وكيف أن الذين كانوا يعيشون وسطه لم يروه قط من قبل وان أحاط بهم من كل صوب . وصاح فى باطنه « فى كل مكان ذهب لمن يبحثون عنه » . أفلا يمكن أن تكون فرصته أقرب اليه من حبل الوريد لو دقق النظر الى محيطه وظروفه المباشرة ؟ فما موقفه ؟ لقد خسر كل شيء . أفلا يستطيع أن يجعل من خسارته هذه كسبا ؟ أفلا يمكنه ان يحث هو أيضا عن قوة الله — أن يجد ، كما وجد القديس بولس ، أنها فى الضعف تكمل ؟

لم يعد له شيء يفقده بعد ما فقد ، لقد ذهب المال ، وذهب الأصدقاء ، وذهبت السمعة ، كل أولئك ذهب الى أمد طويل جدا ان لم يكن الى الأبد ، لكن شيئا آخر أيضا قد ولّى مع هذه الأشياء . وأعنى به الخوف مما يستطيع الناس أن يوقعوه به . ان الفضاء يردد من حوله : من يستطيع أن يؤذيه فوق ما أوذى ؟ انه ان يتمكن من كسب قوته فقط ، فلن يعرف شيئا لا يجرؤ على اقتحامه اذا أعان هذا الاقتحام على جعل العالم مكانا أسعد للشباب الجديرين بالمحبة . فى هذه الفكرة وجد راحة عظمى — حتى لقد كاد يتمنى لو أنه فقد سمعته فقدانا أتم — فقد رآها شبيهة بحياة الانسان التى يجدها أولئك الذين يفقدونها ويفقدها أولئك الذين يودون أن يجدوها . انه ما كان ليجد الشجاعة الكافية لتضحية كل شيء لأجل المسيح ، أما الآن وقد أخذ المسيح منه فى رأفة كل شيء ، فقد بدا له أنه وجد كل شيء .

واذا مرت به الأيام فى بطء انتهى الى الرأى بأن المسيحية وانكار المسيحية يلتقيان على أية حال كما يلتقى أى نقيضين ، انه صراع على

الأسماء — لا على الأشياء ؛ فكنيسة روما ، وكنيسة انجترا ، والمفكر الحر — كلهم يستهدف من الناحية العملية المستوى المثالى الواحد ، والكل يلتقون فى الرجل المهذب أو « الجنتلمان » ؛ لأن أكمل الناس تهذيبا هو أكملهم قداسة . كذلك رأى أنه لا يهم كثيرا أى مهنة يتخذ الانسان — دينية كانت أو لا دينية — بشرط أن يمارسها فى تقلب سمح ، دون أن يغلو فيها الى النهاية المرة . ان الخطر يكمن فى الغلو أو الصلابة التى يؤمن بها المرء بالعقيدة ، لا فى العقيدة أو الافتقار الى العقيدة . هذه هى الذروة التى توجت البناء كله ؛ فلما أن بلغ هذه النقطة لم يعد يريد أن يضايق أحدا حتى البابا نفسه . ان رئيس أساقفة كنتربرى يستطيع الآن أن يثب من حوله من كل جانب ، بل أن يلتقط الفتات من يده دون أن يتعرض لخطر رشة ماكرة بالملح . ولعل هذا الحبر الحذر كان يرى غير هذا الرأى ، ولكن لا داعى يدعو رئيس الأساقفة للارتياب فى نوايا بطل قصتى ، الا اذا ارتاب الهزار والسمان الذى يثب فى حدائقنا فى نية اليد التى تلقى اليه بفتات الخبز فى الشتاء .

ولعل الذى أعانه على بلوغ هذه النتيجة حادث فرض عليه عدم الثبات فرضا تقريبا . ذلك أن قسيس السجن جاء الى زنزانته بعد مغادرته المستشفى بأيام وأخبره أن السجين الذى كان يعزف على الأرغن فى كنيسة السجن أنهى عقوبته وهو على وشك مبارحة السجن ؛ لذلك عرض وظيفته على ارنست وهو يعلم أنه يعزف على الأرغن . ولم يعرف ارنست أول الأمر أيكون صوابا منه قبوله المعاونة فى الخدمات الدينية أكثر مما يضطره واجبه فعلا ، ولكن لذة العزف على الأرغن ، والامتيازات التى أتاحتها الوظيفة ، جعلته يرى مبررات قوية تحمله على ألا يغلو فى الثبات على مبدئه غلوا قاتلا . واذ أدخل مرة عنصرا من عدم الثبات فى نظامه الفكرى ، فقد

غدا أثبت على آرائه من أن يحجم عن الخروج عليها فى أى وقت ، ولم يمض قليل حتى ارتد الى نوع من عدم المبالاة لطيف ، لم يكن فى ظاهره يختلف كثيرا عن عدم المبالاة الذى أيقظه منه مستر هوك من قبل .

وأنقذه العزف على أرغن الكنيسة من تشغيل « الدهاسة » فى السجن ، وهو عمل قال طبيب السجن انه لا يصلح له بعد ، ولكن كان من المحتمل أن يكلف به بعد حين حالما يستعيد قوته . وكان فى استطاعته أن يهرب تماما من دكان الخياط ولا يفعل شيئا الا الحضور الى مسكن القسيس اذا شاء — وهو عمل هين اذا قيس بغيره — ولكنه أراد أن يتعلم من الخياطة ما وسعه ، فلم يستغل هذا العرض ؛ على أنه سمح له بقضاء ساعتين عصر كل يوم فى التمرين . ومنذ هذه اللحظة لم تعد حياة السجن رتيبة مملة ، ومر عليه الشهران الباقيان من العقوبة بسرعة كأنه حر طليق . فقد وجد فى الموسيقى ، وفى الكتب ، وفى تعلم حرفته ، وفى تبادل الأحاديث مع القسيس — وهو بالضبط الشخص المعقول العطوف الذى كان ارنست أحوج ما يكون اليه ليثبته قليلا — وجد فى كل أولئك ما جعل الأيام تمر به مرورا هينا لطيفا ، فلما آن أوان مغادرته السجن ، غادره — أو خيل اليه أنه يغادره — وهو لا يخلو من شعور الأسف .

الفصل التاسع والستون

لم يحسب ارنست حسابا لأسرته حين استقر رأيه على قطع العلاقة بينه وبينها نهائيا . صحيح أن ثيوبولد أراد أن يتخلص من ولده حتى لقد رغب فى أن يبعد عنه على الأقل بعد المشرقين ، ولكنه لم يفكر قط فى أن تقوم القطيعة بينهما . وكان عليما بخلق ولده علما بصره بأن هذه هى رغبة ارنست ، فصمم — ربما لهذا السبب كما لغيره — أن يحتفظ بالصلة بينهما بشرط ألا يترتب عليها ذهاب ارنست الى باترزبى أو الرجوع عليه بالنفقة .

فلما دنا وقت الافراج عن ارنست ، تشاور أبوه وأمه فى الطريق التى ينبغى أن يسلكاها .

وقال ثيوبولد فى لهجة قوية « علينا ألا نتركه أبدا لنفسه ، فلا يمكن أن يكون أحدنا راغبا فى هذا » .

وصاحت كرستينا « أوه لا ! لا ! يا عزيزى ثيوبولد . فمهما هجره غيرنا من الناس ، ومهما كان بعيدا عنا ، فيجب أن يظل شاعرا بأن له والدين يخفق قلباهما بالمحبة له مهما قسا فى ايلامهما » .

وقال ثيوبولد «لقد كان أعدى أعداء نفسه . انه لم يحبنا قط كما نستحق ، والآن سيمنعه الخجل الكاذب من الرغبة فى رؤيتنا . انه سيتجنبنا اذا استطاع » .

وقالت كرستينا « اذن فيجب أن نذهب اليه نحن ، وسواء شاء أو لم يشأ فعلينا أن نقف الى جواره لنشد أزره وهو يدخل الدنيا من جديد » .

« اذا أردنا ألا يفلت منا وجب أن نلحقه وهو خارج من السجن » .

« سَنفعل ، سنفعل ؛ سيكون وجهانا أول الوجوه التى تسرّ ناظريه وهو خارج من السجن ، وسيكون صوتانا أول الأصوات التى تحضه على الرجوع الى الفضيلة » .

وقال ثيوبولد « فى ظنى أنه لو رآنا فى الشارع لاستدار وجرى هاربا منا . ان فيه أنانية شديدة » .

« اذن يجب أن نحصل على اذن بدخول السـجن ومقابلتـه قبل أن يغادره » .

وبعد كثير من النقاش كانت هذه هى الخطة التى استقرا عليها ، واذ انتهيا اليها كتب ثيوبولد لمأمور السجن يستأذنه فى دخول السجن لاستقبال ارنست حين تنتهى مدة عقوبته . وتلقى ردا من المأمور بالموافقة . فغادر الزوجان باترزبى فى اليوم السابق للافراج عن ارنست .

ولم يكن ارنست قد حسب لهذا حسابا ، لذلك شعر بشىء من الدهشة حين طلب اليه قبل التاسعة بدقائق أن يذهب الى حجرة الاستقبال قبل مغادرته السجن لأن زوارا ينتظرون مقابلته .

فوجف قلبه لأنه حزر من يكون هؤلاء الزوار ، ولكنه استجمع شجاعته وخف الى حجرة الاستقبال . ولم يكذب ظنه ، فقد رأى فى نهاية المنضدة القريبة من الباب الشخصين اللذين كان يعتبرهما أشد أعدائه خطرا فى هذه الدنيا كلها — وهما أبوه وأمه .

ولم يستطع أن يهرب ، ولكنه كان يعلم أنه ضائع لا محالة لو تردد . وكانت أمه تبكى ، ولكنها وثبت الى الأمام لتلقاه وضمته بين ذراعيها وقالت وهى تنتحب « أواه ، يا ولدى ، يا ولدى » ولم تستطع أن تزيد .

وغاض الدم من وجه ارنست ، وخفق قلبه خفقانا كاد يقطع أنفاسه .

وترك أمه تحتضنه ، ثم سحب نفسه ووقف صامتا أمامها والدموع تنهمر من عينيه .

ولم يستطع أول الأمر أن يتكلم . وظل الصمت من الطرفين مخيما دقيقة أو نحوها . فلما استجمع ارنست قوته قال فى صوت خافت :

« أمى (وكانت هذه المرة الأولى التى لم ينادها فيها نداءه القديم « ماما ») ، يجب أن نفترق » . واذ قال هذا اتجه الى السجان قائلا ، « أعتقد أننى حر فى أن أخرج من السجن اذا شئت ، فأنت لا تستطيع أن تكرهنى على البقاء هنا أطول من هذا . خذنى من فضلك الى بوابة السجن » .

وخطا ثيوبولد الى الأمام وقال « ارنست ، يجب ألا تتركنا ، ولن تتركنا ، على هذه الصورة » .

وقال ارنست وعيناه تتقدان بنار لم تعهد فيهما « لا تكلمنى » ؛ ثم جاء سجان آخر وانتحى بثيوبولد جانبا بينما قاد السجان الأول ارنست الى البوابة .

وقال ارنست « قل لهما عنى ان عليهما أن يفكرا فىّ كما يفكران فى ميت ، لأننى بالنسبة لهما ميت . قل ان أشد ما يؤلمنى هو فكرة العار الذى جلبته عليهما ، واننى قبل كل شىء سأحاول تجنب ايلامهما بعد اليوم ؛ ولكن قل لهما أيضا انهما لو كتبا لى فسأرد خطاباتهما غير مفضوضة ، وأنهما لو أتيا ليزورانى فسأحمى نفسى بأى طريقة أستطيعها » .

وكان قد بلغ الآن بوابة السجن ، وبعد لحظة أخرى كان حرا طليقا . فلما سار خطوات فى الطريق حول وجهه الى سور السجن واتكأ عليه ، ثم بكى وقلبه يوشك أن ينفطر .

ليست التضحية بالأب والأم بالأمر اليسير اذن . فالشياطين اذا سكنت

انسانا زمانا طويلا مزقته وهى تتركه مهما كان الأمر لها بالخـروج منه قاطعا باتا . ولم يمكث ارنست طويلا فى مكانه ، لأنه كان يخشى فى كل لحظة أن يخرج أبوه وأمه من السجن . وتمالك نفسه ثم يمم شطر الشوارع الصغيرة المتشابكة التى انفتحت أمامه .

لقد بدأ نضاله الذى لا رجوع فيه — ربما فى غير بطـولة عظيمة ولا مسرحية كبيرة ، ولكن النـاس لا يسلكون المسلك المسرحى الا فى المسرحيات . على أية حال لقد كافح حتى عبر النهر بوسيلة ما وأصبح الآن على الضفة الأخرى . وخطر له كثير مما كان يطيب له أن يقوله ، ولام نفسه على عدم حضور بديهته ؛ ولكن ليس لهذا أهمية على أية حال. ولقد أسخطه على أبيه وأمه ، برغم ميله الى التماس المعاذير الكثيرة لهما ، أنهما فرضا نفسيهما عليه . لقـد كان ذلك منهما استغلالا دنيئا ، ولكنه مسرور بهذا ، فقد جعله يدرك ادراكا أقوى من ذى قبل أن فرصته الوحيدة هى فى الانفصال عنهما انفصالا تاما .

وكان الصباح أغبش ، وبوادر ضباب الشتاء الأولى قد بدأت تلوح لأن اليوم كان آخر سبتمبر . وكان ارنست يرتدى الثياب التى دخل بها السجن ويلبس رداء القسيس . ولم يكن أحد ممن ينظرون اليه ليرى أى فارق بين مظهره اليوم ومظهره قبل ستة أشهر ؛ بل انه وهو يخترق فى بطء زقاق « ايرى ستريت هل » المزدحم المعتم (وكان خبيرا به لأن له فى المنطقة أصدقاء من رجال الدين) ، بدا له أن الشهور التى قضاها فى السـجن تنسل خارجة من حياته ، وانساق وراء الارتباطات انسياقا قويا أشعره هو فى ردائه القديم ومحيطه القديم بأنه ينسحب الى الوراء لذاته القديمة كأن حياته فى أشهر السجن الستة حلم يفيق منه الآن ليأخذ الأشياء كما تركها . وكان هذا تأثير المحيط غير المتغير على الشطر غير المتغير منه . ولكن كان

فيه الى هذا شطر متغير ، وكان تأثير المحيط غير المتغير على هـذا الشطر أن جعل كل شيء يبدو له غريبا كأنه لا عهد له بحياة غير حياة السجن وكأنه وُلد الآن فى عالم جديد .

ونحن طوال حياتنا ، فى كل يوم بل فى كل ساعة ، نشـتغل بعملية الملاءمة بين أنفسنا المتغيرة وغير المتغيرة ، وبين المحيط المتغير وغير المتغير ؛ والواقع أن الحياة ليست الا عملية الملاءمة هذه . فاذا أخفقنا فيها اخفاقا يسيرا فنحن أغبياء ، واذا أخفقنا اخفاقا صارخا فنحن مجانين ، واذا أوقفناها مؤقتا فاننا ننام ، واذا طلقنا المحاولة تماما فاننا نموت . وفى الحياة الهادئة ، الخالية من الأحداث ، التى يحياها بعض الناس ، تكون التغيرات الباطنة والظاهرة ضئيلة بحيث يقل أو ينعدم الجهد فى عملية الادماج والملاءمة ؛ وفى حياة غير هؤلاء يكون الجهد عظيما ، ولكن الى هذا تكون قـوة الادماج والملاءمة عظيمة أيضا ؛ وفى حياة غيرهم يكون هناك جهـد كبير وقدرة على الملاءمة ضئيلة . والحياة تكون ناجحـة أو فاشلة على قدر ما تكون قوة الملاءمة مكافئة أو غير مكافئة لجهد الادماج والملاءمة بين التغيرات الباطنة والظاهرة .

والمشكلة أننا فى النهاية نحمل على التسليم بوحدة الكون تسليما كاملا يكرهنا على أن ننكر أن هناك شيئا ظاهرا أو آخـر باطنا ، ولكن لا مناص من أن نرى كل شيء ظاهرا وباطنا فى الوقت نفسه ، لأن الذات والموضوع — الظاهر والباطن — متحدان ككل شيء آخر . ومن شأن هذا أن يقلب نظامنا الفلسفى كله ، ولكن كل نظام فلسفى لا مناص من أن يقلبه شيء من الأشياء .

وخير سبيل للتغلب على هذه الصـعوبة أن نعمد الى الفصـل بين الباطن والظاهر — بين الذات والموضوع — حين نجد هذا مريحا ، والى

الوحدة بينهما حين نجد الوحدة مريحة . وهذا غير منطقى ، ولكن التطرف وحده هو المنطقى ، وهو دائما سخيف غير مقبول ؛ فالوسط ، دون سواه ، هو الشيء العملى ، وهو دائما غير منطقى . ان الايمان ، لا المنطق ، هو الحكم الأعلى . يقولون ان جميع الطرق تؤدى الى روما ، وجميع الفلسفات التى عرفتها تؤدى فى النهاية اما الى سخف شنيع ، واما الى النتيجة التى ألحت عليها هذه الصفحات غير مرة ، وهى أن البار بالايمان يحيا ، أى أن الناس المعقولين يسلكون فى الحياة بقاعدة عملية تقريبية يفسرونها أنسب تفسير دون أن يغالوا فى الأسئلة ارضاء لضمائرهم . خذ أى حقيقة ، واستعمل العقل فيها الى غاية ما يصل اليه العقل ، تجد أنها بعد قليل تنتهى الى هذه النتيجة لأنها الملجأ الوحيد الذى يقيك من حماقة واضحة .

ولكن لأعد الى قصتى . فحين وصل ارنست الى قمة الشارع وتلفت وراءه وجد أسوار سجنه الرهيبة القذرة تشغل نهايته . وتوقف دقيقة أو دقيقتين وقال لنفسه « هناك كانت تحبسنى مزاليج أراها وألمسها ، وهنا تحبسنى غيرها ليست أقل منها حقيقة — وهى فقر العالم وجهله . ولم يكن من واجبى أن أحاول تحطيم تلك الحواجز الحديدية المادية وأهرب من السجن ، ولكن لابد لى الآن وقد أصبحت حرا طليقا من أن أحطم هذه الحواجز الأخرى » .

وكان قد قرأ فى مكان ما عن سجين هرب من السجن بتقطيع سريره بملعقة من الحديد . فبهره عقل الرجل ، ولكنه لم يستطع حتى محاولة تقليده ؛ أما أمام الحواجز غير المادية فانه لم يكن ممن يسهل ارهابهم ، وشعر أنه حتى لو كان سريره من حديد والملعقة من خشب ، فانه يستطيع أن يجد سبيلا لجعل الخشب يقطع الحديد عاجلا أو آجلا .

وولى ظهره لايرى ستريت هل ، وسار فى « لِدزلين » قاصدا

هوبرن . وكانت كل خطوة يخطوها ، وكل وجه أو شيء يعرفه ، كلها تعين على ربطه بالحياة التى كان يحياها قبل السجن ، وفى الوقت ذاته تشعره بأن السجن شطر حياته شطرين ، لا يمكن أن يشبه أحدهما الآخر .

وسار من « فترلين » الى « فليت ستريت » وانتهى الى حى التمپل الذى كنت قد غدت اليه لتوّى من أجازتى الصيفية . وكانت الساعة تبلغ التاسعة والنصف ، وأنا أتناول افطارى ، حين سمعت قرعا مترددا على الباب ففتحته لأجد ارنست .

الفصل السبعون

وكنت قد بدأت أحبه فى الليلة التى استدعانى فيها تاوتلى ، وفى اليوم التالى رأيت أنه تصرف تصرفا طيبا . كذلك أحببته فى أثناء مقابلتنا فى السجن ، وأردت أن ألقاه أكثر لأنتهى الى رأى فيه . فلقد قطعت من الحياة شوطا يكفى لتبصيرى بأن بعض من يقومون بجلائل الأعمال فى النهاية لا يكونون حكماء جدا وهم صغار ؛ واذ كنت أعلم أنه سيغادر السجن فى نهاية الشهر ، فقد توقعت مجيئه ؛ ولما كان عندى حجرة نوم اضافية ، فقد ألححت عليه فى أن يمكث معى حتى يستقر على ما هو صانع.

ولم أتوقع أى مشقة فى أن أقنعه برأيى لأننى أكبره كثيرا ، ولكنه أبى أن يقتنع . وكان قصارى ما وافق عليه أن يكون ضيفى حتى يجد له حجرة ، وقال انه سيعمد الى البحث عنها فورا .

وكان ما يزال شديد الانفعال ، ولكنه هدأ حين تناول افطارا يختلف عن طعام السجن ، وحين أكله فى حجرة مريحة . وسرنى أن أرى ابتهاجه بكل ما يحيط به : بالمدفأة وما فيها من جمر ؛ وبالكراسى المريحة ، وبجريدة التيمز ، وبقطتى ، وبأزهار الجرونية الحمراء فى النافذة ، فضلا عن القهوة والخبز والزبد والسجق والمربى الخ .. وكان يجد فى هذا كله متعة أىّ متعة . وكانت أشجار الدلب لا تزال تزخر بالورق ؛ فظل ينهض عن المائدة ليبدى اعجابه بها ؛ وقال انه لم يعرف الا الآن الاستمتاع الحق بهذه الأشياء . فكان يأكل ، ويتطلع ، ويضحك ، ويبكى ، كل بدوره فى انفعال لا أستطيع نسيانه ولا وصفه .

وأخبرني كيف كان أبوه وأمه يتربصان به وهو موشك على مغادرة السجن . فسخطت عليهما ، وأبديت استحساني الحار لتصرفه . وشكرني على هذا ، وقال ان غيري من الناس كانوا فى هذه الحالة يقولون له ان من واجبه أن يفكر فى أبيه وأمه لا فى نفسه ، وأن من العزاء الكبير له أن يجد انسانا يرى الأشياء كما يراها هو . ولو كنت أخالفه الرأى لما قلت له ذلك، ولكننى كنت متفقا فى الرأى معه ، شاكرا له رؤيته الأشـياء كما أراها شكره لى على صنيعى هـذا . ذلك أنه على الرغم من كراهيتى القلبية لثيوبولد وكرستينا ، كنت فى هذا الرأى الذى كونته عنهما أقف موقف الأقلية الضئيلة ، فسرنى أن أجد انسانا آخر يتفق معى فيه .

ثم أتت لحظة رهيبة لكلينا .

ذلك أننا سمعنا قرعا على الباب يشبه قرع زائر لا قرع موزع البريد . وقلت « عجبا ، لِم لم نغلق الباب الخارجى منعا للزائرين ؟ لعله أبوك . ولكن لا يعقل أن يأتى فى مثل هذا الوقت ! أدخل حالا الى حجرة نومى » .

ومضيت الى البـاب ، فلم يخب ظنى ، فقد وجدت أمامى ثيوبولد وكرستينا . ولم أستطع أن أمنعهما من الدخول ، واضطررت الى الاصغاء الى روايتهما للقصة ، وكانت تتفق فى جوهرها مع رواية ارنست . كانت كرستينا تبكى بمرارة — وكان ثيوبولد هائجا مائجا . وبعد نحو عشر دقائق أكدت لهما خلالها أنه ليس عنـدى أقل فكرة عن مكان وجـود ولدهما ، صرفتهما جميعا . ورأيت أنهما ينظران فى ريبة الى العـلامات الواضحة الدالة على أن شخصا كان يتناول الافطار معى ، ثم انصرفا فى شيء من التحدى ، ولكننى تخلصت منهما ، وخرج ارنست المسكين ثانية وهو يبدو شاحب الوجه مرتاعا شديد الانزعاج . لقـد سمع أصواتا ، ولكن لا أكثر ، ولم يكن مطمئنا الى أن العدو لن يتغلب علىّ . وأغلقنا الباب الخارجى الآن . وبعد قليل بدأ يستعيد هدوءه .

وبعد الافطار ناقشنا الموقف . وكنت قد أخذت دولاب ثيابه وكتبه من بيت مسز چب ، ولكننى تركت الأثاث ، والصور ، والبيانو ، وأذنت لمسز چب باستعمالها حتى تستطيع أن تؤجر الحجرة مفروشة بدلا من أن تتقاضاه أجرا على العناية بالأثاث . وحالما سمع ارنست بأن دولاب ثيابه قريب أخرج منه سترة كان يرتديها قبل أن يرسم ، ثم لبسها توا ، وبدا لى أحسن مظهرا مما كان .

ثم تحدثنا فى أمر مركزه المالى . وكان قد أخذ من پراير عشرة جنيهات قبل القبض عليه بيوم أو يومين ، بقى منها فى كيس نقوده بين سبعة جنيهات وثمانية حين دخل السجن ، وقد ردّت اليه هذه الجنيهات وهو يغادره . وكان دائما يدفع ثمن كل ما يشتريه نقدا ، لذلك لم يخصم منها شيء وفاء لديون عليه . أضف الى هذا أنه يملك ثيابه وكتبه وأثاثه ، وهو يستطيع كما قلت أن يأخذ من أبيه مائة جنيه اذا أراد أن يهاجر ، ولكنا اتفقنا على أن من الخير رفض هذا العرض (لأنه أقنعنى برأيه) وكان هذا كل ما يعرف أنه يملكه .

وذكر لى أنه ينوى استئجار مسكن غير مفروش فى سطح أهدأ منزل يستطيع أن يجده ، بأجر قدره ثلاثة شلنات فى الأسبوع أو أربعة ، ثم يبحث بعد ذلك عن عمل عند خياط . ولم يكن يهمنى كثيرا بأى شيء يبدأ ، لأننى كنت واثقا من أنه بعد قليل سيشق طريقه الى شيء يلائمه اذا استطاع أن يبدأ بأى شيء كائنا ما كان . وكانت الصعوبة فى كيفية توفير هذه البداية . فلا يكفى أنه قادر على تفصيل الثياب وخياطتها — أى أن له أدوات الخياط كما يقولون ، انما يجب أن يوضع فى دكان خياط ، وأن يرشده بعض الوقت انسان يعرف كيف يساعده ، وفى أى النواحى يساعده .

وقضى بقيه يومه فى البحث عن حجـرة سرعان ما وجـدها ، وفى التعود على الحرية . وأخذته فى المساء الى المسرح الأولمبى حيث كان روبسن يمثل فى مهزلة ضاحكة عن مكبث ، وكانت مسز كيلى — ان لم تخـنى ذاكرتى — تلعب دور ليدى مكبث . وفى المنظر السابق لقتل الملك ، قال مكبث انه لا يستطيع أن يقتل دنكن حين رأى حذاءه على عتبة الحجرة . ووضعت ليدى مكبث حدا لتردد زوجها بأن أخذته تحت ابطها وحملته بعيدا عن المسرح وهو يرفس ويصرخ . وضحك ارنست حتى انهمـرت دموعه . وقال عن غير قصد « ما أسخف شكسبير وأتفهه بعد هـذا » . وذكرت ما قاله عن كتاب المأساة اليونانيين فازداد اعجابى به .

وفى الغد شرع يبحث عن عمل ، ولم أره الا حوالى الساعة الخامسة حين أتى وقال انه لم يوفق . وحدث هذا فى اليـوم الثـانى والثالث ، اذ كان أينما ذهب لقى الرفض ، وكثيرا ما أمر صراحة بأن يخرج من الدكان ؛ واستطعت أن أرى من سيمائه — وان لم يصرح بشىء — أنه بدأ يخاف ، وبدأت أفكر أن من واجبى أن أخف لنجدته . وقال انه بحث عن عمل فى أماكن كثيرة وانه كان دائما يسمع القصة نفسها ، وانه وجد أن من اليسير أن يستمر الانسان فى طريقه القديم ، ولكن من العسير جدا أن يشق له طريقا جديدا .

وتحدث الى بائع السمك فى لذر لين — حيث ذهب ليشترى رنجـة يتناولها مع الشاى — حديثا عارضا كأنه مدفوع بحب الاستطلاع لا بأى دافع مصلحى . وقال البائع « بع ، فان أحدا لا يصدق ما يمكن أن يباع بالبنس ونصف البنس اذا عرفت طريق العمل الصحيح . اليك المحار مثلا — ففى ليلة الأحد الماضى بعت أنا وابنتى الصغيرة ايما هذه بسبعة جنيهات بين الساعة الثامنة والحادية عشرة والنصف . وكل ما بعناه تقريبا كان بالبنس

والبنسين ، وبعضه بنصف البنس وان لم يكن كثيرا . وكان البخار هو الذى خدمنا . فقد ظللنا نغلى على المحار ، وكلما تصاعد البخار قويا من الحجرة الى الرصيف كان الناس يقبلون على الشراء ، وكلما تناقص البخار قل المشترون ؛ لذلك طفقنا نغلى على المحار المرة بعد المرة حتى بعناه كله . وهذا هو السر ، فاذا عرفت عملك جيدا استطعت أن تبيع ، وان لم تعرفه فسرعان ما تفسد هذا العمل . نعم ، لولا هذا البخار لما بعت بعشرة شلنات من أول الليل لآخره » .

وجعلته هذه القصة ، وكثير من مثيلاتها مما سمعه من غير هذا البائع ، يزداد تصميما على أن يغامر باحتراف الخياطة باعتبارها المهنة الوحيدة التى يعرف عنها شيئا على الاطلاق ؛ ومع ذلك فها هو ذا قد أنفق ثلاثة أيام أو أربعة ، وما زال العمل يبدو بعيدا عن متناوله بعده الأول .

وقمت الآن بما كان ينبغى أن أقوم به من قبل ، أعنى أننى زرت خياطى الذى كنت أتعامل معه أكثر من ربع قرن ، واستشرته فى الأمر . فصارحنى بأن خطة ارنست ميئوس منها . قال مستر لاركنز — وهو اسم خياطى — « لو أنه بدأ فى الرابعة عشرة لكانت خطته مجدية ، ولكن ما من رجل بلغ الرابعة والعشرين يستطيع أن يحتمل العمل فى مصنع مملوء بالخياطين ؛ فهو لن ينسجم مع العمال ولن ينسجم العمال معه ؛ ولا تستطيع أن تتوقع منه أن يكون لطيفا أنيسا معهم ، ولا تستطيع أن تتوقع من زملائه العمال أن يحبوه ان لم تكن هذه حاله . ولابد للرجل أن يكون قد انحدر نتيجة للشراب أو لميله الطبيعى للعشرة المنحطة — قبل أن يستطيع الانسجام مع أولئك الذين أتيح لهم تدريب مختلف جدا عن تدريبه » .

وأفاض مستر لاركنز فى حديثه ثم ختمه بأن أخذنى الى المكان الذى يشتغل فيه عماله . وقال لى « انه جنة اذا قارنته بمعظم الورش . فأى رجل راق يستطيع أن يطيق هذا الهواء فى ظنك أسبوعين ! » .

ورحبت بالخروج من الهواء الوخم الساخن بعد خمس دقائق ، ورأيت أن سجن ارنست لن تزعزع منه لبنة واحدة اذا ذهب واشتغل فى ورشة للخياطين .

وأنهى مستر لاركنز حديثه بالقول بأنه حتى لو كان الشاب الذى أرعاه صانعا أمهر مما هو على الأرجح ، لما استخدمه أى رب عمل مخافة أن يحدث تذمرا بين العمال .

وانصرفت وأنا أشعر أنه كان واجبا على أن أفكر فى كل هذا بنفسى ، وازدادت حيرتى وقلت لنفسى ألا يكون من الخير أن أعطى صاحبى بضعة آلاف من الجنيهات وأبعث به الى المستعمرات ، واذا أنا أجده عند عودتى الى المنزل حوالى الساعة الخامسة ينتظرنى وقد أشرقت أساريره ، وصارحنى بأنه وجد كل ما يريد .

الفصل الحادى والسبعون

ويبدو أنه كان يجوب الشوارع فى الليالى الثلاث أو الأربع الأخيرة — بحثا عن شيء يفعله فيما أحسب — عارفا على الأقل ما يريد الحصول عليه خيرا من كيفية الحصول عليه . ومع ذلك فقد كان هذا الذى يريده فى الواقع سهل العثــور عليه ، بحيث اقتضى العجز عن العثور عليه رجلا متعلما تعليما عاليا مثله . ومهما يكن من شيء فانه كان مذعورا ، فرأى الآن السباع حيث لا سباع ، وصدم وروع ، وخانته شجاعته ليلة بعد ليلة، ورجع الى مسكنه فى لايستال ستريت دون أن ينجز مهمته . ولم يكن قد أفضى الى بسره فى هذا الأمر ، ولم أكن سألته ماذا صنع بنفسه فى هذه الليالى . وأخيرا انتهى الى أنه سيزور مسز چب (وان كان هــذا أمرا مؤلما له) فقد خيل اليه أنها هى التى تستطيع مد يد المعونة اليه ان استطاع أحد ذلك . وكان يسير كاسف البال من السابعة الى نحو التاسعة . وأخيرا استقر رأيه على أن يمضى رأسا الى آشپت پليس ويعترف بكل شيء لمسز چب دون مزيد من الابطاء .

ولم يكن من بين جميع الأعمال التى تستطيع امرأة من بنات حواء أن تؤديها عمل أحب الى قلب مسز چب ، لو ترك لها الخيار ، من ذلك الذى فكر ارنست فى أن يفرضه عليها ؛ كما أننى لست أعلم أنه فى ذعره هذا وقنوطه كان يستطيع أن يفعل خــيرا مما نولى الآن . وكانت مسز چب ستسهل عليه جدا هذه المكاشفة بحزنه ؛ بل انها كانت ستلاطفه حتى تنتزعه منه قبل أن يعرف أين هو ؛ ولكن الأقدار كانت تعاكس مسز چب ، فتأجل

الاجتماع بين بطل قصتى وصاحبة بيته السابقة الى أجل غير مسمى ، لأنه لم يستقر على هذا الرأى ولم يسر أكثر من مائة ياردة فى اتجاه بيت مسز چب ، حتى دنت منه امرأة لتخاطبه .

وراح يتحول عنها كما تحول من قبل عن كثيرات غيرها ، فجفلت منه بحركة أثارت فضوله . انه لم يكد يرى وجهها ، ولكنه اذ صمم على القاء نظرة سريعة على هذا الوجه تبعها وهى تهرول بعيدا عنه ثم جاوزها ؛ ولما تلفت وراءه تبين أنها ليسـت سوى الن خادمة بيتهم التى طردتها أمه قبل ثمانى سنوات .

وكان خليقا به أن يعزو جفول الن الى السبب الحقيقى ، ولكن ضميره الشاعر بالاثم جعله يحسبها سمعت بعاره وأنها تشيح بوجهها عنه احتقارا لشأنه . ومهما كانت جرأة تصميمه على مواجهة العالم ، فان عزوفها عنه جاوز ما توقع . وصاح قائلا « ماذا ! أنت أيضا يا الن تتجنبيننى ؟ » .

وكانت الفتاة تبكى بمرارة ولم تفقه ما يقول . وقالت وهى تنتحب « أواه يا سيدى ارنست دعنى أذهب ؛ انك أطيب من أن تتحدث اليك نساء مثلى الآن » .

وقال ارنست « عجبا يا الن ؛ فما هذا الهراء الذى تتكلمين ، انك لم تدخلى السجن ، أليس كذلك ؟ » .

وقالت الن فى انفعال « أوه ، لا ، لا ، لا ، ليس الى هـذا الحد السيىء » .

وقال ارنست بضحكة مفتعلة « أما أنا فقد دخلته ، وخرجت منه منذ ثلاثة أيام أو أربعة بعد ستة أشهر من الأشغال الشاقة » .

ولم تصدق الن ، ولكنها نظرت اليه وهى تقول « رباه يا سيد ارنست »

ثم كفكفت دموعها لتوها . و « تحطم الجليد » بينهما كما يقولون ، فالواقع أن الن كانت قد سجنت مرات ، ومع أنها لم تصدق ارنست فان مجرد قوله انه سجن أشعرها بمزيد من الاطمئنان اليه . ذلك أن الناس عندها نوعان ، أولئك الذين دخلوا السجن ، وأولئك الذين لم يدخلوه . فأما النوع الأول فكانت تنظر اليه نظرتها الى زملاء والى مسيحيين ، أيا كانت درجة مسيحيتهم ، وأما النوع الثانى — باستثناء عدد قليل — فكانت تنظر اليهم فى ريبة لا تخلو تماما من الاحتقار .

ثم أخبرها ارنست بما حدث له فى الأشهر الستة الأخيرة ، فما لبثت أن صـدقته .

وقالت بعد أن تحدثا زهاء ربع الساعة « يا سيد ارنست ، يوجد مطبخ فى ذلك الجانب من الشارع يباع فيه لحم « الكرشة » المطبوخ بالبصل . وأنا أعلم أنك كنت على الدوام شديد الولع بهذا اللحم والبصل ؛ فلنمض الى هناك وتتناول قليلا منه ، وهناك نستطيع أن نتحدث خيرا من هنا » .

وهكذا عبر الاثنان الشارع ودخلا دكان لحم الكرشة ، وطلب ارنست عشاء .

وقالت الن بعد أن أفاقت وشعرت بالطمأنينة التامة مع بطل قصتى « وكيف حال أمك العزيزة المسكينة ، وأبيك العزيز يا سيد ارنست ؟ كم كنت أحب أباك حقا ، كان رجلا طيبا ، نعم ، وكذلك كانت أمك ؛ من حظ أى انسان أن يعيش معها » .

ودهش ارنست ، ولم يكن يعرف ماذا يقول . لقد توقع أن يجد الن ساخطة على الطريقة التى عوملت بها ، ميالة الى القاء اللوم فى انحدارها الى حالتها الراهنة على أبيه وأمه . ولكنها لم تسخط . وكانت ذكرياتها الوحيدة عن باترزبى ذكريات عن بيت وجدت فيه الكثير من الطعام والشراب والعمل

الذى لم يصنها كثيرا ، وبيت لا تقرّع فيه . فلما سمعت أن ارنست اختلف مع أبيه وأمه افترضت بطبيعة الحال أن الذنب فى هذا كله ذنب ارنست .

وقالت الن « يا لأمك المسكينة ! كانت على الدوام شديدة الولع بك يا سيد ارنست وكنت دائما ولدها المفضل ؛ اننى لا أطيق أن أفكر فى أى شىء يقع بينك وبينها . وأذكر الآن كيف كانت تدعونى الى غرفة الطعام وتعلمنى أصول الايمان . نعم كانت تفعل هذا ! أوه يا سيد ارنست ، يجب فى الحق أن تذهب وتصلح ما بينك وبينها ؛ حقا يجب عليك ذلك » .

وشعر ارنست بالأسى ، ولكنه كان قد قاوم فى بسالة شديدة يخلق بالشيطان معها أن يوفر على نفسه عناء محاولة النيل منه عن طريق الن فى أمر أبيه وأمه . وغير موضوع الحديث ، وأقبل الواحد منهما على صاحبه بعد أن أكلا اللحم وشربا أقداح الجعة . وكانت الن ، دون سواها ، الانسان الذى يستطيع ارنست التحدث اليه فى تحرر وانطلاق فى حالته هذه فأخبرها بما لا يستطيع فى ظنه أن يخبر به أحدا من الناس .

وختم حديثه بقوله « لقد تعلمت فى صباى يا الن — كما تعلمين — أشياء ما كان يجب أن أتعلمها ، ولم تتح لى قط الفرصة لتعلم ما يمكن أن ينفعنى » .

وقالت الن فى تأمل « ان السادة يفعلون هذا دائما » .

« اعتقد أنك على صواب ، ولكننى لم أعد من السادة يا الن ، ولست أرى لم يجب أن أفعل مثلهم بعد اليوم يا عزيزتى . أريدك أن تساعدينى على أن أكون شيئا آخر بأسرع ما أستطيع » .

« رباه ، ماذا تعنى بهذا يا سيد ارنست ؟ » .

وبعد قليل غادر الاثنان المطعم وسارا معا فى فتر لين .

وكانت الن قد مرت بظروف قاسية مذ تركت باترزبى ولكنها لم تترك عليها غير آثار ضئيلة .

ولم ير ارنست فيها سوى الوجه البسام النضر ، والخد المغموز ، والعيون الزرق الصافية والشفتين الجميلتين الشبيهتين بشفتى أبى الهول ، اللتين كان يذكرهما وهو صبى . كانت وهى فى التاسعة عشرة تبدو أكبر من عمرها ، أما الآن فقد بدت أصغر كثيرا ، ولقد بدا أنها ليست أكبر مما كانت حين رآها ارنست آخر مرة ؛ أما الظن بأنها هوت الى درك سحيق فكان يقتضى رجـلا أعظم خبرة بالدنيا من ارنست . فلم يخطر ببـاله قط أن فقر دولاب ملابسها سببه شدة ولعها بالمسكرات القوية ، وأنهـا قضت فى السجن فترة لا تقل فى جملتها عن خمسة أضعاف الفترة التى قضاها هو أو ستة . وانما عزا فقرها فى الملبس الى فضالها فى سبيل حياة شريفة ، وهو نضال أشارت اليه الن خلال العشاء غير مرة . وقد أعجبته وهى تقول ان قدحا من الجعة يكفى لادارة رأسها ، ولم تسمح لنفسها بأن تكره على شرب للقدح كله الا بعد الحاح شديد . وبدت فى عينه ملكا كريما هبط عليه من السماء ، وملكا كان الانسجام معه أيسر لأنه ملك قد هوى من سمائه .

واذ كان يسير معها مخترقا فتر لين قاصدا لايستول ستريت ، فكر فى فضل الله العجيب حين ألقى فى طريقه بالفتاة التى يغتبط لرؤيتها أكثر من جميع الناس ، والتى ما كان ليلقاها قط لولا الصدفة السعيدة ، بالرغم من أنها تسكن قريبا منه جدا .

والناس اذا دخل فى رءوسهم أن العلىّ القدير يلحظهم برعاية خاصة ، كان خيرا لهم على العموم أن يفتحوا عيونهم ويأخذوا حذرهم ، وليذكروا — اذا ظنوا أنهم يرون نوايا الشيطان أوضح مما يراها غيرهم — أنه أعظم منهم خبرة وأنه فى أغلب الظن يبيّت لهم شرا .

وفى أثناء العشاء طاف بذهنه خاطر هو أنه فى الن قد وجد أخيرا امرأة يستطيع أن يحبها حبا يرغبه فى العيش معها والزواج بها ، وكلما استرسلا فى الحديث والسمر ازدادت دوافع الاعتقاد بأن ما قد يعد حماقة فى الحالات العادية ، لا يعدّ كذلك فى حالته هذه .

انه لابد أن يتزوج بامرأة ؛ ذلك أمر مفروغ منه . وهو لا يستطيع أن يتزوج امرأة من الطبقة الراقية ، فهذا سخف ، ولابد له أن يتزوج امرأة فقيرة . نعم ، ولكن أيتزوج امرأة سقطت ؟ ألم يسقط هو نفسه ؟ ان الن لن تعود الى السقوط ، ونظرة واحدة اليها تكفيه للتأكد من هذا . وهو لا يستطيع أن يعيش معها فى الخطيئة الاّ أقصر فترة تلزم لاتمام زواجهما ؛ صحيح انه لم يعد يؤمن بالعنصر المعجزى فى المسيحية ، ولكن الفضائل المسيحية ، على الأقل ، ليست محل نزاع . ثم انهما قد يرزقان أطفالا فتلصق بهم وصمة الخطيئة فى هذه الحالة . فمن يستشير الآن الا نفسه ؟ لا داعى لأن يعلم أبوه وأمه بالأمر أبدا ، وحتى لو علما به فيجب أن يكونا شاكرين لزواجه من أى امرأة تسعده كما تسعده الن . أما أنه قد يعجز عن أن يعول أسرته ان تزوج ، فكيف يعول الفقراء أسرهم اذن ؟ ألا تعين الزوجة الحسنة زوجها على الحياة أكثر مما تكون كلا عليه ؟ واذا استطاع واحد أن يعيش استطاع اثنان ، أما أن الن تكبره بعامين أو ثلاثة ، فأى اهمية لهذا ؟

وانى أسألك أيها القارىء الكريم ، هل أحببت فى حياتك من أول نظرة ؟ فاذا كنت أحببت فدعنى أسألك كم من الزمن اقتضاك الاستعداد لنبذ كل اعتبار آخر عدا اعتبار الفوز بحبيبتك ؟ أو كم من الزمن كان هذا يقتضيك اذا لم تكن حريصا على أب أو أم ، أو على مال قد تخسره ،

أو جاه ، أو أصدقاء، أو ارتقاء فى المهنة ، أو غير ذلك ، واذا كانت حبيبتك خلوا مثلك من هذه العوائق كلها ؟

ربما اقتضـاك الأمر بعض الوقت لو كنت شـابا من طراز « چون ستيوارت مل » ، ولكن هب طبيعتك خيالية ، مندفعة ، مؤثرة للغير ؛ ساذجة بريئة ؛ وهبك رجلا جائعا تتلهف على شخص تحبه وتتكىء عليه ، على شخص تحمل همه ويعينك على حمل همك . وهبك قد تعثرت فى حظك ، وما زلت مهزوزا من أثر صدمة عنيفة ، ثم لاح فجأة أمام عينيك ذلك الأمل البراق ، أمل المستقبل السعيد ، ففى هذه الظروف كم من الزمن فى ظنك كنت تفكر قبل أن تقرر تلقف الفرصة التى ألقى بها الحظ فى طريقك ؟

أما بطل قصتى فلم يقتضه هذا القرار تفكيرا طويلا ، فقبل أن يجتاز الدكان الذى يبيع قديد فخذ الخنزير والبقر قرب قمة فتر لين ، كان قد أخبر الن بأن عليها أن تصحبه الى البيت وتعيش معـه حتى يستطيعا الزواج ، وهو ما سيفعلانه فى أول يوم يسمح به القانون .

وأحسب أن الشيطان قد ضحك فى سره واطمأن الى نجاح لعبتـه هذه المرة .

الفصل الثاني والسبعون

وأخبر ارنست الن بما لقى من عنت فى سبيل العثور على عمل .

فقالت له « ولكن لِمَ تفكر فى العمل عند خياط يا عزيزى ؟ ولم لا تستأجر دكانا صغيرا أنت نفسك ؟ » .

وسألها ارنست كم يكلفه هذا . وقالت الن انه يستطيع أن يستأجر بيتا فى شارع صغير على مقربة من حى « الفانت أند كاسل » مثلا بسبعة عشر شلنا أو ثمانية عشر فى الأسبوع ، ثم يؤجر من باطنه الطابقين العلويين بعشرة شلنات ، ويحتفظ بالردهة الخلفية وبالدكان . فاذا استطاع أن يدبر خمسة جنيهات أو ستة ليشترى بعض الملابس القديمة يزود بها دكانه ، أمكنهما أن يصلحاها وينظفاها ، فتصلح هى ملابس النساء ويصلح هو ملابس الرجال . وبعد ذلك يستطيع أن يصلح ويفصل الملابس الجديدة اذا وجد زبائن .

وبهذه الطريقة يمكنهما بعد قليل أن يكسبا جنيهين فى الأسبوع ؛ وقالت ان لها صديقة بدأت هذه البداية ، ثم انتقلت الآن الى دكان أفضل تكسب فيه خمسة جنيهات أو ستة فى الأسبوع على الأقل — وأنها هى التى كانت تقوم بمعظم البيع والشراء بنفسها .

هنالك لاح له نور جـديد حقا ، وكأنى به قد استعاد فجأة آلافه الخمسة التى فقدها ، وربما استعاد فوقها مزيدا بعد قليل . لقد بدت الن ملاكه الحارس أكثر مما كانت فى أى وقت مضى .

وخرجت وأحضرت شرائح رقيقة من فخذ الخنزير لافطارهما ، وطهتها بطريقة ألطف كثيرا مما يعرف ، ثم قدمت الافطار وصنعت له القهوة وقليلا

من الخبز المقمر اللطيف . وكان ارنست فى الأيام الأخيرة يطهو طعـامه ويخدم نفسه ، ولم يرض فى ذلك كله عن نفسه . وها هو ذا قد وجد نفسه فجأة مع من يقوم مرة أخرى على خدمته . لقد أشارت عليه الن بطريقة كسب معاشه حيث لم يعرف أحد كيف يشير عليه ، وأكثر من ذلك أنها كانت حلوة باسمة الثغر تعنى حتى بأسـباب راحته ، وترده من جميع النواحى التى تهمه تقريبا الى مركزه الذى فقده — أو على الأصح تضعه فى مركز يفضله عن مركزه القديم . فلا عجب أن أشرقت أساريره حين أتى ليشرح لى خططه .

ولقى بعض المشقة فى اخبارى بكل ما حدث . تردد ، واحمر ، وتلعثم ، وتعثر ، وبدأت الشكوك تساوره حين وجد نفسه مضطرا الى الافضـاء بقصته لانسان آخر . وشعر بميل الى أن يمرّ مرورا سريعا بجوانب منها ، ولكننى كنت أريد الوصول الى الحقائق ، لذلك أعنته على الافصاح عن المواضع السيئة فيها ، واستجوبته حتى أفضى الىّ تقريبا بالقصة كلها كما أوردتها .

وأرجو ألا أكون قد أبديت غضبى ، ولكنى سخطت . لقد بدأت أحب ارنست . وأنا لا أسمع بأن شابا ممن تعلقت بهم مقدم على الزواج دون أن أمقت زوجته العتيدة مقتا فطريا وان لم أرها قط — ولست أدرى لذلك سببا . وقد لاحظت أن معظم العزاب يشعرون هذا الشعور نفسه وان كنا بصفة عامة نحاول أن نخفى هذه الحقيقة . ولعل السبب هو علمنا بأنه كان ينبغى أن نتزوج . ونحن فى هذه الحالات نقول اننا مسرورون — ولكننى فى حالة ارنست لم أشعر بأننى مضطر الى أن أقول هذا ، وان جهدت فى أن أخفى غيظى . فلأن يضيع فتى يرجى من ورائه الكثير ، ويملك ثروة تعد الآن كبيرة ، لأن يضيّع نفسه على امرأة مثل الن أثار فىّ أشد الغيظ ، وقد ازداد غيظى لأن الأمر كله كان مفاجأة لى .

ورجوته أن يتريث فى الزواج من الن — على الأقل الى أن يعرفها فترة أطول . ولكنه أبى أن يستمع الىّ ؛ فقد أعطاها كلمته ، ولو أنه لم يعطها لذهب وفعل من فوره . وكنت الى الآن قد وجدته فى أكثر الأمور مطواعا سلس القياد ، ولكننى فى هذا الموضوع لم أستطع أن أفعل شيئا . كان انتصاره الحديث على أبيه وأمه قد زاد من قوته ، فلم يجد كلامى معه فتيلا . وكنت أستطيع أن أكاشفه بحقيقة مركزه ، ولكننى كنت عليما بأن هذا انما سيزيده تصميما على انفاذ مشيئته — لأنه اذا كان يملك كل هذا المال فلم لا يرضى رغباته ؟ لذلك لم أشر الى هذه النقطة ، ومع ذلك فكل ما استطعت أن أنصحه به كان قليل التأثير فى شاب يعتقد فى نفسه أنه اما غامل ، واما لا شىء .

والواقع أنه لم يكن هناك من وجهة نظره شىء معيب جدا فيما هو فاعل . لقد عرف الن وأغرم بها قبل ذلك بسنوات. وكان يعلم أنها من أسرة محترمة، وأنها كانت ذات خلق طيب ، محبوبة من الجميع فى باترزبى . كانت فى تلك الأيام فتاة مجدة نشيطة ذكية — والى ذلك جذابة جدا . فلما التقيا أخيرا مرة أخرى سلكت معه أحسن مسلك — بل انها كانت الأدب والاحتشام مجسمين . فأى عجب اذا قصر خياله عن ادراك ما أحدثته بالطبع تغيرات ثمانى سنوات فيها ؟ انه كان يعرف عن مآخذه الكثير جدا ، وهو فى الحب أفلس من أن يتأنق ، فلو أن الن كانت حقيقة هى الفتاة التى عهدها ، ولو أن مستقبله لم يكن فى الواقع خيرا مما يعتقد ، فلست أرى فيما انتوى ارنست حماقة أكثر مما فى نصف الزيجات التى تعقد كل يوم .

وايا كان الأمر ، فانه لم يكن لى حيلة الا الصبر على مالا بدّ منه ، فتمنيت لصاحبى الشاب حظا سعيدا ، وأخبرته أن فى استطاعته أن يأخذ

منى ما يحتاج اليه من مال يبدأ به العمل فى دكانه اذا لم يكن عنده ما يكفى. فشكرنى ، ورجانى أن أسمح له بأن يقوم بكل ما يلزم ثيابى من اصلاح ، وأن أحصل له على ما أستطيع من طلبات مماثلة ، ثم انصرف تاركا اياى لخواطرى .

وكان غضبى حين انصرف أشد منه وهو معى . لقد أشرق وجهه الصبيانى الصريح بسعادة قلما أشرقت عليه من قبل . فهو لم يكد يعرف للسعادة طعما باستثناء الفترة التى قضاها فى كمبردج ؛ وكانت حياته حتى فى الجامعة ملبدة بالغيوم كما تتلبد حياة انسان أغلقت فى وجهه الحكمة عند أعظم منفذ من منافذها . ولقد عركت من الدنيا وبلوت من أمر صاحبى ما يكفى لملاحظة هذا ، ولكن كان من المستحيل ، أو خيّل الىّ أن من المستحيل علىّ أن أمد له يد المعونة .

ولست أدرى أكان واجبا على أن أحاول هذه المعونة أم لا أحاولها ، ولكنى واثق أن صغار الحيوان جميعها كثيرا ما تحتاج الى معونة فى أشياء يفترض أى انسان ، بداهة ، أن لا صعوبة فيها . فقد يخيل الى المرء أن سبع البحر الصغير ليس فى حاجة الى أن يعلم كيف يعوم ، وأن الطائر ليس فى حاجة الى أن يعلم كيف يطير ، ولكن سبع البحر — عمليا — يغرق اذا خرج من عمقه قبل أن يعلمه أبواه كيف يعوم ؛ وكذلك الصقر الصغير يجب أن يعلم الطيران قبل أن يطير .

وأنا أسلم بأن هذا الجيل درج على الغلو فى تقدير ما يجلبه التعليم من خير ، ولكننا ونحن نحاول أن نغلو فى التعليم فى معظم الأمور ، أهملنا أشياء لا ضرر فى أن نبصر بها الصغار تبصيرا معقولا .

وأنا أعلم أن أهل هذا العصر جروا على القول بأن على الشباب أن يكتشفوا الحقائق بأنفسهم ، وهم فى أغلب الظن فاعلون اذا أتيح لهم من

المعاملة الأمينة ما يجنبهم العراقيل التى توضع فى طريقهم ، ولكنهم قلما يجدون هذه المعاملة الأمينة ، فهم على العموم يلقون معاملة خسيسة ممن يرتزقون ببيعهم حجارة صنعت فى أشكال وأحجام مختلفة متعددة لتقليد الخبز تقليدا لا بأس به .

وقد يتاح لبعض الشباب من الحظ ما يجعله يلقى القليل من العراقيل ويتـاح للبعض من الجرأة ما يجعله يذللها ، ولكن الذى يحدث للكثرة العظمى من هؤلاء الشباب أنهم لابد أن يكتووا بالنار فى سبيل الخلاص ، اذا أتيح لهم الخلاص اطلاقا .

وبينما كان ارنست معى كانت الن تبحث عن دكان عـلى ضفة التيمز الجنوبية بقرب حى الالفنت آندكاسـل ، الذى كان فى ذلك الوقت حياً جـديدا تقريبا ، يشق طريقه صعدا بين أحيـاء المدينة . فما واقت الساعة الواحدة حتى وجدت بيوتا عدة ليختار منها ارنسـت واحدا ، وقبل ان يهبط الليل كان الاثنان قد اختارا بيتهما .

وجاءنى ارنست بالن . وما كنت أريد رؤيتها ، ولكننى لم أستطع أن أرفض . كان قد أنفق بعض شلناته على ثيابها فأصبحت الآن حسنة الهندام ، بل انها بدت غاية فى الحسن والطيبة بحيث لم أدهش لتعلق ارنست بها اذا أخذت ظروف الحال الأخرى فى الاعتبار . وبالطبع أبغض كل منا الآخـر بغضا غريزيا من أول لحظة وقعت عليه فيها عينه ، ولكنه أخبر ارنست بأنه أعجب بالآخر اعجابا شديدا .

ثم أخذنى لأرى الدكان . وما أشبه البيت الخالى من سكانه بكلب ضال أو بجسد فارقته الحياة ، ما ان يهجره أهله حتى يحل الخراب بكل جـزء منـه ، وما يبقى عليه العفن والريح وعوامل الجو يطيح به صبية الشارع . وهكذا وجدت دكان ارنست الخالى مكانا قذرا كريها . ولم يكن

البيت عتيقا ، ولكن بنّاء رخيصا لفقه تلفيقا ، ولم يكن فى بنيته عافية أو قدرة على الاحتمال . فلا سبيل الى احتفاظه بصحته شهورا الا بأن يوفر له الدفء والهدوء . وقد مضى عليه شاغرا عدة أسابيع والقطط تدخله ليلا والصبيان يحطمون نوافذه نهارا . أما أرض الردهة فمغطاة بالأحجار والقاذورات ؛ وكان فى المنطقة كلب ميت قتل فى الشارع وألقى به فى أول مكان مكشوف مباح أمكن العثور عليه . وشممت فى أرجاء البيت رائحة قوية ، لم أستطع أن أعرف أهى رائحة البق أم الفيران أم القطط أم البالوعات أم هى خليط من هذا كله . أما النوافذ فأربطتها قلقه ، وأما الأبواب الضعيفة فمثبتة تثبيتا رديئا ؛ وأسفلها مخلوع فى أماكن عدة ، وفى الأرض ثقوب غير قليلة ؛ وكانت الأقفال واهنة فى مواضعها ، وورق الحجرات ممزقا قذرا ؛ والسلالم واهية يشعر الصاعد عليها أنها تهتز من تحته.

والى هذه العيوب كلها كان للبيت سمعة سيئة ، لأن زوجة الساكن الأخير شنقت نفسها قبل أسابيع غير كثيرة . وضعت المرأة أمام المدفأة رنجة ليتناولها زوجها مع الشاى ، وصنعت له قطعة من الخبز المقمر . ثم غادرت الحجرة كأنها عائدة بعد قليل ، ولكنها مضت الى المطبخ الخلفى وشنقت نفسها دون أن تنبس بكلمة . وهذا هو الذى جعل البيت يخلو طويلا على الرغم من موقعه الممتاز على ناصية الشارع . ولقد غادره الساكن الأخير عقب التحقيق فى الحادث مباشرة ، ولو كان المالك رممه لاستطاع الناس أن يتناسوا المأساة التى مثلت فيه ، ولكن سوء حالة البيت مضافا الى سوء سمعته منع من استئجاره الكثيرين ممن تبينوا كما تبينت الن ما له من مزايا تجارية كبرى . فمن الممكن أن يباع فيه أى شىء تقريبا ، ولكن اتفق أن المنطقة خلت من دكان لبيع الملابس القديمة ، فاجتمعت بذلك كل الأسباب لتزكى البيت ، باستثناء حالته القذرة وسمعته السيئة .

وحين رأيته خيل الى أننى أوثر الموت على أن أسكن فى بيت كريه مثله — ولكننى تذكرت أننى سكنت حى" التمپل طوال السنوات الخمسة والعشرين الأخيرة ؛ فى حين أن ارنست يسكن فى لايستول ستريت ، وقد خرج لتوه من السجن ؛ وقبل ذلك سكن فى آشيت پليس ، لذلك لم يكن يرى فى هذا البيت ما يفزعه بشرط أن يستطيع اقناع المالك بترميمه .

وكانت الصعوبة أن المالك لم تلن له قناة فى هذه النقطة . وانتهى الأمر بأن دبرت المال اللازم للقيام بجميع الترميمات ، واستأجرت البيت خمس سنوات بنفس الايجار الذى كان يدفعه الساكن الأخير ؛ ثم أجرته من باطنى لارنست مراعيا بالطبع أن يرمم فى صورة أفضل كثيرا مما يحتمل أن يرممه المالك .

وبعد أسبوع ذهبت الى البيت فوجدت كل شىء قد تغير تغيرا تاما بحيث لم أكد أتبين البيت . فقد طليت جميع الأسقف وبطنت الحجرات كلها بالورق ، ونزع الزجاج المكسور وركب بدله ، وجددت الأخشاب التالفة ، ودهنت النوافذ ودواليب الجدران وأبواب البيت . ورممت الأحواض ترميما كاملا ، وصنع فى الواقع كل شىء يمكن أن يصنع ، وبدت الحجرات الآن مشرقة بقدر ما كانت مقبضة حين رأيتها أخيرا . وكان مفروضا أن العمال الذين قاموا بالترميم قد نظفوا البيت قبل أن يتركوه ، ولكن الن دعكته بنفسها دعكة أخرى علوا وسفلا بعد انصرافهم ، فاكتسى ثوبا قشيبا وشعرت كأننى أستطيع أنا نفسى أن أسكنه ، وأما ارنست فكان من فرحته فى السماء السابعة ، وقال ان الفضل فى هذا كله لى ولالن .

وكان فى الدكان منضدة وبعض الأثاث ، فلم يبق الا أن يجلب ارنست بضاعة ويعرضها للبيع . وقال انه لا يستطيع أن يبدأ بشىء خير من بيع ثيابه الكهنوتية وكتبه ، لأنه وان كان الدكان معدا لبيع الملابس القديمة

بصفة خاصة ، فقد قالت الن انه ليس هناك ما يمنع من بيع بعض الكتب أيضا ، وهكذا تقرر أن يبدآ ببيع الكتب التى اقتناها أيام المدرسة وأيام الكلية بسعر شلن للمجلد الواحد فى مجموعها ، وقد سمعته يقول انه تعلم من عرض كتبه على منضدة أمام الدكان وبيعها أكثر مما تعلم من جميع سنوات الدرس التى أنفقها على استذكار محتوياتها .

ذلك أن الأسئلة التى كان يتلقاها عن وجود هذا الكتاب عنده أو ذاك علمته ما يروج من الكتب وما لا يروج ، وبكم يستطيع بيع هذا الكتاب وبكم ذاك . وبعد آن بدأ هذه البداية الصغيرة فى تجارة الكتب ، اهتم بحضور مزاداتها كما كان يحضر مزادات الملابس ، ولم يمض طويل وقت حتى أصبح هذا الفرع من تجارته لا يقل أهمية عن فرع الخياطة ، ولو دعته الضرورة الى أن يظل تاجرا لاقتصر عليه وحده ولاريب ، ولكن هذا سبق للحوادث .

وأسهمت فى حياته الجديدة اسهاما واشترطت عليه شرطا . ذلك أن ارنست أراد أن يطلق حياة السادة ثلاثا الى أن يحين الوقت الذى يستطيع فيه أن يشق طريقه صعدا من جديد . ولو ترك لنفسه لعاش مع الن فى الدكان والردهة الخلفية والمطبخ ، ولأجّر الطابقين العلويين طبقا لخطته الأولى . ولكننى لم أحب له أن يقطع ما بينه وبين الموسيقى والأدب والحياة المهذبة ، وخفت أنه اذا لم يوفر له ملاذ يستطيع أن يخلو اليه فانه لن يمضى عليه طويل وقت حتى يصبح البائع ولا غير . لذلك ألححت عليه فى أن آخذ لنفسى الطابق الأول من أمام ومن خلف ، وأن أؤثثهما بأثاثه الذى تركه عند مسز چب . واشتريت هذا الأثاث منه بمبلغ زهيد وأمرت بنقله الى مسكنه الحالى .

وذهبت الى مسز چب لأرتب هذا كله لأن ارنست لم يحب الذهاب الى

آشيت پليس ، وكنت أتوجس أن أجد الأثاث بيع ومسز چب رحلت . ولكن هذا لم يحدث ؛ فان المرأة مع كل أخطائها كانت غاية فى الأمانة .

وأخبرتها أن پراير استولى على كل نقود ارنست وهرب بها . وكانت تمقت پراير . فقالت « لم أعرف انسانا يبدو الجبن فى وجهه كپراير هذا ؛ ليس فى جسده كله عرق أمين . وكلما كان يأتى ليتناول الافطار مع مستر پوتنفكس صباحا كانت تحز فى نفسى الطريقة التى يتصرف بها . فهو لا يرضى عنى مهما فعلت . كنت أولا أقدم لهما البيض وقديد الخنزير ، فلم يحب هذا الصنف ؛ فقدمت سمكا ، فلم يحبه ، أو كان يقول انه غال جدا ، وأنت تعلم أن السمك اليوم أغلى مما كان فى أى وقت مضى ؛ ثم أتيته بقطعة من « المرتدلة » ، فقال انها تجعله يتقزز ؛ فجربت بعد ذلك أن أقدم له « السجق » فقال انه يثير اشمئزازه أكثر حتى من المرتدلة ؛ أواه ! كم كنت أذرع حجرتى وأغلى فى باطنى وأبكى ساعات ، وكل ذلك من أجل افطاره الحقير ؛ والسبب ليس مستر پوتنفكس ؛ فهو يحب أى شىء يقدم له » .

ثم واصلت حديثها قائلة « واذن فستأخذ البيانو . ما أجمل الألحان التى كان مستر پوتنفكس يعزفها عليه ؛ وكان منها لحن هو أحب الألحان الى . وكنت فى الحجرة حين عزفه مرة ، ولما قلت له « أوه يا مستر پوتنفكس ، هذا اللحن مثلى » قال لى « لا يا مسز چب ، ليس مثلك ، فهو لحن عتيق ، ولكن لا أحد يستطيع أن يقول أنك عتيقة » . ولكنه لم يقصد أى شىء من قوله هذا رعاك الله ، انما كان ذلك منه تلطفا عاديا » .

وغاظها زواجه كما غاظنى . انها لم ترده أن يتزوج ، ولم ترده أن يظل بلا زواج — على أية حال الذنب ذنب الن لا ذنبه ، وقالت انها تأمل أن يكون سعيدا فى حياته الزوجية . ثم ختمت حديثها قائلة « ولكن الأمر

لا هو بيدك ، ولا بيدى ، ولا بيده ، ولا بيدها . انما هى حظوظ الزواج كما يجب أن نسميها ، لأنه ليس هناك كلمة أخرى توصف بها غير هذه » .

وفى المساء وصـــل الأثاث الى مسكن ارنست الجديد ، فوضع فى الطابق الأول البيانو ، والمائدة ، والصور ، ورفوف الكتب ، وكرسيين بمسندين ، وجميع الأثاث الصغير الذى جاء به من كمبردج . أما الحجرة الخلفية فقد أثثت بالضبط كحجرة نومه فى آشبيت پليس — فقد اشترى أثاثا جديدا لمسكن العروسين فى الطابق الأرضى . أما حجرتا الطابق الأول فقد أصررت على الاحتفاظ بهما لنفسى ، على أن يستعملهما ارنست حين يشاء ، وألا يؤجر من باطنه أيا منهما حتى ولا حجرة النوم ، بل يحتفظ بها لنفسه ليستعملها اذا مرضت زوجته فى أى وقت ، أو اذا كان هو نفســه مريضا .

وفرغنا من هذه الترتيبات كلها بعد مغادرته السجن بأقل من أسبوعين. وشعر ارنست أنه ربط نفسه ثانية بالحياة التى كان يحياها قبل السجن — مع بعض فوارق هامة كانت فى صالحه الى حد كبير . فهو لم يعد من رجال الدين ، وهو على وشك الزواج بامرأة يتعلق بها كثيرا ، وهو قد فارق أباه وأمه الى الأبد .

صحيح أنه فقد كل ماله ، وفقد سمعته ، وفقد مركزه بوصفه فردا من أفراد الطبقة الراقية ، بل الواقع أنه اضطر الى أن يحـرق بيته ليسوى شواءه كما يقولون ، ولكن لو سألته أيؤثر أن يصبح ما هو الآن أم أن يعود الى ما كان قبل القبض عليه ، لما تردد لحظة فى تفضيل حاضره على ماضيه . واذا كان حاضره لم يمكن شراؤه الا بمعاناة كل ما عانى ، فانه جدير بهذا الثمن ، وهو على استعداد لمعاناة هذه الآلام كلها مرة ثانية اذا اقتضته الضرورة . وكانت خسارة ماله أسوأ ما منى به من خسائر ، ولكن

الن قالت انهما ولا شك سيوفقان ، وهى واسعة الخبرة فى هذا الباب . أما عن فقد السمعة فهو لا يعبأ به كثيرا ما دام قد بقى له من الناس اثنان ، الن وأنا .

ورأيت البيت عصر اليوم الذى فرغ فيه هذا العمل كله ، ولم يبق الا شراء بعض البضاعة والبدء ببيعها . ولما انصرفت تناول شايه ثم تسلل صاعدا الى قلعته — أعنى الطابق الأول الأمامى . وأشعل قصبة تبغه وجلس الى البيانو . ثم عزف هاندل ساعة أو نحوها ، وجلس الى مكتبه ليقرأ ويكتب . وأخذ كل عظاته وكل الكتب اللاهوتية التى بدأ يؤلفها يوم كان يشتغل بالدين وألقى بها الى النار ، واذ رآها تحترق أحس أنه تخلص من كابوس آخر . ثم أخذ بعض المقالات الصغيرة التى كان قد بدأ يكتبها فى النصف الأخير من حياته الجامعية فى كمبردج ، وبدأ يقصها ويكتبها من جديد . وفيما هو يشتغل فى هدوء بهذا العمل الى أن دقت الساعة العاشرة وأزف وقت النوم ، أحس أنه ليس الآن سعيدا وحسب ، بل سعيدا سعادة غامرة .

وفى الغد آخذته الن الى قاعات مزاد دبنهام ، فاستعرضا مجموعات الثياب المعروضة للفحص فى قاعة المزاد . وكان لالن من الخبرة ما يكفى لتبصيره بالثمن الذى تستحقه كل مجموعة منها ، وفحصت المجموعة تلو المجموعة وقدرت ثمنها ، وبعد وقت قصير جدا بدأ ارنست نفسه يكون فكرة لا بأس بها عما يمكن أن تباع به كل مجموعة ، وقبل أن ينتهى الصباح قدر اثنتى عشرة مجموعة بأثمان قالت الن أنه لو اشتراها بها فلن يكون مغلوبا .

ولم يكره عمله الجديد قط أو يجده مملا ، بل انه أحبه جدا ، والحق انه كان يحب أى شىء لا يرهق قوته الجسدية ، ويرجى من ورائه

الكسب . وأبت الن أن تدعه يشترى شيئا من هذا المزاد ، وقالت انه خير له أن يشهد مزادا واحدا أولا ويرقب سير الأسعار فعلا . فلما بدأ المزاد فى الساعة الثانية عشرة رأى المجموعات التى فحصها هو والن تبـاع ، وما ان اقتربت نهاية المزاد حتى عرف ما يكفى لتمكينه من المزايدة وهو فى مأمن اذا أراد فعلا أن يشترى . وهذا الضرب من المعلومات يكتسبه بسهولة من كان فى حاجة صادقة اليه .

ولكن الن لم ترده أن يشترى من المزادات — أو على الأقل لم ترده أن يشترى منها الكثير فى الوقت الحاضر . وقالت ان الشراء بالممارسة خير أنواع الشراء . فاذا كان عندى ثياب قديمة مثلا فعليه أن يشتريها من غسالتى ، وأن يتصل بغيرها من الغسالات اللائى يستطيع أن ينقـدهن أكثر قليلا مما يحصلن عليـه الآن ثمنا للمـلابس التى يعطيها اياهن سادتهن ، ويستطيع مع ذلك أن يحقق ربحا طيبا . واذا أراد السادة بيع ملابسهم فعليه أن يحاول اقناعهم بأن يبيعوها اياه . ولم يكن يحجم عن شىء ؛ ولعله كان يحجم لو أن لديه فكرة عما فى تصرفاته هذه من غرابة ، ولكن الجهل بشئون الدنيا ، هذا الجهل الذى دمر حياته الى الآن بدأ يعمل على شفاء نفسه بمفارقة سعيدة . ولو أن جنية خبيثة قصدت أن تلعنه فى هذه الناحية لفوتت على نفسها غايتها بغلوها . ولم يكن يعلم أنه يأتى أمرا فيه أى غرابة ، انما الذى علمه أنه لا يملك مالا ما ، وأن عليه أن يكسب قوته وقوت زوجه وقوت أسرة قد يرزق بها . وأكثر من ذلك أنه أراد أن يوفر لنفسه شيئا من الفراغ فى المساء يقرأ فيه ويكتب ويمارس عزف موسيقاه . ولو أراه قوم كيف يصنع خيرا مما صنع لشكر لهـم جميلهم ، ولكن الذى صنعه كان يبدو فى عينيه لا بأس به ؛ ففى نهاية الأسبوع الأول وجد الاثنان أنهما حققا ربحا صافيا قدره ثلاثة جنيهات .

وبعد أسابيع قليلة بلغ هذا الربح أربعة جنيهات ، وما ان وافى العام الجديد حتى ارتفع الى خمسة جنيهات فى الأسبوع .

وكان ارنست قد تزوج منذ شهرين ، لأنه تمسك بخطته الأولى فى الزواج من الن فى أول يوم يستطيع أن يتزوج منها شرعا . وقد تأخر هذا التاريخ قليلا نتيجة لتغيير المسكن من لاى ستول ستريت الى بلاكفرايرز، ولكنه تم فى أول يوم أمكن أن يتم فيه . ولم يكن ارنست يملك فى يوم من الأيام — حتى فى أوقات رخائه — دخلا يجاوز مائتين وخمسين جنيها فى العام ، فلو استطاع أن يحتفظ بجنيهاته الخمسة التى يربحها كل أسبوع لرده هذا من حيث الدخل الى وضعه القديم ، وهو وان كان عليه أن يطعم بدل الفم اثنين ، فان نفقاته فى غير ذلك من الوجوه ، بفضل ما طرأ على مركزه الاجتماعى من تغير ، اختزلت اختزالا جعل دخله ، فى جملته ، من الناحية العملية هو هو كما كان قبل ذلك بعام . وكانت خطوته التالية هى محاولة زيادته وادخار بعض المال .

والنجاح كما هو معلوم يتوقف الى حد كبير على النشاط والفطنة ، ولكنه يتوقف كذلك الى حد غير قليل على الحظ الخالص — أعنى على ظروف معقدة تعقيدا يجعل القول بأنها غير موجودة أيسر من محاولة تتبعها . فقد تشتهر احدى المناطق بأنها مرجوة الازدهار ، ومع ذلك تطفئها فجأة منطقة أخــرى ما كان أحد ليفكر بأن لها أملا فى الرواج . وربما حوّل تيار التجارة مستشفى للحميات مثلا ، أو جذبت هــذا التيــار محطة سكة حديد جديدة . والواقع أنه ليس فى الاستطاعة الاطمئنان الى قدر يذكر من المعلومات فى هذا الباب ، بحيث يحسن الا نحاول العلم بأكثر مما يجرى على ألسنة الناس جميعا ، ثم تترك الباقى للصدفة .

ويلوح أن الحظ — الذى لم يكن كثير العطف على بطل قصتى —

قد أخذ الآن يكلؤه بعين رعايته . فقد ازدهـرت المنطقـة ، وازدهرت بازدهارها تجارته . فما يكاد يشترى بضاعة ويعرضها فى دكانه حتى يبيعها بربح يتراوح بين الثلاثين والخمسين فى المائة . وتعـلم امساك الدفاتر ، وراقب حساباته بعناية ، متابعا على الفور أى نجاح يحرزه ؛ وبدأ يبتاع أشياء أخرى غير الملابس — كالكتب ، وأدوار الموسيقى ، وأشتات من الأثاث ، الخ .. ولست أدرى أكان الفضل للحظ ، أم للاستعداد التجارى، أم للنشاط ، أم للأدب الذى كان يعامل به زبائنه جميعا — ولكن الذى حدث ، وأدهشه هو أكثر مما أدهش جميع الناس ، أنه مضى قدما بأسرع مما توقع حتى فى أكثر أحلامه طموحا ، فما حلّ عيد الفصح حتى كانت قدمه قد رسخت فى تجارة تغل له دخلا يتفاوت بين أربعمائة جنيه وخمسمائة فى العام ، وهى تجارة يعرف كيف ينميها ويوسعها

الفصل الثالث والسبعون

وانسجمت الن وارنست غاية الانسجام ، ولعل الانسجام ازداد لأن الفارق بينهما كان كبيرا الى حد أن الن لم ترد أن ترتفع الى مستواه وأن ارنست لم يرد أن يرفعها اليه . كان شديد الكلف بها ، شـديد العطف عليها ، كان لهما مصالح يستطيعان رعايتها معا ، وسوابق عرف كل منهما الكثير منها ، وكان لكل منهما طبع رضى جدا ، وفى هذا الكفاية . ولم تبد الغيرة على الن لايثار ارنست الجلوس أكثر وقته — بعد الفراغ من عمل يومه — فى الطابق الأول الأمامى حيث كنت ألم به أحيانا . كانت تستطيع أن تأتى وتجلس معه لو شاءت ، ولكنها عـلى نحو أو آخر ، كانت تجد عموما من المهام ما يكفى لشغل وقتها فى أسفل الدار . وكان لهـا من الكياسة أيضا ما جعلها تشجعه على أن يقضى سهرة فى الخارج كلما شاء ، دون أن تبالى اطلاقا أن يصطحبها معه — وكان هذا يناسب ارنست كل المناسبة . وفى رأيى أنه سعد فى حياته الزوجية أكثر مما يسعد الأزواج عمـوما .

وكان يؤلمه غاية الألم أول الأمر أن يلقى أى صديق من أصـدقائه القدامى ، كما اتفـق أحيـانا ، ولكن سرعان ما انتهى هـذا ، اذ كانوا يتجاهلونه ، أو كان هو يتجاهلهم . لم يكن لطيفا أن يتجاهله صديق للمرة الأولى أو الثانية ، ولكن هذا التجاهل أصبح بعد ذلك أدعى للرضا منه للاستياء . فلما بدأ يرى أنه موفق فى عمله ، تضاءل اهتمامه بما قد يقـول الناس عن سوابقه . انها لمحنة أليمة حقا ، ولكن اذا كانت بنية الانسان

الخلقية والفكرية سليمة بفطرتها ، فليس هناك شيء يقوم خلقه أكثر من أن يتجاهله أصدقاؤه تجاهلا تاما .

وكان يسيرا عليه أن يحتفظ بمستوى منخفض من النفقة لأن ميوله لم تكن مترفة . كان يحب المسارح ، ويحب الخروج الى الريف فى الآحاد، ويحب التدخين ، ولكنه لم يتعلق بكثير غير هذا ، فيما عدا الكتابة والموسيقى . فأما حفلات الموسيقى العامة فكان يبغضها . كان يعبد هاندل ، ويحب أوفنباخ ، والألحان التى يرددها الناس فى الشوارع ؛ ولكن لا يحب شيئا بين هذين النقيضين . وهكذا لم تكلفه الموسيقى كثيرا . وأما المسارح فكنت أحصل له ولالن على ما يشاءان من تذاكر لها ، فلم يكلفهما الاختلاف اليها شيئا . وأما نزهات الأحد فكانت بندا صغيرا ؛ فبشلن أو شلنين يستطيع أن يشترى تذكرة ذهاب واياب الى مكان يبعد عن المدينة بعدا يتيح له أن يمشى مسافة طيبة وأن يغير نظام حياته تغييرا تاما طوال اليوم. وخرجت الن معه مرات قليلة أول الأمر ، ولكنها قالت ان هذه الرحلات فوق ما تحتمل ؛ وان لها صديقات قدامى تود أحيانا أن تلقاهن ، وأنهن قد لا ينسجمن معه انسجاما كبيرا ، فمن الخير له أن يذهب فى هذه النزهات وحده . وبدا هذا معقولا جدا ، وكان يناسب ارنست بالضبط ، فارتضاه من فوره ، ولم يتوجس خيفة من أخطار بدت لى واضحة جلية حين سمعت كيف كان موقفها من الأمر . على أننى لزمت الصمت ، وسار كل شيء على ما يرام حينا . وكانت الكتابة كما قلت احدى لذاته الكبرى . واذا وجدت انسانا يحمل معه كراسة رسم صغيرة ليرسم فيها باستمرار صورا سريعة فاعلم أنه أوتى موهبة الفن ؛ وقد تعوق نموه الصحيح فى فنه مئات الأشياء ، ولكن الموهبة موجودة رغم ذلك فيه . كذلك تستطيع أن تتبين الموهبة الأدبية فى انسان اذا وجدته يحمل مفكرة فى جيب صدرته يدون

فيها أى شىء يلفت نظره ، أو أى شىء جميل يسمع الناس يقولونه ، أو اشارة الى أية فقرة يرى أنها قد تفيده يوما . وكان ارنست يحمل معه هذه المفكرة على الدوام . وقد بدأ هذه العادة حتى وهو فى كمبردج دون أن يشير بها عليه أحد . وكان ينقل مذكراته هذه بين الحين والحين فى كراسة وجد نفسه مدفوعا حين تكاثرت المذكرات الى فهرستها فهرسة تقريبية وهو ماض فى نقلها . فلما اكتشفت هذا أيقنت أنه موهوب فى الأدب ، وحين رأيت مذكراته بدأت أعلق عليه آمالا كبارا .

ولكن ظنى فيه خاب أمدا طويلا . فقد عوقته عن التقدم طبيعة الموضوعات التى اختارها — وكانت بوجه عام موضوعات غيبية . وعبثا حاولت أن أبعده عنها الى موضوعات ألذ لجمهرة القراء . فاذا رجوته أن يجرب كتابة قصة صغيرة خفيفة ظريفة تحفل بما يعرفه الناس ويستحسنونه ، راح من فوره يعكف على بحث ليبين الأسس التى ترتكز عليها جميع المعتقدات.

قلت له « انك تضرب فى حديد بارد ، أو تنخس كلبا نائما . أنت تحاول أن تجعل الناس يستأنفون وعيهم بأشياء دخلت عند العقلاء منهم مرحلة اللاشعور فعلا . والناس الذين تريد اثارة تفكيرهم ليسوا خلفك كما تتوهم بل أمامك ، انك أنت المتخلف لا هم » .

ولكنه لم يستطع أن يرى هذا . وقال انه مشغول بمقال عن العبارة اللاتينية المشهورة التى قالها سان ڤنسنت دولرنس (*) ، وهى : « ذلك الموجود فى كل زمان ، وفى كل مكان ، وعند الجميع » . وزاد من غيظى أنه أثبت أنه كفء لأشياء أفضل ان أراد .

وكنت وقتها أشتغل بمهزلتى الصاخبة « جريزلدا الملول » ، وكانت

(*) St. Vincent de Lerins ونص العبارة باللاتينية quod semper, quod ubique, quod ab omnibus

الحيرة تشتد بى أحيانا بحثا عن مشهد من دنيا الأعمال أو عن موقف من المواقف ، فكان يمدنى بمقترحات كثيرة تميزت كلها بكثير من الفطنة . ولكنى لم أستطع مع هذا أن أقنعه بأن ينحى الفلسفة جانبا ، فاضطررت الى أن أتركه وشأنه فى هذا الأمر .

وظل اختياره لموضوعاته أمدا طويلا كما قلت من النوع الذى لم أستطع أن أرضى عنه . فلقد عكف على دراسة الكتاب العلميين والغيبيين ، على أمل أن يجد أو أن يصنع لنفسه « حجر فلاسفة » فى صورة نظام فلسفى متسق تمام الاتساق فى جميع الظروف ، لا يتعرض لأن تقلبه أى لمسة أو حركة ، شأن كل نظام ذاع الى اليوم بين الناس .

وطال تشبثه بهذا السراب الخداع ، حتى يئست منه ، وحكمت عليه بأنه ذبابة أخرى اقتنصتها قطعة من الورق مدهونة بمادة لزجة خلت حتى من ميزة الحلاوة ، ولكن ما كان أشد دهشتى حين أعلن فى النهاية أنه اقتنع، وأنه وجد ضالته .

وظننت أنه وفق مصادفة الى كشف جديد ، واذا هو ينبئنى بنبأ فرج عنى ، وهو أنه انتهى الى أنه ليس فى الامكان الوصول الى نظام يتسق اتساقا كاملا ، لأن أحدا لا يستطيع أن يجاوز ما وصل اليه الأسقف باركلى، فلا يمكن اذن أن توضع مقدمة أولى لا تحتمل الجدل اطلاقا . واذ وجد هذا شعر بالرضى كأنه وجد أكمل نظام يتصوره الانسان . وقال ان ما كان ينشده هو أن يستقر على احدى نتيجتين — أممكن وجود نظام أم غير ممكن ، فاذا كان ممكنا فماذا يكون هذا النظام . فلما وجد أنه ليس فى الامكان وجود نظام قائم على اليقين المطلق اقتنع .

ولم يكن عندى غير فكرة غامضة جدا عمن يكون الأسقف باركلى ، ولكنى شعرت بالامتنان له لأنه دفع عنا شر مقدمة أولى لا تحتمل الجدل . وأخشى أن أكون قد فهت بعبارة يفهم منها أنه بعد عناء كبير وصل الى

نتيجة يصل اليها المعقولون من الناس دون هذا الكد الكثير لأذهانهم .

فقال « أجل ، ولكنى لم أولد معقولا . فالطفل ذو القدرات العادية يتعلم المشي وهو فى عامه الأول أو الثانى دون أن يعرف الكثير عن هذا الأمر ؛ فاذا لم تتوافر له القدرات العادية فمن الخير له أن يتعلم بمشقة وجهد من ألا يتعلم على الاطلاق . وأنا آسف لأننى لم أكن أقوى مما أنا ، ولكن لم يكن أمامى الا أن أفعل ما فعلت » .

وبدا عليه من التواضع والوداعة ما شعرت ازاءه بالغيظ من نفسى لقولى ما قلت ، لا سيما حين ذكرت تربيته التى كانت عاملا كبيرا ولا ريب فى النيل من قدرته على اتخاذ موقف معقول من الأشياء . وواصل حديثه يقـول :

« لقد وضحت لى الأمور كلها الآن . فأمثال تاونلى هم وحدهم الذين يعرفون ما يستحق المعرفة ، وبالطبع لا يمكن أبدا أن أكون مثلهم . ولكن لكى يكون وجود أمثال تاونلى ممكنا لابد من « قاطعى حطب ومستقى ماء » — رجال يجب فى الواقع أن تمر المعرفة الواعية عن طريقهم قبل أن تستطيع الوصول الى أولئك الذين يستطيعون تطبيقها فطريا وفى يسر كما يستطيع أمثال تاونلى . وأنا قاطع حطب ، ولكنى اذا قبلت هذا المركز فى صراحة ولم أزعم أننى من طراز تاونلى ، لم يعد للأمر أهمية » .

وهكذا ظل متشبثا بالعلم بدل أن يتجه الى الأدب الخالص كما تمنيت، ولكنه اقتصر منذ الآن على البحث فى موضوعات بعينها قد نستطيع أن نزيد فيها معلوماتنا كما قال . واذ انتهى بشق الأنفس الى هذه النتيجة التى تتغلغل الى جذور المعرفة بكل ألوانها ، سكن مطمئنا الى مواصلة البحث عن المعرفة ، فسعى اليها منذ ذلك الحين ، بالرغم من جولاته فى ميادين الأدب الخالص بين الحين والحين .

ولكن هذا سبق للحوادث ، وقد يعطى القارىء فكرة خاطئة ، ذلك لأنه منذ البداية كان اهتمامه بين الحين والحين بميادين من الأصح وصفها بأنها أدبية أكثر منها علمية أو غيبية .

الفصل الرابع والسبعون

وبعد نحو نصف عام من افتتاحه دكانه بلغ توفيقه ذروته . بل لقد بدا أنه من المحتمل أن يمضى قدماً بسرعة لا تقل عن السرعة التى سار بها الى الآن ، ولست أشك فى أنه كان فاعلا لو أن النجاح أو عدمه توقف عليه هو وحده . ولكنه لسوء الحظ لم يكن الشخص الوحيد الذى يحسب له فى هذا الأمر حساب .

فذات صباح خرج ليحضر مزادات وترك زوجته أكمل ما تكون عافية ، منشرحة الصدر مشرقة الوجه على عادتها . فلما عاد وجدها جالسة على كرسى فى الردهة الخلفية ، وشعرها يغطى وجهها ، وهى تبكى وتنتحب كأن قلبها يوشك أن ينفطر . وقالت انها روّعت فى الصباح بمقدم رجل زعم أنه زبون ثم هددها ان لم تعطه أشياء من الدكان ؛ واضطرت الى ذلك لتنقذ نفسها من استعماله العنف والاكراه ، وقالت انها ظلت تعانى من نوبة هستيرية منذ انصرف الرجل . تلك كانت قصتها ، ولكن كلامها كان غير مترابط فتعذر على ارنست أن يفهم ما تقول . وكان يعرف أنها حبلى ، وظن أن لهذا فى الأمر دخلا ، فأراد أن يستقدم طبيبا لولا أن ألن توسلت اليه ألاّ يفعل .

وكل خبير بالسكارى كان يستطيع بنظرة أن يدرك حقيقة الأمر ، ولكن بطل قصتى لم يكن يعرف عن السكارى شيئا — أعنى لم يعرف شيئا عن سكر المدمنين منهم ، وهو شىء يختلف اختلافا كبيرا عن سكر شخص يشرب الخمر عرضا . ولم يخطر بباله قط أن زوجته يمكن أن

تسكر ، بل الحق انها كانت تثير ضجة كلما طلب اليهـا أن تشرب شيئا من الجعة الا أقل القليل . ولم تمس مطلقا الخمور القـوية ، ولم يكـن يعرف عن النوبات الهستيرية أكثر مما يعرف عن السكر ، ولكنه كان يسمع دائمـا أن الحوامل يتعرضن للاثارة والازعاج بسـهولة ، وأنهن كثيرا ما تعتريهن الهزات ، لذلك لم يدهش كثيرا لما رأى من أمرها ، وظن أنه أنهى الأمر بتسجيل هذا الكشف فى مذكراته ، وهو أن للأبوة الوشيكة جانبها المزعج كما أن لها جانبها المبهج .

كان التغيير الكبير الذى حدث فى حياة الن نتيجـة للقائها لارنست وزواجها به . قد كفّها فعـلا عن الشراب حينـا باخراجها عن عاداتها القديمة . والسكر الى حد كبـير عادة ، والعـادة الى حد كبير مرهونة بالبيئة ، بحيث أنك لو غيرت هذه البيئة تغييرا تاما فانك أحيـانا تتخلص تماما من السكر . وكانت الن تنوى أن تظل زاهدة فى الخمر بعد زواجها ، واذ لم تثبت من قبل على نوبة من الزهـد طويلة الى هـذا الحد ، فقـد اعتقدت أنها شفيت من ادمانها ، ولعلها كانت تشفى لو أنها لم تلق أحـدا من معارفها القدامى . بيد أنه حين أخذت حياتها الجـديدة تفقد جدتها ، وحين زارها معارفها القدامى ، أصبحت بيئتها الحاضرة أشبه بالماضية ، وهنا بدأت هى نفسها تصبح أشبه بما كانت عليه فى الماضى أيضا . وفى أول الأمر كانت تكتفى بأن تنتشى قليلا ثم تكافح لكى لا تنتكس ؛ ولكن المقاومة لم تجد ، وسرعان ما فقدت رغبتها فى الكفاح ، فلم يعد هدفها الآن الزهد فى الخمـر ، بل الحصـول على « الجن » دون أن يكشف زوجها أمرها .

وهكذا استمرت نوباتها الهستيرية ، وأفلحت فى أن تجعـل زوجهـا باقيا على وهمه بأن سببها هو الحمل . فكلما اشتدت النوبات ازداد اخلاصا

فى رعايته لها وحدبه عليها . وأخيرا صمم على أن يفحصها طبيب . وبالطبع أدرك الطبيب الموقف بنظرة واحدة ، ولكنه لم يقل لارنست شيئا الا فى حذر لم يتح له فهم التلميحات التى ضمنها الطبيب حديثه اليه . فلقد كان فيه من الاستقامة والواقعية ما منعه من فهم تلميحات من هـذا النوع . وعلّل نفسه بأن زوجته ستبرأ من علتها بمجرد الوضع ، ولم يشغله شاغل سوى العمل على راحتها جهد استطاعته الى أن يقبل هذا الوقت السعيد.

وكانت حالتها تتحسن عموما فى الصباح ، أعنى ما دام ارنست موجودا فى البيت ، ولكنه كان يضطر الى الخروج لشراء بضاعته ، فاذا عاد ألفاها فى الغالب وقد أصابتها نوبة أخرى بمجرد مغادرته البيت . وكانت أحيانا تضحك وتبكى نصف ساعة دون انقطاع ، أو ترقد على الفراش فى شبه غيبوبة ، فاذا عاد وجد أن الدكان قد أهمـل وأن شـغل البيت كله ترك دون أن ينجز . ولكنه كان يسلّم بأن هذا كله جزء من النظـام العـادى الذى تسـير عليه النسـاء الحوامل ، ولما وقع مزيد من نصيب الى من العمل على عاتقه شيئا فشيئا اضطلع به كله واحتمل أعباءه الفادحة دون تذمر . على أنه بدأ يشعر على نحو غامض شعورا أشبه بشعوره حين كان فى آشيت بليس ، أو رفبرو ، أو باترزبى ، وبدأ يفقد تلك القـدرة على رفع رأسه ليطفو فوق المحن ، وهى القدرة التى جعلت منه رجلا آخر فى الشهور الستة التى قضاها فى حياته الزوجية .

ولم يكن ذلك لكثرة أعماله المنزلية فحسب ، لأنه حتى أعمال الطهى، والتنظيف ، وفرش الأسرة ، واضرام النار ، أخذت تقع على عاتقه بعد قليل ، بل لأن تجارته لم تعد مزدهرة ازدهارها الأول . لقد كان يستطيع أن يشترى كما كان يشترى الى الآن ، ولكن الن بدت عاجزة عن البيـع كما كانت تبيع أولا . أما الحقيقة فهى أنها كانت تبيع شأنها فى المـاضى،

ولكنها تحتجز جزءا من حصيلة البيع لتشترى به الجن ، وتمادت فى هذا بحيث كان ينبغى حتى لعين أرنست المصدقة أن تلحظ كذبها . فاذا كانت حصيلة بيعها أوفر يوما ، أعنى اذا لم تر من السلامة أن تحتجز أكثر من قدر معين من الربح ، حصلت على المال منه بحجة أنها تتوحم على هذا الشيء أو ذاك ، وأن حرمانها منه ربما أضر بالجنين ضررا لا يمكن تلافيه.

وبدا كل هذا لأرنست صوابا ، معقولا ، لا مناص منه ، ومع ذلك رأى أنه فى أغلب الظن ملاق عنتا ومشقة الى أن تضع الن وليدها ، على أن كل شيء سينتهى عندها وتعود المياه الى مجاريها .

الفصل الخامس والسبعون

وفى شهر سبتمبر من عام ١٨٦٠ ولدت لأرنست بنت ، فكان فخورا بها سعيدا . وكانت ولادة الطفلة وما وجّهه الطبيب الى الن من حديث أشبه بالنذير قد أبعدها عن الخمر أسابيع ، وبدا فى الحق أن أحلامه على وشك التحقيق . وكانت نفقات ولادة زوجته ثقيلة ، فاضطر الى أن يجور على مدخراته ، ولكنه لم يشك فى أنه سيعوض هذا سريعا مادامت الن قد استعادت صحتها . والذى حدث فعلا أن تجارته انتعشت قليلا حينا من الزمن ، ومع ذلك لاح أن انقطاع توفيقه فى تجارته فترة قد قطع على نحو ما تعويذة الحظ السعيد الذى لازمه فى البداية ؛ على أنه ظل متفائلا رغم ذلك ، وراح يعمل ليلا ونهارا فى قوة ومضاء عزيمة ، ولكنه كف عن الموسيقى والقراءة والكتابة . وانقطعت نزهات الأحد ، ولولا أن الطابق الأول من البيت كان مؤجرا لى ، لفقد فيه معقله أيضا ، ولكنه قلما كان يستعمله ، لأن الن كانت مضطرة الى خدمة وليدها أكثر فأكثر ، واضطر ارنست نتيجة لذلك الى خدمة الن أكثر فأكثر .

وذات عصر بعد نحو شهرين من ولادة الطفلة ، عندما كان بطل قصتى التعيس قد بدأ يشعر بأمل أكبر ، ومن ثم بقدرة أعظم على حمل أعبائه ، عاد من مزاد فوجد الن فى نوبة هستيرية شبيهة بالتى وجدها عليها فى الربيع ، وقالت انها حامل مرة أخرى ، فصدقها ارنست على عادته .

وبدأت لتوها كل متاعب الشهور الستة السابقة من جديد ، وساءت

يوما بعد يوم . ولم يكن المال يوافيه بسرعة لأن الن كانت تغشه بقبضة عنه ، وبتصرفها تصرفا غير أمين فى البضاعة التى يبتاعها . فاذا وافاه ابتزته منه كمـا كانت تفعل من قبل بحجج بدا له أن البحث والاستقصـاء عن صحتها يكون عملا غير انسانى . وكانت القصة دائما هى هى لا تتغير . وبعد قليل بدأت ظاهرة جديدة فى الجو . ذلك أن ارنست ورث عن أبيه دقته وضبطه فى أمور المـال ؛ وكان يحب أن يكون على بينة ممـا هو مطالب بدفعه فورا مهما شق عليه دفعه ؛ ويكره أن يفاجأ بنفقات اذا قيل انها غير متوقعة فقد كان فى الامكان بل من الواجب توقعها . ولكن الذى حدث الآن أن مطالبات بدأت تقدّم له عن أشياء اشترتها الن دون علمه ، أو أشياء أعطاها نقودا من قبل لتبتاعها . وكان هذا تصرفا كريما يثير التقزز حتى فى نفس ارنست . فلما لامها ــ لا لأنها اشترت الأشياء ، بل لأنهـا لم تصارحه بما هى مدينة به — قابلته بنوبة هستيرية تلاها شجار . وكانت الآن قد نسيت تماما الأوقات العصيبة التى مرت بها يوم كانت تعيش على مواردها دون غـيرها فوبخته صراحة على أنه تزوجها . فى هـذه اللحظة سقطت القشور عن عينى ارنست كما سقطت من قبل حين قال له تاونلى « لا ، لا ، لا » . ولم يقل شيئا ، ولكنه أفاق وتنبه نهائيا الى أنه ارتكب خطأ بهذا الزواج . لقد عاودته لمسة كشفت له عن صميم نفسه .

وصعد الى قلعته المهجورة ، وارتمى على الكرسى ، وغطى وجهـه بيـديه .

وكان لا يزال يجهل أن زوجته تدمن الشراب ، ولكنه لم يستطع بعد ذلك أن يثق بها ، وأصـبح حلم السعادة أثرا بعـد عين . لقد أنقذ من الكنيسة — حقيقة أنه أنقذ بنـار ، ولكنه أنقـذ على أية حال — ولكن ما الذى يستطيع الآن أن ينقذه من زواجه ؟ انه ارتكب بزواجه الخطـأ

الذى ارتكبه بارتباطه بالكنيسة ، ولكن بعواقب أوخم مائة مرة . انه لم يتعلم شيئا من تجاربه ، لقد كان أشبه بعيسو — بائس من البؤساء الذين قسّى الرب قلوبهم ، والذين لا يسمعون وان كانت لهم آذان ، ولا يبصرون وان كانت لهم عيون ، ولا يجدون مكانا للتوبة وان التمسوها بدموع .

ولكن ألم يحاول على الجملة أن يتعرف طرق الله وأن يسلك فيها صادقا مخلصا ؟ الى حد ما ، نعم ، ولكنه لم يسر الى نهاية الشوط ، انه لم يضح بكل شىء فى سبيل الله . وهو يعلم ذلك علم اليقين ، لقد صنع القليل بالقياس الى ما كان يمكن وينبغى أن يصنع ، ولكن اذا كان الله يعاقبه من أجل هذا فهو اذن رب عمل صارم ، لا يفتأ ينقض من مكامنه على مخلوقاته التعسة . لقد قصد — حين تزوج الن — الى أن يتجنب حياة الخطيئة وأن يسلك السبيل الذى يعتقد أنه فاضل وحق ، وهو سبيل طبيعى جدا لمن كانت له سوابقه وبيئته ، ولكن الى أى مركز رهيب جرته فضيلته هذه ؟ أكان ممكنا لأى قدر من الرذيلة أن يزج به فى مأزق أسوأ من هذا ؟ وأى قيمة للفضيلة ان لم تجلب للانسان على الجملة السلام فى النهاية ، وهل يستطيع أى انسان أن يثق ، ثقة معقولة ، بأن الزواج جالب هذا السلام ؟ لقد بدا له أنه حين حاول أن يكون رجلا فاضلا ، كان يتبع شيطانا متخفيا فى ثياب ملاك من نور . ولكن اذا كان الأمر كذلك ، فأى أساس يستطيع المرء أن يرسى عليه قدمه ويخطو فى طمأنينة معقولة ؟

كان ما يزال من الحداثة بحيث لم يستطع أن يصل الى هذا الجواب « على فطرته السليمة » ولو ذكر له هذا الجواب لخاله غير جدير بأى انسان ذى مثل أعلى .

ومهما يكن من شىء ، فقد كان من الواضح أنه قضى على نفسه

الآن . كذلك كان شأنه طوال حياته ، اذا أشرق عليه شعاع من الرجاء في أي وقت ، فانما ليحجب توا — أجل ان السجن لأرحم من هذا ! فهناك على الأقل لم تكن تضنيه هموم المال ، وهي هموم بدأت تنيخ عليه بكلكلها الثقيل المزعج . على أنه ، حتى في ظرفه هذا ، أسعد مما كان في باترزبي أو في رفبرو ، ولن يرضى بالعودة الآن الى حياة كمبردج لو استطاع اليها سبيلا ، ولكن الموقف رغم هذا كله مظلم جدا ، بل هو في الحق ميئوس منه ، بحيث أحس أنه يشتهي من كل قلبه أن يستغرق في النوم على كرسيه ويموت ويستريح .

وبينما كان غارقا في تأملاته هذه يتطلع الى حطام آماله — لأنه تبين أنه لن ينهض من كبوته أبدا كما كان يحلم بالنهوض مادام مربوطا بالن ، اذا هو يسمع ضوضاء في أسفل الدار ، واذا جارة من جيرانه تصعد جريا وتدخل غرفته على عجل .

وصاحت المرأة « رباه يا مستر پونتفكس — بحقك انزل سريعا وأنجدنا . لقد أصيبت مسز پونتفكس بالرعشة — وحالتها سيئة » .

ونزل الرجل الشقي كما طلب اليه فوجد زوجته قد أصابها هذاء السكارى .

وتكشف له الآن كل شيء . وكان الجيران يحسبونه عالما بأن زوجته تسكر طوال هذا الوقت ، ولكن الن كانت من الدهاء ، وكان ارنست من السذاجة ، بحيث لم يخامره الشك كما قلت . وقالت المرأة التي استدعته « انها لتشرب أي شيء تستطيع أن تطلبه وتدفع ثمنه . » ولم يكد ارنست يصدق أذنيه ، ولكنه حين فحص الطبيب زوجته وهدأت قليلا ، مضى الى الحانة القريبة وتحرى عن أمرها ، وكانت نتيجة التحري أن انتفى المزيد من الشك . وانتهز صاحب الحانة الفرصة فقدم لبطل

قصتى كشف حساب بعدة جنيهات ثمنا لزجاجات من الخمر اشترتهـــا زوجته ، ونظرا لكثرة النفقات بسبب وضع زوجته ، وكساد تجارته ، لم يجد المـال الذى يسدد به هـذا الدين لأنه تجـاوز ما كان قد بقى من مدخراته .

ثم زارنى — لا ليطلب مالا ، ولكن ليخبرنى بقصته التعسة . وكنت قد لحظت طبعا أن هنـاك خطأ واعوجاجا ، واشتبهت فى حقيقة الأمر ، ولكننى لم آقل شيئا . وتباعدنا حينا لأن زواجه غاظنى ، وكان يعلم آننى مغيظ ، وان جهدت فى أن أخفى غيظى .

وصداقات الانسان يبطلها زواجه كما يبطل وصيته — ولكنها تبطل كذلك بزواج أصدقائه . وكان صدع الصداقة الذى يظهـر على الدوام بزواج أحد الفريقين قد أخذ يتسع سريعا ، كما يحدث دائما حتى يستحيل الى تلك الهوة العظيمة التى تقوم بين المتزوجين وغير المتزوجين ، وبدأت أترك فتاى الى قضاء لاحق لى ولا قدرة على التدخل فيه . والواقع أننى بدأت أشعر به وقد صـار عبئا علىّ أو كالعبء ، وما كان يهمنى هـذا كثيرا اذا استطعت أن أفيده ، ولكننىْ ضقت به حين عجزت عن افادته . لقد ارتكب غلطته ولابد له من تحمل نتيجتها . وأحس ارنست هذا كله فلم يقربنى الاّ نادرا ، حتى زارنى ذات مساء فى أواخر عام ١٨٦٠ وقصّ على متاعبه بوجه بائس جدا .

وحالما وجدت أنه لم يعد يحب زوجته صفحت عنه لتوى ، وعاودنى اهتمامى القديم به . فليس أحب الى قلب أعزب مزمن من أن يجد شابا متزوجا يتمنى لو لم يتزوج — لا سيما اذا كانت الحالة قد بلغت من السوء حدا لا يجد معه داعيا للتظاهر بأنه يتمنى عودة الميـاه الى مجاريها ، أو بتشجيع صاحبه الشاب على أن يحتمل متاعبه ما استطاع الى احتمالها سـبيلا .

وكنت شخصيا أميل الى أن يفترق الزوجان ، وقلت انني مستعد لأن أرتب لالن اعانة من عندى — وأنا أقصد بالطبع أن آدفعها من مال ارنست ، ولكنه أبى . وقال انه تزوج الن ويجب أن يحاول اصلاحها . وهو يكره هذا ، ولكن لابد له من أن يحاوله ، واذ وجدته شديد العناد كعادته اضطررت الى الرضوخ وان كنت قليل الثقة بالنتيجة . وغاظنى أن أراه يضيّع نفسه فى جهد عقيم كهذا ، وبدأت أشعر به عبئا علىّ من جديد . وأخشى أن أكون قد أظهرت له هذا ، لأنه عاد يتجنبنى حينا ، بل اننى ظللت شهورا كثيرة لا أكاد أراه على الاطلاق .

وظلت الن مريضة جدا بضعة أيام ، ثم تماثلت للشفاء تدريجا . ولازمها ارنست حتى تجاوزت مرحلة الخطر . فلما أبلّت كلف الطبيب أن يخبرها أنها لو أصيبت بنوبة أخرى كهذه فهى ميتة لا محالة ، وقد روعها هذا ترويعا حملها على أن تأخذ على نفسها العهد المقدس بالامتناع عن الخمر .

وهنا عاوده التفاؤل . وكانت اذا كفت عن الشراب تعود تماما كما كانت فى الأيام الأولى من حياتها الزوجية ، وكان بطبعه سريع النسيان للألم حتى لقد بات بعد أيام شديد الكلف بها كما كان . ولكن الن لم تستطع أن تغتفر له العلم بما علم . وكانت تعرف أنه واقف بالمرصاد ليحميها من التجربة ، ومع أنه بذل قصاراه ليوهمها بأنه لم يعد قلقا عليها ، فقد وجدت عبء ارتباطها برجل من الطبقة الراقية يزداد ثقلا كل يوم ، وازداد حنينها الى الحرية الطليقة من كل قيد ، حرية الحياة التى كانت تحياها قبل أن تلقى زوجها .

ولن أطيل الحديث فى هذا الشطر من قصتى . ففى خلال ربيع ١٨٦١ لم تحد عن الجادة — فقد أشبعت شهوتها للخمر فترة ، وكان فى هذا وفى الأثر الذى طبعه على نفسها تعهدها بالامتناع عن المسكر ، ما روّضها حينا

من الزمن . وسار العمل فى الدكان سيرا طيبا وتمكن ارنست من أن يغطى نفقاته . بل انه فى ربيع ١٨٦١ وصيفه ادخر قليلا من المال ثانية ، وفى الخريف وضعت زوجته ولدا — قال عنه الجميع انه جميل جدا . وسرعان ما تماثلت للشفاء ، وبدأ ارنست يتنفس فى حرية وكاد يغلب عليه التفاؤل ، واذا العاصفة تثور من جديد دون كلمة انذار . فقد عاد ذات مساء بعد نحو عامين من زواجه ، ووجد زوجته ملقاة على الأرض فاقدة الوعى .

منذ هذه اللحظة فقد رجاءه وبدأ ينحدر انحدارا واضحا . لقد دوّخته الأيام طويلا ، وعاكسه الحظ أطول مما يحتمل . ونال منه استهلاك السنوات الثلاث الأخيرة . كان مرهقا وان لم يكن مريضا بالفعل . وكان هابط المعنوية ، غير صالح لاحتمال المزيد من الأعباء .

وناضل حينا ليمنع نفسه من اكتشاف هذا الأمر ، ولكن الحقائق غلبته . وعاد يزورنى ثانية وأخبرنى بما وقع له . وسرنى أن الأزمة قد أتت ؛ وأسفت لأجل الن ، ولكن فرصة زوجها الوحيدة كانت فى الانفصال التام عنها . على أنه حتى بعد هذه النوبة الأخيرة لم يكن راضيا عن رأيى هذا ، وراح يهرف عن الوفاء لزوجته حتى الموت ، الى أن سئمت الاستماع اليه . وفى كل مرة كان يزداد تعبير الكآبة القديم ويعمق على وجهه ، وكدت أستقر على انهاء الموقف بضربة عنيفة مفاجئة ، كرشوة الن مثلا لتهرب مع رجل آخر أو شيء من هذا القبيل ، واذا المشكلة تحل نفسها كالعادة بطريقة لم أتوقعها .

الفصل السادس والسبعون

كان الشتاء عصيبا ، ولم يستطع ارنست أن يغطى نفقاته فيه الا ببيع البيانو . فبدا باتخاذه هذه الخطوة أنه قطع آخر حلقة تربطه بحياته الأولى ، وأنه تردّى نهائيا فى حياة البائع الصغير . وخيل اليه أنه مهما تردّى فان أمله لا يمكن أن يطول ، لأنه ميت لا محالة ان طال .

وكان يمقت الن الآن ، وعاش كلاهما فى افتقار صريح الى الانسجام ، ولولا طفلاه لهجرها ونزح الى أمريكا ، ولكنه لم يستطع أن يتركهما مع الن ، وأما أخذهما معه فلم يعرف السبيل اليه ، ولا ما هو فاعل بهما اذا وصل الى أمريكا . ولعله لو لم يفقد طاقته لأخذ الطفلين فى النهاية وهجر زوجته ، ولكن أعصابه كانت مهزوزة ، وهكذا مضت الأيام يتلو بعضها بعضا دون أن يفعل شيئا .

ولم يبق معه الآن سوى شلنات قليلة ، اذا استثنينا ثمن بضاعته الذى كان ضئيلا جدا ، ولعله كان يستطيع أن يحصل على جنيهات ثلاثة أو أربعة ببيع كتب الموسيقى التى يملكها وما بقى له من الصور وقطع الأثاث . وفكر فى أن يتكسب بقلمه ، ولكنه كان قد انقطع عن الكتابة زمنا طويلا ، ولم يبق فى رأسه أفكار . وهكذا لم ير أملا أنّى تطلع ببصره ، فلاح له أن نهايته قد اقتربت ان لم تكن أتت فعلا ، وكان يقف وجها لوجه أمـــام الفقر . فاذا رأى الناس يسيرون فى ثياب رثة أو حفاة لا يلبسون جوارب ساءل نفسه أسيضطر هو أيضا بعد شهور الى السير كما يسيرون . لقد احتوته يد القدر القاسية الغليظة فى قبضتها وراحت تجرّه الى أسفل فى

غير هوادة . ومع ذلك فقد مضى مترنجا فى طريقه وهو يسير سيرة كل يوم ، يبيع الثياب القديمة ، ويقضى أمسياته فى تنظيفها وترقيعها .

وذات صباح وهو عائد من بيت فى غربى لندن حيث كان يشترى ثيابا من أحد الخدم ، لفت نظره حشد صغير تجمع حول فضاء سوّر على عشب بجوار أحد مماشى « جرين پارك » .

وكان الصباح من أيام الربيع الندية الجميلة فى أخريات مارس ، والهواء يفوح بعطر غير عادى بالنسبة لهذا الوقت من العام ؛ وانجابت الكآبة برهة عن الوجوه — حتى عن وجه ارنست — لطلعة الربيع التى أشرقت على الأرض والسماء ؛ ولكنها عاودته سريعا ، وقال لنفسه وهو يبتسم فى حزن : « غيرى قد يبعث الربيع الأمل فى صدورهم ، أما أنا فلا أمل لى بعد اليوم » .

وانضم الى الحشد الصغير المتجمع حول السور والكلمات تدور فى عقله ، ورأى الناس يتطلعون الى ثلاث نعاج لهن حملان صغيرة جدا عمرها يوم أو يومان فقط ، وكانت قد وضعت فى حظيرة وقاية لها وحماية من سائر الخراف التى تسرح فى الحديقة .

وكانت الحملان جميلة جدا . وأهل لندن قلما تتاح لهم فرصة رؤية الحملان ، فلم يكن عجيبا أن يقف الجميع للتفرج عليها . ولاحظ ارنست أنه لم يبد بين الحشد من هو أكثر شغفا بها من صبى جزار كبير الجثة بادى البلاهة يتكىء على السور وقد حمل وعاء من اللحم على كتفه . وبينما كان ارنست يتطلع الى الصبى ويبتسم لما فى اعجابه من غرابة مضحكة ، شعر بأن رجلا فى سترة سائق يدقق النظر اليه ، وكان الرجل قد وقف هو أيضا ليتأمل الحملان فى اعجاب ، وكان متكئا على الجانب المقابل من السور . وتبين ارنست فيه على الفور چون سائق أبيه القديم فى باترزبى ، فمضى اليه لتوه .

وقال الرجل بلهجته الشمالية القارحة « عجبا يا سيد ارنست ، لقد كنت أفكر فيك هذا الصباح بالذات » وتصافح كلاهما بحرارة . وكان جون يشغل وظيفة طيبة جدا فى وست اند . وقال انه وفق توفيقا كبيرا مذ ترك باترزبى ، باستثناء العام أو العامين الأولين ، وقال فى عبوس ان ما لقيه خلالهما كاد يقضى عليه .

واستوضحه ارنست الأمر .

فقال جون « أنت تعلم أننى كنت دائما شديد التعلق بالصبية الن ، التى تذكر أنك جريت خلفها يا سيد ارنست وأعطيتها ساعتك . وأظن أنك لم تنس هذا اليوم ، أليس كذلك ؟ » وهنا ضحك ثم قال « لست أعلم هل الطفل الذى حملته معها من باترزبى ولدى ، ولكن هذا محتمل جدا . على أية حال فبعد أن تركت عملى عند أبيك بأيام كتبت لالن على عنوان اتفقنا عليه ، وأخبرتها أننى سأفعل ما ينبغى أن أفعل ، وهكذا كان ، لأننى تزوجتها بعد شهرين . يالله ، ما الذى حدث للرجل ؟ » — ذلك أنه وهو ينطق بالكلمات الأخيرة من قصته رأى ارنست وقد غاض الدم من وجهه واستند على السور .

وقال ارنست وهو يلهث « جون ، أواثق أنت مما تقول — أواثق أنك تزوجتها حقا ؟ » .

وقال جون « بالطبع تزوجتها أمام المسجل فى لتشبرى ، فى اليوم الخامس عشر من أغسطس ١٨٥١ » .

وقال ارنست « أعطنى ذراعك ، وخذنى الى بيكادللى ، وضعنى فى عربة ، وتعال معى حالا اذا سمح لك وقتك الى بيت مستر أفرتن فى حى التمپل » .

الفصل السابع والسبعون

لست أظن أن ارنست نفسه ابتهج أكثر منى حين اكتشف أنه لم يتزوج اطلاقا . على أن صدمة السرور أفقدته الحس لفرط شدتها . فهو حين شعر أن حمله أزيح عن عاتقه ترنح من خفة فى حركاته لم يعهدها ؛ كان موقفه قد تحطم تحطيما جعل ذاتيته تبدو محطمة كذلك ؛ وكان أشبه بانسان استيقظ من كابوس رهيب ليجد نفسه صحيحا معافى فى فراشه ، ولكنه لا يكاد يصدق أن الحجرة لا تزخر برجال مدججين بالسلاح على وشك الانقضاض عليه .

وقال لى « وأنا الذى كنت منذ ساعة واحدة أشكو من أنه لم يعد لى أمل فى الحياة . أنا الذى كنت خلال هذه الأسابيع الطويلة أسخر من الحظ ، وأقول انه وان بسم لغيرى لم يبسم لى قط . أجل ، لم يوجد انسان محظوظ نصف حظى » .

قلت « نعم ، لقد طعمت ضد الزواج وشفيت » .

قال « ومع ذلك فقد كنت شديد الكلف بها الى أن عكفت على الشراب » .

« ربما ، ولكن أليس الشاعر تنيسن هو القائل « لخير أن تكون أحببت وأخفقت من ألا تكون أحببت قط » ؟ » .

وكان جوابه « انك لأعزب عصىّ » .

ثم تحدثنا الى چون حديثا طويلا ، ونفحته بورقة ذات خمسة جنيهات لتنوي . وقال چون ان الن اعتادت الشراب فى باترزبى ؛ فقد علمتها

الطاهية ؛ وكان يعلم عنها هذا ؛ ولكنه كان مغرما بها غراما جعله يغامر ويتزوجها لينقذها من حياة التشرد آملا أن يستطيع حملها على الاستقامة ، وقد فعلت به ما فعلته بارنست — كانت له زوجة ممتازة ما دامت بعيدة عن الشراب ، ولكنها أصبحت زوجة سيئة جدا بعد ذلك .

وقال جون « ليس فى انجلترا كلها فتاة أجمل ولا أطوع ولا أحلى طبعا مما كانت ، وليس فى النساء أعرف منها بما يحبه الرجل ، وبكيفية اسعاده ، اذا استطعت أن تمنعها من الشراب ؛ ولكنك لن تستطيع ؛ ففيها من المكر ما يمكنها من الحصول عليه تحت بصرك وأنت لا تعرف . فاذا عجزت عن أن تنال مزيدا من متاعك لترهنه أو تبيعه ، فانها تسرق جيرانها . وهذا ما أوقعها فى المآزق أول الأمر حين كنت أعيش معها . ولولا علمى خلال الشهور الستة التى قضتها فى السجن بأنها ستخرج من السجن ثانية ، لكنت أشعر بالسعادة . فلما خرجت فعلا ، وقبل أن تقضى أسبوعا طليقة ، بدأت تسرق وتعبث ثانية — وكل ذلك لتحصل على المال الذى تسكر به . واذ رأيتنى عاجزا عن فعل شىء ، ووجدت أنها انما تقتلنى بسلوكها هذا هجرتها وجئت الى لندن وعدت الى عملى ثانية ، ولم أعرف ما حدث لها حتى أخبرتنى أنت ومستر ارنست بالأمر . وأرجو ألا يقول أحدكما أنه رآنى » .

وطمأناه بأننا سنكتم سره ، فانصرف وهو يردد كثيرا من عبارات الود لارنست الذى كان دائما شديد التعلق به .

وتناقشنا فى الموقف ، وقررنا أولا أن نبعد الطفلين عن أمهما ثم نتفق معها بشأن حضانتهما فى المستقبل ؛ وأما عنها هى ، فقد اقترحت أن نجرى عليها راتبا يبلغ جنيها فى الأسبوع مثلا يدفع لها ما دامت لا تثير المتاعب . ولم يعرف ارنست من أين يأتى لها بالجنيه كل أسبوع ، لذلك طمأنته بقولى

انى أنا الذى سأدفعه . وقبل أن تمضى ساعتان كنا قد أخذنا الطفلين ، وكانت الن على الدوام عديمة الاكتراث بهما ، وأودعناهما عند غسالتى ، وهي امرأة من النوع الطيب الشديد الحدب على الأطفال ، فتعلقت بهما وتعلقا بها على الفور .

ثم جاء دور هذه المهمة البغيضة ، مهمة الخلاص من أمهما التعسة . ووخز ارنست قلبه حين فكر فى الصدمة التى سيحدثها انفصالها عنه . وكان لا يفتأ يرى أن للناس عليه حقا بسبب خدمة غالية أدوها له أو ضرر بليغ ألحقه بهم ؛ ولكن الحالة هنا كانت من الوضوح بحيث لم تبد شكوك ارنست ووساوسه عسيرة المقاومة .

ولم أر داعيا لتعريضه لألم لقاء آخر بزوجته ، لذلك كلفت مستر أوترى بأن يدبر الأمر كله . وظهر أنه لم يكن بنا حاجة لتعذيب أنفسنا كثيرا بفكرة الألم النفسى الذى ستعانيه الن حين تعود منبوذة كما كانت . ذلك أن ارنست لقى مسز رتشردز — وهى الجارة التى استدعته الى أسفل الدار فى الليلة التى اكتشف فيها لأول مرة ادمان زوجته — فحصل منها على تفاصيل عن آراء الن فى الأمر . قالت المرأة انه لم يبد على الن أن ضميرها يؤنبها على الاطلاق ، فقد قالت « الحمد لله أخيرا ! » وهى وان كانت عليمة بأن زواجها لم يكن شرعيا ، فقد كان واضحا أنها تعتبر هذه النقطة مجرد تفصيل لا يستحق من أى انسان عناء الخوض فيه بتدقيق . وأما عن انفصاله عنها فقالت انه خير له ولها جميعا .

وواصلت الن حديثها قائلة « هذه الحياة لا توافقنى . فارنست طيب جدا بحيث لا يصلح لى ؛ انه يحتاج الى امرأة أفضل منى قليلا ، وأنا الى رجل أسوأ منه قليلا . وكان من الممكن أن ننسجم تماما لولا أننا عشنا زوجين ، ولكنى كنت ألفت منذ سنوات كثيرة أن يكون عندى مسكن

خالص لى مهما يكن صغيرا ، وأنا لا أريد ارنست أو أى رجل آخر أن يلزم مسكنى طوال الوقت . أضف الى ذلك أنه مستقيم أكثر مما يجب : ودخوله السجن لم يغيره قط — فهو ما يزال جادا كأنه لم يدخل السجن على الاطلاق ، وهو لا يحلف ولا يسب أبدا مهما يحدث ؛ وهذا يخيفنى منه ، فأسرف أكثر فى الشراب . ان أمثالنا نحن الفتيات المسكينات لا نريد أن نفاجأ بغتة ونحوّل الى نساء شريفات ؛ فهذا أكثر مما نطيق ، وهو يهز كياننا هزا ؛ انما الذى نريده هو صديق دائم أو صديقان يحميان من الموت جوعا ويلزماننا أن نكون مستقيمات فترة بين الحين والحين . فهذا غاية ما نطيق . وله أن يأخذ الطفلين ؛ فهو يستطيع أن ينفعهما أكثر منى ؛ وأما عن نقوده ، فله أن يعطى أو يمنع كما يشاء ؛ فهو لم يؤذنى قط ، وسأتركه وشأنه ؛ ولكن ان كان مصمما أن آخذ النقود ، فأظن أنه خير لى أن آخذها » . وقد أخذتها فعلا .

وقال ارنست لنفسه مرة أخرى حين تم هذا الترتيب « وأنا الرجل الذى حسب نفسه تعيسا ! » .

ويحسن بى أن أقول هنا كل ما يقتضى قوله بعد هذا عن الن . فقد ظلت فى السنوات الثلاث التالية تذهب بانتظام الى مكتب مستر أوترى صباح كل اثنين لتتسلم جنيها . وكانت على الدوام نظيفة الثياب تبدو هادئة جميلة الطلعة بحيث لا يمكن أن يخامر الشك انسانا فى سوابقها . وأرادت أول الأمر أن تأخذ راتبها مقدما أحيانا ، ولكنها بعد ثلاث محاولات فاشلة أو أربع — روت فى كل منها قصة مؤثرة جدا — أقلعت عن هذا وظلت تتسلم راتبها بانتظام دون أن تنبس بكلمة . ومرة ذهبت وفى عينيها كدمة زرقاء « سببها صبى ألقى حجرا فأصابها خطأ » ؛ ولكنها بدت على الجملة فى آخر السنوات الثلاث كما كانت تبدو فى أولها . ثم قالت انها

ستتزوج مرة أخــرى . وهنا قابلها مستر أوترى وأفهمها أنها ان فعلت فسترتكب جريمة تعدد الأزواج . وأجابت « سمّها ما شئت ، ولكنى راحلة الى أمريكا مع بِل صبى الجزار ، ونرجو ألا يقسو مستر پوتتفكس علينا ويقطع الراتب » . ولم يكن محتملا أن يفعل ارنست هذا ، وهكذا رحل الاثنان فى سلام . وأعتقد أن بل هو الذى أصابها بالكدمة فى عينها ، وأنها ازدادت حبا له لهذا السبب .

واستطعت أن أستنتج من شىء أو شيئين صغيرين أن الزوجين عاشا فى وفاق تام ، وأنها وجدت فى بل شريكا أنسب لها من چون ومن ارنست . ويتلقى ارنست فى عيد ميلاده عادة غلاف خطاب عليه طابع أمريكى فى داخله بطاقة عليها آية مزخرفة ، أو مقبض قماشي عليه حكمة ، أو علامة صغيرة أخرى من علامات الاعتراف بالفضل ، ولكن لا خطاب معها . وأما الطفلان فلم تعبأ بهما .

الفصل الثامن والسبعون

بلغ ارنست الآن عامه السادس والعشرين وبقى عام ونصف عام أو أكثر قليلا على تسلمه ميراثه . ولم أر داعيا لتسليمه هذا المال قبل التاريخ الذى حددته مس پوتتفكس بنفسها ؛ وفى الوقت ذاته لم أحب له أن يمضى فى ادارة دكان « بلاكفرايرز » بعد أزمته الراهنة . ولم أدرك الا الآن مدى ما عانى من عذاب ، ولا كيف جرته عادات زوجته المزعومة الى شفا الفقـــر .

حقيقة كنت قد لاحظت هذه النظرة الكليلة الحزينة الواهنة تستقر على وجهه ، ولكن كان بى من الكسل ، أو اليأس من مواصلة حرب ظافرة طويلة مع الن ، مالم يتح لى أن أبدى ما كان ينبغى من عطف ، أو أقوم بما كان ينبغى أن أقوم به من تحريات . ومع ذلك فلست أدرى ماذا كان فى استطاعتى أن أفعل ، لأنه ما كان ليفصله عن زوجته شىء غير كشفه ما كشفه بنفسه ، ولم يكن شىء لينفعه نفعا كثيرا ما دام مواصلا العيش معها .

ولكن أحسبنى كنت مصيبا ؛ وفى رأيى أن الأمور فعلا انتهت خـــير نهاية . لأنها تركت لتسوى نفسها — على أية حال سواء كانت نهايتها خيرا أو شرا ، فان الأمر كله كان فى عينى مضطربا قد فسد فلم أجرؤ على علاجه ما دامت الن باقية عـــلى مسرح الحوادث ؛ أما الآن وقد أجليت عنه فقد انتعش من جديد كل اهتمامى السابق بولدى فى العماد ، وأخذت أقلب فى ذهنى مرارا وتكرارا ما يحسن بى أن أصنع به .

وكان قد مضى الآن ثلاث سنوات ونصف على مجيئه الى لندن وبدئه حياته معتمدا على نفسه . ومن هذه السنوات قضى ستة أشهر قسيسا ، وستة فى السجن ، وعامين ونصفا يكتسب خبرة مزدوجة — بأساليب التجارة وأساليب الحياة الزوجية . وقد أقول انه أخفق فى كل شىء اضطلع به ، حتى بوصفه سجينا ؛ غير أن هزائمه كان فيها دائما من الشبه الكبير بالانتصارات ما أقنعنى بأنه جدير بكل جهــد يسعنى بذله فى سبيله ؛ وكان مبعث خوفى الوحيــد هو أن أتدخل فى شئونه حين يكون من الخير أن يترك وشــأنه . وعــلى الجملة انتهيت الى أن قضاءه ثلاثة أعــوام ونصفا يتدرب على الحياة الخشنة فيه الكفاية ؛ وقد أفاده الدكان كثيرا ؛ لأنه دبر له رزقا ولو يسيرا حين كان فى مسيس الحاجة للمال ؛ ولأنه ألزمه الاعتماد على نفسه ، وعلّمه أن يرى منافذ نافعة من حوله حيث لم يكن قبل شهور يرى غير عوائق لا يمكنه تخطيها ؛ ووسّع آفاق عطفه لأنه أفهمه الطبقات الدنيا ، ولم يقصر نظرته للحياة على النظرة التى يتخذها السادة فقط . فاذا تجول فى الشوارع ورأى الكتب معروضة على دواليب الكتب القديمة ، والتحف الصغيرة فى المتاجر ، والنشاط التجارى الكبير الذى تحفل به المدينة من حولنا ، فهمه كله وشارك فيه كله كما لم يكن ممكناً قط أن يفعل لولا أنه أدار دكانه بنفسه .

وطالما أخبرنى بأنه حين كان يسافر بالقطار فى طريق يخترق أحيــاء مأهولة بالناس ويطل على شارع بعد شارع كله بيوت قذرة ، كان يتساءل أى نوع من الناس يعيشون فيها ، وماذا يصنعون وبماذا يشعرون ، والى أى حــد يشبهونه فيما يصنع ويشعر به هو نفسه . قال أما الآن فهو يعرف كل شىء عن هذا . وأنا لست وثيق المعرفة بكاتب الأوديسة (وأقول بهذه المناسبة أنه فى أغلب ظنى كان قسيسا) ، ولكنه ولا ريب أصاب

حين أجمل خلق الرجل الحكيم المثالى عنده بأنه يعرف « عادات وحياة رجال كثيرين » ، فأى ثقافة يمكن أن تقارن بهذه الثقافة ؟ وكيف لا تبدو حياة المدرسة والجامعة له الآن أكذوبة ومفسدة قبيحة موهنة للقوى اذا قيست بحياته فى السجن وحياته خياطا فى بلاكفرايرز ؟ لقد سمعته يقول انه يؤثر أن يكتوى من جديد بكل ما اكتوى به من عذاب ، ولو ليكسب منه هذا البصر الأعمق بروح «البنتومايم» الاغريقى و « بنتومايم صرى » . ثم أى ثقة فى قدرته على السباحة لو ألقى به فى المياه العميقة أكسبتها اياه تجاربه فى السنوات الثلاث الأخيرة ؟

ولكننى ، كما قلت ، رأيت أن ولدى بالعماد قد خبر من تيارات الحياة التحتيّة القدر الذى يحتمل أن يفيده ، وأن الوقت قد حان ليبدأ الحياة بأسلوب أنسب لما ينتظره من مستقبل . لقد أرادته عمته أن « يقبّل التربة » كما يقولون ، ولقد قبلها تقبيلا عنيفا ؛ بيد أنى لم أحب فكرة انتقاله فجأة من مركزه بائعا صغيرا الى مركز صاحب دخل يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف من الجنيهات فى العام . فطفرة كهذه من حياة البؤس الى حياة الثراء فيها من الخطر ما فى السقطة من حياة الثراء الى حياة البؤس ؛ أضف الى ذلك أن الفقر مضن جدا ؛ فهو حالة أشبه بالحالة الجنينية ، يحسن بالمرء أن يمر بها اذا أراد صون تطوراته التالية ، ولكن من الخير له أن يصاب به اصابة خفيفة كما يصاب المرء بالحصبة أو الحمى القرمزية ، وأن يفيق منه فى وقت مبكر .

وما من انسان يكون فى مأمن من خسارة كل فلس يملكه فى هذه الدنيا الا اذا تلقى لطمة قاسية . وما أكثر ما أسمع الكهلات من النساء ، وأرباب الأسر الهادئين ، يقولون أن ليس بهم ميل الى المضاربة ؛ وأنهم لم يمسوا ولن يمسوا من أنواع الاستثمار الا أكثرها سلامة وأحسنها سمعة ،

وأما شركات المسئولية غير المحدودة ، فلا ، لا ! ثم يقذفون بأيديهم الى أعلى ويرفعون عيونهم استنكارا .

وأينما وجدت انسانا يتكلم بهذه الطريقة استطعت أن تتبين فيه فريسة سهلة لأول مغامر يصادفه . والواقع أنه يختم حديثه عادة بالقول انه على الرغم من كل حيطته الطبيعية ، ومن علمه بحماقة المضاربة ، فان هناك بعض الاستثمارات التى ينعتها الناس بالمضاربة ، ولكنها فى الحق ليست كذلك ، ثم يخرج من جيبه برنامج منجم للذهب فى كورنوول . ان المرء لا يدرك فداحة خسارة المال ، ولا يعرف كيف يخسره بسهولة أولئك الذين يجرءون على أن يحيدوا عن الجادة ، الا اذا خسر المال فعلا . ولقد تلقى ارنست لطمته حين عضه الفقر فى شبابه ، وتلقاها لطمة فيها من العنف ما لا يحتمل معه لرجل معقول أن ينساها . وقل أن يظفر انسان بنفحات من الحظ أعظم من هذه ، بشرط ألا يضار بطبيعة الحال ضررا لا شفاء له منه .

وأنا متحمس لرأيى فى هذا الموضوع تحمسا يجعلنى أود — لو أن الأمر بيدى — أن الحق بكل مدرسة مدرسا للمضاربة . فيشجع الأولاد على قراءة صحيفة « منى ماركت » (أى السوق المالية) و « ريلوى نيوز » (أى أخبار السكك الحديدية) ، وغيرهما من أفضل صحف المال ، ويقيمون سوقا للأوراق المالية فيما بينهم تقوم فيها البنسات مقام الجنيهات . ثم ندعهم يرون بأنفسهم كيف تكون النتيجة العملية لهذا الاندفاع فى محاولة الاثراء . ويمكن أن يمنح الناظر جائزة لأكثر المتعاملين فى السوق حذرا ، وأما الأولاد الذين يخسرون مالهم المرة بعد المرة فيجب أن يطردوا . وبالطبع اذا اتضح أن لأى ولد موهبة خارقة فى المضاربة وثبت أنه ربح مالا — فبها ونعمت ، ولنتركه يضارب دون تردد .

ولولا أن الجامعات هى أسوأ معلم فى هذه الدنيا لوددت أن أرى

كراسى للمضاربة تنشأ فى أكسفورد وكمبردج . على أننى حين أفكر فى أن الأشياء الوحيدة القيّمة التى تستطيع اكسفورد وكمبردج أن تجيدها هى الطهى والكركت والتجديف والألعاب الرياضية ، وكلها ليس لهـا كراسى ، أخشى أن ينتهى انشاء كرسى للمضاربة بألاّ يتعلم الشباب كيف يضاربون ولا كيف يمتنعون عن المضاربة ، وانما سيجعل منهم مضاربين فاشلين لا أكثر .

ولقد سمعت بحالة واحدة نفذ فيها الأب فعلا فكرتى هذه ، اذ أراد لولده أن يتعلم أن البرامج البراقة والمقالات النارية يجب ألاّ يوثق بها كثيرا ، فقدم له خمسمائة جنيه ليستثمرها على قدر علمه . وتوقع الأب أنه خاسر هذا المال ، ولكن هذا لم يحدث ، لأن الصبى كان شديد الحيطة وضارب فى حذر كثير فظل المال ينمو نموا مطردا الى أن استرد الأب الأصل والزيادة — دفاعا عن النفس كما قال مسرورا .

ولقد ارتكبت أخطائى فى مسائل المال حوالى عام ١٨٤٦ حين كان يرتكبها كل الناس ، وظللت بضع سنوات فى فزع وعذاب شديدين ، حتى اذا خرجت فى النهاية رابحا لا خاسرا (بفضـل النصيحة الطيبة التى أسداها الى السمسار الذى كان يستشيره أبى وجدى من قبلى) لم أعد أعبث بالمال مرة أخرى ، ولكنى سرت بعد ذلك على الصراط المستقيم جهد استطاعتى . وحاولت فى الواقع أن أحافظ على مالى أكثر مما حاولت أن استزيد منه . وقد فعلت بمال ارنست ما فعلت بمالى — أعنى أننى تركته وشأنه بعد أن استثمرته فى سندات « مدلاند » العادية طبقا لتعليمات مس پوتنفكس . وما كان لأى قدر من الجهد أن يزيد فى تركته نصف ما زادته دون أن أتجشم فى ذلك أى عناء على الاطلاق .

وحين بعت سندات مس پوتنفكس الحكومية فى نهاية أغسطس ١٨٥٠

كانت سندات مدلاند تساوى اثنين وثلاثين جنيها لكل مائة جنيه . وقد استثمرت مال ارنست كله وقدره خمسة عشر ألف جنيه بهذا السعر ، ولم أغير الاستثمار الا قبل الفترة التى نحن بصددها بشهور قليلة ، أعنى حتى سبتمبر ١٨٦١ . ثم بعت السندات بسعر مائة وتسعة وعشرين جنيها للسند ، واستثمرت المال فى سندات « لندن ونورث وسترن » العادية ، وقد نصحت بأنها محتملة الصعود أكثر من سندات مدلاند . واشتريت سندات « لندن ونورث وسترن » بسعر ثلاثة وتسعين جنيها لكل مائة جنيه ، وما زال ولدى بالعماد يمتلكها الآن ونحن فى سنة ١٨٨٢ .

وكانت الخمسة عشر ألف جنيه الأصلية قد أربت فى أحد عشر عاما الى أكثر من ستين ألفا من الجنيهات ؛ وفوق ذلك بلغ متجمد الأرباح الذى كنت بالطبع أعيد استثماره نحو عشرة آلاف جنيه ، وهكذا أصبحت ثروة ارنست تزيد على سبعين ألفا . وهو اليوم يملك تقريبا ضعف هذا المبلغ ، وكل هذا نتيجة لتركى المال فى مكانه دون تدخل فى أمره .

والمفروض ، بالرغم من ضخامة ثروته الآن ، أن تربى فى العام ونصف العام الباقيين على سن قصوره ، بحيث اذا بلغ رشده يكون له ايراد لا يقل عن ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه فى العام .

وكنت أريد له أن يتعلم امساك الدفاتر بطريقة قيد الايرادات والمصروفات . وكنت أنا نفسى فى شبابى قد اضطررت الى اتقان هذا الفن — وهو غير عسير ؛ واذ تعلمته أصبحت مغرما به ، وأنا أعده ألزم الفروع فى تعليم أى شاب بعد القراءة والكتابة . لذلك صممت على أن يتقنه ارنست ، واقترحت عليه أن يصبح وكيلا لى ، ومحاسبا ومديرا لمدخراتى ، وهذا هو الاسم الذى أطلقته على المبلغ الذى قيد فى دفاترى على أنه ازداد

من خمسة عشر ألفا حتى بلغ سبعين ألفا من الجنيهات . وأخبرته أننى سأبدأ فى انفاق الدخل بمجرد بلوغه ثمانين ألفا .

وبعد أيام من كشف ارنست أنه ما يزال أعزب ، وفيما هو بعد فى بداية شهر العسل فى حياة عزوبته المتجددة ، فاتحته بخطتى ، ورغبت اليه فى أن يتخلى عن دكانه ، وعرضت عليه ثلاثمائة جنيه فى العام أجرا على ادارة ثروته (اذا كانت فى حاجة الى أى ادارة) ، ولا حاجة بى الى القول بأنى جعلته يحمّل رأس المال هذه المئات الثلاثة فى كل عام .

واذا كانت سعادته فى حاجة الى شىء يكملها فقد تمت بهذا . فهاهو ذا فى ثلاثة أيام أو أربعة وجد نفسه وقد تحرر من أبشع وأشقى الروابط التى تخطر ببال انسان ، وفى الوقت نفسه انتقل من حياة الضنك الى الاستمتاع بدخل طيب بالنسبة له .

وقال مفكرا « جنيه فى الأسبوع لالن ، والباقى لى » .

قلت له « لا ، فسنحمّل رأس المـــال بجنيه الن الذى تتسلمه كل أسبوع . ويجب أن تأخذ الثلاثمائة خالصة لك كل عام » .

وقد استقر رأيى على هذا الرقم لأنه الرقم الذى حدده دزريلى لبطله كوننجزبى حين انحدر به حظه الى دركه الأدنى . وواضح أن مستر دزريلى كان يرى الثلاثمائة جنيه فى العام أقل ما يتوقع أن يعيش عليه كوننجزبى ويغطى به نفقاته الضرورية ؛ على أنه ظن أن بطله يستطيع بهذا المبلغ أن يدبر أمره عاما أو عامين . وكانت الأسعار قد ارتفعت فى سنة ١٨٦٢ ، وهى السنة التى أكتب عنها الآن ، ولم ترتفع بالقدر الذى ارتفعته بعد هذا ؛ ولكن نفقات ارنست فى سالف أيامه كانت أقل اسرافا من نفقات كوننجزبى ، وهكذا رأيت على العموم أن الثلاثمائة جنيه فى العام دخل مناسب له .

الفصل التاسع والسبعون

وواجهتنا الآن مشكلة الطفلين وما نصنع بهما . وقلت لارنست ان نفقاتهما يجب أن تحمّل على رأس المال، وأبنت له ضآلة الثغرة التى تحدثها فى دخلى كل هذه البنود المختلفة التى اقترحت أن أحمّله اياها . فراح يخلق الصعاب ، ولكنى أسكته بقولى ان المال آتى الى كله من عمته متخطيا اياه ، وذكرته بأنه كان هناك تفاهم بينها وبينى على أن أقوم بما أقوم به اذا اقتضته الضرورة .

كان يريد أن ينشأ ولداه فى الهواء النقى الطلق ، بين أطفال سعداء راضين ؛ ولكنه اذ كان ما يزال يجهل الحظ السعيد الذى ينتظره ، أصرّ على أن ينفقا سنواتهما الأولى بين الفقراء لا بين الأغنياء . فعارضته ، ولكنه كان مصمما ؛ فلما تذكرت أنهما طفلان غير شرعيين ، ساءلت نفسى ألا يمكن أن يكون فى رأى ارنست الخير للجميع فى النهاية . وكانا ما يزالان من الحداثة بحيث لم يهم كثيرا أين يقيمان ، ما داما يقيمان بين قوم لطفاء عطوفين وفى بيئة صحية .

قال « سأكون قاسيا على ولدى قسوة جدى على أبى ، أو أبى علىّ . فاذا كانا قد أخفقا فى جعل أبنائهما يحبونهما فلن أنجح أنا — وأنا أقول لنفسى اننى أحب أن أجعل طفلىّ يحباننى ، ولكن هكذا كان أبى وجدى يقولان لنفسيهما أيضا . ان فى استطاعتى أن أطمئن الى أن طفلى لن يعرفا كم كانا يكرهاننى لو أن لهما بى صلة كبيرة ، ولكن هذا قصارى ما أستطيعه . واذا لم يكن بدّ من أن أدمر آمالهما ، فلأفعل هذا فى وقت معقول قبل أن يبلغا من العمر مبلغا يشعرهما بهذا » .

وسرح بفكره قليلا ثم أضاف وهو يضحك :

« ان المرء يتشاجر أولا مع أبيه حوالى ثلاثة أرباع العام قبل أن يولد . وعندها يصر على أن يقيم لنفسه مسكنا منفصلا ؛ فاذا تم الاتفاق على هذا ، كلما كان الانفصال أتم طوال الحياة كان ذلك خيرا لكليهما » .

ثم قال فى جد أكثر : « أريد أن أضع الطفلين حيث ينعمان بالصحة والسعادة ، وحيث لا يسلمان الى شقاء الآمال الكاذبة » .

وتذكر فى النهاية أنه فى جولات الأحد شاهد غير مرة زوجين يعيشان على ضفة الماء وراء « جريفز اند » بأميال قليلة حيث يبدأ ساحل البحر ، فتوسم فيهما الكفاية للقيام بهذه المهمة . وكان للزوجين أطفال يكبرون بسرعة ، وبدا أنهم يزكون فى هذه البيئة ؛ وكان الأب والأم ينعمان والحق يقال بالجسم المكتمل والعيش المريح ، ويرجى للأطفال الذين يرعيانهم فرصة النمو كأحسن ما يتاح لهم وسط أى أسرة يعرفها ارنست .

وذهبنا لنرى الزوجين ، واذ كان رأيى فيهما لا يقل عن رأى ارنست ، فقد عرضنا عليهما جنيها فى الأسبوع نظير أخذهما الطفلين وتربيتهما لهما كأولادهما . ورحبا فورا بهذا العرض ، وبعد يوم أو يومين أحضرنا لهما الطفلين وتركناهما عندهما ونحن نشعر أننا صنعنا بهما خير ما نستطيع ، على الأقل فى الوقت الحاضر . وعندها أرسل ارنست بضاعته القليلة الى محل دبنهام ، وأخلى البيت الذى استأجره منذ عامين ونصف ، ثم عاد أدراجه الى الحضارة .

وكنت أتوقع أنه سيفيق الآن سريعا ، وخاب ظنى حين رأيت صحته تسوء بشكل واضح . بل خيل الى بعد حين أنه يبدو مريضا جدا ، فألححت عليه فى أن يصحبنى ليستشير طبيبا من أشهر الأطباء فى لندن . وقال الطبيب ان صاحبى الشاب ليس به مرض حاد ولكنه يعانى من اعياء عصبى أورثه

اياه عذاب نفسى شديد طويل ، لا يشفيه منه غير الزمن وحياة الرخاء والراحة .

وقال ان ارنست كان لابد منهارا بعد فترة ، ولكنه ربما كان مواصلا حالته بضعة أشهر أخر ، وان سرعة افاقته من التوتر هى التى صرعته الآن .

وقال الطبيب « هجّنه * حالا . ان التهجين هو الكشف الطبى العظيم الذى وصفه هذا العصر . هزّه وأخرجه عن نفسه بادخال شيء آخر فيها » .

ولم أكن أخبرته بأن عقبة المال ليست عندنا ذات بال ، وأظنه قدّر أننى لم أكن غنيا جدا فواصل حديثه قائلا .

« ان النظر ضرب من اللمس ، واللمس ضرب من الأكل ، والأكل ضرب من التمثيل ، والتمثيل ضرب من التجدد والانسال ، وهـذا هو التهجين — أن تدخل نفسك فى شيء آخر وتدخل شيئا آخر فى نفسك » .

وكان يتكلم ضاحكا ، ولكن كان واضحا أنه جاد . ثم مضى فى حديثه يقول :

« يأتى الىّ دائما أشخاص فى حاجة الى تهجين ، أو الى تغيير اذا فضلت هذه الكلمة ، وأنا أعلم أنهم ليس لهم من المال ما يمكنهم من السفر بعيدا عن لندن . وقد جعلنى هذا أفكر كيف أدخل عليهم عنصر التغيير هذا كأحسن ما أستطيع حتى ولو كانوا عاجزين عن السفر ، فكتبت قائمـة بملاهى لندن الرخيصة التى أوصى مرضاى بارتيادها ، ولا يكلف أحدها أكثر من شلنات قليلة أو يستغرق أكثر من نصف يوم أو يوم » .

وقلت له انه ليس هناك ما يدعوه لاعارة مسألة المال اهتماما فى حالتنا .

وقال وهو ما يزال يضحك « يسرنى أن أسمع هذا . فالمعالجون للداء

* انظر الفصل ٢٣

بمثله يستعملون الذهب دواء ، ولكنهم لا يعطونه الا بمقدار ؛ فاذا استطعت أن تعطى صديقك جرعات كبيرة من هذا الدواء أعنته على الشفاء السريع . على أية حال أرى أن مستر پونتفكس لا يقوى بعد على تحمل تغيير كبير كالذى يقتضيه السفر الى الخارج ؛ ويخيل الى من كلامك أنه لقى مؤخرا من التغيير ما لا يطيق أكثر منه . فلو سافر الى الخارج الآن لأصابه المرض على الأرجح قبل أن ينقضى أسبوع . فعلينا أن ننتظر حتى يستعيد طبيعته قليلا . وسأبدا علاجى بتجربة التغيرات اللندنية التى أصفها لمرضاى » .

وفكر قليلا ثم قال :

« لقد وجدت حدائق الحيوان مفيدة لكثيرين من مرضاى . وأنا أصف لمستر پونتفكس الثدييات الكبيرة علاجا . لا تدعه يفكر أنه يشهدها للعلاج ، ولكن ليذهب الى بيتها مرتين فى الأسبوع مدى أسبوعين ، وليمكث مع عجل البحر ، والخرتيت ، والفيلة ، الى أن يبدأ يملّها . وأنا أجد هذه الوحوش أفيد لمرضاى من أى أنواع أخرى من الحيوان . فالقردة ليست عنصر تغيير كبير لأنها لا تستثيرهم استثارة كافية . أما اللواحم الكبرى فغير جذابة ، وأما الزواحف فعديمة الفائدة لهم بل هى أسوأ ، وليست الحيوانات الجرابية أفضل منها كثيرا . كذلك الطيور فهى لا تفيد كثيرا اذا استثنينا الببغاوات ؛ وله أن يتطلع اليها بين الحين والحين ، ولكن عليه أن يختلط الآن ما استطاع بالفيلة وبفصيلة الخنزير بوجه عام .

« ولكى نجنبه الملل أوصيه بالذهاب مثلا الى الخدمة الصباحية فى « وستمنستر أبى » قبل أن يذهب الى حديقة الحيوان . ولا حاجة به الى أن يمكث فى الكنيسة بعد أن يسمع (تسبيحة الشكر) (*) . والاستماع الى التسابيح المسائية (**) قلما يفيد أمثاله ، ولا أدرى لذلك سببا . فدعه

(*) لحن Te Deum (**) Jubilates

يلم الماية عابرة بالكنيسة ، ويجلس هادئا فى « ركن الشعراء » حتى ينتهى الجزء الأهم من الموسيقى . وليفعل هذا مرتين أو ثلاثا ، لا أكثر ، قبل أن يذهب الى حديقة الحيوان .

« ثم أرسله فى اليوم التالى الى جريفز اند فى رحلة بالزورق . ولا يفتك أن تدعه يذهب الى المسارح فى السهرات — وليأت ثانية بعد أسبوعين » .

ولو كان الطبيب أقل شهرة فى مهنته لخامرنى الشــك فى أنه يعنى ما يقول ، ولكنى عرفته رجل أعمال لا يضيع وقته ولا وقت مرضاه . وحالما بارحنا عيادته ركبنا عربة الى ريجنتس پارك ، وأنفقنا ساعتين نتسكع حول بيوت مختلف أنواع الحيوان . ولست أشك فى أننى شعرت بما لم أشعر به من قبل ، ولعل السبب هو ما قاله لى الطبيب ، أعنى أننى كنت أتلقى تيارا من حياة جديدة يتدفق فىّ ، أو أستقى أساليب جديدة من النظر الى الحياة — وكلا الشيئين واحد ، ووجدت الطبيب مصيبا فى تقديره أن أكثر أنواع الحيوان افادة بوجه عام هى الثدييات الكبيرة ، ولاحظت أن ارنست تلبث طويلا بدافع فطرى أمامهــا ، ولم يكن قد سمع شيئا مما قاله لى الطبيب . وأما الفيلة ، لا سيما الفيل الرضيع ، فقد بدا لى أن ارنست يجرع جرعات كبيرة من حياتها ليجدد بها حياته وينعشها .

وتعشّينا فى الحدائق ، ولاحظت فى ابتهاج أن شهية ارنست بدأت فعلا تتحسن . ومنذ ذلك الوقت كلما وجدت نفسى منحرف المزاج ذهبت من فورى الى ريجنتس پارك فكانت الرحلة تنفعنى دائما . وأنا أذكر هذا هنا آملا أن يفيد بعض القراء من هذه الاشارة .

وبعد أن مر الأسبوعان تحسن بطل قصتى كثيرا ، بل أكثر مما توقع صاحبنا الطبيب . وقال الطبيب : « فى وسع مستر پونتفكس الآن أن يسافر

الى الخارج ، وكلما عجّل بالسفر كان ذلك أفضل ، وليمكث فى الخارج شهرين » .

وكانت هذه أول مرة سمع فيها ارنست بسفره الى الخارج ، فحدثنى عن عدم امكانى الاستغناء عنه هذه الفترة الطويلة . على أننى سرعان ما حللت له المشكلة .

قلت له « اننا الآن فى أول أبريل ، فاذهب الى مرسيليا حالا ، واركب الباخرة الى نيس . ثم تجوّل على ساحل الرڤييرا حتى تصل چنوا — ومن چنوا اذهب الى فلورنسة ، وروما ، ونابلى ، ثم عـد بطريق البندقية والبحيرات الايطالية » . وقال فى لهفة « وألا تأتى أنت أيضا معى ؟ » .

قلت اننى لا أمانع فى أن أصحبه ، وهكذا بدأنا نعد عدتنا فى صباح الغد ، فأكملنا كل شىء بعد أيام قليلة جدا .

الفصل الثمانون

سافرنا بقطار البريد الليلي وعبرنا القنال من دوفر . وكان الليل لطيفا وعلى البحر ينعكس ضوء القمر الساطع . وقال لى ارنست « ألا تحب رائحة الشحم على الآلة فى باخرة من بواخر القنال ؟ ألا توحى اليك بالأمل الكبير ؟ » ذلك أنه كان فى صباه قد ذهب ذات صيف الى نورمانديا مع أبيه وأمه ، فردّته رائحة الشحم الى أيام سبقت تلك التى بدأ فيها صدامه الموجع بهذه الدنيا الواسعة . « يخيل الى دائما أن من أفضل متع الرحلة الى الخارج وقع المكبس لأول مرة ، وبقبقة الماء حين تخبطه طارة السفينة أول مرة » .

وكان أشبه بالحلم أن ننزل من السفينة فى كاليه وندلف بمتاعنا فى مدينة غريبة وفى ساعة ألفنا أن نكون فيها فى فراشنا مستغرقين فى النوم ، ولكنا عمدنا الى النوم حال دخولنا عربة السكة الحديدية ، وأخذنا نهوّم حتى مررنا بأميان . وصحونا حين لاحت تباشير الصباح المشرق ، فرأيت ارنست يلتهم كل شيء نمر به فى فضول متوثّب مشرب بالعطف . فما رأى غلاما فى قميص يدفع عربته مبكرا على الطريق ميمما السوق ، ولا زوجة عامل الاشارات ترتدى قبعة زوجها ومعطفه وتلوّح بعلم أخضر ، ولا راعيا ينطلق بغنمه الى المراعى الندية ، ولا جسرا من أزهار الربيع المتفتحة يطالعنا فى مرورنا بأنفاق السكة الحديدية — ما رأى شيئا من هذا الا ّ التهمه كله فى متعة أعمق من أن توصف . وكان اسم القاطرة التى تجر العربات « موتزار » ، فأعجبه هذا أيضا .

وبلغنا باريس فى الساعة السادسة ، ولم نجد فى الوقت متسعا الا لجولة تخترق المدينة ثم أخذنا قطار الصباح السريع الى مارسيليا ، ولكن قبل أن يجىء الظهر كان صديقى الشاب قد نال منه التعب فأسلم نفسه الى غفوات من النوم قلما كانت تنقطع لأكثر من ساعة متصلة أو نحوها . وكان يغالب النوم حينا ، ولكنه فى النهاية — عزى نفسه بالقول بأنه لطيف جدا أن يتاح للمرء كل هذه اللذة ، بحيث يسعه أن يبدد بعضها . ونام مطمئنا بعد أن وجد نظرية يبرر بها مسلكه .

واسترحنا فى مارسيليا ، وهناك اتضح أن الانفعال الذى أحدثه هذا التغير كان كما توجست فوق ما تطيقه صحة ارنست ، وهى ما تزال ضعيفة . وانقضت بضعة أيام كان فيها مريضا حقا ، ولكنه بعد ذلك تماثل للشفاء . وأنا شخصيا أرى المرض من لذات الحياة العظمى بشرط ألا يكون المرء مريضا جدا وألا يضطر للعمل الى أن يبرأ . وأذكر أننى مرضت مرة وأنا فى فندق أجنبى ، وكم استمتعت بهذا المرض . فرقاد المرء فى فراشه وقد أخلى من كل شاغل ، فى هدوء ودفء ، وبغير هم يثقل عقله ، وسماعه رنين الأطباق فى المطبخ البعيد حين يغسلها « المرمطون » ويضعها على جنب ؛ وتطلعه الى الظلال اللطيفة الهادئة تظهر وتختفى على السقف بظهور الشمس أو اختفائها وراء غمامة ؛ واصغاؤه الى خرير النبع اللذيذ فى الفناء أسفله ، والى صليل الأجراس على أطواق الجياد ورنين حوافرها على الأرض حين يضايقها الذباب ؛ وأن يكون الانسان آكلا للوتس(*) ، بل أن يعرف أن واجبه أن يكون آكلا للوتس — قلت لنفسى « أواه ، لو استطعت الآن وقد نسيت الهموم أن أنام نومة الأبد ، ألا يكون هذا حظا أسعد مما أطمع فيه ؟ » .

(*) اللوتس فى الأساطير الاغريقية رمز لحياة الدعة والكسل .

أجل انه لكذلك بالطبع ، ولكننا نأبى أن نقبـله لو عرض علينا . فمهما يكن الشر الذى يصيبنا ، فاننا فى أكثر الحالات نحتمله الى أن تتخلص منه .

وكان واضحا لى أن ارنست يشـعر بشـعورى هذا . ولم يتكلم الا قليلا ، ولكنه كان يلاحظ كل شيء . ولم يروعنى الا مرة واحدة . اذ دعانى الى فراشه والظلام يهبط وقال لى فى لهجة هادئة جادة انه يريد أن يتحدث الى .

قال « خطر ببالى أننى ربما لن أبرأ أبدا من هذا المرض ، ففى هـذه الحالة أود أن تعرف أن هناك شيئا واحدا يثقل كاهلى » . ثم واصل حديثه بعد هنيهة « وأنا أشير الى مسلكى من أبى وأمى ، لقد كنت معهما أطيب مما يجب وعاملتهما باحترام أكثر مما ينبغى » ، وهنا أشرق وجهه بابتسامة أكدت لى أن لم يكن به بأس شديد .

وكان على جدران حجرة نومه سلسلة من صور مطبوعة من أيام الثورة الفرنسية تمثل أحداثا فى حياة « ليكورجوس » . فصورة عنوانها « سمو روح ليكورجوس » وأخرى « ليكورجوس يستشير الكاهنة » ، ثم صورة ثالثة عنوانها « كلسيوب فى البلاط الملكى » .

وتحت هذه الصورة كتب بالفرنسية والاسپانية ما يلى :

« اكتسبت الشابة كلسيوب تقـدير الحكيم الفاضل ليكورجوس ومحبته ، وكانت آية فى الرقة والجمال ، لا تنقص فى رجاحة عقلها عنها فى حسنها . واذ أخذ هذا الفيلسوف الشهير بمفاتنها فقد اصطحبها الى معبد الالهـة جونو ، وهنـاك ارتبط كلاهما برباط مقدس . وأسرع ليكورجوس عقب هذا الاحتفال المهيب باصطحاب عروسه الشابة الى قصر أخيه پولدكت ، ملك لاكيديمون ، وقال له : سيدى لقد تقبلت كلسيوب

الفاضلة عهودى أمام المذبح ، فأرجو أن تبارك هذا الزواج . وأبدى الملك شيئا من الدهشة أول الأمر ، ولكن تقديره لأخيه أوحى اليه بجواب ملؤه المحبة والود ، فدنا لتوه من كلسيوب ، وضمها فى حنان ، وغمر ليكورجوس بعطفه ، وظهر عليه الرضاء التام » .

ولفت ارنست نظرى الى هذا ثم قال فى شيء من التردد انه كان يؤثر أن يتزوج الن عن أن يتزوج كلسيوب . ورأيت أنه ازداد صلابة ، فلم أتردد فى أن أعرض عليه مواصلة رحلتنا بعد يوم أو يومين .

ولن أرهق القارىء بأخذه معنا فوق أرض مطروقة . فقد وقفنا فى سينا . وكورتونا ، وأورفيتو ، وپيروچيا وكثير غيرها من المدن ، وبعد أسبوعين أنفقناهما بين روما وناپلى يممنا شطر البندقية وما يتصل بها من أقاليم وزرنا كل المدن العجيبة القائمة بين سفوح الألب الجنوبية وسفوح الأپنيين الشمالية ، ثم عدنا أخيرا بطريق سانت جوثرد . وأنا فى شك من أنه استمتع بالرحلة أكثر مما استمتعت بها أنا ، على أن ارنست لم يسترد عافيته تماما الا بعد أن أوشكنا على العودة من الرحلة ، ولم يكن بد من أن تنقضى عدة شهور قبل أن يفقد كل احساس بالجراح التى أثخنته بها السنوات الأربع الأخيرة ، بحيث شعر أنه لم يبق الا ندبة فقط .

يقولون ان المرء اذا فقد ذراعا أو قدما ظل طويلا يحس وجعا فيها بين الحين والحين . وهكذا عاوده ضرب واحد من الألم كان قد نسيه تقريبا حين عاد الى انجلترا ، وأعنى به لدغة سجنه الماضى . فحينما كان بائعا صغيرا لا أكثر لم يكن سجنه يهمه قط ، اذ أن أحدا من الناس لم يعرف عن هذا السجن شيئا ، ولو عرفوا لما اكترثوا ، أما الآن فهو وان كان عائدا الى

مركزه القديم فهو يعود اليه مصابا فى سمعته ، وهاجمه الألم — الذى أنقذته منه أول الأمر ظروف جديدة لم يكد يتبين ذاتيته وهو فى خضمها — وكأنه ألم جرح أصابه فى الأمس القريب .

وفكر فى القرارات الشامخة التى اتخذها فى السجن ، حين صمم على أن يستخدم عاره موطن قوة ، لا أن ينساه الناس . فقال لنفسه « كان هذا جميلا جدا حين كان العنب بعيدا عن متناولى ، أما الآن فالأمر يختلف » . وفضلا عن ذلك ، فمنذا الذى يستهدف الأهداف البعيدة ، أو ينوى النوايا السامية ، الا كل دعى مغرور ؟ .

وأراد بعض أصدقائه القدامى — حين عرفوا أنه تخلص من زوجته المزعومة ، وأنه غدا الآن فى بسطة من الرزق ثانية — أن يصلوا ما انقطع بينه وبينهم ، فكان شعوره نحوهم شعور الشكر والامتنان ، وحاول أحيانا أن يلتقى فى منتصف الطريق بمحاولاتهم للتقرب منه ، ولكنه أخفق ، وما لبث بعد قليل أن انطوى على نفسه متظاهرا أنه لا يعرفهم . لقد كان يلازمه شيطان مريد ، هو شيطان الأمانة ، الذى جعله يحدث نفسه قائلا : « هؤلاء الرجال يعرفون الكثير ، ولكنهم لا يعرفون كل شىء . ولو عرفوا لقاطعونى — لذلك ليس لى الحق فى صداقتهم » .

وكان يحسب كل انسان غيره « مبرأ من المخاوف والعيوب » . فلابد أن يكون الناس كذلك ، والا أما كان واجبا عليهم أن يحذروا كل من يتصل بهم من نقائصهم ؟ حسنا ، انه لم يستطع أن يفعل هذا ، ولن يرضى بصداقة الناس تحت ستار زائف . لذلك أقلع حتى عن التلهف على رد اعتباره ، وانكفأ الى حبه القديم للموسيقى والأدب .

وهو بالطبع قد اكتشف منذ زمن طويل ما فى هذا كله من حماقة ، أعنى حماقة من الناحية النظرية ، لأنه من الناحية العملية أفاده أكثر مما ينتظر ،

لأنه حرره من روابط وصلات كانت ستعقل لسانه وتجعله يرى النجاح فى غير ما وجده فيه فى النهاية . ولقد فعل ما فعل بفطرته ، ولغير سبب الا أنه كان بالنسبة له طبيعيا جدا . واذا كان قد فكر فى الأمر اطلاقا فان تفكيره كان خطأ ، أما ما فعله فكان صوابا . قلت له شيئا من هذا القبيل مرة منذ عهد غير بعيد ، وأخبرته أنه كان دائما يستهدف أهدافا عالية . فأجابنى فى شىء من السخط « لم يكن لى أهداف على الاطلاق ، وتستطيع أن تطمئن الى أننى كنت أستهدف أهدافا متواضعة جدا لو تبينت الفرصة لتحقيقها » .

وأيا كان الأمر ، ففى ظنى أنه ما من انسان يستهدف أهدافا عالية جدا بسوء نية متعمد مالم يكن شاذ العقل — اذا ترفقت فى وصفه . فقد رأيت مرة ذبابة تحط على قدح من القهوة الساخنة كون اللبن عليه قشرة رقيقة ، ورأت الذبابة الخطر الكبير ، ولاحظت اتساع خطواتها والجهد الجبار الذى بذلته وهى تعبر السطح الغادر وتقصد الى حافة القدح — لأن الأرض من تحتها لم تكن صلبة تتيح لها أن ترتفع بأجنحتها . واذ كنت أرقبها خيل الى أن لحظة الشدة العظيمة والخطر الكبير قد تترك فى الذبابة مزيدا من القوة الخلقية والبدنية ربما انحدر بعضه الى نسلها . ولكن ما من شك فى أنها ما كانت لترضى بكسب هذا المزيد من القوة الخلقية لو أن الأمر بيدها ، وأنها لن تحط عامدة على قدح آخر من القهوة الساخنة . وكلما زادت مشاهداتى فى الحياة زاد تأكدى من أنه لا يهم لِمَ يفعل الناس الصواب ، ما داموا يفعلونه ، ولا يهم لِمَ أتوا الخطأ ، ما داموا قد أتوه . فالنتيجة رهن بالشىء الذى فعلوه ولا عبرة بالدافع . ولقد قرأت فى مكان ما لا أستطيع تذكره أنه كان فى اقليم فى الريف جدب شديد عانى فيه الفقراء الأمرين ؛ بل ان الكثيرين ماتوا من جرائه جوعا ، وكان

الجميع فى محنة كبرى . على أنه فى قرية من الاقليم كانت تعيش أرملة فقيرة لها أطفال صغار ، وقد ظلت ، برغم ما يعرف الناس عن ضآلة مواردها ، تبدو للناظرين هى وأطفالها طاعمين راغدين . وتساءل الناس كلهم « كيف استطاعوا أن يعيشوا ؟ » وكان واضحا أنهم يخفون سرا ، وواضحا أيضا أنه لا يمكن أن يكون سرا طيبا ؛ ذلك أن المرأة المسكينة كانت ترتسم على وجهها نظرة كدرة مريبة اذا ذكر بعضهم تلميحا كيف زكت هى وأطفالها بينما يتضور الآخرون جوعا ؛ زد على ذلك أن المرأة وأطفالها كانوا يرون خارج منزلهم فى ساعات من الليل غير عادية ، وكان واضحا أنهم يجلبون الى البيت أشياء لا يعقل أنهم أصابوها بطرق شريفة . وكانوا يعلمون أن الناس يرتابون فى أمرهم ، فأشقاهم هذا كثيرا لأنهم كانوا الى ذلك الوقت يتمتعون بسمعة طيبة ، ولابد من الاعتراف بأن ما فعلوه كان فى اعتقادهم شيئا مريبا ان لم يكن خبيثا كل الخبث ؛ ولكنهم بالرغم من هذا زكوا واحتفظوا بقوتهم فى حين كان الجوع ينهش سائر جيرانهم .

وأخيرا تأزم الموقف ، واستجوب قسيس الأبرشـــية المرأة المسكينة وضيق عليها الخناق حتى اعترفت بالحقيقة وهى تذرف الدمع السخين وتحس احساسا مرا بالهوان والعار ؛ فقالت انها هى وأطفالها كانوا يذهبون الى السياجات النباتية ويجمعون القواقع ، ويصنعون منها الحساء ويأكلونه — فهل تغفر لها هذه الخطيئة ؟ أهناك أمل فى الخلاص لها فى هذه الدنيا أو فى الآخرة بعد هذا المسلك الشاذ ؟

كذلك سمعت بكوتتيسة أرملة أودعت كل مالها فى سندات حكومية ؛ وكان لها أبناء كثيرون ، وحملها حرصها على اعانة الصغار منهم بمبلغ طيب من المال يبدءون به الحياة على الرغبة فى ربح أكبر مما تغله هذه السندات . واستشارت محاميها فأشار عليها بأن تبيع سنداتها وتستثمر المال فى سندات

« سكة حديد لندن ونورث وسترن » ، وكانت وقتها تساوى خمسة وثمانين جنيها . وبدا لها هذا كما بدا أكل القواقع للأرملة المسكينة التى رويت قصتها . وفعلت ما نصحت به فى خجل وحزن كأنها تأتى شيئا نجسا — ولكنها كانت مصممة على مساعدة أبنائها على شق طريقهم فى الحياة . وجفاها النوم طويلا ، وعذبها شعور بقرب الكارثة . ولكن ما الذى حدث ؟ لقد أعانت أبناءها ، وفضلا عن ذلك فانه لم تنقض سنوات حتى وجدت أن رأسمالها تضاعف ، وعندها باعت سنداتها وعادت الى السندات الحكومية ، وماتت وهى تنعم بملكية السندات الحكومية .

حقيقة انها ظنت نفسها تقترف عملا خطأ وخطرا ، ولكن لا عبرة بهذا على الاطلاق . ولنفرض أنها استثمرت مالها بعد الاطمئنان الى نصيحة مصرفى لندنى شهير اتضح أنها خطأ ، فخسرته كله ، ولنفرض أنها فعلت هذا وهى مرتاحة البال لا تشعر بأى ذنب أو خطيئة — أكان يجديها فتيلا براءتها من النية السيئة ونبل دافعها ؟ كلا وألف كلا .

ولكن لأعد الى قصتى فأقول ان تاونلى أتعب ارنست أكثر من جميع معارفه القدامى . ذلك أنه كان كما قلت يعلم أن ارنست سيصبح عما قليل غنيا ، ولكن ارنست كان بالطبع يجهل أن تاونلى يعلم هذا . وكان تاونلى نفسه غنيا ، ومتزوجا الآن ، أما ارنست فسيصبح غنيا بعد قليل ، وهو قد نوى من قبل نية صادقة أن يتزوج ، وبالطبع سيتزوج زواجا شرعيا بعد حين . فمثل هذا الرجل يستحق بذل الجهد فى سبيله ، فلما لقى تاونلى ذات يوم ارنست فى الشارع ، فحاول ارنست أن يتجنبه ، أبى تاونلى أن يقبل هذا الوضع ، ولكنه بطيبته وذكائه قرأ أفكاره وأمسك به كما يمسك المرء انسانا من قفاه ، وقلبه بطنا لظهر ، وقال له انه لا يرضى عن هذا السخف .

وكان تاونلى ما يزال معبود ارنست شأنه من قبل ، وأحس ارنست نحوه بامتنان ومحبة أكثر مما أحس فى أى وقت مضى لأنه كان حساسا جدا ، ولكن شيئا لاشعوريا أقوى من تاونلى جعل بطل قصتى يصمم على مقاطعته تصميما لعله أشد من تصميمه على مقاطعة أى مخلوق آخـر ؛ فشكره فى صوت مهرول خافت وضغط على يده ، والدموع تترقرق فى عينيه برغم ما بذل من جهد ليحبسها ، وقال له « اذا التقينا ثانية فلا تنظر الىّ ، ولكن اذا سمعت بعد اليوم أنى أكتب أشياء لا تحبها ، فأحسن الظن بى ما استطعت » وهكذا افترقا .

وقلت له جادا « ان تاونلى فتى طيب ، وما كان يجب أن تقاطعه » .

وأجاب « ليس تاونلى فتى طيبا وحسب ، ولكنه بدون استثناء أطيب من رأيت فى حياتى — فيما عدا » وحيّانى بقوله « فيما عداك أنت ؛ ان تاونلى هو فكرتى المجسمة عن كل شىء أتمنى أن أكونه ، ولكن ليس بيننا وحدة حقة . وسأكون فى خوف دائم من أن أخسر رأيه الحسن فىّ لو قلت أشياء لا يرضى عنها ، وأنا أريد أن أقول أشياء كثيرة جدا لن يحبها تاونلى » وقال هذه العبارة الأخيرة فى مرح أكثر .

ويستطيع الانسان ، كما قلت ، أن يضحى بأبيه وأمه فى سبيل المسيح دون كبير عناء فى معظم الحالات ، ولكنه لا يستطيع أن يضحى بأناس كتاونلى بمثل هذه السهولة .

الفصل الحادي والثمانون

وهكذا هجر أصحابه القدامى كلهم باستثنائى أنا وثلاثة أو أربعة من أخصائى القدامى الذين كان تعلقهم به كتعلقه بهم ، والذين كانوا مثلى يجدون متعة فى العثور على ذهن متفتح فتىّ . واهتم ارنست بامساك دفاتر حساباتى كلما وجد ما يدعو للاهتمام ، وقلما وجد ، وكان ينفق جلّ وقته الباقى فى الاضافة الى المذكرات ومحاولات المقالات الكثيرة التى تكدست فى درج مكتبه . وكان فى استطاعة أى انسان خبر الكتابة أن يرى بنظرة واحدة أن الأدب سبيل تطوره الطبيعى ، وقد سرّنى أن أراه يعكف عليه هذا العكوف العفوى . على أن سرورى كان أقل حين لاحظت أنه ما زال يأبى الاشتغال الا بأكثر الموضوعات جدا ، بل كما قلت أكثرها كآبة ، كما يأبى الاهتمام الا بأكثر ألوان الموسيقى جدا .

وقلت له يوما ان الجزاء الضئيل الذى قرنه الله بالاشتغال بالبحث (*) الجاد دليل كاف على أنه تعالى لا يستحسنه ، أو على الأقل لا يعلق عليه أهمية كبيرة ولا يريد أن يشجعه .

فقال « أوه ، دع الحديث عن الجزاء . فانظر الى ملتن الذى لم ينل سوى خمسة جنيهات جزاء قصيدته الفردوس المفقود » .

وأجبته على الفور « ونال أكثر كثيرا مما يستحق . وأنا كنت أعطيه ضعف هذا المبلغ لكى لا يكتبها على الاطلاق » .

(*) ربما كانت الاشارة الى ما ورد فى سفر الجامعة « لعمل كتب كثيرة لانهاية ، والدرس الكثير تعب للجسد » .

وصدم ارنست قليلا ثم قال ضاحكا « عـلى أية حال أنا لا أكتب الشعر » . وكانت هذه لطمة لى ، لأنى كنت أكتب مهازلى شعرا بالطبع . لذلك كففت عن الحديث فى الموضوع .

وبعد حين صمم على أن يعيد الحديث فى الجنيهات الثلاثمائة التى كان يتقاضاها فى العام نظير قيامه بلا شىء اطلاقا كما قال ، وأخبرنى أنه سيحاول العثور على عمل يأتيه بدخل كاف .

وضحكت لهذا ولكنى تركته وشأنه . فحاول ثم حاول جهده طويلا ، ولكن لا حاجة بى الى القول بأنه لم يوفق . فكلما تقدم بى العمر ازددت اقتناعا بحماقة الجماهير وسذاجتها ، وازددت فى الوقت نفسه يقينا بأنه من العسير أن يفرض المرء نفسه على هذه الحماقة والسذاجة .

وقد جرب رؤساء التحرير واحدا بعد آخر عارضا عليهم المقال تلو المقال ، فكان رئيس التحرير أحيانا يصغى اليه ويطلب اليه أن يترك مقالاته ؛ على أنه كان فى كل الحالات تقريبا يتسلمها مردودة فى النهاية مع رسالة قصيرة مهذبة تنبئه بأنها ليست صالحة للجريدة التى أرسلها اليها بالذات . ومع ذلك فان كثيرا من هـذه المقالات ذاتها ظهر فى مؤلفاته المتأخرة ، ولم يشك أحد منها ، أو لم يشك على الأقل من رداءة صنعتها . وقال لى ذات يوم « أرى أن الطلب عات مستبد جدا ، وأن العرض يجب أن يكون كثير التوسل والرجاء » .

حقيقة أن رئيس تحرير مجلة شهرية هامة قبل منه مرة مقالا ، فظن ارنست أنه قد أرسى قدمه الآن على دنيا الأدب . وكان مقررا أن يظهر المقال فى أول عدد بعد العدد التالى ، وأن يتسلم تجارب الطبع من المطبعة بعد نحو عشرة أيام أو أسبوعين تقريبا ؛ ولكن الأسابيع مضت والتجارب

لا توافيه ؛ ومضى الشـــهر تلو الشهر وما زال المكان غــير متوفر لمقال ارنست ؛ وأخيرا ، وبعد نحو ستة شهور ، أخبره رئيس التحرير ذات صباح أنه ملأ كل عدد من أعداد مجلته للأشهر العشرة التالية ، ولكن مقــاله سيظهر قطعا . وهنا أصرّ ارنست على أن ترد اليه مخطوطة المقال .

وكانت مقالاته تنشر فعلا أحيانا ، فيجد أن رئيس التحرير قد نشرها على هواه هو ، مضيفا اليها نكاتا ودعابات يظنها مضحكة ، أو حاذفا منها الفقرة التي يعدها ارنست لب المقال كله ؛ ثم بالرغم من ظهور المقالات فان دفع أتعابها اذا آن أوانه كان شيئا آخر ، ولم ير قط وجه هذه الأتعاب . وقال لي ذات يوم في هذه الفترة التي نحن بصددها « ما أشبه رؤســاء التحرير بالقوم الذين ذكر سفر الرؤيا أنهم يشترون ويبيعون ؛ فليس منهم واحد الا وعلى جبينه سمة الوحش » .

وأخيرا ، وبعد شهور من المثبّطات ، وبعد ساعات طويلة مملة ضاعت في غرف الانتظار الكئيبة (وغرف انتظار رؤساء التحرير هي عندي أكثر هذه الغرف كآبة وقبضا للنفس) ، حصل على عرض صادق بالعمل في جريدة أسبوعية ممتازة بفضل توصية حصلت له عليها من شخص كان له على هذه الجريدة دالة . وأرسل له رئيس التحرير اثني عشر كتابا مطولا في موضوعات متباينة ، وطلب اليه أن يعرضها كلها في مقال واحد قبل مضي أسبوع . وكان في كتاب منها مذكرة من رئيس التحرير مفادها أن عليه أن يندّد بالكاتب . ولكن ارنست أعجبه بصفة خاصة هذا الكتاب الذي أريد له أن يندد به ، واذ شعر بأن لا أمل له في أن يمكّن من نقد الكتب التي عرضت عليه نقدا فيه شيء من الانصاف ، فانه ردها الى رئيس التحرير .

وأخير أخذت جريدة من هذه الجرائد فعلا اثني عشر مقالا أو نحوها

منه ، وتقدته أجرا عليها جنيهين وشلنين لكل مقال ، ولكنها ماتت بعد أسبوعين من نشرها آخر مقال من مقالات ارنست . اذن فلابد أن رؤساء التحرير الآخرين كانوا أدرى بعملهم حين رفضوا أي تعامل مع ارنست المسكين .

ولم آسف على اخفاقه مع هذه الصحف الأدبية الدورية ، ذلك أن الكتابة للمجلات أو الصحف تمرين سيىء لكاتب يطمح فى أن يكتب آثارا أدبية لها أهمية أبقى . فينبغى أن يتاح للكاتب الناشىء وقت للتأمل أطول مما تتيحه له الكتابة للصحف اليومية أو حتى الأسبوعية . أما ارنست فقد أحزنه أن تبتلى بضاعته بهذا الكساد وقال لى « عجيب ، اننى لو كنت حصانا أو كبشا أصيلا ، أو حمامة أصيلة ، أو أرنبا من النوع المسترخى الأذنين ، لوجدت اقبالا أكثر من هذا . بل لو كنت كاتدرائية فى مدينة باحدى المستعمرات لجاد علىّ الناس ببعض المال ، أما وأنا ما أنا فلا حاجة لهم بى » ؛ واذ أحس أنه تعافى ونال قسطا من الراحة فقد أراد أن يفتح متجرا ثانية ، ولكنى أبيت بالطبع أن أستمع الى هذا .

وقال لى ذات يوم « ماذا يهمنى أن أكون « جنتلمانا » كما يقولون ؟ » وكانت لهجته أقرب ما تكون الى الضراوة .

« أى خير جنيت من هذا الا أننى أصبحت أقل قدرة على العدوان ، وأسهل منالا للمعتدين ؟ لقد غيّر كيفية خديعتى ولا أكثر ، ولولا عطفك علىّ لكنت الآن مفلسا . شكرا للسماء لأننى أودعت طفلىّ حيث هما الآن » .

ورجوته أن يهدأ قليلا ويكف عن الحديث فى فتح متجر .

وقال لى « هل يكسبنى كونى من السادة المال فى النهاية ، وهل هناك شيء يأتينى بالسعادة آخر المطاف كما يأتينى بها المال ؟ يقولون ان الأغنياء

يدخلون ملكوت السموات بشق الأنفس . ولعمرى انهم لكذلك ؛ فهم أشبه بالخالدين فى قصة سويفت (*) ؛ انهم يعيشون ويعيشون ويعيشون ويسعدون عمرا مديدا ما كانوا يسعدون به لو دخلوا ملكوت السموات وهم فقراء . أريد أن أعيش طويلا وأربى أطفالى — لو رأيت أنهم سيكونون أسعد بهذه التربية ؛ هذا ما أريده ، وليس ما أفعله الآن بالذى يعيننى عليه . فحياة السادة ترف ليس فى طاقتى ، اذن لا حاجة لى بها . فدعنى أرجع الى دكانى ثانية ، وأؤدى للناس خدمات يحتاجون اليها وينقدوننى على أدائها لهم . انهم يعرفون ما يحتاجون اليه وما يصلح لهم خيرا مما أستطيع أن أدلهم عليه » .

وكان عسيرا على أن أنكر سلامة منطقه هذا ؛ ولو كان معتمدا على الجنيهات الثلاثمائة التى يحصل عليها كل عام منى وحدها دون غيرها لنصحته بأن يفتح دكانه ثانية فى صباح الغد . أما وقد علمت ما علمت ، فقد رحت أماطله وأقيم العقبات أمام فكرته هذه وأهدئه جهد استطاعتى بين الحين والحين..

وقرأ ارنست بالطبع كتب مستر داروِن حال ظهورها واعتنق التطور عقيدة له ، وقال لى مرة « يبدو لى أننى أشبه دودة من تلك الديدان التى لو أوقفت مرة وهى تنسج نسيجها لوجب أن تبدأ من جديد . فحين انحدرت كثيرا فى سلم المجتمع نهضت من كبوتى ، وكنت سأجمع ثروة لولا وجود الن ، ولكن حين أحاول أن أبدأ العمل فى مستوى أعلى أجدنى أخفق اخفاقا تاما » . ولست أدرى أيستقيم هذا التشبيه أم لا يستقيم

(*) Struldbrugs واحد من طبقة من الخالدين فى قصة سويفت « رحلات جلفر » يولد وعلى جبينه سمة مميزة ، ويحتفظ به على حساب الدولة بعد بلوغه الثمانين .

ولكنى واثق من أن غريزة ارنست كانت على صواب حين أنبأته بأنه بعد سقطته يحسن به أن يبدأ الحياة من جديد فى مستوى منخفض جدا ، وكنت كما قلت تاركه ليعود الى دكانه لولا أننى أعلم ما أعلم .

واذ دنا الميعاد الذى حددته عمته أخذت أهيئه أكثر فأكثر لحظته المقبل ، وأخيرا استطعت فى عيد ميلاده الثامن والعشرين أن أنبئه بالأمر كله ، وأن أطلعه على الرسالة التى وقعت عليها عمته وهى على فراش الموت ، ومفادها أن احتفظ بماله وديعة عندى . وكان عيد ميلاده فى ذلك العام (١٨٦٣) بالصدفة يوم أحد ، ولكنى فى الغد نقلت سنداته باسمه ، وأهديت اليه دفاتر الحسابات التى كان يمسكها فى العام ونصف العام الأخيرين .

ومع كل ما فعلته لأعده لهذا الحظ فاتنى أنفقت وقتا طويلا قبل أن أستطيع اقناعه فعلا بأن المال ماله .ولم يتكلم كثيرا — ولا تكلمت أنا ، لأننى لست واثقا اننى لم أتأثر بانهاء وصايتى الطويلة نهاية طيبة تأثر ارنست حين وجد نفسه مالكا لأكثر من سبعين ألفا من الجنيهات . فلما تكلم انطلقت من فمه عبارة أو عبارتان فيهما تأمل ، قال « لو شئت أن أعبر عن هذه اللحظة بالموسيقى لاستعملت المقام السادس الاضافى استعمالا طليقا » . وبعد قليل أذكر أنه قال بضحكة فيها شبه عائلى بضحكة عمته « ان الذى أستمتع به كثيرا ليس هذا السرور الذى يبعثه فىّ الخبر ، وانما الألم الذى سيبعثه فى جميع أصدقائى باستثنائك أنت وتاونلى » .

قلت له : « انك لا تستطيع أن تخبر به أباك وأمك — ولو فعلت لجنّ جنونهما » .

وقال : « نعم ، نعم ، نعم ، سيكون هذا غاية القسوة ، سيكون أشبه باسحق يضحى بابراهيم ولا أجمة قريبة فيها كبش . ثم لِمَ أفعل هذا ؟ لقد قاطعتهما وقاطعانى فى هذه السنوات الأربع » .

الفصل الثاني والثمانون

وكان ذكرنا العارض لثيوبولد وكرستينا قد نبههما عــلى نحو ما فاستيقظا بعد نوم . وكانا قد لزما باترزبى خلال السنوات التى انقضت منذ ظهورهما آخر مرة على مسرح الحوادث ، وركزا محبتهما على ولديهما الآخرين .

وآلم ثيوبولد فقدانه القدرة على مضايقة ولده البكر ؛ ولو تكشفت الحقيقة لاتضح — فى اعتقادى — أن هذا الألم حز فيه أكثر من أى عار جرّه عليه سجن ارنست . ولقد حاول مرة أو مرتين أن يعيد فتح باب المفاوضات عن طريقى ، ولكننى لم أذكر عن هــذه المحاولات شيئا قط لارنست ، لأنى أعلم أنها ستكدره . على أننى كتبت لثيوبولد أقول اننى وجدت ولده عنيدا لا يلين ، وأوصيته أن يكف على الأقل فى الوقت الحاضر عن العودة الى هذا الموضوع . وكان هذا فى رأيى غاية ما يحبه ارنست ويكرهه ثيوبولد .

على أننى تلقيت بعد أيام من تسلم ارنست لثروته رسالة من ثيوبولد ضمنها رسالة لارنست لم أستطع حبسها عنه .

والى القارىء نص الرسالة :

الى ولدى ارنست — اننى على الرغم من رفضك غير مرة الاستجابة لمحاولاتى التى بذلتها للاتصال بك فانى ألجأ مرة أخرى الى الجانب الخيّر من طبيعتك . ذلك أن أمك قاربت نهايتها — فى اعتقادى — بعد طول المرض ؛ وهى عاجــزة عن أن تحتفظ فى معدتها بأى طعام أو شراب ،

والدكتور مارتن يائس تقريبا من شفائها . وقد أعربت عن رغبتها فى أن تراك . وقالت انها تعلم أنك لن ترفض الحضور اليها ، وهى رغبة لست أخالك ترفضها فى حالتها هذه .

وأنا أرسل لك اذن بريد بأجرة سفرك ، وسأتكفل برحلة العودة .

ان أردت ثيابا فاطلب ما تراه مناسبا ولترسل الىّ قائمة الحساب ، وسأدفعها فورا بشرط ألاّ يتجاوز المبلغ ثمانية جنيهات أو تسعة ، واذا أخبرتنى بأى قطار ستأتى أرسلت العربة لاستقبالك . ولازلت والدك المحب .

ت . پوتنفكس

وبالطبع لم يكن ممكنا أن يتردد ارنست فى الذهاب . وكان فى وسعه أن يتبسم الآن لما عرضه عليه أبوه من دفع ثمن ثيابه ، ولارساله اذن بريد بثمن تذكرة فى الدرجة الثانية بالضبط ، وقد صدم بالطبع حين علم بالحالة التى قيل ان أمه فيها ، وتأثر برغبتها فى أن تراه . فأبرق بأنه قادم توا . ورأيته قبل قيامه بقليل فسرنى أن أرى كيف أحسن خياطه الباسه . فما كان فى وسع تاونلى نفسه أن يبدو أكثر أناقة . وكانت حقيبته ، ومعطف سفره ، وكل شيء يحمله يدل على سلامة الذوق . وخيل الى أنه أصبح أكثر وسامة مما كان فى الثانية أو الثالثة والعشرين . وكانت فترة العام والنصف التى قضاها فى صفو وسلام قد محت جميع الآثار السيئة التى خلفها عذابه السابق ، والآن وقد اصبح غنيا فعلا فان طلعته شاع فيها جو من خلو البال والبشاشة ، كأنه انسان تسير أموره كلها على خير ما يشتهى ، وخليق بهذا أن يضفى الجمال على أى انسان حظه منه أقل كثيرا من حظ ارنست . وكنت فخورا مغتبطا به . وقلت لنفسى « أنا واثق أنه مهما فعل ، فلن يتزوج ثانية طوال حياته » .

وكانت رحلته أليمة . فاذا قارب المحطة وطالعه المنظر المألوف تلو المنظر ، اشتدت قوة الارتباطات عليه حتى شعر كأن وراثته لمال عمته كانت حلما ، وأنه عائد ثانية الى بيت أبيه كما كان يعود اليه من كيمردج ليقضي فيه عطلته . وبدأ يضنيه ذلك الثقل الفادح القديم ، ثقل « الحنين الى البيت » ، برغم كل محاولاته ، وراح قلبه يخفق سريعا حين فكر فى لقائه الوشيك بأبيه وأمه وقال لنفسه « ولزام علىّ أن أقبل تشارلت » .

ترى أيلقاه أبوه على المحطة ؟ أيحيّيه كأن شيئا لم يحدث ، أم يكون باردا جافيا ؟ ثم كيف يتلقى نبأ حظ ولده السعيد ؟ فلما دنا القطار من الرصيف جرت عين ارنست فى عجلة تستعرض الأشخاص القلائل الذين كانوا فى المحطة . ولم يلحظ بينهم شكل أبيه الذى يعرفه جيدا ، ولكنه رأى على الجانب الآخر من السور الذى يفصل فناء المحطة عن الرصيف العربة التى يجرها المهر ، رثة بعض الشيء كما خيّل اليه ، وتبين وجه سائق أبيه . ولم تمض الاّ دقائق حتى كان فى العربة يركبها ميمما باترزبى . ولم يسعه الاّ أن يتسم حين رآى السائق ينظر نظرة الدهشة لما وجده من تغيير كبير فى مظهر ارنست . وازدادت دهشة السائق لأن ارنست كان فى آخر زيارة لبيت أبيه يرتدى ثوب الكاهن ، أمـا الآن فلم يكن علمانيا وحسب ، بل علمانيا يرتدى أفخر الثياب دون حساب للنفقة . وكان التغير عظيما بحيث لم يتبين السائق ارنست الا بعد أن تحدث اليه فعلا .

وسأله ارنست فى عجلة حين دخل العربة « كيف حال أبى وأمى ؟ » وكان جواب الرجل « السيد بخير ، ولكن حال السيدة مؤسفة جدا » وعرف الجواد أنه ذاهب الى البيت فانطلق لا يلوى . وكان الجو باردا منعشا — وهو الجو المثالى ليوم من أيام نوفمبر ؛ وانتشرت السيول

على جانب من جوانب الطريق ، وكان على العربة أن تمر فى هذه المنطقة بعدد من الفرسان والكلاب ، لأن كلاب الصيد تجمعت ذلك الصباح فى مكان بقرب باترزبى . ورأى ارنست عـدة أشخاص يعرفهم ، ولكنهم اما لم يميزوه وهو الأرجح ، واما لم يعرفوا شيئا عما أصاب من حظ سعيد . وحين دنا برج كنيسة باترزبى ، فرأى بيت القسيس على قمة التل ، ومداخنه تتخايل فوق الأشجار الجرداء التى تحيط بها ، ألقى بنفسه الى الخلف فى العربة وغطى وجهه بيديه .

وانتهى هذا كما تنتهى كل أرباع الساعات ، حتى أسوءها ، وبعد دقائق وصل الى السلم آمام بيت أبيه . واذ سمع أبوه صوت العربة نزل قليلا على السلم ليلقاه . ورأى كما رأى السائق بنظرة واحدة أن ارنست يرتدى ثياب رجل موفور المال ، وأنه يبدو قوى الجسم ممتلئا صحة وعافية .

ولم يكن هذا ما تأهب له . كان يريد لارنست أن يعـود ، ولكن كما ينبغى أن يعود أى « ابن ضال » (*) ، خاضع ، محترم — ذليلا ، كسير القلب ، مستغفرا أكثر الآباء احتمالا وحنانا فى هذه الدنيا بأسرها . فاذا عاد مرتديا حذاء وجوارب وملابس كاملة اطلاقا ، فالفضل فى ذلك لأبيه الذى حملته سماحته على ألا يصر على ارتدائه الخرق البالية ، ولكن ها هو ذا يختال فى معطف رمادى فضفاض ورباط رقبة أبيض أزرق ، ويبدو أحسن مما رآه ثيوبولد فى أى فترة من حياته . ان هذا خروج عـلى مبادىء الشرف . أمن أجل هذا سخا معه فعرض أن يزوده بثياب لائقة ليأتى بها ويزور أمه المحتضرة ؟ أهناك استغلال أدنأ من هذا الذى استغل به ارنست أباه ؟ . حسنا ، انه لن يدفع بنسا واحدا فوق الجنيهات الثمانية أو التسعة

(*) الاشارة لمثل الابن الضال الذى ضربه المسيح .

التى وعد بها . لقد كان من حسن الطالع أنه حدد رقما لا يتجاوزه ارنست . أجل ، انه هو ، ثيوبولد ، لم يستطع فى يوم من الأيام أن يشترى حقيبة كهذه طوال حياته . وكان ما يزال يستعمل حقيبة قديمة أحالها اليه أبوه حين ذهب الى كمبردج . زد على ذلك أنه وعد ولده بدفع ثمن ثيابه لا حقيبته .

ورأى ارنست ما يجول بخاطر أبيه ، وشعر أنه كان ينبغى له أن يعدّه على نحو ما لما يراه الآن ؛ ولكنه حين تسلم خطاب أبيه سارع بالابراق اليه ، وعجل بمجيئه تعجيلا لم يتح له ذلك ولو قصد اليه . فمد يده اليه وقال ضاحكا « أوه ، لقد دفعت ثمن هذا كله لأن — أخشى أنك لا تعرف أن مستر أوفرتن سلمنى مال عمتى أليثيا » .

وتضرج وجه ثيوبولد وقال — وكانت هذه أول الكلمات التى فاه بها فعلا « ولكن لماذا — اذا لم يكن المال ملكا له فلم لم يسلمه لأخى جون أو لى ؟ » قال ذلك فى كثير من التلعثم والتردد ، ولكنه أفلح فى النطق بهذه الكلمات .

وقال ارنست وهو ما يزال يضحك « لأن عمتى يا والدى العزيز تركت المال فى ذمته ليكون أمينا عليه لى ، ولم تتركه فى ذمتك أنت ولا فى ذمة عمى جون — وقد ازداد هذا المال حتى أربى الآن على سبعين ألفا من الجنيهات . ولكن أخبرنى كيف حال أمى » .

وقال ثيوبولد منفعلا « لا يا ارنست ، لا يمكن أن ينتهى الأمر عند هذا ؛ يجب أن أتأكد من أن هذا كله تصرف أمين لا غبار عليه » .

وكان لهذه العبارة رنين ثيوبولدىّ أصيل ، فجرت على الفور فى اثرها كل سلسلة الأفكار المرتبطة فى ذهن ارنست بأبيه . كانت البيئة

هى البيئة المألوفة القديمة ، ولكن الأشخاص الذين تحيط بهم هذه البيئة تغيروا تغيرا تكاد تعجز معه عن تبينهم . وفى لحظة انقلب ارنست بغتة على ثيوبولد . ولست أريد أن أعيد الكلمات التى استعملها ، لأنها انطلقت من فمه قبل أن يتاح له من الوقت ما يتدبرها فيه ، ولأنها قد تبدو لبعض قرائى مهينة ؛ ولم تكن الكلمات كثيرة ، ولكنها فعالة . ولم يفه ثيوبولد بكلمة ، ولكن وجهه امتقع امتقاعا شديدا ؛ ولم يعد بعدها لمخاطبة ولده بطريقة تضطره الى اعادة ما قاله هذه المرة . وسرعان ما استعاد ارنست هدوءه وسأل من جديد عن صحة أمه . وسرّ ثيوبولد بأن يخرج من هذا المنفذ ، فأجاب على الفور بلهجة يتخذها مع شخص يحرص أشد الحرص على مصالحته ، وقال ان حالتها تسوء سريعا برغم كل ما استطاع أن يفعله لأجلها ، وختم حديثه بأنها كانت لحياته سندا وعزاء مدى ثلاثين سنة وأكثر ، ولكنه لا يتمنى لها مزيدا مما هى فيه .

وهنا صعد كلاهما لغرفة كرستينا ، وهى الغرفة التى ولد فيها ارنست . ودخل أبوه قبله فهيأها لمقدم ولدها . ورفعت المرأة المسكينة نفسها فى فراشها وهو مقبل عليها وصاحت وهى تبكى حين طوقته بذراعيها : « أواه ، كنت أعلم أنه آت ، كنت أعلم ، كنت أعلم أنه آت » .

وانهار ارنست وراح يبكى كما لم يبك منذ سنين .

وقالت أمه حالما استطاعت أن تستعيد صوتها « أواه يا ولدى ، يا ولدى ، أحقا أنك لم تكن قط قريبا منا طوال هذه السنين ؟ آه ، أنت لا تعلم كم أحببناك وكم حزنّا عليك وكان بابا فى هذا مثلى تماما . وأنت تعلم أنه لا يبدى شعوره كثيرا ، ولكننى لا أستطيع أبدا أن أصور لك عمق أحاسيسه من نحوك . وكان يخيل الى أحيانا فى الليل أننى أسمع خطى فى الحديقة ، فأخرج من فراشى فى هدوء مخافة أن أوقظه ، وأمضى

الى النافذة لأطل منها ، ولكنني لا أجد غير الظلام أو غبش الصباح ، فأعود الى فراشي باكية . ومع ذلك فأنا أظن أنك كنت على مقربة منا وان منعتك كبرياؤك عن اخبارنا بذلك — وأخيرا ها أنذا احتضنك مرة أخرى بين ذراعي ، يا ولدي الحبيب ، يا ولدي الحبيب » .

وقال ارنست فى نفسه كم كان قاسيا جامد الشعور الى حد مشين .

فقال لأمـــه « اغفرى لى يا أماه — ان الذنب ذنبى ، كان ينبغى ألا أكون قاسيا الى هذا الحد ، كنت مخطئا ، مخطئا جدا » ، وكان الفتى الباكى المسكين يعنى ما يقول ، وحن قلبه الى أمه حنينا لم يتوقعه قط . ومضت تقول « ولكن ألم تأت قط ، ولو فى الليل ، دون علمنا — أواه ، دعنى اعتقد أنك لم تكن قاسيا جدا كما حسبناك . قل لى انك حضرت الى هنا ، ولو لتعزينى وتسعدنى » .

وكان جواب ارنست حاضرا فقال « لم تتوفر لى نقود لأحضر بها يا أماه الا مؤخرا » .

وكان هذا عذرا تستطيع كرستينا أن تفهمه وتقبله « أوه ، اذن كان فى نيتك أن تأتى ، وسأقبل النية بديلا من العمل — والآن وقد استرددتك سالما ، فقل انك لن تتركنى أبدا ، أبدا — حتى — حتى — أواه يا بنى ، هل أخبروك أننى أحتضر ؟ » ثم بكت بكاء مرا وأخفت رأسها فى وسادتها .

الفصل الثالث والثمانون

كان چوى وتشارلت فى الحجرة . وكان چوى قد رسم للخدمة الدينية ، ويعمل مساعدا لثيوبولد . ولم يكن هو وارنست متعاطفين قط فى أى وقت — ورأى ارنست بنظرة واحدة أن لا أمل فى التقارب بينهما . وأدهشه قليلا أن يرى چوى فى رداء القسيس شديد الشبه بما كان عليه هو نفسه قبل سنوات قليلة ، لأن الشبه العائلى بين الاثنين كان كبيرا ؛ ولكن وجه چوى كان باردا لا تضيئه شرارة من البوهيمية ؛ كان قسيسا ، يزمع أن يصنع ما يصنعه سائر القساوسة ، لا خيرا منهم ولا شرا . وحيّا ارنست فى شيء من الاستعلاء ، أعنى أنه بدأ بهذه المحاولة ، ولكن المحاولة أخفقت على نحو لا يرضى .

وقدّمت شقيقته خدّها له ليقبله . وما كان أبغض هذا اليه ، لقد كان يخشاه طوال الساعات الثلاث الأخيرة . وكان مسلكها هى أيضا جافا منطويا على التعيير واللوم كما ينتظر من شخص رفيع مثلها . كانت تراه مذنبا فى حقها ما دامت بغير زواج . فقد ألقت اللوم فى هذا على عاتق ارنست ؛ وقالت فى سرها ان سوء سلوكه هو الذى منع الشبان من طلب يدها ، وحمّلته تعويضا باهظا نتيجة لهذه الاساءة . وكذلك هى وچوى منذ طفولتهما قد قوّيا فى نفسيهما شهوة « الصيد مع الكلاب » ، واتّحد هذان الاثنان الآن بالجيل الأكبر — أعنى ضد ارنست . كان بين چوى وأخته فى هذا الأمر حلف هجومى دفاعى ، ولكن فيما خلا ذلك حرب ضروس وان تكن مكتومة .

هذا على الأقل هو الذى استنتجه ارنست — بعضه عن ذكرياته عنهما ، وبعضه من ملاحظته لمسلكهما القبيح Ahan Pfltle Waysخلال نصف الساعة الأولى عقب وصوله ، وكلهم مجتمعون فى غرفة نوم أمه — لأنها لم يكونا قد علما الى لآن بالطبع بأنه يملك مالا . ووضح له أنهما يحدجانه بين الحين والحين بنظرات الدهشة التى لا تخلو من السخط ، فعلم تماما ما كانا يفكران فيه .

ورأت كرستينا التغير الذى طرأ عليه — كيف بدا أكثر ثباتا وعافية فى العقل والجسد مما كان آخر مرة رأته فيها . كذلك لحظت أناقة ثيابه ، فانزعجت قليلا — كما انزعج الآخرون — اشفاقا على جيب ثيوبولد الذى سيحمّل ثمن هــذه الوجاهة كلها ، وذلك عــلى الرغم من عــودة كل محبتها لولدها البكر . فلما رأى ارنست هذا خفف عنها وأفضى اليها بكل شىء عن تركة عمته ، وأخبرها كيف أحسنتُ تعهدها له ، وذلك فى حضرة أخيه وأخته اللذين تظاهرا على أية حال بأنهما لا يلحظان شيئا ، أو على الأقل بأنهما يلحظان أمرا لا ينتظر أن يهتما به .

وتململت أمه أول الأمر لأنه أخذ هذه الثروة « متخطيا رأس أبيه » على حد قولها . وقالت فى لهجة المستنكر « عجبا يا عزيزى ، انها تزيد على ما ملك أبوك فى أى فترة من حياته » ؛ ولكن ارنست هدأ روعها بالقول ان مس پونتفكس لو عرفت ما ستبلغه هذه الثروة من ضخامة لتركت أكثرها لثيوبولد . وقبلت كرستينا هذا التوفيق ، وعلى الرغم من مرضها تقبلت منذ تلك اللحظة الموقف الجديد بحماسة واتخذته نقطة جــديدة للبدء ، ثم راحت تنفق لارنست ثروته نيابة عنه .

ويجدر بى أن أقول فى الطريق ان كرستينا كانت محقة فى قولها ان

ثيوبولد لم يملك قط ثروة كبيرة كالثروة التى يملكها الآن ولده . ذلك أنه أولا لم يقض قاصرا أربعة عشر عاما دون نفقات تمنع نمو ثروته ، وثانيا لأنه اكتوى قليلا بأزمة عام ١٨٤٦ كما اكتويت أنا وكل الناس تقريبا — صحيح أن تأثره بها لم يبلغ مبلغا يعجزه تماما أو حتى يضره ضررا ذا بال ، ولكنه أفزعه وجعله يتشبث بالسندات الحكومية باقى حياته . بيد أن اثراء ولده أكثر منه ، واثراءه فى مثل هذه السن المبكرة ، هو الذى أثار حفيظة ثيوبولد على ارنست أكثر حتى من حصوله على الثروة أصلا . فلو أن ارنست أكره على الانتظار حتى يبلغ الستين أو الخامسة والستين ، فحطمه طول الفشل ، فربما سمح له أبوه فى هذه الحالة بمبلغ يكفى لتجنيبه حياة الملاجىء ولدفع نفقاته وهو يحتضر ؛ أما أن يرث سبعين ألفا من الجنيهات وهو فى الثامنة والعشرين دون أن يكون له زوجة أو أطفال أكثر من اثنين — فأمر لا يطاق . أما كرستينا فقد بلغ بها المرض وتعجل انفاق المال مبلغا منعها من الاهتمام الكثير بتفاصيل كهذه ، ثم انها كانت بطبيعتها أطيب كثيرا من ثيوبولد .

وقالت فى نفسها وقد أدركت الموقف بنظرة واحدة ، « أن هذه النفحة من نفحات الحظ قد محت تماما عار سجنه . كفى هراء عن هذا الموضوع . لقد كان الأمر كله غلطة ، غلطة منحوسة حقا ، ولكن كلما قل الكلام فى هذا الأمر كان ذلك خيرا . وبالطبع سيعود ارنست الى بيت أبيه ويعيش فى باترزبى حتى يتزوج ، وسيدفع لأبيه نفقات اقامته بسخاء . والواقع أنه من الانصاف أن يحقق ثيوبولد من وراء هذا ربحا ، ثم ان ارنست نفسه لن يرضى له الا بربح طيب ؛ ذلك أفضل ترتيب وأبسطه ؛ وسيخرج بشقيقته أكثر مما يخرج معها ثيوبولد وجوى ، وسيولم الولائم الفاخرة ولا ريب فى باترزبى .

« وبالطبع سيشترى لچوى وظيفة قسيس ، وسيغدق الهدايا السخية كل عام على شقيقته — أهناك شيء آخر أيضا ؟ أوه ! نعم — سيصبح الآن من أعيان الاقليم ، فمن حق رجل له دخل سنوى يناهز أربعة آلاف جنيه أن يصبح من أعيان الاقليم دون شك . بل انه ربما دخل البرلمان ، ان له مواهب طيبة جدا ، حقيقة انها لا تدانى عبقرية كعبقرية الدكتور سنكنر ، ولا حتى عبقرية ثيوبولد ، ولكن ليس فى مواهبه قصور ، فاذا دخل البرلمان — وفى هذه السن الصغيرة أيضا — لم يكن هناك ما يمنعه من الوصول فى يوم ما الى رياسة الوزارة قبل أن يموت ، فاذا أفلح فى ذلك فسيصبح بالطبع لوردا . أوه ! لِمَ لا يشرع فى هذا فورا ، حتى تعيش لتسمع الناس يخاطبون ولدها بـ « سيدى اللورد » — و « لورد باترزبى » يبدو فى عينها لقبا لا بأس به ، فاذا كانت فى صحة تتيح لها الجلوس للمصور فان ارنست بالطبع سيكلف مصورا بأن يرسم لها صورة بالحجم الطبيعى لتعلق فى جانب من جوانب قاعة طعامه الفسيحة . وينبغى أن تعرض فى الأكاديمية الملكية : « صورة والدة اللورد باترزبى » . قالت هذا لنفسها وراح قلبها يرف بكل حيويته المعهودة . « ولذا لم تستطع أن تجلس للمصور فان لها لحسن الحظ صورة شمسية أخذت لها منذ عهد غير بعيد جدا ، وكانت الصورة أنجح ما تكون صورة لوجه كوجهها ، يعتمد اعتمادا كليا على تعبيره . فلعل الرسام يستطيع أن يأخذ صورتها الزيتية من هذه الصورة الشمسية . على أية حال كان من الخير ترك ارنست وظيفته فى الكنيسة — ما أحكم تدبير الله لأمورنا عن تدبيرنا نحن لها ! لقد وضح لها الآن كل شيء — ان چوى هو الذى سيصبح رئيس أساقفة كانتربرى ، أما ارنست فسيظل علمانيا وسيصبح رئيسا للوزارة » .. وهكذا وهكذا حتى أخبرتها ابنتها أن الوقت قد حان لتتناول دواءها .

ان حلم اليقظة هذا ، الذى ليس الا قطعة صغيرة مما دار فعلا فى عقل كرستينا ، لم يستغرق فى ظنى سوى دقيقة ونصف ، ولكن معنويتها انتعشت انتعاشا عجيبا اما بفضل هذا الحلم واما لوجود ولدها . فأضاء وجهها على الرغم من مرضها ، بل من احتضارها وآلامها ، وابتهجت حتى لقد ضحكت مرة أو مرتين فى اغتباط كثير خلال الأمسية . وقال الدكتور مارتن فى الغد انها تحسنت كثيرا بحيث كاد يراوده الأمل فى شفائها ثانية . ولكن ثيوبولد كان كلما مس أحدهم هذا الموضوع هز رأسه وقال « لا نستطيع أن نرجو لها مزيدا من هذا! » . ثم انقضت تشارلت على ارنست فى غفلة منه قائلة « أنت تعلم يا عزيزى ارنست أن هذا الحديث الصاعد الهابط يثير أشجان پاپا كثيرا ؛ انه يستطيع أن يحتمل أى شىء ، ولكن مما يعذبه كثيرا أن يفكر فى أشياء مختلفة ، مرة الى الوراء ومرة الى الأمام ، صعودا وهبوطا ، فى الساعات الأربعة والعشرين ، وقد يكون من الأرفق به ألا تمضى فى هذا — أعنى ألا تقول له شيئا حتى ولو كان الدكتور مارتن يؤمل فى شفائها » .

وكانت تشارلت تقصد أن تضمن هذه العبارة معنى هو أن ارنست هو الأصل فى كل العناء الذى يحسه ثيوبولد وتحسه هى ، وچوى ، وكل انسان آخر ، وقد نطقت فعلا بألفاظ تحمل بين طياتها هذا المعنى ؛ صحيح أنها لم تجرؤ على التشبث بها وحولتها عنه ، ولكنها نطقت بها على أى حال لحظة قصيرة ، وكان هذا خيرا من لا شىء . ولاحظ ارنست خلال مرض أمه كله أن تشارلت كانت تجد المناسبات المباشرة لتسىء اليه كلما قال الطبيب أو الممرضة ان أمها تحسنت قليلا . فقد كتبت الى كرامپسفورد راغبة الى خالاتها فى أن يصلى شعب الكنيسة لأمها (لأنها واثقة أن هذه رغبة أمها ، وأن شعب كنيسة كرامپسفورد يسرهم أنها تذكرهم) ، وأرسلت

فى الوقت نفسه خطابا آخر فى موضوع مختلف تمام الاختلاف ، ثم وضعت كلا من الخطابين فى غلاف الآخر خطأ . وطلبت الى ارنست أن يحمل الخطابين الى مكتب بريد القرية ففعل فى غير حكمة ولا تحرز ، فلما كشف هذا الخطأ اتفق أن كرستينا كانت قد أفاقت قليلا . وثارت تشارلت فى وجه ارنست لتوها ، وألقت كل اللوم فى هذا الخطأ على كاهله .

واذا استثنينا ما طرأ على جسمى جوى وتشارلت من نمو وامتلاء ، فان البيت وساكنيه ، العضويين وغير العضويين ، لم يطرأ عليهم تغيير يذكر منذ رآهم ارنست آخر مرة . كان الأثاث والتحف الموضوعة على رف المدفأة هى هى كما كانت مذ استطاع أن يذكر أى شىء اطلاقا . ففى حجرة الزائرين رأى على كل جنب من جانبى الموقد صورة « كارلو دولتشى » وصورة « الساسو فراتو » معلقتين كعهده بهما من قديم ، كذلك الصورة المائية لمنظر على بحيرة ماجيورى ، وهى الصورة التى نقلتها تشارلت من أصل أعاره اياها أستاذ التصوير الذى أشرف على لمساتها الأخيرة . هذه هى الصورة التى قال أحد الخدم انها لابد حسنة لأن مستر پوتتفكس دفع عشرة شلنات ثمنا لاطارها . كذلك لم يتغير الورق الذى كسيت به الجدران ، فالورود ما تزال تنتظر النحل ، والأسرة كلها ما تزال تصلى ليل نهار « لكى تكون أمينة مدققة حقا » .

ولم تنزع من الحجرة غير صورة واحدة ، هى صورته الشمسية التى كانت فى القديم معلقة تحت صورة لأبيه وبين صورة لأخيه وأخرى لأخته . ولاحظ ارنست هذا فى ساعة الصلاة ، بينما كان أبوه يقرأ عن فلك نوح وكيف أنهم طلوه بالطين ، واتفق أن كانت الآية آية ارنست المفضلة وهو صبى . على أن الصورة وجدت سبيلها ثانية الى مكانها فى صبيحة الغد ، وقد كساها بعض الغبار وتطاير شطر من الغلاف المذهب من ركن من

الاطار . ولكنها عادت على أى حال ما فى ذلك ريب . وأحسب أنهم أعادوها الى مكانها حين رأوا ما أصاب ارنست من ثراء .

وكانت الغربان فى الصورة المعلقة فى حجرة الطعام ما تزال تحاول اطعام ايليا فوق المدفأة ، أى حشد من الذكريات أعادته هذه الصورة الى ذهنه ؟ واذ تطلع من النافذة رأى أحواض الزهر فى الحديقة الأمامية تماما كما عهدها ، ووجد ارنست نفسه يتطلع مدققا الى الباب الأزرق فى نهاية الحديقة ليرى هل المطر يتساقط ، كما كان يتطلع وهــو صبى يحفظ دروسه مع أبيه .

وبعد أن تناولوا عشاءهم المبكر ، وترك چون وارنست وأبوهمـا وحدهم ، وقف ثيوبولد وسط السجادة المفروشة أمام المدفأة وبدأ يصفر لحنا بطريقته الساهية القديمة ، ولم يكن يعرف سوى لحنين — أحدهما يبدأ بهذه الكلمات ، « فى كوخى القريب من احدى الغابات » ؛ والآخر هو لحن القيامة ؛ وكان يحاول أن يصفر اللحنين طوال حياته دون أن يفلح ؛ كان يصفرهما كما يصفرهما عصفور ماهر — فقد التقطهما ولكنه لم يلتقطهما على الوجه الصحيح ؛ فهو ينحرف نصف نغمة فى كل ثالث نغمة كأنه يرتد سلفا بعيدا فى الموسيقى ، لا يعرف من أساليبها ســوى الأسلوب الليدى أو الفريجى أو أى أسلوب يتيح له الانحراف الشديد مع احتفاظه باللحن قريبا قربا يكفى لتبيّنه . ووقف ثيوبولد أمام وسط المدفأة وراح يصفر لحنيه فى هدوء بطريقته القديمة الى أن غادر ارنست الغرفة ؛ فقد شعر أن بقاء الظاهر ثابتا مع تغير الباطن يوشك أن يقلب توازنه رأسا على عقب .

ومشى فى الأجمة المخضلة الكائنة خلف البيت وروّح عن نفسه بتدخين قصبة من التبغ . وبعد قليل وجد نفسه يقف على باب الكوخ الذى يسكنه

سائق أبيه . وكان السائق قد تزوج خادمة عجوزا من خادمات أمه ، كان ارنست على الدوام متعلقا بها تعلقها به ، لأنها عرفته مذ كان صبيا فى الخامسة أو السادسة . وكان اسمها سوزن . وجلس فى الكرسى الهزاز أمام المدفأة ، وراحت سوزن تكوى ملابسها على المنضدة أمام النافذة ، وانتشرت فى المطبخ رائحة « القافلة » الساخنة .

وكانت كرستينا قد أبقت سوزن فى خدمتها وقربتها تقريبا وثيقا لا ينتظر معه انحيازها الى صف ارنست دفعة واحدة . وكان عليما بهذا ، فلم يزرها ابتغاء تأييدها المعنوى أو غير المعنوى . انما زارها لأنه يحبها ، ويعرف أنه سيحصل من الحديث معها على كثير مما لا يستطيع الوصول اليه بغير هذا .

وقالت سوزن « أواه يا سيد ارنست ، لِمَ لم تعد حين كان أبوك وأمك المسكينان يريدانك أن تعود ؟ أؤكد لك أن ماما قالت لى مائة مرة بأن كل شىء سيعود كما كان تماما » .

وابتسم ارنست بينه وبين نفسه . ولم يكن يجدى أن يشرح لسوزن لم ابتسم ، لذلك لم يقل شيئا .

« لقد ظننت فى اليومين الأولين أنها لن تستطيع أبدا أن تتغلب على الصّدمة ؛ قالت انه قضاء كتب عليها ، وراحت تنقب عن أشياء قالتها أو فعلتها منذ سنوات طويلة ، قبل أن يعرفها أبوك ، ولست أدرى ما الذى لم تقله أو كانت ستقوله لولا أننى منعتها ؛ وبدت أنها فقدت رشدها ، وقالت ان آحدا من الجيران لن يكلمها بعد اليوم ، ولكن فى اليوم التالى زارتها مسز بشبى (واسمها قبل زواجها الآنسة كاوى) وكانت أمك دائما شديدة التعلق بها ، ويبدو أن زيارتها أفادتها كثيرا ، لأنها فى اليوم التالى استعرضت كل ملابسها وقررنا التعديلات التى تجرى عليها ؛ ثم جاء

الجيران جميعهم من أميال وأميال حولنا ، وجاءت أمك هنا وقالت انها كانت تجتاز مياه الضيق والحزن ، وأن الرب صيرها ينبوعا (*) .

وقالت لى « نعم يا سوزن ، ثقى أن هذا حق . فالذى يحبه الرب يؤدبه يا سوزن » وهنا عاودت البكاء . ثم مضت تقول « أما هو فقد أخطأ وعليه أن يحتمل عواقب فعلته ؛ فاذا خرج من السجن فان أباه سيعرف ما ينبغى أن يفعله لخيره وليشكر السيد ارنست حظه لأن له أبا فى مثل هذه الطيبة وطول الأناة » .

« وحين أبيت أن تقابلهما كان ذلك لطمة قاسية لأمك . أما أبوك فلم يقل شيئا ، وأنت تعلم أن أباك لا يتكلم كثيرا مالم يكن غاضبا جدا ؛ ولكن أمك ساءت حالها أياما ، ولم أر قط سيدى فى مثل هذا التجهم ؛ ولكن الأمر كله زال أثره وحياتك بعد بضعة أيام ، ولست أعلم أنه طرأ على أيهما تغير كبير منذ ذلك الوقت الى أن أصيبت أمك بعلتها هذه » .

وفى ليلة وصوله تأدب ساعة الصلاة العائلية ، وكذلك فعل فى الصباح التالى ؛ وقرأ أبوه عن وصية داود على فراش موته لسليمان فى أمر شمعى (**) ، ولكنه لم يهتم بالأمر . على أنه خلال ذلك النهار كان قد أوجع مرات ومرات حتى ساء طبعه فى الليلة الثانية لوصوله . وركع الى جوار تشارلت وردد اجابات الصلاة فى تكلف لم يبلغ مع هذا مبلغا يجعلها توقن أنه يرددها بخبث وسوء نية ، ولكنه بلغ الحد الذى يجعلها فى شك من خبثه أو عدم خبثه ، ولما اضطر الى أن يصلى طالبا العون على أن يكون أمينا مدققا حقا اتكأ على كلمة « حقا » . ولست أعلم هل لاحظت تشارلت

(*) « عابرين فىَ وادى البكاء يصيرونه ينبوعا » (مزمور ٨٤ ـ ٦)
(**) « والآن فلا تبرره لأنك أنت رجل حكيم ، فاعلم ما تفعل به ، وأحدر شيبته بالدم الى الهاوية » (الملوك الأول ٢ ـ ٩)

شيئا ، ولكنها أخذت تجثو للصلاة على بعد منه خلال الأيام الباقية من زيارته . وقد أكد لى ارنست أن هذا هو الشيء الخبيث الوحيد الذى أتاه خلال مقامه فى باترزبى .

ولما مضى الى حجرة نومه التى يقتضينى الانصاف أن أقول انهم أوقدوا له فيها نارا ، لحظ من جديد ما كان قد لحظه حالما قادوه اليها عند وصوله ، وهو أن فوق فراشه بطاقة مزخرفة وضعت فى اطار زجاجى وكتبت عليها هذه العبارة « سواء أكان النهار متعبا أم طويلا ، فهو فى النهاية مؤذن بترنيمة المساء » . وساءل نفسه كيف يترك القوم بطاقة كهذه فى حجرة ينفق زوارهم آخر ساعات الليـل فيها ، ولكنه تجاوز عن الأمـر . وقال « ليس بين لفظى « متعب » و « طويل » فرق يبرر استعمال كلمة « أم » ، ولكن أظن أن لابأس بالعبارة » وأعتقد أن كرستينا قد اشترت البطاقة من سوق خيرية لتساعد على ترميم كنيسة مجاورة ، واذ اشترتها كان لابد لها من أن تستعملها — أضف الى ذلك أن العاطفة التى تنطوى عليها العبارة كانت مؤثرة جدا وأن الزخرف كان فى الحق جميلا . على أية حال ما كان لمفارقة أن تكون أتم من ترك هذه البطاقة فى حجرة بطل قصتى ، وان لم يقصد القوم طبعا الى أية مفارقة .

وفى اليوم الثالث لوصول ارنست انتكست كرستينا مرة أخـرى . كانت لا تحس ألما فى اليومين الأخيرين ، وقد نامت فيهما كثيرا ، وكان وجـود ولدها ما يزال يبهجها ، وقالت غـير مـرة انها ممتنة جـدا لأنها محاطة على فراش موتها بأسرة سعيدة جدا ، تقية جدا ، متحدة جدا ، ولكن عقلها بدأ الآن يشرد ، وازدادت فزعا من أفكار يوم الحساب لأنها أصبحت أشد احساسا بدنو الموت .

وحاولت أكثر من مرة أو مرتين أن تعود الى موضـوع خطاياها ،

وتوسلت الى ثيوبولد أن يستوثق تماما من أنها مغفورة لها . وألمعت الى أنها تعد سمعته المهنية فى خطر ، فلا يصح أبدا أن تفشل زوجته فى ضمان المرور ، على الأقل ، للعالم الآخر . ومسّ هذا ثيوبولد فى موضع حساس ، فجفل وأجاب من فوره بهزة من رأسه تنم عن نفاد صبره « ولكنها مغفورة لك فعلا يا كرستينا » ، ثمَّ تحصّن خلف الصلاة الربانية فى تشبث يخالطه الوقار . ولما نهض من صلاته غادر الحجرة ، ولكنه نادى ارنست ليقول له انه لا يتمنى أن تطول هذه الحال .

ولم يكن چوى أكثر نفعا من أبيه فى تهدئة مخاوف أمه — والحق أنه كان ثيوبولد آخر مضافا اليه الماء ، وأخيرا تكفل ارنست بالأمر مع عدم ميله للتدخل فيه ، فجلس الى جوارها وتركها تسكب حزنها له دون عائق أو حرج .

قالت انها تعلم أنها لم تبذل كل شيء فى سبيل المسيح ، هذا هو الذى يثقل كاهلها . لقد بذلت كثيرا ، وحاولت على الدوام أن تبذل المزيد عاما بعد عام ، ومع ذلك فهى عليمة أنها لم تكن روحانية التفكير كما ينبغى . فلو كانت كذلك لجاز أن ينعم عليها برؤيا أو رسالة مباشرة ، ولكن الله الذى منح هذه الزيارات الملائكية المباشرة المنظورة لأحد أبنائها الأعزاء لم يجد عليها ولا حتى على ثيوبولد بنصيب منها .

وكانت تكلم نفسها أكثر مما تكلم ارنست وهى تنطق بهذه الألفاظ ، ولكنها جعلته يفتح أذنه ، فأراد أن يعرف هل ظهر الملاك لچوى أم لتشارلت . وسأل أمه ، ولكن الدهشة بدت عليها كأنها افترضت أنه يعرف عن الأمر كل شيء ، ثم تمالكت نفسها كأنها تذكر شيئا وقالت « آه ! نعم — انك تجهل كل شيء عن هذا الأمر ، ولعل الخير فى هذا » . ولم يستطع ارنست بالطبع أن يلح عليها فى أن تخبره ، وهكذا لم يتح له قط أن يعرف

أى أقاربه الأقربين كانت له هذه الصلة المباشرة بملاك خالد . أما الباقون فلم يذكروا له عن الأمر شيئا ، وان لم يستطع أن يجزم بالسبب ، أهو خجلهم أم خشيتهم ألا يصدق القصة فيزيد بذلك فى دينونته .

وطالما فكر ارنست فى الأمر بعد ذلك . وقد حاول أن يصل الى الحقائق من سوزن لأنه كان واثقا أنها على علم بها ، ولكن تشارلت كانت سبقته اليها . وقالت سوزن حين بدأ يسألها « لا يا سيد ارنست ، ان أمك أرسلت لى رسالة عن طريق مس تشارلت تخبرنى ألا أقول عن هذا الأمر شيئا على الاطلاق ، ولن أقول » . وبالطبع لم يكن ممكنا أن يلح عليها . وخطر لارنست غير مرة أن تشارلت فى الواقع لا تؤمن بهذا الأمر أكثر مما يؤمن ، وقوت هذه الحادثة ظنه الى حد كبير ، ولكنه تردد حين ذكر كيف أخطأت فى توجيه الخطاب الذى طلبت فيه الى شعب الكنيسة أن يصلوا لأجل أمها . وقال لنفسه فى اكتئاب « يخيل الى أنها تؤمن به حقا رغم هذا » .

ثم عاودت كرستينا الحديث فى موضوع افتقارها الى الروحانية ؛ بل انها ألحت كثيرا على خطيئة أكل الفطائر المصنوعة من دم الخنزير — حقيقة أنها أقلعت عن أكلها منذ سنوات ، ولكن كم من السنين ظلت تأكلها بعد أن خامرتها الظنون فى أن هذا الأكل حرام ؟ ثم هناك شىء آخر يثقل عقلها ، وقد حدث قبل زواجها ، وهى تود —

وقاطعها ارنست قائلا « يا أمى العزيزة ، انك مريضة وعقلك مرهق ؛ وغيرك أقدر منك الآن على الحكم فى أمرك ؛ وأؤكد لك أنك فى رأيى كنت أكثر الزوجات والأمهات اخلاصا وانكارا للذات . وحتى لو كنت لم تبذلى ، بالمعنى الحرفى ، كل شىء لأجل المسيح ، فانك من

الناحية العملية بذلت على قدر ما فى طاقتك ، ولا يطلب من انسان أكثر من هذا . وأعتقد أنك لن تكونى قديسة وحسب ، بل وقديسه ممتـــازة جدا » .

وأشرقت أسارير كرستينا لهذه الكلمات، وبكت وصاحت وهى تكفكف عينيها « انك تفتح لى باب الأمل ، انك تفتح لى باب الأمل » . وجعلته يؤكد لها المرة بعد المرة أن هذا هو اعتقاده الجازم ؛ ولم يكن يهمها الآن أن تكون قديسة ممتازة ؛ فهى قانعة تماما بأن تسلك فى عـــداد أصغر الداخلين فعلا الى السماء اذا وثقت من النجاة من جهنم الرهيبة . وكان خوف هذا المصير فيما يبـــدو يملأ عليها وجودها ، وعلى الرغم من كل ما استطاع ارنست أن يقوله لها فانها لم تطرد هذا الخوف تماما . ولابد لى من الاعتراف بأنها كانت ناكرة للجميل بعض الشىء ، لأنها بعد أن قضى ارنست أكثر من نصف ساعة يسرّى عنها ، صلت لأجله ضارعة أن ينال كل بركة فى هذا العالم ، لأنها كانت تخشى دائما أن يكون الوحيد من أولادها الذى لن تلقاه أبدا فى السماء ؛ على أنها كانت فى هذه اللحظة شاردة العقل ، ولم تكد تشعر بوجوده ؛ والواقع أن عقلها كان يرتد الى الحالات التى كانت عليها قبل مرضها .

وفى يوم الأحد ذهب ارنست الى الكنيسة بطبيعة الحال ، ولاحظ أن مد « الانجيلية » الدائم الانحسار قد انحسر درجات كثيرة حتى فى سنوات غيابه القليلة . كان أبوه قد ألف أن يذهب الى الكنيسة مخترقا حديقة بيته عابرا حقلا صغيرا بين البيت والكنيسة . وكان يرتدى قبعة عالية بشريطين متدلين على صدره كالرعاة الكلفنيين . ولكن ارنست لاحظ الآن أنه لم يعد يلبس هذين الشريطين ، وأدهشه أكثر من ذلك أنه لم يكن يعظ

فى ردائه الجامعى ولكن فى عباءة كهنوتية بيضاء . وتغير وجه الخدمة الدينية كله ؛ صحيح انه لا يستطيع القول حتى الآن بأنها خدمة الحزب الطقسى فى الكنيسة ، لأن ثيوبولد ما كان ليستطيع بحال أن يصبح من أتباع هذا الحزب ، ولكن طابع البساطة القديمة — بل اهمال المظاهر والبذاذة اذا جاز لى أن أقول هذا — قد ذهب الى الأبد . وصحيح أن الأوركسترا المرافق للترانيم كان قد اختفى وبطل قصتى ما يزال صبيا ، ولكن ترتيل « الألحان الكنسية » ظل بضع سنوات لا تمارسه الكنيسة بعد أن أدخلت « الهرمونيوم » . على أنه بينما كان ارنست فى كمبردج أقنعت تشارلت وكرستينا ثيوبولد بأن يسمح بترتيل هذه الألحان الكنسية ، فرتلت وفق الألحان الزوجية العتيقة التى وضعها لورد مورلنجتون والدكتور دپوى وغيرهما . ولم يحب ثيوبولد هذا ، ولكنه فعله ، أو أذن بفعله .

ثم قالت كرستينا « أتعلم يا عزيزى ، أننى حقـا أفكر (وكرستينا كانت دائما تفكر « حقـا ») أن الناس يحبون ترتيل الألحان الكنسية حبا جما ، وسيكون هذا من وسائل جذب الكثيرين الى الكنيسة ممن ظلوا الى اليوم بعيدين عنها . وكنت أكلم فى هذا مسز جودهيو والآنسة رايت العجوز أمس فقط ، فوافقتانى تماما على رأيى ، ولكنهما أجمعتا على أننا ينبغى أن ننشد « المجد لله » ترتيلا فى نهاية كل مزمور بدلا من أن نقرأها قراءة . »

وتجهم وجه ثيوبولد — فقد شعر أن بدعة ترتيل الألحان الكنسية تغمره مياهها شيئا فشيئا ، ولكنه شعر أيضا لسبب لا يدريه أن التسليم خير له من المقاومة . وهكذا أمر بأن ترتل « المجد لله » ترتيلا ، ولكنه لم يحب هذا .

وقالت تشارلت حين كسبت المعركة « يا عزيزتى ماما ، يجب ألا نسميها « المجد لله » — بل « جلوريا » .

وأجابت كرستينا « بالطبع يا عزيزتى » ، ثم سمّتها « جلوريا » منذ ذلك اليوم . وتأملت حذق تشارلت العجيب ، وكيف أنها يجب أن تتزوج رجلا لا يقل مركزه عن مركز الأسقف . وبعدقليل ، حين سافر ثيوبولد لقضاء عطلة صيفية طالت عـلى غير العادة ، لم يجد من يقوم بعمله فى أجازته غير رجل من رجال الدين ذى نزعات طقسية . وكان هذا السيد ذا شـأن فى الناحية ، لأن له دخلا خاصا لا بأس به ، ولكنه بغير وظيفة كهنوتية . وكثيرا ما كان يعين اخوته من رجال الدين فى الصيف ، وقد استطاع ثيوبولد أن يسافر فى أجازة طويلة بفضل تطوعه للحلول محله فى باترزبى بضعة آحاد . على أن ثيوبولد حين عاد وجد أن جميع المزامير — لا « المجد لله » فقط — كانت ترتل ترتيلا . وواجه رجل الدين القوى النفـوذ ، وكرستينا ، وتشارلت ، المشكلة بشجاعة حال عودة ثيوبولد ، وصرفوها كلها بضحكة ؛ فضحك رجل الدين وصانع ثيوبولد ، وضحكت كرستينا وتملقته ، وأعربت تشارلت عن عواطف رقيقة لا غبار عليها ؛ وقضى الأمر ، ولم يكن من سبيل الى نقض ما أبرم ، ولم يكن جدوى من التحسر على شىء فات ؛ وهكذا كان على الشعب منذ الآن أن يرتلوا المزامير ، ولكن ثيوبولد تجهّم فى داخله ولم يحب هذا .

ثم ماذا تعمد اليه بعد ذلك مسز جودهيو ومس رايت العجوز فى هذه العطلة الآ أن توليا وجهيهما الى الشرق وهما تتلوان « العقيدة المسيحية » ؟ وكره ثيوبولد هذا أكثر حتى من كرهه لترتيل المزامير . فلما تكلم فيه على استيحاء وهم يتناولون الطعام بعد الخدمة الدينية قالت « تشارلت »

الحق يا بابا العزيز يجب أن تعوّد نفسك أن تقول « قانون الايمان » بدلا من « العقيدة » ، وجفل ثيوبولد متبرما ونفخ بمنخريه فى تحد ضعيف ، ولكن روح خالتى تشارلت چين والبزا كانت قوية فيها ، وكان الأمر أتفه من أن يستحق النضال فى سبيله ، لذلك صرفه بضحكة . وقالت كرستينا لنفسها « أما تشارلت فانى أعتقد أنها تعرف كل شيء » وهكذا مضت مسز جودهيو ومس رايت العجوز توليان وجهيهما الى الشرق أثناء تلاوة قانون الايمان ، وبعد قليل اقتدى الآخرون بهما ، ولم يمض طويل زمن حتى استسلم القلائل الذين صمدوا فيمسوا هم الآخرون وجوههم صوب الشرق أيضا ؛ وهنا تظاهر ثيوبولد أنه كان يعتقد أن هذا صواب ومناسب جدا منذ البداية ، ولكن الواقع أنه لم يحبه . وبعد قليل حاولت تشارلت أن تحمله على أن يقول « ألليلويا » بدلا من « هللويا » ولكن هذا كان تجاوزا للحدود ، فثار ثيوبولد ، وخافت هى ولاذت بالفرار .

ثم استبدلوا بالألحان الزوجية ألحانا فردية ، وغيروها مزمورا فمزمورا ، وكانوا فى وسط المزامير ، حيث لا يرى القارىء العابر داعيا للتغيير ، ينقلون من المقام الكبير الى الصغير ثم يعودون من الصغير الى الكبير ؛ ثم استعملوا كتاب « التراتيل القديمة والحديثة » ، وحرموا ثيوبولد كما قلت من شريطية المحبوبين ، وجعلوه يعظ فى عباءة كهنوتية بيضاء ، وحتموا عليه الاحتفال بالعشاء الربانى مرة كل شهر بدلا من خمس مرات فقط فى السنة كما كان يفعل من قبل ، وعبثا قاوم التأثير غير المنظور الذى شعر بأنه لا ينى ، فى مناسبة وغير مناسبة ، عن العمل لهدم كل ما ألفه من أخص خصائص حزبه الكنسى . أما أين يوجد هذا التأثير ، أو ما هو ، فأمر لا يعرفه ، كذلك لا يعلم على التحقيق ماذا تكون خطوته التالية ، ولكنه يعلم علم اليقين أنه أنّى ذهب فهو يدمره تدميرا ؛ وأنه أشد منه

مثابرة والحاحا ، وأن كرستينا وتشارلت تحبان هذا التأثير أكثر مما يحبه هو ، وأنه لا يمكن أن ينتهى الا بالكثلكة . أزينات فى عيد الفصح ! ان زينات عيد الميلاد — اذا كانت معتدلة — لا اعتراض عليها ، ولكن زينات فى عيد القيامة ! حسن ، لعل الأمور تظل كما هى الى أن تنتهى أيامــه .

كذلك سارت الأمور سيرها فى الكنيسة الانجليزية خلال السنوات الأربعين الأخيرة . كان الاتجاه باطراد فى ناحية واحدة . فقد استخدم نفر استقر على رأى أمثال كرستينا وتشارلت مخالب قطط ، واستخدم هؤلاء نساء كمسز جودهيو ومس رايت العجوز مخالب قطط ، وأخبرت مسز جودهيو ومس رايت العجوز وأمثالهما أزواجهن وأخواتهن بما يجب أن يفعلوا ، فلما فعلوه حاكاهم فيه أبناؤهم الصغار وبقية الرعية ، أما ثيوبولد وأشباهه فلا وزن لهم ، وهكذا تم الأمر خطوة فخطوة ، ويوما بعد يوم ، وعاما بعد عام ، وأبرشية بعد أبرشية ، وأسقفية بعد أسقفية . ومع ذلك فالكنيسة الانجليزية لا تنظر بعين الود الى نظرية التطور أو تسلسل الكائنات تسلسلا معدلا .

وفكر بطل قصتى فى هذه الأشياء ، وتذكر الخدع الكثيرة التى احتالت بها كرستينا وتشارلت ، وتفاصيل النضال الكثيرة التى لا أستطيع أن أقطع قصتى بالاشارة اليها أكثر مما قطعتها ، وتذكر رد أبيه المفضل — وهو أن هذا كله لا يمكن أن ينتهى الا بالكثلكة . كان ارنست يعتقد هذا اعتقادا راسخا وهو صبى ، ولكنه الآن تبسم حين فكر فى بديل آخر واضح تمام الوضوح ، ولكنه فظيع الى حد لم يخطر معه ببال ثيوبولد — وأنا أعنى بهذا البديل انقلاب النظام كله رأسا على عقب . ورحب ارنست يومها

بهذا الأمل ، وهو أن تنتهى سخافات الكنيسة وأوهامها بسقوطها . ولكن تفكيره تغيّر بعد هذه الفترة تغيرا كبيرا ، لا لأنه آمن بالأوهام أكثر من قبل ، أو أكثر من تسعة أعشار رجال الدين أنفسهم على الأرجح — أولئك الذين يعلمون مثله أن رموزهم الظاهرة والمنظورة انتهى زمانها — بل لأنه يعلم ما فى المعضلة من تشعب محيّر ان أراد المرء أن يقرر أى الأشياء يجب عمله فعلا . كذلك أصبح الآن أكثر خبرة بطبيعة الذئاب التى تتخفى فى ثياب الحملان بعد أن رآها عن كثب — هذه الذئاب المتعطشة لدم الضحية ، المتهللة لقرب وقوعها بين أنيابها . ان الروح الكامنة خلف الكنيسة روح صادقة ، وان لم يعد الحرف صادقا كما كان فى الماضى . أما الروح الكامنة خلف « كبار كهنة العلم » فكاذبة كالحرف سواء بسواء . وأمثال ثيوبولد ممن يفعلون ما يفعلون لأنه يبدو صوابا فى أعينهم ، ولكنهم فى قلوبهم لا يحبونه ولا يؤمنون به ، هم فى الحقيقة أقل الطبقات جميعها خطرا على سلام النوع الانسانى وحرياته . أما الرجل الذى يحق لنا أن نخافه فذلك الذى يتناول الأشياء فى ثقة مسرفة ، ثقة الغرور والسوقية الثقيلة ، وهى رذائل لا يمكن أن يتهم بها بحق رجال الدين الانجليزى .

وجاء كثير من المزارعين الى ارنست حين انتهت الصلاة وصافحوه . فوجد أن الجميع علموا بنبأ ما ورث من مال . والواقع أن ثيوبولد كان قد أخبر على الفور اثنين أو ثلاثة من أكبر الثرثارين فى القرية ، فلم يمض طويل وقت حتى سرت القصة بين أهلها . وقال لنفسه « ان هذا سهّل الأمور تسهيلا كبيرا » . وتأدب ارنست مع مسز جودهيو اكراما لزوجها ، أما مس رايت فقد تجاهلها دون تردد ، لأنه علم أنها ليست سوى تشارلت متنكرة فى ثياب أخرى .

واقضى أسبوع فى بطء . وتناولت الأسرة القربان مرتين أو ثلاثا معا

حول فراش كرستينا المحتضرة . وأصبح تبرم ثيوبولد أشد وضوحا يوما بعد يوم ، ولكن كرستينا لحسن الحظ ازدادت وهنا على وهن ، وقلّت أفكارها تماسكا (وحتى لو كانت فى صحة جيدة لأغضت عن تبرمه) لذلك فاتها تبرمه أو كاد . وبعد أن قضى ارنست فى البيت زهاء أسبوع راحت أمه فى غيبوبة دامت يومين ثم فاضت روحها بسلام ، وما كان أشبه موتها بامتزاج البحر والسماء وسط المحيط فى يوم غائم لطيف ، حيث لا يستطيع الانسان أن يقول أين تنتهى الأرض وأين تبدأ السماوات . والحق انها فى غيابها عن حقائق الحياة كانت أقل تألما منها وهى تفيق من كثير من أوهامها .

وقال ثيوبولد حين قضى الأمر « لقد كانت عزاء حياتى وسندها أكثر من ثلاثين عاما ، ولكن المرء لا يمكن أن يتمنى لها مزيدا من آلامها » ثم دفن وجهه فى منديله ليخفى فتوره .

وعاد ارنست الى لندن غداة موت أمه ، ثم رجع ليحضر المأتم بصحبتى . وقد رغب الى فى مقابلة أبيه تفاديا لأى سوء فهم قد يتبادر الى ذهنه بشأن نوايا مس پونتفكس ونظرا لطول صداقتى للأسرة لم يكن حضورى مأتم كرستينا ليدهش أحدا . لقد كنت على الدوام أميل الى كرستينا مع كل عيوبها . صحيح أنها ما كانت لتمانع فى تقطيع ارنست أو أى انسان غيره اربا اربا لترضى أتفه رغبات زوجها ، ولكنها ما كانت تقطعه لغيره من الناس أيا كان ، وما دام لا يثير غضبها فقد كانت شديدة الولع به . وكانت بطبيعتها هادئة الطبع ، أميل الى السرور منها الى الكدر ، مستعدة أتم الاستعداد للعمل الطيب ، بشرط ألا يكلفها جهدا كبيرا أو يكلف ثيوبولد نفقة كثيرة . ولم تكن شديدة الحرص على كيس نقودها الصغير ؛ فلأى انسان أن يأخذ منه ما شاء بعد أن تحتجز القسط الضرورى جدا لملبسها . ولم يسعنى أن أسمع بنهايتها كما وصفها لى ارنست دون أن

أشعر بالعطف الشديد نحوها ، بل ان ولدها نفسه ما كان ليشعر بهذا العطف أكثر مما شعرت ؛ لذلك وافقت من فورى على أن أذهب الى المأتم ؛ ولعلى أيضا كنت مدفوعا برغبتى فى رؤية تشارلت وجوى اللذين أثار اهتمامى بهما ما سمعت عنهما من ولدى بالعماد .

ووجدت ثيوبولد يبدو فى صحة سابغة . وقال الجميع انه يحتمل الصدمة احتمالا رائعا . حقيقة انه هز رأسه مرة أو مرتين وقال ان زوجته كانت عزاء حياته وسندها أكثر من ثلاثين عاما ، ولكن الأمر انتهى عند هذا الحد . ومكثت طوال اليوم التالى وكان يوم أحد ، ثم ودعت فى صباح الغد بعد أن أخبرت ثيوبولد كل ما أرادنى ولده أن أخبره به . وسألنى ثيوبولد أن أعينه فى اعداد عبارة الرثاء التى تكتب على شاهد قبر كرستينا .

قال لى « أود أن أوجز القول ما استطعت ؛ فمدائح الموتى هى فى أكثر الحالات غير ضرورية وغير صادقة معا . ان رثائى لكرستينا لن يحتوى شيئا من هذين . سأذكر اسمها ، وتاريخ ميلادها وموتها ، وبالطبع سأقول انها كانت زوجى ، وأظن أننى سأختم بآية بسيطة — آيتها المفضلة مثلا ، فليس أنسب منها فى الحق ، وهى : طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله » .

قلت له ان هذا فى ظنى سيكون جميلا جدا ، واستقر رأينا عليه . وهكذا أوفدنا ارنست بهذا الطلب الى مستر پروسر صانع الشواهد فى أقرب مدينة ، وقال الرجل بلهجته العامية ان الآية مأخوذة من «التطورات» .

الفصل الرابع والثمانون

وفى طريقنا الى المدينة فاتحنى ارنست بخططه التى وضعها لانفاق السنة أو السنتين التاليتين . كنت أريده أن يحاول الاختلاط بالمجتمع مرة أخرى ، ولكنه نحّى هذه الفكرة من فوره باعتبارها آخر شيء يستهويه . وكان ينفر نفورا لا يقهر من المجتمع بكل أنواعه فى الحق ، اذا استثنينا بالطبع صحبة عدد قليل من الأصدقاء الحميمين . وقال لى « كنت على الدوام أبغض أولئك النـاس وكانوا على الدوام يبغضوننى وسيظلون يبغضوننى . اننى منبوذ من المجتمع بالغريزة وبحكم الظروف أيضا ، ولكن بقائى خارج المجتمع سيجعلنى أقل تعرضا للأذى مما يتعرض له المنبوذون عموما . ففى اللحظة التى يختلط فيها انسان بالمجتمع يتعرض للهجوم من جميع جوانبه » .

وأسفت أشد الأسف اذ سمعته يتحدث بهذه الطريقة ؛ لأنه أيا كانت قوة الانسان ، فلا ريب أنه أقدر على الافادة منها اذا عمـل فى جمـاعة أكثر مما اذا عمل منفردا . وصارحته برأيى هذا .

فأجاب « لا يهمنى أن أزيد فى الافادة من قوتى أو لا أزيد ؛ ولست أدرى هل أملك قوة على الاطلاق ، فان كنت أملكها فلعلها تجد طريقا تشقّه لنفسها . سأعيش كما أحب أن أعيش ، لا كما يحب غيرى من الناس لى أن أعيش ؛ وانى بفضل عمتى وبفضلك أستطيع أن أوفر لنفسى ترف حياة كلها متعة ، ولكنها هادئة منزوية عن الناس » قال هذا ضاحكا ثم مضى يقول « وأنا مصمم أن أوفر لنفسى هذه الحياة » . ثم أضاف بعد

أن توقف دقائق « أنت تعلم أننى أحب الكتابة . وقد ظللت سنوات كويتبا مغمورا . فاذا قدّر لى أن أتقدم الى الطليعة اطلاقا ، فلابد أن يكون هذا عن طريق الكتابة » .

وكنت أنا نفسى قد انتهيت الى هذه النتيجة منذ زمن طويل .

وواصل حديثه قائلا « حسنا ، هناك أشياء كثيرة يجب أن تقال ولا يجرؤ أحد على قولها ، هناك كثير من الزيف والضلال الذى يجب أن يهاجم ، ومع ذلك فلا أحد يهاجمه . ويبدو لى أننى أستطيع أن أقول أشياء لن يجرؤ على قولها رجل سواى فى انجلترا ، وهى مع ذلك تصرخ طالبة أن تقال » .

قلت له : « ولكن من يصغى اليك ؟ فاذا كنت تقول أشياء لا يجرؤ غيرك على قولها ، أفلا يكون هذا كقولك أشياء يعرف كل انسان الآن أن من الخير تركها الآن دون الحديث عنها ؟ » .

وقال « ربما ، ولكنى لا أعلم هذا ؛ اننى مفعم بهذه الأشياء ، وقد قدّر علىّ أن أقولها » .

وأيقنت أن لا سبيل الى منعه فاستسلمت . وسألته أى الموضوعات يشعر برغبة قوية فى أن يحرق بها أصابعه أولا .

وأجابنى على الفور « موضوع الزواج ، وقدرة الرجل على التصرف فى ثروته بعد موته . ان موضوع المسيحية قد فصل فيه فى الواقع ، فاذا لم يكن فصل فيه فليس هناك نقص فى عدد الذين يشتغلون بالفصل فيه . أما موضوع الساعة فهو الزواج ونظام الأسرة » .

وقلت فى جفاف « هذا عش زنبار حقا » .

وقال فى لهجة لا تقل جفافا « نعم ، ولكن أعشاش الزنابير هى بالضبط ما يستهوينى . على أننى قبل أن أبدأ فى اثارة هذا العش بالذات أرى أن أسافر بضع سنوات تحقيقا لهدف خاص هو أن أتبين بنفسى أىّ الشعوب

التى تعيش اليوم أفضلها وألطفها صورة وأجدرها بالمحبة ، وأيها كان كذلك فى العصور الماضية . أريد أن أعرف كيف يعيش هؤلاء الناس ، وكيف كانوا يعيشون ، وما هى عاداتهم .

« ان عندى عن هذا الموضوع أفكار غامضة جدا حتى الآن ، ولكن الفكرة العامة التى كونتها عنه هى أننا — بصرف النظر عن شعبنا — نجد أن أصح الشعوب المعروفة وألطفها هم الايطاليون المحدثون ، وقدامى اليونان والرومان ، وسكان جزر البحار الجنوبية . وفى اعتقادى أن هؤلاء الأقوام الظرفاء لم يكونوا خلصا يأبون الامتزاج بغيرهم من الشعوب ، ولكنى أريد أن أرى من لا يزال فى الامكان رؤيته منهم ؛ فهم المرجع العملى فى هذا السؤال — أى الأشياء أفضل للانسان ؟ أود أن ألقاهم وأن أعرف ما يفعلون . فلنفرغ من هـذه الحقيقة أولا ثم نختلف على الميـول والاتجاهات الخلقية بعد ذلك » .

قلت ضاحكا « الواقع أنك تريد استعادة العهود الخالية المرحلة » .

وكان جوابه « لا أود أن أكون أكثر ولا أقل مرحا من قوم يتبين لى أنهم أفضل من عاش فى جميع العصور . ولكن دعنا نغير الموضوع » .

ووضع يده فى جيبه وأخرج منه رسالة وقال « أعطانى أبى هذه الرسالة هذا الصباح وخاتمها مفضوض » وسلمنى الرسالة فوجدت أنها هى التي كتبتها كرستينا قبل أن يولد طفلها الأخير ، والتى أوردت نصها فى فصل سابق .

وقلت له « وأنت لا تجد هذه الرسالة تؤثر فى النتيجة التى قلت الآن انك انتهيت اليها فى شأن خططك الحالية ؟ » .

وتبسم ثم قال « لا تأثير لها ، ولكنك ان نفذت ما كنت تتحدث عنـه

أحيانا وجعلت من مغامرات شخصي الضعيف قصة ، فلا تنس أن تورد فيها هذه الرسالة » .

قلت وأنا أشعر أن رسالة كهذه كان يجب أن تخفى عن عين القارىء تقديسا لها « ولِمَ هذا ؟ » .

« لأن أمي لو سئلت لودّت أن تنشر رسالتها ؛ ولو علمت أنك تكتب عني وأن هذه الرسالة فى حوزتك ، لكان أغلى أمانيها أن تنشرها . اذن فانشرها ان كتبت القصة اطلاقا » .

وهذا هو السبب فى نشرى الرسالة .

وبعد شهر أنفذ ارنست قصده ، فلما أنجز كل الترتيبات اللازمة لراحة ولديه غادر انجلترا قبل عيد الميلاد .

وكنت أتلقى رسائله بين الحين والحين فعلمت أنه يزور كل أنحاء الدنيا تقريبا ، ولا يمكث الا فى الأقطار التى يجد أهلها على جانب غير عادي من الوسامة واللطف . وقال لى انه ملأ قدرا هائلا من المذكرات ، ولست أشك فى أنه فعل . وأخيرا عاد فى ربيع ١٨٦٧ وقد اتسخت حقائبه بشتى أسماء الفنادق التى نزل بها بين انجلترا واليابان . كان يبدو شديد السمرة موفور القوة ، مشرقا جدا حتى لكأنه اكتسب بعض الجمال من الأقوام الذين عاش بين ظهرانيهم . وعاد الى مسكنه القديم فى حى التمپل واستقر فيه فى يسر وسهولة كأنه لم يبعد عنه يوما واحدا .

وكان من أول الأعمال التى قمنا بها أن ذهبنا وزرنا طفلى ارنست ؛ وأخذنا القطار الى جريڤز اند ، وسرنا من هناك أميالا على ضفة النهر حتى بلغنا البيت المتعزل الذى تسكنه الأسرة الطيبة التى أودعها ارنست طفليه . وكان صباحا جميلا من أيام ابريل ، يخالطه نسيم منعش يهب من

البحر ، والمدّ عال ، والنهر يشغَى بالسفن القادمة مع الريح والمدّ .
وكانت النوارس تحوم حول رءوسنا ، وأعشاب البحر تلصق فى كل مكان بالضفاف التى لم يغطها المدّ بعد ، وكل شيء تنبعث منه رائحة البحر ، وجعلنى الهواء النقى المنعش الذى يهب على الماء أشعر بالجوع شعورا لم أعرفه منذ أيام كثيرة ، ووجدت أن ليس فى الامكان أن يعيش الأطفال فى جو صحى أفضل من هذا الجو ، فأطريت اختيار ارنست هذه البقعة لولديه . واذ كنا لا نزال على ربع ميل من البيت سمعنا صياحا وضحك أطفال وتبينا جماعة من الصبيان والبنات يمرحون ويجرون الواحد خلف الآخر . ولم نستطع أن نميز طفلينا بينهم ، ولكن سرعان ما تيسر هذا حين دنونا منهما لأن غيرهما من الأطفال كانوا زرق العيون شقر الشعر مموجيه بينما كان طفلانا أسمرين مستقيمى الشعر .

وكنا قد كتبنا للأسرة نقول انا قادمان ، ولكنا رغبنا فى أن يكتم الأمر عن الطفلين ، لذلك لم يعيرانا من الاهتمام أكثر مما كانا يعيران أى غريب آخر يتفق له زيارة بقعة لا يطرقها غير الملاحين ، وكان واضحا أننا لسنا منهم . على أن الاهتمام بنا تزايد كثيرا حين اتضح أن جيوبنا ملأى بالبرتقال والحلوى الى حد جاوز خيال الأطفال المحدود . ووجدنا أول الأمر مشقة كبيرة فى حملهم على الدنو منا . كانوا كقطيع من الأمهار الصغيرة البرية ، فيهم حب استطلاع كثير ، ولكن فيهم الى ذلك خجل شديد ، ولا يسهل اغراؤهم . وكان عدد الأطفال تسعة — هم خمسة صبيان وبنتان لمستر رولنجز وزوجته ، وطفلان لارنست . ولم أر فى حياتى جماعة من الأطفال أبدع من أبناء رولنجز — كان الذكور منهم فتيانا أشداء صلابا لا يهابون شيئا ، لهم عيون صافية حادة كعيون الصقور ، وكانت الفتاة الكبرى رائعة الجمال ، أما الصغرى فلم تكن الا طفلة صغيرة . وشعرت

وأنا أتطلع اليهم أنه لو كان لى أطفال لما تمنيت بيتا يضمهم خيرا من هذا ولا عشراء خيرا من هؤلاء .

وكان واضحا أن طفلى ارنست جورجى وألس هما وغيرهما من الأطفال أسرة واحدة ، وكانا يدعوان مستر رولنجز وزوجته بالعم والعمة . كانا صغيرين جدا يوم أتينا بهما أول مرة الى البيت ، فنظر الناس اليهما كأنهما وليدان جديدان فى الأسرة . وكانا يجهلان أن مستر رولنجز وزوجته ينقدان مبلغا معينا كل أسبوع للعناية بهما . وسأل ارنست الأطفال جميعا ماذا يريدون أن يكونوا . فلم يكن لهم الا رأى واحد ؛ فهم جميعا بما فيهم جورجى يريدون أن يكونوا ملاحين علـى صنادل للبضاعة . لقد كان تعلقهم بالماء واضحا لا يمكن أن يبزهم فيه ولا صغار البط .

وقال ارنست « وماذا تريدين أن تكونى أنت يا ألس ؟ » .

فقالت « أوه ، سأتزوج چاك هذا وأكون زوجة ملاح » .

أما چاك هذا فأكبر الصبيان ، وكان قد سلخ من عمره اثنى عشر ربيعا تقريبا ، وبدا فتى متين البنية ، يعطيك صورة لما كان عليه مستر رولنجز فى سنه ولا ريب . واذ كنا نتطلع اليه وهو مستقيم العود موفور النمو من جميع النواحى استطعت أن أتبين أن رأى ارنست — كرأيى — هو أن الفتاة لا تستطيع أن تفعل خيرا من هذا .

وقالت ارنست « تعال هنا يا ولدى چاك ، اليك هذا الشلن » .

واحمر وجه الصبى ولم يستطع أحد حمله على أن يأتى بالرغم من كل ملاطفتنا السابقة ؛ لقد ألف أن ينفح بالبنسات من قبل ، أما الشلنات فلا . وأمسكه أبوه بلطف من أذنه وجره الينا .

وقال ارنست لمستر رولنجز « ان چاك ولد طيب ، أنا واثق من هذا » .

وقال مستر رولنجز بلهجته الريفية « نعم انه ولد طيب جدا ، ولكنى لا أستطيع أن أحمله على تعلم القراءة والكتابة . انه لا يحب الذهاب الى المدرسة — هذه هى شكواى الوحيدة منه — لست أدرى ماذا جرى لأطفالى جميعا ، وطفلاك يا مستر پوتنفكس ليس حالهما خيرا من حال أطفالى ، اذ لا أحد منهم يحب الدرس ، وان كانوا يتعلمون أى شىء آخر بسرعة . أما چاك هذا فهو لا يقل مهارة عنى فى الملاحة » . ثم نظر الى ذريته فى حب ورعاية .

وقال ارنست لمستر رولنجز « أظنه ان أراد أن يتزوج ألس حين يكبر فمن الخير أن يفعل ، وسيحصل على ما شاء من المراكب ، ولكن قل لى يا مستر رولنجز ، فى أى الوجوه يمكن أن ينفعك المال ، وأنا أضع تحت تصرفك كل مبلغ تستطيع الافادة منه » .

ولا حاجة بى الى القول أن ارنست يسّر الحياة على هذين الزوجين الطيبين ، على أنه أصر على شرط واحد ، وهو أن يكفا عن التهريب وأن يبعدا الصغار عن هذا الأمر ، ذلك أن عصفورة صغيرة أنبأت ارنست بأن التهريب المستور كان أحد موارد أسرة رولنجز . ولم يأسف مستر رولنجز على الموافقة على هذا الشرط ، وأعتقد أنه قد مضت الآن سنوات كثيرة لم يشتبه فيها خفر السواحل فى مخالفة أى فرد من أفراد أسرة رولنجز لقانون الدخل .

وقال لى ارنست فى القطار ونحن قافلان « لِمَ آخذ الطفلين من هذا البيت الذى يعيشان فيه لأبعث بهما الى مدارس لن يبلغا فيها نصف ما بلغا من سعادة فى هذا البيت ، ويكون فيها مولدهما غير الشرعى مبعث ضيق وتنغيص لهما فى أغلب الظن ؟ يريد جورجى أن يكون ملاحا ، فليبدأ حياته

ملاحا ، وكلما عجل كان ذلك خيرا ، وسيّان عندى هذه البداية أو أى بداية أخرى ؛ فاذا أظهر بعد ذلك تقدما استطعت أن أرقبه لأشجع تقدمه وأيسّر له الأمور ؛ أما اذا لم يظهر أى رغبة فى التقدم ، فأى خير فى أن أحاول دفعه قسرا الى الأمام ؟ » .

وأعتقد أن ارنست مضى يعظ عن التعليم عامة ، وعن الطريقة التى يجب أن يمر الأطفال فيها بالمراحل الجنينية فى أمر مالهم كما فى أمر أطرافهم ، بادئين الحياة فى وضع اجتماعى أدنى كثيرا من الوضع الذى كان فيه آباؤهم ، وقال أشياء كثيرة مما نشره بعد ذلك ؛ ولكنى كنت الآن أتقدم فى السن ، وقد بعث المشى والهواء المنعش النوم الى جفنى ، فقبل أن نبرح محطة جرينهايذ فى رحلة العودة رحت فى نوم لطيف جدّد نشاطى .

الفصل الخامس والثمانون

واستقر ارنست فى لنــدن وقد سلخ من عمــره نحو اثنين وثلاثين عاما . وبعد أن أطلق لنفسه العنان فى السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة ، ثم بدأ يكتب بانتظام . وكان الى هذا الوقت يبشر بأمل موفور ، ولكنه لم ينتج شيئا ، ولم يمثل أمام جمهور القراء الا بعد ثلاث سنوات أو أربع أخــرى .

وكان يعيش حياة هادئة جدا كما قلت ، فلا يكاد يلقى أحدا سواى ، وسوى الأصدقاء الثلاثة أو الأربعة القدامى الذين كنت على صلة حميمة بهم مدى سنوات طويلة . فألّفنا نحن وارنست « شلّتنا » الصغيرة ، وكان ولدى بالعماد مجهولا أو كالمجهول خارج نطاق هذه الجماعة .

أما أهم وجوه الانفاق عنده فهو السفر ، الذى كان يعكف عليه فى فترات كثيرة ، ولكن أسفاره لم تكن تستغرق الا أوقاتا قصيرة . ومهما بلغت نفقاته فانه لم يستطع أن يستنفد ألفا وخمسمائة من الجنيهات فى العام ، أما باقى دخله فكان يتبرع به اذا لقى قضية يظنها جديرة بالتبرع ، أو كان يدخره حتى تسنح فرصة للتخلص منه على نحو مفيد .

وكنت أعلم أنه يكتب ، ولكن كثرة ما بيننا من خلافات صغيرة فى الرأى عن هذا الموضوع جعلتنا لا نكاد نشير اليه كأن بيننا تفاهما صامتا ولم أكن أعلم أنه بدأ فعلا ينشر كتبه الا يوم جاءنى بكتاب وأخبرنى أنه من تأليفه . وفتحته فوجدته سلسلة من المقالات اختلط فيها الاجتماع باللاهوت وزعم أنها كتبت بأقلام ستة أو سبعة من المؤلفين المختلفين ، وكانت تبحث نوعا بعينه من الموضوعات من وجهات نظر متباينة .

ولم يكن الناس قد نسوا بعد الكتاب الشهير « مقــالات وبحوث نقدية » . وكان ارنست قد لمس فى خبث مقالين على الأقل من هذه المقالات لسنات أوحت ايحاء غامضا بأن كاتبهما أسقف . وكانت المقالات كلها تؤيد الكنيسة الانجليزية ، وبدا من الاشارات التى تضمنتها ، ومن مدلولها الظاهر ، أنها من تأليف ستة رجال ذوى خبــرة ومكانة رفيعة قرروا أن يواجهوا مشكلات الساعة العويصة بجرأة من داخل الكنيسة لا تقل عن الجرأة التى يواجهها بها أعداء الكنيسة من خارجها .

وكان من هذه المقالات مقال عن الشواهد الظاهرة على القيامة ؛ وآخر عن قوانين الزواج السائدة بين أعظم أمم الأرض فى الماضى والحاضر ، وخصص ثالث لبحث المسائل الكثيرة التى لابد من اعادة النظر فيها وبحثها بحثا موضــوعيا خالصا اذا أبطل سلطان تعــاليم الكنيسة الانجليزية على الناس . وتناول مقال آخر موضوعا اجتماعيا أخص وهو فقر الطبقة الوسطى ؛ وآخر حجية الانجيل الرابع أو على الأصح عدم حجيته ، وكان عنوان مقال آخر « المذهب العقلى اللاعقلى » ثم مقالان أو ثلاثة أخر .

وكانت كل المقالات مكتوبة بأقلام قوية لا تهاب كأن أصحابها ألفوا السلطة ؛ وقد سلمت كلها بأن الكنيسة تعترف بأنها تأمر الناس بالايمان فى مسائل كثيرة لا يستطيع من اعتاد أن يزن الأدلة والشواهد أن يقبلها ؛ ولكنها قالت ان كثيرا من الحقائق القيّمة قد اختلط بهذه الأخطاء اختلاطا دقيقا بحيث أصبح من الخير ألاّ تمس هذه الأخطاء . وما أشبه الاتكاء الكثير على هذه الأخطاء بمحاولة المغالطة فى حق ملكة انجلترة فى أن تملك بحجة أن وليم الفاتح كان ملكا غير شرعى .

وزعم مقال منها أنه ان كان تغيير ألفاظ كتاب الصلاة الذى نستعمله ومواد القانون الكنسى أمرا يضايقنا ، فلن يضايقنا أن نغير بطريقة هادئة

المعانى التى نخلعها على ما فيهما من ألفاظ . وقال الكاتب ان هـذا هو ما نصنعه فعلا بالقانون ؛ وان هذه كانت طريقة القانون فى النمو والتكيف ، وقد ثبت فى جميع العصور أنها طريقة تغيير أمينة مريحة . واقترح الكاتب أن تأخذ الكنيسة بها .

وفى مقال آخر أنكر الكاتب فى جرأة أن الكنيسة تقوم على العقل . وأثبت ببراهين لا تقبل الجدل أن أساسها النهائى كان وينبغى أن يكون الايمان ، لأنه ليس هناك فى الحق أساس نهائى غير هذا لأى معتقد من معتقدات الانسان . فاذا كان الأمر كذلك ، فالعقل — كما زعم الكاتب — يعجز عن قلب الكنيسة . فقد أسست كأى شىء آخر على افتراضات أولى ؛ أعنى على الايمان ، فاذا أريد قلبها فانما يكون قلبها بالايمان ، بايمان أولئك الذين يبدون فى حياتهم ألطف وأجدر بالمحبة ، وباختصار أحسن تهذيبا ، وأقدر على تذليل الصعوبات . فأى مذهب يبدى تفوقه فى هذه النواحى يستطيع أن يكتسح كل شىء أمامه ، أما غير هذا فلن يحرز تقدما كبيرا لفترة طويلة . والمسيحية حق بقدر ما احتضنت الجمال ، وقد احتضنت منه الكثير . وهى باطلة بقدر ما احتضنت القبح والدمامة ، وقد احتضنت منهما الكثير . اذن ففيها حق ليس بالقليل وباطل ليس بالقليل ؛ ويستطيع الانسان على العموم أن يمضى شوطا أبعد من هذا وتكون النتيجة أسوأ ؛ أما أحكم سبيل فهى أن يعيش بها راضيا لا يتمرد عليها . وزعم الكاتب أننـا بمجرد أن نبـدأ فى التحمس كثيرا لأى موضـوع فان النتيجة الطبيعية لذلك أن نضطهد غيرنا ؛ لذلك ينبغى ألا تفعل ، ينبغى ألا يشتد تحمسنا حتى لهذا النظام الذى هو أعز على الكاتب من أى نظام آخر — وهو كنيسة انجلترا . وينبغى أن نكون كنسيين ، ولكن فاترين نوعا ، لأن الذين يتحمسون كثيرا للدين أو للادين قلما يعرف عنهم التهذيب

أو اللطف الكثير . وعلى الكنيسة نفسها أن تقترب من كنيسة لادوكيه (*) على قدر ما يتفق هذا مع بقائها كنيسة على الاطلاق ، وعلى كل عضو أن يكون حارا فى محاولته أن يكون فاترا جهد استطاعته .

ويشيع فى الكتاب رنين الجرأة ، سواء جرأة الايمان أو الانكار التام ؛ وقد بدا الكتاب من عمل رجال يتخذون طريقا عمليا فى السير بين النقيضين — تحطيم الأصنام من ناحية وسهولة التسليم من ناحية أخرى ؛ رجال يحلون أعقد العقد فى يسر اذا كان الحل يحقق راحتهم ؛ لا يخشون أى نتيجة فى الناحية النظرية ، ولا أى نقص فى المنطق فى الناحية العملية ما داموا يخرجون عن المنطق عامدين ، ولمبررات كافية — وكانت النتائج التى وصلوا اليها محافظة ، مهدئة ، مطمئنة . أما الحجج التى أوصلتهم اليها فقد استقوها من أكثر كتاب اليوم تقدما . وكل ما ناضل لأجله هؤلاء الكتاب سلموا به ، ولكنهم فى أكثر الحالات أعطوا ثمار النصر لمن فى يدهم هذه الثمار فعلا .

ولعل الفقرة التى استرعت النظر أكثر من غيرها فى الكتاب فقرة من مقال عن مختلف نظم الزواج فى العالم . والى القارىء نص الفقرة :

« اذا أراد الناس منا أن نكون بنائين قلنا لهم انا نضع حسن التربية والتهذيب فى موضع حجر الزاوية من بنائنا . فهو ما نريده حاضرا فى عقول الجميع على الدوام حضورا شعوريا أو لاشعوريا بوصفه الايمان المحورى الذى يحيون فيه ويتحركون ويوجدون ، وبوصفه محكا لجميع الأشياء يمكننا من التعرف على طيبها أو خبثها بقدر ما تعين على هذا التهذيب أو على ضده .

فأن يهذب الرجل خير تهذيب وأن يهذب الآخرين ؛ وأن يكون وجهه ، ورأسه ، ويداه ، وقدماه ؛ وصوته ؛ ومسلكه ؛ وثيابه ؛ مقنعة

(*) كنيسة فى آسيا الصغرى اشتهرت بالفتور .

من هذه الناحية اقناعا لا يستطيع معه أحد أن يتطلع اليه دون أن يتبين أنه انحدر من أسرة طيبة وأنه فى أغلب الظن سيعقب ذرية طيبة — ذلك هو الغاية المنشودة . ويصدق هذا على المرأة أيضا . وأكبر عدد من هؤلاء الرجال المهذبين والنساء المهذبات ، وأعظم قدر من السعادة لهؤلاء الرجال المهذبين والنساء المهذبات ، هو الخير الأعظم ؛ والى هذا الهدف فلتتجه الحكومات كلها ، والأوضاع الاجتماعية كلها ، والفنون والآداب والعلوم كلها ، بطريق مباشر أو غير مباشر . والرجال والنساء الأتقياء هم الذين يستهدفون هذا لاشعوريا فى أوقات العمل أو اللهو على السواء » .

ولو آن ارنست نشر هذا الكتاب باسمه لولد ميتا قبل آن يرى النور فى ظنى ، ولكن الشكل الذى اختاره له كان فى ذلك الوقت يعدّ مثيرا للفضول ، وقد دس هنا وهناك فى خبث كما قلت اشارات ظن النقاد أن لا أحد يجرؤ عليها مالم يكن أسقفا ، أو على الأقل شخصا ذا سلطان . وذكر فى الكتاب أن من بين مؤلفيه قاضيا معروفا ، ولم يمض طويل زمن حتى ذاع أن ستة أو سبعة من أقطاب الأساقفة والقضاة تضافروا معا ليخرجوا كتابا يبز كتاب « المقالات والبحوث النقدية » وفى الوقت نفسه يضاد تأثير هذا الكتاب الذى كان فى ذلك الوقت ما يزال مشهورا .

والنقاد رجال لهم عواطف كعواطفنا ، وهم ككل الناس « يغتفرون كل شيء للعظماء » * . كان الكتاب فى الواقع ممتازا ، يحفل بالدعابة والنقد المنصف ، الادراك السليم ؛ وكانت تشيع فيه نغمة جديدة ، ولقد حمل الظن الذى ذاع بين القراء حينا فى أمر الأقلام التى شاركت فيه كثيرين على أن يقرأوه ، ولولا ذلك ما نظروا اليه قط . وقد جنّت به مجلة أسبوعية من أكثر المجلات اندفاعا وحماسة ، فأعلنت أنه أفضل ما كتب منذ

(*) Omne ignotum pro magnifico

ظهور كتاب پسكال « الرسـائل الريفية » . وكانت هـذه الصحيفة مرة فى كل شهر تقريبا ، تجد فيه صورة تزعم أنها أروع ما صوّره قلم كاتب منذ أيام كبار الأدباء القدامى ، أو نقدا تراه أبدع ما ظهر منـذ سويفت ، أو أى شيء هو أروع وأبدع ألف مرة من كل ما ظهر منـذ كذا وكذا! . ولو أن ارنست وضع اسمه على غلاف الكتاب وعرف هذا الناقد أن المؤلف نكرة ، لكتب ولا ريب بروح مختلفة كل الاختلاف . والنقاد يحبون أن يفكروا أنهم ربما كانوا بنقدهم يربتون على ظهر دوق أو حتى أمير من الأسرة المالكة ، ثم يتملقون تملقا مكشوفا حتى يتبين لهم أنهم انما كانوا يمدحون رجالا ليسوا فى العير ولا فى النفير . هنالك يخيب ظنهم ، فيقلبون لهم ظهر المجن .

ولم يكن لارنست درايتى بعالم الأدب ، وأخشى أن يكون رأسه قد دار قليلا حين صحا ذات صباح ليجد نفسه مشهورا . لقد كان ابن كرستينا ولعله ما كان يستطيع أن يفعل ما فعل لولا قدرته على الخيلاء فى غير موجب بين الحين والحين . على أنه ما لبث أن عرف كل شيء عن هذا الأمر ، فعكف فى هدوء على تأليف سلسلة من الكتب أصر فيها على أن يقول الأشـياء التى لا يريد أحد غيره أن يقولها حتى لو استطاع ، أو لا يستطيع حتى لو أراد .

على أنه جر على نفسه سمعة أدبية سيئة . قلت له ضاحكا ذات يوم انه شبيه بكاتب عاش فى القرن الماضى وقيل فيه انه ما من سمعة مثل سمعته تستطيع أن تؤذى مواهب مثل مواهبه .

وضحك قائلا انه يؤثر أن يكون شبيها بهذا الكاتب عن أن يكون شبيها بكاتب أو كاتبين عصريين فى وسعه أن يسميهما ، فى مواهبهما من الفقر ما لا يستطيع الابقاء عليه سوى سمعة كسمعتهما .

وأذكر أننى بعد نشر كتاب من هذه الكتب قابلت مصادفة مسز چب — وبهذه المناسبة أقول ان ارنست أجرى عليها راتبا أسبوعيا صغيرا . وكنت فى مسكن ارنست ، ولأمر ما تركنا وحدنا دقائق ، فقلت لها « لقد كتب مستر پونتفكس كتابا آخر يا مسز چب » .

فقالت « أصحيح هذا ؟ يا للسيد العزيز ؟ وهل الكتاب عن الحب ؟ » وحدجتنى الآثمة العجوز بنظرة خبيثة من تحت جفنيها العتيقين .

ولست أذكر ما الذى أثار ثرثرتها فى جوابى . ولعله لم يكن فيه شىء ، ولكنها مضت تثرثر بكل سرعتها قائلة ما مفاده ان بل أعطاها تذكرة للأوبرا . « وبالطبع ذهبت . ولم أفهم كلمة مما قيل لأنه كان كله بالفرنسية ، ولكنى رأيت سيقانهن . عجبا ؟ عجبا ؟ أخشى ألا أعيش فى هذه الدنيا طويلا ، فاذا ما رآنى مستر پونتفكس العزيز فى نعشى سيقول وا أسفى على العجوز المسكينة چب انها لن تتكلم كلامها الصريح بعد اليوم » ؛ ولكنى — وحياتك — لست عجوزا الى هذا الحد ، وأنا آخذ دروسا فى الرقص » .

وفى هذه اللحظة دخل ارنست وتغير مجرى الحديث . وسألته مسز چب هل هو ماض فى تأليف مزيد من الكتب بعد أن فرغ من هذا الكتاب . فأجاب « بالطبع ؛ وأنا دائما أؤلف الكتب ؛ وهذه هى مخطوطة كتابى التالى » ؛ ثم أراها كوما من الورق .

وصاحت « عجبا ، عجبا ، وهل هذه اذن مخطوطة ؟ كثيرا ما سمعتهم يذكرون المخطوطات ، ولكن لم يخطر لى قط أنى سأعيش لأرى بعضها بعينى . حسنا ! حسنا ! اذن فهذه مخطوطة حقا ؟ » .

وكان فى النافذة بعض أزهار من « الجرونيا » بدت ذابلة . وسأل ارنست مسز چب أيفهم فى الزهور . فقالت وهى تنظر نظرة من آفتك نظراتها وأفتنها « اننى أفهم لغة الزهور » وعندها صرفناها حتى يعن لها أن تتحفنا بزيارة أخرى ، وكانت تعرف أن هذه الزيارة من حقها بين الحين والحين لأن ارنست يحبها .

الفصل السادس والثمانون

والآن على أن أختم قصتى .

لقد كتبت الفصل السابق عقب الأحداث التى سجلتها فيه — أى فى ربيع ١٨٦٧ . فى ذلك التاريخ كانت قصتى كتبت الى هذه النقطة ، ولكنى غيرت فيها هنا وهناك من وقت لآخر . ونحن الآن فى خريف ١٨٨٢ ، فاذا كان علىّ أن أزيد عليه فلأفعل فى سرعة ، لأننى بلغت الثمانين ، وأنا لا أستطيع أن أخفى عن نفسى أننى لم أعد شابا برغم ما أتمتع به من عافية . لقد بلغ ارنست نفسه السابعة والأربعين وان كان لا يبدو فى هذه السن .

وهو اليوم أغنى مما كان فى أى وقت مضى ، لأنه لم يتزوج قط ، ولأن سندات « لندن ونورث — وسترن » التى يملكها تضاعفت تقريبا . ولقد اضطره عجزه التام عن انفاق دخله الى الادخار دفاعا عن النفس . وما يزال يعيش فى حى التمپل ويشغل نفس المسكن الذى استأجرته له حين تخلى عن متجره ، لأن أحدا لم يستطع أن يغريه باستئجار بيت مستقل . وهو يقول ان بيته حيث يجد الفندق الطيب . وحين يكون فى المدينة يحب أن يعمل ويعتكف . فاذا غادرها شعر أنه لم يترك وراءه كثيرا مما يمكن أن يضار بغيابه ، وهو لا يحب أن يقيد بمكان واحد ويقول « لا أعرف استثناء للقاعدة التى تقول ان شراء اللبن أرخص من اقتناء البقرة » .

وبما أننى ذكرت مسز چب ، فيحسن بى أن أذكر هنا ما بقى من حديث عنها — وهو قليل . لقد شاخت الآن جدا ، ولكن ما من حىّ يستطيع

أن يقول كم بلغت من العمــر — كما تقول هى فى لهجة ظافرة — لأن المرأة التى تسكن « أولدكنت رود » ماتت ، وأغلب الظن أنها حملت سرها معها الى القبر . ولكنها رغم هرمها تسكن فى بيتها نفسه ، وتجد مشقة فى أن تغطى نفقاتها ، ولكنى لست أظنها تأبه لهذا كثيرا ، ولقــد منعها عسرها هذا من الادمان المؤذى للشراب . ومن العبث محاولة مساعدتها بأكثر من دفع راتبها كل أسبوع ، ورفض السماح لها بتسلمه سلفا رفضا باتا . وهى ترهن مكواتها كل سبت نظير أربع بنسات ، ثم تستردها صباح كل اثنين نظير أربعة بنسات ونصف حين تتسلم راتبها ، وظلت تفعل هذا طوال السنوات العشر الأخيرة بانتظام عند حلول كل أسبوع . وما دامت لا تدع مكواتها تضيع فعلا فنحن نعلم أنها ما زالت قادرة على التغلب على مشكلاتها المالية بطريقتها الفوضوية ، ومن الخير أن تترك لتفعل هــذا . أما اذا ضاعت المكواة وأصبح استردادها محالا فاننا نعلم أنه قد حان الوقت للتدخل فى الأمر . على أن فى هــذه المــرأة شيئا يذكرنى دائما — ولا أدرى لماذا — بامرأة بينها وبين مسز چب أبعد ما يكون شبه بين شخصين — وأعنى بها أم ارنست .

وكانت آخر مرة تحدثت اليها فيها طويلا منذ نحو عامين حين حضرت الىّ بدلا من أن تذهب الى ارنست . وقالت انها رأت مركبة تقف عند الدار وهى على وشك الدخول الى السلم ، وأنها رأت أبا مستر پوتنفكس برأسه الهرم الشيطانى يطل من النافذة ، لذلك أتت الى ، لأنها لم تتبرج الا للزيارة ، ولكن لا لزيارة أمثاله . وصارحتنى بأن حظها قد تعثر جدا . فقد كان نزلاء بيتها يعاملونها أسوأ معاملة ، فيتركون البيت دون أن يدفعوا ايجارا ودون أن يتركوا وراءهم ولو قشة واحدة ، ولكنها اليوم كانت غاية فى المرح . ذلك أنها تناولت عشاء جميلا — قطعة من قديد الخنزير

وبسلة خضراء . وقالت انها بكت حتى اشتفت ، ولكنها غبية ، نعم غبية .

ثم واصلت حديثها وان كنت لم أستطع أن ألحظ أى ارتباط ظاهر بينه وبين حديثها الأول « وها هو ذا بل ، انه مما يحز فى نفسى أن أراه وقد اعتاد الذهاب الى الكنيسة ، واستعدت أمه للقاء المسيح الى آخره .. ، وهى لن تموت الآن ، وتشرب نصف زجاجة من الشمبانيا فى اليوم ، ثم ذلك الواعظ جريج يسأل بل هل أنا حقيقة مستهترة ، وهو لا يدرى أننى حين كنت صغيرة كنت أطرقع أصابعى لأى عربة ليلية تمر فى هوبرن ، وأنا على استعداد لأن أفعل هذا الآن لو تزينت وكانت لى أسنانى . لقد فقدت واتكنز العزيز المسكين ، ولكن بالطبع لم يكن فى الاستطاعة تلافى هذا ، ثم فقدت عزيزتى روز . لقد كان غباوة منه أن يخرج ويركب عربة مكشوفة ويصاب بنزلة شعبية . ولم يكن يخطر ببالى وأنا أقبل عزيزتى روز فى پولنز پاسدچ وهى تعطينى قطعة اللحم أننى لن أراها ثانية ، وكان صديقها الشاب مغرما بها أيضا وان كان رجلا متزوجا . ولعلها الآن قد تحطمت . ولو استطاعت أن تنهض وترانى باصبعى هذه المصابة لبكت ولقلت لها « لا بأس يا « كتكوتة » فاننى بخير » . رباه ! انها ستمطر . كم أكره ليلة السبت الممطرة — والنساء المساكين يرتدين جواربهن البيضاء اللطيفة ويخرجن فى طلب القوت » الخ ..

ومع ذلك فالشيخوخة لا تذبل هذه الخاطئة العجوز الفاجرة كما قد يحسب بعض الناس . فأيا كانت الحياة التى عاشتها ، فهى تناسبها تماما . وهى أحيانا تفهمنا أنها ما زالت تلتمس كثيرا ، وأحيانا تتغير لهجتها تغيرا تاما . فتقول انها لم تسمح حتى لچوكنج بأن تمس شفتاه شفتيها فى السنوات العشر الأخيرة ، وأنها تؤثر على ذلك أن تأكل شريحة من الضأن فى أى يوم . « ولكن آه لو رأيتنى وأنا حسناء بنت سبع عشرة سنة .

كنت شبيهة كل الشبه بأمي العزيزة المسكينة ، وكانت امرأة جميلة وان كان هذا القول ليس لائقا بي . وكان لها أسنان رائعة . لقد كان خطيئة أن تدفن بأسنانها » .

ولم أعرف الا شيئا واحدا تزعم أنه يصدمها — ذلك أن ولدها توم وزوجته توپسي يعلمان طفلهما الشتم . وقالت « أوه ! هذا فظيع جدا ، وأنا لا أعرف معنى هـــذه الألفاظ ، ولكنى أقول له انه سكير غبى » . وفى اعتقادى أن العجوز تحب هذا فى الواقع .

وقلت لها « ولكن زوجة توم لم يكن اسمها فيما أعلم توپسى . كنت تذكرين أن اسمها فيب » .

فأجابت « آه ! نعم ، ولكن فيب كان سلوكها سيئا ، فأصبحت توپسى هى الزوجة الآن » .

وتزوجت ألس ابنة ارنست بالصبى الذى كان رفيقها فى اللعب منـــذ أكثر من عام . وأعطاهما ارنست كل ما طلباه وأكثر . ولقد أتحفاه فعلا بحفيد ، ولست أشك فى أنهما سيتحفانه بعدد أكبر من الأحفاد . ويملك جورجى باخرة جميلة اشتراها له أبوه وهو لم يتجاوز الحادية والعشرين . ولقد بدأ الملاحة وهو فى نحو الثالثة عشرة مع الشيخ رولنجز وچاك فى مركب نقل يحمل الطوب من روتشستر الى أعالى التيمز ؛ ثم اشترى أبوه له ولچاك مركبى نقل خاصين بهما ، وبعد ذلك اشترى لهما سفينتين ، ثم باخرتين . ولست أعلم على التحقيق كيف يكسب أصحاب البواخر قوتهم ؛ ولكنه يصنع ما يصنعون ، فتغل له الباخرة كما سمعت ربحا طيبا جدا . وهو شديد الشبه بأبيه فى وجهه ، ولكن ليس فيه ذرة من أى موهبة أدبية — على قدر ما استطعت أن أتبين ؛ وهو صاحب نكتة ، وله حظ كبير

من الادراك السليم ، ولكن غريزته من النوع العملي ما فى ذلك ريب . ولعله يصور لى ما كان ثيوبولد يمكن أن يكونه لو اشتغل ملاحا أكثر مما يذكرنى بأرنست . وكان من عادة أرنست أن يذهب الى باترزبى ويمكث مع أبيه أياما مرتين كل عام الى أن مات ثيوبولد ، وظل الاثنان على علاقات طيبة جدا بالرغم من « الكتب الفظيعة التى ألفها ارنست پونتفكس » كما يقول القساوسة المجاورون لثيوبولد . ولعل ما كان بينهما من انسجام ، أو على الأصح من عدم التنافر ، سببه أن ثيوبولد لم يقرأ أى كتاب من كتب ولده ، وبالطبع لم يشر أرنست قط الى هذه الكتب فى حضرة أبيه . وكان الانسجام بينهما موفورا كما قلت ، ولكن ما من شك فى أن زيارات ارنست كانت قصيرة وغير كثيرة . ومرة رغب ثيوبولد الى ارنست فى أن يحضر طفليه ، ولكن ارنست كان يعرف انهما لن يحبا هذه الزيارة ، لذلك لم يجب طلبه .

وكان ثيوبولد يأتى الى لندن أحيانا فى مهام صغيرة فيزور مسكن ارنست ، ويأتيه عادة بخصتين ، أو كرنبة ، أو نصف دستة من اللفت الناضج الملفوف فى قطعة من الورق الأسمر ، ويخبر ارنست أنه يعلم أن الخضر الطازج غير ميسور فى لندن ، وأنه لذلك جلب اليه بعضه . وكثيرا ما أفهمه ارنست أنه لا حاجة به للخضر ، وأنه يفضل ألا يأتيه بشىء منه . ولكن ثيوبولد كان يصر على ذلك مدفوعا فى ظنى بالرغبة فى عمل شىء لا يحبه ولده ، ولكنه شىء أصغر من أن يأبه له .

وعاش ثيوبولد حتى السنة الماضية ، حين وجد ميتا فى فراشه فى الصباح بعد أن كتب الرسالة التالية لولده :

« عزيزى ارنست ، — ليس عندى شىء خاص أنبئك به ، ولكن

رسالتك ظلت أياما فى سجن الرسائل غير المردود عليها ، أعنى جيبى ، وقد حان الوقت للرد عليها .

أما صحتى فجيدة جدا ، وأستطيع مشى أميالى الخمسة أو الستة دون عناء ، ولكنى لا أدرى كم يطول هذا فى سنى ، والزمن يجرى سريعا . لقد ظللت طوال هذا الصباح مشغولا بشتل النباتات ، ولكن الجو رطب هذا المساء .

ما هذا الذى تريد هذه الحكومة الرهيبة أن تفعله بارلندة ؟

لست أتمنى بالضبط سقوط مستر جلادستون ، ولكن لو أن ثورا هائجا طارده الى هناك فلا يعود بعدها ، فاننى لن آسف عليه . وليس اللورد هارتنجتون بالضبط هو الرجل الذى أريد أن أضعه فى مكانه ، ولكنه سيكون أفضل جدا من جلادستون .

اننى أفتقد أختك تشارلت افتقادا أعجز عن وصفه . لقد كانت تمسك حسابات بيتى ، وكنت أستطيع أن أفضى اليها بهمومى الصغيرة كلها ، والآن وقد تزوج چوى أيضا فأنا لا أعلم ما أصنع ان لم يأت واحد منهما أحيانا ويعنى بى . وعزائى الوحيد أن تشارلت ستسعد زوجها وأنه أجدر ما يمكن أن يكون زوج بها .

والدك المحب

ثيوبولد پوتنفكس

ويجدر بى أن أقول هنا انه وان كان حديث ثيوبولد عن زواج تشارلت يشعر بأنه تم حديثا ، فانه فى الواقع تم قبل ذلك بنحو ست سنوات ، وكان عمرها اذ ذاك حوالى الثامنة والثلاثين ، وزوجها يصغر عنها بنحو سبع سنوات .

ولم يشك أحد في أن ثيوبولد فاضت روحه في هدوء وسلام خلال نومه . فهل يمكن أن يقال عن رجل مات هذه الميتة أنه مات اطلاقا ؟ لقد أبدى ظواهر الموت لغيره من الناس ، أما هو فلم يمت ، بل لم يفكر حتى في أنه موشك على الموت . وهذا لا يعدو أن يكون نصف ممات ، ولكن لنذكر أن حياته أيضا لم تكن أكثر من نصف حياة . لقد أبدى الكثير من ظواهر الحياة ، لذلك كان أيسر لنا أن نعتبره عاش من أن نعتبره لم يولد على الاطلاق ، ولكن الذي يجعل هذا ممكنا هو عدم جمود الارتباطات .

على أن هذا لم يكن هو الحكم العام عليه ، والحكم العام في الغالب أصدق الأحكام .

وأغرق ارنست طوفان من عبارات العزاء والاحترام لذكرى أبيه . فقال الدكتور مارتن الطبيب الشيخ الذي أتى بارنست الى هذه الحيــاة « انه لم يفه قط بكلمة سوء ضد أي انسان . وكل من اتصل به لم يكن يعجب به فحسب ، بل يحبه أيضا » .

وقال محامي الأسرة « انني لم أتصل في حياتي برجل أكثر أمانة وانصافا واستقامة في المعاملة منــه — ولم أر أكثر منه دقة في الوفــاء بجميع التزاماته » .

وكتب الأسقف لجوى يقــول في رســالة تفيض حرارة « سنفتقده افتقادا محزنا » . أما الفقراء فجزعوا لموته . وقالت امرأة عجوز منهم « ان البئر لا تفتقد الا اذا جف ماؤها » . ولم تقل غير ما كان يشعر به الجميع . وكان ارنست يعلم أن هذا الحزن العام غير مفتعل ، شأن الحزن عــلى خسارة لا يمكن تعويضها بسهولة . وشعر بأنه ليس هناك غير ثلاثة أفراد في هذه الدنيا يشاركون في غير اخلاص في هذا المديح والاطراء ، وهم

الثلاثة الذين كانوا أعجز الناس عن اظهار الافتقار الى العطف . وأنا أعنى جون وتشارلت وارنست نفسه . وشعر ارنست بالحقد على نفسه لأنه اتفق مع جوى أو تشارلت فى أمر ما ، وبالامتنان لأنه يجب أن يخفى هذا الاتفاق جهد استطاعته ، لا لشىء صنعه به أبوه — فهذه المظالم انقضى عهدها منذ زمان فلم يعد يذكرها — بل لأن أباه لم يتح له قط أن يشعر من نحوه كما كان دائما يحاول أن يشعر . فما دام الاتصال بينهما قاصرا على الأمور المألوفة العادية كان كل شىء يسير على ما يرام — ولكن ما أن يخرج عن هذه الأمور ولو قيد أنملة حتى يشعر فى كل مرة بأن غرائز أبيه تقاوم غرائزه على الفور . فاذا هاجمه خصومه اتكأ أبوه جهد استطاعته على كل ما يقولونه . واذا لقي أى صد أو عقبة بان السرور على أبيه بشكل واضح . كان ما قاله الطبيب الشيخ من أن ثيوبولد لا يتكلم بسوء عن أى انسان صادقا كل الصدق فيما يتصل بغير ارنست من الناس ، ولكنه كان على يقين من أن انسانا من الناس لم يؤذ سمعته كما آذاها أبوه بطريقة هادئة ، على قدر ما جرؤ . وهى حالة شائعة جدا ، وطبيعية جدا . فكثيرا ما يحدث أنه حين يكون الابن محقا يكون الأب مخطئا ، ولن يسمح الأب بهذا ما دام فى طاقته أن يمنعه .

على أنه كان عسيرا جدا أن يصل المرء الى أس البلاء فى الحالة التى نحن بصددها . فلم تكن العلة أن ارنست سجن ، فقد نسى ثيوبولد كل شىء عن هذا السجن بأسرع مما ينساه تسعة أعشار الآباء . ولا ريب فى أن بعضه كان راجعا الى تضارب فى مزاجيهما ، ولكنى أعتقد أن علة العلل هى أن ارنست استقل عن أبيه وأثرى ثراء طائلا وهو ما يزال صغيرا جدا ، ومن ثم حرم أبوه الشيخ من قدرته على أن يعاكسه ويخمشه كلما يشعر أن من حقه أن يفعل . ذلك أن حب المعاكسة بطريقة صامتة خفية

ما دام يشعر أنه فى مأمن ظل من صميم طبعه منذ العهد الذى أخبر فيه مربيته بأنه يبقيها فى البيت عمدا ليعذبها . وأحسب أن هذه حالنا جميعا . وأنا واثق على أى حال أن أكثر الآباء يشبهون ثيوبولد ، لا سيما اذا كانوا من رجال الدين .

وأنا موقن أنه فى حقيقة الأمر لم يكن يحب چوى أو تشارلت مثقال ذرة أكثر مما يحب ارنست . انه لم يحب أى انسان أو أى شيء ، فاذا أحب انسانا على الاطلاق فذلك خادمه الخاص ، الذى كان يرعاه اذا مرض ، ويعنى به عناية كبيرة ، ويؤمن بأن سيده خير الناس وأكثرهم كفاية فى هذه الدنيا كلها . ولست أدرى هل ظل خادمه المقرب الأمين على رأيه هذا بعد أن فتحت وصية ثيوبولد فوجد أى تركة خلّف له . أما أبناؤه فان الوليد الذى مات يوم ميلاده كان الوحيد الذى رأى ثيوبولد أنه عامله كما يليق بالبنين أن يعاملوا والديهم . وأما والديهم . وأما كرستينا فانه لم يزعم قط بعد موتها أنه افتقدها ولم يذكر اسمها قط ؛ ولكن هذا اتخذ دليلا على أنه أحس فقدها احساسا أشد من أن يسمح له بالحديث عنها . ولعل الأمر كان كذلك ، ولكنى لا أظن .

وبيعت مخلفات ثيوبولد بالمزاد ، وكان بينها « التنسيق بين العهدين القديم والجديد » ، وهو الكتاب الذى قضى سنوات كثيرة يصنّفه بدقة بالغة ، ومجموعة ضخمة من مخطوطات مواعظه — وكانت هذه فى الواقع كل ما كتب فى حياته . ولقد بيعت هذه المخطوطات وكتاب التنسيق بتسعة بنسات للحمل . وأدهشنى أن أسمع أن چوى لم يبذل الشلنات الثلاثة أو الأربعة التى كانت تشترى هذا كله ، ولكن ارنست يقول ان چوى كان فى كراهيته لأبيه أشد ضراوة مما كان ارنست فى أى وقت ، لذلك أراد أن يتخلص من كل شيء يذكره بأبيه .

عرف القارىء مما سبق أن چوى وتشارلت متزوجان . ولچوى أبناء ، ولكن الاتصال بينه وبين ارنست نادر جدا . وبالطبع لم يأخذ ارنست شيئا من تركة أبيه بمقتضى وصيته ، وكان هذا مفهوما منذ زمن طويل ، ومن ثم فقد تهيأ لچوى وتشارلت معاش طيب .

وما زالت تشارلت حاذقة حذقها القديم ، وهى تدعو ارنست أحيانا ليأتى ويمكث معها ومع زوجها قرب دوڤر ، وفى ظنى أنها تدعوه لأنها تعلم أن الدعوة لن تلذّه . وتشيع فى خطاباتها كلها نغمة مترفعة ؛ ومن العسير أن تضع اصبعك عليها ، ولكن ارنست لا يتلقى منها رسالة دون أن يشعر أن لكاتبتها اتصالا مباشرا بملاك . وقال مرة لنفسه « لابد أن يكون هــذا الملاك مخلوقا رهيبا ان كان له يد فى جعل تشارلت ما هى عليه ! » .

وكتبت له منذ وقت غير طويل تقول « ما رأيك فى تغيير قصير هنا على شاطىء البحر ؟ ان قمة الهضاب الساحلية ستزدهر قريبا بأزهار الخلنج : ولابد أن الرتم قد ظهر فعلا ، وكذلك الخلنج فى ظنى ، وذلك يستنتج من حالة التل فى ايول ؛ على أى حال سواء كان هناك خلنج أو لم يكن فالهضاب جميلة أبدا ، فاذا أتيت وجدت حجرتك دافئة أنيقة فتستطيع أن تجد لك ركنا مريحا . وثمن تذكرة ذهاب واياب مدتها شهر هو تسعة عشر شلنا وستة بنسات . فهل لك أن تتخذ القرار الذى يروق لك ، فان أتيت آمل أن نحاول جعل زيارتك مشرقة ؛ ولكن يجب ألا تشعر بمضايقة اذا شعرت بعدم الميل للمجىء فى هذه الناحية » .

وقال لى ارنست وهو يضحك حين أرانى هذه الرسالة « حين أصاب بكابوس ثقيل أحلم أن علىّ أن أمكث مع تشارلت » .

والفكرة عن رسائلها أنها مكتوبة بغاية الاتقان ، وأعتقد أنه يقال فى

محيط الأسرة أن لتشارلت قدرة أدبية صادقة تفوق كثيرا قدرة ارنست . وأحيـانا يخيل الى أنها تقذف بالكتابة اليـه كأنها تقـول له « والآن — لا تحسب أنك الوحيد بيننا الذى يستطيع أن يكتب — فاقرأ هذا ! وان أردت قطعة من الكتابة الوصفية القوية المؤثرة لكتابك التالى ، تستطيع أن تفيد منه كما تشاء » . وربما كانت كتابتها جيدة جدا ، ولكنها وقعت تحت سلطان هذه الألفاظ « أرجو » و « أظن » و « أشعر » و « أحاول » و « مشرق » و « صغير » ، وهى لا تستطيع أن تكتب صفحة دون أن تدخل فيها جميع هذه الألفاظ ، وتدخل بعضها غير مرة . ونتيجة هذا كله أن أساوبها غدا رتيبا مملا .

وما زال ارنست مغرما بالموسيقى غرامه القديم ، بل لعل هذا الغرام زاد ، ولقد أضاف فى السنوات الأخيرة التلحين الموسيقى لهواياته الأخرى . وما زال يجد فى هذا بعض العسر ، ولا يفتأ يعانى من الدخـول فى مقام « جـ » العالى بعد أن يبدأ بمقام « جـ » ويعجز عن أن يعود اليه ثانية .

وقال لى « ان الدخول فى مقام « جـ » العالى شبيه بأنثى لا يحميها أحد تسافر فى سكة حديد لندن ، تجد نفسها فى « شيردز بوش » دون أن تعلم تماما أين تريد أن تذهب . فكيف يتسنّى لها أن تعود سالمة الى « مواصلة تشايهام » وحتى عودتها لها لا تفيدها ، لأن هذه المواصلة شبيهة بالمقام السابع الخفيض ، الذى يقبل تغييرات كثيرة فى ذبذبات النغم بحيث تستطيع أن تحيله الى كل النهايات الموسيقية الممكنة » .

والحديث عن الموسيقى يذكرنى بفقرة صغيرة فى حديث جرى منـذ عهد غير بعيد بين ارنست ومس سكنر ، وهى كبرى بنات دكتور سكنر . وقد ترك دكتور سكنر رفبرو منذ زمان طويل وأصبح رئيس كندرائية

فى احدى المقاطعات الوسطى — وهى وظيفة كانت تلائمه تمام الملاءمة . واذ وجد ارنست نفسه مرة على مقربة منه فقد زاره رعاية للمعرفة القديمة ، وأكرم الدكتور ضيافتهُ على الغداء .

وقد بيّضت الأعوام الثلاثون التى مضت حاجبى الدكتور الغزيرين — أما شعره فلم تقو على تبييضه . وأعتقد أنه لولا هذا الشعر المستعار لكان قد رسم أسقفا .

أما صوته وطريقة كلامه فلم يطرأ عليهما تغيير ، ولما أبدى ارنست ملاحظة على خريطة لروما معلقة فى البهو ، وتكلم عرضا عن الكويرينال أجاب الدكتور بكل عظمته المألوفة : « أجل الكويرينال — أو كما أفضل أنا أن أسميه الكوريرانيال » . وبعد هذا الانتصار تنفس تنفسا طويلا من طرفى فمه ، ثم قذف به ثانية فى وجه السماء ، كما كان يفعل فى عنفوانه أيام نظارة المدرسة . حقيقة أنه قال مرة أثناء الغداء « يكاد يكون من المستحيل أن يفكر المرء فى أى شىء آخر » ، ولكنه صحح نفسه على الفور واستبدل بهذه العبارة الكلمات الآتية « يكاد يكون من المستحيل أن يتدبر المرء أفكارا غير مرتبطة بالموضوع » ، وبعد هذا بدا أنه شعر براحة أعظم . وشهد ارنست المجلدات المألوفة التى احتوت آثار الدكتور سكنر على الرفوف فى حجرة المائدة ببيت رئيس الكتدرائية ، ولكنه لم ير نسخة من كتابه « هومر أم الكتاب المقدس — أيهما ! » .

وقالت مس سكنر لارنست خلال الغداء « وهل لازلت على ولعك القديم بالموسيقى يا مستر پونتفكس ؟ » .

« نعم ببعض ألوانها يا مس سكنر ، ولكنك تعلمين أننى لم أحب الموسيقى الحديثة قط » .

« أليس هذا رهيبا بعض الشيء ؟ — وألا تظن أنه — » . وكانت على وشك أن تضيف « ينبغي لك أن تحبها ؟ » ولكنها لم تنطق بهذه الألفاظ ، لأنها شعرت بأن فى عبارتها ما يكفى لافهامه المعنى المراد .

« وددت لو أحببت الموسيقى الحديثة ، ولقد حاولت طوال حياتى أن أحبها ، ولكنى كلما تقدمت فى السن قلّ نجاحى فى هذه المحاولة » .

« وبمن تظن أن الموسيقى الحديثة تبدأ من فضلك ؟ » .

« بسبستيان باخ » .

« وألا تحب بيتهوفن ؟ » .

« لا ، كنت أظننى أحبه حين كنت أصغر سنا ، ولكنى أعلم الآن أننى فى الحقيقة لم أحبه قط » .

« عجبا ! كيف تستطيع أن تقول هذا ؟ انك لا تستطيع أن تفهمه — وما كنت لتقول هذا لو فهمته — أما أنا فنغمة بسيطة من بيتهوفن تكفينى . انها السعادة مجسمة » .

وأضحك ارنست ما بينها وبين أبيها من شبه عائلى قوى — وهو شبه ازداد حين كبرت ، وامتد حتى الى صوتها وطريقة كلامها . وتذكر كيف سمعنى آصف دور شطرنج لعبته مع الدكتور فى الأيام الخوالى ، وخيّل اليه أنه يسمع بأذن الخيال مس سكنر تقول كأنها تردد مرثية على شاهد قبر (*) .

« انتظر
فربما أخذت بعد قليل
نغمة بسيطة من بيتهوفن »

(*) أنظر الفصل السابع والعشرين .

أو شطرا ضئيلا
من لحن من ألحان مندلسون بلا كلام » .

ولما انفرد ارنست بعد الغداء نصف ساعة أو نحوها برئيس الكتدرائية أغدق عليه من المديح والاطراء ما أبهج الشيخ وتملقه فوق ما ألف . فقام وانحنى وقال :

« هذه العبارات غالية جدا فى نظرى » .

وأجاب ارنست « انها يا سيدى ليست الا جزءا يسيرا مما يشعر به نحوك أى تلميذ من تلاميذك القدامى ولا ريب » وراح كلاهما ينحنى كأنهما يرقصان المينويت فى طرف مائدة حجرة الطعام أمام النافذة القديمة التى تطل على المخضرة الناعمة . وهنا انصرف ارنست ، ولكنه بعد أيام كتب له الدكتور رسالة وأخبره أن نقاده كانوا « قساة عاجزين »(*) وهم فى الوقت نفسه « لا يتركون أى أثر » (**) .

وتذكر ارنست الكلمة اليونانية الأولى « قساة » وأدرك أن الكلمات الأخرى شبيهة بها ، واذن فكل شىء على ما يرام . وبعد شهر أو شهرين ضم الدكتور سكنر الى آبائه .

قلت لارنست « كان أحمق عريقا فى الحماقة ، وكان يجب ألا تلين له » . وأجاب « لم يكن ذلك فى وسعى ، فقد بلغ من الهرم مبلغا جعل الحديث معه أشبه باللعب مع طفل » .

وقد يرهق ارنست نفسه بالعمل أحيانا كما يفعل كل أصحاب العقول النشيطة ، فيلتقى فى حلمه بين الحين والحين بالدكتور سكنر أو ثيوبولد

(*) فى الأصل باليونانية
(**) فى الأصل باليونانية

فى معارك كلها ضراوة وتعنيف. وفيما خلا ذلك لا يستطيع أحد من هذين السيدين الفاضلين الآن أن يزعجه بأكثر من هذا .

أما بالنسبة لى فلقد كان وما يزال ولدا وأكثر من ولد ؛ ويساورنى أحيانا بعض الخوف — كما يحدث مثلا وأنا أحدثه عن كتبه — من أننى ربما كنت له أكثر شبها بالأب مما كان ينبغى ؛ فاذا كنت فعلت فأعتقد أنه غفر لى ، وكتبه هى مبعث الشقاق الوحيد بيننا ؛ فأنا أريده أن يكتب كما يكتب سائر الناس ، وألا يغضب هذا العدد الكبير من قرائه ؛ وهو يقول انه لا يستطيع أن يغيّر طريقة كتابته أكثر مما يغير لون شعره ، وأنه يجب أن يكتب كما يكتب أو يكف عن الكتابة اطلاقا .

وجمهور القراء على العموم لا يحبونه . فهم يسلمون بأنه موهوب ، ولكن أكثرهم يرون موهبته من نوع غريب غير عملى ، ومهما يكن جادا فى كلامه فانه يتهم دائما بأنه يسخر . وقد نجح كتابه الأول لأسباب ذكرتها من قبل ، ولكن واحدا من كتبه الأخرى لم يلق أكثر من السقوط المشرف ، فهو واحد من هؤلاء المؤلفين غير المحظوظين الذين يلقى كل كتاب من كتبهم تهكم نقاد الأدب حالما يظهر ، ولكنه يصبح « مادة ممتازة للقراءة » حالما يتبعه بكتاب آخر يستطيعون ذمه بدوره .

وهو لم يدع ناقدا الى الغداء معه طوال حياته . وقد أخبرته مرات ومرات أن هذا جنون ، وهذه هى العبارة الوحيدة التى أستطيع أن أقولها له فأغضبه .

ولكنه يقول لى « ماذا يهمنى ان كان الناس يقرءون كتبى أو لا يقرءونها ؟ قد يكون هـذا مهما فى نظرهم هم — ولكن عندى من المـال الموفور ما لا يجعلنى أطلب المزيد ، واذا كان فى الكتب أى مادة فلابد أن تشق لها طريقا بعد قليل . ولست أعلم ، ولا يهمنى كثيرا ، أهى جيدة أم رديئة .

فأى رأى يستطيع انسان عاقل أن يكونه عن عمله ؟ لابد من أن يكتب بعض النـاس كتبا سخيفة ، كما أنه لابد من وجـود طلبة أوساط بين الجامعيين ، ووجـود ناخبين من الدرجة الثـالثة . ولِمَ أشكو من أنني من أوساط الكتاب ؟ فاذا لم يهبط الانسان عن هذا الوسط هبوطا تاما فليحمد حظه — ثم ان الكتب لابد لها من أن تقف معتمدة على نفسها يوما ما ، اذن فكلما عجّلت بهذا كان خيرا » .

وتحدثت عنه منـذ أمد غير بعيـد الى ناشره فقال لى « ان مستر پوتنفكس « رجل الكتاب الواحد » * ، ولكن لا جدوى من أن يخبره المرء بهذا » .

ورأيت أن الناشر ، وهو خبير بصناعته ، فقد كل ايمانه بمكانة ارنست الأدبية ، ورأى فيه رجلا مقطوع الأمـل فى نجاحه لأنه حقق مرة نصرا ملحوظا . وواصل الناشر كلامه قائلا « انه فى موقف منعزل جدا يا مستر أوفرتن . فهو لم يكوّن صداقات وقد خلق له أعداء لا من رجال الدين وحسب بل من اخوانه المشتغلين بالعلم والأدب أيضـا . وتلك سياسة لا تجدى فى أيامنا هذه . فاذا أراد رجل أن يفلح فلابد له من أن ينتمى الى جماعة ، أما مستر پوتنفكس فلا ينتمى لأى جماعة — بل ولا لأى ناد » .

وأجبته « ان مستر پوتنفكس يشبه عطيلا تمام الشبه ، مع فارق واحد — هو أنه لا يكره فى حكمة بل فى اسراف . ولو عـرف كبار العـلماء والأدباء وعرفوه لكرههم ؛ اذ ليس بينه وبينهم وحدة طبيعية ، فلو وصل بينهم وبينه لصارت أواخره شرا من أوائله . وغريزته تنبئه بهذا ، لذلك فهو يبتعد عنهم ، ويهاجمهم كلما رآهم يستحقون الهجوم — ربما على أمل أن يستمع اليه جيل أصغر سنا باقبال يفوق اقبال الجيل الحاضر » .

* homo unius libri .

فقال الناشر « أيمكن أن يتصور انسان شيئا أكثر من هذا بعدا عن الواقع والحكمة ؟ » .

ويجيب ارنست عن هذا كله بكلمة واحدة هى « انتظر » .

تلك آخر مرحلة فى تطور صديقى . صحيح أنه لا يغامر الآن بمحاولة تأسيس كلية للأمراض الروحية ، ولكنى أترك القارىء ليقرر بنفسه ، أليس هناك شبه عائلى قوى بين ارنست صاحب كلية الأمراض اللاهوتية وارنست الذى يصر على مخاطبة الجيل القادم لا الجيل الحاضر ؟ أما هو فيقول انه واثق أن لا شبه هناك ، ثم يتناول القربان مرة كل عام بانتظام ارضاء لربة النقمة « نمسس » مخافة أن يتحمس مرة ثانية لأى موضـــوع . وهذا يتعبه بعض الشىء ، ولكنه يقول أحيانا « ليست هناك آراء تستحق أن يؤمن بها المرء مالم يعرف كيف ينكرها فى سهولة ويسر اذا اقتضت الضرورة فى سبيل السماحة والمحبة » . وأما فى مجال السياسة فهو محافظ اذا اتصل الأمر بحقه فى التصويت وبمصالحه . وفيما عدا ذلك من اعتبارات فهو راديكالى متطرف . ولعل أباه وجده ما كانا يستطيعان فهم نفسيته أكثر مما يفهمان اللغـــة الصينية ، ولكن الذين يعرفونه معـــرفة وثيقة لا يريدونه شديد الاختلاف عما هو عليه فعلا .



مارس سنة ٤

الثمن ٢٦ قرشا